

مركز دراسات الدكتوراه: اللغات
والتراث والتهيئة المجالية
مختبر التراث: دراسة وصيانة وانقاذ
محور: التاريخ



المملكة المغربية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
سـايس - فـاس

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية في موضوع :



إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الطالب:

محمد العمراني

معاذ البكوري

رقم التسجيل : 58CED/14

تاريخ المناقشة : 06/12/2017

أسماء لجنة المناقشة من السادة الأساتذة :

رئيسا
عضوا
عضوا
مشرفا ومقررا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس

الدكتور الحاج موسى عوني
الدكتور محمد حاتمي
الدكتور محمد جادور
الدكتور محمد العمراني

الجزء الأول

السنة الجامعية 2017-2018

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح أبي العزيز، الشامخ في طموحه، الكبير في تطلعاته، الذي لم يعيش
تحقق أحلامه، لكنه يسمع في كل حين، دعاء أنجاله.

إلى أمي الحنون التي أنارت دربي في صمت، وعاشت من أجل أن تفتح في الأفق
المعتم، نوافذ تضيء هذا المدى.

إلى أعمامي الذين أحبهم، إلى أخواتي: صفاء وزينب وحفصة: الرفقة البهية في
كل هذا الوقت.

إلى زوجتي التي جعلتني أعشق لذة البحث وشغف السؤال.

إلى مهجة روعي ومقلتي عيني الصغيرتين الوديعتين: آلاء وآية.

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع، عنوانا للمحبة وعربون وفاء.

كلمة شكر

لا يفوتني في البداية أن أحمد الله تعالى على نعمه وكرمه وتيسيره، وأحمده على ما وفقني به إلى إنجاز هذا العمل، وقد متعني بالصحة والعافية لإتمامه على الوجه الذي ارتضيته له، فإذا شاب هذا العمل نقص أو تقصير في تعميق النظر والبحث والدراسة، فهو من عندي، وإن كان فيه بعض من جوانب الجودة والتميز والجودة، فهو بفضل الله، وبفضل توجيهات أستاذي الفاضل الدكتور محمد العمراني وتشجيعه لي على إنجاز هذا العمل وإتمامه. لقد أعطاني من وقته وعنايته ما به استقام عمود هذا البحث، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

كما لا يفوتني أن أشكر أعضاء اللجنة العلمية الموقرة، المكلفة بمناقشة هذا البحث، بتشريفهم لي للقيام بهذه المهمة وتجشمهم عناء قراءة هذا العمل. ولا شك أن ملاحظاتهم وتوجيهاتهم ستشكل بالنسبة لي، إضافات وازنة ستغني محاور هذا البحث ومباحثه.

كما أشكر جل الأسر الغمارية التي ساعدتني في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر الأستاذ محمد بن عبد المومن الذي أمدني بوثائق مهمة وفتح لي باب خزانته، فله مني كل المودة والمحبة. وأتوجه بالشكر الجزيل إلى عمي الأستاذ نورالدين البكوري الذي ساعدني وشجعني على المضي قدماً لإتمام إنجاز هذا العمل.

والشكر موصول إلى كل من أمدني بمعلومة أو زودني بوثيقة أو أفادني خلال المناقشات بفكرة، أو يسر لي أمراً، أو قضى حاجتي، لتسهيل إنجاز البحث ... فهم كثير، لا يسع المقام لذكر أسمائهم. فلهم مني جميعاً، جزيل الشكر والثناء.

الرموز المختصرة

Centre national de la Recherche Scientifique	C.N.R.S	خ.ع.ت	الخزانة العامة بتطوان
Revue de Géographie du Maroc	R.G.M	خ.س.ر	الخزانة الحسنية بالرباط
Revue de L'occident Musulman et de la Méditerranée	R.O.M.M	م.و.م	مديرية الوثائق الملكية بالرباط
Bulletin Economique et Social du Maroc	B.E.S.M	م.و.ر	المكتبة الوطنية بالرباط
Société Marocaine des Etudes Réunies	S.M.E.R	م.س	مرجع سابق
Consejo Superior d'Investigations Cientificas	C.S.I.C	ن.م	نفس المرجع أو المصدر
Institut National d'Aménagement et d'Urbanisme	I.N.A.U	ن.ص	نفس الصفحة
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines	F.L.S.H	د.ت	دون تاريخ الطبع
Université Hassan II de Casablanca	U.H.2	د.ط	دون طبعة
Université Mohamed V	U.M.V	هـ	هجرية
Éditions	Éd	م	ميلادية
Archivo Donacion Carlos Pereda Roig	A.D.C.P	-	-
Archivo Général de L'administracion, Alcalá de Hinares	A.G.A	-	-

مقدمة

لا يجادل أحد في أهمية الدراسات المنوغرافية، وخاصة تلك التي تجعل من مادة التاريخ موضوعها. وبالرجوع إلى الأعمال والبحوث المنجزة في الجامعات المغربية، نتأكد من ذلك، فمنذ تخرج الأفواج الجامعية الأولى، تعرفنا على أشكال وأصناف من المنوغرافيات المهمة بدراسة القبائل والمدن والمؤسسات الدينية.

وسنعرض فيما يأتي للدوافع والأسباب التي جعلتنا نخوض في موضوع البحث المعنون بـ "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لقبائل غمارة، (1859م-1956م)" مستحضرين أهم المحطات التي واكبتها لاستكمال الإحاطة بجوانبه النظرية والمنهجية والميدانية.

1- حول اختيار موضوع البحث وأهميته:

تشكل دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي العمق الأهم لدراسة التاريخ السياسي، وإذا كان تاريخ غمارة قد حظي بالكثير من الدراسات والبحوث، فإن دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لهذه منطقة لا زال غير مطروق بالشكل اللازم، على الرغم من أهميتها، ويشكل هذا التاريخ مجالاً خصباً للبحث فيه، لما له من فوائد جمة في المجال المعرفي للحضارة المغربية في المنطقة الشمالية، وانعكاساتها الإيجابية على مساعي تطوير المجتمع، وتحسين هيكله الاقتصادية والاجتماعية. كما أن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، لم يعد وسيلة لفهم الأحداث السياسية فقط، بل أصبح وسيلة مهمة للتعرف على الاتجاهات الفكرية التي تسود أو تنحسر من فترة لأخرى، وارتباط ذلك بالفئات الاجتماعية التي تتبنى هذه الاتجاهات أو تعارضها.

إن من أهم الأسباب التي جعلتني أفكر في تناول هذا الموضوع بالبحث، كونه سيدفعني إلى القيام بقراءة تاريخية جديدة لمنطقة غمارة، في الجوانب المتعلقة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ما بين 1859-1956م، خصوصاً وأن المنطقة تتميز بموقع جغرافي استراتيجي، مفتوح على البحر الأبيض المتوسط، مما يجعلها فضاءً مفتوحاً على أجناس كثيرة ومتنوعة، إلى جانب الغماريين الأصليين، وهذا الأمر أثر على تركيبة بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. كما أن محاولة فهم التاريخ المضطرب للمنطقة المدروسة، شكل حافزاً مهماً لدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، خاصة وأنه لم يتوفر لدينا ما يكفي من الدراسات التاريخية الأكاديمية الوافية في الموضوع. علاوة على أن فهم الواقع الاجتماعي والثقافي كبنية تحتية، سيسهم في تعريف واقع قبائل غمارة كاملاً، بما في ذلك واقع الحياة السياسية والعسكرية.

وإجمالاً، يمكن القول بأن اختيار البحث في واقع قبائل غمارة في التاريخ المحدد، تحكمت فيه الأسباب والدوافع التالية:

- تواجد القبائل الغمارية بشكل لافت في منطقة شمال إفريقيا، وتميزها بوحدة التقاليد المتشابهة التي لا زالت تعيشها إلى الآن؛
- مشاركة هذه القبائل في أحداث بارزة ومؤثرة في تاريخ المغرب؛
- ندرة البحوث التي اهتمت بالتاريخ الاجتماعي المرتبط بالدراسة الميدانية للمجتمعات القروية، بل غياب تاريخ الفلاحين من الدراسات التاريخية عموماً.

أما بالنسبة للإطار الزمني المحدد في بداية 1859م، فيشكل تاريخيا المحطة الزمنية التي انهزمت فيها القوات المغربية أمام الإسبان في معركة تطوان، والبداية الفعلية لممارسة الضغوط الاستعمارية على المغرب، والتي كانت لها عواقب اقتصادية واجتماعية وثقافية على منطقة غمارة بشكل خاص وعلى كل أرجاء المغرب. كما أن اختيار عام 1956م فإنه يشكل محطة بارزة تميزت باستقلال المغرب وخروج الاستعمار من المنطقة موضوع البحث، مخلفا وراءه آثار كبيرة وتداعيات كثيرة.

لقد حرصنا في هذا البحث على دراسة واقع قبائل غمارة الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، خلال فترة الضغوط الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر وفترة الحماية الإسبانية عليها، وبيان أثر هذا الواقع على بنية المجتمع، وتركيبته السكانية، وطرق الإنتاج، والمعيشة، وعلاقة أبناء المجتمع فيما بينهم، وأعرافهم وتقاليدهم الاجتماعية. وهو ما سيجعل دراسة تلك المرحلة يؤسس لمعرفة المرحلة المعاصرة التي يعيشها المجتمع المغربي عامة وغمارة خاصة. إن للفهم الصحيح لتاريخ المنطقة وماضيها أهمية في بناء حاضرها ومستقبلها.

2- حول إشكالية البحث وأهدافه:

يهدف هذا البحث إلى دراسة تاريخ الواقع الاقتصادي لمنطقة غمارة خلال الفترة الممتدة من 1859م إلى 1956م، وانعكاس ذلك على التركيبة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في غمارة، ودراسة بنية الفئات التي شكلت المجتمع، وأوضاعها في النمط الاقتصادي السائد، وتأثير ذلك في مظاهر حياتها العامة، في الأفراح والأتراح، والعلاقات القائمة بين أفرادها، وموقع كل فئة من المجتمع. كما يهدف إلى توضيح طرق الحياة الاجتماعية التي كان يمارسها المجتمع، وتوضيح طرق الحياة الاجتماعية التي كان يمارسها المجتمع خلال تلك الفترة، وذلك بهدف معرفة أسلوب عيش جميع فئات المجتمع ومستواها المعيشي والكيفية التي كانوا يمارسون بها أنشطتهم الحياتية. كما يهدف البحث إلى معرفة طبيعة الحياة الدينية والثقافية في بلاد غمارة، ورصد نوعية العلاقات الفكرية التي نسجت قبيل الحماية الإسبانية على المنطقة وبعدها.

ومن هنا فإن إشكالية البحث تركز على دراسة الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لمنطقة غمارة، وذلك لمعرفة الأسباب التي حالت دون تغير هذا الواقع بشكل كبير، على الرغم من انفتاح المنطقة على البحر الأبيض المتوسط، ما يجعلها ملتقى للكثير من الأجناس، وخضوعها للاحتلال الإسباني، في فترة عصيبة من

تاريخ المنطقة، وبيان ما للحياة الاقتصادية من تأثير في التركيبة الاجتماعية، وهو ما يدفنا إلى طرح بعض الأسئلة المركزية الموجهة لعملية البحث:

هل غير الوافدون (عبر موقع غمارة المفتوح على العالم الخارجي) بنية المجتمع، وتركيبته التقليدية الأساس؟ ماهي أهم المتغيرات التي حصلت في بنية الحياة الاجتماعية؟ من خلال معرفة طبيعة قوى الإنتاج وعلاقاته في شمال المغرب، ومنها غمارة. هل تأثرت منطقة غمارة بحالة التراجع والانحطاط الثقافي والديني الذي شهده المغرب خلال الفترة المدروسة؟

أما الإشكالية العامة للبحث، فتتعلق من محاولة التعرف على الواقع العماري وعلى معطياته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتتبع تطور هذه القبائل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وما آل إليه أمرها من ضمور وتقلص، وصولاً إلى الهجمة الاستعمارية عام 1912 م على المغرب.

3- منهج البحث:

استوجب إعداد هذه الدراسة، اتباع المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي والاستقرائي المقارن لعناصر المجتمع وفئاته وأوضاعه الاقتصادية والدينية والثقافية، أي دراسة المعطيات التاريخية، وتحليلها تحليلاً معمقاً، بحيث نتمكن من توضيح الأسس التي يقوم عليها الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في غمارة، والعوامل المؤثرة بفضل موقع المنطقة، علاوة على التدخل الأجنبي وطبيعة المنطقة بحد ذاتها، ومقارنتها مع نماذج قريبة ومشابهة.

وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع وتقاطع المصادر والمراجع المعتمدة وتنوعها الاشتغال بأدوات منهجية لعلوم إنسانية أخرى والاستعانة بها، فحينما تطلب منا التطرق إلى مفاهيم سوسولوجية، كان لزاماً علينا الرجوع إلى أعمال تدرج ضمن حقل علم الاجتماع، ولفهم دلالات الرموز التي تزخر بها نصوص المناقب، واستخراج ما له صلة بالمقاربة التاريخية، كان لزاماً علينا الاحتكاك بالمنهاج الأنثروبولوجي واستعماله إذا دعت الضرورة، كما فرض علينا النص النسبي الذي كان أساسياً في دراستنا استعمال المنهج الإحصائي لضبط معالم جغرافية قبائل غمارة، كتنوع عدد السكان والإنتاج الاقتصادي وعدد المؤسسات الدينية بالمنطقة المدروسة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا كنا على وعي بمحدودية البحث المنوغرافي ونقائصه، فحاولنا ما أمكن، تجاوز الأفق المجالي الضيق، وهو ما سيبدو واضحاً في تدرج مستويات البحث من العام إلى الخاص، وفي ربط عناصر المنوغرافية بالنسق العام. كما حرصنا على التوفيق في هذه الدراسة بين التدقيق المعرفي الموثق اللازم والتوظيف النظري.

4- حول الصعوبات والتعريف بأبرز المصادر والمراجع:

لقد فرض علينا إنجاز هذا العمل التعامل مع نصوص متباينة، منها ما هو ذاتي عبر من خلاله الغماريون عن أنفسهم وعلاقتهم بمحيطهم، ومنها ما هو رسمي عكس تجليات العلاقة بين قبائل غمارة والمخزن من جهة والاحتلال الإسباني من جهة ثانية، ومنها ما هو اثنوغرافي أجنبي. أما النصوص التاريخية في الموضوع فكثيرة، انتقيناها من مصادر عديدة ومختلفة.

❖ المصادر المغربية:

حصرنا اهتمامنا بداية في جمع المصادر، وراهننا على بناء عملنا على أساس توفير القدر الكافي من المصادر المغربية، وركزنا في المرحلة الأولى على استخراج الوثائق المحفوظة بالخزانة الحسنية ومديرية الوثائق الملكية والمكتبة الوطنية بالرباط والخزانة العامة بتطوان. وتبين لنا بعد فحص حصيلة الوثائق أن معظمها ينحصر زمنيا في القرن التاسع عشر الميلادي، ويخص الجانب السياسي، مما دفعنا إلى مزيد من البحث واقتحام الميدان سعيا وراء استخراج مصادر ووثائق جديدة.

وهكذا، فإنه يمكن التمييز في المصادر المغربية بين مجموعتين: الوثائق و المؤلفات:

● الوثائق:

لقد حرصنا منذ البداية، في عملية البحث، على التنقيب على الوثائق المكتوبة في الخزانات الوطنية، اقتناعا منا بأهميتها في مجال البحث التاريخي. وقد تمكنا بفضل الله وبعد تردد استغرق ثلاث سنوات، على الخزانة الحسنية ومديرية الوثائق الملكية والمكتبة الوطنية بالرباط والخزانة العامة بتطوان من استخراج حصيلة هامة من الوثائق، معظمها مراسلات وظهائر، تمتد فتراتهما من عهد السلطان السعدي أحمد المنصور إلى عهد السلطان مولاي عبد الحفيظ، أي من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين. وهي تتعلق أساسا بتحديد العلاقة التي كانت قائمة بين قبائل غمارة والدولة. وقد تم توظيف هذه الوثائق المخزنية لدراسة علاقة المنطقة بالسلطة المركزية.

لقد راهنا منذ البداية على الجانب الميداني، والدخول في مغامرة البحث عن الوثائق المحلية، فترددنا على عدة أسر في قرى ومدامر قبائل غمارة، وعلى نظارة الأوقاف بشفشاون والمحاكم الشرعية، وتمكنا بوسائلنا الخاصة من استخراج وثائق متنوعة وهامة جدا، استفدنا منها بالخصوص في دراسة الجانب الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لقبائل غمارة. وقادتنا رحلة البحث عن الوثائق إلى سبر أغوار ميدان البحث والتعرف عن قرب على معالمه الجغرافية والبشرية والتاريخية.

أما العقود العدلية فقد تنبه الباحثون المعاصرون إلى فائدة هذا الصنف من الوثائق في دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لذلك بذلنا جهداً كبيراً لاستخراجها من الخزانات الخاصة، وحالفنا الحظ للاطلاع على مستندات بعض المحاكم الشرعية بقبائل غمارة، تتعلق بالزواج والميراث والبيع والشراء والشركة والمناقلة والمغارسة والصدقة والمنازعات، فتوصلنا من خلالها إلى مقارنة واقع الحياة اليومية لقبائل غمارة. ونظراً لأهمية الحوالات الحسبية في دعم الجانب الوثائقي الذي تحتاج إليه الدراسات التاريخية، من شاكلة بحثنا، فقد اطلعنا على حوالات أحباس مساجد مدينة شفشاون كمولاي علي بن راشد وسيدي بوخنشة والمسجد الأعظم ومسجد ريف الأندلس وجامع العنصر والصبانين ومسجد السوق ومسجد العاقل.

● المؤلفات:

تطلب منا الموضوع البحث عن مصادر تنتمي إلى أصناف معرفية مختلفة، كالمصنفات التاريخية وكتب الرحلات وأدب الأنساب والمناقب والتراجم والفهارس والنوازل الفقهية. ولكل صنف من هذه الأصناف دور خاص في تركيب هذه الدراسة. وقد لاحظنا أن كتب الحوالات لم تتناول تاريخ غمارة إلا في سياق سرد أحداث عامة، وفي إشارات عابرة تتركز أساساً حول سياسة السلاطين تجاه المنطقة، مما فرض علينا التقيب في ثنايا مجموعة من المؤلفات التي تنتمي إلى فترات زمنية مختلفة، لالتقاط ما له صلة بالموضوع. فقد اعتمدنا على ابن حيان الأندلسي وابن عذاري وابن خلدون فيما يتعلق بتاريخ أدارسة غمارة، وعلى نصوص تاريخية حديثة ومعاصرة كتاريخ الدولة السعيدة للضعيف الرباطي ونزهة الحادي للإفراني، كما رجعنا بخصوص الفترة المعاصرة، إلى الدر المنتخب لابن الحاج وكتاب الاستقصا للناصرى وإتحاف أعلام الناس لابن زيدان. أما كتب الرحلات فقد استفدنا منها في التعريف بالمجال عبر التاريخ، فرجعنا إلى كتاب المغرب لأبي عبيد الله البكري ونزهة المشتاق للشريف الإدريسي وصورة الأرض لابن حوقل والاستبصار لمجهول ووصف إفريقيا للحسن الوزان. كما شكلت مدونات الأنساب أهم مصادر هذه الدراسة، بحكم ارتباطها بالشق الثقافي من البحث، وبحكم أن كتب الأنساب لا تخلو من نوازل ومناظرات فقهية حول مسائل معينة، كمسألة تزوير الشرف التي انفرد بها التهامي بن رحمون والفهرس في عمود نسب الأدارسة للمربيني العياشي، كما اعتمدنا على كتب المناقب التي يلاحظ من خلالها أن إنتاج الزوايا لهذه المناقب يختلف من زاوية لأخرى، ولهذا سنسجل حضوراً مكثفاً للزاوية الدرقاوية في المنطقة المدروسة، من خلال سبحة العقيق والمؤذن بأخبار سيدي أحمد بن عبد المومن لأحمد بن الصديق والآداب المرضية لسالك طرق الصوفية لمحمد البوزيدي والأنوار في آداب الاجتماع والأذكار لأحمد بن عبد المومن الغماري.

ونضيف إلى هذه القائمة كتاب الروض المنيف لعبد الله الوزاني الذي سكن قبيلة غمارة، ووصف بعضاً من معالمها الدينية والثقافية وحتى الاجتماعية. كما كشفت كتابات ابن عرضون النقاب عن مظاهر الحياة اليومية

ومعاناتها للقبائل الغمارية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر "مقنع المحتاج في آداب الزواج" و"اللائق لمعلم الوثائق".

● المصادر الأجنبية:

ونقصد بها الوثائق الأساسية، التي بواسطتها يمكننا استكمال معالجة موضوع بحثنا. ولتعزيز هذا الجانب المصدري من الوثائق الأجنبية، أخذنا على عاتقنا التوجه صوب مراكز الأرشيف الإسباني والفرنسي، على الرغم من الصعوبات التي اعترضتنا في هذا الصدد. ومن أهم دور هذه الأرشيفات نذكر:

- أرشيف كارلوس بيريدا رويج بالمركز الثقافي الإسباني بطنجة

(Archivo Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara)

ولد كارلوس بيريدا رويج بمديرد سنة 1912 وتوفي في طنجة سنة 1978، كان مفتش العقارات في المحمية الإسبانية بشمال المغرب، وكان يعمل في دائرة الترجمة الشفوية في المغرب حتى عام 1934 التي انضمت إلى قوات التدخل المدنية في إدارة شؤون شمال المغرب، حيث بقي حتى عام 1956. وبعد فترة قضائها في مديرد، عاد إلى طنجة، وبالضبط عام 1966 لي عين مديرا لمكتب السياحة الإسبانية، حيث بقي يزاوّل هذه المهمة حتى وفاته. خلال فترة ولايته، وضع المواد الخرائطية والدراسات الأنثروبولوجية وجمع الأعمال الأدبية الشعبية من التراث الشفوي، وجلها متعلق بقبائل غمارة. وفي عام 2012م اتصل ورثته بمكتبة خوان غويتيسولو بمعهد ثريانتس في طنجة، للتبرع بأعمال بيريدا للمكتبة المذكورة. ويحتوي هذا الأرشيف على ملف شخصي له، يتكون من 230 وثيقة من الوثائق المؤرخة ما بين 1927 و1956، وقد اعتمدنا على هذه الوثائق، وبخاصة في الجانب الخرائطي والإحصائي لهذا البحث.

- الأرشيف العام للإدارة بقلعة هيناريس (Archivo General de la Administración Alcalá de Hinares).

يعد هذا الأرشيف من أهم وأكبر المراكز التي تضم ذخيرة كبيرة من الوثائق المتعلقة بالاستعمار الإسباني، ويتضمن جل وثائق الإدارات والمؤسسات والمصالح الحكومية المعنية بالاستعمار، لا سيما وثائق الإدارة العامة للمغرب والمستعمرات (Direccion General de Marruecos y Colonias) التابعة لرئاسة الحكومة. وقد أحدثت هذه الإدارة خلال العشرينيات لتوجيه العمل الاستعماري، وتوحيد مراكز القرار المتعلقة به، وتنسيق العمل بين مختلف الوزارات والإدارات بمديرد، والمفوضية السامية بتطوان؛ لذلك تعتبر وثائق هذا الأرشيف مادة لا غنى عنها لكل مهتم بدراسة أي جانب من جوانب الاستعمار الإسباني في المغرب، وهي توجد ضمن قسم أرصدة إفريقيا (Seccion Grupo de Fondos Africa n 15) وموزعة على صناديق Cajas تحمل أرقاما متتابعة، تضم كل واحدة منها ملفات (Expédientes)، تتعلق بمواضيع وأحداث رتبت حسب تسلسلها الزمني.

وقد وقفنا على مجموعة من الصناديق التي تهتم منطقتنا المدروسة، وغالبا ما كانت ترتبط بالجانب الاقتصادي، حيث وظفنا الأرقام والإحصائيات والخرائط الواردة فيها، كما تضمنت الإكراهات الاقتصادية التي كانت تعاني منها المنطقة. ومن أبرز هذه الصناديق نذكر: (Archivo General de la Administración, Alcalá de Hinares, Servicio de Reproduccion de Documentos, Petición n 574, Sección Africa, Caja/Legajo 81/2390).

- المكتبة الوطنية بمadrid، قسم إفريقيا (Biblioteca Nacional de Madrid Sección Africa)

لقد قام هذا القسم، في جزء منه، على الذخيرة الوثائقية الهامة والغنية التي جمعها المراقب والكاتب العام للمفوضية السامية بعد ذلك، طوماس فيكراس (Garcia Tomas Figueras) الذي عرف باهتمامه وكتاباته حول المغرب وحول الحضور الإسباني فيه. فقد سمح له منصبه وكذلك اهتمامه، بجمع العديد من الوثائق المغربية والإسبانية، أغناها بالعديد من التقارير الرسمية والكتابات والمقالات التي لها علاقة بجوانب مختلفة من حياة المغاربة وتاريخهم.

وقد تم جمع جزء من هذا الرصيد في إطار مجموعات (Miselaneas)، تضم كل واحدة منها مواضيع معينة، اطلعنا منها على: B.N.E/MSS 22877 المعنونة بـ (Cabecillas Rebeldes) والتي تتضمن معلومات مهمة عن مشاركة القبائل الغمارية في مقاومة التدخل الاستعماري الإسباني من 1913 إلى 1927 وبعض المعطيات حول تهريب السلاح خلال تلك الفترة.

- مركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط (Centre des Archives Diplomatiques de Nantes)

يعد أرشيف هذا المركز من أغنى الأرشيفات الخاصة بتاريخ المغرب في عهد الحماية، وإذا كان الاطلاع عليه ضروريا لكل باحث في تاريخ الاستعمار الفرنسي بالمغرب لما يوفره رصيده من مادة مصدرية أساسية صادرة عن مصالح وإدارات كانت تباشر وتشرف على ممارسة وتطبيق ذلك الاستعمار، وتقارب جوانب مختلفة وهامة من تاريخ المغرب المعاصر، فإنه يعد قبلة ومرجعا أساسيين لكل مهتم وباحث في تاريخ الحماية الإسبانية في شمال المغرب، لأنه يوفر معطيات لا نجدها في الأرشيف الإسباني، ويقدم معلومات نادرة عن ذلك التاريخ، بدليل وجود عدد كبير ومهم من الصناديق والحزم المتعلقة بمنطقة الحماية الإسبانية، والتي تضم وثائق كانت تعدها المصالح المركزية للجهاز الاستعماري الفرنسي، وكذا مصالح المراقبة، والمراكز الحدودية، والقنصليات الفرنسية التي كانت توجد بأغلب مدن المنطقة الإسبانية. لذلك يمكننا أن نؤكد، وبعد اطلاعنا على هذا الأرشيف وما يقدمه من وثائق، مقارنة بالأرشيف الإسباني، أنه لا يمكن تجاوزه أو إغفاله عند دراسة تاريخ الحماية الإسبانية بشمال المغرب. ومن أبرز وثائق هذا المركز التي اعتمدنا عليها نذكر: (Centre des Archives Diplomatiques de Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. (Extrait du Rapport n° 3, du 7 Fevrier 1919 de Tetouan

وقد أفادتنا في معرفة تحركات عبد الملك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري في قبائل غمارة ودوره في دعم المقاومة في المنطقة المدروسة.

وبما أن طبيعة الموضوع تمحورت حول أهم المكونات الرئيسة في البناء الاجتماعي بالشمال المغربي، فقد حظي باهتمام الباحثين الأجانب وخصوصا علماء البعثة العلمية الفرنسية، الذين ركزوا على دراسة مجتمعات المنطقة قصد استعمالها كأداة إيديولوجية لاستعمار البلاد. لقد اكتست مجتمعات شمال المغرب أهمية بالغة في أبحاث البعثة الفرنسية. وكان هاجس الباحثين الفرنسيين هو تأكيد أهميتها في السياسة الاستعمارية ودعوة الحكومة الفرنسية إلى التدخل في المنطقة لإخراجها من التخلف والفوضى التي تعانيها مجتمعاتها؛ وهذا لا يعني أنه ينبغي أن نلغي هذه الكتابات؛ بل يجب أخذها بحذر، نظرا لما تتوفر عليه من معطيات اجتماعية واقتصادية وثقافية مهمة. وهكذا اعتمدنا على عمل أوجست موليراس "المغرب المجهول، اكتشاف الريف وجباله" ومنوغرافيات حول قبائل الشمال الغربي لميشو بيلير (Quelques Tribus de la Montagne de la Région du Hbt). وقد استفدنا من هذه الأعمال لرسم صورة عن الحياة اليومية لسكان المنطقة، ومما كتبه الإسبان بشكل متأخر عن المنطقة، فضلا عن العديد من المعلومات والإحصائيات التي كانت تنشرها السلطات الإسبانية:

- Alta Comisaria de España en Marruecos;
- Intervención Territorial de Gomara, Comarcal de Puerto Capaz, Síntesis, de los Datos mas Interesantes de las Cabilas de Metiua, Beni Erzin, Beni Smih Y Beni Guerir, Puerto Capaz.

وخلاصة القول إنه على الرغم من وفرة المصادر الأجنبية وتنوعها، فإنها تظل غير كافية لبلورة التصور الشمولي في البحث وتقديم المعطيات المدعمة لهذا التصور، ولذلك، ولسد بعض الثغرات وتطوير البحث والإجابة عن أسئلته وتناول بعض القضايا التي ظلت معلقة، كان لزاما علينا الرجوع إلى الأبحاث والدراسات المعاصرة التي تناولت الموضوع في جوانب معينة.

● الأبحاث والدراسات المعاصرة:

تجدر الإشارة إلى أن الأبحاث والدراسات المعاصرة التي تناولت الموضوع قليلة جدا، وهي تخص جوانب من الموضوع محددة في الزمان والمكان. ولكنها مع ذلك وسعت أفق نظرتنا وخصوصا في الجانبين: النظري والمنهجي. وتتميز المقاربات التي رجعنا إليها بالتقاطع في تناول قبائل غمارة، فهي لباحثين من تخصصات مختلفة:

في التاريخ: يعتبر العمل الذي أنجزه الباحث عبد القادر العافية "الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 10هـ/16م" والعمل الذي أنجزه الباحث محمد البشير بن عبد الله الفاسي الفهري "قبيلة بني زروال: مظاهر حياتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية"، من أبرز الأعمال التي أطرت لنا شكل الموضوع الذي سنتناوله، غير أنها تتجاوز الإطار الزمني الذي نبحت فيه. كما لا ننسى العمل الذي أنجزه الباحث نور الدين الجزائري رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا "مساهمة في دراسة تاريخ غمارة خلال القرن 10هـ/16م" استعرض فيها أهم التطورات التي عرفتها غمارة خلال تلك الفترة، محاولا خلق نوع من التوازن بين الحقائق التاريخية وتقديم التعليقات.

وهناك دراسة أخرى للباحث عبد الباري الطيار "ثوار وأبياء من غمارة"، حاول من خلالها تسليط الضوء على حقيقة ثوار قبائل غمارة وادعائهم النبوة. كما أنجز محمد مزين أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في موضوع بعنوان (Le Temps des Marabouts et des Chorfas. Essai D'histoire Sociale Marocaine a Travers les Écrits de Jurisprudence Religieuse)، توصل الباحث من خلال تحليل نصوص النوازل الفقهية إلى إبراز دور الشرفاء في الجهاد بجبال غمارة، وتحديد الخلفية التاريخية للنوازل واستخلاص أبعادها المختلفة.

وللباحث محمد الهبطي المواهبي اطلاع واسع على الموضوع، وله عدة إسهامات، أهمها "مفتون منسيون بغمارة وشفشاون" حلل فيها البنية الفكرية لقبائل غمارة خلال الفترة المعاصرة، من خلال تقديم جرد لأهم العلماء والأسر الغمارية التي مارست الإفتاء خلال الفترة المدروسة. وفي أبحاث أخرى تناول محمد الهبطي المواهبي مسألة الفتاوى في قبائل غمارة، والتي تضمنت ملامح مهمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من أبرزها "فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال".

وقريبا من موضوع دراستنا، نجد أطروحة الدكتوراه "قبيلة زمران خلال القرن التاسع عشر" للحسن شوقي، ورسالة أحمد التوفيق التي كانت ومازالت مرجعا لا محيد عنه لأي دارس للمجتمع المغربي "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850-1912)". وأطروحة بوبكر بوهادي "المغرب والحرب الأهلية الإسبانية" التي يعتبر صاحبها من الباحثين المغاربة السابقين إلى تناول هذا الموضوع، حيث أبرز من خلاله تأثير هذه الحرب على المنطقة الخلفية، بما فيها قبائل غمارة التي شاركت في هذه الحرب، وكانت لهذه المشاركة نتائج سوسيواقتصادية خطيرة على المنطقة حسب الباحث.

في السوسولوجيا: نجد عمل بول باسكون (Paul Pascon) حول قبيلة بني بوفراح الريفية القريبة من مجال دراستنا، وهو بعنوان "بني بوفراح" (Les Bani Boufrahs) لاحظ فيه أن البداية المغربية عموما يحكم في تأطيرها نظامان هما: المخزن والزوايا. وأكد بخصوص بني بوفراح على الدور الاجتماعي والسياسي الذي لعبه

الشرفاء الوزانيون، وتوصل إلى أن مجتمع بني بوفراح خضع لسلطتين متنافستين هما سلطة الزوايا وسلطة المخزن.

وأنجز عبد الهادي أعراب أطروحة في موضوع "الفقيه كمؤسسة بالمجال القروي، دراسة لتغير مكانة وأدوار فقهاء الشرط بالمغرب، إقليم خريبكة نموذجا" قام فيه بتغطية تاريخية تطلبت منه مجهودا في البحث لما لاحظته من قصور في البحث التاريخي عن هذه المؤسسة، حاول من خلالها الباحث فهم الأدوار الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تلعبها مؤسسة الفقيه. كما لا ننسى الدراسة التي قام بها الباحث الهادي المهروي "القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1934-1944"، لفهم ظواهر الواقع المغربي خلال تلك الفترة، والدراسة التي قام بها المختار الهراس "القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب" استطاع من خلالها تفكيك الهياكل القبلية لشمال المغرب وملامسة الدور الذي لعبه الاستعمار الإسباني في التأثير على قبائل شمال المغرب.

في الأنثروبولوجيا: تجدر الإشارة إلى أنه بحثنا لم يكن ممكنا الاستغناء عن الأبحاث الأنثروبولوجية، على اعتبار أن التاريخ مجال يسع جميع العلوم الإنسانية، وفي هذا السياق تم الرجوع إلى عمل ريمون جاموس (Raymond Jamous) بعنوان (Honneur et Baraka)، وهي "دراسة للنسق القبلي الريفي، قلعية بالشمال الشرقي نموذجا"، ورغم كون هذا العمل خارجا عن مجال بحثنا، فهو يرتبط به في الجانب الثقافي من خلال إبراز دور الشرفاء في المجتمع، وتحديدًا وظيفة البركة كسلطة رمزية. وكيفما كان الأمر، فإن إدراج هذه الدراسة ضمن هذه القائمة يعود أساسا إلى حرصنا على المقارنة.

ولا يفوتنا في هذا العرض الإشارة إلى الأبحاث والدراسات المنشورة في الدوريات الأجنبية التي فتحت أمامنا مسالك جديدة وعززت رصيدنا النظري والمعرفي، نذكر على سبيل المثال مجموعة من الأبحاث تضمنتها أعداد من مجلة (Hesperis-Tamuda).

في الجغرافيا: لا ريب أن للجغرافيا تأثيرا كبيرا في الصيرورة التاريخية، كما تؤكد ذلك وقائع التاريخ في شتى بقاع الأرض، وخاصة بالنسبة للمناطق التي حظيت ولا تزال بأهمية استراتيجية. وانطلاقا من هذا المعطى حاولنا الانفتاح على علم الجغرافيا من خلال الاطلاع على بعض الأعمال أهمها أطروحة الدكتوراه بعنوان: (L'Evolution Récente D'un Espace Rural Périphérique Marocain , le Paye Rhomara) للباحث أحمد أحمدان، والعمل الذي أنجزه عبد السلام الميموني لنيل دبلوم الدراسات العليا "إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة الغربية" بالإضافة إلى (le Maroc et son Domaine Méditerranéen , aux) للباحث فؤاد الزعيم، و (Chaouen et sa Région) لمحمد الدحان، كما تم الرجوع إلى أطروحة أحمد الغرابوي (La Terre et L'Homme)

dans la Péninsule Tingitane , Étude sur L'homme et le Milieu Naturel dans le Rif
(Occidental).

التحري الميداني:

أسهمت الزيارات الميدانية المتكررة إلى جبال غمارة في الاطلاع على نصوص دفينية والتحقق من مواقع الأعلام الجغرافية والتاريخية، والتأكد من صحتها في المصادر. وكان من الضروري معاينة مداشر وقرى غمارة والتأمل فيما اتصل بها من أحداث تاريخية. فقد تكررت زيارتنا لقبيلة بني زجل وبني زيات وبني خالد وبني رزين وبني سميح وبني بوزرة، وطفنا بمختلف مداشر هذه القبائل وتذاكرنا مع ساكنتها واستفدنا منهم في شرح عاداتهم وتقاليدهم، كما زرنا أهم الأضرحة وزوايا القبائل الغمارية التي استقينا منها العديد من المعلومات. ورغم مشاق الرحلات التي قمنا بها إلى قرى جبلية نائية، فلم تخل من متعة وفائدة، فقد تعلمنا منها الشيء الكثير، واكتسبنا تجربة خاصة، استعنا بها في نسج هذا العمل وبلورة أفكاره وضبط جزئياته، وفي وضع وسائل توضيحية لازمة من خرائط وصور ورسوم بيانية.

5- حول مضمون البحث ومحاوره:

اقتضت طبيعة الموضوع، تقسيم البحث إلى مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة، يتضمن كل باب عددا من الفصول، يتضمن كل فصل مجموعة من المباحث وعددا من البنود الفرعية التفصيلية عن كل مبحث، وتتضمن الخاتمة نتائج البحث.

تضمنت المقدمة موجزا عن البحث برمته: بيان أهميته، وأسباب اختياره، وأهدافه، وإشكاليته، والمنهج المتبع في الدراسة، فضلا عن الصعوبات التي واجهها الباحث، وأهم المصادر والمراجع المعتمدة. فيما خصص الباب الأول الذي جاء بعنوان "موطن غمارة وتاريخها" لدراسة جيوسراتيجية المنطقة من حيث التسمية، والموقع الاستراتيجي وأهميته، والتضاريس والمناخ، ثم مدخل تاريخي للفترة التي سبقت زمن دراستنا الممتدة ما بين (1859م-1956م) وعنت بتناول الأوضاع السياسية التي شهدتها منطقة شمال المغرب بشكل عام وغمارة بشكل خاص، منذ ما قبل الفتح الإسلامي وحتى بداية الفترة المحددة في الدراسة، وما تعرضت له المنطقة من صراعات وتقلبات في ظل التدخل الاستعماري في المغرب، والذي سيشتد مع هزيمة معركة تطوان عام 1859م، وانعكاس ذلك على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة.

أما الباب الثاني فجاء بعنوان "ديمغرافية غمارة وحياتة مجتمعها"، وضم فصلين أساسيين، غطى الفصل الأول منه، التركيبة الديمغرافية للسكان الغمارية والتنوع الذي يميز هذه الساكنة، باعتبارها كانت منطقة جلب للسكان وليست طاردة، كما تضمن هذا الفصل الإشارة إلى قدم التعمير في المنطقة المدروسة وخصوصيات

اللهجة الغمارية التي تمازج فيها البعدان الأمازيغي والعربي، بالإضافة إلى مميزات ومكونات السكن الغماري مقارنة مع المناطق المجاورة.

وخصص الفصل الثاني والأخير للحديث عن البنية الاجتماعية للسكان في غمارة، وتوضيح انعكاس البنية الاقتصادية على هذه التركيبة، التي كان على رأسها فئة الأعيان والشرفاء والفقهاء، والعامّة في أسفل السلم الاجتماعي.

كما تضمن الفصل دراسة شاملة، للتعريف بجميع الفئات الاجتماعية، وأدوارها ومهامها في الحياة العامة، وموقعها الاجتماعي، وما تقدمه كل فئة من خدمات للفئات الأخرى. وخصص الفصل كذلك، للتعرف على مظاهر الحياة الاجتماعية في غمارة، من خلال دراسة العادات والتقاليد من خلال الأفراح والأتراح، كعادات الزواج ومراسيمه، ولباس الناس وزينتهم، وطعامهم وشرابهم، وعادات الولادة والختان والمآتم، وما يحدث فيها من أمور فرضتها طبيعة المنطقة، فضلا عن عادات الأعياد والاحتفالات الدينية.

كما تم التطرق في هذا الفصل إلى العلاقات البينية للقبائل الغمارية وعلاقتها مع القبائل المجاورة، وطبيعة العلاقة التي كانت تربط هذه المنطقة بالسلطة المركزية، سواء قبل الحماية أم بعدها.

أما الباب الثالث فحمل عنوان "الحياة الاقتصادية في بلاد غمارة" واحتوى على ثلاثة فصول أساسية، وفقا لطبيعة الموضوع. وهكذا تطرق الفصل الأول إلى دراسة البنية المادية للحياة الاقتصادية في قبائل غمارة، مركزا على أشكال الملكية الزراعية في غمارة. كما تم استعراض الطرق التي كان يتم بها استغلال الأراضي الزراعية، والتي كانت تتم بطريق الإجارة، والمشاركة في المحصول، حيث كانت تشهد انتشارا واسعا خلال تلك الفترة، وأدوات العمل الزراعي، ونظام الري. ودرس الفصل مجالات الحياة الاقتصادية في غمارة، مع التركيز على المجالات الاقتصادية المختلفة من فلاحية وصناعة وتجارة وأثرها في حياة المجتمع. وفي المجال الفلاحي، تمت دراسة الواقع الفلاحي، مع توضيح المقومات التي ساعدت على اعتماد الساكنة الغمارية على هذا النشاط الاقتصادي، مع ذكر المحاصيل وأنواعها. كما تناول هذا الفصل دراسة الصناعات الحرفية في غمارة، ومنها صناعة المنسوجات والصبغة والصناعات الفخارية والصناعات الجلدية والخشبية وبعض الصناعات الغذائية مثل استخراج زيت الزيتون، وصناعة الحصير، وأدوات البناء ومواده. كما تناول الفصل بالدراسة تجارة غمارة الداخلية والخارجية، وأبرز العوائق التي أثرت في النشاط التجاري خلال تلك الفترة، والأسواق التجارية والمؤسسات التجارية، وأبرز التجار وعلاقتهم بالسلطة السياسية.

وفي الفصل الثاني، تم تركيز العمل على الضرائب وأشكالها، وطرق تقديرها وجبايتها، وانعكاس ذلك على أوضاع الفلاحين المعيشية خلال تلك الفترة، وخصوصا خلال فترة الاستعمار الإسباني.

وفي مجال الاستثمارات المالية تناول البحث في فصله الثالث العملة والبنوك والمقاييس والمكاييل والأوزان المستعملة في البيع والشراء. كما تناولت الدراسة في هذا الفصل أهم صادرات المنطقة وحجمها، وأهم وارداتها، وأهم موانئ غمارة، والضرائب الجمركية على السلع التجارية، والطرق التجارية البرية والبحرية، ووسائل النقل البري والبحري. وفي الأخير، تم التركيز على أهم التحولات التي أحدثتها الاستعمار الإسباني بالمنطقة.

أما الباب الرابع فحمل عنوان " الحياة الدينية والثقافية في بلاد غمارة" وضم فصلين أساسيين، تناول الفصل الأول منه الحياة الدينية وزيارة الأولياء في بلاد غمارة، مع توضيح خصائص البنية الدينية في غمارة، من خلال دراسة شاملة لكل المساجد والأضرحة والزوايا، بالإضافة مميزات الواقع الصوفي بالمنطقة من خلال ارتباطه بالأسر الإدريسية.

أما الفصل الثاني والأخير فخصص للتعرف على مظاهر الحياة الثقافية في غمارة المكتوبة منها والشفوية، مع دراسة شاملة للعلماء والأسر العلمية بالمنطقة، والتعرف على مسار التكوين العلمي والثقافي بالمنطقة المدروسة، من مرحلة الكتابيب القرآنية والتعلم بالمساجد والزوايا، إلى مرحلة الهجرة في طلب العلم (التخنيش)، وتم في هذا الفصل جرد أهم المدارس الغمارية ودورها في مواجهة السياسة التعليمية الإسبانية، وموقف بعض الأسر الغمارية من المسألة التعليمية بالمغرب (الأسرة الصديقية نموذجاً).

وركز الفصل في الختام على العلاقات الفكرية والثقافية لعلماء المنطقة، سواء مع فاس أم تطوان أم شفشاون، مع تقديم نماذج من هذه العلاقات وتحليلها. وفي الأخير تم تخصيص مبحث خاص بالثقافة الشفوية من أمثال وأحاج ومقدسات تمثل التصورات العامة للمجتمع الغماري.

ولقد حرصنا عند نهاية كل باب من أبواب البحث على تدوين خلاصات واستنتاجات وملاحظات خاصة، في حين، تضمنت خاتمة الأطروحة أبرز النتائج التي خلص إليها البحث.

الباب الأول:

موطن غمارة وتاريخها

الفصل الأول: موطن غمارة؛ قراءة في المجال

المبحث الأول: إشكالية التقسيم في الشمال الغربي المغربي

1- ظهور اسم جبالة:

يدل لفظ جبالة لغويا على جمع جبلي، بمعنى الإنسان الذي سكن الجبل، وهذه الدلالة هي التي دفعت بعض الكتابات، خاصة الأجنبية منها، إلى نعت جبالة أيضا بلفظ الجبليين.

ويرتبط تداول اسم جبالة بالجانب الشفاهي أكثر منه بجانب الكتابة التاريخية¹، فعندما تناول ابن زيدان ترجمة أحمد بن محمد الغزاوي الذي كان حيا عام 1248هـ، أكد على أنه كان مشهورا بالجبلي²، مما يدل على تداوله الشفاهي. أما من ناحية الكتابة التاريخية، فالمصادر التي تناولت تاريخ منطقة جبالة، استعملت ألفاظا أخرى، فالحسن الوزان في حديثه عن أقسام مملكة فاس، استعمل ناحية الهبط، وأدرج فيها مجموعة من الجبال مثل بني عروس، أنجرة وجبل حبيب³.

أول مصدر مغربي نبهنا إلى وجود لفظ جبالة هو الحاج عبد الكريم بن موسى الريفني المعروف، صاحب "زهر الأكم"، كان المؤلف حيا عام 1730م، إذ أنه ربط المصطلح بالناحية وذلك سنة 1672م. واقترن استعمال اسم جبالة بالفحص لدى صاحب زهرة الأكم، في بداية حكم مولاي إسماعيل أثناء تحديده لقواد المناطق، حيث يقول: "عين بناحية جبالة والفحص قائده عمر بن حدو"⁴. والاستعمال الثاني لهذا الاسم تم على يد محمد الضعيف الرباطي في القرن 18م، بمناسبة الأحداث التي عرفتها المنطقة خلال السلطانين عبد الله بن إسماعيل، وابنه محمد بن عبد الله، فقد قدم لنا الاسم بلفظ "اجباله" ويضيف له الألف في البداية وخصوصا عندما يتعلق الأمر بالسكان كقوله: "وأهل الفحص واجباله والعبيد"⁵ و"انضاف طلبة اجباله إلى طلبة المدن"⁶. وبدون الألف في الحالات المتعلقة بالمكان، كقوله: "ثم وجهه (محمد السلاوي) لعمالة طنجة وتطوان والعرائش والقصر مع جبالة"⁷. إلا أن تتبع البحث في الوثائق المخزنية دل مرة أخرى على اختفاء اللفظ في عهد محمد بن عبد

¹ - حسن الفكيكي، "مادة جبالة"، معلمة المغرب، الجزء 9، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، 1998، ص. 2902.

² - عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الأول، المطبعة الوطنية، الطبعة 1، الرباط، 1990، ص. 364.

³ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الخضر، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص. 306-323.

⁴ - عبد الكريم بن موسى الريفني، زهرة الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف، الرباط، 1992، ص. 151.

⁵ - محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، دار المآثورات، الرباط، 1986، ص. 145.

⁶ - محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، مصدر سابق، ص. 284.

⁷ - المصدر نفسه، ص. 357.

الرحمان والحسن الأول، وظهور لفظ جبالة واختفاؤه، يجعل التدقيق في تحديد تاريخ استعماله أمرا صعبا¹. على عكس ما لاحظناه في لفظ غمارة، البارز في جميع الفترات.

كان من الضروري بعد ذلك استنطاق المصادر والمراجع الأجنبية المتنوعة، وتبين من البحث أن لفظ جبالة لم يعد إلى الظهور إلا منذ أواخر القرن التاسع عشر، ليستمر بعد ذلك خلال الفترة الاستعمارية، فبالنسبة للكتابات الأجنبية نجد أوغست موليراس صاحب كتاب المغرب المجهول، الذي استقى معلوماته سنة 1892م من مخبره، استعمل اسم جبالة للدلالة على سكان ومنطقة شمال غرب المغرب، وخصص له الجزء الثاني من كتابه المغرب المجهول². كما نلاحظ أن المصادر الإسبانية العائدة إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين سارت على منوال موليراس.

أما في الكتابات المغربية، فعلى مستوى المراسلات المخزنية والمصادر، فإنها استعملت قبائل الجبل، كما هو الشأن في رسالة عبد الرحمان بن عبد الصادق إلى الصدر أحمد بن موسى بتاريخ 16 ربيع الأول 1313 هـ³، وقبائل اجباله عندما تناول بوعشرين حملة القائد الشركي نحو قبائل الجبال بناحية طنجة⁴، والقبائل الجبلية في رسالة عامل العرائش عبد المالك بن علي السعيدي إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 6 محرم 1314 هـ⁵. وفي نسخة كتاب وجهت إلى سفير بريطانيا حول قضية هاريس⁶ بتاريخ 1 ربيع الثاني 1321 هـ⁷. كما استعمل لفظ جبالة في رسالة محمد بركاش إلى نفس السلطان يوم 24 محرم 1321 هـ حول الاضطرابات التي كانت تحدث بضواحي طنجة، نتيجة تصرفات قبيلة أنجرة، حيث يقول: "لا أمن في شياطين جبالة"⁸. تؤكد هذه الكتابات على أن أصل اسم جبالة مرتبط بسيادة الجبال في المنطقة، فحيثما وجهنا بصرنا إلا ورأينا جبالا، ما عدا في الساحل الأطلسي، حيث توجد أراض سهلية منبسطة وسواحل رملية وصخرية⁹.

¹ - Benjelloun(A), *Le Mouvement Nationaliste Marocain de L'ancienne Zone Nord et les Jbala-Histoire et Société*, Etude sur le Maroc du Nord-Ouest. Paris, Editions du C.N.R.S. et Casablanca, wallada, 1991, p. 92.

² - أوغست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جبالة، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى 2013.

³ - محفظة رقم 154، الفترة العزوية، سنة 1313 هجرية، الخزانة الحسينية بالرباط.

⁴ - الحسن بوعشرين، التنبه المغرب عما عليه الآن حال المغرب، السفر الأول، تقديم وتصحيح محمد المنوني، الرباط. 1994، ص. 98.

⁵ - محفظة رقم 659، الفترة العزوية، سنة 1314 هجرية، الخزانة الحسينية بالرباط.

⁶ - والتر هاريس (1866-1933) عايش كل الأحداث الكبرى التي عرفها المغرب نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، وكان وقتها المراسل الأبرز لأشهر صحيفة بريطانية، وسطع نجم والتر هاريس أكثر يوم تعرض للاختطاف من قبل احمد الريسوني، غير أن عملية اختطاف هاري لا تزال إلى اليوم تثير الكثير من التساؤلات، حول ما إذا كان الصحافي البريطاني قد دفع بنفسه عمدا إلى الاختطاف، حتى يكرس وضعيته كأقوى وأبرز صحافي في طنجة.

⁷ - محفظة ربيع الثاني-جمادى الثاني 1321 هجرية، بدون رقم، مديرية الوثائق الملكية بالرباط.

⁸ - سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي 1894م-1912م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2004، ص 81.

⁹ - أوغست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جبالة، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى، 2013، ص. 116.

تؤهلنا كل هذه المصادر المغربية والمراجع الأجنبية لأخذ فكرة عن المصطلح ومناقشته، إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا تعرف هذه المنطقة في المغرب بهذا الاسم مع العلم أن الارتفاعات فيها تبقى ضعيفة جدا مقارنة مع المناطق الأخرى؟ فمن خلال التحليل الطبوغرافي لخرائط المنطقة والزيارات الميدانية، نجد بأن أعلى الارتفاعات لا تتعدى 2500م. ولا شك أن التسمية غير مرتبطة بالارتفاع، وإنما بطبيعة السفوح، فإذا كانت الارتفاعات تتراوح ما بين 2122 متر، بجبل تسوكة شرق شفشاون¹، وبين 841 متر بجبل موسى غرب الفينديق². فإن طبيعة السفوح تتميز بشدة الانحدار، كما أن الكتلة المرتفعة منعزلة عن بعضها البعض بفعل كثافة الشبكة المائية، فهذه الخاصية تؤكد بأن المنطقة جبلية وذات ارتفاعات.

وبناء على هذه المعطيات المبينة، ما هو المجال الجغرافي الذي يمكن أن يخصص لجباله؟ وما هي المنطقة الأصلية التي مثلت جباله؟

2- المجال الجغرافي لجباله وقبائل غماره:

إذا كانت جباله في نظرنا، تطلق اليوم على القسم الغربي من السلسلة الجبلية الريفية إطلاقا عاما، لدواع تاريخية وإدارية في نفس الوقت، فإن الغاية لدينا تنحصر في التعريف بالمجال الجبلي الأصلي الذي استحق لفظ جباله من الوجهة التاريخية.

تقع بلاد جباله بين منطقتين معلومتين لدينا تاريخيا: غماره والهبط، حيث تمتد عبر المرتفعات المشرفة على تطوان من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الشمالية الغربية على طنجة، وتستمر على محورين: يضم الأول هضبة بني حسان والأخماس والثاني يساير موقع جبل حبيب، وواد راس وبني عروس وسماتة وأهل سريف، ويلتقيان بمجرى وادي اللكوس عند بني زكار³. لا شيء يميز هذه المنطقة عن غماره، وكثيرا ما علمنا أنها مدرجة بجبالها ولكن هناك ميزة واحدة فقط، ألا وهي أنها مرتبطة من الوجهة الاقتصادية بالهبط الأصلي.

تتفق مختلف الدراسات المغربية التي تناولت منطقة جباله على الحدود الشمالية والغربية لها باعتبار الحدود الطبيعية، المتمثلة في البحر الأبيض المتوسط شمالا، وفي المحيط الأطلسي غربا، ولكنها تختلف حول الحدود الجنوبية والشرقية، لاختلاف الأسس الفكرية لكل دراسة عن أخرى، ويمكن تصنيف هذه الدراسات إلى ثلاثة أنواع: الدراسات ذات البعد الجغرافي ومنها الطبيعية مثل دراسة أحمد الغرابوي⁴، والبشرية مثل دراسة

¹ - La Carte Topographique de Chefchaouene 1/100000, Division de la carte 1973.

² - La Carte Topographique de Tetouan 1/100000, Division de la carte 1972.

³ - حسن الفكيكي، جباله تاريخ ومجال، ضمن أعمال ندوة مجموعة البحث المتعددة الاختصاص للبحث حول جباله، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة، 2001، ص. 12-13.

⁴ - El Gharabaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tangitaine*, Etude sur L'homme et le Milieu Naturelle dans le Rif Occidental. T.I Scientifique, Rabat, 1981.

محمد الرفاص¹، ثم الدراسات التاريخية مثل الدراسات التي أنجزها عبد العزيز خلوق التسمساني والتي انصبت حول جباله في العقود الأخيرة²، والجوانب المتعلقة بجباله من خلال دراسة عبد الله العروي³، والنوع الثالث والأخير يتمثل في الدراسات العامة، والمرتبطة بمجموعة البحث في تاريخ ومجتمع جباله⁴. أما المصادر الأجنبية فقد أجمعت على عدم التفريق بين غمارة وجباله، واعتبار وادي أورنكا هو الحد الشرقي بين قبائل الريف وجباله، حيث يقول مولييراس: "ويكتسي وادي أورنكا أهمية خاصة، لأنه يشكل الحدود الطبيعية بين غمارة وميتوة، أي بين جباله والريف، وتجدر الإشارة إلى أن المجرى الكامل لهذا النهر الصغير وجانباً كبيراً من ضفته اليمنى، ينتميان إلى التراب الغماري"⁵.

وخير من يرسم لنا حدود جباله الإدارية خلال القرن الثامن عشر هو محمد الضعيف الرباطي، الذي تتبع أخبار الشمال الغربي في عهد السلطانين المولى عبد الله وابنه سيدي محمد، وسيستمر المفهوم الإداري بسبب ظهور باشوات طنجة من أولاد عبد الصادق الريفى خلال القرن التاسع عشر، وهذه هي النظرة التي طبعت مراحل الحماية⁶. وترجع أسباب الاختلاف بين هذه الدراسات إلى التداخل بين ما هو طبيعي وما هو بشري، أما مظاهره، فتتجلى في إضافة دراسة لبعض القبائل وإقصائها للبعض الآخر مقارنة مع دراسة أخرى، مما ينتج عنه الاختلاف حول الحدود.

نستخلص إذن أن مجال جباله من الناحية الإدارية يتألف ابتداءً من عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام من ثلاث عمالات هي: عمالة تطوان التي كانت متحكمة في الجزء الشرقي الممتد بين تطوان والجهة وقسم من جباله الأصلية الذي يمتد إلى شفشاون (أي أنها كانت تضم حتى بلاد غمارة) وعمالة طنجة الفحص إلى جبل حبيب وعمالة العرائش التي ضمت القصر الكبير ونواحيها ووزان والقبائل المجاورة لها.

¹ - Refass (M), *L'organisation Urbaine de la Péninsule Tangitaine*, Un Premier Najah el jadida, Casablanca, 1996.

² - نذكر على سبيل المثال: عبد العزيز خلوق التسمساني، "إسبانيا تشخيص المجتمع الجبلي بين الواقع والتنظير 1895م-1907م"، مجلة دار النيابة، العددان 15 و16، ص. 28-49.

عبد العزيز خلوق التسمساني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر القائد أحمد الريسوني، منشورات سيلكي اخوان، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1996.

³ - Laroui (A), *Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocaine (1830-1912)* Maspero, Paris, 1977, p. 334.

⁴ - Groupe Pluridisciplinaire D'étude sur les Jbala, Jbala. Histoire et Société. Études sur le Maroc du Nord-Ouest, Casablanca-Paris, Wallada-Éd. Du CNRS, 1991.

⁵ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول، اكتشاف جباله، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى، 2013، ص. 207.

⁶ - حسن الفكيكي، جباله تاريخ ومجال، مرجع سابق، ص. 13.

3- الشمال الغربي بين تداخل مجالاته واستقلاليتها

دلت التجربة أثناء بحث دلالات الأعلام بصفة عامة أنه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ملاحظتين:

- الأولى: البحث عن أصول الدلالات، لمعرفة ما إذا كانت بشرية أو جغرافية أو إدارية؛
- الثانية: التأكد من مراحل تطور تلك الدلالات وتبع تحول مفهومها من الدلالة البشرية إلى الجغرافية والإدارية، بالنسبة للفظ الذي كان أصله دلالة بشرية، ومن الدلالة الجغرافية إلى الإدارية بالنسبة للألفاظ ذات الدلالة الأصلية الجغرافية.

إذا أردنا تطبيق ذلك على الأعلام الرئيسة المرتبطة بالشمال الغربي المغربي، فإننا نعلم أن مصطلح "غمارة"، وهو أقدم علم تنطبق دلالاته على الشمال الغربي، وهو كما نرى ذو دلالة بشرية صرفه، وفي أواخر القرن 15م برز مصطلح آخر زاحم لفظ غمارة، ألا وهو لفظ "الهبط"¹ وهو في أصله ذو دلالة جغرافية صرفه، لم يلبث أن أصبح مفهوما إداريا أيضا.

فضلا عن الدلالة الأصلية الجغرافية، التي يراد بها الإشارة إلى سكان الجبال، أي سكان جبال غمارة، أو جبال الهبط، نؤكد على أن لفظ جبالة كان معروفا ومتداولوا ولو بنسبة قليلة منذ القديم، ولم يتمكن من الظهور والانتشار، لوجود كل من لفظي غمارة والهبط. وحينما أدرك استعمال اللفظين الفطور، أتاح هذا للفظ جبالة الظهور من حين لآخر إلى جانب الدلالة البشرية الأصلية التي يمثلها لفظ غمارة².

والسؤال المطروح المتعلق بظاهرة ظهور واختفاء لفظ جبالة، يعود في نظرنا إلى عدة اعتبارات مرتبطة بالأحداث الهامة التي جلبت أنظار المؤرخين وهم يتابعون الحركات السلطانية، واعتبارات أخرى متعلقة بالتنظيم الإداري ومن أبرزها:

- خلق قيادة منطقة جبالة على عهد المولى إسماعيل، وإسنادها إلى عمر بن حدو التمسmani الريفي سنة 1672م، مركزها القصر الكبير مما أتاح ظهور لفظ جبالة.
- تفكك وحدة السلطة الإدارية بالشمال الغربي، وتقسيمها إلى عدة قيادات، وهو ما حدث خلال القرن 19م، ابتداء من عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام (1822-1859)، فخلال هذه الفترة سيعود لفظ جبالة إلى الاختفاء من مصادرها، ولا سيما من الوثائق المخزنية.
- ظهور لفظ جبالة مرة أخرى، وهذه المرة في المصادر الأجنبية، بدءا من أواخر القرن 19م وبداية القرن العشرين، وبناء على هذا العامل الجغرافي، عاد لفظ جبالة إلى الظهور في كتابات أوغست مولييراس،

¹ - مصطلح هبط قبل هذا التحول، كان يعني منطقة النزول (الهبوط) من الجبل إلى السهل.

² - حسن الفيكيكي، جبالة تاريخ ومجال، مرجع سابق، ص. 10-11.

والمصادر الإسبانية والخرائط الملحقة بها. وهذه الوحدة الجغرافية هي التي سيؤخذ بها أثناء الفترة الاستعمارية.

وهكذا فإن بلاد جباله تشكل الجزء الغربي من إقليم الريف، وهي تنحصر عموماً بين وادي اللكوس والجبال الغمارية وبوغاز جبل طارق والسهول الأطلنتية. وقد استقر السكان في هذه المنطقة منذ القديم، وكانت مأهولة في الأصل بالغماريين المصامدة، ثم طرأت على وضعها السكاني تغيرات هامة في القرن 12م. مع قدوم عرب بني هلال، الذين أرغموا السكان على الاعتصام بالجبال أو على التعرب والاندماج، ثم انضاف عنصر جديد إلى هذه العناصر الأولى، وذلك في أعقاب الهجرات المتوافدة من الأندلس، بعد سقوط غرناطة عام 1492م. وبذلك فإن المجتمع الجبلي يتكون من عناصر مختلفة استوطنت المنطقة في حقب تاريخية متباعدة، ثم انصهرت فيما بينها، وأصبحت تشكل كياناً قائماً بذاته. كما هو الشأن في جهات أخرى من البلاد، فإن المجموعات الجبلية كانت تنظم داخل قبائل متعددة، مشكلة وحدات اجتماعية، واقتصادية، وجغرافية، متميزة¹.

تنقسم هذا المجال (جباله) العديد من القبائل عددها 54 قبيلة وهي: - أنجرة - الحوز - وادراس - بني مصور - جبل حبيب - بني يدير - بني حزم - بني سعيد - بني عروس - بني ليث - بني حسان - بني غرفط - سوماتة - أهل سريف - بني يسف - بني زكار - الاخماس - بني زجل - بني منصور غمارة - بني الزيات - بني سلمان - بني بوزرة - بني جرير - بني سميح - مثوية بني مروان - بني رزين - بني خالد - غزاوة - بني أحمد - صرصار - مسمودة - رهونة - أهل الربع - بني مستارة - مزكلدة - سطة - بني زروال - فشتالة - سلاس - بني ورياگل - لجاية - مزراوة - مزيات - رغيوة - مثوية الجبل - فناسة - بني ونجل - بني سلامة - مريسة - بني وليد - صنهاجة غدو - صنهاجة مصباح - البرانس - التسول². وكانت كل قبيلة تنقسم إلى مجموعة من العظام تتكون كل منها من أسر أبوية تتوزع على المداشر التي يقع ضمنها كل عظم³. وخلال الفترة الاستعمارية كانت قبائل جباله الواقعة غرب نهر اللكوس خاضعة للاستعمار الإسباني، أما الواقعة شرقه فكانت تابعة للنفوذ لفرنسي. كما تم تقسيم قبائل الشمال حسب ظهير 14 يناير 1935م إلى خمس مناطق وهي: منطقة غمارة ومنطقة جباله ومنطقة اللكوس ومنطقة الكرت ومنطقة الريف⁴.

¹ - Archivo Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, A/1-A/6, Instituto Cervantes Tanger, CAJA N° 1, Carpeta A/5.

² - أوجست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جباله، الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى 2013.

³ - عبد العزيز خلوق التمساني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر، القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، منشورات سليكي إخوان، الطبعة الأولى 1994، ص. 44-45.

⁴ - Archivo Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, A/7-A/11, Instituto Cervantes Tanger, CAJA, N° 2, Carpeta A/10.

- Joan Nogué-José Luis Villanova (Éds), *Espana en Marruecos (1912-1956)*, Editorial Milenio, p. 455.

يتبين مما سبق أننا لا نعتبر أي فرق جغرافي بين مناطق غمارة أو ناحيتي الهبط أو جباله، لأن المضمون والمراد واحد في كل الأحوال، على أساس حذف الجزء السهلي الغربي من ناحية الهبط المعروف بالهبط الأصلي، وكل الأجزاء الثلاثة هي التي نعبر عنها جغرافيا بالشمال الغربي المغربي، التي كانت في الأصل خاضعة لمنطقة غمارة الكبرى قبل ظهور مفهوم جباله أو بلاد الهبط، بمعنى أن منطقة غمارة هي جزء من ناحية جباله منذ القرن 17م، في حين تشمل بلاد غمارة كل المناطق الواقعة في الشمال الغربي المغربي قبل القرن 17م¹

والخلاصة العامة أنه على الرغم من تداخل مجالات المدلول الجغرافي لكل من غمارة والهبط وجباله، والتاريخ المضطرب في تحديد هذا المجال (خصوصا بين البكري والشريف الإدريسي وابن خلدون) فإنها جميعا، تشكل مساحة الشمال الغربي المخصصة للدراسة المنوغرافية، وربما تطلب منا المنهج تقديم ملامح تاريخية عامة ومقتضبة لموطن غمارة للتعريف بالإطار الطبيعي.

المبحث الثاني: تتبع جغرافي تاريخي للمجال المدروس وتسمياته

1- بداية استعمال المصطلح تاريخيا

لا زال الغموض يلف منطقة غمارة، لأن تاريخها لم يدون حتى الآن، شأنها في ذلك شأن كثير من مناطق المغرب، وإن اللقطات المتناثرة التي نعر عليها في ثنايا كتب التاريخ التي تناولت هذه المنطقة غير كافية لإبراز معالم هذه المنطقة، ولا ريب أن جهلنا لهذه المنطقة، والتي هي جزء مهم من جغرافية المغرب، منقصة عظيمة في تاريخنا العلمي والحضاري والسياسي والاجتماعي، الذي ما يزال مقبورا في هذه الناحية، ولعلنا نستطيع تعويض هذا النقص، واستدراك ما فات، بولوج مرحلة جديدة من البحث في طبيعة هذه الربوع بواسطة الحفريات والتنقيبات والتحريرات، وبذلك نستطيع أن نغير عددا كثيرا من نقط تاريخنا القديم، ومراجعة فصوله من جديد، باعتبار أن هذا سيكون لنا مصدرا جديدا، وسندا موثوقا به، في هذا الباب، وسيكشف عن الواقع الحقيقي لمنطقة ذات أهمية كبيرة، كمنطقة غمارة.

إن الباحثين الذين تناولوا بالدراسة منطقة شمال إفريقيا في تاريخها القديم كريمون روجير²، نجده في معرض حديثه عن موريطانيا الطنجية يكتفي بعرض أسماء مدن الساحل القديمة كطنجة وأصيلا وتغسة، وأسماء بعرض القبائل كبرغواطة والقرى كليونش دون الإشارة إلى مصطلح غمارة³.

¹ - محمد عمري، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية: الشمال الغربي المغربي نموذجا من القرن 16-19م، أطروحة لنيل شهادة دكتوراة الدولة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، سنة 2001، ص. 117.

² - Raymond Roger, *Index de Topographie Antique*, Paris, 1925, pp.10-26-41-76.

- Raymond Roger, *Le Maroc Chez les Auteurs Anciens*, Paris, 1924, pp. 11-12.

³ - موريطانيا الطنجية يحددها روجير في مقدمته بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي غربا وبنهر ملوسا (ملوية) شرقا وتخوم درعة جنوبا، أنظر مقدمة كتاب (Raymond Roger, *Le Maroc Chez les Auteurs Anciens*, op. cit., pp. 10-11).

والملاحظة نفسها نلمسها في دراسة طراديل منوبل¹، التي اهتمت بوجود الأثر الفنيقي في الساحل الشمالي، وكان مما استخلصه الدارس أن أهم مدن المنطقة كبادس وتجساس وغيرها تعود نشأتها إلى تاريخ العصر الوسيط. وإذا كانت دراسة شارل أندري جوليان²، وكذلك ما ألفه أحمد صقر³، قد قدمت معلومات في غاية الأهمية للقارئ سواء عن الناحية السياسية أو الإدارية والاجتماعية في شمال إفريقيا، فإن تلك التسمية تظل غائبة في ثانيا سطورها، إذ في موضوع علاقة السكان بالحكم الأجنبي (الفنيقي والروماني) لم نجد إلا مصطلح البربر دون مزيد من التوضيحات. وإن كان البعض يعتقد أن منطقة غمارة كانت تسمى (Socossiri) في عهد الرومان، بحيث أثبتت الأبحاث الأركيولوجية والتاريخية أقدمية الاستيطان البشري، إذ تلقت المنطقة هجرات بشرية من مختلف الأجناس (الفينيقيون، الرومان، الوندال...) ⁴.

وكملاحظة عامة عن هذه الدراسات، يمكن القول إنها لم تزد عن إعطاء نظرة شاملة عن ماضي منطقة شمال إفريقيا، هذه المنطقة التي مازالت أرضا خصبة لميدان البحث الأركيولوجي، باعتبار أقدمية تاريخها العريق في القدم، وقد أكد على هذه الملاحظة المؤرخ عبد الله العروي في إحدى دراسته قائلا: "إن قسما كبيرا من تاريخ المغرب الإسلامي لا يمكن أن يعرف إلا باستعمال تقنيات الحفريات"⁵.

ونحن لا ننكر أهمية هذه الدراسات التي يمكن أن تكشف عن حقائق جديدة تتعلق بتاريخ المغرب، وبعمارة على الخصوص، كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين⁶. إلا أنه بالرغم من تلك الملاحظات السابقة الذكر، يمكننا الأخذ بأقدمية مصطلح غمارة، حسبما ورد عند الرحالة والجغرافي "مارمول"⁷ قائلا: "إن أول سكان بلاد البربر ونوميديا⁸ الذين يسمون حاليا البربر كانوا خمس جاليات أو قبائل من السبئيين، جاؤوا مع مالك الإفريقي ملك اليمن...⁹، وما زالوا يحملون أسماءهم ويسمون صنهاجة، مسمودة، زناتة، وغمارة وهوارة..."¹⁰. ومما

¹ - Taradell (M), *Marruecos Púnico*, Publicaiones de la F.L.R. Ed, Tetouan, 1960, pp. 75-76-77-121.

² - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية 1969، ص. 65.

³ - أحمد صقر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، طبعة تونس 1959، ص. 34.

⁴ - El Gharabaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tangitaine ...*, op. cit, p. 29.

⁵ - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، مطبعة المعرفة الجديدة، الرباط، 1984، ص. 20.

⁶ - Paul Odinet, "Les Berbère", *Revista Africana*, Ceuta, 1930, p. 64.

⁷ - مارمول كرينخال هو رحالة ومؤرخ إسباني (1540م-1570م) كان أحد جنود الامبراطور شارل كان (Quint Charles) وجواسيسه، وقضى حوالي عشرين سنة بالبلدان المغربية منها سبع سنوات أسيرا، ألف كتابا سماه "وصف إفريقيا"، في هذا الكتاب نجد معلومات هامة عن ساكنة بلاد غمارة.

⁸ - نوميديا كانت من الولايات الأربع في إفريقيا الشمالية أيام الوجود الروماني، حدودها تصل غربا إلى الوادي الكبير. أنظر شارل اندري جوليان، م. س، ص. 200، وأحمد صقر، م. س، ص. 315-316.

⁹ - المقصود بذلك الفترة التي عاصرها "مارمول"، أنظر كتابه "إفريقيا"، ص. 4.

¹⁰ - مارمول كرينخال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وأحمد توفيق ومحمد الأخضر، الرباط 1984، ص. 89-90.

يؤكد على أقدمية هذه الهجرات وجود فروع قبائل تنتمي لغمارة بأواسط الجزائر كقبيلة زينات وقرية غمارية في واحات توكورت وأخرى بأولاد نايل وغيرها¹. وكيفما كان الحال، فاسم غمارة قد تغلغل في بحر الظلمات وترك هناك أثر بصماته حيث ما يزال عنوانا ثابتا لجزيرة من جزر الأرخيبيل الكناري داخل المحيط الأطلنطي، الأمر الذي يدل على العلاقات التي كانت موجودة بين المغاربة وبين الكناشين² سكان الأرخيبيل القدماء الذين أثبت اللغويون الصلات التي تربط لغتهم بلغة البربر³.

أما عن بداية استعمال اللفظ بشكل واضح في تاريخ أحداث شمال إفريقيا والمغرب بالخصوص، فإن ذلك على ما يبدو كان منذ الفتح الإسلامي، حسبما أجمعت عليه أغلبية مصادر العصر الوسيط، وإن كان بعضها قد تجاهل ذلك، إما قصدا أو عن غير قصد. فابن الرقيق الذي اعتمد عليه العديد من المؤرخين والباحثين نجده لا يذكر في مؤلفه إلا مصطلح "اليان"⁴ في معرض حديثه عن فتح العرب للأندلس، بل ويجعل من "اليان" هذا أنه من القوط، فحسب النص أنه بعد مجيئه إلى طارق بن زياد الذي سأله عن سبب ذلك أجاب قائلا: "أنا بن ملك الأندلس، وليس بينك وبينها إلا هذا ... وجئت إليكم أدعوكم إليها وأكون دليلكم عليها ..."⁵. كما أن صاحب "فتوح البلدان" في معرض حديثه عن فتح طنجة، لا يذكر سوى أن: "عبد العزيز بن مروان وجه موسى بن نصير سنة 708/89م لفتح طنجة، فنزل بها ... واختط فيها للمسلمين، وانتهت خيله إلى سوس الأدنى ..."⁶.

وفي نفس الوقت نجد "ابن عبد الحكم" صاحب فتوح إفريقية والأندلس يكتفي فقط بالإشارة إلى أن عقبة بن نافع كان مقتله على يد الكاهنة والبرابرة عام 682/63م⁷. لكن القلقشندي يقدم إيضاحات أكثر بخصوص بداية استعمال اللفظ وظروف تلك بقوله: "وكانت هذه المدينة (سبتة) قاعدة لهذا القطر بل الإسلام، وهي يومئذ ديار غمارة من المصامدة والحاكم عليها ملك القوط، وكان ملك غمارة بها زمن الفتح يقال له "يليان"⁸، ولما

¹ - Odinet (p), "Les Berbères" ..., op. cit., p. 64.

² - عرف سكان الكناري القدماء باسم الكناشين، ويرجح الباحثون أنهم ينحدرون من أصول إفريقية استنادا إلى التقارب الموجود بينهم وبين البربر في الملامح واللغة وغير ذلك.

³ - التقي العلوي، "اصول المغاربة: القسم البربري، غمارة وحلفاؤها"، مجلة البحث العلمي، العدد 31، سنة 1980، ص ص. 27-28.

⁴ - أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم ابن الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، طبعة تونس 1968، ص ص. 73-74.

⁵ - ابن الرقيق، تاريخ إفريقية والمغرب، م. س، ص ص. 73-74.

⁶ - أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، طبعة بيروت، 1978، ص. 232.

⁷ - عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، طبعة بيروت، 1964، ص ص. 46-58-61.

⁸ - اليان الغماري (اويليان) شخصية تاريخية قيل عنها الكثير، لدرجة أن هناك من يشك في وجودها الحقيقي، وذلك لكثرة الأساطير التي تحوم حولها منذ أكثر من اثني عشر قرنا، والسبب في ذلك يرجع إلى كون أقدم مصدر أثبت وجودها أطلق عليها اسم "اورباني" أو "اوربانوس" بدلا من اليان، ونعني بذلك التاريخ الذي كتبه القسيس اسيدورو دي بيخا الذي يعرف بتاريخ البائيسي ويرجع تاريخه إلى سنة 754م، أي أنه وضع بعد الفتح الإسلامي 43 سنة. وكان ابن عبد الحكم أول مؤرخ عربي أثبت وجود اليان وسماه يليان وتبعه في ذلك كل من ابن حوقل واليعقوبي وابن عذارى والمقري وغيرهم.

زحف إليها موسى بن نصير ... زمن الفتح جاء معه بالهدايا وأذعن لأداء الجزية، فأقره عليها ...¹. كما يضيف ابن خلدون في نفس السياق قائلاً: "ولم تنزل غمارة هؤلاء بموطنهم هذه من لدن الفتح ... وأنزل منهم عسكرياً مع طارق طنجة، وكان أميرهم لذلك العهد يليان ..."². وإذا كان يؤخذ على المصادر العربية للتاريخ الوسيط اختلافها في رواية الأخبار بخصوص المصطلحات وأحداث الوقائع، فقد رأينا كيف أن البعض اتخذ من اليان أو يليان ابن ملك القوط بالأندلس (كابن الرقيق)، ووصفه (القلقشندي) بملك غمارة، في حين ذكره (ابن خلدون) بأمر سبتة، وتبعاً لهذا الاختلاف ذهب أحد الدارسين³ إلى القول بأن يليان كان حاكماً عاماً زمناً طويلاً على إقليم موريطانيا الطنجية .

وكمثال آخر على اختلاف أخبار العصر الوسيط فيما يخص تحديد زمن الأحداث، ذهب البكري إلى القول بأن اليان عاصر عقبة بن نافع خلال أحداث الفتح، أي في الستينات من القرن الأول الهجري السابع الميلادي، حسبما ورد في النص: "فلما غزا عقبة بن نافع القرشي أرض المغرب وصار إلى سبتة خرج إليه اليان بهدايا"⁴.

في حين اتفق كل من "ابن الرقيق" و"القلقشندي" وكذلك "ابن خلدون" على أن ذلك الحدث كان في التسعينات، من نفس القرن، زمن موسى بن نصير كما سبقت الإشارة. وبالنسبة للجغرافيين الأوربيين، فإن أصول غمارة القديمة كانت أمازيغية بكل تأكيد⁵، حيث يقول موليراس: "وفي 63 هـ (682-683م) تمكن القائد الشهير عقبة بن نافع، في إطار حملته الكبيرة على المغرب، من الدخول إلى سبتة وبعدها إلى المناطق الغمارية المأهولة بالسكان الأمازيغية، حيث بلغ جنوبها. وكيفما كان الأمر فإن هذا القائد العربي وجد القبيلة الغمارية فوق التراب الذي مازالت تقيم به إلى حد الآن"⁶. وبالرغم من هذه الملاحظات تبقى هذه المصادر هي المادة الأساسية التي أفادتنا بخصوص إشكالية بداية استعمال المصطلح، والذي نستطيع القول بأنه برز متزامناً مع ظروف أحداث القرن الأول الهجري السابع الميلادي، في منطقة شمال إفريقيا والمغرب على الخصوص.

¹ - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، الجزء الخامس، دار الكتب المصرية، سنة النشر 1340هـ/1922م، ص.158.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء 6، دار الكتب العلمية، طبعة بيروت، 1968، ص.281.

³ - محمد بن تاويت التطواني، تاريخ سبتة، دار الثقافة، طبعة الدار البيضاء، 1982، ص.15.

⁴ - محمد أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، قسم المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشره دوسلان، طبعة الجزائر 1857، ص.90.

⁵ - أوجست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف جباله، الجزء الثاني، م. س، ص. 275.

⁶ - المصدر نفسه، ص. 275.

2- دلالة المصطلح:

نتوخى من هذه المحاولة-وهي أساسية-توضيح ما المقصود بغمارة، لأن معرفة ذلك منذ البداية سيساعدنا على تدليل كثير من الصعوبات، خاصة ما يتعلق بتأطير زمن الأحداث ومكانها، في الفترة المحددة في البحث. غمارة اسم قديم، ضارب في أعماق التاريخ، لا يعرف بالضبط متى أطلق على هذه المنطقة التي تعرف اليوم بهذا الاسم، والمرجح أن تكون المنطقة أخذت اسمها هذا من غمار بن أصياد بن مصمود الجد الأول للغمارين، والذي تردد اسمه في الروايات التاريخية، حيث تذكره هكذا: "غمار بن مسطاف بن مليل بن مصمود ومرة غمار بن مصمود"¹.

وتجدر الإشارة إلى أنه مما استرعى انتباهنا ونحن بصدد التأريخ لغمارة، اختلاف جماعة من الدارسين بشأن دلالة المصطلح، ففي نظر البعض²، أنها كانت تعني مجموعة من القبائل، وفي نفس الوقت استشكل الأمر على أحد الدارسين³، أثناء تعريفه لغمارة هل هي قبائل أم جبال؟ كما ظل مفهوم الدلالة غامضا حسب بعض الدارسين الأجانب، فقد اكتفى "جاك بيرك" بالقول: "إن غمارة اسم من أشهر الأسماء في تاريخ المغرب، وهي أحد العناصر البربرية"⁴، وقال عنها "بول أودينو" إنها قبيلة مغربية، لكن يجهل موطن استقرارها⁵، وحسب لويس سكو إنها كانت قبيلة خاضعة لملك إسبانيا⁶، بينما يفهم من كلام "روبير ريكار" أنها منطقة تنتهي إلى إقليم الهبط⁷.

وخلاصة القول، فإنه يمكن القول إن هذه الدراسات في مجملها، رغم ما تقدمه للقارئ من معلومات هامة في ميدان التاريخ المعرفي، فإنها بالنسبة لموضوع بحثنا لا تزيد الأمر إلا غموضا بخصوص تلك الدلالة، فالذين اعتبروا غمارة قبيلة أو قبائل، يبقى السؤال مطروحا حول ماهي عصبية تلك القبيلة وروابطها ونظامها السياسي، إلى غير ذلك مما يدخل فيما يعرف بالبنية القبلية. كما أن الرأي الذي ذهب إلى أنها كانت منطقة جغرافية، فبالرغم من أهميته، يظل غير كاف وينقصه كثير من الوضوح.

فهل بعد هذه الآراء المتباينة يمكننا إيجاد حل لإشكالية التسمية، بالنظر إلى المعنى الاصطلاحي للفظ؟

¹ - عمر الجيدي، ابن عرضون الكبير حياته وآثاره-آراؤه وفقهه، منشورات عكاظ، 1987م، ص. 14.

² - حسين مؤنس، الفتح العربي للمغرب، طبعة القاهرة، سنة 1947، ص. 30.

- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، طبعة الرباط، 1968، ص. 65.

³ - المريني العياشي، صور من التاريخ البطولي لمنطقة جبال، طبعة طنجة، 1983، ص. 16.

⁴ - Jacques Berque, *L'intérieur du Maghreb*, (XVe-XIXe siècles), Éditions Gallimard, Paris, 1978, p. 143.

⁵ - Paul Odinet, "Les Berbères" ..., op. cit, p. 64.

⁶ - Luis Seco de Lucerna, *Marruecos a Cornienagos del Siglo 15*, Tetuan 1951, p. 25.

⁷ - Robert Ricard, *Un Description du Habt en 1648*, T 26, Larose, Paris 1937, p. 195.

إن معرفة دلالة المصطلح لغويا يظل غير واضح، بالمقارنة مع بعض المصطلحات الأخرى، فعلى سبيل المثال منطقة "الحوز" جاء اشتقاق اللفظ من حز ويحوز بمعنى امتلك الشيء، ونسبة إلى ذلك سميت المنطقة بذلك الاسم¹. كما أن كلمة هسكورة هي تعريف "اسيكورن" ومفرده اسكور وهو اسم للناس، وبه عرفت قبيلة هسكورة²، أما بالنسبة لغمارة فإننا اعتمادا على "ابن منظور" في مؤلفه³، لا نجد علاقة بين تلك المشتقات اللغوية الكثيرة والمصطلح، نذكر منها على سبيل المثال: غمر (كثرة) وبحر غمر (شديد) وغمارها (شدائدها)، والغمير (نبات يخرج في أوائل فصل المطر) وجمع الغمر (أغمار). وإذا كان أحد الدارسين⁴، قد ذهب إلى القول في نفس السياق بأن لفظ غمارة له صلة قوية وواضحة بكلمة (اغمو أوتغمرت)، وهذه المصطلحات حسب اعتقاده تعني لفظ الزاوية أو الركن من كل تراب هم الواقع في الشمال الغربي لمنطقة شمال إفريقيا، ويبقى السؤال مطروحا حول متى تم استعمال هذين المصطلحين، لا سيما وأننا لاحظنا اعتماد الدارس في رأيه على "أبي الفدا" هذا الأخير الذي عاش في القرن الرابع عشر الميلادي (ت 1331م)⁵. وبالرغم من هذه الاختلافات بخصوص توضيح معنى غمارة، وسكوت أهم المصادر والمعاجم عن ذلك، فإنها دفعتنا إلى الرجوع إلى أمهات المصادر في محاولة للتعريف بدلالة اللفظ، متتبعين ذلك تاريخيا إلى غاية فترة بحثنا.

يفهم من كلام "مارمول" الذي سبقت الإشارة إليه قبل قليل، أن اسم غمارة كان يعرف كقبيلة من تلك القبائل التي سكنت في منطقة شمال إفريقيا، بعد أن وفدت من الشرق في تاريخ مجهول⁶، ومفهوم هذه الدلالة الاجتماعية أشار إليه أيضا ابن خلدون في تاريخه قائلا: "وأما المصامدة وهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم من بطون برغواطة وغمارة"⁷. إلا أنه يلاحظ تحول في ذلك المفهوم منذ القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، إذ أصبحت تعني منطقة جغرافية معمورة بساكنة غمارية، حسبما تؤكد إحدى المصادر "كالمعجب" الذي ورد فيه: "لما وفد ابن إدريس، قسم المغرب بين إخوته... ولى أخاه عمر مدينة تيجساس ومدينة ترغة وبلاد صنهاجة وغمارة..."⁸.

وظلت غمارة تعرف بنفس هذا المعنى زمن البكري الذي توفي في القرن الخامس الهجري (1094/487م)، فيذكر بشأن ذلك: "أما الطريق من سبتة إلى مدينة تيجساس فإلى واد راس⁹ كما تقدم، ثم

¹ - Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, Tome 2, Rabat 1983, pp. 16-28

² - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر "اينولتان" (1850-1912)، الرباط 1983، ص. 93.

³ - جمال الدين ابن منظور الأنصاري، لسان العرب المحيط، إعداد يوسف خياط، بيروت، 1970، ص. 1013-1015.

⁴ - التقي العلوي، "أصناف البربر"، مجلة البحث العلمي، العدد 31، الرباط، 1979، ص. 29.

⁵ - مصطفى أبو ضيف أحمد، دراسات في تاريخ الدولة العربية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، طبعة 1986، ص. 541.

⁶ - مارمول، إفريقيا، مصدر سابق، ص. 89-90.

⁷ - ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص. 280.

⁸ - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبعة سلا، 1938، ص. 42.

⁹ - وادراس، ذكرها ابن خلدون في تاريخه وجعلها قرب تطاون، م. س، ص. 216.

تدخل أرض غمارة فتسير في بني جغو، ثم في بني نفاوة ثم في بني حميد من غمارة أيضا...¹ ونفس الدلالة الجغرافية الاجتماعية نجدتها في العصر المرابطي (448هـ-575هـ/1065م-1179م) حسبما يفهم من كلام "ابن خلدون" في تاريخه قائلا: "... وارتحل يوسف بن تاشفين إلى فاس ... ثم رجع إلى غمارة ... وفتح كثيرا من بلادهم"². كما وصفها "الإدريسي" الذي عاش في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بأنها: "جبال عامرة ... كان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الأرض..."³، وتحدث عنها القلقشندي الذي عاش في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي قائلا: "جبل غمارة وهي قبيلة من البربر أيضا وهو جبل فيه الأمم ما لا يحصيه إلا الله..."⁴.

ويستخلص من خلال هذه النصوص أن دلالة المصطلح عرفت تطورا من مفهوم تنظيم اجتماعي ضيق "القبيلة" في القديم إلى منطقة جغرافية تسكنها ساكنة غمارية، وذلك نتيجة عدة عوامل تاريخية وسياسية واجتماعية. وهذه الدلالة نفسها هي التي أشارت إليها مصادر فترة الدراسة (كموليراس وميشو بيلير)، بينما ذهب الوزان في وصفه لجبال الهبط: "... في الهبط ثمانية جبال أشهر من سواها تسكنها قبائل غمارة"⁵.

وخلاصة القول، فإن دلالة المصطلح خلال بحثنا أصبحت تعني منطقة جغرافية تسكنها ساكنة من الناس تنتمي إلى نفس الاسم الذي عرفت به المنطقة تاريخيا، والملاحظ أن أسماء قبائل غمارة عربية (بني زيات، وبني بوزرة، وبني جرير، وبني سميح، وبني رزين، وبني خالد، وبني زجل، وبني سلمان، وبني منصور)، وهي متفرعة من بني نال، وهما أخوان، كما تذكر الرواية التاريخية، ويذكر أبو حامد الفاسي أن من يال تفرعت بنو زيات وبني سلمان، وبني منصور، وبني بوزرة، وتفرع نال إلى بني خالد، وبني رزين، وبني جرير، وبني سميح⁶، وترجع أسباب هذه التسمية العربية إلى الأشخاص الذين حكموا تلك المناطق، فسميت بأسمائهم، أو أن ذلك يرجع إلى كبير القبيلة صاحب النفوذ. وتختلف حدود هذه القبائل باختلاف الأزمان، والتي كما سنرى عرف نوعا من التطور.

3- مجال غمارة بين الامتداد والتقليص

اهتم الدارسون القدامى والمحدثون في مؤلفاتهم بتحديد مجال غمارة وامتدادها، إلا أن ما يلاحظ هو الاختلاف الشاسع بينهم في هذا المجال وتعدد الرؤى حوله، الأمر الذي يطرح صعوبة في وضع إطار جغرافي

¹ - البكري، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ص.108.

² - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 246.

³ - الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، "ماخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق"، تقديم هنري بريس، دار الكتب، طبعة الجزائر، 1957، ص ص 108-110.

⁴ - القلقشندي، صبح الأعشى...، مصدر سابق، الجزء 5، ص.173.

⁵ - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، طبعة الرباط، 1980، ص. 248.

⁶ - عمر الجيدي، ابن عرضون الكبير، حياته وآثاره-آراؤه وفقهه، منشورات عكاظ، 1987، ص. 18.

لقبائل غمارة، بشكل محدد وثابت خلال جل الفترات التاريخية. وتعود أهم الروايات التي تناقلتها الكتابات التاريخية حول قبائل غمارة إلى ما أورده الحسن الوزان، الذي أكد أن مجال غمارة يمتد ما بين طنجة ونواحيها غربا إلى تخوم تلمسان شرقا قائلا: "... وتسكن غمارة جبال موريطانيا المحاذية للبحر المتوسط، وتحتل الساحل المسمى بالريف، والذي يبتدىء من أعمدة هرقل¹، ليصل شرقا إلى تخوم مملكة تلمسان².

إلا أن هذا الامتداد الكبير طرأ عليه تغيير، وذلك منذ أحداث الفتح الإسلامي، حسيما يفهم من كلام ابن خلدون في تاريخه قائلا: "إنهم (غمارة) بطن من بطون المصامدة وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر، يعتمرون جبال الريف بساحل البحر الرومي من عن يمين بسائط المغرب، من لدن غساسة، فنكور فبادس فتيكيساس فيطاوين فسبنة فالقصر إلى طنجة خمس مراحل أو يزيد، أوطنوا منها جبالا شاهقة، اتصل بعضها ببعض سياجا بعد سياج خمس مراحل أخرى في العرض إلى أن يتنخط إلى بسائط قصر كتامة ووادي ورغة عن بسائط المغرب³، وآخر غمارة بطوية مما يلي غساسة"⁴. وواضح من خلال هذا النص كيف أن مجال غمارة أصبح عند الفتح الإسلامي ينحصر من الشرق بغساسة ونكور خلافا لما سبق تخوم (تلمسان)، واستمر تقلصه فيما بعد القرن الأول الهجري/السابع الميلادي وذلك نتيجة عوامل متداخلة سياسية واقتصادية وبشرية. فقد كان أبرز حدث عرفه الساحل الشمالي للمغرب في هذه المرحلة هو تأسيس أول إمارة إسلامية في نكور بواسطة سعيد بن إدريس بن صالح⁵، وكان ذلك حسيما يذكر ابن خلدون: "أعوام إحدى وتسعين من الهجرة..."⁶، ولو حظ في بداية تاريخها (الإمارة) تعايش قبائل غمارة، إلا أن ارتداد أغلبية الغماريين عن شرائع الإسلام، دفعت بأحد أمراء نكور وهو سعيد بن صالح سعيد في عام 272هـ/885م إلى غزو مجالها (كبلاد بطوية ومريسة وقلوع جارة ورتندي)⁷.

يستنتج من هذه الأحداث تراجع مجال المنطقة المدروسة، خاصة من نواحيها الشرقية لحساب إمارة نكور الناشئة⁸. وعرف ذلك المجال أيضا تراجعا آخر في ناحيته الغربية منذ زمن البكري كما يفهم من قوله: ومن

¹ - أعمدة هرقل، المقصود بها جبل طارق، كان يسمى بالجاز أعمدة هرقل في التاريخ القديم، أنظر عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص. 259.

² - الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص. 30.

³ - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص. 245.

⁴ - المصدر نفسه، ص. 133.

⁵ - البكري، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ص. 92-93.

⁶ - ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص. 283.

⁷ - المصدر نفسه، ص. 284.

⁸ - نكور أو النكور أو إمارة بني صالح: هي إمارة تاريخية لسلالة الصالحيين، ظهرت منذ سنة 710م على يد صالح بن منصور في تمسمان في منطقة الريف، وهي أول إمارة مستقلة بالمغرب الأقصى بعد ثورة المغاربة على ولاة بني أمية، كما أنها تمهذبت بالمذهب المالكي السني خلافا لباقى الإمارات المغربية الأخرى كبنى مدرار وبرغواطة.

المنازل المعمورة بين سبتة وطنجة نهر اليان، وفي غرب هذا النهر موضع يعرف بكروشت وهو آخر غمارة ومصمودة ويتصل بهم هناك مشنة من صنهاجة...¹ وقد ذكر الشريف الإدريسي أن غمارة تبدأ من أنزلان ناحية طنجة، حيث يقول: "وأنزلان مرسى عامر، وهو أول بلاد غمارة". وأما شرقا فيجعل بادس آخر بلاد غمارة، "وطولها نحو ثلاثة أيام" ثم يأتي بذكر مجموعة من المدن والحصون الساحلية لبلاد غمارة ومراسيها، إلى أن ينتهي ببادس التي اعتبرت قطبا حضاريا يلجأ إليه سكان غمارة للتسوق وقضاء حاجاتهم. أما جنوبا، تتصل غمارة بجبل الكواكب، ويمتد في البرية مسيرة 10 أيام حتى تنتهي قرب مدينة فاس.²

وفي العصر المرابطي لوحظ حرمان ساكنة غمارة من التمتع بخيرات حوض ورغة الذي كان يعتبر ضمن مجالها الواسع نحو الجنوب، وذلك ما أكده نص ورد عن صاحب "الاستبصار" قوله: "وذلك إذا قمت من واد سبو أخذت عن يمينك في عمائر متصلة إلى مدينة تاودا³، وكانت مدينة كبيرة أسسها الملمثون ليملكوا منها جبل غمارة..."⁴. وإذا كانت هذه القرائن تفيد فيما عرفه مجال المنطقة المدروسة من تراجع نتيجة عوامل سياسية واقتصادية، فإنه إلى جانب ذلك يمكن إضافة عامل آخر كانت له مساهمة في تلك الخاصة، ونقصد به ما حدث من هجرات القبائل العربية إلى المنطقة.

أما عن أسباب تلك الهجرات، فتشير إحدى المصادر إلى أن عبد المومن الخليفة الأول في الدولة الموحدية، بعد أن تم إخضاع إفريقية عام 554هـ/1159م قسّم البلاد من برقة وبلاد نول والسوس الأقصى، وبعد فرضه الخراج وإخلال العرب بعهدهم له على الطاعة، قرر نقل ألف شخص من كل قبيلة عربية بعيالهم إلى المغرب. وتحدث ابن خلدون عن هجرات أخرى إلى المغرب قائلا: "ولما نقل المنصور⁵ رياحا إلى المغرب وانزل مسعودا وقومه لبلاد الهبط ما بين قصور كتامة... إلى أزغار البسيط... هناك إلى ساحل البحر الأخضر⁶... واستقروا هناك..."⁷.

وهكذا يتبين لنا أن ذلك التوتر في العلاقة بين القبائل العربية بإفريقية والحكم الموحدية نتج عنه ترحيل قبائل بأكملها إلى نواحي من المغرب كقبائل رياح وبطنوهم (بنو هلال) الذين استقروا في منطقة المجال

¹ - البكري، المسالك والممالك...، مصدر سابق، ص ص. 91-98.

² - الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، 1763م، ص ص. 180-181.

³ - تاودا: هي القرية المعروفة اليوم بفاس البالي، الكائنة بطن البوار من قبيلة فشتالة. أنظر ابو بكر بن علي الصنهاجي البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور للطباعة والوراقة، طبعة الرباط 1971، هامش ص. 24.

⁴ - مجهول، الاستبصار في ممالك الأمصار، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، طبعة الاسكندرية 1958، ص. 40.

⁵ - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابسالا 1982، ص. 139.

⁶ - المقصود به يعقوب المنصور الموحدية الذي حكم ما بين 580-595 هجرية و1184-1198 ميلادية.

⁷ - البحر الأخضر، المقصود به المحيط الأطلسي، أنظر ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 44.

الغماري، مما أسفر عن تخلي قبيلة بني حسان الغمارية عن موطنها عند حدود تامسنا، والتي سكنت نواحي من جنوب شرق تطوان كما توجد عليه الآن¹.

ويستفاد مما تقدم أن مجال المنطقة المدروسة طرأ عليه تغير كبير، كانت سماته التقلص وذلك منذ القرن الأول الهجري السابع الميلادي إلى السادس الهجري الثالث عشر الميلادي. فماذا يمكن أن نقول عن ذلك المجال خلال الفترة الحديثة والمعاصرة؟

قدم لنا الوزان وصفا لغمارة التي كانت تتكون من ثمانية جبال تسكنها ساكنة غمارية، لكنه لم يرسم لنا خريطة ولم يحدد إطارا لمجالها، بخلاف ما لاحظناه في وصفه لمناطق أخرى كمنطقة الأزغار التي حددها قائلا: "بلاد الأزغار تنتهي من ناحية فاس عن المحيط شمالا وبنهر أبي رقراق غربا وبعض جبال غمارة شرقا، وجنوبا بجوار نهر بونصر..."². ويستفاد من هذا التحديد للأزغار أنه هو نفسه الذي كان معروفا إداريا منذ القرن الخامس عشر الميلادي في عصر بني مرين³.

ومن هنا يمكن القول إن حالة عدم الاستقرار التي طبعت علاقة سكان غمارة بالمخزن المريني، بسبب تعسفه في مسألة الجبايات⁴، كانت من بين الأسباب الرئيسة التي حالت دون ضبط المنطقة (غمارة) وقبائلها إداريا، مما دفع بالرحالة إلى الاكتفاء بالوصف التالي: "جبال الهبط ثمانية جبال أشهر من سواها تسكنها قبائل غمارة ولهم جميعا نفس النمط في المعاش والأخلاق... وهي جبل رهونة وبني زكار وبني عروس وجبل حبيب وبني حسان وجبل أنجرة ووادراس وبني كرفط"⁵.

ويتبين لنا من خلال هذا الوصف مدى صغر ذلك المجال الذي ينحصر في تلك القبائل الثمانية، والتي كان موقعها إلى الغرب من المنطقة المدروسة، وهو وصف على ما يبدو جاء نتيجة ظروف تأليف الوزان لكتابه، إذ تم ذلك العمل في روما بإيطاليا وفي فترة اعتمد فيها المؤلف على ذاكرته، باعتبار ضياع مذكراته ولمدة عشر سنوات، مما جعل المؤلف نفسه يعتذر عن أخطاء قد وقع فيها عند النقل⁶. إلا أنه لا يفهم من خلال هذه الملاحظات التقليل من أهمية المصدر، بل إننا اعتمدنا عليه، وعلى ما ورد في كتاب "مارمول"، الذي كان قد قضى مدة تزيد عن اثنتي عشرة سنة، تجول خلالها في المغرب، بين بلاد سوس ومنطقة فاس وغيرها⁷.

¹ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص ص. 43-44.

² - التقي العلوي، "أصل المغاربة"، مجلة البحث العلمي، العدد 31، الرباط 1971، ص. 223.

³ - الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص. 233.

⁴ - محمد المنوني، "نظم الدولة المرينية"، مجلة البحث العلمي، العدد الأول سنة 1969، ص. 253.

⁵ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 297.

⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص ص. 248-249-250-251.

⁷ - مارمول، إفريقيا، مصدر سابق، ص ص. 4-5.

فبالنظر إلى هذا المصدر، ومصادر أخرى نستطيع القول بأننا أمام مجال أوسع بكثير مما وصفه الوزان سابقا، كما يتضح ذلك فيما ذكر "مارمول" عن إقليم الريف قائلا: "هذا الإقليم يبتدئ غربا من التخوم الشرقية لمدينة تطاوين في اتجاهه شرقا إلى واد نكور، ويمتد جنوبا إلى غاية تلك الجبال التي تشرف على نهر ورغة، وهو عبارة عن سلاسل جبلية ... وأن سكانه برابرة أفارقة من غمارة ... ولا يوجد بالإقليم إلا ست مدن قريبة من بعضها، ترغة، بادس، يليش، جبهة، تغسة، مزمة"¹. كما أورد ابن عزوز حكيم خريطة لقبائل غمارة خلال العصر المريني، وتضم خمس عشيرة قبيلة تبدأ من الغرب بقبيلة بني سعيد لتنتهي بقبيلة متيوة شرقا، وجنوبا بالاحماس وبني احمد وغزاوة². وبناء على ما سبق كانت منطقة غمارة خلال القرن السادس عشر الميلادي تنحصر من ناحية الشرق ببادس³ ونواحيها، وتمتد غربا إلى تلك المرتفعات التي تنحصر بين سبتة وطنجة، أي إلى المناطق الممتدة ما وراء قبيلة أنجرة. وعلى امتداد هذه السلسلة الجبلية توجد قبائل بني كرفط وبني عروس التي سبقت الإشارة إليها عند الوزان، بل وحتى صاحب (الدوحة) في معرض حديثه عن أحد تراجم المنطقة يذكر: "ومنهم الشيخان الأجلاء أبو زيد عبد الرحمان وأبو الحسن ... توفي أبو زيد في حدود الخمسين من القرن ... ودفن بتازروت حول جبل العلم من بلاد غمارة"⁴. أما جنوبا فقد كان المجال الغماري يمتد إلى غاية تلك المرتفعات المشرفة على وادي ورغة. وكلما تقدمنا في الزمن، ازداد مجال غمارة في التقلص، لينحصر خلال الفترة المعاصرة في مساحة ضيقة، بين الشاطئ الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وجبل تيزران⁵، الفاصل الطبيعي بين غمارة وكنامة وبني احمد وبني زروال. وان كان البعض قد ادعى إبادة قبائل غمارة خلال القرن الثامن عشر، حيث يقول مولييراس في هذا الصدد: "وفي سنتي 1765م و1766م، قاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حملة عسكرية على الساحل المتوسطي ومر بتطوان وغمارة ثم عاد عن طريق تازة، غير أن الزياني من جهته بالغ في وصف الحدث، حيث قال: وتمت إبادة كل هذه القبائل، وعلى ما يبدو فإن غمارة لم تتعرض للإبادة، ما دامت قد تمردت من جديد بعد مرور سنوات على إبادتها المزعومة"⁶.

1 - مصدر سابق، ص. 135.

2 - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، دورها في الدفاع عن حوزة الوطن وفي المقاومة المسلحة ضد الغزو العسكري الإسباني، أسرة أولاد ابن مرزوق نموذجاً، الجزء الأول، مطابع الشويخ، تطوان، طبعة 2007، ص. 22.

3 - بادس مدينة مغربية قديمة، يقول الشريف الإدريسي " بادس مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات، ويلجا إليها أهل الريف لقضاء حوائجهم" كانت بادس مركز استقرار للأدباء ورجال الفقه ومختلف حقول المعرفة المتداولة في ذلك الزمان، انهار عمران المدينة مع انهيار الدولة الوطاسية وقيام الدولة السعدية، حيث نشبت معارك طاحنة بين جيوش الدولتين، ليتم تدميرها نهائيا من طرف الإسبان سنة 1564م بعد سيطرتهم على الجزيرة بقيادة الجنرال غارسيا طوليدو.

4 - محمد بن عسكر الشفشاوني، دوحه الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1977، ص. 19.

5 - جبل تيزران هو أعلى قمة جبلية في بلاد غمارة ويصل ارتفاعه 2106م ويعني بالأمازيغية الطول والعلو.

6 - أوجست مولييراس، المغرب المجهول، اكتشاف جبالة، الجزء الثاني، م. س، ص. 280.

وخلال القرن التاسع عشر نجد المصادر الأجنبية تؤكد تراجع مجال غمارة حيث يقول مولييراس: "غير أن حدود غمارة كانت أكثر امتدادا مما عليه الآن".¹ إذ تقاسمت هذا المجال المدروس عشر قبائل جبلية صغيرة هي من الغرب إلى الشرق، بني زيات، وبني بوزرة، وبني جرير، وبني سميح، وبني رزين، وبني خالد، وبني زجل، وبني سلمان، وبني منصور، ومتيوة، احتفظت هذه القبائل بانتمائها لغمارة القديمة، يحدها من الشمال الغربي واد لو، ومن الشرق واد أورينكا²، والملاحظ أنها اندمجت حسب الرسائل المخزنية الصادرة خلال القرنين 18م و19م في قبيلة واحدة هي غمارة، التي كانت تابعة إداريا لعمالة تطوان، أي أن القبائل القديمة تحولت إلى فرق وأصبحت جزءا من القبيلة الأصلية، هذه الفرق المكونة لقبيلة غمارة بقيت إلى حدود القرن التاسع عشر، غير أنه مع بداية القرن العشرين وبعد دخول المغرب تحت الاحتلال الإسباني سنة 1912م، سيتم تبني تقسيم جديد سيضم كل من قبيلة بني احمد وغزاوة والاحماس إلى قبيلة غمارة.

كما تعرض العربي اللوه للحديث عن قبائل شمال المغرب، واستعمل لفظة "جباله" للدلالة على قبائل ومدن الجهة الغربية من الشمال، فاعتبر قبيلة متيوة وبني خالد وبني رزين من القبائل الجبلية المجاورة للريف³. بينما يذهب صاحب "الظل الوريث في محاربة الريف" في سياق تعريفه للريف وتحديد مجاله، إلى أن قبيلة متيوة قبيلة ريفية، وهي آخر القبائل الريفية البحرية في أقصى غرب الريف⁴. وفي نفس الإطار يذهب الباحث عبد الرحمان الطيبي معرفا للريف، فأورد أن الريف الغربي⁵ يمتد ما بين خط النكور وخط راس الجهة⁶، ويعتقد ان هذه الحدود كانت قارة لوجود وادي أورينكا الذي يحتضن قبيلة متيوة، ويصب غرب الجهة، وعليه فإن مسطاسة ومتيوة هي أقصى قبائل الريف الساحلية من جهة الغرب⁷. كما أشار بنعبد الله إلى امتداد غمارة من بلاد الريف الى المحيط الأطلسي، وتقلصها إلى عشر قبائل من حدود قاع أسراس إلى بني سميح⁸، أي من وادي لو إلى وادي أورينكا. أما الكتابات الأجنبية حول المنطقة خلال الفترة المدروسة، فجعلها اعتبرت قبيلة متيوة ريفية

¹ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 275.

² - أوجست مولييراس، مصدر سابق، ص. 279.

³ - العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطابع الشويخ، تطوان، 1982، ص. 44.

⁴ - أحمد سكيح، الظل الوريث في محاربة الريف، دراسة وتحقيق رشيد يشوتي، تقلد الدكتور حسن الفكيكي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 2010، ص. 76-79.

⁵ - يستعمل عبد الرحمان الطيبي التقسيمات (الريف الغربي والأوسط والشرقي) بتحفظ، للتسهيل على القارئ فهم مجال الدراسة فحسب، مفضلا استعمال كلمة الريف.

⁶ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية، قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2008، ص. 24.

⁷ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، مرجع سابق، ص. 26.

⁸ - عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل، ملحق 2، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1977، ص. 325-326.

ووادي أورينكا هو الحد الفاصل بين غمارة والريف، في حين هناك اختلاف فيما بينهما بخصوص عدد قبائل غمارة، فمنهم من اعتبرها تسع قبائل، وهي بني سميح وبني جرير وبني رزين وبني منصور وبني بوزرة وبني سلمان وبني زيات وبني زجل وبني خالد، بينما يضيف البعض قاع أسراس¹.

من خلال ما سبق يمكن القول إن غمارة كانت تضم مجمل شمال المغرب خلال القرون الهجرية الأولى، وتراجعت حدودها الشرقية إلى بادس، بسبب التطاحنات القبلية (مصمودة و صنهاجة). ذلك أن العنصر الغماري المصمودي كان سائدا في كثير من جهات شمال المغرب إلى جانب العناصر الصنهاجية، حيث قاموا بتكوين حلف مع البرانس للقضاء على مملكة نكور خلال القرن الثالث الهجري²، حيث كانوا يشكلون الاتحاد الغماري القوي، الذي انحل حلفهم وانكشمت رقعتهم وتراجعوا إلى مواقعهم الحالية بسبب تعرضهم للهجمات الصنهاجية³. وهكذا تقلصت غمارة وانقسمت إلى عدد كبير من القبائل تحمل أسماء فرعية وهي التي تعرف بقبائل جباله، بينما المجموعة التي ما تزال تحمل الاسم الأصلي القديم (غمارة)، هي التي أصبحت مع مطلع القرن 19م، تشمل القسم الجبلي الشرقي من مجموع محيط الشمال الغربي بحدوده الساحلية، من مصب واد لو إلى مصب وادي أورينكا عند رأس الجبهة من متيو⁴.

ويمكن القول في الأخير أن تحديد مجال قبائل غمارة يقتضي تحديد الإطار الزمني أولا، لأنه وكما سلف، شملت قبائل غمارة بلاد الريف خلال القرون الهجرية الأولى وتقلصت إلى حدود بادس خلال العصر الوسيط. أما خلال الفترة المدروسة، فتمثلت قبائل غمارة من تسع قبائل، أما متيو، فبالرغم من أنها قبيلة ريفية، فقد ظلت تابعة لاتحاد قبائل غمارة، حتى مع دخول الاستعمار الإسباني⁵. وإذا كانت كتب الرحالة والجغرافيين قد اتفقت على سمات المنطقة الجبلية، فما هي إذن أهم معالم معطيات الإطار الجغرافي لمجالها؟

¹ -Ricardo Donoso-Cortés, *Estudio Geográfico Político- Militar Sobre las Zonas Españolas del Norte ya sur de Marruecos*, Librería Gutenberg de José Ruiz, Madrid. 1913, p. 211.

² - أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد الأندلس والمغرب... م. س، ص. 95.

³ - الطيبي، الريف قبل الحماية... م. س، ص. 65.

⁴ - حسن الفكيكي، "مادة جباله"، معلمة المغرب، قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى، الجزء 9، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2002، ص. 2902.

⁵ - تبين مجموعة من الوثائق أن قبيلة متيو ظلت خاضعة لقائد قبيلة غمارة طيلة الفترة المدروسة، إلا في بعض الحالات، سببها فيما بعد.

المبحث الثالث: المعطيات الطبيعية لبلاد غمارة

ليست الغاية من هذا المبحث تقديم درس في جغرافية منطقة الشمال الغربي المغربي، بل المراد هو تقديم اللوحات الطبيعية، للتعريف بالوسط الذي خصصه التاريخ لغمارة اجتماعيا واقتصاديا وهو موضوع بحثنا الرئيسي، ولا يبقى لنا سوى اختيار الطريقة الأكثر ملاءمة للموضوع، والابتعاد كل ما أمكن عن السرد الجغرافي المعهود.

إن أول ملاحظة تتعلق بهذا المحور وهي أن مصادر العصر الوسيط والحديث ككتب الرحالة والجغرافيين والمصادر المعاصرة لفترة بحثنا، لا تتحدث بالتفصيل عن معالم الإطار الجغرافي للمنطقة المدروسة، وإنما تكتفي بإشارات عابرة عن طابعها الجبلي، كقول صاحب الاستبصار في وصفه لغمارة: "جبل غمارة من أخصب الجبال المغربية"¹ وذكر الوزان: "جبال الهبط ثمانية جبال"² والملاحظة الثانية وهي افتقارنا إلى مصادر جغرافية مباشرة كالخرائط التي تفيد في توضيح المعالم الطبيعية. وحسب علمنا فإن الرحالة الجغرافيين العرب لم يهتموا بهذا الميدان، باستثناء الشريف الإدريسي الذي وضع خريطة عامة للمغرب تنقصها الدقة والعلمية، بل وحتى تلك الخرائط التي عثرنا عليها في كتاب الوزان³ والخاصة بأقاليم مملكة فاس لا تفيد إلا في المجال البشري⁴.

من المتفق عليه أن طبيعة منطقة شمال إفريقيا، سواء تضاريسيا أم مناخيا لم يطرأ عليها تغيير محسوس منذ الأزمنة البعيدة⁵، يقول أندري جوليان في هذا الصدد "ويبدو أن المظهر الجغرافي لبلاد شمال إفريقيا لم يتغير تغيرا محسوسا منذ أن دخلت بلاد البربر في التاريخ، أي منذ أواخر الألف الثانية قبل الميلاد تقريبا، وقد استمر التأثير اليومي للانجراف والترسب معا بسرعة غير مشعور بها⁶. وبالاعتماد على بعض الدراسات الجغرافية نتمكن من إعطاء صورة عن المعالم الطبيعية لجبال الريف باعتبارها كانت موطننا غماريا، كما سبقنا الإشارة إلى ذلك.

¹ - مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص. 190.

² - الوزان، مصدر سابق، ص. 248.

³ - الحسن بن محمد الوزان والمشهور بليون الإفريقي أو يوحنا ليون الإفريقي أو يوحنا الأسد الإفريقي، اشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة ومن أشهر مؤلفاته "وصف إفريقيا" الذي ترجم للعربية على يد الدكتور عبد الرحمن حميدة، سقط في الأسر خلال توقف سفينته في جزيرة جربة واقتيد إلى روما كهدية للبابا ليون العاشر الذي حمله على اعتناق المسيحية، والبقاء لتدريس العربية في روما، لم يعلم هل مات ليون في روما أم لا وإن كان الغالب أنه قفل راجعا إلى تونس ليعيش في دار الإسلام.

⁴ - الوزان، مصدر سابق، ص. 154-168.

⁵ - Ahmed el Gharbaoui, *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tingitane*, Rabat 1981, p. 100.

⁶ - شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية...، مرجع سابق، ص. 40.

1- الموقع والمساحة:

رأينا فيما سبق كيف برز اسم غمارة في أحداث تاريخ المغرب منذ القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وتتبعنا مراحل تطور دلالة ذلك الاسم، إلى أن انتهينا إلى تلك الدلالة الجغرافية، أي عبارة عن منطقة تسكنها جماعة من الناس، وهذه المنطقة المدروسة حسب ذلك المجال السابق الذكر، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، تقع في الركن الشمالي الغربي من المغرب، مطلة على الساحل المتوسطي الذي يحدها من الشمال، أما غربا فتحدها قبائل بني سعيد وبني حسان وبني ليث وبني عروس، ومنطقة كتامة وقبيلة بني زروال من الجنوب الغربي، بينما تحدها شرقا منطقة "مسطاسة" وأحواض واد نكور وقبيلة بني جميل وبني سدات، ومن الجنوب المرتفعات المشرفة على واد ورغة أو تلال مقدمة الريف¹. أما بخصوص تحديد مساحة مجال المنطقة المدروسة فقد طرح لنا بعض الصعوبات الناتجة عن اختلاف وحدات المقاييس، أو عن قلة المصادر، باستثناء مؤلفي "إفريقيا" و"المغرب المجهول" في الفترة التي تسبق القرن العشرين. وقبل معرفة ذلك، نشير إلى أن رحالة وجغرافي العصر الوسيط من العرب أشاروا إلى وحدات قياسية لا ندري بالضبط معادلاتها في الواقع، فقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار: "إن طول غمارة مسيرة ستة أيام وعرضها ثلاثة أيام..."²، واكتفى الإدريسي بالقول إن طولها ثلاثة أيام³، والتأمل في تقدير المقياس الطولي والعرضي المقدم من طرف ابن خلدون، حين جعل "طول جبال غمارة خمس مراحل أو أزيد... وخمس مراحل أخرى في العرض" يسمح لنا بتصور مساحة غمارة الداخلية المتميزة بسكانها وجبالها الشاهقة المتصلة بعضها ببعض، فكان من الصواب بناء على ذلك إدماج باقي التجمعات الجبلية الداخلية الموجودة ضمنيا، لما نعرفه من أقدمية استقرارها من خلال المصادر التاريخية، ونعني بذلك تجمعات الاخماس بقسميها العلوي والسفلي. والواقع أن هذه المساحة هي نفسها التي لم تتجاوز التواريخ إسنادها لغير غمارة؛ إلا أنه بالرغم من هذه الملاحظات، فضلا عما عرفه ذلك المجال من استمرارية في التراجع سواء قبل تاريخ فترة الدراسة أو بعدها، يمكن إعطاء فكرة عن مساحة المنطقة على وجه التقريب، وذلك استنادا إلى إشارة وردت عن مارمول الذي ذكر في وصفه لإقليم الريف "... هذا الجزء مسافته خمسون ميلا طولا... ويمتد جنوبا إلى غاية تلك الجبال التي تشرف على نهر ورغة بخمسة وثلاثين ميلا عرضا..."⁴. وإذا كان الميل يساوي حوالي 1340م⁵ فإن مساحة المنطقة تساوي تقريبا 3142,3 كلم².

1 - أنظر خريطة الأبعاد المساحية لغمارة.

2 - مجهول، الاستبصار...، مصدر سابق، ص. 190.

3 - الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مصدر سابق، ص. 108.

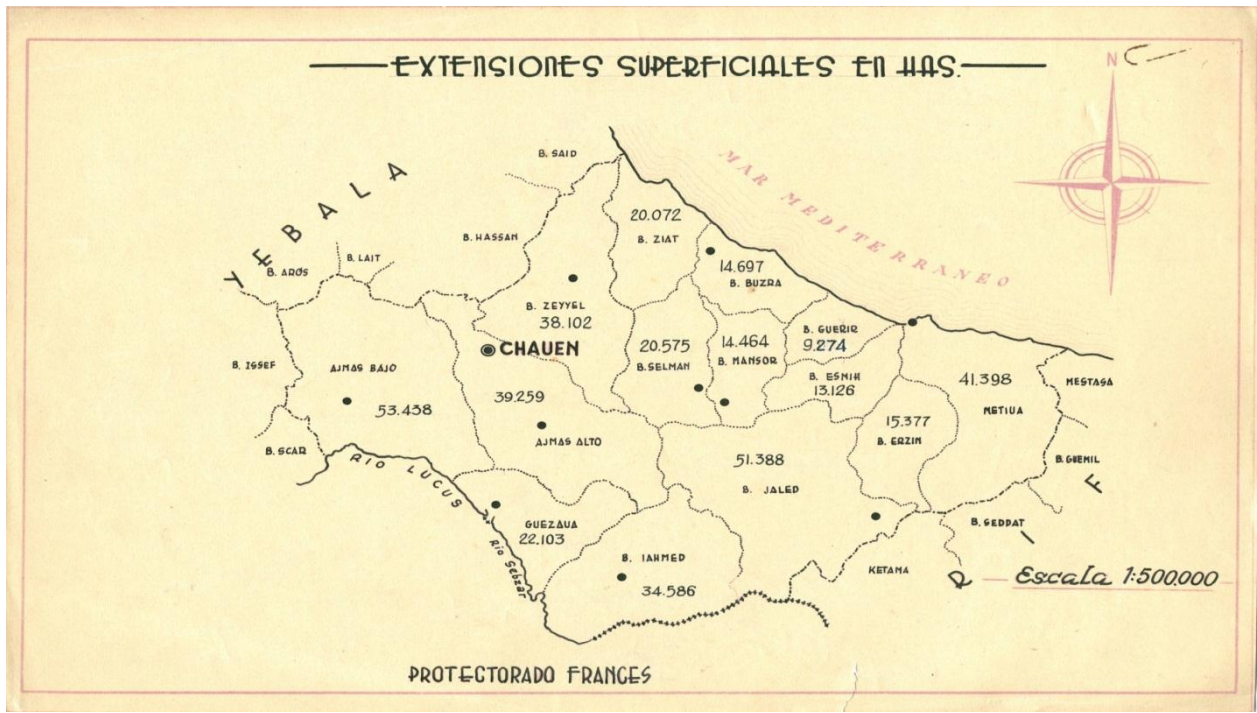
4 - مارمول، مصدر سابق، ص. 135.

5 - الوزان، مصدر سابق، ص. 22.

لكن مع بداية القرن العشرين، سيتم وضع خرائط وأبعاد جد مدققة لقبيلة غمارة من طرف الإسبان، حيث استطاعوا تحديد مساحة القبيلة في 3878,6 كلم مربع¹، بمعنى ان هذا الرقم ليس بعيدا عن التقدير الذي أعطاه مارمول، بل ذهبوا أبعد من ذلك ليحددوا عدد الهكتارات في كل قبيلة غمارة (انظر الخريطة).

والملاحظ في هذه الخريطة أن قبيلة بني خالد تعتبر إحدى أكبر القبائل الغمارية مساحة، والموجودة بأقصى الجنوب، والتي لعبت دورا مهما في حماية الحدود الجنوبية لقبيلة غمارة خصوصا في صراعها مع قبيلة الاخماس، ومن بين كل القبائل الجبلية، فإن الاخماس هي الوحيدة التي تتجاوز غمارة من حيث عدد السكان والمقاتلين، لكن هذه الأخيرة تحتل المرتبة الأولى من حيث شساعة ترابها، ولا تضاهيها أية قبيلة أخرى بهذا الخصوص².

الأبعاد المساحية لقبائل غمارة³



¹ - Archivo Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, A/7-A/11 Instituto Cervantes Tanger, CAJA N 2, Carpeta A/10.

² - أوجست موليبيراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 271.

³ - Archivo Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, Carpeta A/10.

كارلوس بيريدا رويج (ولد بمدريد سنة 1912 وتوفي في طنجة سنة 1978)، كان مفتش العقارات في المحمية الإسبانية في شمال المغرب، وكان يعمل في دائرة الترجمة الشفوية في المغرب حتى عام 1934 التي انضمت إلى قوات التدخل المدنية في إدارة شؤون شمال المغرب، حيث بقي حتى عام 1956. وبعد فترة في مدريد، وبالضبط عام 1966 عاد إلى طنجة مديرا لمكتب السياحة الإسبانية، حيث بقي حتى وفاته. خلال فترة ولايته، وضع المواد الخرائطية والدراسات الأنثروبولوجية وجمع الأعمال الأدبية الشعبية من التراث الشفوي. وغلها متعلق بقبائل غمارة، وفي عام 2012، اتصل ورثته بمكتبة خوان غويتيسولو معهد ثريانتس في طنجة للتبرع بعمل بيريدا للمكتبة المذكورة، ويحتوي هذا العمل على ملف شخصي له يتكون من 230 وثيقة من الوثائق المؤرخة ما بين 1927 و1956، وقد اعتمدنا هذه الوثائق، خصوصا في جانبها الخرائطي لإنجاز هذه الأطروحة.

2- البنية والتضاريس:

تنتمي غمارة إلى جبال الريف، وهي سلسلة متوسطة تنتمي بدورها إلى النظام الألبى، وتتميز بحدائثة التكوين (الزمن الثالث)، تعرضت إلى التواءات عنيفة نشطت فيها التعرية، وتشير مختلف الدراسات الجيولوجية إلى التحولات السريعة للتكوينات الجيولوجية، والتي تتميز بعدم الاستقرار، لذا تعتبر جبال الريف من المناطق الصعبة من حيث الدراسة، بالنسبة للجيولوجي. وعموما تمتد في بلاد غمارة ثلاث وحدات جيومرفولوجية على مستوى البنية وهي:

- سهول ساحلية في الشمال، تعود إلى الزمن الأول (Paléozoïque) وتتخذ شكل شريط يمتد على طول الساحل.
- جبال متوسطة تمتد في الشمال والوسط والجنوب وتتكون من الحث والشست والصلصال
- الظهر الكلسي ويمتد في الجنوب ويغطي أكبر مساحة وتتخلله مرتفعات تازاوت وجبل القرع (الاشهب). وعموما تتميز التضاريس بشدة التقطع، واتساع نطاق التكوينات الطفلية. الشستية الهشة، حيث الانحدارات مفاجئة، والانكسارات حادة، إذ كلما زاد الانحدار إلا وازدادت نسبة انجراف الأرض.

الانحدارات في جبال الريف¹

نسبة الأراضي %	نسبة الانحدار %
7	5 -
9	12-5
17	25-12
18	30-25
21	50-35
28	+50

الملاحظ أن درجة الانحدارات تعرقل النشاط الفلاحي (تسريع عملية التعرية وعدم القدرة على توسيع المجال الفلاحي) ويقل الانحدار كلما اتجهنا نحو البحر (الشمال) والشرق، كما أن الأودية عميقة على شكل خنادق ضيقة، أما الارتفاعات فهي متوسطة تتراوح ما بين 950م و1200م وتصل إلى 2070م في جبل الكواكب " تيزيران " و2154م في جبل القرع أو الاشهب (انظر الوثيقة رقم 2 في ملحق الوثائق). ويرجح أن تكون هذه

¹ - Sekkat (A), *L'homme Entre L'érosion des Sols et le Développement*, Revue FLSH ,TETOUAN, N° 4, 1990, p. 103.

السلسلة امتدادا لسلسلة جبال الأندلس التي تشبهها من حيث الشكل. لذا فتقطع التضاريس وطغيان الجبال، يعتبر من أهم العوامل المؤثرة في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

أنواع التضاريس ببعض المناطق في غمارة¹

الجماعة	الجبال		الهضاب		السهول	
	المساحة بالهكتار	النسبة %	المساحة بالهكتار	النسبة %	المساحة بالهكتار	النسبة %
تاسيفت	14700	81	3100	17	300	1
تالمبوط	16700	82,2	3420	16	180	1
المجموع	31400	81,2	6520	16,5	480	1

الملاحظ في الجدول طغيان التضاريس الجبلية والتي تتجاوز 80 في المائة، أما السهول فلا تتجاوز 1 في المائة من مجموع المساحة، مما يحد من المساحة الزراعية. وهو ما يؤكد مولييراس في مؤلفه، حيث يقول: "ها قد وصلنا إلى غمارة، المتوفرة على أعلى القمم المطلة على الساحل بجباله، وعلى سبيل المثال، فإن جبل تيزران لا تضاهيه في العلو سوى الجبال الكتامية بالجنوب، وبإمكان الأوربيين المبحرين على مسافة قريبة من الساحل أن يشاهدوا قمته"².

3- المناخ والشبكة الهيدروغرافية:

إن مناخ شمال إفريقيا على العموم لم يعرف تغيرا محسوسا منذ بداية الزمن الجليدي إلى غاية آلاف السنين قبل المسيح³، وقد أشار "لويس ماسينون" في دراسته إلى ذلك التشابه الكبير بين مناخ مغرب القرن السادس عشر ومناخ أوائل القرن العشرين⁴. وبناء على هذه الملاحظات، ونظرا لتجاهل مصادر الفترة إعطاء إحصائيات عن ارتفاع أو انخفاض درجة الحرارة، وكميات التساقطات، اللهم بعض الإشارات عن الجفاف⁵، فإنه يمكن إعطاء صورة عن مناخ المنطقة. مع تحفظ كبير. حول تلك المقاييس التي سنذكرها، لحداتها. ونشير في البداية إلى أن منطقة جبال الريف تعرف نوعين من المناخ: المناخ الساحلي، والمناخ نصف القاري في الداخل. فارتفاع درجة الحرارة في المنطقة الساحلية في المتوسط يكون ما بين 15 درجة و25 درجة، بينما يسود المناخ نصف القاري في الداخل من جبال الريف، فيلاحظ ازدياد درجة الحرارة التي تصل في المتوسط إلى ما بين 25

¹ - مصدر الجدول، منوغرافية شفشاون 1995.

² - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 249.

³ - Ahmed EL Gharbaoui, *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tingitane*, Rabat 1981, p.100.

⁴ - Louis Massignon, *Le Maroc dans la Premières Années du XVI siècle*, Alger, 1906, p. 77.

⁵ - El Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme...*, op. cit, pp. 75-79.

درجة و35 درجة، ونذكر على سبيل المثال متوسط درجة حرارة مدينة شفشاون الذي يصل إلى 27,6 درجة¹. وإذا كانت هذه المقاييس تنم عن ارتفاع درجة الحرارة صيفا، فإن فصل الشتاء في المنطقة يتميز باعتداله وذلك للمؤثرات المتوسطة، فعلى طول الساحل تصل درجة الحرارة إلى حوالي 7 درجة، بينما في الداخل، فتتخفف إلى أكثر من ذلك، إذ تصل في شفشاون إلى 5 درجة وفي باب برد إلى -5 درجة².

ويمكن القول بناء على ما سقناه من الأمثلة لأجل التوضيح، أن نطاق المناخ الساحلي يتميز بخاصية الرطوبة والاعتدال، نظرا لتأثير التيارين البحريين: المتوسطي والمحيطي، بينما يتعرض المناخ داخل المنطقة إلى تأثيرات المناخ الشرقي الجاف والغربي الرطب³، مما يؤثر على عدم انتظام التساقطات، أما التساقطات في غمارة فكثيرة وغزيرة، تصل في باب برد مثلا إلى 2000 ملم⁴، إلا أن هذه الحالة ليست دائمة، ففي غالب الأحيان تتعرض المنطقة لظاهرة الجفاف⁵. ويلاحظ أن كميات الأمطار تكثر، كلما اتجهنا إلى الداخل (انظر الوثيقة رقم 4 في ملحق الوثائق)، فتصل في الساحل الغماري إلى ما بين 500 ملم و700 ملم، بينما تصل في الداخل إلى ما بين 1500 ملم و1977 ملم في باب برد. ويلاحظ أن هذه الكميات من الأمطار الغزيرة تتساقط على شكل زخات مطرية غزيرة في فترة محدودة، لا تتعدى بضع ساعات، مما ينتج عنه في غالب الأحيان انجراف في التربة، ينعكس على النشاط الفلاحي⁶. وأما بخصوص الشبكة الهيدرولوجية فإن عوامل المناخ (غزارة التساقطات) إلى جانب هشاشة البنية (صخور شيسيتية وصلصالية) ووجود بنية صخور كلسية⁷، كل ذلك يساهم في تكوين مجموعة من الانهار بمنطقة غمارة، سواء منها الدائمة الجريان أو غير الدائمة، وهي تضعف في الأشهر التي تلي شهر مارس، بينما تكون غزيرة وسريعة الجريان في فصل الشتاء، إلى درجة أنها قد تشكل خطورة على الأراضي وعلى سكانها⁸. وترتبط الشبكة المائية بنظام التساقطات وطبيعة الصخور، بالإضافة إلى المسافة التي تقطعها المياه، كما أنها تخضع لنظام تراتبي، إذ يتواجد نهر كبير كواد لاو وروافده ونهر اورينكا، ثم أنهار موسمية، كما تظهر الفرشة الباطنية على شكل عيون متفرقة، حيث الاحتياطات عموما ضعيفة (أقل من 50 لتر في الثانية) باستثناء المنابع المهمة بالظهر الكلسي، حيث الجريان كارستي، وتوفر مياه لسقي الدوائر التقليدية عند أقدام السفوح⁹، ويتأثر نظام الجريان بالانحدارات القوية والتركز الزمني للتساقطات، مما يجعل الحجم السنوي للصيب يتغير من 1 إلى 8 لترات في الثانية، ورغم وفرة التساقطات، فالريف عموما يعتبر من

¹ - Ibid., pp. 78–79.

² - Ibid., p. 79.

³ - Ahmed Taouil, *L'Erosion dans le Haut Rhiss*, Toulouse, 1984, p. 12.

⁴ - Pierre Lespinasse, *Géologie des Zones Externes et Flysch Entre Chaouen et Zoumi*, Paris, 1975, pp. 2 - 3.

⁵ - Rosenberger (B) & Triki (A), "Famines et Épidémies au Maroc, aux 16–17 Siècle" *Hesperis*. 1973, pp.128–152.

⁶ - Hildebert Isnard, *Le Maghreb*, Presses Universitaires de France, Paris, 1966, p. 206.

⁷ - Taouil (A), *L'Erosion dans le Haut Rhiss ...*, op. cit., p. 12.

⁸ - EL Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme...*, op. cit., pp. 49–50.

⁹ - Ibid., p.51.

المناطق الفقيرة بالمياه الجوفية. ومن أهم الأودية الموجودة في بلاد غمارة نهر واد لاو الذي ينبع من الكتلة الكلسية بجبال الاخماس ويشكل حوضا مساحته 1000 كلم مربع، ولا يمكن قطعه عند المصب إلا بواسطة مركب أو سباحة، ونظرا لأن السكان الأوائل لم يكونوا رحالين ولا يعرفون أي نهر آخر سوى نهرهم، فقد سموه "لاو" أي النصر بامتياز، وفيما بعد سماه العرب واد لاو وأصبحت الكلمتان على لسان الأمازيغ المهزومين الذين لم يتعلموا بعد لغة المنتصرين كلمة واحدة وهي واد لاو، وهكذا أصبحت اللفظة الأخيرة تحمل دلالة النهر أو الغدير¹.

- واد أورنغا (الواد الفريد) عن الكلمة الأمازيغية (OUR INGA) (لا يتجاوز) يقول موليراس " وقد حدد أنطونان في دليله منطقة كوكلا بشرم الصيادين الموجود بخرائطنا الأوربية والمدعو في البلد برأس الجبهة ويصب واد أورنغا في هذا الشرم"².
- واد تاغسا (واد الهيكل العظمي) التسمية أمازيغية، ويصب في شرم الحور (PEUPLIER) المثبت بخرائطنا (حسب موليراس)، هناك حيث حدد الدليل وبطليموس (TOENIA LONGA)³.
- واد امطير، (أو أمتار) لم يذكره القدماء حسب موليراس.
- واد تغيواس (واد الملامسة) التسمية أمازيغية، ويشك موليراس في إمكانية الخلط بين واد تاغسا وواد تغيواس.
- واد تارغا (واد الحريق) التسمية أمازيغية.

بالإضافة إلى أودية تالمبوط ويانوس واد بوحيا وواد الحد، جلهما تصب في البحر الأبيض المتوسط (انظر الوثيقة رقم 5 في ملحق الوثائق)، وهذه الأودية المتعددة كانت-ولازالت-مجالا لاستقرار السكان الذين يزاولون فيها نشاطا فلاحيا متنوعا. وعموما يمكننا القول بأن قبائل غمارة غنية بالموارد المائية، الشيء الذي جلب الساكنة إليها منذ أزمنة قديمة، وأهلها لقيام بأنشطة فلاحية مستقلة عن باقي المناطق المغربية، وما يؤكد هذا الطرح ما ذهب إليه موليراس في مؤلفه " وهذه المنطقة (غمارة) مليئة بالجداول والأنهار التي ينبع أغلبها من الجبال، ويوجد الماء في كل مكان بحيث تراه جاريا تحت رجلك، وتنتشر المياه الفضية للشلالات عبر المروج المليئة بالأزهار"⁴.



¹ - أوجست موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص ص. 271-272.

² - موليراس، مصدر سابق، ص 271 - 272.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - أوجست موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 249.

4-التربة والغطاء النباتي:

يستغل سكان منطقة عمارة التربة إما للحرث أو للتشجير، والتربة الجيدة هي التي من نوع التربة السوداء "الدهس" والخفيفة والرمل الأحمر، أما التربة غير الجيدة "الحرشة" فمكونة من أحجار صغيرة ومن الطين¹. ورغم تعدد هذه المصطلحات بشأن أنواع التربة، فإنه يمكن تصنيفها إلى:

نماذج من الأتربة في عمارة²

تالمبوط	تاسيفت	مكوناتها	خصائصها	التسمية المحلية
طينية (80%)	طينية (80%)	السيلس - الطين	تجف بسرعة	ادوقا الحمراء
كلسية (20%)	كلسية (18%)	السيلس - كلس	لا تجف بسرعة	ادوقا البيضا
-	الدهس (2%)	رمل - طين	-	الفريش

التربة الطينية قديمة التكوين، وتكونت أصلا من الشيست، وتشغل مجالا واسعا في الأودية وفي سفوح الجبال كجبل "تيسوكا" وجبل "ماكو" بنواحي شفشاون³.

التربة الصلصالية الرملية عند سفوح جبال عمارة العالية، وتكونت نتيجة عوامل التعرية المائية، وهي تربة عضوية تحتوي على نسبة من الأحماض وصالحة للاستغلال الفلاحي⁴.

التربة المارنية (Marnes) التي تتكون من مواد كلسية وهي صفراء اللون، تكثر في نطاق الكتلة الكلسية كما هو الشأن في طيات جبال عمارة وفي أحواضها الضيقة⁵.

تربة ذات غطاء من الطمي وهي قديمة التكوين تعود إلى الزمن الجيولوجي الرابع، وتتميز بغناها بالمواد العضوية، وتعرف بالتربة السوداء (الدهس) وتشمل مجالا واسعا في الأودية وسفوح الجبال والسهول الساحلية كسهل واد لاو⁶.

التربة الحمراء التي تسود في نطاق الصخور الكربونية والشيستية في مناطق ذات النوع "الطمي" كما هو الشأن في تالمبوط وتاسيفت¹. والتربة في المنطقة بصفة عامة، إنما كانت ومازالت مهددة بالانجراف نتيجة

¹ - EL Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme ...*, op. cit., p 85.

² - Ibid., p. 85.

³ - Ibid., p. 86.

⁴ - Ibid., pp. 87-88.

⁵ - Ibid., p. 90.

⁶ - EL Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme ...*, op. cit., p. 92.

عوامل التعرية الناتجة عن عدم استقرار المناخ بين غزارة الأمطار وشدة الحرارة مما كان له تأثير على الغطاء النباتي.

لقد أشرنا إلى أهم المعطيات الطبيعية للمنطقة المدروسة سواء من حيث تضاريسها ومميزات مناخها، أم من حيث تنوع تربتها. فهل نجد نفس هذا التنوع ينطبق على نباتاتها؟

إن مؤلفات الرحالة الجغرافيين سواء في العصر الوسيط والحديث أو حتى المعاصر، تجمع على اخضرار منطقة غمارة. فالبكري والوزان وموليراس أشاروا إلى ذلك في عدة مناسبات.

أما الغطاء النباتي، فنقصد به المجموعات النباتية الكبرى التي تطبع المشهد الجغرافي، لأنه حصيلة تراكم فصائل نباتية متنوعة، لكنها تنتمي في أغلبها إلى نفس الشكل البيولوجي المهيمن²، وهذا الغطاء هو نتيجة مجموعة من العوامل الطبيعية، كالصخور، والجيومورفولوجيا، وتطور التربة، وتوجيه السفوح، والتساقطات والظروف الحرارية. ويمكن التمييز بين ثلاث مجموعات نباتية:

- مجموعة شبه جافة: وتضم العرعار (Thuya de Berberie) و صنوبر حلب (Pin d' alep).
- مجموعة فوق رطبة: وتضم البلوط الفليني والبلوط الأخضر.
- مجموعة رطبة: تتكون من الصنوبر البحري (Pin Maritime) والأرز والشوح (Sapin)، ومع الانخفاض تتحول الغابة إلى ماتورال (كلمة إسبانية استعملها Ruiz de la Torre سنة 1955). وقد استطعنا العثور على بعض الصور التي توثق لبعض أصناف المجموعات النباتية في غمارة، من خلال الأرشيف الإسباني الذي يغطي فترة بحثنا.

والملاحظ أن الغابات تكون كثيفة في السفوح الباردة الموجهة نحو الشمال والشرق، وتشكل الثروة الغابوية مجالا واسعا، إذ تكسو المرتفعات الجبلية والهضاب، وقد احتلت الغابة مكانة أساسية في حياة الساكنة الغمارية، باعتبارها مصدرا لتغذية القطيع وكون الخشب يستعمل في بناء المنازل، كما تضم الغابة الغمارية فصائل نباتية متنوعة (الزيتون البري، الفلين الأخضر، الدلم، الخروب ...) ونباتات قصيرة كالدوم، الطرو، فلايو ... وتشكل ماتورال (تشكيلة مخشوشبة Ligneuse) لا يتجاوز علوها 8م، ولا تصل إلى مستوى الغابة.

و إذا كان (Charles de Faucoult)³ قد شبه غابات المنطقة بالأودية العليا لسويسرا¹، وموليراس الذي اندهش من تعدد أصنافها: "تشتمل هذه المنطقة على غابات من أشجار الأرز والسنديان، وهي مترامية

¹ - Ibid., p. 93.

² - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة الغربية (الريف الغربي)، دبلوم الدراسات العليا في الجغرافية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1998، ص ص. 68-69.

³ - شارل دو فوكو، رحالة فرنسي دون رحلته الاستكشافية لمنطقة شفشاون ونواحيها في صيف عام 1883م متكررا في زي يهودي مغربي.

بشكل كبير فوق المنحدرات الجنوبية، كما توجد في جهة الشمال أشجار البلوط والفسق والسنوبر والدردار والخروب والعرعر²، حيث شكلت بعد المعادن والكسان الثروة الوحيدة، حسب الجنرال (beranguer) بحكم كثافتها واحتوائها على أخشاب نادرة وجيدة³، لكن الاستغلال المكثف من طرف الإسبان والانفجار الديموغرافي في بداية القرن العشرين، ساهما إلى حد كبير في تدهور التشكيلات النباتية .

إن ثقل الوسط الطبيعي في أي شكل من النظم الفلاحية، يرتبط عكسا بدرجة التطور التقني والاقتصادي للمجتمع⁴، وإذا كانت المجتمعات الزراعية والفلاحية تتميز بالإعداد الذي أقامته في إطار الظروف التي توفرها الطبيعة⁵، فإن الحتمية ليست سوى مظهر وليست نتيجة للعناصر الطبيعية، بل هي حصيلة الفعل البشري. وباعتبار أن العلاقات بين الإنسان والطبيعة هي علاقات مباشرة⁶، فإنها المحدد الأساسي لآليات ومضامين التطور، أكثر مما تقوم به العلاقات بين الأفراد والجماعات⁷.

نستخلص إذن أن مجال الدراسة مثل بموارده وموقعه جسرا ضروريا للتواصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، مما ساهم في خلق حركية تاريخية، وقد كان لموقع بلاد غمارة في الخط الأمامي للمواجهة، وحصانة جباله دور في توجيه الأحداث التاريخية التي كان للسكان الغمارية حظ بارز فيها، ويظهر تأثير الموقع والبيئة الجبلية جليا في النمط الثقافي والفكري السائد وفي حتمية تقمص الجهاد وعلاقة القبائل بالدولة، ولا شك أن البيئة الجبلية تركت بصماتها على الظاهرة موضوع البحث.

وعلى الرغم مما عرفه مصطلح غمارة من تطورات في دلالاته عبر العصور التاريخية السابقة لفترة بحثنا، فإن اسم غمارة تميز بالاستمرارية والارتباط النسبي في ذلك المجال الجغرافي، فهل تفاعلت قبائل غمارة مع البيئة في إطار جدلية التأثير والتأثير؟ وهل يمكن منح تاريخ الشمال المغربي طابعا خاصا على مستوى التأثير في الهياكل القبلية على المستوى السلالي والثقافي وتصدر الأحداث؟ ذلك ما سنعمل على تناوله بالدراسة في الفصل الموالي الذي سنتناول فيه الأهمية التاريخية لمنطقة غمارة إلى غاية النصف الأول من القرن 20م.

¹ - Zaim (F), *Le Maroc et Son Domaine Méditerranéen, Aux Origines de la Marginalisation du Maroc Méditerranéen*, Thèse Doct, U H 2 Casablanca, p. 285.

² - أوجست موليبراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 249.

³ - Fidel (C), *Au Maroc Espagnol et sur les Confins Franco-Marocaines*, Paris, 1920, p. 20.

⁴ - Bencherifa (A), *Une Région du sous en Cours de Transformation*, Thèse des U M V, Rabat, 1980, p. 17.

⁵ - Mendras (H), *Sociétés Paysannes*, Armand Colin, Paris, 1976, p. 170.

⁶ - El Hamraoui (A), *La Société et L'espace dans le Rif*, Thèse Doct, Toulouse 1984, p. 24.

⁷ - الهراس المختار، تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب: أنجرة كنموذج، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، 1988، ص. 80.

الفصل الثاني: الأهمية التاريخية للمنطقة

المبحث الأول: مجمل عن غمارة في تاريخ المغرب إلى منتصف القرن التاسع عشر

1- قبائل غمارة ونزعة الاستقلال

لا نعني بنزعة الاستقلال أن الجبال الغمارية كانت ترغب في تأسيس كيان سياسي مستقل بها، فهذا كان بعيدا كل البعد. ولكننا نعني أنها كانت تريد أن تبقى بعيدة عن تأثيرات السلطة الحاكمة بنواحيها، أو أنها كانت تلتف حول القواد الثائرين الملتجئين إلى الجبال، وبالطبع فهذه طبيعة ساكنة المناطق الوعرة التي كانت تتحاشى كل ما أمكن خضوعها لمطالب القوات المخزنية، ولها في ذلك مبرراتها الاقتصادية.

ونتيجة لتلك النزعة، فقد تميز مجال الشمال الغربي سياسيا بصعوبة فرض سيادة الدولة، بسبب وعورة جبالها وحصانيتها الطبيعية وكثرة سكانها واعتزازهم بأنفسهم، كما يتبين من قول ابن خلدون: "ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحقت بهم من أعياص الملك، ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد"¹. ويحتفظ تاريخ غمارة السياسي بأمثلة عديدة عن ثورات القبائل الغمارية على الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، باستثناء الأدراسة الذين نجحوا في بسط نفوذهم السياسي والروحي في المنطقة.

تمنعت غمارة عن الدولة المرابطية إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين بعد مجهودات حربية كبيرة 460هـ/1068م، غير أنها سرعان ما خرجت على سلطة المرابطين، وقامت بثورات متوالية، منها ثورة مرزوغ وابن الزند بحاري زمن يوسف بن تاشفين، والمعروف عن غمارة أنها ساندت الموحدين في القضاء على المرابطين وتوطيد حكمهم في جبالها، وبسط نفوذهم في سبتة. وكانت قبائل غمارة في طليعة مجازات الجيش الموحد المتكررة برسم الجهاد في الأندلس، ولأجل ذلك نالت حظوة لدى ملوك الدولة الموحدية. ومع ذلك شهد عهد أبي يوسف يعقوب ثورة سبع بن منغفاد سنة 1167م، كما ساندت غمارة ثورة المتنبئ محمد بن أبي الطواجن الكتامي سنة 625هـ/1228م في أواخر الدولة الموحدية.

وبعد الموحدين رفضت غمارة الدخول تحت طاعة المرينيين، ومعها سبتة التي خضعت للعرنيين² إلى أن تفكك الحلف الغماري في حدود 729هـ/1329م وضعف، بسبب الحروب بين القبائل ورؤسائها، فتمكن المرينيون من بسط سلطتهم على غمارة وسبتة. لكن غمارة لم يستقم حالها في ظل السلطة المرينية، بشهادة ابن خلدون: "وهم الآن على أحسن أحوالهم من الاعتزاز والكثرة، يؤتون طاعتهم وجباياتهم عند استقلال الدولة،

¹ - ابن خلدون، العبر...، ج 6، مصدر سابق، ص 460.

² - ابن خلدون، مصدر سابق، ص 459.

ويمرضون فيها عند ايتائها بفشل أو شغل بخارج، فيجهز البعوث إليهم من الحضرة حتى يستقيموا على الطاعة"¹. وبعد المرينيين لقيت السلطة الوطاسية صعوبة في بسط نفوذها على جبال غمارة. ويتجلى ذلك في امتناع بعض الجبال عن دفع الضرائب إلى مملكة فاس كما ذكر الوزان. واستعصى أمرها على السلطة السعدية، مما فرض عليها الاستعانة بسلطة الشرفاء والفقهاء في ندب القبيلة إلى طاعة السلطان، وظلت نزعة الاستقلال عن السلطة المركزية تراود الغماريين في أوج قوة الدولة السعدية زمن احمد المنصور.

وتوالى الثورات في جبال غمارة تحت ظل الدولة العلوية، وأشهرها ثورة العربي أبو الصخور الخمسي في الاخماس وجباله سنة 1170هـ/1757م، وثورة محمد بن عبد السلام الخمسي المعروف بزيطان سنة 1208هـ/1794م في نفس القبيلة وما والاها من القبائل الجبلية. كما لقي السلطان مولاي سليمان صعوبة في التخلص منه، فاستماله في الاخماس بالمال وأسكنه تطوان². ثم ظهر بعد وفاة مولاي سليمان، وجمع حوله القبائل الجبلية وتمرد على السلطان عبد الرحمان بن هشام سنة 1241هـ/1826م. واستمرت فتنته رغم كبر سنه إلى أن قبض عليه القائد محمد اشعاش وبعثه مكبلاً إلى السلطان في نفس السنة³.

وظلت قبائل الأطراف الشمالية الغربية متمنعة بجمالها، واستعصى أمرها على المخزن خلال فترة حكم السلطان مولاي الحسن 1873م-1894م، مما دفعه إلى قيادة حركة في صيف عام 1307هـ/1889م، لتأديب القبائل المتمردة كبنى مستارة والاحماس وبنى عروس وبعض قبائل غمارة، حيث تشير رسالة من الحسن الأول إلى القائد عبد القادر بن مرزوق يحثه فيها على النفير العام قبيل حركته الشهيرة، إذ يقول: "خديمننا الأرضى القائد عبد القادر ابن مرزوق وجميع إيالتك اغمارة، وفقمك الله وسلام عليه ورحمة الله وبعد فنأمركم أن تتهياوا للحركة مع ركابنا السعيد بجميع رماتكم وذوي الحزم والنجدة من إخوانكم بزيكم المعروف من الإتيان مع الحركة بالمزامير والطبول ونشر أعلام الفرخ في ذلك المثول، إظهاراً للضخامة والمنافسة في الاستعداد، كما هو شان القبائل العظام على مقتضى البطون والأمجاد..."⁴. يتضح من هذه الرسالة أن قبائل غمارة أو كما سماها المولى الحسن الأول بالإيالة ما يلي:

- مشاركة قبائل غمارة في الحركات السلطانية لتأديب بعض القبائل المارقة عن سلطة المخزن.

¹ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص ص. 459-460.

² - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 8، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، طبعة الدار البيضاء 1997، ص ص. 95-96.

³ - رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد اشعاش، في منتصف ذي القعدة 1241 هجرية، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، محفظة بتاريخ الشهر المحجري.

⁴ - أنظر الرسالة الأصلية رقم 1 المأخوذة من أطلس قبائل غمارة دورها في الدفاع عن حوزة الوطن وفي المقاومة المسلحة ضد الغزو العسكري الإسباني "أسرة أولاد ابن مرزوق نموذجاً" لمحمد ابن عزوز حكيم الجزء الثاني الطبعة الأولى، تطوان، سنة 2008، ص. 190.

- لم تكن قبائل غمارة بلاد سيبية كما يحلو للأوروبيون أن ينعوتوها، كما هو الشأن بالنسبة لأوغيست موليراس وميشو بيلير.

- كانت قبائل غمارة متميزة بالرماية، إلى درجة أنه كان لها زي خاص بها في الحركات السلطانية كما توضحه الرسالة.

وبما أن فرض سيادة الدولة على هذه القبائل (غمارة نموذجاً) باستعمال القوة كان من الصعوبة بمكان، لأسباب طبيعية وبشرية، فقد لجأ السعديون والعلويون إلى الاستعانة بسلطة الشرفاء أصحاب الكلمة النافذة في إقامة التوازن بين القبائل وفرض احترام السلطة المخزنية وترسيخ طاعة لسلطان، وستتاح لنا فرصة التوسع أكثر في هذا الموضوع مكانه المناسب.¹

2- تقاليد الجهاد في غمارة

لا يخفى علينا أن سمة الجهاد متأصلة في ربوع الشمال الغربي المغربي منذ الفتح الإسلامي الأول، بدءاً من فتح الأندلس إلى الفترة المعاصرة. ويعود هذا إلى الموقع الجغرافي المميز لرقعة المنطقة، المشرف على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط، ما جعل المنطقة مجال عبور ضروري من أوروبا إلى المغرب ومنه إلى أوروبا. وقد حتم وقوع المنطقة في خط المواجهة مع شبه الجزيرة الإيبيرية على سكانها أداء فريضة الجهاد عبر التاريخ، فأفضى على تاريخها صبغة خاصة.

وينبغي التمييز في تناول الحركة الجهادية في غمارة بين طورين، طور الجهاد الهجومي الذي تم في إطار الفتح الإسلامي ونجدة المسلمين في الأندلس خلال أوج قوة دولة المرابطين والموحدين. وطور الجهاد الدفاعي، لصد الغزو الإيبيري وتحرير الثغور المحتلة الذي بدأ مع احتلال سبتة من طرف البرتغال سنة 818هـ/1415م.

يبدأ تاريخ الجهاد منذ عهد الفتوحات الإسلامية، حيث لعب بربر غمارة وقائدهم يوليان الغماري حاكم سبتة دوراً رئيسياً في عبور الجيوش الإسلامية إلى الأندلس، بقيادة طارق بن زياد سنة 92هـ/711م، حيث كان الغماريون في طليعة جيشه "فغزاها في اثني عشر الفا من البربر وخلق يسير من العرب"². كان هؤلاء على اتصال دائم بالأندلس ويعرفون طبيعتها ومكامن قوة وضعف القوط. ولعل جبل موسى المنسوب لموسى بن نصير بقبيلة أنجرة دليل على أن القائد العربي كان يراقب من هذا المكان شواطئ الأندلس. وبعد الفتح الإسلامي كانت غمارة معبراً للجيوش المغربية في جوازاتها المتكررة إلى الأندلس برسم الجهاد. وشكلت قبائل غمارة ثاني قوة

¹ - أنظر الرسالة الاصلية رقم 2 مأخوذة من، عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، الجزء الثاني، م. س، ص. 181.

² - احمد الناصري، الاستقصا...، الجزء الاول، م. س، ص. 96.

في الجيش الموحد بعد المصامدة في غزوات الأندلس. وكانت في طليعة القبائل التي استنفرها المرينيون الأوائل للجهاد.

ويثبت الأستاذ عبد الله عنان في كتابه "نهاية الأندلس" أن مدينة مالقة كان يتولى الدفاع عنها جند غمارة، لما حاصرها النصارى وضيقوا عليها الخناق بقيادة زعيمهم حامد الثغري، وأبدى المسلمون في الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد، وحاولوا غير ما مرة تحطيم الحصار المفروض عليهم، وفتكوا بالنصارى في بضع مواقع محلية، حتى قطع عنهم سائر الإمداد والأقوات...¹ وهناك فصل آخر من فصول حركة الجهاد في حلتها الجديدة استهدفت مقاومة الوجود الأجنبي بالثغور الشمالية²، فلما ضعفت الدولة المرينية، وسقطت سبتة في يد البرتغاليين تحولت غمارة إلى خط الدفاع الأمامي ضد الغزو البرتغالي. ومثلت درعا واقيا أمام توغل البرتغاليين في المناطق الداخلية. وتحولت جبال غمارة إلى قوة حربية احتياطية بالنسبة إلى مملكة غرناطة، خلال فترة صراعها من أجل البقاء ضد الإسبان. ولعل البيئة الجبلية ساهمت في صهر الإنسان الغماري وأثرت في سلوكه، وجعلته قادرا على الصبر والتحمل، كما لعبت دورا في شجاعته، كما جاء في وصف ابن الخطيب (ت. 1376/776): "بلد السراوة والشجاعة"³. تكرر هذا الوصف غير ما مرة عند الحسن الوزان في مطلع القرن 16م بخصوص سكان جبال غمارة بصفة عامة، حيث ذكر أنهم رجال أشداء، صبورون، لهم القدرة على التحمل⁴ ويضيف مارمول الى الوزان، أن ملوك غرناطة اتخذوا من رجال غمارة حرسا لهم، وأن هؤلاء كانوا يقيمون في زقاق خاص بهم، عرف بزقاق غمارة⁵. ألا يجوز الحديث هنا عن احتراف عسكري لرجال غمارة في غرناطة؟ يظهر جليا أن البيئة الجبلية ساهمت في انتشار نزعة التطوع للجهاد بين السكان، لكونها وفرت لهم "العز والمنعة" على حد تعبير ابن خلدون⁶، وساعدت بالتالي على ممارسة أسلوب الكر والفر في الحروب ضد النصارى. ويتبين من نوازل الزياتي (ت. 1055هـ)، في باب الدماء والجهاد، أن حياة سكان غمارة اليومية، كانت

معرضة دوما لخطر الموت، ومن أسبابه الرئيسية الجهاد⁷، مما جعل بيرك الذي حلل هذه النوازل يتحدث عن رسوخ ثقافة الموت في المجتمع الغماري¹. من المؤكد أن الجهاد كان أحد الانشغالات اليومية الأساسية

¹ - عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، الطبعة الثالثة، مصر، 1389 هجرية/1958م، ص. 202.

² - حسن الفكيكي، "سبتة المغربية صفحات من الجهاد الوطني"، سلسلة المعرفة للجميع، العدد 14، الرباط 2000، ص. 14.

³ - لسان الدين ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977، ص. 471.

⁴ - الوزان، مصدر سابق، ص. 24.

⁵ - مارمول كرنخال، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 228.

⁶ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 460.

⁷ - عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، الجزء الثاني، دراسة وتحقيق غنية عطوي لنيل الماجستير في التاريخ بجامعة قسنطينة، سنة 2013، ص. 16.

لدى الغماري. نظر له الفقهاء في النوازل وأطره الشرفاء والمرابطون². وتعتبر معركة وادي المخازن 1578م أبرز محطة في تاريخ الحركة الجهادية بالمغرب عامة وجبال غمارة بصفة خاصة، بحكم المشاركة القوية للقبائل الجبلية بقيادة شيخ الزاوية الريسونية بتازروت. وظل نظام المرابطة على الثغور الشمالية قائما وعقيدة الجهاد راسخة في سكان جباله، حتى بعد إلغاء هذا النظام من طرف السلطان مولاي إسماعيل، حينما كلف الجيش الريفي بمهمة تحرير الثغور المحتلة. ولم يقتصر جهاد الغماريين على الجانب العسكري والحربي فقط، بل شمل أيضا دعوة الفقهاء الناس للجهاد والتحريض عليه، عن طريق تأليف الكتب والرسائل والمنظومات. من ذلك مثلا ما ألفه الفقيه عبد الله الهبطي الذي اشتهر بمؤلفه (الألفية السننية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه في الملة الإسلامية) والتي خصص فيها بابا عن فوائد الجهاد وألح على فضائله قائلا:

إن الجهاد أكبر معين **** عليه تبنى أمور الدين

قوموا إلى الجهاد يا إخوان **** بحسب الإمكان للإيمان³.

كما وردت في كتاب "مقنع المحتاج" لابن عرضون عدة مراسلات لبعض الفقهاء في نفس الموضوع، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل شارك الفقهاء مشاركة فعلية فيما كانوا يحضون عليه⁴. ولا شك أن هذه الفئة من المجتمع الغماري كانت على وعي بجسامة المسؤولية، لاسيما عند تقاعس الحكم المركزي في القيام بواجبه.

ويحتفظ التاريخ بأسماء لمرابطين غماريين بارزين بعد معركة وادي المخازن أمثال أسرة أولاد ابن مرزوق التي كانت صاحبة الأمر والنهي بقبائل غمارة المجاهدة (عبد الرحمن بن مرزوق، الشيخ بن مرزوق، عبد القادر بن مرزوق والمختار بن مرزوق)⁵. وتخصصت قبيلة بني زيات، بحكم موقعها المتقدم، في حراسة الحدود من الهجمات الخارجية، وبقي هذا الدور رغم الهزيمة في معركة تطوان أمام الإسبان سنة 1860م.

وكلما شعرت الدولة المغربية بتهديد خارجي من جهة البحر، إلا وعملت على استنفار قبائل الجبل، كما تؤكد مراسلات السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى هذه القبائل، قبيل معركة ايسلي 1844م وبعدها. وكانت القبائل الغمارية في طليعة الجيش المغربي في حرب تطوان 1859-1860. وظلت التقاليد راسخة في الموروث الثقافي الجبلي إلى غاية الفترة المعاصرة، إذ نجد خليفة السلطان بالشمال مولاي العباس بن عبد الرحمن يحث

¹- Berque (J), *L'interieur du Maghreb (XVe-XIXe Siècles)*, Gallimard, Paris, 1978, pp. 142-190.

² - Mezzine (M), *Jihad au Pays des Jbala (16^e-17^e.s) Effervescence et Régularisation*, in *Études sur le Maroc du Nord-Ouest*, Paris, 1991, p. 63.

³ - أورد هذه الأبيات عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة من خلال كتاب "أعلام غمارة" للدكتور عمر الجيدي، جمع وترتيب وتعليق، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، نسخة مرقونة بدار الحديث الحسنية بالرباط، 1999، ص. 121.

⁴ - محمد ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، م. س، ص. 30-31.

⁵ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، أسرة ابن مرزوق نموذجًا، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، تطوان سنة 2008، ص. 160-190.

زعماء غمارة على الجهاد والثبات أمام العدو، حيث يقول: "خديم مولانا العالي بالله الشيخ بن مرزوق ... وبعد فقد بلغنا كتابك وعلمنا ما ذكرت من نصر الله للمسلمين على عدو الدين وأنه اشتغل بمكايد الحروب وأمهلوه حتى اتهمنا وحملوا عليه حملة رجل واحد ومكنهم الله منه وقتلوه ... ولا تغتروا بعدو الله، فإنه خداع، أما نحن فلا حول ولا قوة إلا بالله أسلم أهل تطوان له البلاد ..."¹.

وفي الماضي القريب ورغم حالة الفوضى والاضطرابات التي كانت تسود منطقة غمارة نتيجة تناحر العشائر وتقاتلها، فقد تناست الأحقاد وتوحدت الكلمة في مواجهة المستعمر الإسباني، فكانت هناك عشرات المعارك تكبد فيها المستعمر خسائر فادحة في الأرواح والعتاد². ثم جاءت الحرب الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، فتوحدت القوتان الغمارية والريفية ضد المستعمر، وتذكر بعض الروايات الإسبانية أنه في سنة 1926 خرج إلى ورغة نحو خمسمائة وألف مقاتل من الريفيين، ونحو ألف من الرماة الغماريين مصحوبين بمائتين من رجال المدفعية³، فاندحرت جيوش فرنسا في عدة معارك وتخلوا عن مواقع كانوا قد احتلوها. ومن أشهر هذه المعارك، معركة "البرابر" وقد استشهد فيها كثير من أبناء غمارة⁴.

من هنا يتضح الدور التاريخي لقبائل غمارة في الجهاد والدفاع عن حوزة البلاد، خصوصا في الفترة الحالكة من تاريخ المغرب (القرن التاسع عشر) التي تميزت بكثرة الحميات والخيانات والثورات، وسيستمر هذا الدور في فترة الحماية الإسبانية كما سنرى لاحقا.

3-التقلبات التاريخية

3-1-غمارة ما قبل الإسلام:

تشكل قبائل غمارة موقعا استراتيجيا على الساحل المتوسطي، وذلك كونها تقع بين بادس وتطوان من جهة، وتقابل من جهة أخرى الساحل الإسباني، مدينة مالقا على الخصوص. ومن ثم كان أهالي المنطقة على علاقات مستمرة بالمدن الساحلية المغربية بالشمال، خاصة بادس وتطوان وسبتة، وكذلك بمختلف الحضارات المتوسطية عبر مختلف الحقب التاريخية، حيث أن وجود نقط ساحلية بالمنطقة تسمح برسو السفن والقوارب،

¹ - رسالة لخليفة السلطان بالشمال الأمير مولاي العباس بن عبد الرحمن إلى الشيخ ابن مرزوق 4 رجب 1276 (27 يناير 1860) أنظر محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، مرجع سابق، ص. 175.

² - محمد ابن عزوز حكيم، "بطل جبالة ولد احمدو السكان، سيدي محمد بن أحمد الخراز شهيد معركة السلام 7 ماي 1922"، جريدة صوت الشمال، تطوان، 1982، ص ص. 31-34.

³ - محمد ابن عزوز حكيم، معارك الثورة الريفية، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، الرباط، 1983، ص. 245.

⁴ - أكد لنا العديد من شيوخ القبائل الغمارية على هذه الرواية والكل يجمع العدد الكبير من الغماريين الذين استشهدوا في هذه المعركة التي استخدمت فيها أحدث الأسلحة في تلك الفترة.

أثارت أطماع القوى الأجنبية التي سعت إلى السيطرة عليها وجعلها بوابة لاحتلال باقي القبائل والتوغل داخل البلاد.

ويجمع المؤرخون على أن غمارة قبيلة أمازيغية تنتسب إلى مصمودة، وقد احتلت شمال المغرب قبل الإسلام، وفي عصر يصعب تحديده¹. وبما أن المصامدة قرييون من الساحل المتوسطي، فقد كانوا دائمي الاتصال بالحضارات القديمة (الفينيقية، القرطاجية...) ما جعلهم يشيدون مدنا مزدهرة على الساحل، كترغة وتيجيساس وغيرها². وقد أشار كل من ليون الإفريقي ومارمول كاربخال خلال القرن 16م، إلى أن تاغسة والجهة مدينتان قديمتان أسسهما الأفارقة القدامى ووضعا لهما أسوارا متينة³، ما يعني أن العنصر الأمازيغي بالمنطقة كان متحضرا وبواكب التطورات التي تعيشها الحضارات المتوسطية.

ويرى بعض الباحثين أن وجود مجموعة من الآثار بالمراكز الساحلية لقبائل غمارة، والتي ترجع للعصر الروماني، تؤكد أن المنطقة تعرضت لغزو روماني أدى إلى استيطانهم بها لسنوات طويلة وربما لقرون. وقد أسسوا بها مجموعة من المستوطنات، لا شك أنها قامت على أنقاض المدن الصغيرة، كتاغازا Tagasa أي تاغسا⁴، والتي أوردتها كاربخال نقلا عن باطليموس "تالودا"⁵، إلا أن هذا الاسم، أي "تالودا" يطلق على المنطقة التي تفصل منطقة الكرت عن الريف⁶. و(Cubicula) أو (Pescadar) (بسكادوريس) أي الجهة، و(Cubicula) كلمة لاتينية تعني غرف النوم، وتقع على بعد 24 ميلا غرب (Parietina) أي بادس في موضع جوين الصيادين، وهو يوافق مرسى أورينكا⁷. ولعلها كانت عبارة عن مساكن للرومان خلال فترة احتلالهم لموريطانيا الطنجية فأطلقوا عليها هذا الاسم. وقد درس علماء الجغرافيا القدامى المنطقة وحددوا موقعها في كتبهم الجغرافية، فمثلا نجد الجغرافي بطليموس يحدد إحداثيات رأس أشجار الزيتون البري (رأس الصيادين) الواقع بين تاغسة

¹ - التقى العلوي، "أصول المغاربة، القسم البربري غمارة وحلفائها"، مجلة البحث العلمي، العدد 31، السنة 16، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1979، ص. 27.

² - عبد الباري الطيار، ثوار وأنبياء من غمارة، الجزء الأول، مطبعة اميرال، الطبعة الأولى، الرباط، 1997، ص. 11.

³ - مارمول كاربخال، إفريقيًا، م. س، ص. 244.

⁴ - المصطفى مولاي رشيد، المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين القرن السادس ق.م القرن السابع ب.م، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1993، ص. 52.

⁵ - مارمول، م. س، ص. 244.

⁶ - ايلي دو لا بيمودي، "المدن البحرية بالمغرب: تجارة، ملاحية، وجغرافيا مقارنة"، ترجمة عز الدين الخطابي، حوليات الريف، مجلة مغربية تاريخية ثقافية شاملة، العدد 2، السنة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999، ص. 23.

⁷ - Voe Villaverde Vega, *Tingitana en la Antigüedad Tardía (siglos III-VII), Autoctonía y Romanidad en el Extremo Occidente Mediterráneo*, Éditeur. Real Academia de la Historia 1 juin 2001, Collection, Biblioteca Archivológica Hispana. P 245.

والجبهة¹. وقد لفت ذلك انتباه مارمول كرينخال ونقل عنه، وقال: "وهناك (أي بالقرب من الجبهة) رأس قريب جدا كان القدامى يسمونه رأس الزيتون، لكثرة الزيتون البري فيه²، ويجعله بطليموس في الدرجة التاسعة طولاً والدرجة الرابعة والثلاثين والدقيقة السادسة والخمسين عرضاً"³. ويرى البعض أن هذا الرأس كان يطلق عليه (Promontorium Oleastrum)⁴. كما حدد بطليموس أيضاً إحداثيات وادي تاغسة، حيث يقول كرينخال: "ويجعل بطليموس مصبه في الدرجة الثامنة والدقيقة الثلاثين طولاً، والدرجة الخامسة والثلاثين عرضاً تحت اسم تالودا"⁵.

ويرى الباحث الإسباني (Villaverde) أنه بالرغم من عدم وجود لقى أثرية بتاغسة—وذلك ربما لانعدام البحث الأثري الممنهج في هذا الموضوع—إلا أنه هناك بعض بقايا البناء التي ترجع إلى فترة الاحتلال الروماني⁶. وعكس تاغسة يرى الباحث المذكور أن الجبهة، حتى حدود بداية القرن العشرين، كانت ما تزال أطلالاً من حصن روماني بارزة بالقرب من مرسى أورينكا، وبقايا بعض المباني على الساحل، مع انتشار قطع من الخزف. ويرى أيضاً أن مرسى أورينكا كانت ملائمة لتشكيل علاقات مع شواطئ المضيق الأبيض، علاوة على الاتصالات مع مناطق داخلية⁷، حيث استغل الرومان هذه المستعمرات في صيد السمك وتمليحها وإرسالها إلى المستعمرات الأخرى⁸. ويعتقد أن الرومان شيّدوا بعض الكنائس بمنطقة غمارة، وقاموا بنشر الديانة المسيحية، التي أصبحت ديانة رسمية بغمارة لعدة قرون⁹، كما عرفت المنطقة أيضاً الديانة اليهودية¹⁰.

3-2 غمارة من الفتح الإسلامي إلى نهاية عهد الأدارسة:

عند وصول الفتح الإسلامي إلى شمال المغرب، كانت غمارة تحت حكم الأمير إليان الأمازيغي، ويذكر ابن خلدون أن موسى ابن نصير بعد عدة ملاحم ووقائع، حملهم على الإسلام¹¹. وقد ساعد إليان العماري طارق

¹ - المصطفى مولاي رشيد، المغرب الأقصى عند الاغريق واللاتين القرن السادس ق. م ... م. س، ص. 36.

² - بوشتي الفلاح، "مادة الجبهة"، معلمة المغرب، الجزء 9، ص. 2920.

³ - مامول كرينخال، افريقيا، م. س، ص. 244.

⁴ - ايلي دو لابرمودي، "المدن البحرية بالمغرب..."، م. س، ص. 29.

⁵ - مامول كرينخال، افريقيا، مصدر سابق، ص. 244.

⁶ - Voe Villaverde Vega, *Tingitana en la Antigüedad Tardía (Siglos III-VII)*, Op. Cit, pp. 245-246.

⁷ - Ibid., p. 246.

⁸ - Ibid., p. 245.

⁹ - Ibid., p. 246.

¹⁰ - عبد الباري الطيار، ثوار وانبياء من غمارة...، مرجع سابق، ص. 11.

¹¹ - ابن خلدون، العبر، ج 6، م. س، ص. 250.

ابن زياد على العبور إلى شبه الجزيرة الإيبيرية والقضاء على مملكة القوط¹. كما ساهم الكثير من سكان قبائل غمارة في عملية فتح الأندلس، وحسب الباحث عبد الباري الطيار فإن أغلب رجال طارق بني زياد كانوا من غمارة نظرا لقربهم من بلاد الأندلس²، ومن جانب آخر يرى أن عشيرة من عشائر بني رزين الغمارية تمكنت من تأسيس إمارة بالسهلة، شرق الأندلس خلال القرن الخامس الهجري³.

لكنه يصعب تتبع مراحل الفتح الإسلامي في المنطقة المدروسة، نظرا لانعدام المعلومات، إلا أنه من غير المستبعد أن الإسلام خلال القرن الثاني الهجري، كان قد ساد المنطقة، وساهم بني صالح الحميري أمراء النكور بشكل كبير في نشر تعاليمه⁴. حيث قسمت بلاد المغرب خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري، على عائلات عربية لتسهيل عملية نشر اللغة العربية وتعاليم الدين الإسلامي⁵، وكان صالح بن منصور الحميري من عرب اليمن في البعث الأول، فاستخلص نكور لنفسه، وأقطعه إيها الخليفة الوليد بن عبد الملك خلال سنة 91 هـ⁶. وكان بن منصور يعرف بالعبد الصالح، وعلى يده أسلم البربر من صنهاجة وغمارة، وبقي إلى أن مات بتمسمان سنة 132 هـ، ودفن بها في قرية يقال لها إفطي على شاطئ البحر⁷.

وقد امتدت إمارة النكور من الجهة الغربية إلى حدود بلاد غمارة، قبيلة بني مروان (متيو) وبني حميد، ويؤكد عبد الرحمان الطيبي أن هذا التوسع كان يجلب سكان المناطق المجاورة لها للتسوق وممارسة التجارة، لأن نكور كانت تعرف خلال هذه الفترة ازدهارا ورواجا تجاريا مهما⁸. ومن جانب آخر يبدو أن أهالي غمارة- شأنهم شأن باقي القبائل الأمازيغية- كانوا قد استاءوا من سوء معاملة الأمويين بسبب جور أمرائهم⁹. الشيء الذي دفعهم إلى عدم الاستقرار والانجرار وراء بعض الزعامات والتيارات المناقضة لهم، حيث تذكر بعض المصادر وعلى رأسهم البكري وصاحب مفاخر البربر وصاحب "الاستبصار" وابن خلدون أيضا، ظهور حاميم كزعيم روحي استهوى الناس، ووضع لهم ديانة سهلة في اعتقادهم، وخط لهم قرآنا يناسب طبائعهم¹⁰. هذا المتنبئ كان يحمل

¹ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة... الجزء الثاني، م. س، ص. 125-126.

² - عبد الباري الطيار، ثوار وأنبياء...، م. س، ص. 11.

³ - المرجع نفسه، ص. 64.

⁴ - أحمد عبد السلام بوعياشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، الجزء الأول، مطبعة دار الأمل، طنجة، 1975م، ص. 121.

⁵ - الطيار، مرجع سابق، ص. 15.

⁶ - ابن خلدون، العبر، ج 6، م. س، ص. 252.

⁷ - ابي عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد الأندلس...، م. س، ص. 93.

⁸ - الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س، ص. 32.

⁹ - المرجع نفسه، ص. 31.

¹⁰ - ابن خلدون، العبر، ج 6، م. س، ص. 255/البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية، م. س، ص. 101-102/ مجهول، مفاخر البربر، م. س، ص. 174.

اسما رمزيا حاء-ميم¹، حيث سيأتي بقرآنه باللغة الأمازيغية السائدة آنذاك بالساحل المتوسطي، حيث ألغى الحج والوضوء تماما واختزل الصلوات وشهر الصوم في عشرين يوما، وأجاز أكل لحم أنثى الخنزير، ومنع أكل البيض ورؤوس الحيوانات، حيث أعلن حاميم النبوة سنة 313هـ/629م²، وحقق نجاحا باهرا في السنيتين الموالييتين، لكن سيلقى حتفه مباشرة بعد ذلك في معركته ضد المصامدة³. وتذهب بعض الدراسات إلى أن ما أوردته هذه الكتابات عن حاميم الغماري هو افتراء على رجل عرف بالشجاعة ومحاربة الظلم، ونظرا لكونه ثار على عبد الرحمان الأموي حاكم الأندلس، حاولوا محو آثاره باختلاق مؤرخيهم-خاصة البكري-أطروحة تضيي الشرعية لمحاربة النبي المزعوم وأتباعه. ومن أهم هذه الدراسات، تلك التي أنجزها عبد الباري الطيار بعنوان "ثوار وأنبياء من غمارة"، حيث يرى أنه عندما ظهر حاميم في غمارة، فقد مضى على إسلام هذه القبيلة أكثر من قرنين، وخلال هذه المدة اتصل الغماريون بالعرب اتصالا وثيقا، وأخذوا عنهم الإسلام في إطاره الصحيح. وسيحقق الإسلام انتصاره الحاسم والنهائي في غمارة على يد عمر بن ادريس، الذي ولاه أخوه محمد بن ادريس عاملا على تيجيساس، واستمر على نهجه أبناؤه بعده، وذلك منذ العقود الأولى من القرن الثالث الهجري⁴. فكانوا يبعثون الفقهاء ليلقنهم تعاليم الدين الأساسية ويحفظونهم القرآن، وقد تعلق بهم الناس وخضعوا لهم، لعدالتهم وانتمائهم لآل البيت النبوي⁵. وفي هذا الجو المشحون بمحبة الرسول وآله، يصعب تصديق أن الرجل ادعى النبوة، ويتبعه خلق كثير، لدرجة تفرض على الأمير الأندلسي بعث جيش ضخم للقضاء عليه⁶.

وفي الأخير يمكن اعتبار قضية حاميم قضية سياسية وليست دينية⁷، ولفهمها يجب وضعها في سياقها التاريخي، حيث لما هبت عاصفة من العبيديين واحتلوا نكور، شعر الأمويون في الأندلس بخطر الشيعة الذي يدهمهم، فقاموا بمساعدة بني صالح لاسترجاع إمارتهم سنة 319 هـ. ولا يستبعد أن يكون الأمويون قد اتصلوا مرارا بحاميم بهدف استمالاته ودفعه للطاعة، إلا أنه على ما يبدو رفض، وكان يطمح لتأسيس دولته بغمارة. وقد كان الأمير عبد الرحمان الأموي مدركا أن هذه الدولة-بحكم إمكاناتها-ستسقط عاجلا أو آجلا في يد

¹ - لم يكن حاميم الوحيد في الأسرة الذي ادعى النبوة، فعائلته لها تاريخ في هذا المجال، فقد كان أبوه متنبيا أيضا، لأنه كان من اللازم على كل معتنق للدين الجديد أن يقول: أومن بحاء-ميم وبأبيه بوخالف النبي، وكانت عمته "التالية" متنبية وأخته "دبو" عرافة، يتم استشارتها خلال فترات الحرب والجفاف وحتى ابنه عيسى كان يعتبر متنبيا صغيرا، وقد شوهد بعد النهاية المأساوية لأبيه وسط الغماريين الذين كانوا يعاملونه بإجلال، أنظر صاحب المغرب المجهول... م.س، ص. 273.

² - أوجيست موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 274.

³ - هناك فارق زمني وبعض الاختلافات بين ابن خلدون وابن أبي زرع، بخصوص ظهور وموت حاميم.

⁴ - التهامي بن رحمون، شذور الذهب في خير نسب، مخطوط بمكتبة عبد الله كنون بطنجة، تحت رقم 10327، ص. 73.

⁵ - الطيار، ثوار وأنبياء من غمارة، م. س، ص. 64-65.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 65.

⁷ - تذهب العديد من الدراسات لتفسير هذه الحركة بكونها ثورة سياسية ضد الحكم الأموي كالباحث عبد الباري الطيار، بالإضافة إلى من ذهب واعتبرها ثورة المهمشين على حد تعبير إبراهيم القادري بوتشيش ضد طغيان السلطات الحاكمة.

العبيدين، مما سيشكل خطرا على دولته، وعليه فكر في القضاء على حاميم وأتباعه والاستيلاء على ممتلكاته وقهر أهل غمارة، حتى لا يعيدوا تجربة زعيمهم. فقاموا بوضع إيديولوجية مفادها محاربة الخارجين عن الدين لتبرير هذا التدخل¹. وعموما فقد ظلت غمارة وفية لأسرة حاكمة واحدة، هي أسرة الأدارسة، وكان اختيارها هذا ناتجا عن قناعة، لأنها رأت فيه خضوعا للسلطة الإلهية في شخص أفراد العائلة الشريفة².

- في سنتي 705م و706م هزم موسى بن نصير الغماريين وحاصر مدينة سبتة.
- سنة 789م أصبح إدريس بن عبد الله حفيد الرسول (ص) ملكا على المغرب الأقصى. وستكون قبيلة غمارة من أول المدعمين له وستظل كذلك، حتى نهاية عهد الأدارسة.
- سنة 828م ترك إدريس الثاني لابنه محمد امبراطورية شاسعة، تشمل المغرب الأقصى وتمتد إلى "المنيا" جهة الشرق، وقد اتبع محمد نصيحة جدته، فاقسم المملكة مع إخوته الثمانية³، وهكذا سيسود أخوه عمر على جزء من جباله وتحديدًا على تغيزاز وتارغا والقبائل الصنهاجية والغمارية الأخرى المتواجدة بينهما. ومن بين المجموعات الصنهاجية القديمة، فإن قبيلة بني بوزرع هي الوحيدة التي ظلت قائمة بغمارة إلى حد الآن، ولربما كانت هي المجموعة الصنهاجية الوحيدة في تلك المنطقة، لأن المسافة بين تغيزاز وتارغا لم تكن تتجاوز بضعة كيلومترات.
- 921م انتزع ميسلا القائد العسكري الذي بعثه الخليفة الفاطمي عبيد الله السلطة من يد الأدارسة بفاس، وفي نفس السنة أعاد الأمير الإدريسي الحسن بن محمد بن الحسن بن إدريس الملقب بالحجام السلطة إلى الأدارسة بالمدينة ذاتها.
- 925م أزيح الحجام عن العرش من طرف موسى بن أبي العافية الذي استولى على فاس وطرد الأدارسة من مناطق الغرب، "وأبعدوا إلى أن بلغوا قلعة حجرة النسور"⁴ ومنها انتقلوا إلى جبال غمارة ومناطق الريف، وظل الغماريون أوفياء لهم وأبانو عن الاستماتة في دعمهم والدفاع عن قضيتهم، مما حدا بالأدارسة إلى تأسيس مملكة جديدة بهذه المنطقة، وقد تقاسموا أجزاءها حيث حصل بنو محمد على القسم الأكبر وحصل أبناء عمر على تغيزاز والنكور والريف⁵.
- في سنتي 975م و976م طرد الحسن من الأندلس، لأن الاعتناء به وبأسرته كان مكلفا بالنسبة للخليفة الأموي الحكم، فنزل بمصر ويسر الخليفة الفاطمي العزيز عودته إلى المغرب، حيث استقبل بحماس من

¹ - الطيار، مرجع سابق، ص. 66.

² - أوجست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، م. س، ص. 276.

³ - موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 276.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، ص. 276.

⁵ - بن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص. 146.

طرف الأهالي الأمازيغيين¹ غير أنه سيهزم من طرف القوات الأموية، وسيستسلم لها كي لا يقتل، لكن الوزير الأموي موسى بن أبي عامر لم يصادق على الاستسلام، فافتيد الأسير إلى قرطبة حيث تم قتله². هكذا انتهى حكم الأدارسة الذي دام قرابة قرنين من الزمان (789م إلى 975م) وسيتمكن هؤلاء من الحكم فيما بعد تحت حماية بني حمود وسادوا على طنجة وسبتة وبعض المناطق الغمارية التي ظلت وافية لهم³.

3-3- غمارة في العهد المرابطي والموحدي:

يشكل عهد المرابطين مرحلة الثورات والتمردات، ففي سنة 1068م احتل يوسف ابن تاشفين غمارة التي ظلت وافية للأدارسة واستولى على قلعة الودان⁴، أما في سنة 1083م انهار حكم الحموديين الأدارسة وقبلت غمارة الخضوع للمرابطين.

لقد شكل العصر الوسيط بالنسبة للمنطقة مرحلة ذهبية لما عرفته الواجهة المتوسطية في تلك الفترة من دينامية تجارية، بلغت أوجها في عهد الموحدين، إذ تحولت المنطقة إلى ملتقى للتجار والأدباء ورجال الدين والمتصوفة⁵، خاصة وأن السكان تعاطفوا مع الموحدين، نظرا للأصل المصمودي، وانخرطوا في الكيش. لكن هذا لا يعني الانقياد التام، ففي سنتي 1165م و1166م قاد سبع بن منرفض الذي دعاه مترجم "القرطاس" يوسف بن منقعد، ثورة ضد هيمنة الموحدين على جبل تازران بقبيلة غمارة، وانضمت إليه كل أقسام هذه الأخيرة، كما انتشرت الثورة عند جيرانها الصنهاجيين وتم إرسال القائد الموحدي أبي حفص الهنتاتي لإخمادها، لكنها على العكس من ذلك، امتدت بشكل خطير، مما دفع السلطان يوسف بن عبد المومن إلى الانتقال شخصيا إلى ساحة المعارك، وتم القضاء على الثائرين بعنف وقطع رأس سبع وأرسل إلى فاس، بعد ذلك عين أخاه السلطان أبو علي الحسن عاملا على سبتة وغمارة⁶. وفي عهد المأمون سنة 1228م، ثار محمد بن أبي الطواجن الذي ادعى النبوة⁷، غير أنه هزم وقتل على ضفاف نهر واد لاو، وفي سنة 1269م أصبحت المنطقة تحت ثقل تنافس عدة أطراف، إذ هاجم المسيحيون العرائش.

¹ - ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. 128.

² - أنظر ابن خلدون، م. س، ص. 150 وابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. 130.

³ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 152.

⁴ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 278.

⁵ - محمد أونيا، "قبيلة بقبوة مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لريف ما بين 1860-1912" جريدة انوال عدد 1709، 18 ماي 1995.

⁶ - أوجست مولييراس، مصدر سابق، ص. 278.

⁷ - أتى أبو طواجن بقرآن أمازيغي وبدا الغماريون يتلون مقاطع منه، والملاحظ أن الكلمات المبهمة التي يتضمنها قد سيغت من طرف فقهاء عرب بغرض السخرية من هذا الكتاب الذي أحرقت آخر نسخة منه منذ مدة طويلة، وقد استشهد مترجم المغرب المجهول بمقطع مزعوم لقرآن أبي الطواجين جاء فيه: "فاعلم أن السابقين والسابقات برنليكو كنبليكو فرحاقيلو شبرنقيلو فرسقبيلو تاوفريلو ناورائلو طرفائلو نزنائكو لزنائكو".

3-4 غمارة في العهد المريني والوطاسي:

لقد شكل العهد المريني نقطة تحول أساسية في تاريخ المغرب، ومرحلة تدهور عميق¹، ففي عهد المرينيين دخلت المنطقة في حروب دامية.

- ففي سنة 1270م احتل السلطان المريني أبو يوسف غمارة التي انحازت إلى ابني عمه موسى ومحمد، واضطر هذان الأخيران إلى الاستسلام بعد أن تحصنا في قلعة الودان.
- سنة 1275م ساهمت غمارة في حملة المسلمين ضد الإسبان والتي قادها أبو يوسف لمناصرة أمير غرناطة محمد الذي كان وضعه ميؤوسا منه.
- سنة 1304م ساندت غمارة تمرد عثمان بن أبي العلا على السلطان المريني أبي يعقوب.
- سنة 1308م لجأ كل المعارضين المرينيين من داخل العائلة الملكية إلى غمارة، معقل التمرد لمساندة بن أبي العلا، وأرسل السلطان أبو ثابت قائدا عسكريا لملاحقتهم، لكنه فشل في مهمته، ثم أرسل من فاس قائدا آخر، هو عبد الحق بن عثمان، مدعما بالمليشيات النصرانية فهزم بدوره، عند ذلك توجه أبو ثابت شخصيا إلى غمارة، على رأس جيوشه واستولى على قلعتي الودان ودمنات، ثم وضع أسس مدينة تطوان، لكي تكون مأوى ومخزنا لأسلحة جيشه الذي حاصر سبتة، حيث كان يتواجد المتمرد عثمان ومناصروه.
- وخلف أبو ربيعة سليمان أخاه أبا ثابت، وقام برفع الحصار عن سبتة، لكن عثمان فاجأه بالهجوم مما اضطره إلى التحصن بقلعة الودان والانطلاق منها فيما بعد للقضاء على المتمردين، وقد هرب عثمان إلى الأندلس.

- سنة 1359م أعلنت غمارة ولاءها للطامح في العرش المسمى أبو سالم، وهو أخو السلطان أبي عنان، وقامت بتتويجه سلطانا، وكان ابن خلدون مؤرخ البربر كاتبها لهذا الأخير².
- سنة 1384م دعمت غمارة أيضا طامحا في العرش اسمه الحسن، وتلقت الجيوش التي أرسلت ضد هؤلاء المتمردين الدائمين هزيمة نكراء، غير أن وزير السلطان الواصل، أوقع الحسن في كمين ونفاه إلى الأندلس مكبلا.
- سنة 1397م هجر أهالي تغيزاس مقر سكنهم، للتخلص من طغيان العامل فارح ابن المهدي³.
- سنة 1481م خرب حاكم سبتة، فرديناند دومنيث (ferdinand de menesez) تارغة. أصبحت المنطقة بمثابة حزام أمني لحماية الطرق التجارية، المارة عبر فاس وسجلماسة، مما جعلها عرضة للهجمات الإيبيرية، ونتيجة ضعف السلطة المركزية عرفت المنطقة موجة من الاضطرابات والفوضى، إضافة إلى

¹ - Laroui (A), *L'histoire du Maghreb*, Tome 2, Maspero, Paris 1975, p. 6.

² - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 279.

³ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، الجزء 2، م. س، ص. 146.

الاحتلال البرتغالي للسواحل، مما دفع بعلي بن راشد إلى تأسيس مدينة للجهاد، لبيتدا تاريخ مدينة شفشاون سنة 1511م¹.

- سنة 1533م حرب الفارو دوباوان (A.de baçan) تارغة للمرة الثانية، وقد أعاد الشريف عبد الله بناءها سنة 1560م وحصنها.

3-5 غمارة في العهد السعدي والعلوي:

إن التاريخ المغربي لا يشير إلى قبائل الريف في عهد السعديين²، بل يشير إلى أن المنطقة عرفت تعميرا حديثا من طرف الفارين المورسكيين والشرفاء، ففي سنة 1562م سقطت إمارة بني راشد بشفشاون، وبسقوط الإمارة انتقل الحكم إلى الحسن الريسوني بدعم من السعديين، وفي سنة 1584م ثار الحاج قرقوش بغمارة وتسمى بأمر المؤمنين³، غير أنه لم يتمتع كثيرا بإمارته، حيث ألقى عليه القبض وقتل. كما نتج عن التواجد الإيبيري بالسواحل هجرة السكان نحو المناطق الداخلية. وفي نهاية القرن 16م حصل تهميش للسواحل المتوسطية نتيجة اكتشاف العالم الجديد، وانفتاح الطرق البحرية المحيطة⁴.

عرفت المنطقة خلال العهد العلوي عدة حملات سلطانية، ففي سنة 1758م ظهر خمسي مثل قراقوش ويدعى أبو الصخور، وقد أثر في الغماريين ودعاهم إلى الثورة على السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فقاد هذا الأخير حملة عسكرية على المنطقة، هزم فيها الأهالي وأدخلهم تحت طاعته مرة أخرى وقتل المتمرد الذي حلم بالسلطة.

- في سنتي 1765م و1766م قاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حملة عسكرية على الساحل المتوسطي ومر بتطوان وغمارة، وقد تحدث صاحب الاستقصا عن ذلك قائلا: "أخضع العاهل المنطقة برمتها لسلطته، ثم عاد عن طريق تازة"⁵، غير أن الزياني من جهته بالغ في وصف الحدث، حيث يقول: "وتمت إبادة كل هذه القبائل" وعلى ما يبدو فإن غمارة لم تتعرض للإبادة، ما دامت قد تمردت من جديد بعد مرور بضع سنوات على إبادةها المزعومة⁶. ومما يؤكد لنا ذلك هو أحد الظهائر السلطانية الصادرة في حق أحد أبناء المنطقة المنعمين عليهم من طرف السلطان محمد بن عبد الله، حيث يقول:

¹ - Mohammer (J), *Les Transformations Sociales et Spatiales d'une Petite Ville (Chefchaouen)*, Thèse Doct, Toulouse le Mirail, 1994, p. 20.

² - Mimoun (A), *Le Rif 1912-1956, Marginalisation et Changement Sociaux sous le Protectorat Espagnol*, Thèse Doct, Paris 8, p. 34.

³ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا...، ج 5، م.س، ص. 117.

⁴ - Zaim (F), *Le Maroc et Son Domaine Méditerranéen, Aux Origines de la Marginalisation du Maroc Méditerranéen*, Thèse Doct UH2, Casablanca, p. 452.

⁵ - الناصري، الاستقصا...، ج 4، ص. 101.

⁶ - اوجست موليبيراس، مصدر سابق، ص. 279.

"بيد ماسكه خديمنا الشيخ العباس بن مرزوق أنا أنعمنا عليه بالبلاد التي اشتراها بني زجل من بيت المال على عهد مولانا إسماعيل ..."¹.

- سنة 1792م قام زيطان بثورة في الجبال الغمارية وبجباله عموماً، ونجح مدة ثلاث سنوات في دحر هجومات الفرق المخزنية، ولإيقاف زيطان الرهيب عند حده عينه السلطان قائداً على الاخماس وأكرمه بالهدايا والأموال.

وخلاصة القول، فإن تاريخ بلاد غمارة مشوب باضطرابات وثورات ومتبئين إلى حدود فترة الحماية، غير أننا يمكن أن نخرج بملاحظات وهي:

- اتسام سيرة المتبئين كما وردت في المصادر بالغموض، فلا نعلم عنهم سوى تاريخ ظهورهم، ولعل طمس معالم سيرهم من طرف المؤرخين ناتج عن إرادة التقيص من شأنهم بسبب انحرافهم عن المذهب السني.

- معظم هؤلاء ليسوا غماريين، قصدوا غمارة بحكم حصانة جبالها الطبيعية وحيث توجد تأثيرات مهدوية سابقة، وإمكانية الحصول على الدعم العسكري من طرف أقوى قبائل الأطراف الشمالية التي تفشت فيها نزعة الاستقلال عن السلطة المركزية.

- اعتمد المتبئون في استقطاب العامة على السحر والقدرة على الإتيان بالخوارق.

- واكب ظهورهم ضعف السلطة المركزية واضطراب الأحوال السياسية. ورغم ذلك كانت مدة ثورتهم قصيرة ومجال تأثيرهم محدوداً لم يتجاوز غمارة.

المبحث الثاني: تطورات الأحداث بقبائل غمارة ما بين 1859-1956م

1- المخططات الاستعمارية حول المنطقة وموقع حرب تطوان منه:

شكل الموقع الاستراتيجي لقبائل غمارة نقطة مهمة بساحل البحر الأبيض المتوسط أثارت القوى الاستعمارية الأوروبية منذ القرن 18م، وازداد تنافسهم عليها خلال النصف الثاني من القرن 19م، ونلمس ذلك من خلال مجموعة من الكتابات الأجنبية التي درست المنطقة دراسة دقيقة بهدف كشف خباياها ونقاط ضعفها وقوتها، لتسهيل السيطرة عليها.

فالفرنسي (M.Jouffaray) في سياق حديثه عن مرسى أمتار يقول إن هذه المنطقة: "كانت تجذب انتباه الألمان الذين منذ فترة طويلة بذلوا كل جهد ممكن للسيطرة عليها"². وفي الواقع، فهذا النص يكشف لنا

¹ - عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، مرجع سابق، ص. 138.

² - Jouffray (M), *Notic Sur les Port de la Cote Méditerranéenne ...*, op. cit, pp. 52-53.

التنافس القوي بين فرنسا وألمانيا للحصول على مراكز ساحلية بشمال المغرب، من أجل التوغل داخل البلاد. وهو ما أعلنه (Jouffaray) بشكل صريح عندما قال موضحاً أهمية المنطقة في الإنزال العسكري الفرنسي: "بعيدا عن رأس الجبهة سواء في اتجاه الشرق أو الغرب، أو في اتجاه الرياح، يمكن للقوارب أن تجد المأوى، وهذا يبدو من المهم جدا"¹. ويزيد كاشفاً عن الأطماع الفرنسية حول المنطقة: "فهذه النقطة—أي الجبهة—هي التي يمكن أن تكون بمثابة أساس العمل في الريف"². ونفس الملاحظة أبدأها مولييراس حول هذه المنطقة، إذ نجده يرشح قبيلة متيوة لعملية إنزال القوات الفرنسية لاحتلال البلاد. نظراً لما تتوفر عليه من خلجان ومرافئ طبيعية كسيدي فتوح وتاكموت ومرس الدار والجبهة، بالإضافة إلى تضاريس القبيلة التي لا تعوق العبور إلى الداخل، إذ يقول: "لا يمكن لتلالها القليلة الارتفاع أن تشكل حاجزاً... فعبر هذه الطريق أو من خلال القبائل البحرية لشرق الريف، يجب أن تتغلغل فيالق الجنود التي تريد احتلال الريف. فالحاجز الكثيف من الصبار الذي يبدو أن متيوة وضعتة قصداً بينها وبين جباله، لا يشكل سداً منيعاً بالنسبة للجيش الحديثة. لذلك فنحن سنصيب، إذا ما قمنا في البداية بإخضاع القبائل البحرية وبعد ذلك بمحاصرة سكان الريف الجنوبي داخل جبالهم"³.

وفي دراسة انجزها الفرنسيان (Napoléon Lacroix) وزميله (Maximilien) يتبين بوضوح أيضاً أن المنطقة المدروسة كانت تدخل ضمن المخططات الاستعمارية الفرنسية مسبقاً، إذ يقولان: "من بين الأنهار المهمة بهذه المنطقة نجد وادي أورينكا، الذي يصب شرق راس الصيادين وبالقرب منه، ويشار إلى وادي أورينكا في الخرائط البحرية العسكرية الإفريقية... ثم بعده نجد وادي تاغسة، في الخريطة العسكرية الإفريقية"⁴.

ومما ينبغي التأكيد عليه أن هذه النوايا الاستعمارية لم تكن حديثة العهد خلال النصف الثاني من القرن 19م، بل تمتد جذورها إلى الحملات الصليبية الأولى على الشواطئ المغربية. ومنذ القرن 15م كان البرتغاليون ثم الإسبان سابقين إلى تجهيز حملات جريئة على السواحل المغربية، واحتلالهم لبعض المدن وتخريب أخرى⁵، وهدم الكثير من الحصون الدفاعية والقرى⁶. لكن بالرغم من ضعف السلطة المغربية آنذاك، فإن السكان المحليين ظلوا صامدين في وجه أعدائهم، "وفي يقظة دائمة لصد أي هجوم محتمل من طرف المسيحية

¹ - Ibid., p. 55.

² - Ibid., p. 55.

³ - مولييراس، المغرب المجهول... الجزء الأول، م. س، ص. 70.

⁴ - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir à L'étude de Nord Ouest Africaine*, Tom 1, Région Limitrophes de la Frontière Algérienne, le Rif- les Dejbal, Gouvernement General de L'algérie, Cirvisé de Affaire Indigènes, 1897, pp. 320-321.

⁵ - محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الأول، مطبعة المهديّة، تطوان، 1959م، ص ص. 83-85.

⁶ - من بين القرى الساحلية التي تم تخريبها بلدة الجبهة.

المسلحة"¹. وكان هناك تضامن كبير بين ساكنة المنطقة، بحيث أنه بعد التسوية الإسبانية البرتغالية أصبحت المنطقة كما سلف الذكر، من نصيب إسبانيا²، ولكن بالرغم من أن بلدة الجبهة كانت مخربة، لم تتمكن من بسط نفوذها عليها. نظرا لوجود مقاومة مستميتة من طرف أهالي القبائل المجاورة، وكانت تنطلق الهجومات الدفاعية من تاغسة المحمية تضاريسها، حيث "إذا سقطت -الجبهة- في أيدي المسيحيين، فقد يواجهون خطر جيرانهم تاغسة".

وهذه الشجاعة التي توفرت لدى ساكنة المنطقة بدفاعهم عن وطنهم ودينهم ورفضهم للأجنبي المستعمر، نجد لها ترجمة خاصة في الكتابات الأجنبية. حيث إن معظم الدارسين الأوربيين اعتبروا النشاط البحري الذي ظهر بالسواحل الغمارية، ما هو إلا لصوصية بحرية سافرة، كان يمارسها أناس "متوحشون" هدفهم النهب والفتك بالأجنبي³. وهناك أمثلة عديدة عن ذلك، كوصف مارمول لأهال تاغسة بأن: "عوائدهم وتصرفاتهم خشنة، لذلك فهم أعداء الداء للنصارى كسائر سكان الإقليم"⁴. وذكر الباحثان الفرنسيان (Napoléon Lacroix) وزميله (Maximilien) بأن قبائل غمارة اشتهرت بالقرصنة والوحشية وتعد من بين أكبر قراصنة الريف"⁵. ونجد أيضا (Joufaray) يؤكد ذلك بقوله إن: "الغماريين الذين يعيشون في هذه المنطقة متوحشون، وأنه يكاد يكون من المستحيل بسببهم، استكشاف المنطقة المجاورة لرأس الجبهة"⁶.

ويقول موليراس في سياق حديثة عن قبيلة بني سميح: "إن أخلاقهم كلها ريفية لهم مزاج سلفهم، نفس وحشيتهم، نفس كراهيتهم للأجنبي"⁷.

فهذه الشهادات التي أتتنا على لسان ممهدي الاستعمار الأوربي دليل على أن أهالي المنطقة كانوا متشبثين بوطنهم، وكرسوا حياتهم للدفاع عنه، رافضين أي تدخل أوربي استعماري، فتمكنوا بوسائل وتقنيات بسيطة من حماية البلاد من الأخطار الخارجية التي ظلت تهدد المنطقة لقرون طويلة.

¹ -Rodríguez Gómez & María Dolores, *La Influencia de León el Africano (s. XV-XVI) en la Obra de Luis de Mármol (s.XVI): Descripción de los Núcleos de Población Costeros del Rif*. Éditeur, Universidad de Granada, 2002, P. 372.

² -Ibid., p. 372.

³ - محمد اونيا، "القرصنة الريفية بين الأسطورة والتاريخ (1856-1898)", مجلة حوليات الريف، العدد 2، 1999، ص. 39.

⁴ - مارمول، إفريقيا، الجزء الثاني، م. س، ص. 244.

⁵ -Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir...*, op.cit, P. 343.

⁶ -Jouffray (M), *Notic sur les Port de la Cote Méditerranéenne ...*, op. cit., p. 56.

⁷ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م. س، ص. 234.

وفي ظل هذا التنافس الأوربي للحصول على امتيازات بالمغرب، أعطت إسبانيا لنفسها حق الأسبقية من أجل التدخل، مبررة ذلك بعامل الجوار والتاريخ المشترك. فبدأت تخطط من أجل خلق جو من الصراع المستمر في علاقاتها مع المغرب، لينتهي بالتدخل العسكري¹. ولتحقيق هذا المشروع استغلت المناوشات التي كانت تحدث بين أهالي قبيلة أنجرة وإسبان المتواجدين على حدود أراضي سبتة، حيث اعتبر الإسبان نشاط الانجريين في تلك الناحية "إهانة لشرفهم أو على الأقل تظاهروا بذلك، فتحمسوا وتقدموا بعساكرهم للانتقام من أولئك المعتدين في نظرهم"². وانطلقت الحرب بين الطرفين أواخر سنة 1859م، والتي تركت بالغ الأثر ليس فقط على المنطقة المدروسة بل تجاوزتها لتشمل المغرب برُمَّته.

ويبدو من خلال رسالتين من العباس أخي السلطان محمد بن عبد الرحمان، إلى القبائل الغمارية، أن هذه الأخيرة شاركت في هذه الحرب التي سميت "بحرب تطوان" أو "الحرب الإفريقية". وأولى هذه الرسائل مؤرخة بيوم 27 يناير 1860م، أي في الفترة التي وصل فيها الجيش الإسباني حدود كابو نيكرو-مارتيل³. وجاء فيها: "بلغنا-القائد الغماري-وعلمنا ما ذكر من نصر الله للمسلمين على عدو الدين وأنه اشتغل بمكاييد الحروب وأمهلوه حتى أتاهم وحملوا عليه حملة رجل واحد، ومكنهم الله منه وقتلوه، وكان المقتول منهم العدد الذي ذكرت، وأسر منه عدد وبقيت جرحاه بأيدي المسلمين"⁴. إلا أن الجيش الإسباني كان في تقدم مستمر، وربما إلى جانب قوته العسكرية استخدم الحيل والخدع الحربية، إذ يزيد المولى العباس محذرا القائد الغماري من ذلك: "ولا تغتروا بعدو الله فإنه خداع"⁵.

أما الرسالة الثانية فمؤرخة بيوم 3 شعبان 1276هـ/ 25 فبراير 1860م، أي بعد دخول الجيش الإسباني إلى مدينة تطوان، وقيام المولى العباس بمحاولات الصلح مع إسبانيا؛ إلا أن هذه المحاولات فشلت، وقام الإسبان بإرسال التعزيزات العسكرية إلى تطوان، وضرب الأسطول الإسباني مدينة العرائش وميناء أصيلا خلال تاريخ الرسالة⁶. ولذلك قام المولى العباس من جديد بحشد القبائل استعدادا لهذا الهجوم، حيث نجده في هذه الرسالة، الموجهة إلى المرابط الحاج أحمد بن صالح، يستنفره فيها لجمع المجاهدين من رجال غمارة، والتعجيل بالقدوم بهم إلى ساحة المعركة بتطوان. وجاء فيها: "... الشريف سيدي الحاج أحمد بن صالح وكافة الطلبة

¹ - جمال عاطف، "ملاحظات حول العلاقات المغربية الإسبانية قبيل حرب تطوان"، ندوة تطوان قبل الحماية 1860-1912، يوم 12-13-14 نونبر 1992، مطبعة الهداية، تطوان، 1994، ص. 74.

² - محمد داود، تاريخ تطوان، ج 4، م. س، ص. 15-16.

³ - داود، تاريخ تطوان، ج 4، م. س، ص. 196.

⁴ - رسالة من المولى العباس بن السلطان عبد الرحمان إلى قائد القبائل الغمارية بتاريخ 4 رجب 1276هـ/ 27 يناير 1860م. أنظر عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة... الجزء الثاني، م. س، ص. 175.

⁵ - نفس الرسالة السابقة.

⁶ - محمد داود، تاريخ تطوان، م. س، ص. 229-231.

والمجاهدين في سبيل الله ... وبعد فإننا لا زلنا بحول الله وقوته محاصرين لشعر تطوان ونيتنا قتاله إلى أن يحكم الله بيننا وبينه، والآن انفروا خفافا وثقالا واستنفروا معكم من قدرتم على استنفاره من المسلمين، وأقدموا علينا عاجلا ..."، وتزيد الرسالة موضحة ما آلت إليه مدينة تطوان خلال هذه الفترة: "فإن رزية تطوان لا يقدر واحد من المسلمين على الصبر عليها، فجدوا حفظكم الله واجتهدوا وأسرعوا بالقدوم علينا أصلحكم الله ..."¹.

وفي هذا الصدد يقول الإسباني (Maldonado Vazques): "وصل الغماريون إلى تطوان لتدعيم قريتي بوسمال وأمس، وقاموا بعدة هجمات، لكنهم كانوا قليلي العدد ولم يهاجموا بشجاعة. وكانت الحرب تسيير بعكس ما يبتغيه المغاربة، خصوصا مع قدوم المزيد من القوات الإسبانية كتلك الفرق الباسكية التي أبحرت في تلك الفترة تحت قيادة الجنرال (Carlis Maria Latorre)²، وعموما كانت هذه الحرب غير متكافئة، فانهزم فيها المغرب هزيمة دفعت به إلى التبعية للدول الأوروبية عن طريق الاقتراض، لتسديد غرامة الحرب الباهظة التي فرضتها عليه إسبانيا. بالإضافة إلى التسرب الفعلي الذي ستشرع فيه إسبانيا في جل مناطق شمال المغرب بما فيها منطقتنا المدروسة.

2- قبائل غمارة بين الريسوني³ ومحمد بن الصديق والتدخل الإسباني

لقد درس الكتاب الأوروبيون تاريخ المغرب في ظروف الفترة التي بدأت فيها إرهابات الهجمة الاستعمارية على البلاد، وحيث إنهم كانوا متشبعين بالإيديولوجية الاستعمارية، فإنهم جندوا أرقامهم لخدمة أغراض الغزو وتبريره بتبني أطروحات ترمي إلى تشويه الحقائق التاريخية وكانت أهم مقولاتها السببية والفوضى والقمع.

وحظيت بلاد جبال عامة وغمارة خاصة بنصيب وافر من هذا الأدب التبريري الاستعماري. فقد زعمت الإثنوغرافية الاستعمارية أن طبيعة العلاقات بين المنطقة والمخزن كانت تقوم قبل 1912م على أساس العداة والعنف والإكراه، فالقبائل كانت تجنح إلى التمرد والعصيان لأنها ترفض أداء الضرائب، بل وترفض سلطة العاهل

¹ - رسالة من المولى العباس بن السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى المرابط الحاج أحمد بن صالح، مؤرخة بيوم 3 شعبان 1276هـ/25 فبراير 1860م، أوردها سميح بن صالح، قبائل شرق غمارة خلال القرن 18 و19م، بحث لنيل شهادة الماستر نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، 2013، ص. 160.

² - Maldonado Eduardo Vazques, "Gomara en la Guerra del 60", Ejército, Revista Ilustrada de las Armas ya Servicios, Año XVI, Num 183, Abril 1955, pp. 41-42.

³ - هو أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني ولد حوالي 1287هـ/1870م في مدشر الزينات من قبيلة بني مصور قبيلة أمه بعيدا عن محل أسلافه بتازروت، وهو من العائلة الريسونية العريقة في المجد والشرف والصالح، في وقت مليء بالاضطرابات والتكالبات الاستعمارية على المغرب، عين له والده فقيها من خبرة فقهاء جباله لحفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة، إلا انه سرعان ما فقد والده في حوالي العاشرة أو يزيد بقليل، لينشأ يتيما في كنف أمه التي لن يطول مقامها أيضا، حيث ستقتل من طرف اللصوص وهو بعيد عنها، مما سيجعل موتها منعظا كبيرا في حياة الطفل أحمد، حيث سيتحول من طالب علم حامل للوحه وقلمه إلى طالب ثار أمه، حاملا للبندقية والسيف متجولا في السهول والجبال باحثا عن المتطاولين على حرمة بيته وماله، ولم يتراجع عن قراره إلا بعد ان انتقم منهم وهزمهم، الشيء الذي سيحمله بطلا علق عليه الضعفاء آمالهم في رد عدوان الظالمين القتلة فلم يخيب ظنهم، وكان كما أراد له الوضع الذي عاش فيه من تدهور، أن يكون. علي الريسوني، أبطال صنعوا التاريخ، تطوان، 1975، ص ص. 94-96.

الزمنية ولا تعترف له إلا بنفوذه الروحي، أما المخزن فقد كان يلتجئ، من أجل إخضاعها وسحقها بالضرائب، إلى تشديد الحملات القمعية ضدها، وإلى تطبيق سياسة فرق تسد بزرع الشقاق بين السكان. وحيث إن واجبنا اليوم يقتضي التصدي لمثل هذه المزاعم، وتنقية تاريخنا من الفكر الاستعماري، أو كما يقول الدكتور جرمان عياش "تمشيط الأرضية التي تركها الاستعمار مزروعة بالألغام"¹، فإننا سنقوم بتسليط الأضواء على حقيقة علاقات قبائل غمارة في ظل ضعف السلطة المغربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، معتمدين في ذلك على مجموعة من الوثائق والشهادات.

شهدت المنطقة المدروسة خلال الفترة السابقة للاحتلال الإسباني استقطاب مجموعة من القوى، كل طرف يريد أن يوطد دوره في المنطقة، فنجد الريسوني والأسرة الصديقية والقوات الإسبانية، في ظل ضعف سلطة المخزن المغربي، بعد تولية السلطان عبد الحفيظ الحكم، عين الريسوني قائدا على القبائل الجبلية والهبط كلها يوم فاتح صفر 1327 هـ/1909/02/22م، بعد أن حظي بمقابله بفاس على رأس وفد يضم حوالي تسعين شخصا²، وعاهده على الإخلاص والدفاع عن الوطن، وذلك ما عضد الريسوني وزاده قوة ومهابة أكثر مما كان عليه في السابق؛ إلا أنه بالرغم من توليته للمناطق الجبلية من طرف السلطان الجديد، لم تكن هذه القبائل راضية عنه وخصوصا قبائل غمارة التي احتفظت بحكمها السابق عنه، ولم تقبل ولايته عليها، ولربما في الأمر أكثر من سبب أهمه: ما يخص طبيعة الريسوني نفسه باعتباره ظالما جبارا في نظر الأسرة الصديقية³ وكثير من أهل غمارة. والسبب الثاني مرتبط بمن ولي الريسوني وهو المولى عبد الحفيظ، الذي عارضه العلامة محمد بن الصديق زعيم غمارة باعتباره ثار على أخيه ليعزله عن الملك، إلى جانب مخالفته شروط البيعة التي التزم بها منذ بداية حكمه.

أما السبب الثالث فهو الخلاف بين الطريقة الريسونية والدراوية منذ عهد الشيخ سيدي أحمد بن عجبية، حيث كان الأشراف الريسونيون بتطوان من بين هيئة المحكمة التي تكونت لمحكمة الدراويين، بسبب ما اعتبرته الهيئة بدعة ومروفا عن الدين في سلوكيات الدراويين، حيث كان الشيخ علي بن ريسون موافقا الهيئة بالضغط على ابن عجبية وقهره للرجوع عن مبدئه⁴.

¹ - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمساني، ط 1، الرباط، سنة 1986، ص. 11.

² - محمد بن عزوز حكيم، مذكرة التهامي الوزاني: المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب، مطبعة الساحل، الرباط، 1980، ص. 51.

³ - أحمد بن الصديق الغماري، سبحة العقيق بذكر مناقب الشيخ سيدي محمد بن الصديق، الجزء الأول، دراسة وتحقيق كنزة عكة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 2004، ص. 78 من المخطوط.

⁴ - عبد المجيد الصغير، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي في القرنين 18/19م أحمد بن عجبية ومحمد الحراق، دار الافاق الجديدة المغرب، الطبعة الثانية، 1994م، ص ص. 182-186.

قد تكون هذه الأسباب مجتمعة هي الدافع وراء رفض قبائل غمارة لسلطة الريسوني، ومهما كانت الجهة التي اختارته واليا على المنطقة سواء المولى عبد العزيز أو المولى عبد الحفيظ، فقد اعتبر أهل غمارة ذلك ضد مصلحتهم، نظرا لشخصية الرجل في المخيال الغماري. وأثناء احتلال تطوان، تقدم إلى صفوف الجهاد في منطقة الشمال، إلا أنه بالرغم من ذلك لم يستطع كسب ود القبائل الغمارية، بل ظلت بعضها دائما ترى فيه الرجل الثائر، قاطع الطريق الذي يمارس اللصوصية بإغارته على القرى والمداشر للسلب والنهب. لذا فهي لم توله أمرها ورفضت قيادته عليها ولو للجهاد. وحافظت على موقفها منه مهما فعل، معتبرة الريسوني وجماعته "جماعة من الشياطين والأوباش والغوغاء الذين كانوا يتظاهرون بالجهاد ومحاربة الإسبان في القبائل بين طنجة وتطوان"¹. وهو في الحقيقة موقف لم يكن خاصا بالأسرة الصديقية، بل إن كثيرا من الباحثين نقلوا الحكم نفسه عن سياسة الريسوني الجهادية²، وذلك يعزى إلى منهجه المتذبذب في التعامل مع سلطات الاحتلال.

لكن بالرغم من هذا الموقف الغماري الثابت عن تولية الريسوني، نجد التهامي الوزاني في مذكرته يقول بأن الريسوني كان ممن اجتمعت عليه جميع القبائل باستثناء قبائل أنجرة، وأنه هو من دعم رباط ابن قريش منذ بدايته الأولى، إذ يقول التهامي الوزاني في هذا الصدد: "كانت هذه المحلة صغيرة الشأن في أول الأمر، حتى خرج الشريف الريسوني الى تازروت، فنفخ فيها روحا جديدة. وبطلب من الشريف قام الأشراف التجكانيون في قبائل غمارة بالدعوة للجهاد، فلبى الناس دعوتهم راضين مطمئنين، واجتمعت الجموع واتخذت دار ابن قريش رباطا للدفاع. وترأس الشريف الريسوني هذه العناصر كلها"³. لكن العربي اللوه قال عكس هذا عن ولاء قبائل غمارة، حيث وافق رأيه رأي العلامة أحمد بن الصديق في السبحة مخبرا أنه "لما وقعت البيعة للريسوني في ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش تلقته غالب القبائل بالرضى والقبول إلا قبائل أنجرة ووادراس وبنو حسان وكذا القبائل الغمارية عموما، فإنها أبت أن تخضع للريسوني بأي وجه كان، على أنه سلطان أو قائد"⁴. كما أن الأستاذ محمد داود في "تاريخ تطوان" لم يذكر أي شيء عن أحمد الريسوني في مرحلة تأسيس رباط ابن قريش⁵، مع

¹ - أحمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م.س، ص 67 من المخطوط، الجزء الأول، ص. 384 من الأطروحة.

² - كمثل على ذلك العربي اللوه في كتابه المنهال في كفاح أبطال الشمال، ص 64 وص 217. وكذلك المريني العياشي في كتابه صور من التاريخ البطولي لمنطقة جباله. وعبد العزيز خلوق التمساني، "تشخيص المجتمع الجبلي بين الوقائع والتنظير"، مجلة دار النيابة، السنة الرابعة، العددان 15-16 صيف-خريف 1987، وكذلك موقفه من خلال مقالاته في العلم الثقافي بناء على الوثائق والنصوص التي كان يحصل عليها من أرفيف فرنسا وإسبانيا والوثائق المخزنية المغربية من رسائل وغيرها، كقوله مثلا كخلاصة في إحدى المقالات "على الرغم من الحزم والصرامة التي أظهرها الريسوني في إدارة منطقة جباله، فإنه لم يتمكن من تهدئة الاضطرابات التي كانت تعيشها المنطقة. وكثيرا ما كانت ممارسته القمعية وإرهاقه الضريبي من الأسباب التي تدفع السكان إلى العصيان والتمرّد، وتؤكد الروايات الشفوية أن زعامة الريسوني لم يكن يعترف بها إلا من كان يخشى من قيوده وأغلاله، وأما من كان يثق في بندقيته فكان خارجا عن سلطته لا يعترف بها " جريدة العلم الثقافي، السبت 10 شعبان 1404 هـ / 12 ماي 1984، العدد 693، مقال "حول طبيعة علاقات الريسوني بالقبائل الجبلية (1904-1912)".

³ - محمد بن عزوز حكيم، مذكّرة التهامي الوزاني...، م.س، ص. 67.

⁴ - العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال، الطبعة الثانية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2009، ص. 214.

⁵ - محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد 11، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص. 161.

ذكره أسماء من اختيروا من طرف قبائلهم كي يتزعموهم للجهاد¹، مع إشارته أنه في هذه الفترة، بادرت الحكومة الخليفة لتجديد ولايته على القبائل الجبلية التي كانت عازمة على الجهاد، بعد أن ولاه المولى عبد الحفيظ. حيث ارتأى الإسبان في بداية عهد الحماية أن يسندوا له وظيفة تكون له معها سلطة واحترام، وقد راسلته الحكومة الخليفة² في الموضوع رغبة منه أو بأمر من المقيم العام³ لتكون بدورها رافضة للمقاومة والجهاد، رغبة في الخضوع والاستسلام. وهو الموقف الذي تدل عليه الرسائل الخليفة لعدة قبائل جبلية عقدت العزم على المقاومة⁴. لكن الريسوني لم يكن ليقبل وظيفة تحت إشراف أحد، خاصة وأن المنطقة أصبحت تحت نظر خليفة للسلطان، وهو المنصب الذي كان يطمح إليه وواعدته به إسبانيا، ولم يحل بينه وبين توليه إلا "موقفه المعروف من الاستعمار الفرنسي"⁵. الشيء الذي جعل الريسوني يعرض عن هذا العرض ويطلب الزعامة من المجاهدين في أربطة الجهاد، فكان الرفض من زعماء الأربطة الثلاثة لطلبه الزعامة، مع الترحيب به كمجاهد في الرباط لا فرق بينه وبينهم، مما خلق جوا من التوتر داخل الأربطة الثلاثة بالمنطقة⁶، الأمر الذي جعل حضوره داخل الرباط في السنتين الأوليين من تأسيسه باهتا؛ إذ لم يكن له حضور قوي في رباط ابن قريش إلا بعد 1915م بعد انسحاب المجاهدين منه، فتمت له البيعة في الضريح المشيشي من طرف عدة قبائل باستثناء غمارة وأنجرة، ولم يكن ذلك راجعا لخدلان الزعيم الروحي لقبائل غمارة محمد بن الصديق، كما ذكر التهامي الوزاني ولكن "مرجع ذلك إلى ما كان الريسوني مطبوعا عليه من الاستبداد في تصرفاته واستعماله أنواع القمع والقهر والقسوة التي لا تطاق، مما جعل تلك القبائل تنفر منه وتنشق عنه، حتى لا تنصاع وتذعن لقهره وسيطرته"⁷. ففشل في لم شمل المجاهدين حوله، وهو الرأي ذاته الذي اعترض به العلامة محمد بن الصديق على توليته عليهم نظرا لتسلطه وجبروته.

لكن حسب رواية التهامي الوزاني فإنه حتى التجكانيين الغماريين بني عمومة الشيخ محمد بن الصديق دانوا للريسوني، عكس ما ذكره العلامة أحمد بن الصديق عن والده باعتباره شيخهم سواء في "سبحة العقيق" أو

¹ - ذكر محمد بن عزوز حكيم في كتابه "الشريف الريسوني والمقاومة المسلحة في شمال المغرب" أن أسماء المشاركين في المؤتمر العام لانطلاق الجهاد بتاريخ جمادى الثانية 1331هـ/11 ماي 1913 بزواية سيدي يوسف التليدي، ولكن مع اختلاف في الأسماء المشاركة والتي كانت تمثل جل القبائل الجبلية بما فيها غمارة الممثلة بمحمد بن الغالي وبني عروس بمحمد ولد سيدي لحسن وولد حميدو السكان وكلهم تحت رئاسة الريسوني، وهو عكس باقي الروايات. مطبعة الساحل، الرباط، 1981م، ص. 80-85.

² - نص الرسالة في المجلد 11، ص. 165-166 من تاريخ تطوان لمحمد داود.

³ - أشار لذلك محمد داود في تاريخه، المجلد 11، م. س، ص. 163.

⁴ - داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م. س، ص. 164-176.

⁵ - محمد عزوز حكيم، موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي، مطابع الشويخ، تطوان، 1981م، ص. 109.

⁶ - إذا كان رباط ابن قريش رباطا رئيسا فإنه يوجد رباطان آخران تابعان له وهما رباط الدشريين ورباط بوريان. أنظر محمد الحبيب التحكاني، وثائق وتحقيقات عن المجاهدين برباط دار ابن قريش ضاحية تطوان، 1913م، مطبعة تطوان، تطوان، 1986، ص. 46.

⁷ - العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال...، م. س، ص. 217.

"التصور والتصديق"، أي أن الأشراف التجكانيين كباقي القبائل، قاتلوا المحتل الإسباني بزعامة الريسوني، وخاضوا عدة معارك إلى جانب مجاهدي القبائل الأخرى، وجددوا ثقتهم بزعيمهم "يوم 11 يناير 1915م، حيث انعقد بمدشر الزوة بجبل الحبيب مؤتمر تحت رئاسة الشريف، حضره خمسة من رجال كل مدشر بجميع القبائل الغمارية والجبيلية، وكذلك من قبائل غزاوة وبنو زروال وبنو مزكلدة والرهونة وبنو سعيد، فلم تنغيب إلا مداشر قبيلة أنجرة، وتم الاتفاق على تجديد الثقة للشريف الريسوني"¹. في أكبر مؤتمر عرفته المقاومة المسلحة بالمنطقة الجبيلية، حيث اعترف بزعامة الريسوني ولم يعكر صفو هذه الزعامة سوى الغماري محمد بن الصديق.

ومباشرة بعد موت المقيم العام الإسباني "فرانسييسكو خوردانا"، تم تعيين "برنكير" مفوضا عاما في 25 غشت 1919م، والذي غير سياسته اتجاه المنطقة باعتباره كان من دعاة التصعيد العسكري، فبدأ بقطع العلاقة مع الريسوني لأن الحرب العالمية الأولى انتهت ولم يبق هناك داع للهدنة مع الريسوني، ولا خوف من ثورته، وشرع "برنكير" بالزحف من أجل توسيع منطقة النفوذ الإسباني، والذي كان يقابله قوة وصلابة المقاومة الغمارية والجبيلية التي أرغمت القوات الإسبانية على التراجع، بعد تركها لمعدات وعتاد كان في مصلحة استمرار الجهاد، الشيء الذي جعل الإسبان، حسب رأي التهامي الوزاني، يبحثون عن خصوم الريسوني في القبائل الجبيلية والغمارية لتفريق المجاهدين من حوله، ولم يجدوا لهذه المهمة أفضل من العلامة محمد بن الصديق الغماري، الذي كان له نفوذ كبير في هذه القبائل "فاتصل الكرونيل كاسترو خيرونما ما بين شهر مارس وغشت من سنة 1919م بالشيخ سيدي محمد بن الصديق الغماري الدرقاوي، فتعاون معه في بث سياسة إسبانيا في بعض قبائل غمارة وقبيلتي بني سعيد وأنجرة"². وقد تحدث الأستاذ التهامي الوزاني في مذكرته عن الحرب بعد المهادنة، وهي سياسة اتبعها "برنكير" بعد وفاة "خردانا" التي صادفت نهاية الحرب العالمية الأولى، فقام بتغيير خطة سلفه، والتي اصطدمت بعدم رضى الريسوني عن السياسة الجديدة، نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ في تلك القبائل، ونظرا لمنهجه القائم على صد تقدم الإسبان في منطقة نفوذه، مقابل ضمانه الأمن والسلام، وإن كانت رواية العلامة أحمد بن الصديق عن والده تؤكد أنه تخابر مع الإسبان في شخص "خردانا" لكن قبل هذا بكثير أي سنة 1915م، عندما كان في طريق عودته من سفره لقبائل غمارة، حيث طلب منه "خردانا" الموافقة على تولية الريسوني فرفض، وذلك في فترة تهيئ "خردانا" للهدنة، فأغراه بالمال مقابل التوقيع على ولايته، فكان جوابه: "ولو ملأت الغرفة ذهبا ما رضيت"³. ورغم معارضة الشيخ الغماري نفذ "خردانا" قراره، فتمت الهدنة، واتفق الإسبان على تولية الريسوني للمنطقة، وبذلك دامت سلطة الريسوني على تلك القبائل طوال مدة "خردانا"

¹ - التهامي الوزاني، المقاومة المسلحة...، م. س، هامش ص. 73. القول نفسه أكده محمد ابن عزوز حكيم في موقف الشريف الريسوني من الاستعمار الفرنسي...، م. س، ص. 111.

² - التهامي الوزاني، المقاومة المسلحة...، م. س، ص. 89. /محمد داود، تاريخ تطوان، ج 3، م. س، ص. 155.

³ - أحمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م. س، ص. 79 من المخطوط. ص. 384 من الأطروحة.

كمقيم عام. وتشير وثائق الأرشيف الفرنسي لشخصية سيدي الحسن الريسوني الذي سيقف ضد أحمد الريسوني مستغلا ولاء قبيلة الاخماس وبني زجل، اذ سيشرع في جلب الأسلحة من ميناء أمتار الغماري قصد بداية مشروعه ضد أحمد الريسوني حسب نفس الوثائق¹. وبما أن جل المجاهدين في رباط ابن قريش لم يكونوا راضين عن الهدنة وعن سياسة الريسوني، فقد تشتتوا عن الرباط منذ هدنة 1915م؛ لذلك، لما انقلب "برنكير" على الريسوني في تلك الظروف، كانت شعبيته في القبائل الجبلية قد تقلصت، فوجد نفسه مضطرا لمغادرة الرباط إلى محل زاويته بتازروت، مما مهد الطريق أمام "برنكير" للتوسع دون كبير مقاومة، لا لأن محمد بن الصديق الغماري سهل احتلال مناطق نفوذه، ولكن بما تسبب فيه الريسوني من تشتيت لوحدة صف المجاهدين كواحد من أهم أسباب تراجع المقاومة المنظمة في هذه الفترة، وهو ما عبر عنه محمد داود بعامل مفعول أثر الهدنة، حيث اعتاد الناس على الراحة والبعد عن الجهاد راغبين أو مجبرين². كما أضيف لذلك عامل آخر وهو القوة الجبارة التي أعدها "برنكير" لهذا التوسع في البر والبحر والجو، مما أثار الرعب في صفوف بعض القبائل. هذا إلى جانب عامل المساعدة الذي كانت تقدمه الحكومة الخليفة لسلطات الحماية، بإرسالها رسائل الترغيب والتهديد للقبائل المقاومة، الأمر الذي دفع العديد من القبائل المجاهدة إلى الانكسار وإعلانها الخضوع. وكانت من بينها قبائل غمارة، بعد أن تمت مراسلتها من طرف الحكومة³، فأجابوها بالخضوع والاستسلام. فما كان من العلامة محمد بن الصديق إلا أن تدخل بطلبه من "الحكومة الخليفة التي فتحت له ذراعها بعد خلاف مع خصمه الريسوني مع الحكومة الحامية، رسالة يطلب فيها تولية المختار ابن مرزوق على عدة قبائل غمارية، فأجابه الوزير الصدر (ابن عزوز) برسالة أخبره فيها بأن كتابه كان موقع الاعتبار والاستحسان"⁴. وبعد أيام، صدر ظهير بتولية المستوصى به على قبائل غمارة. فكان العلامة محمد بن الصديق بهذا التدخل قد رضخ لرغبة الحكومة الخليفة في هذه الفترة الطامحة إلى الهدوء والسكينة في ظل الاحتلال، وتدخل لتولية رجل من أنصاره كباقي القبائل المستسلمة، وكأن المشكلة كانت في الريسوني وحده لا في الاحتلال. وبتوسطه ذاك جعل قبائل غمارة تحت مظلة سلطة الحماية التي لم تلب رغبة الشيخ، حبا فيه، ولكن على حد تعبير محمد داود "ضرب عصفورين بحجر (إبعاد الريسوني من طريقها وتوزيع مناطق نفوذه على عدة أشخاص ضعاف تحت إمرتها، ومن ثم التقرب من الشيخ الذي ظل عصيا عليها لمدة طويلة) والسماسة السياسيون-قاتلهم الله- كثيرا ما يلعبون في مثل هذه المواقف، أدوارا لا تخطر على بال، وبعض الرجال المنتسبين للعلم والدين، كثيرا ما يثقون بالوعود

¹ -Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. Extrait du Rapport n 2, du 24 Janvier 1919 de Tetouan.

يتضمن هذا الأرشيف مجموعة من التقارير الموقعة من (BOISSIEUX) المفوض المقيم العام ونائب مدير دائرة المخابرات في الرباط 20 فبراير 1919، وترسل هذه التقارير إلى قادة المناطق التالية عريابوة وحد كورت ومشرع بالقصيري.

² - محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م. س، ص. 183.

³ - رسالة الوزير الصدر بطلب الطاعة من قبيلة غمارة، أنظر محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م. س، ص. 187.

⁴ - محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م. س، ص. 193.

المبدولة، ويغترون بفتح أبواب الآمال، ويظنون أن ما يقوله أولئك السماسرة من قول هم فيه صادقون، فيقع الكثيرون منهم في أودية الغرور، وقد لا يشعر الواحد منهم إلا وهو غارق في حمأة الخيانة أو بحر الآثام"¹.

نستشف من هذه الشهادة للمؤرخ محمد داود أن هذا التصرف من العلامة ليس سليما، ويمكن تفسيره بالخيانة وإن من غير قصد، بل بسبب حسن الظن بالسماسرة الذين لا يصدقون في أقوالهم. ولعل مثل هذه التصرفات في هذه الفترة جعلت البعض يصف تدخل الشيخ الغماري بالخيانة والحرص على مصالح الاستعمار، ومن أمثال هؤلاء التهامي الوزاني ومحمد ابن عزوز حكيم في تحقيقه لمذكرة الأول، وذلك بالرغم من الاختلاف الذي كشفه محمد ابن عزوز حكيم في هامش المذكرة بخصوص الاسم، إلا أنه أكد أن نتائج المخابرة بين العلامة محمد بن الصديق والإسبان كانت جيدة على الجيش الإسباني، وإن كان صاحب المذكرة يتحدث عن المخابرة مع الكرونيل كاسترو خيرونا، الذي لعب دورا مهما في التدخل السلمي بالمنطقة. والمحقق يتحدث عن المخابرة مع الكرونيل "باطشوط" رئيس المخابرات الإسبانية بطنجة، فهما أكدا النتيجة نفسها، وهي التوسع الناجح في المنطقة بموجب مساعدة العلامة محمد بن الصديق، إذ يقول التهامي الوزاني في هذا الصدد: "احتل الجيش الإسباني في عهد المقيم برينكير المراكز التالية: تظفت بآل سريف في 26 فبراير 1919 وبوعدا والطويل بأجرة وني صالح ودار الشاوي ووادي لاو وترغة وقاع أسراس وتيكساس كل ذلك بفضل مساعدة الشيخ ابن الصديق الدرقاوي"². فنال رضى المقيم العام والحكومة الإسبانية، لكنه نال سخط القبائل الغمارية التي أمرت بإحراق زاوية تجكان يوم فاتح أكتوبر 1921 م³. فالتهامي الوزاني اتهمه بالتخابر مع "خيرونا" لكن محمد ابن عزوز حكيم يعتمد الوثيقة الأجنبية في التصحيح ليكون "باطشوط"⁴ هو المتفاوض مع الشيخ الغماري في فترة برنكير. في الوقت الذي ذكرت مثلا ماريا روسا أن "برنكير" هو فعلا مهندس التغلغل السلمي، من خلال الاعتماد على توزيع الهدايا والأعطيات على المتعاونين مع إسبانيا، وكان ممن اشتهر بهذه المهمة الشريف البقالي الذي ساعد الإسبان على التوغل في قبائل غمارة⁵، وليس بمساعدة محمد بن الصديق⁶.

¹ - داود، تاريخ تطوان، م. س، ص. 193.

² - التهامي الوزاني، المقاومة المسلحة...، م. س، ص. 82.

³ - محمد ابن عزوز حكيم، معركة تازروت، الجزء الأول، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2004، ص. 146. / التهامي الوزاني، المقاومة المسلحة، م. س، ص. 89.

⁴ - ورد هذا الاسم في تاريخ محمد داود من غير طاء، في حين عند التهامي الوزاني يثبت بحرف الطاء "باطشوط" هكذا، مما يدل على أنه اسم لشخص واحد خاصة وهو الاسم المتهم للعلامة محمد بالتخابر معه في هذه الفترة.

⁵ - ماريا روسا دي ماداريغا، في خندق الذئب معارك المغرب، ترجمة كنزة الغالي، مؤسسة الغني للنشر الطبعة الأولى 2010، ص. 114.

⁶ - عرفت المؤرخة ماريا روسا دي ماداريغا بحيادها وموضوعيتها، خاصة أنها اعتمدت على كتب "برنكير" نفسه مثل كتاب "حملات الريف وجباله" ولم تنقل عنه تعاون الشيخ محمد بن الصديق معه، ولم تذكر أنه كان سبب استسلام قبائل غمارة، بل ذكرت أن سبب استسلامها وبعض قبائل الريف راجع بالأساس للظروف الطبيعية التي قهرتهم بما فيها الجوع والخفاف، كما ذكرت أن بعض القبائل كان استسلامها صوريا، حيث كانت

وتشير بعض الوثائق الفرنسية الواردة في أرشيف نانت، أن تعاهد الريسوني مع الإسبان جعل القبائل الغمارية والجبيلية ترى في الأول عميلا للمسيحيين، لذا وجب الثورة عليه وهو ما كبد الريسوني العديد من الخسائر حسب نفس الوثائق¹. وتؤكد كذلك أن الريسوني كان مصرا على أن يهاجم غمارة، غير أن الذي كان يعيقه هو صعوبة تكوين جيش قادر على هذه المهمة، في ظل خوفه من انضمام قبيلة أنجرة والاخماس إلى غمارة. وكان الفرنسيون يعتقدون أن الريسوني كان محميا من طرف الألمان، يأخذ السلاح والمال منهم، لكن خسارة الألمان في الحرب العالمية الأولى ستجعل مكانة الريسوني تتراجع، وتشير الوثائق الفرنسية دائما أن القبائل الجبيلية مستعدة للتحالف مع الفرنسيين ضد الريسوني². ومن هنا نخلص إلى أنه لم تكن هناك أية علاقة تقارب بين الشيخ محمد بن الصديق وأحمد الريسوني، بل كان هناك تنافر وتباغض، نظرا لاختلاف التوجهات، ولكون كل منهما كانت له مكانته وكلاهما كانا زعيمين، وقلما خضع الزعماء لبعضهم البعض. كما نؤكد بأن كليهما تعاملتا مع سلطة الحماية انطلاقا من قناعاتهما ومصالحهما والظروف المحيطة بهما، الشيء الذي جعل قوى المقاومة تنشأت في مواجهة التدخل الإسباني، وهو ما استغلته سلطات الحماية أحسن استغلال في بسط سيطرتها على منطقتي جباله وغمارة.

3- موقع قبائل غمارة من الاضطرابات الداخلية في شمال المغرب:

3-1 تمرد بوحمارة³ وموقف قبائل غمارة منه

تميزت فترة ما قبل انتهاء القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بمجموعة من المشاكل والمحن، تناسلت وتكاثرت بموت السلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمن وولاية ابنه المولى عبد العزيز الحكم سنة

هذه القبائل توهم الإسبان بالخضوع من أجل الحصول على تسهيلات في الموانئ لجلب المؤونة التي يحتاجونها ليستعدوا للمواجهة فيما بعد. أنظر مارياروسا دي ماداريغا، في خندق الذئب معارك المغرب...، م. س، ص. 116.

¹ - Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. Extrait du Rapport n 3, du 7 Fevrier 1919 de Tetouan.

² - Archives Nantes ..., op. cit., Extrait du Rapport n2, du 24 Janvier 1919 de Tetouan.

³ - هو فتان ظهر في نواحي تازة سنة 1320-1328هـ / 1902-1908م اسمه الجبيلي بن ادريس من جبل زرهون بلقب أبي حمارة، ادعى السلطنة على المغرب معتمدا على السحر والشعوذة لسلب عقول البسطاء في دعوته التي وجدت صدى لدى بعض قبائل نواحي وجدة وفاس وتازة، ادعى أنه الأمير محمد بن السلطان مولاي الحسن المظلوم والهارب من السجن بعد أن قضى فيه ثمان سنوات، هو الأحق بالعرش من أخيه الأصغر السلطان مولى عبد العزيز، ولقد صدقه الناس في دعواه لجهلهم بصورة وأوصاف الأمير محمد فاتفقوا على مناصرته، فكون منهم جماعته التي بدأت بالمحجوم على مراكز السلطة المغربية كما على القبائل التي يريد إخضاعها لسلطته مستعينا على مشروعه بالمال الذي يصله من السلطات الاستعمارية؛ حيث كان له اتصال بالفرنسيين الذين استعملوه في عدة مواقف لصالحهم، كما أنه منح الإسبان امتيازات كبيرة لاستغلال مناجم حديد الريف. وبذلك استطاع فرض سيطرته على مناطق الشمال من ناحية وجدة والريف إلى ناحية فاس وطنجة بالقوة والجبروت أحيانا والحيلة والخديعة أحيانا أخرى، أما من عارضه فكان لهم القتل والتدمير حيث قتل عددا كبيرا من المعارضين لمشروعه، وهكذا دامت فنتته ست سنوات إلى أن اشتهر أمره بين الناس، وانكشف تواطؤه، فبعث المخزن رجاله ليعرفوا الناس حقيقته، فانفض الناس من حوله وحوصر وألقي عليه القبض في دجنبر 1908م ليتم إعدامه. أنظر التهامي الوزاني، "تاريخ المغرب"، ج 3، ص 100. //عبد الرحمن عبد الله الصنهاجي، مذكرات في تاريخ المقاومة وجيش التحرير المغربي من 1947 إلى 1986م، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ص ص. 27-28. // علي الريسوني، "أبطال صنعوا التاريخ"، م. س، ص. 126.

1311هـ/1894م وهو ابن الثالثة عشرة تحت وصاية اباحماد (الوزير أحمد بن موسى)، الذي أشرف على تربية السلطان الصغير، حرصا على توطيد سلطته ومكانته في الدولة على حساب شغل السلطان باللعب والهدايا، مما جعل الطفل غير مهياً لتحمل أعباء السلطة ولو بعد وفاة وزيره ابا احماد 1318هـ/1900م، الشيء الذي أدى إلى إفراغ خزينة الدولة بمصاريف لا فائدة ترحى منها استجابة للضغوط الأجنبية الداعية إلى الإصلاح خاصة فيما تعلق بالجانب المالي، والذي بدأ "بإدخال الضريبة المعروفة بالترتيب، مما أثار قلقا عميقا وسط عامة المغاربة الذين استأثروا من حذف الجباية الشرعية ومماثلة النظام الجبائي الإسلامي بنظيره لدى الكفار، مما فسح المجال أمام سلسلة من الانتفاضات الشعبية ضد المخزن"¹. كتمرد القبائل برئاسة الجيلالي الزرهوني الملقب بوحمارة سنة 1320هـ/1902م، أي بعد سنتين فقط من وفاة ابا حماد.

صمم بوحمارة العزم على إشعال نار ثورته على العرش، واستطاع حشد العديد من القبائل حول مشروعه، باعتبار أن عرش المغرب جلس عليه أخوه الصبي الصغير، الذي صار النصرى يلهونه باللعب مع صبيانهم. محاولا بذلك تغيير الناس بأقواله "فالآن هم الذين يحكمون المغرب في الحقيقة، بواسطة أخي الذي أجلسوه على العرش كدمية متحركة. ثم يقول لهم أنا مولاي محمد بن الحسن، وأنا أحق بالعرش منه وأريد منكم أيها الأبطال أن تنصروني وتعصدوني بما عرفتم به من الشجاعة والغيرة على الدين والوطن."² وهكذا تعاونت معه مجموعة من القبائل إما إغواء وخداعا منه أو خوفا من بطشه، فبويع سلطانا بتازة سنة 1902 وأصبحت صلاة الجمعة تقام باسمه³. لكن مع ذلك بقي العديد منها خارجا عن سيطرته بعيدا عن الاستجابة له. ومنها من واجهته كقبائل الريف الوسط من مثل قبائل بني ورياغل وبقوية وآخرين بعد اكتشاف خيانتهم وخداعه لهم إثر تنازله عن معادن أيت بويغورور لصالح الأوربيين، مما أثار سخط القبائل المعارضة للتوسع الأجنبي في أراضيها. وكذلك الشأن بالنسبة لبعض المناطق التابعة لقبيلة غمارة كقرية تجكان مثلا التي لم تستجب له "بعدها راسل بوحمارة شيخ الزاوية التجكانية السيد محمد بن الغالي يأمره بالبيعة له فأجابه الشيخ بأن في ذمة المسلمين بيعة شرعية وأن المجاهد إذا طلب الإمارة بطل جهاده، هذا بالرغم من أن عددا مهما من أعيان قبيلة غمارة في قبيلة متيوة وفي بني منصور نفسها على مقربة من قرية تجكان كانوا إلى جانب بوحمارة، حيث كانت تحت أيديهم تعيينات برسم القواد والقضاة موقعة من طرفه."⁴ ومع ذلك لم تفعل تجكان ما فعل جيرانها ورفضت بيعته فكلف هذا الرفض الزاوية التجكانية العديد من المصائب والمحن من طرف أتباع بوحمارة بدءا من نهب أموال الزاوية بقبيلة

¹ - ماريا روسا ذي ماداريكا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات تيفراز 10، الطبعة الأولى 2013، ص. 57.

² - العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطابع الشويخ، 1402هـ-1982م، ص. 26.

³ - ماريا روسا ذي ماداريكا، محمد بن عبد الكريم الخطابي...، م. س، ص. 58.

⁴ - محمد الحبيب التجكاني، وثائق وتحقيقات...، م. س، ص. 31-32، يقول عن عدة مصادر شفوية. /محمد الحبيب التجكاني، "موسم ديني بتجكان قلعة النضال والصمود"، جريدة الميثاق الوطني، العدد 1135، الخميس 23 أكتوبر 1980.

بني زروال وقبيلة متيوة لوطة. وهذا الموقف يعتبر هو موقف الأسرة الصديقية باعتبار أن العلامة محمد بن الصديق كان لا يزال في تجكان لم يستقر بعد في طنجة التي استوطنها ابتداء من سنة 1321هـ/1901م، مما يعني أن رأي الزاوية في تجكان هو رأيه، إذ لم تكن زاوية طنجة موجودة آنذاك، والتي سينشئها بعد انتهاء ثورة بوحمارة، لكونه حصل على ظهير الإنعام من السلطان المولى عبد العزيز سنة 1326هـ/1907م، والذي سيتمكن بموجبه من قطعة أرض لبناء زاوية خاصة به، ولم ينته من ذلك إلا في سنة 1329هـ/1911¹.

كما تشير بعض المراسلات المخزنية إلى أحد قواد غمارة على ضرورة الحرص من ثورة بوحمارة والاستعداد لها، إذ يقول السلطان المولى عبد العزيز إلى القائد المختار بن مرزوق: "خديمنا القايد الأرضي المختار بن مرزوق ... وبعد علمنا الشريف، بوحمارة الروكي دخل الريف واجتمع عليه بعض المفسدين الذين لا ملة لهم ولا عهد، نأمركم أن تكونوا على بال وحزم من ناحيتكم ... وأن تكثروا العسة بمراصيكم المعروفة، أما عن البارود والمكاحل فإني آذنك بشرائها بمعرفتك وأن تصرف من مال الأحباس ..."² إن أهم ما أثار انتباهنا في هذه الرسالة هو:

- وصول حركة الجيلالي الزرهوني الروكي الملقب ببوحمارة إلى بلاد غمارة.
- إفلاس خزينة الدولة المغربية في هذه الفترة إلى درجة عدم قدرته على إرسال مساعدات إلى منطقة غمارة.
- كانت بلاد غمارة تتمتع بما يسمى حاليا بالحكم الذاتي (Autonomia) الذي كانت "الجماعة" بمقتضاه تباشر شؤونها الداخلية بنفسه، أما القائد أو الشيخ فقد كان بمثابة وسيط بين الجماعة وبين السلطان أو خليفته أو عامله بالمقاطعة التي تنتمي إليها القبيلة أو مجموعة قبائل.

إن الوضع المزري الذي نتج عن ضعف السلطة المركزية، جعل المغرب يعاني من أنواع الاستغلال والاضطهاد من طرف حاشية العرش وأذنايه من وزراء وباشوات وقواد وغيرهم، ممن كان لا يهمهم إلا نهب الأموال وجمع الثروات ولو على حساب مصلحة البلد بسرقة أجور ومؤون الجيش الذي كان في مواجهة بوحمارة. مما جعله يعاني الجوع والحاجة، الشيء الذي أضعفه أمام جبروت عدوه الذي انتصر عليه في غالب المعارك. فكان هذا الواقع سببا في قذف المغرب إلى بؤرة عميقة من المشاكل المعقدة والشدائد المرهقة بسبب الديون التي تراكمت على المولى عبد العزيز، إذ "كلما قامت ثورة اضطرت إلى قمعها وبيوت المال خاوية، فيعمد للاقتراض من الحكومة الفرنسية مبالغ لا قبل للمغرب على ردها ولا رد حتى فوائدها. فكان ذلك من الأسباب

¹ - احمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م. س، ص. 56 من المخطوط، الجزء الأول ص ص. 347-348 من الأطروحة.

² - عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، مرجع سابق، ص. 195.

المباشرة في نصب الحماية وفرضها على المغرب"¹، الشيء الذي جعل البلد يغرق في جحيم الأزمات والفتن التي انتشرت في جميع أنحاءه فيما بعد. هذا الوضع المتفكك والمنحل في فترة ما قبل الحماية هو السبب في وضعية الأمن أو ما كان يسمى "بالسيية" و بالأخص في منطقة الشمال، حيث كثر اللصوص وقطاع الطرق الذين روعوا المداشر والقرى بسرقاتهم واعتداءاتهم المتكررة في ظل ضعف المخزن، الذي أصبح عاجزا عن رد مثل هذه المظالم، التي أصبحت تهدد حتى جنوده، إذ كثيرا ما ألحق هؤلاء المعتدون هزائم حتى بالمحلات المخزنية الكبرى، الشيء الذي أدى إلى ضعف هيبة المخزن في النفوس، وظهور بعض المقاومين لهذه الظاهرة بعد اقتناعهم بأن لا رادع للظلمة إلا بحماية ذاتية وعائلية، فبدأوا نشاطهم كثورة على الظلم الذي مورس عليهم وعلى ذويبهم من طرف قطاع الطرق، لكن قلة الموارد لتنظيم وتجهيز العدة اللازمة للقيام بذلك، جعل الكثير ممن أراد الثورة على الظلم احترام اللصوصية لتمويل جماعته وتزويدها بما يحتاجه أفرادها من المؤن والملابس والعتاد الحربي وسائر النفقات، فعمدوا إلى هذا الأسلوب في التكسب، حتى أصبح بعد طول مدة الممارسة حرفة يتنافسون فيها ويتسابقون إليها. فهذا الفعل وإن كان انطلق من فكرة حسنة، إلا أنه اعتمد أسلوبا سيئا أساء لمجتمعات هؤلاء الأشخاص، وحتى وإن تحسن سلوكهم بدخول الاستعمار وتقدمهم لصفوف المقاومة المسلحة، لم تمنح تلك الخطيئة من جبينهم.²

2.3- تدخل عبد الملك محي الدين³ في غمارة:

تعدد الروايات حول جهاد الأمير عبد الملك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، وتضاربت الآراء بين اعتباره مجاهدا بالغالي والنفيس مساندا للمجاهدين في عدة جبهات، وبين اعتباره خائنا خذل المجاهدين بالوشاية ضددهم لصالح عدوهم.

فمن الباحثين من اعتبره رجلا أبلى بلاء حسنا في رد ثورة بوحمارة، ورد عدوانه، حيث "التحق عبد الملك محي الدين والطيب البوشيخي ولد ابن عمامة بجيش الحكومة فكانت لهما مواقف مشرفة في الجيش الحكومي ضد بوحمارة"⁴. بينما هناك رواية تقول بأنه كان إلى جانب بوحمارة ضد الجيش الحكومي، بعدما "انتقل إلى المغرب، حيث حارب إلى جانب الدعي بوحمارة ضد قوات السلطان عبد العزيز، الذي عينه لاحقا في منصب مفوض لقوات الشرطة التي استحدثت في الموانئ المغربية، تنفيذا لمقتضيات عقد الجزيرة الخضراء سنة

¹ التهامي الوزاني، تاريخ المغرب، مكتبة النشر بتطوان سنة 1359هـ-1940م، مطبعة الريف تطوان ج 3، ص. 104.

² العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال... م. س، ص. 48 بتصرف.

³ - عبد الملك محي الدين هو حفيد المجاهد الكبير الأمير عبد القادر الجزائري، ظهر كشخصية ذات شأن في المغرب إبان التفاهم المغربي التركي على تبادل التمثيل السياسي إبان المولى الحسن الأول والسلطان عبد الحميد، فقررت الدولة العلية أن تبعث الأمير محي الدين سفيرا لها في المغرب باعتبار أن الجزائر كانت تحت النفوذ التركي، لذا عين أحد من رعاياها ممثلا لدولته في المغرب. أنظر علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان، بدون تاريخ، ص. 88.

⁴ - الحبيب التحكاني، وثائق وتحقيقات... م. س، ص. 67. /التهامي الوزاني، تاريخ المغرب، ج3، م. س، ص. 104.

1906م، وفي سنة 1912م تمت تزكيته من طرف السلطان المولى عبد الحفيظ في نفس المنصب على منطقة طنجة¹. وإن كانت مسألة المكافأة تليق بالرواية الأولى، أما أن يكون قد قام ضد جيش السلطان إلى جانب عدوه؛ ثم يكافئه السلطان بمنصب، فهذا ما لا يعقل.

تكمن أهمية هذا الرجل في كونه كانت له علاقات وطيدة بقبائل غمارة وزعمائها، وبالخصوص الشيخ محمد بن الصديق، بعدما امتنع أهل الريف عن التضامن مع عبد الملك محي الدين بل ذهبوا إلى حد تخوينه. "ولللخلاص من ابن عبد الكريم بحث الإسبان عن عملاء، فوجدوا الخائن عبد الملك الجزائري حفيد الأمير عبد القادر، وعينوه قائدا على قوة من الجنود ووجهوه إلى مليلية، ودعا ابن عبد الكريم إلى اجتماع بغية التخلص منه بخديعة فطن لها، فلبى الدعوة وحضر الاجتماع محاطا بجماعة مسلحة، فعرض عليه ابن عبد الكريم قيادة في الريف دون أن يرد عليه، ثم خرج صامتا وقد اختفى فيما بعد، إما لأنه قتل في المعركة ضد الريفيين، وإما لأنه اغتيل من طرف الإسبان، وكان يعتبره ابن عبد الكريم خائنا، ويتهمه بتحريض الإسبان على سجنه في مليلية سنة 1925"². فهذا الرأي عن خيانتته يشير إليه إبراهيم حركات أيضا معتبرا الرجل عاش عيشة غير مستقرة "حيث عمل في خدمة حكومات كثيرة وبالأخص في خدمة الدولة الفرنسية والدولة المغربية، وأخيرا الدولة الإسبانية، فحارب إلى جانبها قوات عبد الكريم الريفي وقتل في إحدى المعارك"³. ولقد أشار لمثل هذا الأمر أيضا الأستاذ محمد العربي المساري الذي اعتبر أن حفيد الأمير عبد القادر الجزائري اختار الريف مسرحا لتقديم خدماته الارتزاقية لكل من يدفع أكثر، فسبب أذى كبيرا للثورة الريفية بمغامراته المستمرة والمتنوعة حسب الطلب، بدأ نشاطه في المنطقة منذ العقد الأول من القرن العشرين، كعميل للألمان بطنجة تحت لواء العثمانيين، وبعدها عينه المولى عبد الحفيظ على بوليس مدينة طنجة، إلا أن طموحه الكبير جعله يتطلع إلى ما هو أكبر من ذلك⁴.

بينما نجد رواية أخرى لجهاد محي الدين الجزائري مع قبائل غمارة وجباله اللتين اعتبرته مجاهدا خذل الدولة الفرنسية لصالح المقاومة في الشمال، حيث "حقق اتصاله بالثورة الجبلية انتصارا سياسيا رائعا على الدولة الفرنسية، حينما نجح الأمير محي الدين الجزائري في اللجوء إلى طنجة ومنها إلى غمارة وتازروت، وخصص له الزعيم استقبالا يليق بحفيد قائد عظيم لأكبر ثورة هدت أركان الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا في القرن

¹ - ماري روسا دي ماداريكا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة وتقديم محمد اونيا وعبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، منشورات تيفراز ناريف، الحسيمة، 2013م، ص. 135.

² - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء الثاني حرب الريف، مؤسسة محمد حسن الوزاني، مطبعة المتوسط ببيروت، ص. 92.

³ - إبراهيم حركات، تاريخ المغرب، ج 3، الطبعة الثانية، دار الرشاد الحديثة، 1994، ص. 298.

⁴ - محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2012م، ص. 94.

التاسع عشر"¹. ورغم العداوة التي كانت بين الريسوني والشيخ محمد بن الصديق الغماري فأنهما توافقا على اعتباره مقاوما جبارا، استطاع خدمة المقاومة الجبلية وليس خذلانها. فالعلامة محمد بن الصديق كان يحترمه ويجله لمكانته وفضله كحفيد قائد عظيم ولينته الصادقة في الجهاد وعداوته الظاهرة لفرنسا. كما يظهر أن قبائل غمارة كانت قاعدة أساسية لتحركات هذا الرجل، وهو ما نجده عند الأستاذ علي الريسوني " وبعد الانطلاقة الثورية التي أعلنها الأمير الجزائري من تازة التي تسرب إليها—بعد نجاحه من الدسائس الفرنسية لاعتقاله—ترأس المقاومة أثناء الحرب العالمية الأولى ضد فرنسا داخل التراب المغربي وبقي يتنقل هنا وهناك، محرصا المغاربة على الحماية الفرنسية. وفي دجنبر 1918 بعث الأمير محي الدين بكتاب خاص إلى الزعيم مولاي أحمد الريسوني مع تنفيذ طلب شخصي له بإرسال شحنة من الأسلحة نزلت بجنان النيش بقبيلة بني زيات الغمارية"². وتشير وثيقة فرنسية عن الدور الذي لعبه محي الدين في تكوين جيش من المجاهدين الغماريين انطلاقا من تواجده الدائم بغمارة، حيث استطاع في البداية أن يكون 600 مجاهد من الغماريين، وكان يدفع أجرتهم بالعملة الإسبانية، إذ تشير نفس الوثيقة أن أجره كل واحد منهم كانت 2 بسيطات في اليوم³.

كما لعب عبد الملك محي الدين دورا مهما في رباط دار ابن قريش، حيث كان الوسيط بين ألمانيا الممولة بالسلاح وزعماء الثورة بغمارة⁴، وأخص بالذكر السيد الغالي بن أحمد بن الصديق⁵. وهو ما جعل بعض المنتسبين للريسوني يتهمون الشريف الغالي بأخذ المال من المستعمر دون التثبت من الأمر⁶، لدرجة أنه تم القبض على كل من محي الدين والسيد الغالي بحجة أن الشريف التجكاني معه رجل فرنسي متخف بلباس المسلمين، أخرجه معه لهذه الجبال حتى يطلعه على أسرار المسلمين وإخبارهم. ووصل الخبر إلى أهل غمارة المرابطين بدار ابن قريش، فجاءوا وأخذوا الشريف الغالي ابن أخي الشيخ محمد بن الصديق، وبقي عبد الملك محي الدين في الأسر إلى أن تدخل في شأنه بعض كبار القواد يدعى العياشي الزلال⁷، لكن قبله وصل كتاب

¹ - علي الريسوني، أبطال صنعوا التاريخ، تطوان، 1975، ص. 172.

² - علي الريسوني، أبطال صنعوا التاريخ، م. س، ص ص. 185-186.

³ -Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. Extrait du Rapport n 3, du 7 Fevrier 1919 de Tetouan.

⁴ - تتحدث وثيقة فرنسية من أرشيف نانت عن الدور الذي لعبته ألمانيا في تزويد عبد الملك محي الدين بالأسلحة، حيث كان الفرنسيون يعتبرونه من عملاء الألمان. أنظر:

Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. Extrait du Rapport n 3, du 7 Fevrier 1919 de Tetouan.

⁵ - الحبيب التجكاني، وثائق وتحقيقات...، م. س، ص. 69.

⁶ - التجكاني، مرجع سابق، ص. 72.

⁷ - كان هذا الرجل ممن اشتهر في ذلك العهد بالكرم وحسن الضيافة والإحسان إلى الفقراء والمعوزين، كان مشهورا بالأمانة والوفاء بالعهد فلم يثبت عنه أنه خدع أحدا، أو غدر به أو أفشى سر مهمته لغيره، كان مضرب الأمثال في النبل والعفة. أنظر العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال، مطابع شويخ، 1982، ص 49-50. لكن سيكون أول المنسحبين عن الريسوني عقب خلافه مع سلطة الحماية ما بعد 1918

الشيخ محمد بن الصديق الغماري يطلب من القايد الزلال إطلاق سراحه وعدم التعرض له والحرص على سلامته، خصوصا أنه كان مطلوباً من فرنسا¹. المهم أن عبد الملك محي الدين والشريف الغالي شرعا في الجهاد بعد إطلاق سراحهما ولم يكتف الشيخ محمد بن الصديق بدعمها ماديا ومعنويا، بل أراد الخروج بنفسه للجهاد بعد أن اتفق مع الألمان على إنزال السلاح في شواطئ غمارة التي ينطلق منها المجاهدون نحو أربطة الجهاد². غير أن فشل ألمانيا في إيصال الأسلحة للمجاهدين بقبائل غمارة عجلت بفشل مهمته³.

كما تشير وثائق الأرشيف الفرنسي إلى الدور الذي لعبه عبد الملك في التوسط بين الريسوني والألمان، حيث اقترح الريسوني على الألمان مساعدتهم على تهريب الأسلحة إلى المغرب لعرقلة المشروع الفرنسي، حيث أرسل الريسوني لهذا الغرض الحاج محمد بن سليمان القادري البغدادي إلى مدريد قصد التفاهم مع الألمان⁴. وعموما حظي عبد الملك بثقة قبائل غمارة بغض النظر عن مرجعيته ومموليه، وما يؤكد ذلك حسب الاستخبارات الفرنسية أنه كان له منزل خاص في قبيلة بني منصور الغمارية الذي كان يذهب إليه يوميا، ومنه كان يرسل القنصل الألماني بتطوان عبر مجموعة من الرقاصين كالعياشي الغزاوي وسلام بقاش⁵.

3-3- دور غمارة في الحرب التحريرية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي:

لقيت حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي في بدايتها صعوبة جمة، نظرا لما عرف عن زعيمها في بداية الأمر، أنه كان موظفا لدى الإسبان في مدينة مليلية، وطبعا هذا العمل لم يكن مقبولا لدى جل المغاربة بما فيها قبائل غمارة، إذ في نظرهم من يرضى لنفسه الاشتغال تحت إمرة النصارى فهو منهم. وذلك ما دلت عليه المعاملة التي لقيها الأمير في قبيلته بالريف، الشيء الذي صعب انطلاقة مشروعه الجهادي، الذي قوبل بمعارضة شديدة حتى من أهل قبيلته بني ورياغل، إذ لم يكونوا يثقون به للمرة الأولى، معتبرين أن دعوته للجهاد ضد الاحتلال، إنما هي رغبة منه في استغلال أهله من أجل تحقيق المكاسب الشخصية من لدن الإسبان. "وقد عانى في هذا المجال من الصعاب ما لا يتصور، حتى أنهم كانوا يتهمونه بأنه يلعب هذه الأدوار ليتنزه الفرصة لدى

وارتائه في أحضان الحكومة الخليفة والإقامة العامة، فصدر ظهير بتوليته على قبيلته بني منصور. أنظر محمد داود، تاريخ تطوان، مج، 11، م. س، ص. 198-199.

¹ - أحمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م. س، ص. 67-68 من المخطوط، الجزء الأول، من الأطروحة ص. 365-369. /أحمد بن الصديق، التصور والتصديق بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق، مطبعة الخانجي، 1366 هجرية، ص. 37-38.

² - أحمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م. س، ص. 69.

³ - هذه المعلومة تتفق مع ما ورد في وثيقة تحمل رقم N 464/C مكتوبة باللغة الفرنسية بتاريخ 28 يونيو 1931م من طرف مصلحة الاستعلامات تؤكد انتظار العلامة محمد بن الصديق لسفينة ألمانية محملة بالسلاح كانت متجهة للرسو بقبائل غمارة. أنظر ملحق الوثائق (رقم 1) توجد بمكتبة خاصة كما سبق أن ضمنتها الباحثة كثر عكة في أطروحتها، الجزء الأول، ص. 195.

⁴ - Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D.A.I., A 28. Extrait du Rapport n 2, du 24 Janvier 1919 de Tetouan.

⁵ - Ibid., Extrait du Rapport n 2, du 24 Janvier 1919 de Tetouan.

الإسبان لنيل الخطوة لديهم، وليغدقوا عليه بالمال، ويرفعوه إلى أعلى المناصب"¹. وكثيرا ما كان يسمع منهم كلاما جارحا نظرا لوظيفته بمليية، ولم يقبل رجال قبائل الريف الاتفاق معه على الجهاد إلا بعد أن أخذوا منه موثقا، وجعلوا عليه ضامنا وهو السيد محمد السي أحمد، نظرا لمكانته وشجاعته بينهم، محذرا إياه إن هو غدر فمصيره الموت، فقبل الشروط نظرا لرغبته الصادقة في لم الناس تحت راية الجهاد². فهذه الأخبار كلها كانت تنتشر في أرجاء المغرب بمزيد من الإضافات والإشاعات، بعضها من المستعمر والبعض الآخر بسبب التأويلات الخاطئة، والأحكام المسبقة الجاهزة التي تبنى على معطيات ناقصة، وقد تكون المعطيات سليمة، لكن تحليلاتها كانت متسرعة. وعلى هذه التحليلات المتسرعة بنيت مواقف سلبية اتجاه حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومن بينها موقف قبائل غمارة المتخوف منها في بدايتها. فالزاوية التجكانية الغمارية عارضت الحركة في بدايتها، نظرا لما وصلها من أخبار عنها بكونها اتخذت لها اسما "الجمهورية الريفية"، وعلما خاصا، وطابعا، وأسست مجلسا للشورى مكونا من علماء القبائل وأعيانهم، وأقامت محاكم للنظر في شؤون الريفيين³. مما جعل موقف قبائل غمارة والمغاربة عموما هو المعارضة كما يشهد بذلك بعض الباحثين قائلا: "... في حين أن القبائل الريفية التي أخذت على عاتقها الوقوف في وجه الغزاة، لم تجد ولو التشجيع من طرف باقي المغاربة، فضلا من أن تجد السند والدعم اللذين كانت تحتاج اليهما في معركتها المصيرية ليس فقط بالنسبة للمنطقة الشمالية بل بالنسبة للمغرب كله"⁴. لذا، ليس غريبا أن يصدر هذا الموقف عن الزاوية التجكانية ذات التأثير الروحي الكبير في غمارة، لأنها رأت في ذلك "وكأنها حركة انفصال في كيان الوحدة الوطنية"⁵. هذا إلى جانب ما عرف عن الحركة الريفية من معاداتها للطرقية والزوايا عموما⁶. إذ لم يكن رأيه وأخوه في الزوايا إلا كونها "أعشاشا لا بد من إحراقها"⁷، لذا لم تتردد عناصر جيشه في إحراق زاوية بني زروال بتاريخ 16 ابريل 1925 بعدما ثبت لهم

¹ - العربي اللوه، المنهال...، م. س، ص. 256.

² - اللوه، المنهال...، م. س، ص. 257.

³ - لقد اعتبر محمد بن عبد الكريم الخطابي هذه الأمور مسائل تنظيمية فقط ليسهل ضبط المنطقة التي تحت نفوذه، ولم يعني ذلك أبدا كونه خروجا عن السلطة الشرعية كما صرح بذلك مرات، وأخص بالذكر ما قاله في خطابه بعد بيعة أهل الريف له "... وفي نيتي أن أكتب أيضا للسلطان مولانا يوسف وأوجه إليه هدية على قدر الحال ليتحقق بأننا منقادون لأوامره التي يقضي الدين علينا بطاعته فيها، خصوصا حيث بلغه مبايعتكم لنا، فيظن أننا خارجون عن الطاعة، وبالكتب اليه ينجلي هذا الوهم عن الحضرة الشريفة" أنظر أحمد سكيح، الظل الوريث في محاربة الريف، 1926م، إعداد محمد الرازي كنون الحسني، مرقون على الآلة الكاتبة، ص. 52.

⁴ - محمد ابن عزوز حكيم، موقف شمال المغرب من الاعتداء على العرش يو 20 غشت 1953، الجزء الأول، مطابع الشويخ، تطوان، 1984، ص. 14.

⁵ - الحبيب التجكاني، وثائق وتحقيقات...، م. س، ص. 35.

⁶ - هذا الموقف لم يكن من فراغ بل ناتج عن واقع الخذلان الذي عايشته الحركة مع بعض الطرقيين خاصة عبد الرحمن الدرقاوي في زاويته امحوط بني زروال، الذي كان انطلقا "من زاويته بامحوط يمارس تأثيرا كبيرا على المنطقة ويقوم بدعاية مكثفة مضادة لعبد الكريم، ولقد أدى الشريف ثمن مواقفه منذ ابريل ومايو 1924 حين قام فريق من بني زروال نفسها، معارض للفرنسيين بتنظيم هجوم عليه بمساعدة من الريفيين". أنظر ماريا روسا، محمد بن عبد الكريم...، م. س، ص. 279.

⁷ - التجكاني، وثائق وتحقيقات...، م. س، ص. 35.

خيانتها، كما قاموا بمصادرة كل محتوياتها، ومن ثم فرض غرامة عليها قدرها نصف مليون بسيطة لثبوت جناية الخيانة ضدها¹. فهذا الموقف من الحركة بني على الرغبة في الرقي عن طريق الإصلاح الذي كان يقاومه بعض الشيوخ، إلى جانب ما كان رائجا في تلك الفترة، فيما يسمى بالدعوة السلفية. هذا إلى جانب ما وصله من أخبار عن أصحاب الزوايا وبعض الصوفية، وخاصة زاوية بني زروال وزاوية تجكان في غمارة وتعاملهما مع الفرنسيين والإسبان، والحرص على خدمتهم وعلى مصالحهم ضد إخوانهم المسلمين. لذا "كان موقف الأمير ابن عبد الكريم من الطريقة هو موقف الحركة السلفية الإصلاحية في المشرق والمغرب، مما دفع به إلى مقاومة أصحاب الطرق، وموقفهم الموالي في الريف خاصة لسلطات الاستعمار الذي هادنوه وصانعوه، بل أعانوه على المجاهدين في سبيل الله والوطن"². لذا كان الجيش الريفي ينتقم من أهل غمارة بارتكاب أشياء مخالفة لمبادئ الجهاد في رأيهم، منها "أن الحركة كانت لا تتورع في جانب من جيشها عن نهب الأموال وإحراق القرى الكاملة، خاصة الأموال المجمعة في الأضرحة والزوايا، باعتبار أن هذه أماكن احترام وأمان تقليدية لا تمس فيها الأموال"³. فمحمد بن عبد الكريم كان يعتبر غمارة قبيلة الشيخ محمد بن الصديق عملاء للمستعمر منشغلين في أعشاشهم (كناية عن الزوايا) عن الجهاد مما أوجب حرقها، وهم يعتبرونه وجيشه ثائرا، قاطع طريق، مغتصبا للأموال، لا فرق بينه وبين الريسوني الذي كانوا يسمونه "حجاج المغرب"⁴. فكون الغماريون صورة سلبية على كل الجيش الريفي، وعلى هذا بنوا موقفهم في البداية من حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهكذا نجد الزاوية التجكانية تقف ضد النهب والإحراق الذي يقوم به بعض جنود الحركة وأتباعها، بينما كان الزعيم الريفي يرى: "أن ابن الصديق الغماري بما له من النفوذ الروحي في القبائل الغمارية التي تطيعه طاعة عمياء يحرضها على مواجهة أخي محمد، لمنعه من التقدم في تراب تلك القبائل بكل الوسائل الممكنة"⁵. لذا بعثت الزاوية التجكانية بغمارة في ذلك ثلاثة وفود إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي⁶.

الأول: برئاسة العلامة السيد الغالي بن الحاج المفضل التجكاني. والثاني: برئاسة السيد محمد بن الغالي. والثالث: برئاسة العلامة السيد محمد بن عبد الصمد المعروف في تطوان بالفقيه التجكاني، بصحبة أخيه السيد محمد الزين. وقد عبرت هذه الوفود للسيد محمد بن عبد الكريم على أنها مع الحركة ولكن للجهاد الذي يفترض التنظيم واحترام أموال الناس وهدوءهم ومقدساتهم حتى يلتحم الجميع مع الحركة ضد العدو.

¹ - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، الجزء الثاني حرب الريف، م. س، ص. 120.

² - محمد الوزاني، مرجع سابق، ص. 249. / كما ورد ما يطابق هذا الأمر عند ماريا روسا، محمد بن عبد الكريم...، م. س، ص. 513.

³ - الحبيب التجكاني، وثائق وتحقيقات...، م. س، ص. 34-38.

⁴ - أحمد بن الصديق، سبحة العقيق...، م. س، ص. 217 من المخطوط.

⁵ - عبد السلام بن العربي بوعيد الطنجي، نبذة تاريخية عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق، دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء، ص. 22.

⁶ - التجكاني، مرجع سابق، ص. 91.

وكان من نتيجة هذا الموقف: "أن وعد محمد بن عبد الكريم بمحاربة الجماعة الناهبة في جيشه، كما طلب من السيد محمد بن الغالي التجكاني (الذي كان قائداً على رباط ابن قريش) أن يظل قريباً من أخيه السيد محمد المجاهد الموجود بقرية تاغزوت من قبيلة بني حسان بقصد الاستشارة، وذلك بالزاوية التجكانية الدرقاوية بالشاون، كما استقدم السيد محمد السيد نور الدين بن عبد الصمد التجكاني شيخ الزاوية التجكانية بقرية أمحيحن من قبيلة بني سعيد، استقدمه لتاغزوت قصد الاستشارة كذلك، أو هذا ما قيل له عند استقدمه على الأقل"¹. فساعدت هذه الوفود في تشارك المجاهدين الريفيين والغماريين مكونين جبهة واحدة في وجه العدو².

كما سيلعب عبد الكريم اللوه المكلف بالعلاقات الدبلوماسية من محمد بن عبد الكريم دوراً مهماً في إصلاح الأوضاع بين الجبهة الريفية والجبهة الغمارية، حيث كلفه الزعيم الريفي بإيصال رسالتين إلى مدينة طنجة. الأولى إلى باشا طنجة عبد السلام بن عبد الصادق من أجل الحصول على إذن لجمع التبرعات للحركة. أما الرسالة الثانية فكانت موجهة للعلامة محمد بن الصديق لكن فيها من الحدة والغلظة، ما جعل الحامل للرسالة يتريث حتى يتحقق واقع الرجل³، فإذا كان مثلما أشيع عنه سلمه الرسالة، وإن وجد العكس كان له تصرف آخر، وهو ما حدث، إذ يقول: "... وفي هذا الوقت رأيت أن أسعى في الاجتماع بالشيخ سيدي محمد بن الصديق لجس النبض عسى أن أتوصل إلى كشف الحقيقة عما في ضميره وما نسب إليه من العمل مع الإسبانيين، فاتصلت أولاً

¹ - التجكاني، مرجع سابق، ص ص. 91-92.

² - تؤكد العديد من المصادر أن العلاقة بين محمد بن عبد الكريم الخطابي وزعماء قبائل غمارة كانت متوترة وخير دليل مراسلات زعيم الثورة مع الشيخ محمد بن الصديق الغماري، وفي هذا الصدد لدينا روايتان:

* رواية أحمد سكيرج الذي يقول في مؤلفه: "إن الشيخ محمد بن الصديق الغماري الدرقاوي خاطب السيد محمد بن عبد الكريم ومن معه من الأعيان، وطلب منه أن يكون على بال من زاويته الدرقاوية التي بقبيلة غمارة في الحبل المسمى تجكان، حتى لا يتشتت جمع فقرائها ويخبرهم بأنه اجتمع ببعض الإسبان القاطنين بطنجة مع (ماركيس دي كبر) الذي قدم من مدريد، ليطلب منه أن يتدخل في افتداء الأسرى الإسبانيين المقبوض عليهم في الوقائع الريفية، وقد ظهر لهذا الشيخ أن يكون واسطة فيما طلبه الإسبان منه مفصحا لهم عن نواياه في الإسبان، بأن هذه الدولة أفضل في المصارفة من غيرها. ولما قرأ الفقيه ابن عبد الكريم هذا الكتاب على الحاضرين لديه من الأعيان التفت إلى الرقاص الحامل لهذا الكتاب وقال له: كنا نظن الخير في شيخكم، فيكون معينا للمجاهدين، فإذا هو يعين الإسبان، ولم يستح من هذا الفعل الذي يؤدي به أولى الإيمان، ثم أحابه عن كتابه ودفعه إليه ليوصله إليه، يقول فيه: وصلنا كتابك وصرنا على بال مما ذكرته فيه. أما وصيتك على زاويتك وفقرائك فنحن على بال من ذلك، ويعم الجميع ما يعم المسلمين. وأما تدخلك في أمور إسبانيا مع الريف، فلو كنت مع المجاهدين هنا أو هناك لأمكنك التدخل في مثل هذا الحال". أنظر أحمد سكيرج، م. س، ص ص. 46-47.

* رواية عبد الله بن الصديق الذي يؤكد بان المشورة بين الزعيم والشيخ بخصوص أسرى الحرب كانت مستمرة، إذ كان الخطابي يعث إليه الرسائل يستفتيه في أسرى الإسبان الذين وقعوا تحت يده، ماذا يصنع بهم؟ فكان يجيب بالحكم الشرعي المقرر في ذلك. وتكررت بينهما المراسلات في هذا الشأن وغيره مما تعلق بقبيلة غمارة وغيرها. أنظر عبد الله بن الصديق، الدرر النقية في أذكار وآداب الطريقة الصديقية، الطبعة الثانية، دار المرجان للطباعة، ص 15.

وهناك رواية ثالثة لماريا روسا، خندق الذئب معارك المغرب...، م. س، ص ص. 181-197، تؤكد من خلالها الباحثة توسط الحاج بن الصديق في قضية الأسرى الإسبان لدى محمد ابن عبد الكريم بطلب من الإسباني الماركيز دي كابران وهو ما أكده أحمد سكيرج.

³ - كان مضمون الرسالة كما يلي: "إلى ابن الصديق الغماري: لتنتهين أو لأبعثن من يقتلك على فراشك الذي تأمن فيه مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون". أنظر عبد السلام بن العربي بوعيايد الطنجي، نبذة تاريخية عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق، دار الفرقان للنشر الحديث، الدار البيضاء، ص. 23.

بصديقه، وصديقي المخلص الفقيه سيدي الأمين المهدي من عائلة آل مهدي بقبيلة بني زيات الغمارية، وكان هذا السيد محل أمان وثقة تامة لدى الشيخ ابن الصديق، وتذاكرت معه في الموضوع وطلبت منه أن يسعى في اجتماعي مع سيدي محمد بن الصديق، فقام بالمهمة أحسن قيام، وفي يوم معلوم أخذني معه إلى دار الشيخ ابن الصديق، وقدمني إلى جنبه بعد أن عرفه بشخصي المتواضع ومهمتي¹. يتضح من هذا اللقاء أنه فتح آفاقاً جديدة في إطار علاقة المقاومة الريفية بمثلتها الغمارية. ومكن الطرفين من تصحيح أفكارهما المغلوطة اتجاه بعضهما البعض. والاصطفاف ضد العدو الوحيد الذي هو الاستعمار، والذي كان دحره هدفاً لكل شريف في هذا الوطن، وهو ما يمثل روح التآخي بين قبائل الشمال. وبالتالي يمكننا القول إن علاقة قبائل غمارة بثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي تميزت بوجود مرحلتين: مرحلة أولى تميزت بسوء الظن المتبادل بين الطرفين، ومرحلة ثانية تميزت بالتعاون والتآخي ضد الاستعمار الإسباني.

4- مقاومة قبائل غمارة تجسد روح التآخي بين قبائل الشمال:

بخصوص هذه المسألة، يتعين القول بأن وثائق القنصلية الفرنسية في طنجة تقدم مادة غزيرة تتعلق بشجاعة المجاهدين القتالية كلما حمى الوطيس، وتبرز الالتحام الذي وقع -خاصة منذ احتلال تطوان- بين قبائل غمارة وبني احمد ومجاهدي وادراس وبني مصور وجبل الحبيب وبني يدر وبني كرفط وأنجرة²، حيث يورد القنصل الفرنسي في رسالة³، مؤرخة في 9 ماي 1913م، المعلومات التالية المتعلقة بالتقديرات الإجمالية لعدد البنادق المتوفرة لدى مجاهدي المنطقة:

توزيع عدد البنادق حسب القبائل

القبائل	عدد البنادق	القبائل	عدد البنادق
أنجرة	6000	بني عروس	4000
وادراس	3000	الاخماس	8000
بني يدر	4000	غمارة	10000

فعلى ضوء هذه المعطيات الإحصائية، يتضح لنا أهمية قبيلة غمارة في المقاومة تجاه الاحتلال الإسباني، كما تؤكد لنا الحماس الشعبي الذي كان سائداً منذ الاحتلال الإسباني لتطوان⁴ يوم 19 فبراير 1913م. وهي لا تدع

¹ - عبد السلام بن العربي بوعيايد الطنجي، نبذة تاريخية عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق، م. س، ص. 24.

² - عبد العزيز خلوق التمساني، "الغزو الاستعماري لبلاد جبال"، مجلة دار النيابة، العدد 2، ربيع 1984، ص. 30.

³ - يورد هذه الرسالة خلوق التمساني، "الغزو الاستعماري لبلاد جبال"، مرجع سابق، ص. 30-31.

⁴ - عبد العزيز خلوق التمساني، "احتلال تطوان وردود فعل الحركة الجهادية الجبلية (1913-1915)"، العلم الثقافي، 19 أكتوبر 1991.

مجالا للشك في أن العالم القروي كان يقتني، بشتى الوسائل البنادق الحربية الحديثة¹ لمواجهة جور المحتلين بإرادة صلبة، سيما وأن القبائل كانت متضامنة تضامنا مطلقا مع تلك التي لم تدخل في علاقة مع مكاتب الشؤون الأهلية الإسبانية.

وهكذا، فإن القارئ لهذه الربائد الفرنسية يخرج بانطباع أولي، هو أن الترغيب في الجهاد التحرري جعل الشعور بوحدة النضال والأهداف والرؤية ينمو ويتزايد، ومن المهم أن نلاحظ أيضا أن هذه المجموعة الوثائقية تشير إلى تقاطر الريفيين، في هذا الوقت بالذات، على الجبهة الشمالية الغربية بقيادة الشريف محمد اخمليش لتعزيز المقاومة التي كان يقودها الشريف محمد ولد سيدي لحسن²، متحدثا بإسهاب عن الدور الذي قام به هذا الأخير في استنفار أهل شفشاون، واستنهاض همم مجاهدي قبائلها³. كما لعب الشيخ محمد بن الصديق دورا مهما بعد تجاوز سوء الفهم بين الجبهة الريفية والجبهة الغمارية في تحفيز المنطقة المدروسة للجهاد مع الثورة الريفية، مما يجسد روح التعاون والتآخي الذي ميز المقاومة في شمال المغرب، يقول لمبعوث الزعيم الريفي "نعم أنا دائما معكم، ومع هذه الحركة المباركة أشارككم السرور والأحزان، وأدعو لكم في الغدو والآصال، أما من الآن حيث تشرفت بقدمكم إلى حضرتي وشاركتكم الطعام على مائدتي وفي منزلي، فإنني مسرور بكم وعلى تمام الاستعداد للخروج من طنجة، حيث ترون أنفع، بقصد الجهاد في سبيل الله يا سيدي عبد الكريم"⁴. وهكذا اتحدت الجبهة الريفية والغمارية في مواجهة العدو الإسباني بضرب مواقع جيوشه، وشن هجومات متكررة لقطع الطريق ما بين غمارة وتطوان وهذه الأخيرة وسبتة⁵.

وعموما فإن هذا التعاون والتحالف الريفي الغماري سيجعل محمد بن عبد الكريم الخطابي يباشر في إجراء مجموعة من الترتيبات، والتي تميزت عن باقي ما كان سائدا وسط حركات المقاومة التي سبقته أو جاءت بعده،

¹ - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمساني، ط 1، الرباط، سنة 1986، ص. 213

² - le Chef du Mouvement Contre les Espagnols, le Chérif Sidi Lhacen, Continue a Recevoir de Nombreuses Délégations des Tribus Montagnardes et a Parcourir le Pays des Chefchaouen a Moulay Abdesselam, Lettre du Consul Général de France a Tanger au Ministre des Affaires Étrangères a Paris le 28 Mai 1913. (التمسماني، "الغزو الاستعماري لبلاد جبالة"، م.س، ص. 31)

³ - le Chef Ould Moulay L'hacen qui est le Chef du Mouvement Contre les Espagnols se Trouve Actuellement a chechaouene avec une petite harka, et sidi mohammed alhemerich essedek, marabout très influent du rif, qui a avec lui plusieurs centaines d'hommes bien armés, lettre du consul général de France a tanger (التمسماني، "الغزو الاستعماري لبلاد جبالة"، م.س، ص. 31).

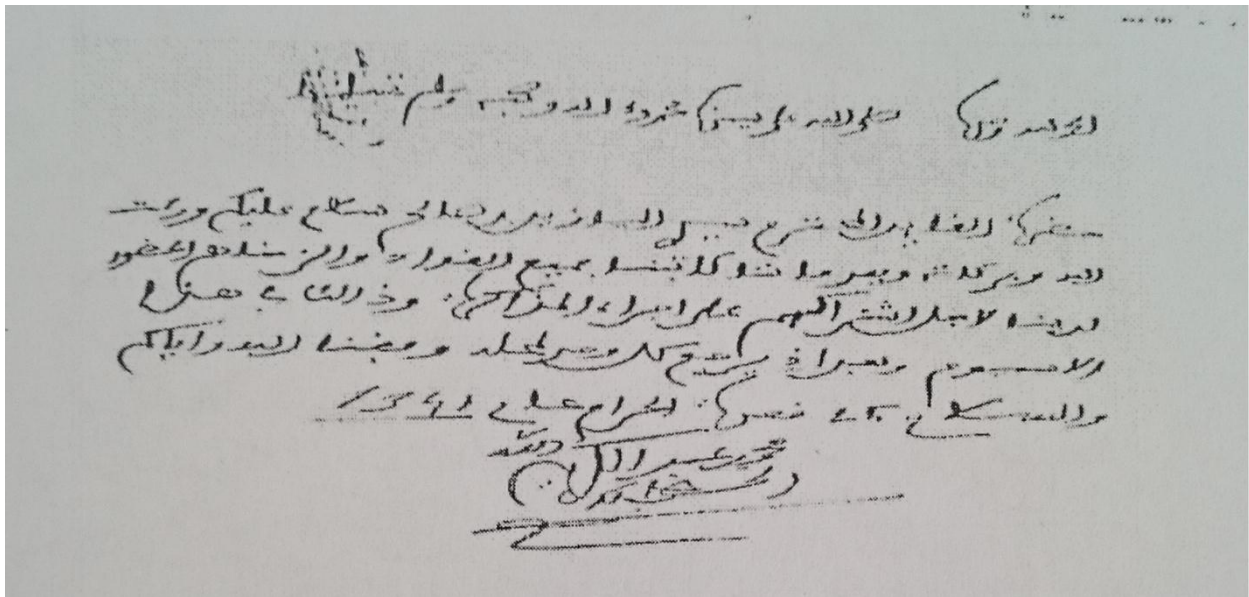
⁴ - عبد السلام بن العربي بوعياض الطنجي، نبذة تاريخية عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق... م. س، ص. 25.

⁵ - لم يقتصر تعاون الشيخ الغماري مع الزعيم الريفي على الرجال فقط بل امتد الى ما هو أكبر من ذلك، حيث أرسل الشيخ محمد بن الصديق صديقا له كان طبيبا إلى الزعيم الريفي لمعالجة جرحى المقاومة، بالرغم من كون المهمة كانت مخوفة بالمخاطر "اذ كان له طبيب صديق اسمه محبوب، عرضه على الذهاب إلى الريف لمعالجة جرحى المجاهدين، وكان الطريق مخوفا لأنها تمر بالجيش الإسباني، فسهل له الطريق مع بعض مريديه بغمارة، حتى وصل إلى الريف سالما، وأدى مهمته هناك" أنظر عبد الله بن الصديق، الدرر النقية في أذكار وآداب الطريقة الصديقية، الطبعة الثانية، دار المرجان للطباعة، ص. 14-15. مما يعني أن التعاون الثنائي بين الجبهتين حدث بالفعل بالرغم من بعض العثرات.

بضبطها وإحكام تسييرها، وبعد نظر واضعها لأنه تفتن، كما قال الأستاذ إبراهيم بوطالب إلى: "أن طبيعة الاستعمار الإمبريالي لا تكفي للتضحية بالدماء، للتفوق عليه، ولكن يجب استخدام العقل وتجنيد المنطق واستجماع الأنفاس لكفاح لن يتم النصر فيه في معركة واحدة"¹. ولقد تمكن بن عبد الكريم من ترتيب شؤون مخزنه ترتيبا خاضعا للطبيعة البشرية والجغرافية للمنطقة المدروسة ومؤهلات السكان الذاتية، فربط علاقات محكمة مع قواد القبائل الغمارية التي أقنعها بالدخول في حرب التحرير الريفية، ومن أبرزهم اليزيد بن صالح، الذي سيستدعيه في رسالة لحضور مجلس نواب القبائل، لمناقشة آراء القواد في مسألة المقاومة بتاريخ 15 ذي القعدة 1341 هـ (انظر الوثيقة)، ويورد الأستاذ بوشتي بوعسرية مجموعة من المراسلات التي تمت بين محمد بن عبد الكريم وقائد غمارة اليزيد بن صالح ما بين 1922 و1925م²، وتمكنا اعتمادا على هذه المراسلات، من الوقوف على أهمية تماسك الصف الريفي ودور قبائل غمارة في هذا التماسك، مما أكسب قائدها اليزيد بن صالح وغمارة احتراما وتقديرا، سواء من قبل محمد بن عبد الكريم أو أخيه امحمد أو باقي القواد الآخرين³.

استدعاء اليزيد بن صالح من طرف ابن عبد الكريم الخطابي لحضور مجلس نواب القبائل بتاريخ 15 ذي القعدة

1341هـ⁴



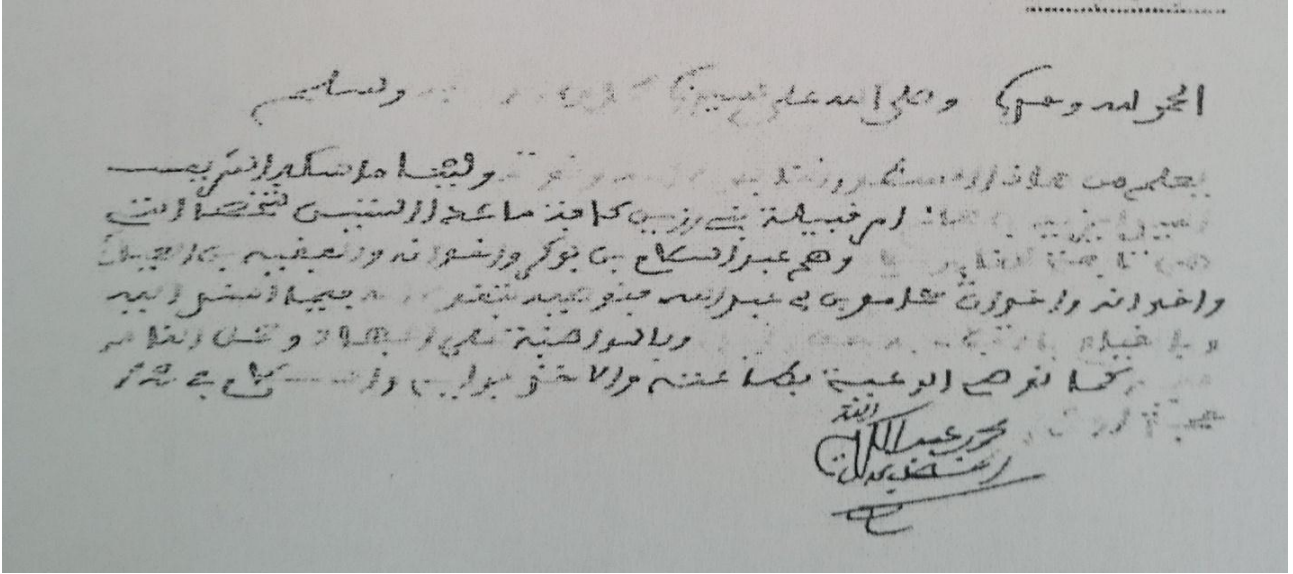
¹ - إبراهيم بوطالب، "المقاومة ووحدة الصف"، نشر بمجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد 7، فيبر 1984م، ص. 67.

² - بوشتي بوعسرية، "علاقة محمد بن عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف، قائد بني رزين نموذجاً 1922-1925"، مجلة امل، العدد 8، طبعة ثانية، السنة 1999، ص. 31-51.

³ - لم ينته دور هذا القائد سنة 1926 ولكنه استمر يزاوول مهام أخرى إلى بداية الخمسينات من القرن العشرين، حيث أسندت له عدة مهام أهمها: 19 يوليو 1937 باشا مدينة شفشاون بعد إعفائه من وظيفته السابقة وهي قائد قبيلة بني رزين وبني جرير وبني سميح ومتيو؛ غشت 1940 رشح لوظيفة قائد الرحا شرفيا بالقوات المخزنية؛ 17 يوليو 1951 ولي حاكما على تطوان (أنظر بوشتي بوعسرية، م. س، ص. 42).

⁴ - وثيقة اوردها عبد الغفور النالي، الدر الغالي في أخبار النالي الغماري، الطبعة الأولى، 2015، ص. 128.

رسالة يعين فيها ابن عبد الكريم الخطابي اليزيد بن صالح قائدا على قبيلة بني رزين في 12 ذي الحجة 1341هـ¹



وتجدر الإشارة إلى أن مستندات القسم التاريخي العسكري في مدريد² تتحدث بدورها عن القبائل الغمارية التي انضمت إلى حركة المجاهدين الجبليين الذين عقدوا العزم على تحرير المنطقة - باعتبارها جزءا لا يتجزأ من البلاد - من القيود والأغلال، معتقدين أن الكافر الغاصب لا يجوز التعامل معه إلا بالسلاح، لقناعتهم بأن النضال الذي وحد كلمتهم وصفوفهم يعتبر الأسلوب الوحيد لمواجهة المد الاستعماري والهيمنة الأجنبية. ومع ذلك ظلت الحرب مع الإسبان قاسية، وكان الأمر فيها سجالا بين المجاهدين المتطوعين والعدو. وإذا كان رباط دار بن قريش قد عرفل تقدم الإسبان نحو قبائل غمارة، فإن انفراط عقده شكل فرصة ذهبية لمتابعة هذا التقدم.³ فكانت خطة الغزاة تهدف بعد الحرب العالمية الأولى، إلى احتلال بلاد غمارة من الشمال الشرقي والجنوب بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، فأصبحت الجبهة الغربية تشكل قطاعا أساسيا للسيطرة على قلب الجبل والزحف على قبائل غمارة.

وفي سياق هذه الخطة العسكرية قام الجيش الإسباني منذ خريف 1919م، بسحق القبائل الجبلية الغربية، وتم هذا الغزو باسم السلطة الخليفة وشعار "التهدئة"، وتميزت السنوات 1919-1921 بالتوغل في قلب الجبال الغمارية بمساندة المتعاونين من الشخصيات ذات النفوذ الروحي. وفي هذا الإطار تفيد الوثائق الإسبانية المتعلقة بهذه الحملات العسكرية أن الحركة الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي ستساهم في إيقاف المخططات العسكرية القمعية؛ حيث ستتجه الأنظار إلى الجبهة الشرقية وستخلف الانتفاضة الريفية انعكاسات

¹ - المرجع نفسه، ص. 128.

² - عبد العزيز خلوق التمساني، "الغزو الاستعماري لبلاد جبال"، مجلة دار النيابة، العدد 2، ربيع 1984، ص. 33.

³ - محمد ياسين الهبطي، مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإسباني "مقاومة مدينة شفشاون نموذجا"، ط 1 الرباط، 2012، ص. 68.

هامة بعد وصول المجاهدين بقيادة امحمد بن عبد الكريم إلى قلب غمارة ثم جبالة، حيث التحقت الكتل الساحقة من القرويين بصفوف الحركة الجهادية الريفية وتعاطفت معها¹.

ومن أجل استنفار سكان القبائل للمشاركة في مقاومة الإسبان، وظفت مجموعة من الوسائل، من بينها المنشورات التي تمكنا من الحصول على نموذج منها، يحث الجميع على الجهاد، حيث جاء فيه: "كافة من يقف عليه من إخواننا في الله إلى ملة الإسلام أجمعين منهم أهل الرباط الأول في سبيل الله من قبيلة الأحماس العليا والسفلى من الهوتة إلى البرقوق وبنو يحمود من الغور إلى عنقود وبنو زجل من البحر إلى مطراس وقبائل غمارة من البركة إلى الريف وغيرهم من جميع قبائل الجبال إلى الريف إلى صنهاجة إلى رأس ورغة"²، مضيفا لاستنهاض همم الرجال: "يا للأبطال، ويا لحماة الديار والرجال. ويا لقبائل الرجال. هل فيكم من ينتصر للمؤمنين. هل فيكم من تهزه غيرة الإيمان ... هل فيكم من له أنفة أبية لا يرضى بترك إخوانه في أفواه تعابين المشركين، هل فيكم من فيه شفقة على المؤمنات والمؤمنين. هل فيكم من فيه رحمة للمستضعفين"³.

كما لا يخفى علينا الصراع الذي كان بين الحركة الجهادية الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي وأحمد الريسوني، الذي كان أحد مواضعه قبيلة غمارة، حيث تكشف لنا إحدى المراسلات التي جرت بين القائدين والمؤرخة في 14 صفر 1340/17 أكتوبر 1921 عن حقيقة هذا الصراع⁴، إذ يقول أحمد الريسوني: "أحباءنا في الله، إخواننا المجاهدين في سبيل الله، الفارس الأنجد والمجاهد المحنك، الطالب محمد ابن المرحوم بكرم الله الفقيه العلامة السيد عبد الكريم الخطابي. وبعد، فقد وصل كتابكم صحبة ابن العم السيد عبد الرحمن وسطرتموه في قبيلة بني رزين، وأخبرنا المذكور بأنه قد فارق محلثكم مخيمة بني خالد، وأنتم على نية أن تدخلوا لقبيلة الأحماس بقصد العدو، بمدينة شفشاون، حسبما أشرتم في كتابكم ... وتا الله لقد أحرزتم قصب السبق وغنمتم سعادة الدارين. فهنيئا لكم على عملكم الصالح في بدايتكم ونهايتكم بهذه الحسننة ... لقد وجب أن نطلعكم على الأسباب والعلل التي اقتضى الحال اتباع تلك الخطة المشار إليها أعلاه (الدخول لشفشاون من جهة غمارة وليس من جهة الأحماس) لتكونوا منها على بال، فتطمئن قلوبكم عند العلم بها، وهو أن قبيلة غمارة هي عش الفساد، وجميع العقال من أهلها وعلمائهم مولعين بالسعاية في الخوض والفتنة وفيما يرجع لمصلحة العدو. وعلى هذه الحالة عرفناهم من قبل عدا قبيلة بني خالد منهم، فالعلم عندنا بصلاحها وبنو

¹ - عبد العزيز خلوق التمسماي، "تقويم سياسي عام لنظام الحماية على المغرب الشمالي"، مجلة دار النيابة، العدد 18، 1988، ص. 49.

² - مخطوط بالخزانة العامة بتطوان، دون رقم من صفحتين، مكتوب بخط مغربي صغير الحجم، مؤرخ بـ 30 جمادى الثانية 1337 هجرية الموافق 30 مارس 1919م، دون اسم الكاتب أو الناسخ أو المصدر، ص. 1.

³ - نفس المخطوط، ص. 1.

⁴ - عبد العزيز خلوق التمسماي، جوانب من تاريخ جبالة المعاصر: القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، الطبعة الأولى 1994، الدار البيضاء، ص. 155-158.

سلمان فنعلم الجبل منهم صالحا، والبعض منهم لا يعتبر فسادهم ... فإن غمارة لازالوا مخادعين وقلوبهم غير سالمة من الخيانة، ولا يدري متى يظهر منهم أثر الخيانة. ولأجل ذلك، أكدنا عليكم في تقديم العمل بالمقام في قبائل غمارة حتى يشفى أمرها بتصفية أغشام القشلات التي فيها"¹. تكشف هذه الرسالة الريسونية عن الحقائق التالية:

- الإشادة بجهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، والإعجاب به، والتعاطف معه، والاستعداد للنهوض في وجه العدو المشترك أي الإسبان.
- السعي إلى كسب كبار الشخصيات الغمارية ومضاعفة الحذر والتحلي بالروية والتبصر في الأمور.
- الصراع بين قبائل غمارة وأحمد الريسوني بحكم أن الأولى عبرت عن ولائها للحركة الجهادية الريفية، وكذلك الصراع التاريخي بين قبيلتي غمارة والأخماس إلى درجة جعلت الريسوني ينعت قبائل غمارة بعش الفساد والسعاية والخوض في الفتن بالإضافة إلى الخيانة.

وعموما، فإن الاستعمار الإسباني في المنطقة الشمالية من المغرب لقي مقاومة عنيدة من طرف القبائل الغمارية والريفية والجبلية على السواء، والتي أذقته مرارة القتال وكبدته أفدح الخسائر، قبل أن يرتب حساباته العسكرية والسياسية بالمنطقة، ويسعى ليوطد تحالفه مع فرنسا، بالرغم من الخلافات السياسية الظرفية، بل وأن يجعل من الخطة العسكرية والسياسية الفرنسية نموذجا يحتذى به وأسلوبا يسلكه لإرضاخ سكان القبائل وبعض المدن المستعصية². وهكذا تبنت إسبانيا سياسة الاحتلال العسكري المعروفة في الأدبيات الاستعمارية بعمليات " التهدئة " (Pacificacion)، وقامت بها باسم الخليفة السلطاني، لتوحي للرأي العام في الداخل والخارج بأن على المخزن الخلفي إرجاعها إلى جادة الصواب³.

ورغم أن المساعدة الفرنسية سهلت كثيرا عملية احتلال الريف، فإن الاستعمار الإسباني لم يكن قد تمكن من إذعان قطاعات قبلية واسعة سواء بوسيلة الحرب أم عن طريق السياسة، وبالنسبة لقبيلة غمارة، فإن الانتصار الذي حققته القوات الاستعمارية في الريف فرض على قيادتها استغلاله بشكل سريع في ناحية غمارة بواسطة عمل عسكري، يدعمه عمل آخر سياسي لتحقيق انقياد كل تلك المنطقة. وهكذا أسندت مهمة قيادة الحملة العسكرية على غمارة إلى العقيد كبات الذي كان يعرف المنطقة تمام المعرفة⁴، كما كان صديقا لأهم القواد بها

¹ - التسماني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر...، مرجع سابق، ص. 155 - 158.

² - Carlos Matinez de Campos, *España Bélica el Bélica et Siglo 20, Marruecos*, Madrid, 1972, p. 333.

³ - Goded (General), *Marruecos, Las Etapas de Pacification*, Madrid, 1929, p. 315.

⁴ - الجنرال كبات مونطيس عرف بذكائه الحاد، واطلاعه على اللسان الدارج بالنطق الغماري، بعض المغاربة كانوا ينادونه بالحاج عبد السلام، ولكي يبدو قريبا من المغاربة الشماليين الجبليين كان يرتدي لباسهم كالجلباب ويخالطهم باستمرار وعند الحديث معهم كان يكثر من ترديد عبارة "رد بالك"، حيث أخضع قبائل غمارة انطلاقا من الجبهة، فلا غرابة ان تطلق السلطات الاسبانية على ميناء الجبهة ب Puerto Capaz، انتهى

وأكثرهم تأثيراً في السكان. تقدمت قوات كبات من الريف، حيث انتقل إلى واد أرينغا الذي يصب عند الجبهة ومنه إلى شاطئ أمتار، حيث أغارت على بني خالد، وواصلت تقدمها إلى ناحية سوق الأربعاء وسوق ثلاثاء باب برد وخميس بني حسن وذلك في النصف الأول من شهر يوليوز 1926. وقام قائد الاحتلال خلال هذه المدة بنزع السلاح من يد أفراد القبائل التي مثلت أمامه وتعيين رجال السلطة في كل من بني سلمان وبني سميح وبني منصور¹.

إلا أن حالة الغليان في بني خالد وعدم انقياد سكانها لسلطة الاستعمار أرغمته على اتخاذ قرار يقضي بتوغل جديد في أرض هذه القبيلة الغمارية، فهاجم سوق خميس تجكان المتاخم لبني خالد واحتله وترك به كتيبتين. وأثناء ذلك قام عدد من الثوار من غمارة وبني سعيد وبني حسن بإضرار النار في قاع أسراس وترغة في الساحل وأخذوا يستعدون للهجوم على القبائل التي استسلمت لقوات الاحتلال ونزع السلاح منها كبني منصور وبني بوزرة². وفي 20 يوليوز 1926 توغلت القوات الإسبانية بقيادة كبات داخل منطقة غمارة من جديد، فاستولت على اميادي بالقرب من باب برد وهو بمثابة خط تقسيم يفصل جنوب بني خالد والأخماس العليا عن شمال منطقة غمارة، حيث أقام قاعدة لانطلاق العمليات العسكرية المتوالية في غمارة، وشكلت الغارة التي شنها كبات على غمارة إحدى مراحل الحملات العسكرية الأكثر أهمية فيما بين 1926 و1927، وتمكنت فيها القوات الاستعمارية من إخضاع عشر قبائل أو أفخاذ، وبقي بنو خالد الثوار الوحيدين في غمارة. وتمت حيازة 2788 بندقية، وتمكن الإسبان من ربط الصلة عبر الساحل بين المنطقتين الغربية والشرقية لمنطقة الحماية³. ويذكر الجنرال كبات في مذكراته كثرة الثوار الذين جابهوا السلطات الاستعمارية الإسبانية بقوة السلاح، حيث عددهم كما يلي⁴:

الثوار الذين جابهوا السلطات الاستعمارية الإسبانية بقوة السلاح

القبيلة	قادة المقاومة المسلحة
بني بوزرة	الحسين بن يسف والفقير الميموني
بني زيات	المختار بن مرزوق وعلي مرغات والفقير محمد بودغيا وعبد القادر مرسو ومحمد بن عبد السلام امهاروش وأحمد

كبات مقتولا بمدريد سنة 1936 على الجمهوريين وكان قد ذهب إليها ليقتل عطلته فيها. (المعلومات المتعلقة بكبات استقناها من أرشيف كارلوس بيريدا ملف رقم 1 مصدر سابق).

¹ - Servicio Historico Militar, *Historia de Las Campanas de Marruecos*, Tomo 4, Madrid-25, 1981, p. 141.

² - Ibidem, p. 142.

³ - Carlos Matinez de Campos, *Espana Bélica el Bélica et Siglo 20 ...*, op. cit., p. 335.

⁴ - ترجم جزء من المذكرة رشيد مصطفى من خلال مساهمته "مذكرة الجنرال كبات حول رؤساء الثورة في غمارة من 1913 الى 1927" ندوتان علميتان للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، تحت عنوان تاريخ المقاومة والحركة الوطنية بإقليم شفشاون (1913-1955)، الرباط، 2005، ص ص. 45-50.

الخشيم	
محمد بن محمد خرسوش وأحمد برو وأولاد التاغبي وأولاد العباط والبوحياوي	بني سلمان
شريف محمد بن الغالي التجكاني وسيدي أحمد البركة التجكاني	بني منصور
حمو بن العيساوي	متبوة
الشريف البقالي ومحمد بن صالح ومحمد بن صالح الملقب بوغابة ومحمد السيدية وسليمان بن عزوز	بني رزين
سيدي عبد السلام البقالي البهالي	بني سميح
التهامي بن عبد الله الوزاني وإدريس السفياي وشريف التهامي المكبي وتاج الدين ابن محمد البروج واحمد بن مسعود وعلي بن مسعود	بني خالد
محمد بن علي اليزيد والعربي بن محمد الخوش ومحمد بن العربي أمزكود الملقب بالبرغوت وعبد السلام بوشعرة ومحمد بوشعرة ومحمد الهوطي	بني زجل
أحمد بن محمد بويعلي والفقير الحاج محمد بن عزوز	بني كريب

بينما نجد في المكتبة الوطنية بإسبانيا لائحة بأسماء المقاومين في قبائل غمارة التي امتدت من 1913 إلى 1927 وهو ما يدل على المشاركة الجماعية في محاولة طرد الاحتلال الإسباني من المنطقة، ويمكن أن نستعرض العمل على الشكل التالي¹:

أسماء قادة المقاومة المسلحة حسب القبائل الغمارية

القبييلة	السنوات	قادة المقاومة المسلحة
بني زجل	1913	سيدي محمد بن شريف اليزيد
بني زيات	1913	محمد بن عبد السلام امتراس
بني سلمان	1913	ولاد السعيدي - أولاد القاضي - أولاد عباس
بني بوزرة	1913	محمد الغالي - محمد البراق
بني خالد	1913	سي التهامي بن سيدي عبد الله الوزاني - مسعود بن الحاج - الفقيه بروش
غمارة الشرقية	-	دار بني قريوح - محمد بن صالح - محمد السليمان - عبد السلام البقالي - حمو العنجاوي
غمارة الغربية	1915-1918	محمد امحراش - علي بن سلام - علي مرغاد - محمد بودغيا
بني منصور	-	محمد بن الغالي - أحمد السرقة - محمد بن السعيدي - حسن حمدون
بني سلمان	-	عبد السلام عباس - أحمد برون
بني زيات	-	العربي بن محمد
بني خالد	1915-1919	شاركت مع الريسوني بقيادة التهامي الوزاني

¹-Biblioteca Nacional de Madrid (Sección Africa), B.N.M., Miselanea, 22877 Cabecillas Rebeldes.

عبد القادر بن مرزوق-الفقيه بودغيا-عبد القادر جرجور-احمد بن قدور	-	بني زيات
محمد امصمود-عبد السلام بوزرة-محمد الهوسني	-	بني زحل
محمد السعيدي-أحمد برو	-	بني سلمان
أجطار بن عبد القادر-الشريف سيدي البركة-محمد الزياتي-عبد السلام بن كروط- أولاد بن العربي-سيدي أحمد بن براهيم	1919	بني بوزرة
الشريف التهامي بن عبد الله الوزاني-حميدو بن عبد الواحد-إدريس السفياي-سيدي أحمد البوهادي	-	بني خالد

وأخيرا تجدر الإشارة إلى أن قبائل غمارة كانت آخر القبائل في شمال المغرب التي تأخر استسلامها، مع الزعيم الشريف الغماري أحمد العمراني الملقب باحميدو الخربان¹ أمام القوات الاستعمارية الاسبانية سنة 1927 وعلى إثر استسلامه في نفس السنة يوم العاشر من شهر يوليوز، أعلن بباب تازة الجنرال سان خورخو المقيم العام الإسباني القضاء على المقاومة المسلحة بالشمال المغربي. غير أن مقاومة قبائل غمارة لم تقتصر على الصيغة المعروفة (الكفاح المسلح)، بل اتبعوا بمختلف فئاتهم الاجتماعية والعمرية شكلا آخر من أشكال الكفاح، يمكن أن نسميه بالمقاومة الشعبية التلقائية. والمقصود بالمقاومة الشعبية التلقائية مختلف المبادرات التي اتخذها السكان بشكل عفوي وتلقائي، انطلاقا من وعيهم بجميع مظاهر المقاومة السياسية والاجتماعية والثقافية، ومن أبرز مظاهر هذه المقاومة تموين المجاهدين ورجال الحركة الوطنية بالمؤونة، بالإضافة إلى المقاطعة الاقتصادية، إذ تفيد العديد من الروايات الشعبية أن نسبة كبيرة من السكان كانت ترفض تناول بعض المنتوجات الإسبانية كالفاصوليا البيضاء والأرز والخبز الأبيض.

وفي الختام، لا بد من استخلاص العبر من كل ما سبق. فلقد أردت في هذا المحور أن ألفت النظر إلى أن المقاومة المسلحة لقبائل غمارة في الشمال شكلت وحدة منسجمة، عميقة الجذور، تمثلت في التيار الشعبي الذي لم يكن يعرف أية وسيلة للتعامل مع الإسبانين سوى وسيلة الكفاح. وقد جسد قادة الجهاد-وجلهم مازالوا مغمورين، حيث لا نعرف عن أخبارهم إلا النزر اليسير جدا-هذه الإرادة الشعبية التي استمرت إلى حين استرجاع المغرب للاستقلال سنة 1956م.

¹ - بعض أخبار هذا المجاهد ذكرها كبات في مذكرته، وقد تحدث عنه المؤرخ ابن عزوز حكيم في مقال له بعنوان، "احميدو خربان آخر مجاهد استسلم بشمال المغرب يوم 9 يوليوز 1927"، وذلك في ص. 13 من جريدة الحياة ليوم 27 ماي 1994.

❖ استنتاجات عامة خاصة بالباب الأول:

إن قبائل غمارة تعتبر نموذجا للقبائل المغربية التي تعبر عن شدة التقلبات التاريخية التي شهدتها المجتمع المغربي، ليس فقط خلال الفترة المدروسة، بل خلال فترات ما قبل الفتح الإسلامي.

تعتبر قبيلة غمارة هي القبيلة الأم بالنسبة لمعظم قبائل الشمال الغربي للمملكة المغربية، نظرا للامتداد المجالي الذي كانت غمارة تتميز به خلال الفترات السابقة، قبل أن يشهد مجالها الجغرافي تراجعاً واضحاً خلال فترتنا المدروسة. ولهذا تعتبر كل قبائل جباله حالياً هي ذات أصول غمارية.

من خلال تجوالنا في المنطقة المدروسة وبالرجوع إلى معظم المصادر، ورغم تعدد التفسيرات لهذا الاسم، فإن الاسم الذي اشتقت منه غمارة يرجع إلى الغمر، أي أن شعباً ما غمر في هذه التضاريس الوعرة، إما هروباً من الغزو الخارجي أو من فتنة أو اضطهاد داخلي.

أسهمت قبائل غمارة بكل قوة في ردع التدخل الخارجي، في مجمل تاريخ المنطقة، وهو ما يرسخ تقاليد الجهاد والمقاومة الشريفة التي يتميز بها الإنسان الغماري الأصيل، الشيء الذي جعل المنطقة المدروسة تبقى آخر القلاع التي احتلها الإسبان بعد اجتياحهم لشمال المغرب.

تؤكد لنا الأحداث التاريخية السابقة الدور المهم الذي لعبته بلاد غمارة عبر التاريخ في بلورة شخصية المغرب، والحفاظ على هيبته ومناعته أمام التدخلات الأجنبية، وهو ما يستدعي ضرورة التعرف على ملامح هذه المنطقة (غمارة) اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً لكي نفهم شدة التقلبات التاريخية التي شهدتها.

الباب الثاني:

ديمغرافية غمارة وحياة مجتمعا

مدخل

يعتبر المجتمع المغربي حقلا لتنظيرات عدة، ابتداء بالخلدونية، وصولا إلى الفكر الاجتماعي الوطني المعاصر، مرورا بنظرية أنماط الإنتاج والسوسيولوجيا الكولونيالية والانقسامية¹. وإذا كانت السوسيولوجيا الكولونيالية تفرض نفسها على الباحث السوسيولوجي والمؤرخ في آن واحد، نظرا لعدة عوامل نذكر منها، الالتقاء في التخصص والمعاصرة، والاستفادة من التراكم النظري الغربي ومن الخلدونية²، وشكلت مرجعية للانقسامية³ والفكر الاجتماعي الوطني المعاصر، كما أنها غير بعيدة عن التصور الماركسي لشمال إفريقيا⁴. ورغم كل ذلك، لا يمكن القفز على الخلدونية التي تعتبر بشكل أو بآخر الإطار النظري لباقي التنظيرات الماركسية⁵، وبذلك يمكن أن نؤكد على أن الخلدونية شكلت تبريرا إيديولوجيا⁶ بالنسبة للجانب "التشاؤمي" الغالب على التنظيرات حول طبيعة ومصير المجتمع المغربي، الذي لم تستطع فيه الدولة تملك القوى والوسائل المنتجة حسب تصور نمط الإنتاج الآسيوي، والذي يفتت داخليا إلى ما لا نهاية في المفهوم الانقسامي الذي يتشكل من ثنائيات تتعارض، بالنسبة للسوسيولوجيا الكولونيالية.

¹ - يتحدث الخطيبي عن نظريات ثلاث فقط وهي، الخلدونية والماركسية والانقسامية، أنظر:

Khatibi Abdélkébir, "Hiérarchie Précoloniale", In *Maghreb Pluriel*, Éditions Denoël, Paris, 1983, pp. 3 – 11.

² - أنظر كيف أنه في سنة 1840 يأمر بطبع "تاريخ البربر" من طرف الوزير الفرنسي للحرب:

Cheddadi Abdesselam, "*Traduction du Livre D'ibn khaldoun*" *Le Voyage D'occident et D'orient Sindbad*, Paris, 1980, p. 254.

³ - اعتمدت الانقسامية على أعمال دوركام، المعتمدة بدورها على الانتولوجيا الكولونيالية. أنظر: ليلي بنسالم، ارنست كلنر، عبد الله الحمودي، جان فافري، جاك بيرك، عبد الله العروي، الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي، دار توبقال، الدار البيضاء، نصوص مترجمة، 1988، ص. 6.

⁴ - من بين المراجع التي اعتمدها ماركس في هومشه حول كتاب كوفاليفسكي: الملكية الجماعية للأرض: أسباب انحلالها وتاريخه ونتائجه، كتاب هانوتو ولوترنو "بلاد القبائليين والعادات القبائلية" 1873 وبذلك يكون هانوتو ولوترنو مرجعية -التي هي نفسها قد تتصل بصورة أو بأخرى بابن خلدون- كل من الماركسية مباشرة والانقسامية عبر دوركام. من هنا تأتي أهمية السوسيولوجيا الكولونيالية والخلدونية قبلها. أنظر كارل ماركس، فريدريك إنجلز، الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طرابوشي، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1978، ص. 54.

⁵ - من بين المراجع التي اعتمدها ماركس أيضا، كتاب ابن خلدون، (ترجمة سالن) مؤرخ البربر. أنظر ماركس، إنجلز، الماركسية والجزائر. م. س، نفس الصفحة.

⁶ - Gautier, Émile-Félix, *Le Passé de L'Afrique du Nord, les Siècles Obscurs*, Payot, Paris, 1937, p.112.

غوتيه، الذي قال عنه لاكوست، ايف "إن واضح نظرية النزاع البدوي والحضري، وغزوات العرب هو غوتيه، فبعدها أسهم سنة 1897 إلى جانب غالبا في القمع الرهيب لثورة "الفاهافالو" في مدغشقر عين أستاذنا في مدينة الجزائر، وأصبح أحد ألمع منظري الاستعمار.

1-الخلدونية:

إن أي متصفح للمقدمة، تصدمه نصوص كثيرة تصف تاريخ المجتمع المغربي على أنه مبني على الاختلاف والتنوع والتعدد والتفكك والزوال، بدل الوحدة والمركزية والاستمرار، حتى إن القوة استثناء والضعف هو القاعدة، ويتأويل تحويري بسيط أو بالإبقاء على مستوى فهم الدلالات الأولى، وعدم ربط النصوص بعضها ببعض، في نفس المؤلف أو في مؤلفات ابن خلدون الأخرى، كل ذلك يجعل قارئنا عاديا أن يشعر بالتشاؤم والخذلان. والتشاؤم هنا نتيجة الدائرية التي تتلخص في "حتمية" أطوار الدولة والمجتمع. هل هو تهافت قدري يرفض التعليل؟ لأن مفهوم العصية غير مبني على النسب دائما، بل يبنني على الولاء والدعوة أيضا. إن تفسير ابن خلدون سلوك الناس بالرجوع إلى البيئة والطقس والمناخ يرد كل زعم عنصري، فالقدرية عند ابن خلدون هي طبيعة العمران والعوائد الطبيعية. وهكذا نفهم التشاؤم الخلدوني المبرر بالواقع آنذاك، وكيف أن ابن خلدون حاول التنظير لذلك الواقع بالذات: "وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في القطر المغربي، إما صريحا أو مندرجا في أخباره، وتلويحا لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحواله وأجياله وأمهه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمهه"¹.

إذا كانت المفاهيم الخلدونية المحورية هي: البدو والعصية والدولة والملك والحضارة والمعاش والعلم². وهي مفاهيم يفضي بعضها إلى بعض عبر تماسك نظري قل نظيره، وبخيط رفيع يتطلب تتبعه حذرا ويقظة منهجيتين، فما علاقة هذه المفاهيم بطبيعة البحث الذي يهدف إلى فهم التاريخ الاجتماعي للبنىات المغربية التقليدية³. إن إصاق الدائرية بالبنىات الاجتماعية المغربية خاصة والمغاربية والمشرقية عامة إيديولوجية كولونيالية، فتجارب الشعوب غالبا ما تعرف انطلاقات سهمية عمودية؛ وتنتشر أفقيا ثم تدور في الفراغ⁴. ويتضح الأمر أكثر عندما نزيح الستار عن خطاب خلدوني خفي، لا يتحدث عن التفكك والتهافت والانحلال⁵ بل عن الوحدة والتماسك. ولقد خلصنا من قراءتنا " الخاصة " لابن خلدون إلى الاستنتاجات التالية:

- فكرة التشاؤم المتضمنة للتهافت والانحلال والتفكك موجودة، لكن مبررة بالواقع ولا تحمل أية قدرية، كما أن هناك نصوصا تلغيها كلية، ومن ثمة فهي ليست أولوية أساسية إذ هناك في المقدمة ما يؤكدها؛

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص.33.

² - أنظر جورج لايبكا، "عودة إلى مقدمة ابن خلدون"، مقال من مجلة الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، العدد 6، السنة الأولى دجنبر 1978، طرابلس، ص. 55

³ - khatibi Abdélkébir, *Maghreb Pluriel ...*, op. cit., p. 66

⁴ - يقول محمود امين عن مفهوم الحركة عند ابن خلدون: "وهذه الحركة قد تكون تدرجا في الاختلاف، وقد تكون تباينا، وقد تكون انقلابا شاملا أوقد تاخذ شكلا دوريا". من مجلة الفكر العربي، العدد 6 دجنبر، 1978، ص. 38.

⁵ - "سميت افريقيا لانها تفرق قلوب اصحابها" أنظر ابن خلدون، المقدمة، م. س، ص. 164.

لكن مع توضيح طابعها الظرفي النسبي المعاشي، كما أن هناك ما ينقص من أهميتها أو يلطف منها على الأقل.

- فكرة الثنائيات: عرب-بدو/بربر-حضر، موجودة، هناك نصوص تثبت بدوية العرب، لكن بالمقابل هناك نصوص تمدحهم، كما أن هناك ما يؤكد حضرية البربر وما ينفيه أيضا.
- ثنائية التفكك والوحدة.

2- الماركسية:

تعتبر الماركسية أداة إجرائية لدراسة المجتمعات، وأداة إيديولوجية تجاوزت موقع القوة إلى الفعل، إضافة إلى علاقتها بالتنظيرات الأخرى، كاعتمادها على السوسولوجيا الكولونيالية في تصورها للمجتمعات غير الأوربية، فقد شكلت الماركسية المنطلق الخفي تارة والواضح تارة أخرى لكثير من الأطروحات. ويعتبر مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي محور الماركسية حول المجتمعات غير الأوربية، ويتميز هذا النمط بالخصائص التالية:

- غياب الملكية الخاصة للأرض¹. فالأرض للمشاعة القروية، والمشاعة هنا ليست مطلقة كما قد يتصور، بل هناك تملك للفرد عبر المشاعة، ومن هنا عدم استقرار الملكية وعدم استمرارها.
- عدم الانفصال بين الزراعة والصناعة²
- الاكتفاء الذاتي في الإنتاج والاستهلاك، في إطار القرية³
- انحصار وظيفة الدولة في الأشغال الكبرى وفي علاقاتها بالمشاعات، كالاستغلال لجلب الفائض العيني غالبا⁴، ومن هنا فهو مجتمع تراتبي في إطار هذه الدولة، لكن دون تمكنها من الاستيلاء على وسائل الإنتاج.

لم يكن التصور الماركسي حول التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية المغاربية مكتملا، لكن تساؤلاته وملاحظاته تظل محفزة. وفي الأخير نجد أن تشاؤمه لا يقل عن التشاؤم الخلدوني.

¹ - أنظر كانال، جان سوريه، غودوليه، موريس، يوجين، فارغا، نغوين لونغ بيش، جان شينون، حول نمط الإنتاج الآسيوي، ترجمة جورج طرابشي، ط 2 دار الطليعة، بيروت، 1978، ص. 38.

² - نفس المرجع، نفس الصفحة.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 39.

3- السوسيولوجيا الكولونيالية:

اتسمت السوسيولوجيا الكولونيالية بميزتين أساسيتين، ارتبطتا بها منذ "البعثة العلمية" حتى مرحلة النقد. الميزة الأولى هي العلمية، وهو هدف حددته البعثة لنفسها، بعيدا عن المناورات السياسية¹ وذلك ضمانا للاستمرار. ولم تكن العلمية في بعض الحالات سوى شعارا. أما الميزة الثانية فهي الاستعمارية. إنهما ميزتان متناقضتان، الأمر الذي جعل وضع السوسيولوجي الكولونيالي غير مريح، وكذلك وضع الباحث الوطني فيما بعد.

لقد قسم السوسيولوجيون الكولونياليون المغرب تقسيما إيديولوجيا، مخزن/بربر. وهو تقسيم جد مريح بالنسبة للعقلية الكولونيالية، لكن هذا التوجه العام لا يجب أن يغطي لعبة المواقع في المتربول، كما أن تصفية الاستعمار لا يجب أن تغطي سوسيولوجية الفكر الاجتماعي الوطني المعاصر، وقد أفضت هذه الازدواجية أعلاه بجل الأعمال إلى التناقض وازدواجية الخطاب. وتعكس السيرة العلمية لروبير مونطاني على سبيل المثال، طبيعة البحث السوسيولوجي الكولونيالي التي تتراوح بين العلمية والهندسة السياسية. فمنذ "النظام القضائي لقبائل جنوب المغرب"² و"البربر والمخزن"³، وحتى "حضارة في الصحراء"⁴ و"ثورة في المغرب"⁵ يمكن أن نلمس وبوضوح تردده بل وتذبذبه بين اهتماماته العلمية ومهامه السياسية. كيف يمكن تفسير رجوعه إلى حضارة الصحراء وتقاليد البدو العرب، بل ومورفولوجيتهم في الشرق الأوسط؟ لا شك أنه اقتنع ضمنا بكون معرفة المغرب لن تتم إلا عبر المشرق؟

أما بالنسبة لبيرك، فنظرا للسياق التاريخي الذي ظهر فيه، فقد اتخذت أعماله طابعا علميا، إلا أن سيرته العلمية هو أيضا - منذ البنيات الاجتماعية للأطلس الكبير⁶ و"المغرب، تاريخ ومجتمع" حتى "العرب بين الأمم واليوم"⁷ - تجعلنا نتأمل قدر السوسيولوجيا الكولونيالية التي عملت على فصل البنيات الاجتماعية المغربية التقليدية ووصفها بالتفوق والتفكك واللامركزية عبر مفهوم اللف عند مونطاني و"اخس" عند بيرك، وقبلهما ركن ميشو بلير على مفهوم القبيلة، والزاوية، والدولة، ثم بلاد السبيبة وبلاد المخزن. أما عمل موليراس الذي لامس المنطقة المدروسة، وإن عن بعد، من خلال توظيفه للطالب الجزائري، فإنه لم يخل من نبرات عنصرية وخلفيات استعمارية في استنتاجاته وتحليلاته لسكانة الريف وجباله، رغم أنه ركز على جوانب مهمة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنطقة المدروسة.

¹ - Edmund Burk, *La Mission Scientifique au Maroc*, Actes de Durham besm, N 138/139. 1979, pp.39-48.

² - Montagne Robert, "Le Régime Juridique des Tribus du Sud Marocain", in, *Hesperis*, T4, 1924.

³ - Montagne Robert, *Les Bérberes et le Makhzen*, Lib. Félix Alcan, Paris, 1930.

⁴ - Montagne Robert, *Civilisation du Désert*, Nomades D'orient et D'afrique, Lib, Hachette Paris, 1947.

⁵ - Montagne Robert, *Révolution au Maroc*, Éd France Empire.

⁶ - Berque Jacque, *Structures Sociales du Haut Atlas*, Éditions Presses Universitaires de France, Paris, 1978.

⁷ - Berque Jacque, *Les Arabes D'hier a Demain*, Éditions du Seuil, Paris, 1960.

ورغم كل ذلك، فالطابع الاختباري لهذه السوسيولوجيا وتواضعها النظري، يعتبر عاملا مساعدا في فهم البنيات الاجتماعية المغربية، عبر تلك الأوصاف المنوغرافية والإثنوغرافية الدقيقة. فإذا كانت هناك مجازفات تعميمية وتنميطية بالنسبة للخلدونية ونظرية الأنماط، وإذا طغت الميكروسكوبية على الانقسامية، فإن السوسيولوجيا الكولونيالية، بتراوحها بين التنظير والاستقراء المنوغرافي، يمكن أن تستغل إلى أقصى الحدود.

4- الانقسامية:

تنطلق الانقسامية في جانبها التنظيري من أعمال دوركايم وبريتشارد، وفي جانبها الوقائعي من الجزائر والسودان¹. فالمرجعية الوقائية-النظرية إذن كولونيالية، والمرجعية الفكرية وضعية بنوية، مع ما تحمله هاتان المرجعيتان من المحافظة والسكون والتقنوية ونفي الزمان والتاريخ²، لقد اعتمدنا هنا على تصور كلينير (E.Gellner) أساسا، انطلاقا من صياغته للمفهوم واستعماله له، ثم كيف طبقه هارت (D.Hart) على آيت عطا وآيت مرغاد كقبائل مركزية، بالنسبة للبحث.

يمكن تلخيص الملامح العامة للمجتمعات الانقسامية وعرض خصائص فيما يأتي:

- أهمية النسب (النسب القبلي)³
- اللامركزية وتكثف تشتت السلطة واللاتراتبية والديمقراطية وعدم التخصص والإدارة في الاستقلال⁴
- الانقسامية تكثف التشابه والتكرار والاتحاد والاندماج والتوازن وتواجد الند والقدرة على المحافظة على الذات⁵.
- الهامشية مقابل المركزية، وإذا أضفنا أن الانقسامية تفسر الماضي انطلاقا من الحاضر وليس العكس⁶، تشكلت لدينا صورة جد تقريبية عنها.

ويمكن تحديد بعض العوامل حيال تحطم الانقسامية، نلخصها في خمسة عوامل أساسية:

- ديمغرافية: سن، جنس، عدد (قحط، أوبئة، جفاف، هجرات، حروب ...)
- سياسية: تدخل المخزن في بنية القبيلة وفي حركتها.

¹ - Khatabi Abdélkébir, *Maghreb Pluriel...*, op. cit., p. 102.

² - أنظر أيضا المختار المراس، "التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي، حصيلة نقدية". ضمن كتاب *نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة*، جماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 1986، ص ص. 265-285.

³ - Coatalen Paul, "Comptes Rendus", *Annales Marocaines de Sociologie*, 1968, Rabat, P. 192.

⁴ - أرست كلنير، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ضمن *الانثروبولوجيا والتاريخ*، حالة المغرب العربي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، عدد 11، السنة 1985، ص ص. 46-47.

⁵ - Pascon Paul, "Segmentation et Stratification dans la Société Rurale Marocaine", *Dans le Bulletin Économique et Social du Maroc*, n 138-139, Rabat, 1979, p. 107.

⁶ - Coatalen paul, *Compte Rendu ...*, p. 194.

- اقتصادية: قيمة المعرفة التقنية (بدو، حضر، مستقرون، رحل، تراتبية، المنافسة الفردية)
- دينية: الولاء للإسلام والجهاد والأمة (ضرورة استحضر الأجنبي المههد)
- تعاقدية: تداخل المصالح والولاءات.

5- الفكر الاجتماعي الوطني:

أ - الموقف من التنظيرات السابقة:

الموقف من ابن خلدون: اتخذت الدراسات والأبحاث الاجتماعية الوطنية المعاصرة موقفين متباينين من ابن خلدون، موقف يرى صلاحية الطرح الخلدوني إلى حدود الاستعمار¹ بل ويفسر التخلف عند إيف لاكوست بالتنظير والتقريب الخلدوني². موقف آخر ينظر إلى الأمر من زاوية معاكسة، إذ يقي صلاحية الطرح الخلدوني حتى حدود القرن 16م مع صعود الهجمة الإيبيرية، وظهور ولاءات جديدة بجانب الولاء للقبيلة³. كما بدأ يظهر في الساحة العلمية موقف ينطلق من مناقشة مفهوم القبيلة، حيث يجب النظر إليها كنتيجة وليس كسبب⁴، إلى جانب مفاهيم أخرى منافسة مثل الزاوية والمخزن والنسب الشريف، إلا أنه لا بد من إعادة قراءة ابن خلدون قراءة متعددة الأبعاد حتى لا نحمله ما لا يحتمله.

الموقف من الماركسية: إن الذين تناولوا للماركسية قلة تعاملت بحذر، إذ يرى الخطيبي مثالا: "أنه انطلاقا من المستوى المعرفي لماركس، حول المجتمعات غير الأوروبية يستدعي الأمر إعادة النظر في النموذج نفسه من أجل تبريره ببحوث أكثر تميزا⁵. أما إدريس بن علي فرغم إشارته إلى أن هناك تشابها كبيرا بين نمط الإنتاج الآسيوي والبنيات الاجتماعية المغربية قبل الرأسمالية، فإن الاختلافات هي الأهم⁶.

الموقف من السوسولوجيا الكولونيالية: شكلت السوسولوجيا الكولونيالية متن وبيبلوغرافيا جل الباحثين الشباب، لكن بتوجه تفنيدي في غالب الأحيان. لقد استغل الباحثون الاجتماعيون الوطنيون علمية تلك

¹ - أنظر أحمد التوفيق الذي يقترح نمط الإنتاج الخلدوني في "حوار حول الفكر الخلدوني"، دار النشر المغربية، البيضاء، 1986، ص. 111.

² - إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، 1974، ص. 95.

³ - Beni Ali Driss, *Le Maroc Précapitaliste*, Formation Économique et Social, Éditeur, SMER, Collection Atlas, Rabat, 1983, pp. 113 - 126.

⁴ - Laroui Abdelah, Rappelons Simplement que L'important pour Ibn khaldon n'est pas la Nation de Tribu, mais L'esprit de Solidarité, si on Croit Expliquer le Makhzen en Disant que c'est une Tribu au Pouvoir, on ne dit rien en fait, et il Suffit de Remplacer le Mot Arabe (Qabil, Qabila) par le Mot Groupe, qu'il Signifie en tout Premier lieu pour voir le Caractère Tautologique de la Définition, in *Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain*, Maspero, Paris, 1980, p. 122.

⁵ - Khatibi Abdélkébir, *Maghreb Pluriel* ..., op. cit., p. 95.

⁶ - Beni Ali Driss, *Le Maroc Précapitaliste* ..., op. cit., pp. 113-126.

السوسيولوجيا، مؤسسين على ذلك أطروحات نظرية وسياسية تختلف في المنحى والتوجه مع الأطروحات الكولونيالية، لكن بمرجعية أوربية في بناء الدولة الحديثة وخلق مجتمع مركزي مدني.

أما بالنسبة لسوسيولوجية الموقف الوطني، فهل كان توجهها للنخب الوطنية المنحدرة من الأسر التجارية الحضرية ومن البرجوازية الصغرى؟ بتعبير ماغالي مورسي¹ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون وصفا للواقع؟ أم هو شعور لاهوتي جديد؟² ومنذ أطروحتي ألبير عياش³ ومحمد الحبابي⁴ وردود الفعل على الطرح الكولونيالي تتوالى، متخذة جلها طابع الرفض، إما من زاوية شرعية الدولة والمخزن، كما هو الأمر عند البير عياش وجرمان عياش ومحمد الحبابي وعبد الله العروي وبعدهم عبد اللطيف كنوش⁵ وأحمد التوفيق⁶، أو من زاوية تحطيم المفاهيم الرئيسة التي اعتمدها الطرح الكولونيالي، (القبيلة والزاوية)، كما عند العروي وعبد الله الحمودي⁷ والتباري بوعسلة. لم تتخذ الدراسات الكولونيالية موضوعا خاصا إلا في دراسات قليلة⁸ لعبد الصمد الديالمي⁹ والمكي بنطاهر وبوعسلة¹⁰. وقد اتخذت الدراسات الأخيرتان منحى هادئا، ينم عن ضرورة الدراسة العلمية المتأنية للتراث السوسيولوجي الكولونيالي، دون أي انفعال، بل هناك من اعتبر أن السوسيولوجيا، استعمارية كانت أو وطنية، لا تغير شيئا من الواقع، وأن السوسيولوجيا، أكانت أجنبية غربية أو مغربية، فالأمر سواء¹¹.

الموقف من الانقسامية: هناك شيء أساس يفرض نفسه في الانقسامية، باعتراف جل الباحثين، فبول باسكون مثلا يقر بأن هناك أفكارا لا تناقش في الانقسامية¹². بل ذهب وبوضوح إلى الإبقاء عليها، مع إضافة

¹ - Magali Morsy, "Comment Décrire L'histoire du Maroc", dans le Bulletin Économique et Social du Maroc, Rabat, 1979, p. 138.

² - Khatibi Abdélkébir, *Maghreb Pluriel ...*, op. cit., pp. 9-43.

³ - Ayache Albert, *Le Maroc, Bilan D' une Colonisation*, Éditions Sociales, Paris, 1956.

⁴ - Lhbabi Mohamed, *Le Gouvernement Marocain à L' Aube du XXe Siécle*, Éditions Techniques Nord-Africaines, Rabat, 1958.

⁵ - عبد اللطيف أكنوش، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987.

⁶ - أحمد التوفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (ابنولتان 1850-1912)، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية، الرباط، ط 2، الدار البيضاء، 1983.

⁷ - Hammoudi Abdellah, "Segmentarité et Stratification Sociale, Pouvoir Politique et Sainteté", Réflexions sur les Thésés de Gellner, *In Hesperis-Tamuda*, Vol. 15, 1979, pp.18- 147

⁸ - لا نشير هنا الا للدراسات العلمية.

⁹ - عبد الصمد الديالمي، " تاريخ علم الاجتماع في المغرب الكولونيالي"، (مؤسسات واعلام ومؤلفات) المستقبل العربي، العدد 67، السنة 1984.

¹⁰ - Mekki Bentahar et Tibari Bouasla, *La Sociologie Coloniale et la Société Marocaine de 1830-1960*, in la Sociologie Marocaine Contemporaine, Pub de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1988.

¹¹ - Chekroun Mohamed, *Crise de la Société ou Crise de la Sociologie*, in. BESM, N 153-154, 1984.

¹² - Paul Pascon, *Segmentation et Stratification dans la Société Rural Marocaine...*, op.cit, p.107.

التراتبية، للحصول على المجتمع المزيج (Société Composite) أما المختار الهراس فيرى: "أنه نتيجة لانصهار القبيلة ضمن إطار سياسي أعم، فإنه لم يعد بإمكاننا الحديث عن بنية قبلية انقسامية، إنما فقط عن عناصر وعلاقات انقسامية"¹. لكنهم كلهم عملوا على تنفيذ الطرح الانقسامي، حيث يرى باسكون مثلا عدم انطباقها على مستويين مركزيين يهتمان ما تحت الانقسامية (خط النسب) وما فوقها (الوطن). فعلى مستوى الأسرة أو خط النسب، هناك تراتبية القرابة والسن والجنس، أما على مستوى الكونفدرالية القبلية، فهناك تراتبية أوليغارشية: "ولذلك" لا يجب أن ننخدع من خطابها الإيديولوجي حول نفسها، ولا من خطاب الإثنوغرافيين الكولونيين"²، فالانقسامية إما أن تكون صورية إلى درجة لا تستطيع معها أن تفسر أو تحدد ماهي القبيلة؟ وإما أن تصل إلى درجة من التهافت وتفنيد النفس³. إن البنيوية والانقسامية والهامشية التي يحاول كيلنير تأليفها، عندما تختبر ينفي بعضها بعضا⁴. ويقسو الخطيبي أكثر عندما ينعت الانقسامية: "بهذيان منهجي، لأن إيديولوجية النسب ليست⁵ إلا تعبيرا مموها للعلاقات الحقيقية. ومن هذا المنظور، فالانقسامية ليست إلا وهما ابيستيمولوجيا"

ب- البديل الوطني:

تنطلق النظرة الداخلية للبنى الاجتماعية المغربية أساسا من مفهوم الوحدة⁶ تلك الوحدة التي ركزها الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية انطلاقا من المشروع الدينية والتي هي أرفع المشروعات بالنسبة للدولة⁷ المغربية والإسلامية بشكل عام، وذلك عبر مفهوم البيعة والنسب الشريف. وهذا ما لم تلتفت إليه السوسيولوجيا الكولونالية⁸، وتعتبر حلقة المشروع الدينية هي تلك العلاقة التي تربط السكان بالقبائل.

6- الإشكالية:

تنحصر إشكالية البحث في مدى إجرائية مفاهيم الأطروحات السابقة بالنسبة للبنى الاجتماعية المغربية التقليدية حتى حدود الاستعمار، انطلاقا من نموذج غمارة، إذ يبقى الهم الأساسي بالنسبة لنا هو المساهمة المنوغرافية في مناقشة تلك البنى، دون اعتماد مقارنة نظرية دون أخرى.

¹ - المختار الهراس، "ملاحظات واستنتاجات حول تطور النظام القبلي في جبال"، مجلة المشروع، العدد السادس، السنة 1986، ص. 81.

² - Paul Pascon, *Segmentation et Stratification dans la Société Rural Marocaine ...*, op. cit., p. 111.

³ - Laroui Abdelah, *Rappelons Simplement que L'important pour Ibn khaldon ...*, op. cit., p. 176.

⁴ - Laroui, *Rappelons Simplement ...*, op. cit., p.176.

⁵ - Khatibi, *Maghreb Pluriel ...*, op. cit., p. 110.

⁶ - أنظر ابن خلدون، مصدر سابق، ص ص. 104-105.

⁷ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، الجزء السابع، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص. 202.

⁸ - يعتبر مفهوم الوحدة مركزيا بالنسبة للطرح الوطني.

الفصل الأول: السكان والسكن

إذا كانت بلاد غمارة - كما سبقت الإشارة - تحظى بذلك الموقع الاستراتيجي كطريق عبور واتصال، ووجود آثار لإحدى المدن القديمة¹، فإن ذلك يقتضي منا التساؤل عن علاقة هذين العاملين بالبنية السكانية والسكن، سواء من حيث أقدمية تعميرها، أو من حيث معرفة عناصر سكانها وأصلهم وعددهم، وتوزيعهم وسكنهم، وذلك أخذًا بعين الاعتبار الدور التاريخي للجانب البشري، ومدى أهميته في تفسير مختلف الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

وتجدر الإشارة في بداية الأمر، إلى أن تغطية كل جوانب العناصر المذكورة طرح علينا عدة صعوبات، لقلة المصادر من جهة، ولسكوت البعض الآخر من جهة ثانية. فمؤلفات الرحالة الجغرافيين في العصر الوسيط جاءت معلوماتها عن السكان عامة وسطحية، وبعض المصادر الأجنبية، فضلا عن مادتها العلمية الغزيرة المتعلقة بفترة بحثنا، أطرته خلفية كولونيالية، قد تعوزها المصدقية.

بالرغم من ذلك، اعتمدنا على تلك النصوص القليلة، الواردة في بعض المصادر الأخرى من كتب الرحالة والتراجم والمناقب، وحاولنا استثمار معلوماتها بطريقة تمكننا من تقديم صورة عن الموضوع.

المبحث الأول: الهجرة والعمران في غمارة

1. خصائص الهجرة في غمارة:

إن الهدف الرئيسي من إدراج واقع البادية الغمارية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يتوخى بالأساس معرفة العلاقة الوثيقة التي كانت تجمع إنسان البادية بالأرض، هذه العلاقة الحميمة بين الفلاح الغماري وأرضه، كانت من بين الأسباب التي جعلت إنسان البادية الغمارية لا يفكر في الهجرة إلى المدينة من أجل الاستقرار بها نهائيا، بل يمكن القول بأن الهجرة كانت من الأشياء غير المفكر فيها، رغم كل العوائق التي كانت تحدث بفعل تدخل المخزن أو بفعل الصراعات القبلية والكوارث الطبيعية، بل حتى التدخل العسكري الإسباني.

وإذا كان البحث التاريخي في بلادنا، قد اتجه إلى التعرف على المجتمع في صيرورته وفي علاقته بالمخزن، فإن جانبا مهما وخطيرا لا يزال في حاجة إلى مزيد من الاهتمام الذي يستحقه، ونعني به الجانب الذي يهم تطور مجتمع البادية المغربية بالخصوص. وبالتالي فإن رد الفعل العنيف الذي صدر عن مجتمع البادية الغمارية بشكل عام خلال التدخل الاستعماري، لا يمكن فهمه إلا بدراسة تطور هذا المجتمع خلال القرن التاسع عشر، ومعرفة مدى ارتباط إنسان البادية بمجاله.

¹ - Roger (R), *Le Maroc ...*, op. cit., pp. 72-76.

لقد شكلت القبيلة بالنسبة لجل سكان البادية إطارا للتنظيم الاجتماعي، فالفرد ينتمي إلى قبيلة معينة وعلى هذا الأساس كان يصنف من طرف سكان باقي القبائل أو من طرف الإدارة المخزنية. وكان سكان القبيلة واعين بأن انتماءهم إلى مجموعة محددة، لا يقوم على أساس سلالي، بل على التساكن والتآزر الذي كان يقوى مع مرور الزمن. وبذلك كانت القبيلة الغمارية لا تفرط في أبنائها، وكانت تحتوي كل أفرادها لأنها كانت في حاجة إلى سواعدهم، ولهذا يمكن أن نسرد حادثة ترحيل قرية ترغة الغمارية من سكانها إبان حرب التحرير الريفية من طرف الجيش الإسباني سنة 1923م، لكن "أكثر السكان قد عادوا أدرجهم إلى بلدهم، متسللين إليها، لتستمر قرية ترغة عامرة بإذن ربها"¹. في ظل هذا الواقع يبقى الحديث عن الهجرة مستبعدا، إلا في حالات الكوارث الطبيعية أو الأمراض والأوبئة، وهو ما نجده في رسالة السلطان عبد الرحمان بن هشام للقائد عبد القادر اشعاش، عندما طلب منه أن يقبل لاجئين من غمارة إلى تطوان عام 1264هـ، جاء فيها: "الحمد لله وحده ... خديمنا الأَرْضِي عبد القادر اشعاش، وفقك الله، وبعد فيرد عليك حامله عبد الرحمن أخو محمد بن مرزوق الغماري، انظر له دارا تناسبه من الدور التي لجانبنا العالي بالله هناك بتطوان، يسكنها بأولاده من غير كراء، واستوص به خيرا لرغبته في السكنى، ولأنه لم يجد أين يأوي، للهرج الذي في القبيلة، فبوصول كتابنا هذا إليك، ادفع له مائة مثقال واحدة يستعين بها على عرسه، واجعل له كسوة جيدة مكمولة بسلهامها من الملف وقطانها وحائكها، وادفع للثلاثة عشر من إخوانه بغمارة الذين معه، خمسة وعشرين ذراعا من المركان المقصور وقيمة الخياطة. الحق بالطرة وحائكها"².

لكن هذا لا يعني أن القبيلة كانت بنية جامدة أو مغلقة، بل كانت تستقبل باستمرار كل قادم جديد، قبل أن يربط مصيره بمصيرها، ولهذا كانت قبائل غمارة تمتص عبر تاريخها البعيد كل المهاجرين بمختلف ألوانهم وأطيافهم، مما جعل المجتمع الغماري من أكثر المجتمعات انفتاحا وانصهارا بين مكوناته (بربر، عرب، أندلسيون، يهود...)، لدرجة أن القبائل الغمارية كانت أول قبيلة تفتح أبوابها أمام المهاجرين العرب الأوائل، حيث نجد أصول العديد من الأسر الغمارية المعروفة خارج المنطقة المدروسة كأسرة بن صالح وأسرة أولاد أعراب وأسرة بن الصديق، لذلك فالقبيلة كانت تكبر وتتشعب فتتحول إلى كونفدرالية قبلية واسعة، كما كانت تتعرض للتفكك والتشردم³.

¹ - عبد الله المرابط الترغي، من أعلام شمال المغرب، الجزء الأول، منشورات المجلس العلمي المحلي لعمالة طنجة أصيلة، 1435-2014، ص. 123.

² - وثيقة مؤرخة في 16 ربيع الثاني عام 1264 هجرية، أوردها محمد داود، تاريخ تطوان، ج 9، م. س، ص. 373.

³ - محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، 1792-1822، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2006، ص. 23.

يتضح مما سبق أن القبيلة الغمارية قد قدمت أحيانا كوحدة سياسية، وأحيانا أخرى كوحدة إيكولوجية، تفسر مدى ارتباط الغماري بالأرض كرمز للقوة والتحدي، والحفاظ على الرموز والثقافة المورثة والمتجذرة في صميم المجتمع القبلي، ولهذا فالهجرة موضوع استثنائي لكل التشكيلات الاجتماعية الغمارية، نظرا لارتباط أهلها الشديد بالأرض.

لقد شكلت الأرض المحرك الأساسي للوحدات الاجتماعية في البادية الغمارية، ولا تزال هي البؤرة المحورية التي يحتدم حولها صراع تلك الوحدات الاجتماعية، كما شكلت القبيلة لسكان البادية إطارا اجتماعيا ملائما، ففي مناخ سياسي يطبعه غياب الاستقرار وتأرجح المخزن بين القوة والضعف، كانت القبيلة هي الملاذ الآمن الوحيد بالنسبة للسكان.

ومن هنا يمكن أن نعرف سر غياب ظاهرة الهجرة عن المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة، رغم الواقع القبلي إبان فترة الحماية، التي أصبحت فيه الهجرة القروية أولوية بالنسبة لبعض السكان الذين فقدوا أراضيهم، لكنها لم تشمل كل القبائل الغمارية.

2- أقدمية التعمير:

يجب التذكير في البداية بأن موضوع أقدمية العمران في منطقة بحثنا، لا تتم معرفته دون التطرق إليه بوجه عام في شمال إفريقيا، فقد اتفق معظم الباحثين على أن هذه المنطقة تعتبر أقدم مناطق المعمور¹، إلا أن معرفة أصل سكانها الأوائل ظل موضوع خلاف. يذهب "أحمد صقر" إلى أن سكانها القدامى كانوا يعرفون بالليبيين، ثم عرفوا فيما بعد بـ (الموريطانيين Maures) في المغرب الأقصى². ورأى روجير (Roger) بخصوص المصطلح نفسه أنه كان يطلق على سكان منطقة تنجيتانيا (Tingitaine)³ وفي نفس السياق يذكر أحد الدارسين أن الريف الغربي كان بلد الميتاغونيت (Metagonites) وأن سكانه كانوا يعرفون بـ "الميتاغونيين" من البرابرة⁴. وأضاف جوليان (Julien) في نفس الموضوع أن الليبيين كان موطنهم بليبيا (تونس وليبيا حاليا) وأنهم هجموا

¹ - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية...، مرجع سابق، ص 40 و42.

² - أحمد صقر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، مطبعة العمل، تونس، 1959، ص 173-172.

Roger (R), Le Maroc ..., op. cit., p. 36.

² - أحمد صقر، مدينة المغرب...، مرجع سابق، ص 172.

³ - Roger, Le Maroc ..., op. cit., pp. 63-37.

⁴ - Gharbaoui (A), La Terre et L'homme..., op. cit., p. 126.

على مصر حوالي 3300 ق.م¹، بينما يذكر صاحب "القبائل المغربية" أن هذه الأجناس بعد اختلاطهم في أصول المغاربة، رجحوا في الأخير انتماءهم إلى تلك السلالة البشرية الأولى المعروفة بـ "الباخثية البيضاء"².

ويمكن القول، رغم تعدد الآراء بخصوص الحسم في هذه المسألة، أن منطقة شمال إفريقيا حسب بعض الدارسين، توالى عليها منذ فجر تاريخها، هجرات بشرية تشكلت من أجناس مختلفة امتزجت ببعضها، نتيجة انفتاح موقعها على مختلف الحضارات القديمة³، وعن ذلك الاختلاط بين السلالات وأثره على السكان، قال (كامس Camps) إن المغرب فقد وحدته الأصلية منذ العصر الحجري الصقيل، أثناء الألفية الثالثة قبل الميلاد، تحت تأثير حضارات غازية مختلفة (الحضارة الإيبيرية في القسم الغربي والإيطالية الجنوبية في القسم الشرقي والصحراوية المغربية في الجنوب)⁴. وبخصوص تلك الهجرات القديمة نذكر منها هجرة "اللوبيين" من الشرق إلى المغرب منذ الألفية السابعة قبل الميلاد ترك خلالها أحد ملوك العرب الملقب "ذو المنار" أقواما كثيرة، يقال إنهم جدود قبيلتي صنهاجة وكتامة⁵. ومنذ أواسط القرن السادس قبل الميلاد، تدفقت موجات بشرية فينيقية، نتيجة المبادلات التجارية مع المغاربة بالسواحل الشمالية⁶. ووفدت جماعات بشرية فلسطينية كانوا يتكونون من الكنعانيين والتيقشانين في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد⁷، وحسب أحد الدارسين فإن بلاد المغرب عرفت هجرات آرية كبيرة للفرس الأرمنيين منذ القديم، كانت تشكل ساكنة إفريقيا الأولى بعد الجيتوليين والليبيين⁸، هذا فضلا عن هجرات اليهود والتي تمت بدورها عبر عدة مراحل إلى المنطقة. وإذا كان يستفاد مما سبق، أن تلك الهجرات تفسر بوضوح أقدمية العمران في منطقة شمال إفريقيا، فإنه يمكن الإقرار بوجود مجموعة من المدن القديمة، وبخاصة في منطقة بحثنا، نذكر منها على سبيل المثال مدينة تغسة التي كانت تسمى (Taehia Longa)⁹.

وهكذا نخلص إلى القول بأن المنطقة عرفت هجرات بشرية متعددة قبل التاريخ، يمكن تصنيفها إلى مجموعتين، استقرت إحداها في منطقة حوض البحر المتوسط الشمالية، بعد أن سلكت الطريق الساحلي،

¹ - جوليان، مرجع سابق، ص. 249.

² - عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، ص. 71.

³ - عبد الله العروي، مرجع سابق، ص. 71.

Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme...*, op. Cit., p. 120.

⁴ - ورد النص في كتاب العروي، مرجع سابق، ص. 41.

⁵ - عبد الوهاب بن منصور، مرجع سابق، صص. 253-254.

⁶ - جوليان، مرجع سابق، ص. 91.

⁷ - بن منصور، مرجع سابق، ص. 256.

⁸ - سالوست، حرب يوغرطة، ترجمة وتحقيق محمد سعود التازي، فاس، 1979، ص. 106.

⁹ - Roger (R), *Le Maroc ...*, op. cit., pp. 27-76.

وعرفت بالمجموعة "الليبية" في بلاد المغرب، والتي حدد موطنها المؤرخ اليوناني "هيرودتس" قائلا: "تمتد ليبيا مع حدود مصر شرقا إلى راس صوليس على المحيط الأطلسي؛ حيث تنتهي غربا ويسكنها الليبيون"¹. وأما الجماعة البشرية الثانية، فقد وفدت من آسيا الغربية، لكنها توغلت في الجنوب، معرجة على إفريقيا الشمالية الشرقية فامتزجت بالعنصر الزنجي²، إلا أننا نجهل كيف حصل ذلك التحول من استعمال لفظ "الليبيين" إلى مصطلح "بربر"، وكل ما هو معروف عن هذا المصطلح الأخير أنه اقترن بساكنة المنطقة منذ القديم، كما يؤكد عل ذلك "مارمول" قائلا: "إن أول سكان بلاد البربر ونوميديا كانوا خمس جاليات"³. ومما يؤكد لنا قدم التعمير في بلاد غمارة تواجد مراكز حضرية تاريخية تعود إلى ما قبل الفترة الإسلامية كتيجساس وتارغة والجهة والازدهار الذي شهدته المنطقة خلال الحقبة الإسلامية (انظر الوثيقة رقم 8 من الملحق).

فقبائل غمارة تعتبر من أقدم المجموعات البشرية التي غمرت في الشمال المغربي، ولهذا سميت بغمارة، كما أن منطقة غمارة قديمة الاستيطان، بحيث تعاقبت عليها مجموعات بشرية متنوعة من أهمها العرب الفاتحون.

فهل ظل هذا الجنس البشري الساكن الوحيد في المنطقة المدروسة أم وجدت إلى جانبه عناصر سكانية أخرى؟

المبحث الثاني: أصل وعناصر السكان

أثرت العوامل الطبيعية والتاريخية والبشرية على التركيبة البشرية في غمارة التي تضم عناصر مختلفة، يمكن تصنيفها-تجاوزا-إلى عنصر سكاني ذي النسب البربري، وعنصر عربي مختلط، ثم الجاليات الأندلسية واليهودية.

1-العنصر البربري:

أ-أصل البربر وأقسامهم:

تضاربت أقوال النسابين والمؤرخين العرب حول أصل البربر وتسميتهم، فذكر "ابن عبد الحلیم" قائلا: "إنهم من أولاد بن نقشان من إبراهيم أو أولاد بن قرط بن حام أو من نسل إيلان بن بربر بن قيس عيلان..."⁴، ولاحظ البلاذري أن البربر "يزعمون أنهم من بر بن قيس... فاتوا المغرب وتناسلوا به..."¹.

¹ - ورد النص في كتاب أحمد صقر، مرجع سابق، ص. 172.

² - العروي، مرجع سابق، ص. 39.

³ - مارمول، مصدر سابق، ص. 93.

⁴ - صالح ابن عبد الحلیم الايلاني، كتاب الأنساب، مخطوط بمديرية الوثائق الملكية، الرباط، تحت رقم 12755 ورقة 19-20.

أما ابن خلدون، فبعد عرضه لتلك الآراء المختلفة، يقول: "وأما إلى من يرفع نسبهم عن الأمم الماضية، فقد اختلف النسابون في ذلك كثير ... ونجده ينتقد ذلك ويخلص إلى القول: "... وأهم هذه المذاهب جلها مرجوعة ... والحق الذي لا ينبغي التعديل على غيره في شأنهم هو أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ...".² وإذا كانت هذه الآراء تظل مجرد افتراضات بخصوص حقيقة نسب البربر وتسميتهم، فإن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، يقول "كامبس Camps" بأن البربر أقارب الأوربيين القدامى³ أما إذا أخذنا بمفهوم فقه اللغة للكلمة، كما يذكر أحد الباحثين، فإن كلمة بربر معناها تخليط في الكلام⁴، وأنها مشتقة من المصطلح اللاتيني "Varvaros". فسكان شمال إفريقيا لم يعرفوا هذا الاسم، وإنما أصل الكلمة مأخوذ من "ابريين" وكانت تعني الأمازيغ أي الأحرار⁵. وعلى أي حال ونظرا لصعوبة البحث في أصل البربر كما يبدو، فإنه من المتفق عليه لدى المهتمين بدراسة السلالات المغربية أن العنصر البربري الأبيض سكن المنطقة منذ زمن بعيد، وأن أغليبتهم كانت عبارة عن خليط بشري، وأن الجماعات التي سلكت الطريق الساحلي حافظت على سماتها ومميزاتها كقبائل غمارة⁶.

أما عن أقسامها، فإن دراسات تاريخ شمال إفريقيا القديم لم تشر إلى ذلك، بل اكتفت بعرض تلك التقسيمات الترابية أو الإدارية للحكم اليوناني أو الروماني في المنطقة⁷، فقد كانت بلاد المغرب تشمل إفريقيا ونوميديا وموريطانيا الطنجية وموريطانيا القيصرية وجيتوليا. وحافظ العرب على روح ذلك، لكنهم زادوا عليه تقسيم السكان أنفسهم إلى بربر بتر وبربر برانس، إلا أنه لوحظ اختلاف النسابين والمؤرخين في تفسير ذلك التقسيم، فهناك من قسمهم على أساس طبيعة التمدن والحضارة، فالبتر أهل بدو والبرانس أهل حضارة واستقرار، أو تصنيفهم على أساس عوائدهم، كارتداء لباس البرنس مثلا⁸. بينما يرى ابن خلدون أن علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جزمان عظيمان وهما: برنس ومادغيس ويلقب مادغين بالأتير، لذلك يقال لشعوبه البتر، ويقال لشعوب برنس البرانس. يتكون بربر البتر من شعوب تجمعها أربعة أجزام: أدارسة، نفوسة، بنولوا، ضرية. وإن شعوب البرانس يتكونون من سبعة أجزام: ازداجة، مصمودة، أوربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أوريفة⁹.

¹ - أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، طبعة 1987، ص. 86.

² - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 126-127.

³ - ورد النص في كتاب العروي، مرجع سابق، ص. 43.

⁴ - ابن منصور، مرجع سابق، ص. 263.

⁵ - Pottier René, *Histoire du Sahara*, Pub, Nouvelles Éditions Latines, Paris, 1947, p. 4.

⁶ - Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tingitane*, op. cit., p. 129.

⁷ - جوليان، مرجع سابق، ص. 96.

⁸ - ابن منصور، مرجع سابق، ص. 292.

⁹ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 117-118.

وبناء على هذه الثنائية في التقسيم، واستنادا إلى المصدر نفسه، نخلص إلى القول بأن غمارة ترجع في نسبها إلى المصامدة من البرابرة¹: "ومن مصمودة غمارة وهم بنو غمار بن مصطفى بن مليل بن مصمود"² الذين عمروا المنطقة منذ زمن قديم يصعب تحديده بالضبط. كما كانت توجد إلى جانبهم عناصر بربرية أخرى من قبائل "كتامة" في حوض اللكوس و"صنهاجة" في ساحل طنجة، ولوثة شمال وجنوب أصيلا³. ونقل عن البعض أنهم غمروا في تلك الجبال فسموا غمارة. ويعقب ابن خلدون عن هذا الرأي بأنه مذهب عامي⁴. وكما سبق، فإن العنصر الغماري كان يسود شمال المغرب من طنجة إلى تلمسان⁵ إلى جانب العناصر الصنهاجية، وقاموا بتكوين حلف مع البرانس للقضاء على مملكة النكور خلال القرن الثالث الهجري⁶، حيث كانوا يشكلون الاتحاد الغماري القوي الذي انحل حلفهم وانكشمت رقعتهم وتراجعوا إلى مواقعهم الحالية، من وادي أورينكا إلى وادي لاو، بسبب تعرضهم للهجمات الصنهاجية⁷.

وهكذا تقلصت غمارة وأصبحت خلال العهد المرابطي والموحدي تتكون من بطون معدودة، منها متيوية وبني زيات وبني سلمان وبني زجل وبني منصور وبني بوزرة وبني جرير وبني سميح وبني رزين وبني خالد⁸. وهذه القبائل الأربعة الأخيرة هي المعروفة بقبائل بني نال⁹، إلا أننا في الواقع، لم نتمكن من العثور على تعريف مقنع لنال الجد الأكبر لأهالي هذه القبائل، ومتى وجد؟

وقد حاولت مجموعة من الدراسات تحليل هذه الأسماء ومتى سميت بذلك، لكن جلها لا تقدم صورة واضحة ودلائل مقنعة. فابن خلدون يذكر أن بني نال هم من البطون المشهورة من غمارة، لكن دون التعريف

¹ - قبائل مصمودة هي قبائل اختصت باستيطان المغرب الأقصى منذ زمن بعيد، واشتغلت بالزراعة، وكانت تسكن الريف الغربي ومناطق جباله وجبال الأطلس الكبير الغربي والأطلس الصغير والسهول الأطلسية، ولم يبق اليوم من أثرها بالمنطقة الشمالية للمغرب غير أماكن تحمل أسماء بعض بطونها. أما من كان منها بالسهول الأطلنتية كبرغواطة وركراكة فقد تقلص حضورها أساسا بسبب الزحف الزناتي في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي والزحف الصناحي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ولا يعرف منها اليوم غير المجموعات التي قامت بدعوة الموحدين بجبال درن والمجموعات الأمازيغية والمعربة بالشمال الغربي. وتجدر الإشارة أن الموحدين لم يعملوا على ترحيل قبائل المصامدة من مواطنها الجبلية، بعد أن أقاموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين. أنظر محمد القبلي، تاريخ المغرب، تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011، ص 218.

² - المرجع نفسه، ص ص. 280-281.

³ - Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tingitane...*, op. cit., p. 129.

⁴ - ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخير...، م. س، ص. 245.

⁵ - حسن الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الأول، م. س، ص. 36.

⁶ - أبي عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد الأندلس والمغرب، م. س، ص. 95.

⁷ - التقي العلوي، أصول المغاربة، غمارة وحلفاؤها، م. س، ص. 29.

⁸ - عبد الباري الطيار، ثوار وأنبيا من غمارة، م. س، ص. 41.

⁹ - محمد ابن العسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان في المغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة 2، الرباط 1977، ص. 34.

بهم¹. كما أن هناك رسالة كان قد بعثها إلى الأندلس بعض ممن حضروا حملة الموحدين لإخماد ثورة سيع منغفاد سنة 562 هـ، السابقة الذكر والتي أوردها ابن صاحب الصلاة، حيث جاء في الرسالة: "وكان بنو نال وبنو يال من قبائل غمارة المختصين بسكن الجبل المشهور بالمنعة، المعروف بجبل الكواكب الذي هو أشهرها وأوعرها مرقى"². وأورد أبو حامد الفاسي تحليلاً مفصلاً شيئاً ما عما سبق ذكره، وذلك بتحديدته بشكل مدقق قبائل بني نال وبنو يال معتمداً على رواية لم يذكر صاحبها، فيقول: "ويقول نسابتهم: يال ونال إخوان، فتفرع يال إلى بني زيات وبنو سلمان وبنو منصور وبنو بوزرة، وتفرع نال إلى بني خالد وبنو رزين وبنو سميح وبنو جرير"³. كما أورد هذا الكلام أيضاً المؤرخ عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب "المن بالإمامة"⁴. لكن هذه الرواية وإن كانت قد حددت لنا التقسيم الذي قام به الأخوان نال ويال لقبيلة غمارة، فإنها لم تفسح عن حقيقة أصولهما. وقد شكك بعض الباحثين في هذه الرواية، في كون أن نال بربري، ومن بينهم صاحب كتاب "ثوار وأنبيا غمارة"، حيث أعلن رفضه لها بقوله: "فإذا كنا لا نعرف عن بني يال شيئاً—وان كنا نرجح أنها مجرد عشيرة من عشائر غمارة—فإننا على العكس من ذلك، نعلم أن بني نال عشيرة غمارية، عاش فرع منها في بني رزين وفرع آخر في بني منصور. وإن كنا لا نستبعد من الناحية النظرية على الأقل، أن تتفرع قبائل كثيرة من رجل واحد، وهذا يحدث في مئات السنين، لكننا لا نقبل خبر تفرع قبائل بني خالد وبنو رزين وبنو سميح وبنو جرير من نال، لسبب بسيط هو أن هاتين القبيلتين وجدتا قبل وجود نال المزعوم بوقت طويل"⁵، لكن إذا كان بنو خالد وبنو رزين وبنو سميح وبنو جرير عشائر، وجدت بغمارة قبل القرن السادس حسب الباحث عبد الباري الطيار، فيبدو ذلك أمراً مسلماً كما سيتبين، إلا أنه لا يدلي ببراهين وحجج قاطعة، إذ يكفي بالقول إن بني نال اسم عربي. ويرجح أن جل القبائل الغمارية التي تحمل أسماء عربية، تسمت بهذه الأسماء إبان عصر الأدارسة تبركا بهم⁶. ومن جانب آخر يرجع الأستاذ محمد مزين تسمية هذه القبائل بهذه الأسماء إلى الأشخاص الذين حكموها، وأن أسماء هذه القبائل المصمودية قد عبرت⁷.

¹ - ابن خلدون، العبر...، ج6، م. س، ص. 180.

² - عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة، 1987، ص. 238.

³ - أبي حامد محمد العربي الفاسي الفهري، مرآة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن (ونبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب)، دراسة وتحقيق محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الحد 3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، 2003، ص. 230.

⁴ - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة...، م. س، ص. 238.

⁵ - عبد الباري الطيار، ثوار وأنبيا من غمارة...، الجزء الأول، م. س، ص. 64.

⁶ - الطيار، المرجع نفسه، ص. 64.

⁷ - محمد مزين، فاس وباديتها مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549-1637م، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، الطبعة الاولى 1986، ص. 99.

من خلال ما سبق يبدو أن الأصول العرقية لهذه القبائل معقدة، وعرفت تغيرات كبيرة يصعب الإحاطة بها، نظرا لاختلاط العنصر العربي بالأمازيغي. لكن انتشار اللغة العربية بهذه القبائل تم منذ عهد مبكر، نتيجة الاحتكاك مع العرب الوافدين مع صالح بن منصور الحميري الذي تمكن من نشر الإسلام بين العناصر الصنهاجية والغمارية¹، مما أدى إلى شيوع اللغة العربية في بلاد نكور وأحوازها² على يد الشرفاء الأدارسة، حيث بعد أن قضى ابن أبي العافية على حكمهم، واستولى على حصنهم (حجر النحل)، فوجدوا في جبال غمارة ملجأ آمنًا لهم³.

هذا الاختلاط في البنية السكانية كما يلاحظ، ليس وليد فترة بحثنا، وإنما له جذور تاريخية بعيدة⁴.

فما هي إذن أهم قبائل المنطقة المدروسة؟

ب- القبائل البربرية:

يمكن تقسيم القبائل ذات النسب البربري إلى مجموعتين، تنتسب المجموعة الأولى إلى النسب المصمودي والتي لا يزال بعضها يحتفظ بالبعد البربري كبنو بوزرة وبنو سلمان، إذ يتحدث السكان فيهما لهجة تعرف بالشلحة البزراتية⁵. أما المجموعة الثانية فهي صنهاجية الأصل⁶ تعيش في نطاق اللف الغماري. وبخصوص المجموعة الأولى قسمها صاحب "مرآة المحاسن" إلى فرعين، ينتسب الفرع الأول إلى الجد المعروف "بنال" والفرع الثاني إلى "يال" قائلا "... وانتقل سلف الشيخ⁷ إلى قبيلة بني زيات من قبائل "يال" ... من بطون غمارة ويقول نسابتهم يال ونال ... فتضرع يال إلى بني زيات وبنو سلمان، وبنو منصور وبنو بوزرة وتفرع "نال" إلى بني خالد وبنو رزين وبنو كير وبنو سميح ..."⁸.

1 - ابي عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد الأندلس والمغرب...، م. س، ص ص. 90-91.

2 - عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968، ص. 385.

3 - التهامي ابن رحمون، شذور الذهب في خير نسب، مخطوط بمكتبة عبد الله كنون بطنجة، تحت رقم 10327، ص. 72.

4 - التقي العلوي، أصل البرابرة...، مرجع سابق، ص. 29.

5 - ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص. 274.

6 - صنهاجة وهي من قبائل الرحل أتت من الجنوب وشغلت المناطق الواحية والأطلس الكبير الشرقي والأطلس المتوسط وجبال غمارة. وبعد أن تسربت بعض بطونها نحو السهول الاطلنتية عبر وادي أم الربيع في فترة تاريخية لا نعرفها على وجه التدقيق- وإن كانت سابقة على قيام دولة المرابطين بزمان بعيد-جنحت هذه القبائل إلى الاستقرار. وتجدر الإشارة إلى ان المرابطين لم يحملوا قبائل صنهاجة الرمال على مغادرة القفر للعيش بالمناطق الشمالية بعد إقامة دولتهم، بل تركوها بمواطنها واستحاشوا بما كلما راموا الزيادة في أعداد جندهم النظامي. أنظر محمد القبلي، تاريخ المغرب، تحيين وتركيب...، م. س، ص. 218.

7 - هو أبو الطيب الحسن المهدي الزياتي، تحدث عنه أبو حامد الفاسي، مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن طبعة حجرية، فاس 1906، ص. 165.

8 - أنظر الوثيقة رقم 48 من الملحق.

فكيف توزعت هذه القبائل في منطقة بحثنا؟

* بنو بوزرا: تقع بين بني زيات غربا وبني كريب شمالا، وهي قبيلة مصمودية وليست صنهاجية حسبما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين¹، ومن فرقها تاندمان واعراين وامطير، ويسميتها صاحب الدوحة بأبي زرا² كما كان لسكانها دور في الحياة الجهادية لشهرتهم بلقب حارسي البحر³.

* قبيلة بني سلمان: توجد بين بني منصور وبني بوزرا، وتعد من بين القبائل الغمارية الوسطى⁴ من فرقها أسيفان، بني فنزر. وإذا كانت سمات الطابع البربري ما زالت مسيطرة على القبيلتين، فإن بقية القبائل الأخرى لا يعبر عن بربريتها-لظروف تاريخية واجتماعية-سوى احتفاظها بالنسب البربري، ونذكر منها:

* قبيلة بني زيات: التي تعتبر من القبائل البحرية، حيث تقع شرق وادي لاو الذي يفصل بينها وبين قبيلة بني سعيد الصنهاجية⁵، وتوجد في ترابها مدينة "تيجساس" التاريخية مقر تغسة حاليا، ومن فرقها نذكر تارغا واغيل⁶.

* قبيلة بني منصور: لا ندري المصدر الذي اعتمده ماسينيون (Massignon) في نسبها إلى ابن المنتصر⁷، والظاهر أنها عرفت تحركا من الشرق إلى الغرب من المنطقة المدروسة، إذ حددها "مارمول" إلى الجنوب من قبيلة "بقوية"، وقال عنها "الوزان" إنها كانت خاضعة لحاكم "بادس" ومن فرقها انشوان وافرعمان. ويمكن القول إن هذا التحرك ليس بغريب على سكان المنطقة، وإن كان نسبيا كما أسلفنا في موضوع تراجع المجال الغماري.

* قبيلة بني رزين: وتقع في تلك الجبال المعروفة بنفس الاسم، والتي تشرف على مدينة ترغة الصغيرة التي كان سكانها يتحصنون بتلك الجبال⁸ ومن فروعها فرقة بني مراق وفرقة تمريرخت.

* أما قبيلة بني خالد، فقد جعلها "اليفراني" من الأدراسة حسب "تقييده"⁹ وحدد موقعها بجبل راشد، إلا أن الأمر عكس ذلك، فهي تنتسب إلى المصامدة، كما أكد على ذلك صاحب "مرآة المحاسن" بل وحتى أسماء

¹ - عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة المغربية، ملحق 2، طبعة الرباط 1977، ص. 107.

² - محمد بن عسكر، مصدر سابق، ص. 28-29.

³ - Attilio Gaudio, *Maroc du Nord, Cités Andalouses et Montagnes Berbères*, Nouvelles Éditions Latines, Paris, 1981, p. 112.

⁴ - التقي العلوي، مرجع سابق، ص. 42.

⁵ - Attilio Gaudio, *Maroc du Nord, Cités Andalouses et Montagnes Berbères ...*, op. cit., p. 111.

⁶ - عبد العزيز بنعبد الله، مرجع سابق، ص. 110.

⁷ - Louis Massignon, *Le Maroc dans la Premières Années du XVI Siècle*, op. cit., p. 244.

⁸ - الوزان، مصدر سابق، ص. 257.

⁹ - محمد اليفراني، تقييد عن ذكر شرفاء المغرب وصلحائه وقبائله، مخطوط بالمديرية الملكية للوثائق، الرباط، رقم 1595، ص. 169 -

قراها تفيد أنها بربرية الأصل، نذكر منها تاغونة وتلوتف وتفروت، كما أن موقعها كان إلى الشرق من قبيلة بني زروال على سفح جبل "تيزيران" وليس كما ذكره "اليفراني".

* وهناك قبيلة بني كيرير التي يسكنها فرع من غمارة، وهي مجاورة لتغسة¹ ومن بين فرقها بني حمدون وفرقة بني سجود.

* وقبيلة بني سميح التي تقع على الضفة اليمنى لواد ورينكا (Oringa)² ومن فرقها بني يزوف وبني بوزكري.

ومن القبائل الأخرى ذات النسب المصمودي نذكر قبيلة بني حسان، وصفها الوزان وتحدث عن شجاعة سكانها ودورهم في تاريخ غمارة السياسي³، إلا أنه لم يحدد موقعها الذي عرف تحركا منذ القرن 13م، عندما وفدت تلك الهجرات العربية إلى نواحي تامسنا، فهجرت القبيلة موطنها واستقرت جنوب شرق تطوان كما سبقت الإشارة⁴. وقد تضاربت آراء المؤرخين حول نسب القبيلة، فهناك من قال⁵ إنها عربية الأصل والبعض الآخر اختلف في نسبها إلى المصامدة أو إلى صنهاجة⁶، إلا أنها كانت بربرية من أصل مصمودي، وفي ذلك يقول ابن خلدون: "ويتبين لك أنهم من المصامدة، بقاء هذا النسب المحيط سمة لبعض شعوبهم... إذا كان بنو حسان منهم موطنين بذلك الساحل من لدن ازغرة..."⁷. وهذه القبيلة كانت من بين القبائل الغمارية التي تعربت مبكرا، إذ يرجع بناء مسجد موسى بن نصير إلى القرن الأول الهجري، أما فروعها فهي كثيرة، نذكر منها جماعة عشروت وجماعة ادمامان. أما فيما يتعلق بالمجموعة الثانية لتلك القبائل ذات النسب الصنهاجي فنذكر منها بني ورياكل وبني مسكلدة. كما تؤكد الرواية الشفوية أن المنطقة عرفت استقرار العنصر السوسي "سواسة" الذي هاجر إليها وانسجم مع سكانها الأصليين⁸، حيث تشير نفس الرواية إلى وجود مقابر كبيرة في كثير من القرى، ذات هيئة قديمة جدا، مع وجود بقايا المنازل المبنية بالأحجار، تنتشر حولها قطع من الأواني المنزلية المصنوعة من الخزف. يقول عنها ساكنة المنطقة أنها لأهل سوس. ويرى كثير من السكان القرييين من هذه المواضع أن

¹ - الوزان، مصدر سابق، ص. 256.

² - التقي العلوي، مرجع سابق، ص. 42.

³ - الوزان، مصدر سابق، ص ص. 249-250.

⁴ - التقي العلوي، مرجع سابق، ص. 35.

⁵ - اليفراني، مصدر سابق، ص. 174.

محمد المنوني، ورفقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، 1979، ص. 70.

⁶ - محمد حجي، الحركة الفكرية للمغرب في عهد السعديين، الجزء الثاني، الرباط، طبعة 1976، ص. 461.

⁷ - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 281.

⁸ - حصلنا على هذه الرواية بقبيلة متيوثة في إطار نقاش مع أفراد المنطقة، وأكدها مجموعة من الرجال القاطنين بقبيلة بني جرير وبني سميح دون اختلاف أقوالهم.

السوسيين كانوا يسكنونها لمدة طويلة، وإثر تقلبات مناخية معاكسة قاموا بالرحيل عنها¹. وقبل رحيلهم تركوا كنوزا كثيرة مدفونة في هذه المقابر وفي أماكن سكنهم، ووضعوا لها تقاييد دقيقة، تركوها لأولادهم وأحفادهم الذين سيأتون مباشرة إليها ويستخرجونها. وفي هذا الإطار، يتساءل الأستاذ العربي الحميدي الذي لاحظ وجود هذه المآثر في قبيلة بني زروال، مع وجود نفس الرواية الشفوية حولها: "وهنا لا بد من التساؤل عن سر معرفة أهل سوس وحدهم لهذه الكنوز، هل هي من دفن أجدادهم؟ وإذا كانت لهم، فمتى وُجدوا هناك؟ هل قبل الغمانيين أم مع مجيء المرابطين؟ ثم لماذا هجروا البلاد، تاركين هذه الكنوز مع وصف أماكن دفنها وصفا دقيقا؟"، وقد أُلصقت بالأماكن المدفونة فيه هالة من القداسة حتى لا يحفره الناس، أو يحرقونه وينكشف الكنز². وقد لاحظ عبد الرحمان الطيبي أيضا شيوع هذه الرواية في قبائل الريف الأوسط، ويرى أن السوسيين كانوا يتكلمون الأمازيغية "الشلحة"، ويرجع سر ثروتهم إلى أنهم كانوا يملكون أراضي خصبة ويبيعون منتجاتهم للإسبان مقابل الذهب³. ويعتقد أنهم نزحوا إلى المنطقة مع قدوم الموحدين، حيث قسمت أراضي رؤوس الفتنة بالمنطقة (ثورة سيع منغفاد)، على الموحدين، بعد القضاء عليهم. ومن دون شك فإن أهل سوس كانوا يساندونهم، فحصلوا على أراضي مهمة، لكنهم اضطروا للهجرة إلى مناطق أخرى، مع ضعف الدولة الموحدية في المنطقة، إثر موجة من الجفاف⁴.

وهكذا بعد أن تعرفنا على أهم القبائل البربرية التي كانت تشكل أهم ساكنة في مجال المنطقة المدروسة، وبما أن منطقة عمارة كانت تتوفر على موقع استراتيجي فقد شكلت محطة عبور لجماعات بشرية أخرى. فما هي إذن طبيعة هذه العلاقات ببقية العناصر السكانية الأخرى؟

2- قبائل عربية مختلطة:

لقد أجمع العديد من الباحثين⁵ الذين اهتموا بتاريخ العصر الوسيط أن العرب وفدوا إلى بلاد المغرب عبر مرحلتين: مرحلة أولى تزامنت مع ظروف الفتح الإسلامي لأجل الاستيطان، ومرحلة ثانية كانت بسبب ظروف ودوافع اجتماعية وسياسية.

¹ - تجمع أغلب الروايات الشفوية أن المنطقة عرفت موجة من الضباب (الشرقي)، دام مدة سبع سنوات أدت إلى استياء السوسيين، فرحلوا عن هذه البلاد.

² - العربي الحميدي، أهمية المصادر المادية والشفوية في إضاءة تاريخ بني زروال، موضوع التدخل الفرنسي مثلا، ندوة البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، البيضاء، 1999، ص. 22.

³ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية... م. س، ص. 94.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 94.

⁵ - ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، بيروت 1964.

- مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، طبعة الرباط، 1982.

أما بخصوص الرغبة في "الاستيطان" فإن ذلك على ما يبدو لم يحدث بشكل واضح، فإذا كانت مراحل الفتوحات في شمال إفريقيا قد بدأت منذ العصر الراشدي، واستمرت إلى ما بعد "برقة" في عصر بني أمية، في فترة تميزت بطول مدتها وكثرة ارتداد البربر (اثنا عشرة مرة)¹، فإن ظاهرة الاستيطان الكثيف لم تظهر بوضوح خلال هذه المرحلة، وفي ذلك يقول الناصري في معرض حديثه عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقيا ما ملخصه "إن بلاد إفريقيا والمغرب لم تعرف مجيء هذا العنصر إلا عند أحداث الفتح، إلا أن العرب الداخلين إلى أرض المغرب، إنما كانوا يدخلون غزاة مجاهدين ... فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار؛ ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم ... وإن بقي القليل منهم به، فإنما كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية ..."²

وعن اهتمام العرب بالأمصار ذكر البكري عن سبتة "... وأهلها عرب وبربر ..."³ واستمر الحال كذلك إلى أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) إلى أن حصلت هجرات عربية من قبائل "بني هلال" إلى شمال إفريقيا، وانتشر أفرادها في جميع أنحاء البلاد المفتوحة ووصلوا إلى شمال المغرب حيث قبيلة غمارة واختلطوا بسكانها اختلاطا كبيرا، كان له أثر كبير على اللغات البربرية السابقة⁴.

ويستفاد مما سبق أن استيطان العرب في شمال إفريقيا وبخاصة في المغرب خلال الفتوحات كان غير قار، ولعل سبب ذلك يعود إلى سياسة عدم الاستقرار في الجهاز الإداري للدولة الأموية، التي كانت تذكي ذلك الصراع بين القيسية واليمينية في المنطقة⁵، فضلا عن تعسف الولاة أنفسهم اتجاه السكان وسلبهم لثرواتهم، مما كان ينتج عنه ارتداد وثورات، إلا أن ظاهرة استيطان العرب، تظهر بوضوح في غضون القرن 16م، حيث تم انتشار فروع من القبائل العربية في مجال غمارة كوجود عرب "سويد" في بادس⁶. وإذا كانت هذه القرائن تفسر لنا ما كان من التساكن بين السكان البرابرة والوافدين من العرب، فإن ذلك لا يفهم منه وجود قبيلة عربية أو قبائل قائمة بذاتها، خاصة خلال فترة بحثنا، مثلما حدث في بلاد الهبط التي استقرت فيه قبيلة "بني رياح" وفي بلاد الأزغار التي استوطن فيها عرب الخلط⁷. فيبقى إذن الحديث هنا عن قبائل عربية مختلطة، إما تمت بصلة النسب الشريف، أو بصلة لقب قائد عربي معين ونذكر منها:

1 - ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 135.

2 - أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط الدار البيضاء، 1955، ص. 162.

3 - البكري، مصدر سابق، ص. 103.

4 - عبد المنعم سيد عبد العال، معجم لهجة شمال المغرب، تطوان وما حولها، طبعة القاهرة، 1968، ص. 43.

5 - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1947، ص. 270-273.

6 - أبو حامد الفاسي، مرآة المحاسن...، مصدر سابق، ص. 217.

7 - الوزان، مصدر سابق، ص. 42.

- قبيلة بني زجل: يلاحظ أن هذا الاسم غير وارد في كتب الرحلات "الوزان ومارمول" بينما أشار إلى ذلك صاحب "الدوحة" في ترجمة الهبتي الذي دفن ببني زجل¹، ويقال أنها أخذت اسمها نسبة إلى القائد العربي "محمد زجل القرشي" الذي قدم إلى المنطقة في ظروف الفتوحات، وبعد ارتداد البربر فر بدينه من جبل لآخر، إلى أن استقر بمنزل "بومنارد" أسفل جبل "تازروت" ولعظمة الرجل تسمت القبيلة باسمه، وكانت هذه القبيلة أولى القبائل المغربية التي تعربت وانمحت منها البربرية وانتشر فيها التعليم انتشارا كبيرا، ومن أشهر أسرها أسرة "ابن عرضون" التي كان لها دور بارز في الحياة الثقافية والاجتماعية والقانونية في بلاد غمارة² ومن فرق القبيلة نذكر بني شداد والقلعة وبني سملولة وبني موسى وغيرها.

3-العصر الأندلسي:

رأينا فيما سبق ما كانت تحظى به المنطقة المدروسة من موقع استراتيجي هام، فزيادة على كونه كان محط عبور، فقد كان حلقة ربط بين الشرق وبلاد الغرب الإسلامي، كما كان لرجاله دور كبير في أحداث الأندلس، منذ عام اثنين وتسعين للهجرة إلى غاية أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ومما يجب التذكير به هو ذلك الاتصال الدائم الذي كان بين منطقة غمارة وبلاد الأندلس طوال العصور التاريخية الإسلامية³ لا سيما منذ القرن الرابع الهجري (921م-309هـ)، الذي تميز بضعف دولة الأدارسة الثانية والتي كان موطنها في غمارة. لقد كانت بلاد الأندلس جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية المغربية في تاريخ العصر الوسيط في عهد المرابطين والموحدين، وفي العصر المريني حسب أحد المؤرخين، لوحظ تحرك هجرات أندلسية إلى شمال المغرب⁴، وفي أواخر القرن 15م كما هو معلوم، تم سقوط آخر إمارة أندلسية (بني الأحمر في غرناطة) وازداد نفوذ المسيحيين في أغلب مناطق البلاد، وأصبح الأندلسيون أمام أمرين، إما التنصير أو الهجرة، بعد أن كان لهم فيما قبل الحق في مزاوله حقوقهم السياسية والدينية والاقتصادية⁵.

وانطلاقا من هذا الحدث، زادت هجرة الأندلسيين تجاه شمال المغرب، ولا نعرف بالضبط عددهم. يذكر في هذا الصدد مؤرخ تطوان محمد داوود " أن هجرات الأندلسيين الأولين اختلف في تحديد عددها ما بين ثمانين شخصا فيهم ستة وأربعون رجلا وعشر نسوة والباقي من الأطفال ..."⁶. وكان من نتائج هذا الحدث

¹ - ابن العسك، مصدر سابق، ص. 7.

² - محمد حجي، مرجع سابق، ج. 2، ص. 459-460.

³ - حسين مؤنس، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة، الطبعة الأولى، القاهرة، 1959، ص. 381.

⁴ - الناصري، مصدر سابق، ج. 3، ص. 68.

⁵ - محمد قشتيلو، محنة الموريسكوس في إسبانيا، مطبعة الشيوخ، تطوان، 1980، ص. 14-17-20.

⁶ - محمد داوود، تاريخ تطوان، المجلد الأول، ط 1959 بتطوان، ص. 83.

انتشار العنصر الأندلسي في شمال المغرب، والذي لعب دورا فعالا في مواجهة الخطر الأجنبي، فضلا عن تعاطي هذا العنصر التجارة، خاصة في ميدان افتداء الأسرى، بعدما نشطت عمليات القرصنة التي كانت تزعج التجارة الأجنبية في منطقة حوض البحر المتوسط (ساحل بلاد غمارة خصوصا). وكان من بين أبرز المدن التي استقر فيها الأندلسيون مدينة شفشاون وباديتها التي مازالت تحظى بالطابع الأندلسي¹. يذكر ماسينيون أن قادة بادس وإزاجن كانوا من العناصر الأندلسية في الجيش السعدي². وعن انتشار هذا العنصر في القرى والمدن يذكر عبد الله عنان قائلا: "إن من بقي من المسلمين في لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرناشة وأهل البشرة، عبروا إلى أراضي قبيلة غمارة..."³، كما توجد في قبيلة بني زيات أسماء تنتمي إلى العمران الأندلسي كشاطبة وقرطبة ويشبة...⁴، فضلا عن استقرار الأندلسيين في قبيلة بني حسان والحوز وبني جبارة وقرية بليونش بجوار سبتة⁵.

انطلاقا مما سبق، يمكن الحديث عن علاقة الأندلسيين بسكان غمارة، إذ كانوا يشكلون عنصرا ثالثا إلى جانب العناصر الأخرى، وهناك عدة قرائن تؤكد على ذلك، كوجود أسماء بعض الأسر الأندلسية سواء في المدن أو في القبائل، وبعض أسماء الأولياء كالولي أحمد الغزل وسيدي أعراب⁶، بل وحتى أهم مدن المنطقة، كان يطغى عليها الطابع الأندلسي. وبخلاف العناصر السابقة فإن العنصر الأندلسي عرف استقرارا متأخرا بالمنطقة، لكن الهجرات الأندلسية إلى المنطقة المدروسة لم تبدأ مع سقوط غرناطة سنة 1492م، بل كانت في عصور سابقة لهذا الحدث، منها ما يعود إلى القرن الثاني الهجري، ومنها ما يعود إلى العهد الموحي والميرني⁷، إلا أنها لم تكن بالشكل الذي حدث مع سقوط غرناطة، حيث توافد الكثير من الأندلسيين على المغرب واستقروا بمدنه وبواديه، كتطوان وأحوازها، وشفشاون، بادس، وطنجة، والقبائل الغمارية والريفية وغيرها⁸. وقد اختار الأندلسيون القبائل الغمارية الساحلية من أجل القيام بالجهاد البحري، للانتقام من النصارى، بعد مأساة الطرد التي تعرضوا لها⁹، بالإضافة إلى أن هذه المناطق، كان يتهددها الخطر المسيحي، لكونها مقابلة للنشاط

¹ - محمد قشتيلو، محنة الموريسكوس...، مرجع سابق، ص. 7

² - Louis Massignon, *Le Maroc dans la Premières....*, op. cit., p. 176.

³ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة القاهرة، 1966، ص. 299.

⁴ - عبد العزيز بن عبد الله، مرجع سابق، ص. 326.

⁵ - محمد قشتيلو، مرجع سابق، ص. 7.

⁶ - عمر الجيدي، ابن عرضون...، مرجع سابق، ص. 83.

⁷ - محمد بنشريف، "المغرب مهاجر الأندلسيين"، مجلة الأكاديمية، عدد 15، خاص بالمورسكيين في المغرب، 1982، ص. 17-18.

⁸ - مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الطبعة الأولى، 2002، ص. 48-49.

⁹ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الأول، م. س، ص. 100.

الإسباني الذي ينتظم مالقة وسواها من المدن الساحلية، وهي مسافات تقطعها السفن في ساعات معدودة¹. وبعد 1492م تمت هجرة أخرى إلى القبائل الغمارية، يقول عنها ابن مرزوق الغماري: "وفي سنة 907 هـ (1501م) جاء من الأندلس عدد كبير من المجاهدين الذين طردهم الطاغية النصراني² لأنهم أبوا اعتناق دين الشرك، وجلهم فضلوا الاستقرار بمدينة شفشاون أو مدينة تطوان أو قبائلنا الغمارية يسر الله أمرهم"³. وكان أغلب العناصر الأندلسية التي استقرت بقبائل غمارة من أهل لوشة وقرية الفخار ومرشانة وبشرات وغرناطة ومالقا ومرسية، حيث نزلوا بزاوية سيدي الغزال⁴، الذي كان شيخ المسجد في هذه المنطقة⁵. وفي هذا الصدد نورد أسماء بعض العائلات الأندلسية التي فضلت الاستقرار ببوادي غمارة مثل عائلة الرزيني التي استقرت بتطوان والتحق فرع منها بإخوانهم ببني رزين، وعائلة العاقل المعروفة بقبيلة متيوة⁶، ولعلها استقرت بتطوان أيضا، حيث يذكر مؤرخ تطوان أن بعض أفرادها كان يزاول خطة العدالة بتطوان، ومنهم محمد العاقل ما بين سنتي 1550 و1555م⁷. وبوزيد، والأشقر والشراط، والدهدوه⁸، وبكور⁹. والمشير للانتباه هو أن بعض هذه العائلات ظلت محافظة على لقبها القشتالي، ربما لأنها اعتنقت الإسلام بإسبانيا، أو لأنها أسماء عائلات مسلمة، وجدت نفسها مجبرة في الفترات الحرجة من السيطرة المسيحية، على البحث عن أسماء مسيحية لإخفاء أصلها الإسلامي، محولة بذلك أسماءها العربية إلى أسماء إسبانية، احتفظت بها لاحقا خلال هجرتها نحو المنطقة. ومن هذه العائلات نجد عائلة مرسية (Murcia)¹⁰، التي استقرت بتاغسة والجبهة، ويقول عنها ابن عزوز حكيم: "أسرة التاغصي أو التاغسي، أسرة تطوانية أصلها من قرية تاغسة بفرقة بني الحاج بقبيلة بني كيرير الغمارية، ولعل اسم

1 - سعيد أعراب، "ظهائر سلطانية لحراسة الشواطئ المغربية"، مجلة دعوة الحق، العدد 268، مارس 1968، ص. 102.

2 - الملكة ايزابيل الكاثوليكية التي اصدرت مرسوما يقضي بطرد جميع المسلمين من الأندلس.

3 - عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة... الجزء الأول، م. س، ص. 105.

4 - مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر... م. س، ص. 48-49.

5 - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir a L'étude de Nord Ouest Africaine*, Tom 1, Région Limitrophes de la Frontière Algérienne, le Rif- les Dejbala, Gouvernement General de L'algerie, Cirvisse de Affaire Indigènes, 1897, P. 321.

6 - أبو العباس أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الثالث، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون اسمير، سلسلة تراث، تطوان، 2001، ص. 59.

7 - محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م. س، ص. 282.

8 - حسن الفكيكي، "المورسكيون بمنطقة مضيق جبل طارق"، مجلة الأكاديمية، العدد 15، عدد خاص بالموريسكيين في المغرب، ص 119-147.

9 - للاطلاع على بعض المعلومات حول الأندلسيين في المنطقة الجبلية يمكن الرجوع إلى: رشيد عفاقي، "الأندلسيون في بلاد جباله والهبط"، مجلة العالم العربي، دبي، العدد 9، ص. 64-82.

10 - أحمد الرهوني، عمدة الراوين... ج3، م. س، ص. 52. ومحمد داود، مختصر تاريخ تطوان، الجزء الثاني، م. س، ص. 338.

هذه الأسرة كان قبل انتقالها إلى تطوان هو مرسية، نسبة إلى مدينة مرسية الأندلسية. وقد انقرضت أسرة التاغصي بتطوان في حين لازالت بها أسرة مرسية¹.

وعائلة الصوردو (Sordo) المستقرة بقبيلة متيوة، وقد كان منها جماعة من العلماء والأساتذة. وعائلة بربطل (Pordal)²، وعائلة برهون (Barahona)، واستقرت بقبيلة بني جرير، واشتهر منهم الفقيه الغماري محمد بن عبد السلام بن العباس برهون المتوفي بتاغسة عام 1814م، وكان إماما وخطيبا في الجامع الكبير بتاغسة، وقد ترك محمد بن عبد السلام برهون مخطوطا بعنوان "زبدة التقاييد الجليلة في أخبار الهجرة الأندلسية" الذي يقع في 42 صفحة، ويضم نص اتفاقية تسليم غرناطة، وطرد الملك ابن الأحمر من الأندلس، وخروقات التسليم، وثورة البيازين والبشارت، ومعاناة المسلمين الذين بقوا في غرناطة³، ومما دون فيه: "أسرة برهون يعود أصلها إلى مدينة صوريا (Soria)، وقد انتقلوا منها إلى قرطبة ثم إلى غرناطة، ومنها هاجروا إلى المغرب إثر سقوطها، ونزلوا غصاصة، وبعد فترة انتقلوا إلى تاغسة في بلاد غمارة رفقة خمس أسر أندلسية، وهي مورسية وأولاد الرندو (Rodendo) وأولاد قردناش (Cardenaes)، وأولاد غجو (Gayya)، وأولاد اليسوري، وهذه الأسر ما زال أحفادها يعيشون إلى الآن ويحتفظون بألقاب أسرهم الأندلسية في كل من بلدة تاغسة، وقرية خنوية وأهدار وأزغار من قبيلة بني جرير"⁴.

كما ضم هذا المخطوط إحصاء للأسر الأندلسية التي استقرت بالقبائل الغمارية الساحلية الخمسة، والتي بلغت 143 أسرة⁵. كما لا ننسى أسرة البازي (Albacete) التي استقرت بقبيلة بني جرير والجهة، وانتقل بعض أفرادها إلى مدينة تطوان أواخر القرن العاشر الهجري أو بداية القرن الحادي عشر⁶، وتعاطى بعض أفرادها خطة العدالة، منهم محمد البازي، كان عدلا سنة 1612م وأحمد البازي الذي زاول نفس المهمة سنة 1636 م⁷، ثم أسرة الربوخ التي استقرت بقرية بني بحرايث فرقة أولاد الحاج بقبيلة بني جرير، وتملكوا أراضي مهمة بهذه القرية عن طريق الشراء، وأسرة العاصمي أو عاصم التي استقرت بالمنطقة أيضا وهناك فرع منهم بناحية الأخماس،

1 - محمد ابن عزوز حكيم، "مادة التاغصي"، معلمة المغرب، م 4، م.س، ص. 2441.

2 - عزوز حكيم، "مادة بربطل"، معلمة المغرب، الجزء 7، م.س، ص. 2441.

3 - محمد ابن عزوز حكيم، رسالة إلى جلالة ملك إسبانيا ضون خوان كارلوس الأول للمطالبة بتقديم الاعتذار عن الحيف الذي لحق المسلمين الذين طردوا من الأندلس، تطوان، 2002م، ص. 20.

4 - عزوز حكيم، رسالة إلى جلالة...، م.س، ص. 21.

5 - محمد ابن عزوز حكيم، أولاد النقيس الأسر الأندلسية التي حكمت تطوان حوالي قرن (من خلال وثائق إسبانية معاصرة للأحداث)، ضمن أعمال ندوة الموريسكيين في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، شفشاون 21-23 شتنبر 2000، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2001، ص. 95.

6 - عزوز حكيم، "مادة البازي"، معلمة المغرب، الجزء الثالث، م.س، ص. 961.

7 - محمد داود، تاريخ تطوان، الجزء الأول، م.س، ص. 282.

وأصلهم من غرناطة¹، إلى غير ذلك من الأسر. وقد كان للعنصر الأندلسي تأثير بالغ في شمال المغرب عامة، حيث أنهم صبغوا المنطقة بطابعهم الخاص، وامتد تأثيرهم مباشرة إلى العمران واللغة والثقافة والفن، فأدخلوا بعض الحرف والصناعات الجديدة التي لم تكن موجودة من قبل²، كما أدخل الأندلسيون تأثيرات كبيرة على اللهجات الدارجة المغربية³، بالإضافة إلى التأثيرات الاجتماعية على سكان الشمال، كالحرص على التأنيق والنظافة، وعدم الاختلاط بالغير، والميل إلى الاحتياط والبخل، والتأثير على الملابس والأزياء بإدخال نماذج جديدة كالبلغة والسلمام والبدعية والمضمة والبرنيطة وغيرها⁴. ويؤكد ابن عزوز على أن هؤلاء المهاجرين انسجموا بشكل كبير مع سكان المنطقة، ولم يتعرضوا للمضايقات كما تدعي بعض الكتابات الأجنبية " وبقي أحفادهم منتشرين إلى الآن في البلاد الساحلية، حيث كانوا يلاقون الترحيب الكبير والمعاملة الطيبة من طرف الأهالي"⁵. وقد وجد الفلاح منهم أراضي بور تولى إحياءها، ووجد الكسب منهم مجالاً لتربية الماشية، كما وجد الصانع منهم ميداناً لمزاولة حرفته. فقاموا بتحضير القرى التي استقروا فيها، ورمموا أبراج مرسى الجبهة وتاغسة، وكان لهم دور كبير في تأطير ساكنة المنطقة، للقيام بالجهاد البحري ضد السفن الأجنبية، خاصة الإسبانية منها⁶.

يتضح مما سبق، انتشار العنصر البشري الأندلسي في المنطقة المدروسة، والتشابه الكبير في المعطيات الجغرافية بين المنطقتين، والعلاقة القديمة بين سكان هذا البلد أو ذاك، إذ ما زالت بعض الأسماء في بلاد الأندلس تشهد على الوجود الغماري فيه، نذكر منها، باب غمارة في مالقة (Puerta de Gomera) والغمريس (Gomeris) في جليقة⁷ (جليقة هي كاليسيا حالياً في إسبانيا). وكل ذلك، يعتبر من العوامل التي أسهمت في استقرار هذا العنصر ببلاد غمارة التي كانت تعيش فيها جاليات بشرية أخرى، كاليهود.

4-اليهود:

تتحدث المصادر التاريخية عن وجود جالية يهودية، كانت تسكن جبال غمارة في هذه الفترة، كما كانت تسكن مناطق أخرى بجبال الريف. وكان اليهود بصفة عامة يعملون في التجارة وفي بعض

¹ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال، الجزء الأول، طبعة وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، 1998، ص. 273.

² - محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، افريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثالثة، 1998، ص. 266-267.

³ - محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم...، مرجع سابق، ص. 267.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 291-297.

⁵ - عزوز حكيم، رسالة إلى جلالة ملك إسبانيا...، م. س، ص. 27.

⁶ - عزوز حكيم، أولاد النقسيس الأسر التي حكمت تطوان، م. س، ص. 94.

⁷ - محمد قشتيلو، محنة الموريسكوس...، مرجع سابق، ص. 10.

المهن التي كادت تكون مقصورة عليهم وحدهم، مثل: السروجية (أي صناعة البردعة) والصياغة ولحم القصدير¹ ... وكانوا يعملون كذلك باعة متجولين وإسكافيين متنقلين بين جبال غمارة وأسواقها².

أ- دخول اليهود إلى منطقة غمارة:

يشكل اليهود العنصر الثاني من حيث استقرار العناصر البشرية في بلاد غمارة، حيث أشارت بعض المصادر إلى وجود أقلية يهودية في المنطقة المدروسة، كانت تزاوّل أنشطة اقتصادية معينة، وتساهم في خلق أصناف من البدع، فما هو إذن تاريخ دخولها وماهي مناطق انتشارها؟

كان دخول اليهود إلى شمال إفريقيا وبالخصوص إلى المغرب منذ العصور القديمة، فقد ذكر ابن منصور أن ذلك كان على وجه التقريب في ثمانين وخمسمائة قبل الميلاد بعد فتح الملك البابلي (Nabu Chaduezzar) أورشليم³، وحسب (Jean Goulven) في معرض حديثه عن أصل اليهود المغاربة، يذكر أنهم من فلسطين، كانت هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية في تاريخ ما قبل الميلاد، واستقروا في موريطانيا الطنجية أيام الرومان في ستة وخمسين ومائتين قبل الميلاد⁴، كما عرفت المنطقة هجرات أخرى في عام سبعين للميلاد بعد اضطهادهم من طرف الإمبراطور الروماني "تيتوس"⁵، فتنفروا في العالم وقصدت جماعة منهم بلاد المغرب⁶، كما شهد شمال المغرب هجرة يهودية أخرى تعود إلى عام خمسة عشر ومائة ميلادية، واستمر توافد اليهود إلى شمال المغرب في فترة الفتح الإسلامي وكذلك في عهد الأدارسة، عندما دعا إدريس الثاني إلى تعمير فاس⁷، ويلاحظ أنه عند وصف البكري لمدينة نكور، يذكر أن المدينة كان لها أربعة أبواب، منها باب لليهود في جنوب المدينة، مما يفسر استيطان هذه الأقلية في الساحل الغماري.

¹ - عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 16، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1982، ص.208.

² - كان هذا النوع من الإسكافيين يحمل على ظهره صندوقا يضم أحذية بالية وجلودا وما يحتاج إليه الإسكافي عادة من ثياب وخيوط وابرة وشمع ... وهذا الصندوق يسمى "الريعة" ومن هنا جاءت كلمة "ريعة اليهودي" أو "ريعة اليهود" بضم الراء وسكون الباء، وهي عبارة ما تزال مستعملة عند بعض الناس إلى يومنا هذا بمنطقة غمارة.

³ - بن منصور، مرجع سابق، ص. 259.

⁴ - Jean Goulven, "Notes sur les Origines Anciennes des Israélites au Maroc", *Hesperis*, 1921, T.2, pp. 346-326.

⁵ - بن منصور، مرجع سابق، ص. 259: يذكر أن اسم الإمبراطور كان "تيتوس" لكن هذا الأخير حكم فيما بين 79م-81م والأرجح هو (الإمبراطور فلافيوس فسبانيانوس Vespasien 69م-79م) حسب أحمد صقر، مرجع سابق، ص. 273.

⁶ - بن منصور، مرجع سابق، ص. 259.

⁷ - محمد حجي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ص. 265-266.

ويذهب (Goulven) إلى أن الكاهنة البربرية كانت يهودية لاعتقادها في الموسوية، وأنها نتيجة لذلك، لم تخضع للعرب أثناء الفتح الإسلامي، كما يعزى نسب صالح بن طريف زعيم البرغواطيين إلى يهود الأندلس، وقد تفرق أنصاره في بلاد المغرب¹، بعد صراعه مع الأدارسة. لكن هذه الأحكام تبقى مجرد افتراضات ليس لها ما يبررها، والظاهر أن (Goulven) كان مصدره في ذلك ما رواه البكري في نفس الموضوع، فقد قال الرحالة والجغرافي " أن طريفا أبا ملوكهم-برغواطة-كان يهوديا أندلسيا من بلد شنسدونة من وادي بربط ..."²، وقد تبعه في نفس الخطأ جماعة من المؤرخين أمثال ابن عذارى وابن الخطيب وصاحب الاستبصار³. لكن الصواب على ما يبدو هو أن برغواطة ليست قبائل يهودية، ذلك أن هذا الاسم قديم في المنطقة-شمال إفريقيا-كان يعرف ببكواتيس (Bacuates) أو (Baccavartes) وكان موطنها بين سلا ونهر أبي رقرق⁴. وهي ذات أصل بربري من المصامدة حسبما ورد عند ابن خلدون قائلا: "الخبر عن برغواطة من بطون المصامد ودولتهم ..."⁵

ومهما كان الأمر، فإن المتفق عليه أن استقرار اليهود في بلاد المغرب تم بعد عدة مراحل تاريخية، تخللها اختلاف مواقف الأسر الحاكمة اتجاه تلك الأقليات، مما نتج عنه انتشارها في مختلف المناطق، كما حدث في عصر الأدارسة⁶، وفي العصر المرابطي سيتم تهديم معقل اليهود بسلا لتأييدهم برغواطة⁷ ونفس الموقف سيتخذه الموحدون خاصة مع يهود شمال المغرب⁸. وبالرغم من كل ذلك، استؤنفت هجراتهم إلى المغرب، كما حدث عام 1242م حيث وفدت جماعات من جنوب إيطاليا ووفدت هجرات أخرى في عام 1350م من الأراضي المنخفضة وحدث نفس الأمر في عام 1403م من فرنسا.

وقد أجمع الباحثون على أن أهم هجرة يهودية إلى الساحل الشمالي أي إلى بلاد غمارة، كانت متزامنة مع أحداث أواخر القرن الخامس عشر 1492م⁹ بعد أن رافقوا العنصر الأندلسي السابق الذكر، إلا أنه في القرن التاسع عشر استقر اليهود أساسا في الوسط الحضري، حيث كانوا يشكلون أقلية بالمقارنة مع المسلمين في

² - البكري، مصدر سابق، ص. 134.

³ - محمود اسماعيل، مغربيات: دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، ص ص. 22-23-24.

⁴ - Raymond Roger, *Le Maroc Chez les Auteurs Anciens*, op. cit., p. 26.

⁵ - ابن خلدون، العبر...، مصدر سابق، ص. 276.

⁶ - Jean Goulven, "Notes sur les Origines Anciennes des Israélites au Maroc", *Hesperis*, op. cit., p. 334.

⁷ - Ibid., p. 335.

⁸ - Ibid., p. 335.

⁹ - Guillermo Goralbes, *Datos Sobre las Historias Judios en el Norte de Africa*, C.E.B.T, N23/24, TETUAN, 1981, P. 44

- Tomas Garcia Figuiras, *Marruecos*, Tenger, 1940, p. 192.

الشاون وتطوان، وكانت مدينة طنجة أكثر مدن الشمال استقراراً لليهود، لارتباط مصالحهم التجارية بالأجانب¹. ويلاحظ في سياق البحث عن الموجات اليهودية التي استقرت في بلاد غمارة، أن أغلب المصادر والدراسات التي تعرضت لليهود قبل التهجير وبعده، تشير إلى أن الميكورايشيم المهجرين من الأندلس والبرتغال، احتفظوا باللغة القشتالية القديمة "اللادينو"² واستعملوها أداة للتخاطب والعرفان والتعليم التقليدي، كما حملوا معهم تشريعات ذات صبغة قشتالية³.

وخلال القرن التاسع عشر انقطعت عنا أخبار يهود بلاد غمارة، حيث قدم لنا الرحالة الفرنسي شارل دوفوكو سنة 1887م صورة مغايرة لوضعهم السابق في بلاد غمارة، وذكر أن عشرات العائلات اليهودية كانت تعاني من مضايقات عامة سواء في شفشاون أو في باديتها، ولم ينج دوفوكو الذي تقمص شخصية يهودي للتسرب إلى المجتمع الجبلي المحافظ، من شتائم وسخرية الأهالي. ونستخلص من وصف دوفوكو أن مضايقات السكان لليهود كانت أهون من وطأة الحصار الذي فرضته قبيلة الأحماس في صراعها مع قبيلة غمارة، وعرقلت نشاطهم التجاري في المنطقة⁴، مما أدى إلى تراجع عددهم في البوادي مقابل تركيزهم في الحواضر، حيث نلاحظ في الوثائق الإسبانية أن 90 يهودي فقط كانوا يقطنون في بوادي منطقة الحماية الإسبانية بنسبة 0,7 سنة 1936م مقابل 12900 يهودي في حواضر المنطقة الخليفية بنسبة 99,3، وستراجع هذه الأرقام إلى 7872 يهودي سنة 1950م مقابل ارتفاع الجالية الإسبانية، بينما لم تكن نسبة اليهود تتجاوز 1,9 في المائة من مجموع ساكنة منطقة الشاون سنة 1935م (انظر المبيانين⁵)

¹ - محمد المدلاوي، "صورة المغرب في بعض المكتوبات العبرانية واليهودية"، مواسم، العدد: 4، طنجة-المغرب، خريف 1995، ص. 32.

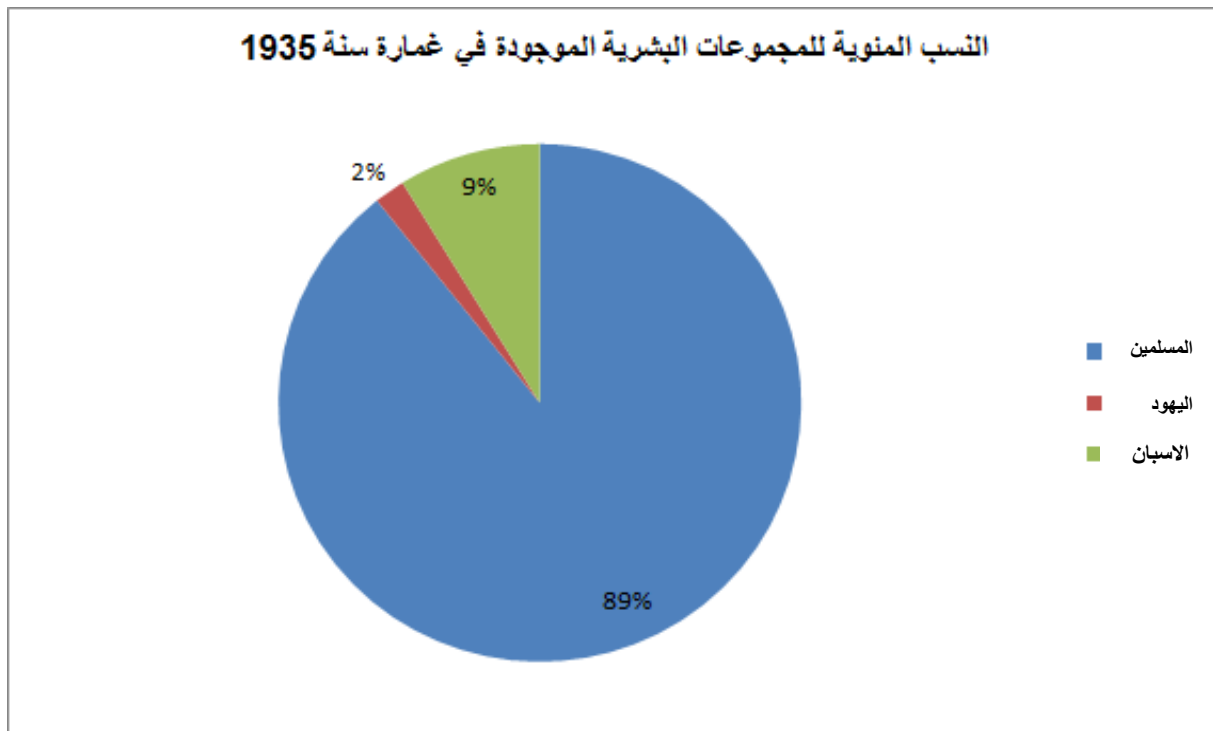
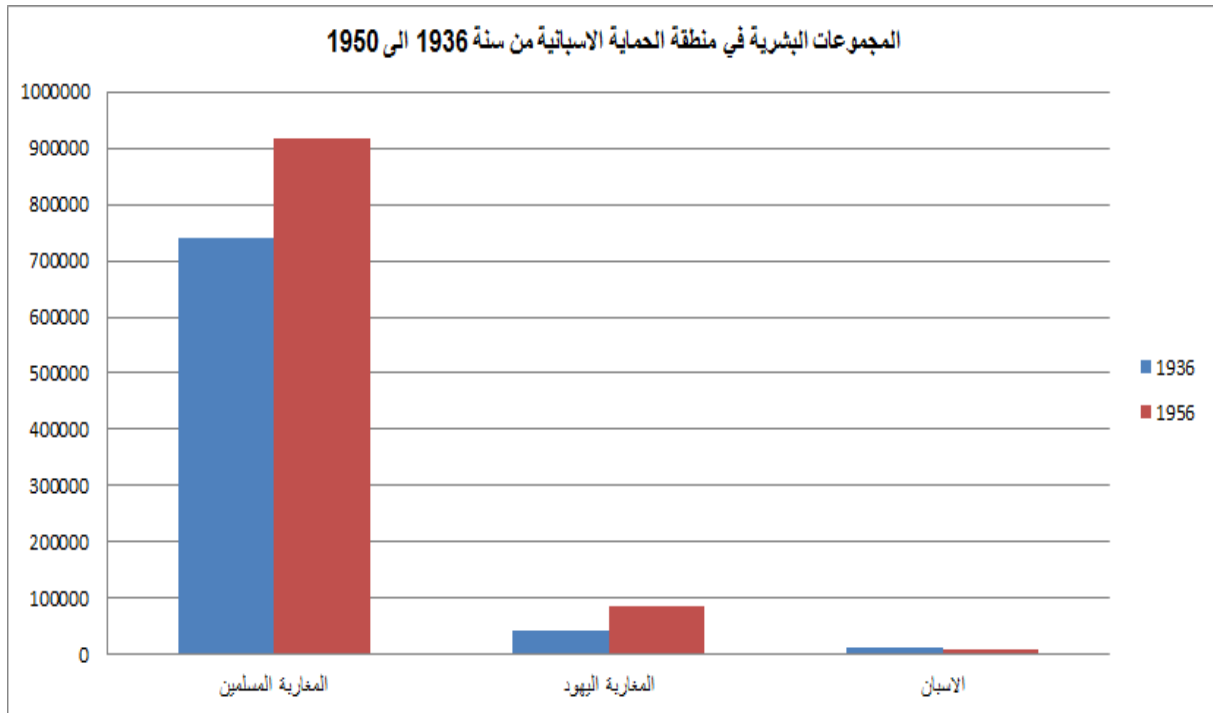
² - حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الطبعة 1، الدار البيضاء، 1987، ص 20.

³ - المرجع نفسه، ص. 20.

⁴ - محمد عمراي، الشرف والمجتمع والسلطة... الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 376.

⁵ - اعتمدنا في رسم المبيان على الإحصائيات الموجودة في:

المجموعة البشرية في منطقة الحماية الإسبانية خلال سنتي 1936 و1950



ويمكن القول، بأن استمرارية هجرات اليهود إلى بلاد المغرب كانت بهدف الاستيطان والتعايش ومزاولة مختلف المهن، أهمها مهنة التجارة، باعتبار أهمية موقع المنطقة، وهو ما جعل عددهم يتزايد (من 41660 يهودي إلى 84716 يهودي) رغم إعلان دولة إسرائيل سنة 1948م، وهو ما يؤشر على اندماجهم مع ساكنة

المنطقة المدروسة؛ بل في كل أرجاء المملكة، إلا أن إدخالهم لبعض العادات والتقاليد في وسط المجتمع الغماري، كان السبب في رد فعل نخبة من فئات ذلك المجتمع.

ب- موقف رجال المنطقة من اليهود:

قام علماء جبال غمارة بحملة ضد طغيان اليهود وتسلطهم، نذكر منهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي¹ (ت 911هـ/1505م) الذي أباح دماءهم وأموالهم²، وألف في ذلك مؤلفا في انتقاد الجاليات اليهودية عنوانه "ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار" ومما ورد فيه: "والحاصل انه لا يقرب كافرا-يهوديا-من نفسه وعياله أو يستعمله في أعماله أو يجعل بيده شيئا من ماله..."³. وكان لمحمد الهبتي نفس الموقف من اليهود عندما أصبحوا يساهمون في انتشار البدع بالمنطقة، فقد ذكر في منظومته في باب ما وقع من التغيير من معايشة الأجنب قائلا:⁴

أدهي وأدهى من جميع ما أتوا **** به الذين الإلاه قد عصوا

إباحة النساء لليهود **** يا ويلهم في ضيقة اللحود

كما حث أبو العباس احمد بن عرضون بدوره على عدم التعامل مع اليهود، واتخاذ الحذر الشديد منهم⁵، حيث إن اليهوديات في بلاد غمارة كن يقمن بتعليم الخياطة للفتيات المسلمات، وأنهن كن يدخلن لدور المسلمين من أجل هذه الغاية. ومن المعلوم أن بعض اليهوديات اشتهرت بإتقانهن صناعة الأشرطة الحريرية والأزرار (السفيفة والقيطان والعقاد)، وبما أنه خلال القرن 19م كانت الوضعية الاقتصادية والاجتماعية مزرية، فقد كان هدفهم هو الحصول على المال بمختلف الوسائل، وسلوك كل الطرق من أجل تحقيق ذلك، وإلى جانب الأنشطة المذكورة سالفا، اشتهر اليهود في بلاد غمارة بقيامهم بالمعاملات الربوية، وقرض النقود بفوائد باهظة⁶، وكان المجتمع الغماري يوفر لهم الأمن والاستقرار، إلا أن بعضهم كان يقوم بأعمال تسبب استياء الناس وتدميرهم، كمغالاتهم في المعاملات الربوية التي كانت تؤدي إلى إفقار بعض الأسر، وكان بعض المسلمين

¹ - اشتهر محمد بن عبد الكريم المغيلي بقيامه بحملة ضد طغيان اليهود وتسلطهم بسبب تقربهم من ذوي النفوذ، وألف في ذلك عدة رسائل، إلا أن آراءه في هذا الموضوع لم يوافق عليها جل العلماء ومن انتقد آراءه الشيخ أبو العباس أحمد ابن الزكري التلمساني، أنظر عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها خلال القرن 16، منشورات وزارة الأوقاف، 1982، ص. 213.

² - ابن عسكر، مصدر سابق، ص. 130-131.

³ - ورد النص في كتاب محمد حجي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص. 268.

⁴ - محمد عبد الله الهبتي، الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه من التغيير في الملة الإسلامية، مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط تحت رقم 2808، ص. 22.

⁵ - أبو العباس بن عرضون، مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخطوط بالمديرية الملكية للوثائق، الرباط تحت رقم ك 1026، ص. 173.

⁶ - عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها... م. س، ص. 212.

يقلدونهم في ذلك، نظرا لما كانت تذرره المعاملات الربوية من أرباح على حساب المضطرين والمحتاجين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقف النخبة المثقفة من رجال الفقه والعلماء لم يقتصر فقط على رجال المنطقة المدروسة، بل كان عاما في بلاد المغرب¹. ونتيجة للظروف القاسية التي كانت تعيشها بعض الأقليات اليهودية، سواء المقيمة في بلاد غمارة أو خارجها، خصوصا في فترات انعدام الأمن والاستقرار السياسي، حيث كانت تتعرض للسلب والنهب، فإن عددا من العوائل اليهودية قد أسلمت واندمجت مع المجتمع المغربي²، مما أفرز بعض القضايا الشائكة، كقضية استحقاق يهودية حضانة أبنائها من زوجها المسلم، حيث نجد في "فتاوى تتحدى الإهمال" النازلة التالية: "وفي أوائل محرم الحرام عام 1321 هـ أسلم يهودي عن زوجته اليهودية وله معها ثلاثة أولاد"³.

نستنتج مما سبق، اندماج الجالية اليهودية في المجتمع الغماري خاصة والمغربي عامة اندماجا كبيرا، إلى درجة أنهم يدخلون دور المسلمين من غير مشورة، وأن كبار القوم كانوا يجعلون منهم بطانة لهم، ويظهرون لهم نساءهم، وهذا ما يدلنا على أن الجالية اليهودية في فترة القرن التاسع عشر، كانت في وضعية اندماج في المجتمع المغربي المسلم وكانت تزاوّل سائر أنشطتها الدينية والاقتصادية بكامل الحرية والاطمئنان، وإن كانت هذه الصورة ستغير في النصف الثاني من القرن 20م مع ظهور المشروع القومي اليهودي وكذا التصييق الذي تعرض له اليهود من طرف الاستعمار الإسباني والفرنسي.

5- عناصر أخرى:

أ- الشرفاء:

انحصر هذا العنصر في بداية الأمر على الشرفاء من الأصل الإدريسي، وبدأ استقراره في بلاد غمارة أثناء حكم محمد بن إدريس الثاني، إذ قسم المغرب بين إخوته، وذلك برأي جدته كنزة أم أبيه، فولى أخاه القاسم بمدينة طنجة وسبتة وقلعة حجر النسر ومدينة تطوان وبلاد غمارة⁴، وتزايد عدد الأدارسة في بلاد غمارة بعد انهيار دولتهم في فاس ومحاولة موسى بن أبي العافية القضاء عليهم، إذ أجلى جميع الأدارسة عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم، وسلكوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مقهورين مغلوبين، فانحصروا بها، وهي حصن منيع

¹ - الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 6، ص ص. 79-81.

² - رجاء الحبوسي، شفشاون وباديتها 1561-1694، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2002، ص. 65.

³ - محمد المبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال...، مرجع سابق، ص. 60.

⁴ - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، الجزء الأول، طبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص ص. 80-81.

بناه محمد بن براهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس الثاني¹، واعتبر ميشو بليز بأن لجوء الأدارسة إلى المنطقة أضفى على بلاد جباله عامة طابعا خاصا، وهذا الانتشار جعل محمد عمراني يحصر الشرفاء في جباله على ذوي الأصل الإدريسي²، حيث شكل العمرانيون أكثر الفروع الإدريسية عددا، ينحدر معظمها من حين؛ إذ كان العمرانيون يسكنون في بلد بني بوشداد، وكل ما نعرفه عن بني بوشداد أنه اسم لإحدى الفرق الغمارية، حيث انتشر الشرف العمراني في باقي بلاد غماره، وتعتبر قرية تلمبوط مركزا للشرف العمراني، ويوجد ضريح وحرم سيدي حين بن يحيى (انظر الوثيقة رقم 9 من الملحق). يتضح من العديد من المصادر أن بلاد غماره كانت المصدر للشرف العمراني بالنسبة لجميع قبائل جباله (بني عروس، بني مسارة، بني يسف، بني كرفط...) كما أن تعدد الشرفاء بالمنطقة الغمارية وانتشارهم الواسع بها أفرز وضعية مضطربة داخل فئات المجتمع الغماري، نتيجة ادعاء ساكنتها الانتماء إلى النسب الشريف، من أجل إعفائها من المساهمة في أعباء الدولة، مما أدى إلى تضرر فئات أخرى، أجبرت على تحمل الوظائف المخزنية. وخير مثال على مكانة هذه الفئات، ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتوقير واحترام أولاد ابن مرزوق 12 ذي الحجة 1291 هـ (1875/01/20 م)، إذ يقول: "... إننا جددنا بعون الله وإفضاله لماسكيه المرابطين الأخيار السادة المرازقة الأبرار إخوان الولي الأشهر العارف بالله سيدي محمد ابن مرزوق نفع الله به حكم ما بأيديهم ... وأقررنا على ما تضمنناه من توقيرهم واحترامهم وتبجيلهم وتكريمهم اعتناء بهم ومراعاة لصالح سلفهم تجديدا وإقرارا تامين مطلقين عامين، حسب الواقف عليهما من عمالنا ..."³.

نستنتج إذن أن ظهائر التوقير والاحترام والإقطاعات هي التي حددت وضع فئة الشرفاء في الهرم الاجتماعي، مما سيؤدي إلى ظهور اللصوصية باسم الشرف، بالإضافة إلى انتشار أعمال التزوير في رسوم الانتماء للبيت النبوي الشريف. وتشير الكثير من المؤلفات إلى أن النالي، وهي أسرة مشهورة بقبائل غماره، تنسب لبني نال. ومنهم الفقيه عبد الرحمان بن أحمد النالي المتوفي بفاس عام 951 هـ، والذي نجد ترجمته في كثير من كتب التراجم، ويقول عنه أبو عبد الله الكتاني: "الشيخ الأستاذ الولي الصالح، الزاهد الورع أبو سيدي عبد الرحمان بن أحمد الغماري النالي. منسوب لبني نال من غماره، وهم ينتسبون للشرف، ويرفعون نسبهم إلى الإمام إدريس، من طريق سيدي يعلى، دفين فاس، بن إسحاق دفين مسمودة، بن أحمد دفين كرواوة، بن محمد بن إدريس"⁴. ويعزز النسابة ابن رحمون انتماء بني نال إلى الشرفاء الأدارسة، إذ يقول: "بنو نال وبنو خالد ... من

¹ - سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجليلي ...، مرجع سابق، ص. 117.

² - محمد عمراني، الشرف والسلطة والمجتمع في الشمال الغربي...، مرجع سابق، ص 186.

³ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غماره...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 180.

⁴ - أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبير من العلماء والصلحاء بفاس، الجزء الثاني، تحقيق محمد بن حمزة بن علي الكتاني، منشورات دار الثقافة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 2008، ص. 174.

آل البيت¹، ويزيد قائلا: "وهم من ذرية أحمد بن الإمام بن الإمام إدريس"²، وبذلك يتضح جليا أن بني نال هم فرع من الشرفاء الأدارسة، الذين تفرعوا بقبائل غمارة، خاصة في بني رزين وبني خالد وبني منصور وبني جرير وبني سميح خلال القرن الرابع أو الخامس الهجري على أبعد تقدير.

ولهذا يتضح مما سبق أن عنصر الشرفاء يعتبر مكونا أساسيا ضمن شرائح المجتمع الغماري، والذي يرجع معظمه إلى نهاية الدولة الإدريسية.

ب- العبيد:

شكل العبيد أحد العناصر البشرية المكونة لمجتمع جبالة عامة، وارتبط وجوده بعاملين أساسيين، هما الحروب بين القبائل واللصوصية التي تحول الأسير إلى رقيق، ثم تجارة الرقيق. وكان أغلب الذكور ينتمون إلى الجنس الأسود. أما أغلبية الإماء فيرجع أصلهن إلى الجنس الأبيض، حيث كان التجار يجلبونهن من الشرق، وكان عدد العبيد لا يستقر بفعل عملية الجلب والعتق، حيث نجد موليراس وهو يشير إلى عملية بيع الزوج بأحد أسواق غمارة، يقول: "إن الشيء المثير بالنسبة لزائر سوق الأحد هو بكل تأكيد المكان المخصص لبيع الزوج والغلمان والعائلات، وكان الذكور أكثر عددا ضمن الزوج، وأحيانا ما يرى المتسوقون زنجيتين أو ثلاثة، ويقوم الدلال الذي هو عبارة عن وكيل تجاري بالإشادة بـ "البضاعة" قائلا: إنه زنجي مكتمل وشهم ومجد وقوي وذكي، لا يسعى إلى الهرب من منزل أسياده ولا يتعرض للبورى³، وهو وديع بطبعه ووفي"⁴. هذه الصورة التي نقلها لنا موليراس تقدم لمحة عن الحياة العامة التي كان يعيشها المهمشون (زوج، عائلات، غلمان) في بلاد غمارة، خلال الفترة المدروسة، والتي كانت كلها معاناة واضطهادا وصراعا طبقيًا، خصوصا في نهاية القرن 19م، الذي تميز باختلال التوازن داخل المجتمع المغربي عامة.

ج- الأجانب:

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت الجالية الإسبانية محصورة على الثغور المحتلة أو الحواضر الكبرى في الشمال الغربي للمغرب، وكان من قبيل المغامرة تسرب الأجانب إلى البوادي المغربية عامة وبلاد غمارة خاصة، وما يؤكد ذلك، تنكر الأجانب في شخص يهودي (شارل دو فوكو) أو مهاجر عربي (دمنكو دي باديا) الذي تنكر باسم "علي باي" أو إرسال مخبرين جزائريين كمحمد بن الطيب "الدرويش" من طرف

¹ - التهامي ابن رحمون، شذور الذهب ...، م. س، ص. 83.

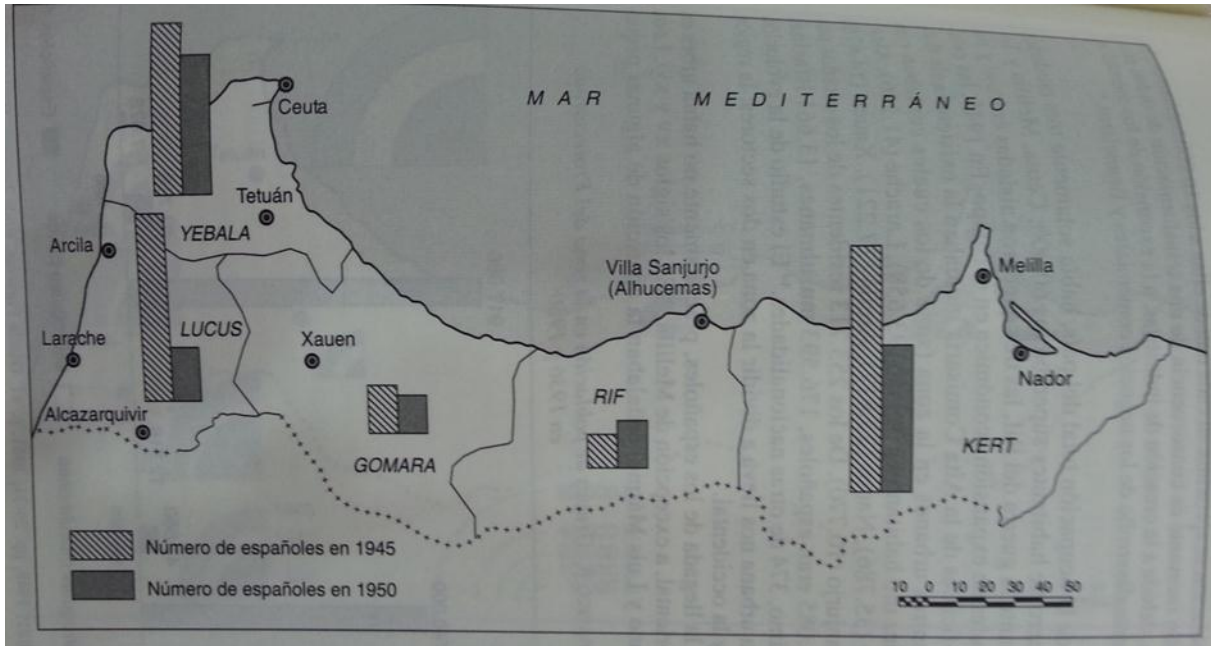
² - ابن رحمون، م. س، ص. 111.

³ - يزعم العرب بأن الزوج يتعرضون خلال فترات محددة من السنة لنوبات حادة من الجنون تدعى البورى، أنظر موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، ص. 61.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 61.

أوجست مولييراس¹، ولهذا يمكننا القول أن بلاد غمارة كانت متمنعة على الأجنب طيلة القرن 19م وبداية القرن 20م، غير أن هذه الوضعية ستشهد تغيرا خلال فترة الحماية، حيث حج إليها المعمرون الإسبان بكثافة، للشروع في استغلال المنطقة، وإن كان تواجههم بمنطقة غمارة كان أقل، مقارنة بباقي مناطق الحماية الإسبانية، مما يؤكد لنا ممانعة قبائل غمارة للتواجد الأجنبي عامة. (انظر الخريطة)

2 توزيع الساكنة الإسبانية في أرياف شمال المغرب (1945-1950)²



6- إشكالية الأصل في قبائل غمارة

يبقى العنصر الأمازيغي الذي استوطن القبائل الغمارية غامضا أمام ندرة المعلومات الصريحة حوله، واعتمادا على إشارة أوردها الشيخ التهامي ابن رحمون حول "بنان" الذي ينتمي لأسرة رزين، وربما جدهم الأكبر، حيث يميز ابن رحمون بين الاسمين: بنان ونال في إطار حديثه عن الأسر التي ادعت النسب الشريف بغمارة، وقيامهم بتزوير أصلهم ونسبهم، حيث نجده يقول: "ثم وجدنا بيد أولاد بكار بن رزين بنان القاطنين بمدشر أزغار ثلاثة رسوم، يرتفع نسبهم في إحداهن لمولاي عبد السلام بن مشيش، وذلك باطل، فلا علم عليه ولا التفات إليه، لأن دعواهم بذلك وبغيره حادثة ورواية ساقطة"³، ويضيف قائلا: "ثم وجدنا أيضا بيد أهل تامكيط وأهل

¹ - الدرويش هو المخبر الأساسي لمولييراس واسمه الحقيقي محمد بن الطيب موطنه الأصلي هو القبائل الجزائرية، وقد تجول في شمال المغرب مدة تفوق العشرين سنة، نقل على إثرها إلى مؤلف "المغرب المجهول" كل ماسجله في ذاكرته من معلومات حول القبائل الريفية والجبليّة.

² - Joan Nogué-José Luis Villanova, *España En Marruecos (1912-1956) Discursos Geográficos e Intervención Territorial*, Prologó de Bernabé López García, Editorial MILENIO, Primera Edición, Noviembre de 1999, p. 130.

³ - التهامي ابن رحمون، شذور الذهب في خير نسب...، م. س، ص. 108.

اغيل وأهل أورمان القاطنين بتيفركيوان¹ رسماً كاذباً، يرتفع فيه نسبهم لسعيد بن رزين بنان المحكوم عليه لعدم الشرف². وهذا النص يضع أكثر من سؤال حول هوية بنان وأصله، فإن كان ابن رحمون يحسم أن نال من سلالة الأدارسة، فمن هو بنان؟ فهل هو الجد الأكبر لبني رزين؟ وهل أصله أمازيغي أو من العرب الذين دخلوا المغرب خلال القرون اله الأولى. ونظراً لعدم وجود معلومات كافية حوله، ولكون ابن رحمون هو الوحيد الذي ذكره، يصعب الحسم فيه. لكن، من دون شك، فإن بنان هو اسم رجل كان ذا سلطة معينة وشأن عال بالمنطقة، مما جعل أحفاده يحتفظون بأمجاده في ذاكرتهم، وبعد وقت طويل، أخذوا يضعون رسومات لأجدادهم، تنتهي بسعيد بن رزين بنان، معتقدين أنه من الشرفاء. وقد تفرعت ذرية بنان في قبيلة بني رزين، وفي قبيلة بني خالد وبني منصور وبني سميح وبني جرير كذلك³. كما ذكر بن رحمون. ولا يستبعد أن أولاد بنان كانوا يستوطنون هذه القبائل خلال الفتح الإسلامي، وقبل ظهور بني نال، أي قبل تفرع الأدارسة في غمارة⁴. كما لا يستبعد أن يكون أفراد هذه الأسرة العريقة "قد دخلوا الأندلس صحبة طارق بن زياد وكلفوا بحراسة الحدود في منطقة أراكون، واستقروا بمكان يدعى سانت ماريا الشرق"⁵، ونحن نعلم أن أغلب جيش طارق كان من غمارة، وقد كان مكوناً من 12 ألف من الأمازيغ و300 من العرب⁶. مما يؤكد أن الأمازيغ كانوا يسكنون هذه الربوع كلها، فلا تكاد تخلو قبيلة غمارية واحدة من مداشر ذات أسماء بربرية، وعلى امتداد رقعة غمارة كلها، وهي أسماء سوسية الهوية غالباً، وقس على ذلك في كل القبائل الجبلية. فما الذي حدث حتى اختفى هذا العنصر من المنطقة؟ الظاهر أن هناك عاملين اثنين:

- الأول: هو أن جزءاً كبيراً منهم قد تعرب وأسلم وذاب في وسط العنصر العربي.
- الثاني: هو هجرة العديد منهم نحو الجنوب (سوس والصحراء) في أوقات وظروف يصعب تحديدهما. غير أن هذا لا يمنع من وضع بعض الفرضيات لهذا الرحيل الجماعي، نذكر منها:

1- مزاحمة العنصر العربي، خصوصاً مع مجيء العنصر الإدريسي والأندلسي لاحقاً، وهؤلاء يفوقون العنصر الأمازيغي حضارة وتمدناً، علاوة على مكائنتهم الدينية والعلمية، مما قلص من دور العنصر الأمازيغي

¹ - هذه القرى تنتمي لقبيلة بني رزين، أنظر فرق قبيلة بني رزين في الفصل المتعلق بجغرافية القبيلة.

² - ابن رحمون، م. س، ص. 109.

³ - ابن رحمون، شذور الذهب... م. س، ص. 110.

⁴ - عبد الباري الطيار، ثوار وأنبياء من غمارة... م. س، ص. 64.

⁵ - عبد القادر الرزيني، وثائق عائلة الرزيني حول تطوان، أعمال ندوة تطوان قبل الحماية (1860-1912)، أيام 12-13-14 نونبر 1992، مطبعة الهداية، تطوان 1994، ص. 10.

⁶ - الطيار، م. س، ص. 11.

ونفوذ، ووجد نفسه مضطرا إما إلى الانصهار والذوبان، وبالتالي فقدان دوره المؤثر في الحياة الاجتماعية والسياسية، وإما إلى الرحيل.

2- الحروب التي شنها الإسبان والبرتغال على المنطقة المدروسة وتضييق الخناق على الساكنة عجل برحيل العنصر الأمازيغي الذي كان يعتمد على الرعي.

3- الانقلاب المناخي الخطير الذي عاشته المنطقة ولمدد طويلة ومتتابة (رياح شرقية عاتية وضباب كثيف)، كان السبب، كما يرى جوهر زونز، في مغادرة العنصر الأمازيغي للمنطقة، على أمل أن يعودوا لاحقا، والدليل دفنهم لكنوزهم¹.

ومهما يكن، فإنه لا بد من تعميق البحث في موضوع رحيل العنصر الأمازيغي عن منطقة غمارة لاستجلاء الحقيقة، والوقوف على الأسباب الحقيقية التي دفعتهم إلى الرحيل. يمكن القول إذن، بأن العوامل الطبيعية والتاريخية والبشرية أثرت على التركيبة البشرية في غمارة، تضم عناصر مختلفة ومختلطة، تجمع بين العنصر السكاني ذي النسب البربري، والعنصر العربي المختلط، ثم الجاليات الأندلسية واليهودية.

وبناء على ما سبق ذكره وتحليله، يمكن القول بأن منطقة غمارة تميزت بسمة التداخل في البنية السكانية، فاختلاف القبائل وتداخل أصلها يفسر صعوبة إيجاد قبائل غمارية مصمودية صرفة. كما نخلص إلى أن ساكنة الشمال الغربي مركبة من عناصر مختلفة، أهمها العنصر الغماري الأصلي، ونتج عن التمازج السكاني عبر التاريخ تكوين العنصر الجبلي، الذي حمل الموروث الثقافي الأصلي، والسكان المهاجرين الذين كان لهم تأثير عميق في غمارة. ونتيجة هذا الاختلاط البشري بين العنصر الغماري الأصلي والعناصر العربية الوافدة تشكلت ساكنة هيمن على هويتها الانتماء للبيئة الجبلية.

المبحث الثالث: العنصر الديمغرافي

لا يمكن تجاهل التداخل بين الخصائص الديمغرافية والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لساكنة غمارة، ولدراسة الخصائص الديمغرافية ركزنا على التطور السكاني والكثافات السكانية، بالإضافة إلى التوزيع الجغرافي لساكنة بلاد غمارة.

¹ - Jawahar Vignet Zunz, "Treize Questions Sur Une Identité", in *Groupe Pluridisciplinaire D'études sur les Jbala. Histoire et Société...*, op. cit., pp.133-199.

- Jawahar Vignet Zunz, "Du Poids des Lettrés dans la Piété Populaire. Le Cas des Jbala et des Swasa", in *Religion y Patrimonio Cultural en Marruecos: Una Aproximación Antropológica e Histórica*, dir. E. Gómez Pellón y A. González Vázquez, Sevilla, pp. 125-145.

1- تطور عدد السكان:

إن المادة الوثائقية المتوفرة لا تسعف الباحث في الوصول إلى كتابة تاريخ ديمغرافي دقيق لمغرب ما قبل الاستعمار. والسبب الحقيقي يعود إلى الغياب شبه التام للدراسات التاريخية حول الوضعية الديمغرافية في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أما إحصاء قبيلة بعينها (غمارة مثلا) فيعتبر مسألة في غاية الصعوبة، نتيجة قلة المصادر وسكوت بعضها عن ذلك، كما هو الشأن بالنسبة لكتب الرحالة والجغرافيين، التي لم ترد فيها سوى معلومات عامة عن أصل السكان ومواطنهم وإمكانياتهم¹. كما أن هذه الرحلات غير الممتدة كثيرا في المجال، والمقتصرة على مناطق دون أخرى، فوتت على أصحابها الاطلاع على الأعداد الحقيقية في مناطق أخرى. فعوضوا ذلك بتعميم ما رأوه في مواقع زياراتهم على مجموع البوادي المغربية.

وعموما فقد عرف المغرب طيلة القرن التاسع عشر نظاما ديمغرافيا تحكمت فيه المحددات التقليدية من أوبئة ومجاعات، مع ظاهرة ارتفاع الولادات، مما جعله يحافظ على شبه توازن واستقرار، بالرغم من تلك الأوبئة، فعلى سبيل المثال، لم يشهد المغرب طوال المجاعة التي ضربته ما بين 1878 و1883م وفيات جماعية كبرى، ليشهد خلال الثلاثين سنة التي سبقت الحماية، أول نمو ديمغرافي ملموس². فبعض المصادر الإسبانية والفرنسية تتوفر على عدد كبير من الوثائق المتعلقة بفترة الدراسة، لكن هدفها الكولونيالي ينقص من أهميتها العلمية. والظاهر أن أسباب ذلك تعود إلى اختلاف طبيعة التدخل الأجنبي، فإذا كان الإسبان قد تمكنوا من احتلال العرائش والقصر الكبير والتوسع من خلالهما، فإن الأمر يختلف بالنسبة لغمارة التي كانت آخر القلاع التي تم احتلالها، نظرا لوعورة تضاريسها وشدّة مقاومتها، كما يجب التنبيه أيضا، إلى أن الاهتمام بالعنصر الديمغرافي من حيث إحصاء عدد السكان أمر لم يكن مطبقا خلال القرن التاسع عشر، بل كان في وقت متأخر من القرن 19م. وتعتبر أول محاولة في هذا المجال هي التي قام بها "أوجست مولييراس" عندما رفع عدد سكان المغرب إلى ما يناهز 24 مليون نسمة³، بالرغم من المبالغة التي تتسم بها. حيث كانت تقديرات أخرى لا تتجاوز 15 مليون نسمة⁴، وبالنسبة لسكان جباله قدر مولييراس عدد سكانها 721000 نسمة، مع العلم أن هذا الرقم قريب إلى عدد سكان منطقة الشمال بأسرها وهو 795202 نسمة خلال النصف الأول من القرن 20م، حيث

¹ - كثيرا ما لجأ الباحثون في الديمغرافية إلى قوائم إحصاء كوانين القبائل وأرباعها وأخماسها أو إلى قوائم المجندين لتكوين فكرة عن عدد السكان وتطورهم، غير أن هذه الأدوات ذات فعالية محدودة فيما يخص المجال المغربي، بالنظر إلى ما تتسم به أشكال القرابة من تنوع وعمليات التجيش من انتقائية وظرفية.

² - Nicolas Michel, *Une Économie de Subsistance, le Maroc Précolonial*, Éd, Institut Français, D'archéologie, le Caire, 1977, p. 123.

أخذ عنه، الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915، إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2010، ص. 23.

³ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 271.

⁴ - سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي... مرجع سابق، ص. 127.

يشمل الإحصاء حسب تقسيم الحماية الإسبانية، كلا من جباله وغمارة والريف واللكوس والكرت. ورغم هذه الملاحظات، فإننا سنحاول تقديم فكرة بخصوص عدد السكان، استنادا إلى ما ورد من إشارات في بعض المصادر الإسبانية والفرنسية، مستعملين في ذلك الطريقة التي استعملها دوكاستري (Decastries)¹، وتقتصر أن عدد السكان القادرين على حمل السلاح زائد ربه من ذوي الأعدار من الشيوخ والعجزة والأطفال، وضعف المجموع في ثلاث مرات يعطينا في النهاية المجموع، وبناء على ذلك، كان عدد سكان غمارة خلال القرن التاسع عشر حوالي 366 ألف نسمة. يقول موليراس: "يمكن لقبيلة غمارة أن تعبئ ما بين 30 و35 ألف مقاتل، مما يعطينا رقما تقريبا لعدد السكان يناهز 235 ألف نسمة"². (انظر الجدول). ومن بين كل القبائل الجبلية فإن الأخماس هي الوحيدة التي تتجاوز غمارة من حيث عدد السكان والمقاتلين، لكن هذه الأخيرة تحتل المرتبة الأولى من حيث شساعة ترابها، ولا تضاهيها أية قبيلة أخرى بهذا الخصوص.

عدد سكان وجنود قبيلة غمارة خلال القرن 19م³

قبائل غمارة	عدد سكان كل قبيلة غمارية	عدد جنود كل قبيلة غمارية
قبيلة بني زيات	42 ألف نسمة	6 آلاف جندي
قبيلة بني سلمان	21 ألف نسمة	3 ألف جندي
قبيلة بني منصور	14 ألف نسمة	200 جندي
قبيلة بني بوزرع	15 ألف نسمة	2500 جندي
قبيلة بني كيرير	14 ألف نسمة	2000 جندي
قبيلة بني سميح	21 ألف نسمة	3000 جندي
قبيلة بني رزين	10,5 ألف نسمة	1500 جندي
قبيلة بني زجل	21 ألف نسمة	3000 جندي
قبيلة بني خالد	63 ألف نسمة	9000 جندي
قاع أسراس	17 ألف نسمة	2500 جندي

إن المتأمل في هذه الأرقام، خصوصا تلك التي قدمت عند نهاية القرن التاسع عشر، يكشف أن هناك أرقاما مبالغا فيها بشكل كبير، خصوصا تلك المتعلقة بموليراس، وهذا يدل على أن تقديرات الأوربيين تعميمية،

¹ - أحمد التوفيق، مرجع سابق، ص. 186.

² - أوجست موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 271.

³ - أوجست موليراس، المغرب المجهول: اكتشاف جباله، مصدر سابق، بتصرف، ص. 263-270.

تطلق من جهات أهلة بالسكان. ولهذا فخلال النصف الأول من القرن العشرين، تغيرت الإحصاءات، لنجد الرقم المشار إليه في القرن 19م يتراجع إلى 131691 نسمة، بينما عدد المنازل وصل إلى 27487 منزل، حسب الأرشيف الإسباني خلال فترة الحماية (انظر الجدول)، ثم لدينا مشروع التقسيم الجديد للجماعات القروية التابعة لبلاد غمارة يوم 1 نونبر 1957 الذي يعطينا رقما قريبا من الإحصاءات الإسبانية، وهو 117464 نسمة، بعد حذف عدد الأجانب الذين كانوا مستقرين في المنطقة المدروسة، مما يجعلنا نشكك في المقترح الذي قدمه أوجيست موليراس خلال القرن 19م، لأنه اعتمد في إحصاءاته على تخمينات مخبره محمد بن الطيب، الذي خانته الأمانة العلمية في أقواله وأخباره.

وعموما فإننا نستنتج أن كل قبيلة في بلاد غمارة لها تاريخها الديمغرافي الخاص، يرتبط بموقعها وإمكاناتها المحلية، وهو ما يؤكد تباين وتيرة النمو السكاني.

ومن خلال المعطيات المتوفرة لدينا، يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

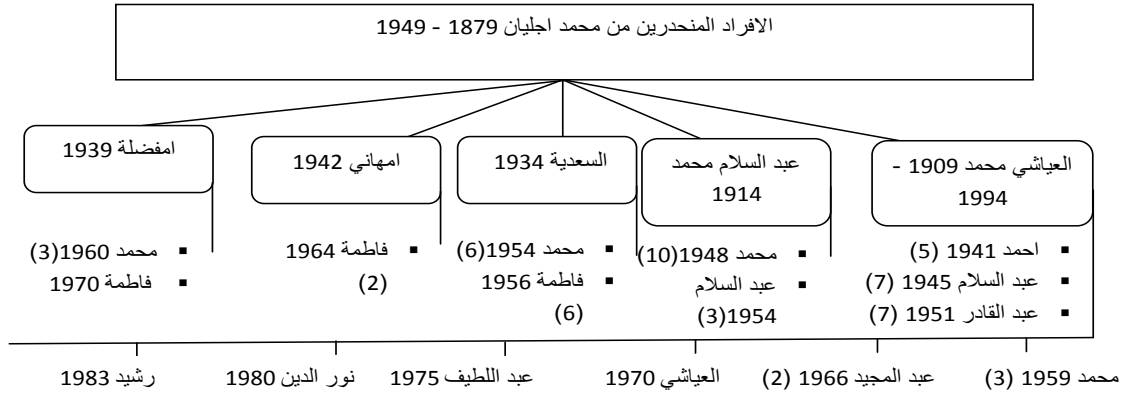
- إن وتيرة تطور السكان تتباين حسب القرى والقبيلة، وحسب السنوات. فعلى مستوى القرى، نلاحظ أن وتيرة النمو تعرف تقلبا، ويفسر هذا بكثافة الهجرة في النصف الثاني من القرن 19م وبداية القرن 20م، نظرا للجماعات والأوبئة التي ضربت المنطقة خلال الفترة المدروسة. أما على مستوى العنصر الديمغرافي، فقد توزعت ساكنة منطقة غمارة خلال الفترة المدروسة على الشكل التالي:
- المسلمون: 115289 نسمة - الأوربيون: 929 نسمة - الإسرائيليون: 186 نسمة. وإجمالا فالمنطقة تندرج ضمن المجالات الضعيفة النمو، باعتبار أن وتيرة التطور الديمغرافي بالريف الشرقي كانت ما بين 2,8% و3% سنويا، بينما منطقة غمارة لم تكن تتجاوز 1,3% سنويا¹.

نسجل على ضوء ما سبق، أنه رغم التناقضات المحلية والأوبئة الجارفة، فالساكنة كانت في تزايد مستمر، خصوصا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نتيجة مجموعة العوامل. ويمكن الوقوف على ذلك من خلال خطاطي الأنساب (1-2)²، التي يتضح من خلالها التطور الذي حصل في الأسرة الغمارية خلال الفترة المدروسة، بالزيادة في عدد أفراد الأسر. فالخطاطة الأولى للعايشي محمد أجليان (1909-1994) من قرية وسلاف بقبيلة بني زجل الغمارية، حيث انحدر منها 33 فردا. أما الخطاطة الثانية لمحمد أحمد الهاشمي (1904) من قرية ترنس انحدر منها 72 فردا. وهذا التطور الذي حصل في الأسر الغمارية عامة، واكمه تطور في عدد المنازل، وهو ما تؤكد إحصائيات الأرشيف الإسباني (انظر الوثيقة رقم 11 من الملحق).

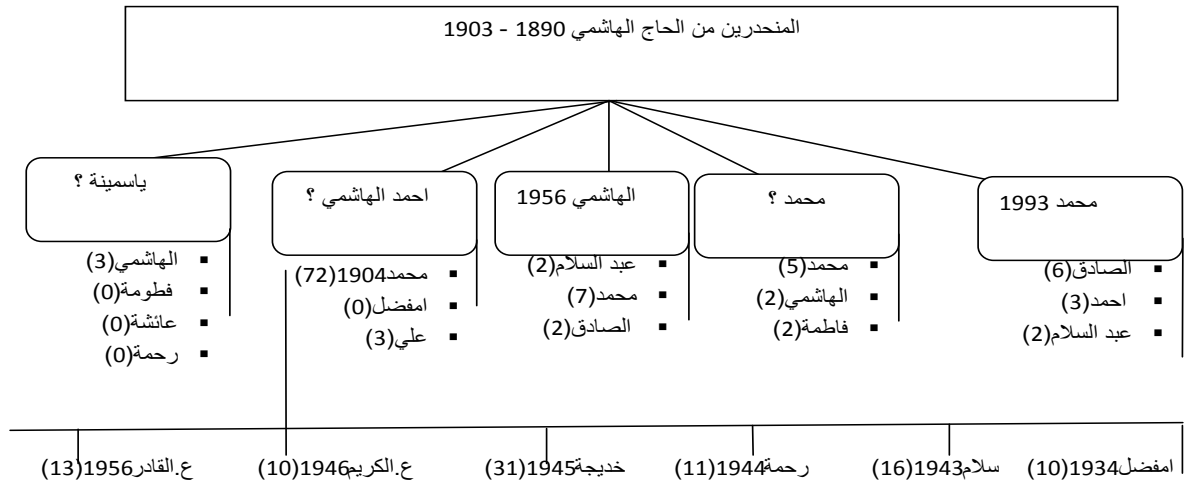
¹ - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة ...، مرجع سابق، ص. 89.

² - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة ...، م. س، ص. 90.

خطاطة رقم 1



خطاطة رقم 2



1940 : سنة الوفاة - ؟ : سنة الوفاة مجهولة - (12) : عدد الافراد المنحدرين

والملاحظ أن التزايد السكاني السريع في بلاد غمارة ترتب عنه ازدياد الطلب على الأرض وغزو أراضي جديدة، إما باجتثاث الغابات والأحراش، أو بالنزول إلى قعور الأودية والزحف نحو المراعي الجماعية والمغارس، خاصة أشجار الزيتون. فالضغط الديمغرافي يتحول في المغرب المتوسطي إلى قوة متحركة في عدم استقرار الوسط الطبيعي¹.

¹ - Zaim (F), *Le Maroc et Son Domaine Méditerranéen ...*, op. cit, p. 232.

2-توزيع السكان:

إذا نظرنا إلى عدد السكان إحدى القبائل، وقارناه بسكان بعض المدن الساحلية، نستطيع القول بأن ظاهرة الاكتظاظ كانت موجودة في المناطق الداخلية، فعلى سبيل المثال كان عدد سكان قبيلة بني خالد الغمارية 63 ألف نسمة، بينما القبائل المطلة على البحر فعدد سكانها لا يتجاوز 14 ألف نسمة كقبيلة بني كريب¹، بينما مدينة تطوان لم يكن تعداد ساكنتها يتجاوز 25 ألف نسمة في نهاية القرن التاسع عشر، الشيء الذي يؤكد ما ذهبنا إليه. ويمكن حصر عوامل اختلاف توزيع السكان في تهديدات الخطر الاستعماري للساحل الغماري، طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، الشيء الذي نتج عنه فراغ إحدى المناطق على حساب منطقة أخرى، خصوصا بعد إعلان الحماية وبداية الحملات العسكرية. كما لا ننسى العوامل الطبيعية وانعكاساتها السلبية على سكان بلاد غمارة، بعد تعرضهم لأخطار الجفاف والأوبئة التي كانت تقضي على آلاف من البشر، ونذكر هنا على سبيل المثال، هجرة الجوع سنة 1868م.

وخلاصة القول، أن منطقة غمارة كانت قليلة السكان، مقارنة مع منطقة الريف، خلال نفس الفترة (حوالي 300 ألف نسمة)، حيث وصلت نسبة الكثافة السكانية في بلاد غمارة 23,17 نسمة في الكيلومتر المربع، بينما تجاوزت نسبة الكثافة السكانية في منطقة الريف: 31 نسمة في الكيلومتر المربع. (انظر الجدول).

وكان الاكتظاظ على ما يبدو، في المناطق الداخلية، نتيجة تحركات السكان إليها باستمرار، مما أثر على علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية، كما سنرى ذلك مفصلا في موضعه.

الكثافة السكانية في بلاد غمارة مقارنة مع مناطق الحماية الإسبانية وفقا لتعداد 1927²

مناطق الحماية الإسبانية	الكثافة السكانية ن/كلم	عدد السكان	مساحة الهكتارات
منطقة الريف	9163 هكتار	283946 نسمة	31,09
منطقة غمارة	4330 هكتار	98781 نسمة	23,17
منطقة جباله	3088 هكتار	77987 نسمة	30,88
منطقة اللكوس	3032 هكتار	90533 نسمة	33,20

¹ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 268.

² - Joan Nogué-José Luis Villanova, *España En Marruecos...*, op. cit., p. 133.

3- لهجة سكان غمارة: محاولة للتأصيل

3-1- أصول اللهجة الجبلية السائدة بشمال المغرب

يقسم اللسانيون المغاربة الحقل اللهجي المغربي إلى قسمين كبيرين: اللهجات العربية واللهجات البربرية. فاللهجات ذات الأصل العربي هي كما يلي: اللهجات العروبية؛ اللهجات الجبلية؛ اللهجات البدوية؛ اللهجات الحسانية¹.

أما اللهجات البربرية فهي: لهجات تاريفيت؛ لهجات تامزيغت؛ لهجات تاشلحيت.

اللهجة العروبية: وهي اللهجة الأكثر تداولاً في المغرب، على اعتبار العدد الكبير من مستعمليها والناطقين بها، بدءاً من قبائل الخلووط بالشمال، مروراً بقبائل شراكة، بني حسن وبني مالك بالغرب، وصولاً إلى قبائل تامسنا والشاوية ودكالة وعبدة والشياظمة وحاحا. وهي إجمالاً القبائل التي استوطنت سهل سايس والغرب والشريط الساحلي للأطلسي حتى تخوم سوس².

اللهجة البدوية: وهي إجمالاً لهجات قبائل الشرق المغربي والمناطق المتاخمة للحدود الجزائرية ولهجات قبائل الرحل بالشرق والجنوب الشرقي كبني كيل بالنجود العليا، ولاد الحاج بمرتفعات وهضاب ملوية، ولاد يحيى المتاخمة لقبائل آيت عطا وآيت وأويزغت البربريتين³.

اللهجة الحسانية: وهي إجمالاً لهجات الصحراء المغربية بمختلف تلوينها القبلية وعلى الخصوص قبائل التاكنة والركيبات.

اللهجات الجبلية: وهي لهجات القبائل المكونة لجهة جباله وغمارة في أقصى الشمال والشمال الغربي للمغرب. وقد اعتبر بعض الباحثين أن اللهجة الجبلية بكامل تفرعاتها وتلوينها هي لهجة عربية سوماتية نغزاوية⁴. أما عن الظواهر الصوتية التي تميزها (الإمالة والتسهيل على الخصوص) فقد انتقلت إليها من القبائل العربية التي سكنت

¹ - Laghaout (M), *L'espace Dialectal Marocain, sa Structure Actuelle et son Évolution Récente, Dialectologie et Sciences Humaines*, Publication de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Rabat, 1995, pp. 9-41.

² - Ibid.

³ - Laghaout (M), *L'espace Dialectal Marocain...*, op. cit., p. 20.

⁴ - عبد اللطيف الوهابي، فصل في اللسانيات التاريخية، الأصول العربية الفصيحة للهجات قبائل جباله بالشمال الغربي في ضوء علمي التأثيل والدلالة-بني عروس نموذجاً-سلسلة جباله حضارة وعلم وجهاد (1)، منشورات سليكي إخوان، طنجة، 2014، ص. 53.

الشام قبل الفتح الإسلامي وبعده، حيث حافظت رغم الاختلاط بأجناس وأعراق مختلفة، على خصائصها البدوية الأصيلة التي جلبتها معها من قلب شبه الجزيرة العربية¹.

فالعديد من القبائل العربية التي دخلت المغرب في بداية الفتح، كانت، كما أشار البعض، ممن سكنوا الشام²، وهو ما يؤيد الاختلاف الكبير بين معجم جباله وباقي معاجم اللهجات العروبية في باقي المناطق، أي بين العنصر الجبلي الشامي بالشمال والعنصر الهلالي المعقلي بالشرق والوسط والجنوب، خصوصا إذا علمنا أن العنصر الأندلسي، بعد طرده من الأندلس، استقر بكثرة في الشمال (مدنه وقراه)، مما جعل تأثير الشاميين يترسخ نطقا ومعجما في اللهجة الجبلية³، غير أنه لا يمكن الجزم بأنها لهجة واحدة، فهناك لهجات جبلية، وعلى سبيل المثال، نورد الصيغة المختلفة التي يُطرح بها السؤال "ماذا تقول" على امتداد التراب الجبلي حتى تتضح الصورة:

- شلادقول؟: قبيلة بني عروس ومعظم قبائل جباله الغربية.
- شبادقول؟: قبيلة بني أحمد وما جاورها.
- اشدقول وشقادقول؟: قبائل غمارة بما فيها مدينة شفشاون.
- شلاتقول؟: في قبيلة وادراس وبعض أنجرة.
- شددقول؟: في بعض نواحي تطوان (قبائل الحوز).
- شأتقول؟: في قبائل الفحص وناحية طنجة.
- شكتقول؟: في بعض المدن كطنجة وأصيلا والعرائش والقصر الكبير ووزان.

هذا التنوع في صيغة طرح السؤال، يوضح بالملاموس أن الاختلافات اللهجية بين القبائل الجبلية أمر واقع، وهو تنوع راجع إلى التنوع في الأصل أو الجوار. لكن علينا ألا نغفل التنوع في القبائل العربية نفسها، فالعنصر العربي هو بدوره كان جد متنوع، وبه هو الآخر، جيوب لغوية متعددة، بقيت خصوصياتها اللغوية حية معها، رغم مئات السنين. غير أن الفروق التي تميز اللهجة الجبلية تعدت اللغة ووسيلة التواصل لتشمل العديد من مناحي الحياة، بدءا من اللباس إلى طريقة البناء وتدبير السكن، وطرق استغلال الأراضي والإنتاج الفلاحي والحيوانات الأليفة والمتوحشة، وانتهاء ببعض العادات والتقاليد. كما أن التأثير الريفي شرقا والغربي غربا، يبدو واضحا وجليا أيضا.

¹ - عبد اللطيف الوهابي، فصل في اللسانيات التاريخية ...، م. س، ص. 54.

² - الوهابي، مرجع سابق، ص. 53.

³ - المرجع نفسه، ص. 53.

3-2- اللهجة الغمارية:

يطرح أكثر من سؤال حول التحول العميق الذي مس انقلاب لسان غمارة من لهجته الأمازيغية إلى العربية، واندماج أهل الأودية والجبال الغمارية بشكل لافت للأنظار. وهذا الموضوع لا يزال بكرا ومغلقا في وجه الدراسات، حيث لم تنل اللغة في بلاد جباله عامة حصتها من الدراسات التي اهتمت بالشمال المغربي، وكل ما وجدناه، لا يتعدى نصوصا مقتضبة في كتاب أو مخطوط، وهذا لا يكفي لإنجاز تحليل علمي دقيق، فغزارة المادة مطلوبة لإنجاز دراسة تتوخى التحري والمقارنة. ونحن ندرك صعوبة الخوض في هذا الموضوع، وسنكتفي بعرض ما يفيد في البحث.

لاحظ "جوليان" في معرض حديثه عن اللهجات البربرية أنها غزتها لغات دخيلة كالعربية قائلا: "إن الوحدة البشرية البربرية ظهرت قديما في ميدان اللغة وباستعمال لهجات متقاربة تكونت مجموعاتها المسماة اصطلاحا "الليبية"، غير أن هذه المجموعة التي هددتها لغات مدنيات أخرى تصدعت، فالعربية غزت سكانها كالمدين والسهول والجبال..."¹

ومثل هذا الاستنتاج ينطبق على لهجة غمارة، إذ أضحي سكانها يتحدثون عربية رديئة حسبما أكد على ذلك "الوزان" حيث يقول: "فجل غمارة إلا أقلهم يستعملون العربية، لكنها عربية رديئة..."²، أما زونز، فركز في تميزه بين قبائل جباله على الأساس اللغوي، حيث ميز بين اللغة العربية الجبلية (Arabe Montagnarde)، والعربية البدوية (Arabe Bedouin)³. كما يرى المختار الهراس بأن لغة قبيلة غمارة هي نتاج لمسلسل التجدد والتكيف مع ما يستجد من الأحوال والظروف⁴، ونعتقد أن النصيب الأوفر في التعريب ونشر الثقافة الإسلامية راجع إلى مجموعة من المؤثرات والعوامل التي ساعدت على ذلك. ويتصدر الشرفاء الأدارسة تلك المؤثرات في مواصلة حركة تعريب وترسيخ العقيدة الإسلامية في غمارة، خلال فترات حكمهم، وبعد انغمارهم في الجبال واستقرارهم في المنطقة. كما ساهمت العناصر العربية المهاجرة بغمارة بعد ذلك في تعريب لسانها. ولا يغيب عنا دور العناصر الأندلسية في ترسيخ النمط الثقافي العربي الإسلامي في جبال غمارة، وما حمله إليها المهاجرون العائدون من الأندلس من أبناء المنطقة ومن بينهم الشرفاء الأدارسة⁵، كما يمكن إيعاز هذا التحول في النطق الغماري إلى ما كان لموقع غمارة من دور في الربط والاتصال كما أشرنا سابقا، نضيف إلى ذلك اهتمام بعض

¹ - جوليان، مرجع سابق، ص. 66.

² - الوزان، مصدر سابق، ص. 33-34.

³ - Vignet zunz (J), *Treize Questions sur une Identité—in Colloque Jbala, Société et Histoire, Etudes sur le Maroc du Nord-Ouest, Casablanca-Paris, Wallada-Éditions du CNRS, 1991, p. 160*

⁴ - المختار الهراس، سيروية تكون الهياكل القبلية في جباله، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، العدد 12، سنة 1986، ص. 47.

⁵ - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية...، مرجع سابق، ص. 128.

الولاية بمسألة التعريب وتعليم القرآن¹، وما قام به الخوارج من دور كذلك في نفس الميدان²، فضلا عن تأثير العنصر الأندلسي على سكان المنطقة.

وكان من نتائج ذلك أن وجدت مؤسسات دينية تعليمية مبكرا، كمسجد موسى بن نصير في قبيلة بني حسان، ومسجد طارق بن زياد في الشرافات، وكدليل آخر على تعريب السكان ظهور "النبي" حاميم بقبيلة غمارة، والذي كان قد ابتدع قرآنا وتعاليم باللغة العربية، حسبما يذكره البكري في كتابه: "حلني من الذنوب يا من أخرج موسى من البحر آمنت بحاميم..."³، كما حظيت بلاد غمارة بشهرة ثقافية هامة طيلة القرنين 16م و17م، إلى درجة أن شبه كثير من الدارسين جبال غمارة وكأنها منبع للتصوف. وكان لهذه الظاهرة بدورها تأثير كبير على حركة التأليف في المنطقة كألفية الهبطي وغيرها⁴. وكل متصفح لكتب التراجم سيقدر حتما بظهور حركة علمية في مستواها الأعلى والأدنى، مراكزها المساجد والزوايا المشتغلة بتدريس العلوم الشرعية والتصوف والعربية، وبفضل تلك الحركة برزت بيوتات علمية شهيرة في المنطقة كأولاد بن عرضون بقبيلة بني زجل وأولاد ابن صالح ببني رزين والزياتيين ببني زيات وأولاد النالي ببني خالد، وغيرها من البيوتات. وليس من المبالغة إذا قيل إن المراكز العلمية في بادية غمارة أصبحت تضاهي الحواضر في نشاطها العلمي⁵.

وهكذا يتضح مما تقدم، كيف أسهمت كل تلك العوامل في تعريب أغلبية السكان الذين أصبحوا يتحدثون عربية "دارجة"، وهي التي تعرف إلى يومنا هذا باللهجة "الجبالية" (انظر الوثيقة رقم 12 من الملحق).

ويظهر أن درجة تأثير تعريب العنصر الغماري الأصلي كان أقوى في الناحية الغربية، مما كان عليه في الناحية الشرقية. فإذا أخذنا على سبيل المثال قبيلة بني زجل التي خضعت للتأثيرات الإدريسية، والتي تعد مركزا للشرف العمراني⁶، نلاحظ الجذور البربرية الأصلية في أسماء الأعلام الجغرافية كأجرمان، أزغار، وسلاف، أمدارا، تفروين...⁷، ونلاحظ نفس الشيء في بني زيات؛ حيث تكثر أسماء المداشر التي يمتزج فيها اللسان العربي باللسان البربري. إن وجود أسماء لبعض الأماكن كتدارت وتافراوت وتامروت وإغران المحرفة عن إغرام، وغيرها كثير، مما يؤكد انتساب قبائل غمارة لمصمودة، كما أن معجم العربية الغمارية ملئ بالكلمات الأمازيغية

¹ - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب... م. س، ص. 297.

² - محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1976، ص. 96.

³ - البكري، مصدر سابق، ص. 100.

⁴ - محمد حجي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص. 217.

⁵ - محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، الجزء الثاني، فضالة، 1978، ص. 557.

⁶ - محمد عمري، الشرف والمجتمع... مرجع سابق، ص. 130.

⁷ - تحتاج دراسة مسالة طبونيميا غمارة مجهودات خاصة، فهي مظهر عام وشامل في جميع جهات غمارة تتجلى في أسماء الأنهار والوديان والجبال والنباتات والحيوانات وغيرها.

(ازباو، انيغ، ازليف، ابداءو، اقزون ...)، ثم إن الأسطورة الشائعة في المنطقة بأن غمارة كانت مأهولة بأهل سوس، قبل أن يحتلها السكان الحاليون ليس كلها اختراعاً¹، ففيها جوانب يجب اعتبارها. وعلى كل حال، تبقى الشلحة البزراتية هي كل ما بقي لنا من اللسان الغماري، والتي ما تزال بعض المداشر في بني بوزرة وبني سلمان وبني منصور، تتحدث بها إلى الآن.

نستنتج إذن أن التحول الذي طال اللسان الغماري كان له دور كبير في انقلاب الحياة العامة في المنطقة المدروسة، نظراً لاقتناعنا بأن الحياة الاقتصادية تنعكس على مظاهر الثقافة في كل مجتمع، وتؤثر مباشرة أو بطريقة غير مباشرة في تكوين الرصيد اللغوي لأفراده، وقد تسنى لنا الوقوف على ذلك من خلال الإنتاج اللغوي لساكنة المنطقة المدروسة، وكذلك من خلال المفاهيم التي تعبر عن شؤون الحياة العامة في هذه المنطقة من شمال المغرب، كالحياة الاجتماعية المتعلقة بالفرد وحاجاته والأحداث التاريخية والحياة الاقتصادية، ومجال الطبيعة وما إلى ذلك.

المبحث الرابع: طبيعة السكن

1- نسبة التمدن:

تذهب بعض الدراسات إلى أن ساكنة غمارة من أقدم السكان في الشمال الغربي وأكثرها تمدناً، لأهمية موقعها بين إفريقيا وأوروبا بشكل عام، وبين المغرب والأندلس بشكل خاص، حيث ربط أهالي المنطقة علاقات مستمرة بالمدن الساحلية بالشمال المغربي، وكذلك بمختلف الحضارات المتوسطة. وعليه، فمن الطبيعي أن تتأسس مجموعة من المراكز بهذه القبائل، منذ عصر مبكر، لتنظيم هذه العلاقات وضبط طبيعتها. ويمكن أن نعرضها لبعض مدنها التاريخية فيما يلي:

تيجيساس² (السطيحة): مدينة تعود نشأتها إلى العصر الوسيط³، كانت عاصمة لأحد أبناء الأدارسة عمر، بينما نجد في أحد المصادر⁴ أنها كانت مهجورة في غالب الأحيان، نتيجة تعسف أحد قادة بني مرين في جمع الضرائب⁵. وإذا كان أحد الدارسين قد تجاهل وجودها خلال القرن 16م، فإن الأمر خلاف ذلك، فقد وردت إشارة في أحد المصادر المغربية عن موقف سكانها ضد التدخل الأجنبي في عام 1009 هـ/1600م. بينما يذهب بعض الدارسين إلى أن هذه المدينة أسسها المغاربة قبل مجيء الرومان واستعمارهم لشمال المغرب، حيث

¹ - الطيار، ثوار وأنبياء من غمارة...، م. س، ص. 24.

² - تيجيساس ويسمىها الإدريسي تيقساس، مصدر سابق، ص. 110.

³ - Taradell (M), *Marruecos Púnico* ..., op. cit., p. 77.

⁴ - البيدق، مصدر سابق، ص. 54.

⁵ - هو القائد فارح بن المهدي من موالي أبي العباس المريني، أنظر عبد العزيز بن عبد الله، مرجع سابق، ص. 157.

يضيف نفس الدارس أنها خربت في نهاية القرن التاسع الهجري¹، وأصبحت هذه المدينة خلال الفترة المدروسة عبارة عن مركز قروي لقبيلة بني بوزرا الغمارية.

ترغة: مدينة صغيرة كانت تسمى "برأس ترغة"، وبعد عمل الحفريات، اكتشف طراديل (Taradell) أنها من مدن العصر الوسيط أيضا²، وكانت تحتوي على مائة وخمسين كانون، أي ما يعادل خمسين وسبعمئة ساكن، وإن كان البعض قد أرجع تاريخ المدينة إلى ما قبل الفترة الوسيطة، إذ كانت مركزا رومانيا صغيرا، عمره القوط³، بينما ذكر الوزان أنها كانت فارغة من السكان، نتيجة تهديدات الهجوم الإيبيري⁴، أما خلال الفترة المدروسة، فقد تحولت إلى مركز قروي لقبيلة بني زيات الغمارية، حيث حاول الجيش الإسباني أن يخلي المدينة من سكانها سنة 1923م، خلال حرب التحرير الريفية، لكنه فشل في ذلك.

تغسة: بلدة تقع بشمال قبيلة بني جرير، ويرجع تاريخها إلى عصور قديمة، وقد تحدثت عنها مجموعة من الكتابات الأجنبية، فيشير روجير (R.Roger) إلى أنها مدينة صغيرة قديمة، كانت تسمى طائنا لونغا (Taena Longa)⁵، بينما نعتها البعض بمنشأة ساحلية اختصت بصيد الأسماك وتمليحها، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر تاغسة، بالقرب من مصبه⁶. وكانت تشمل على الأقل خمسمائة كانون ذات مساكن غير لائقة، وسكانها كانوا يتعاطون حرفة صيد الأسماك، حسب وصف حسن الوزان⁷، وفي نفس الفترة مر بتاغسة الجغرافي الإسباني لويس مارمول كاربخال، ويرى البعض أن جولته كانت بعد جولة الوزان، والفارق الزمني بينهما لا يتجاوز 35 سنة، حيث إنه تتبع مساره وأخذ عنه، خاصة منهجية الكتابة⁸؛ إلا أن مارمول أضاف معلومات قيمة حول تاغسة، التي قال عنها: "مدينة صغيرة تضم نحو ستمائة نسمة، أسسها الأفارقة القدامى، بعيدة عن الشاطئ بنصف فرسخ على ضفة نهر تاغسة، والأرض المحيطة بالمدينة وعرة وكثيرة الصخور، بحيث أن السكان يحملون بحرا كل ما يحتاجون إليه"⁹.

¹ - أحمد المكناسي، خريطة المغرب الأركيولوجية للمواقع الأثرية لما قبل التاريخ إلى ظهور الإسلام، تطوان، 1961، ص. 12

² - Taradell (M), *Marruecos Púnico ...*, op, cit, p. 77.

³ - أحمد المكناسي، خريطة المغرب الأركيولوجية...، مرجع سابق، ص. 12.

⁴ - الوزان، مصدر سابق، ص. 259.

⁵ - Raymond Roger, *Le Maroc Chez les Auteurs Anciens...*, op, cit, p. 76.

⁶ - Noe Villaverdz Vega, *Tingitana en la Antigüedad Tardía (Siglos III-VII), Autoctonía y Romanidad en el Extremo Occidente Mediterráneo*, Editeur; Real Academia de la Historia 1 Juin 2001, Collection, Biblioteca Archaeologica Hispana, P. 245.

⁷ - الوزان، مصدر سابق، ص. 255.

⁸ - أنظر مقدمة ترجمة كتاب إفريقيقا، لمارمول كاربخال لويس، الجزء الأول.

⁹ - مارمول كرخال، إفريقيقا، الجزء الأول، م. س، ص. 244.

ويمكن أن نستشف مما ذكره ليون ومارمول حول تاغسة، أن هذه البلدة القديمة كانت تصنف ضمن المدن العامرة خلال القرن 16م، وأن عدد سكانها كان في تطور مستمر. وقد لاحظت الباحثة الإسبانية (M.R.Gomez) من خلال إشارات لويس وليون، أنه إذا كان عدد منازل هذه البلدة الصغيرة هو 500 منزل، وضرينا بنحو خمسة أشخاص في كل مسكن، فإن تعداد سكانها سيصل ما بين 2500 و3000 نسمة في ذلك العصر¹. وتضيف الباحثة الإسبانية بأن "ساكنة تاغسة كانت تنقسم إلى تجمعين، التجمع الأول على بعد ميل من البحر، والآخر على ضفتي النهر بالقرب من البحر كذلك"².

أمثار: وهو سهل منبسط، يقع شمال قبيلة بني جرير، يشقه وادي أمثار السابق الذكر، الذي ينبع من جبل تيزران، من قبيلة بني خالد الغمارية، ولذلك كانت هذه القبيلة الأخيرة تستعمله للوصول إلى الساحل³، حيث يوجد عند مصبه مرسى طبيعي صغير، ويحمل اسمه. ويشير الأستاذ سعيد أعراب إلى أن هذا المرسى ليس له ذكر في كتب التاريخ⁴، وهذا لا يعني عدم أهميته، ونرجح أن يكون عدم معرفة مرسى أمثار عند المؤرخين والرحالة الذين مروا بالمنطقة راجع إلى تعرضه للتخريب والهدم من طرف القوى الأجنبية، شأنه في ذلك شأن العديد من المراسي الساحلية الأخرى، كما سيأتي بيانه. والدليل على ذلك هو آثار الأوتل الموجودة به، حيث يقول المؤرخ المذكور، وهو ابن المنطقة: "وهناك بأمثار مكان يعرف بتفرت، به آثار وجامع قديم يتبرك به"⁵. وقد عرف مرسى أمثار خلال القرن 18م استقرارا نسبيا، وأحدث به برج للحراسة، ومجموعة من المساكن على شكل عزائب، كان يسكنها جماعتان، إحداهما من قبيلة بني بوزرة والأخرى من قبيلة بني جرير⁶. وكانت به حركة تجارية لا بأس بها⁷. كما تشير وثائق الأرشيف الفرنسي إلى دور هذا الميناء في تهريب الأسلحة خلال الفترة الممتدة ما بين 1913 و1927م⁸.

¹ - Rodríguez Gómez, María Dolores, *La Influencia de León el Africano (s. XV–XVI) en la Obra de Luis de Mármol (s. XVI): Descripción de Los Núcleos de Población Costeros del Rif*, Editeur, Universidad de Granada, 2002, P. 388.

² - Rodríguez Gómez, María Dolores, *La Influencia ...*, op. cit., p388.

³ - Ricardo Donoso–Cortés, *Estudio Geográfico Político–Militar Sobre las Zonas Españolas del Norte ya sur de Marruecos*, Libreria Gutenberg de José Ruiz, Madrid, 1913, p. 121.

⁴ - سعيد أعراب، *ظهائر سلطانية لحراسة الشواطئ المغربية...*، م. س، ص. 100.

⁵ - سعيد أعراب، مرجع سابق، ص. 100.

⁶ - أعراب، م. س، ص. 100.

⁷ - Bernard Morice, *Les Tribis et la Zon Nord et Nord–Ouste du Maroc, Notic sur les Port de la Cot Méditerranéenne*, Par M. Jouffray, Publication, Comité de l’Afrique Française, Paris 1926, pp. 52–53.

⁸ - Archives Nantes, Ministère des Affaires Étrangères, MAROC, D. A. I., A 28, Extrait du Rapport n 2, du 24 Janvier 1919 de Tetouan.

الجبهة: مدينة قديمة، وجدت بها آثار رومانية¹، حيث قال عنها الوزان: تبعد عن بادس بمسافة أربعة وعشرين ميلا²، لكنها غير أهلة بالسكان، بسبب استمرار المداخيل التي يدفعونها للحكام الحراس³، لكن يجب التمييز بين بلدة الجبهة الحالية الواقعة في تراب قبيلة متيو، والقرية القديمة التي كانت تقع على ضفة نهر أورينكا عند مصبه، وفي الموضع المعروف اليوم بقرية "زمانة" التابعة لقبيلة بني سميح، حيث توجد مرسى أورينكا⁴. وقد أشارت إلى ذلك مجموعة من الكتابات الأجنبية، يقول أوجيست موليراس "إن المكان المعروف اليوم بالجبهة كان خاليا، باستثناء ضريح سيدي يحيى الورداني وزاوية سيدنا نوح"⁵، ويشير إلى أن مرسى الجبهة كانت تقع عند مصب وادي أورينكا⁶. وقد أشار أيضا إلى هذا المرسى (N.Lacroix) و(P.H.de la Martinière) وقالوا إنه عند مصب وادي أورينكا كان يوجد سوق مزدحم يسمى "اتلاثة د اورينكا"⁷، أي سوق أسبوعي يقام كل يوم ثلاثاء. ويمكن الإشارة إلى أن الجبهة سميت بمجموعة من الأسماء عبر فترات تاريخية مختلفة، فهي النقطة المعروفة عند القدامى ببيسكادورس (Piscadar)⁸. وكانت تسمى خلال فترة الاحتلال الروماني (Corbucla)⁹، التي "تقع على بعد 24 ميلا غرب (Parietina) أي بادس في موضع جوين الصيادين، وهو يوافق مرسى أورينكا"¹⁰. وأوردها البعض (Corbucla)، وهي كلمة لاتينية تعني غرف أو شقق نوم¹¹. ونجدها خلال القرن 16م تسمى باسمها الحالي "الجبهة". أما في عهد الحماية الإسبانية فأطلق عليها ميناء كاباس (Puerto Capaz)، حيث أصبحت مدينة صغيرة أثرها ظاهر على سفح الرأس الذي يسمى برأس الجبهة، وكانت تتوفر على خدمات الهاتف والتلغراف والمراكز الصحية والتعليمية، بالإضافة إلى ميناء أسسه الكولونيل الإسباني فرناندو أوزفالدو كاباص سنة 1928، حيث كانت المدينة الثانية بعد شفشاون من حيث الأهمية الاستراتيجية، خصوصا وأنها تقع في المجال الترابي لقبيلة متيو المحاذية للقبائل الريفية.

¹ - Emilio Gozalbes, *Atlas Arqueologico del Rif*, Cuadernos de la Biblioteca Espanola de Tetuan, N 21/22, Tetuan, 1980, p. 40.

² - الميل كان يساوي ألف ذراع عند العرب، وألف خطوة عند الرومان، وحسب بعض الجغرافيين فانهم يقدرونها في 1340م.

³ - محمد العربي الفاسي، مصدر سابق، ص. 165.

⁴ - Bernard Morice, *Les Tribis et la Zon Nord et Nord-Ouste du Maroc ...*, op. cit., pp. 52-53.

⁵ - لا نعلم شيئا عن زاوية بنت سيدنا نوح وهل فعلا كانت موجودة، لكن هناك جبل ضخم وشديد الارتفاع، يشرف على البحر مباشرة بين وادي اورينكا والجبهة الحالية يطلق عليه اسم "جبل سيدنا نوح".

⁶ - أوجيست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، م. س، ص. 206.

⁷ - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière, et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir a L'étude de Nord Ouest Africaine...*, op. cit., pp. 320-321.

⁸ - ستازبون، المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين القرن السادس ق.م، القرن السابع م.م، تعريب المصطفى مولاي رشيد، الطبعة الأولى، 1993، ص. 52.

⁹ - Rodríguez Gómez, Maria Dolores, *La Influencia de León el Africano ...*, op.cit, p. 362.

¹⁰ - Noe Villaverdz Vega, *Tingitana en la Antigüedad Tardía...*, op.cit, p. 245.

¹¹ - Noe Villaverdz Vega, *Tingitana...*, op.cit, p. 245.

واد لو: هي مدينة صغيرة، تقع شمال شرق قبيلة غمارة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، سميت المدينة باسم النهر الذي يحمل نفس الاسم الذي يأخذ مصدره من جبال الريف، بالقرب من شفشاون، حيث قام مركز واد لو منذ فترة الحماية الإسبانية على شمال المغرب، إذ جعلت منه إسبانيا موقعا عسكريا لمراقبة قبائل غمارة وبني سعيد وبني حسان، ولذلك لم تخلف هناك سوى رموز سلطة الاستعمار، من السجن الفلاحي والثكنة العسكرية مع بعض المباني القليلة.

باديس: لا ندري بالضبط متى كان تأسيس المدينة، فقد قال عنها أحد الدارسين أنها بنيت على أنقاض المدينة الرومانية القديمة بارينتينا (Parientina)، ولم يتأكد الوزان ممن أسسها، هل الأفارقة أم القوط¹. إلا أن إحدى الدراسات الأركيولوجية لطراديل Taradell كشفت أن نشأتها تعود إلى العصر الوسيط²، ويلاحظ أن المصادر العربية لا تتحدث عنها إلا في تلك المرحلة، فوصفها البكري بأنها مرسى صغير³ ووصفها الإدريسي بأنها مدينة متحضرة ذات أسواق وصناعات⁴. أما الوزان فالظاهر أنه يخلط بين حجرة بادس والمدينة في قوله: "إن مدينة بادس مبنية على ساحل البحر المتوسط، يسميها الإسبان فيليس دي لاكوميرا (Vellez de la Gomera)، إلا أن هذا المصطلح الأخير هو حديث عهد بالمنطقة، ارتبط وجوده بأحداث احتلال الإسبان لتلك الجزر 1508م⁵. ومنذ ذلك التاريخ أطلقوا عليها حجرة باديس (Penon Vellez de la Gomera) وكانت مدينة باديس تضم 600 كانون⁶ وبداخلها سوق وجامع متوسط، لكنها كانت تفتقر إلى الماء الصالح للشرب، تتوفر على دور لبناء السفن الشراعية، مما جعل القرصنة والصيد والثروة الخشبية من أهم دعائم اقتصاد سكانها، فضلا عن أهمية مينائها التجاري الذي كانت تعتمد عليه الدولة المغربية آنذاك⁷، لكن المدينة اختفت من خريطة الساحل الغماري بعد عام 1564م نتيجة ضربات المدفعية الإسبانية التي جعلتها أثرا بعد عين.

شفشاون (حاضرة قبائل غمارة): تعتبر من أحدث مدن المنطقة، حسبما يذكر صاحب مرآة المحاسن قائلا: "... كان ابتداء اختطاطها في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة، وهي عدوة وادي شفشاون في حدود ستة وأربعين وثمانمائة للهجرة، إحدى وسبعين وأربعمائة وألف للميلاد، على يد الفقيه الصالح أبي محمد الحسن المعروف

¹ - الوزان، مصدر سابق، ص. 253.

² - Taradell (M), *Marruecos Púnico ...*, op. cit., p. 76.

³ - البكري، مصدر سابق، ص. 89.

⁴ - الإدريسي، مصدر سابق، ص. 111.

⁵ - Tomas Garcia Figuiras, *Marruecos...*, op. cit., p. 58.

⁶ - الكانون معناه أسرة تضم من خمسة إلى ستة افراد، أنظر أحمد توفيق، مرجع سابق، ص. 205.

⁷ - الوزان، مصدر سابق، ص. 254.

بابن جمعة¹. أما مارمول، فينسبها إلى جبل شفشاون، ويضيف أن سكانها برايرة غماريون، اشتهرت بينهم أسرة شريفة تعرف ببني راشد، وكان لها دور بارز في تاريخ المنطقة، خاصة في ميدان الجهاد². وبالنسبة لعمرائها، فقد كانت-ولا زالت-تضم مرافق، أهمها: "وطا حمام" وهي ساحة المدينة القديمة، وحومة السوق وحي الخرازين³، والمدينة محاطة بسور به عدة أبواب، فضلا عن وجود القصبية، وكان بها مكتب يدير منه قادة بنو راشد شؤون الحرب وتنظيم الجيش، وهو ما يعرف الآن بمدرسة النوازل، بينما خلال القرن 19م كانت المدينة حسب المذكرات التي كتبها شارل دو فوكو(انظر الوثيقة رقم 13 من الملحق) محط تنازع قبيلتي الأحماس وغمارة، وكذلك خلال العشرينات من القرن العشرين، حيث كانت مركز صراع بين كل من محمد بن عبد الكريم الخطابي وأحمد الريسوني، بالإضافة إلى الاستعمار الإسباني، الذي جعل من المدينة عاصمة لمنطقة غمارة سنة 1920م.

ويستفاد مما سبق أن أغلبية مدن المنطقة المدروسة، كان يغلب عليها الطابع العسكري "حصون" بسبب استمرارية الخطر الإسباني الذي كان يهدد المنطقة طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وخاصة المدن الساحلية كالجهة وتغسة وترغة وغيرها.

2- السكن في القبيلة:

ينتظم مجتمع غمارة في مجموعة من قبائل (أي اللف⁴)، تمثل وحدات اجتماعية واقتصادية متميزة، وتنقسم كل قبيلة إلى فروع، تحمل أسماء مختلفة مثل: الفخذات، الفرق والأرباع. وتسمى في الغالب كل فخذة أو ربع أو فرقة خمسا، وتجمع على أحماس. ومما يدل على أن القبيلة كانت في السابق منقسمة، هو تسميتها بقبائل غمارة وليست قبيلة. وتنقسم كل فرقة إلى مجموعة من العظام، وكل عظم ينقسم إلى أسر أبوية، تتوزع على المداشر التي يقع ضمنها كل عظم⁵. ويختلف عدد الفرق من قبيلة إلى أخرى، ففي قبيلة بني زيات مثلا تتكون القبيلة من أرباع تضم مجموعة من الفرق، كانت تسكن إما القرية أو الدشار، وهذه الأرباع هي: قاع أسراس-بني غفار-بني بادس-بني بخت-بني هليل وغيرها...⁶. فقاع أسراس على سبيل المثال، تبعد عن وادي

¹ - محمد العربي الفاسي، مصدر سابق، ص ص. 168-169.

² - عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازاها... م. س، ص. 86.

³ - المرجع نفسه، ص. 71.

⁴ - اللف هو تقسيم قبلي قديم نجده عند القبائل البربرية وكذلك القبائل ذات الأصول العربية، وهو نوع من التحزب والتكتل والتحالف بين مجموعة من القبائل، من أجل السلطة ورد الاعتبار والدفاع المشترك.

⁵ - التسماني، جوانب من تاريخ جبال...، مرجع سابق، ص. 45.

⁶ - Jose Parramo, "A Puntos Sobre la Cabila de Gomara de Beni Ziat", *Revista Hispano-Africana*, Ceuta, 1925, p. 10.

لو بخمسة كيلومترات، تتكون من مجموعة من الفرق كايلان واكري واطهر، وغالبا ما كانت هذه العائلات تسكن في "الدشار" أو في قرية صغيرة.

الدشار: والدشور أو "المدشر" هي ليست كالدوار أو الدشرة عند العرب والقصر في الصحراء، إذ تتكون من مجموعة من الأكواخ مجتمعة ومتصلة ببعضها. تؤلف قرى من طابع خاص¹، بالإضافة إلى مسجد للصلاة وتحفيظ القرآن، وغالبا ما تقع قرب الوادي، ومنبع النهر، ودور من بناء الأحجار والطين، يحتوي على بعض الغرف كانت تسمى بالسطح أو العمرة². كما تجدر الإشارة إلى أن الوزان أشار إلى نوع آخر من السكن في غمارة وهو ما كان يعرف "بالقصور"، فعند وصفه لأحد جبال غمارة ذكر: "وفي هذا الجبل ستة قصور وسبعة يسكنها أناس كرام محترمون ..."³، وهي تختلف عن "الدشرة" حيث يوجد سور كان يحيط بها⁴.

وعموما، فقد كانت القرية الغمارية نموذجا سكنيا منذ القديم، فعند وصف الوزان للسكن في الريف ذكر: "إن سكان الريف شجعان ... ذلك التكتل السكني المهم في قصور وقرى ذات بيوت صغيرة مكونة من طابق أرضي، سقوفها من قش ولحا الشجر ..."⁵. ومن العناصر الأساسية المرتبطة بالسكن الغماري نذكر ما يلي:

- الميال: بناء صغير يضاف إلى البيت الأصلي على أحد طرفيه، يتكون من سور متوسط الارتفاع، وجداره (سقفه) مائل يكاد يلامس الأرض، يستغل لخزن التبن وبعض الأغراض أو لإيواء الماشية.
- النواله: بناء هامشي ومرفق من مرافق البيت، غير متقن البناء، دون سطح، يستعمل كمخزن لكل ما لا يحتاج إليه من ماعون وغيره.
- بيثار: المكان المخصص لإيقاد النار والطبخ بصفة عامة، وخصوصا إعداد الخبز الذي يتطلب الكثير من الحطب، وكذلك الكانون لباقي أعمال الطهي.
- الروا: الجناح المخصص للبهائم والحيوانات.
- السدة: مخزن صغير فوق سطح البيت، يتخذ لحفظ الماعون والأدوات اليومية، وحتى خزن السمن والعسل وغيرهما.
- وجليث: الموضع المقابل للباب أو المدخل من حجرة الجلوس.
- البنيقة: مساحة ضيقة تكون ما بين سطح البيت وسقفه، تستغل لخزن بعض الغلال.

¹ - Louis Massignon, *Le Maroc dans la Premières Années du XVI Siècle...*, op. cit., p. 117.

² - Miguel (J), *Le Gharb (Tribus de Jebala)*, Archives Marocains, Vol Sixième, Paris, 1948, p. 183.

³ - الوزان، مصدر سابق، ص. 249.

⁴ - Miguel (J), *Le Gharb (Tribus de Jebala)*, Archives ..., op. cit., p. 181.

⁵ - الوزان، مصدر سابق، ص. 252.

- الدكانة: من مكونات البيت الغماري الذي لا غنى عنها، فضاء مرتفع ومفتوح على العالم الخارجي، من خلال فتحات كبيرة أو أقواس، به يقضي الناس معظم وقتهم.
- امراح: ساحة واسعة جدا فيها تقام الاحتفالات الدينية والاجتماعات الكبرى، حيث تنصب الخيام والحوانيت، وفيه تقام المسابقات والمهرجانات، ولا يخلو مدشر من امراح.
- وللحديث عن بنية كل المداشر الغمارية، مع ترجمة معنى بعض منها من الأمازيغية إلى العربية، نستعرض العمل التالي¹:

1- القبيلة: بني زيات² (2478 منزل)

تقع قبيلة بني زيات شرق غمارة، تحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وتحيط بها قبائل بني بوزرة من الشرق، وبني سلمان من الجنوب، وبني زجل وبني سعيد من الغرب، تقدر مساحتها بـ 200 كلم²، يتكلم سكانها باللهجة العربية الدارجة، توجد بهذه القبيلة قرية "ترغة" الحضرية التي كان لها تاريخ مجيد في الجهاد البحري، وبالقبيلة ستة وخمسون مسجدا وثمانية عشر ضريحا وأربع زوايا³. وتوجد بقبيلة بني زيات مراكز حضرية ساحلية ضاربة في أعماق التاريخ، كمركز تزكان الذي كان وما زال حتى وقت متأخر مرفأ لصناعة السفن، واشتهر أهله منذ القديم بمهارتهم في التعامل مع البحر. وتنقسم القبيلة إلى عشر فرق وهي:

- الربع (الفرقة): بني هليل⁴، عدد سكانه 1631 نسمة⁵ و 415 منزل.
- الدواوير (الدورة): اجلال، اشقلالن، بوريد، كامل، مرغاد، امراضن⁶، زاوية سوق الحد⁷، ازغار.
- الربع: بني برون، عدد سكانه 700 نسمة و 194 منزل.

¹ - تم الاعتماد في إعداد هذا العمل على أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص ص. 203 إلى 280، بالإضافة إلى:

Alta Comisaria de Espana en Marruecos, Nombres de Los Musulmanes Habitantes en la Zona de Protectorado de Espana en Marruecos, Territorios, kabilas, Fracciones y Poblados de la Misma, Tetuan, 1950

² - ان الثاء (بثلاث نقط) الموجودة بكلمة زيات، تعني أنها تترغت بعد أن كانت في الأصل هي زيات أو زياد (أنظر مولييراس، م. س، ص. 263)

³ - من أشهرها ضريح للافاطمة الخضراء الذي يعتبر من أعظم المزارات بالقبيلة. أنظر عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة من خلال كتاب "أعلام غمارة" للدكتور عمر الجيدي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، نسخة مرقونة بدار الحديث الحسنية بالرباط، 1999، ص. 63.

⁴ - هليل في الدارجة المغربية مرادفة لمؤذن، مع فارق كون هذا الأخير ينادي المؤمنين للصلاة خلال النهار، في حين أن الهليل يناديهم خلال الليل، وهلل هي ترديد صيغة لا إله الا الله.

⁵ - تم الاعتماد على أرشيف كارلوس بيريدا في استخراج عدد سكان كل ربع من القبيلة، (Caja n° 2, Gomara A/7, A/11).

⁶ - امراضن (سيلان) التسمية أمازيغية وتقابلها امنيارن (تفريغ) بتمازغت الريف.

⁷ - سوق الأحد هو أهم سوق في غمارة برمتها ويوجد على الضفة اليسرى لواد تغيزاس، شرق امراضن. وقد اقتضت عادة قديمة أن يترك كل بائع عشر بضاعته كيفما كان نوعها لحراسة قبة سيدي أحمد الفيلاي، وهي القبة الوحيدة بالسوق. من جهته فإن الحارس مطالب بإيواء كل زوار الضريح وهم كثيرون. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 264).

- الدواوير: ازغار بني برون، القلعة، تاسيفتان، جماعة القبور، زاوية وزان.
- الربع: بني بداس، عدد سكانه 969 نسمة و233 منزل.
 - الدواوير: بني عيدون، تزكان، تيفيزوان، ايفلالا، اخشينين، ايسومار، اخريمن، تجنزة، الخوخ.
 - الربع: بني بخت¹، عدد سكانه 1514 نسمة و372 منزل.
 - الدواوير: الزاوية، كلمت، اجافن، بويعلی، ازغار الفوقي، ازغار السفلي، تفريوان، بلا، اسول.
 - الربع: بني جلا، عدد سكانه 757 نسمة و185 منزل.
 - الدواوير: كيلدت²، اغيل سنوس³، اسعادت.
 - الربع: بني غفار، عدد سكانه 830 نسمة و200 منزل.
 - الدواوير: تازكوت، اذكشن، اللوا، البور، اكنان، اعزاون، ابطونن، املول.
 - الربع: برمان، عدد سكانه 237 نسمة و60 منزلا.
 - الدواوير: برمان، زاوية.
 - الربع: بني كلون، عدد سكانه 981 نسمة و222 منزل.
 - الدواوير: امتتاك، اكشينين، ابزهونن، تغلال، تامضث، اعريفت، اكرملوك.
 - الربع: قاع أسراس⁴، عدد سكانه 1851 نسمة و430 منزل.
 - الدواوير: ايلان، اكرير، اطهران، اسمار معدن، ورا الجامع، امرصوثا، اشركيشن، اطبيران، احسانن.
 - الربع: تارغة (تعني الحريق) عدد سكانه 687 نسمة و167 منزل.
 - الدواوير: تارغة، زاوية.

2- القبيلة: بني بوزرة⁵ (1067 منزل).

-
- ¹ - يقول مولييراس، وأنا أترجم بختي بـ (Veinard)، أي المخطوط. وهذا هو معنى كلمة بخت على الأقل لدى الجزائريين والمغاربية، ويدعي أهالي المنطقة أنهم ينحدرون من جد بنفس الاسم. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 265).
- ² - غلدت تعني البركة أو الكلتة بالعربية الدارجة.
- ³ - اغيل سنوس (هضبة النزل) التسمية أمازيغية، بمعنى المكان الذي سنقضي فيه الليل، سنوس (Snous) هي الصيغة المتعدية (Factitive) "لانس ens" وهي كلمة أمازيغية تعني قضى الليل. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 264).
- ⁴ - الكلمة مشتقة من قاع (كل) وسرس (وهي كلمة أمازيغية) وتعني (حط). وتفسر الرواية المحلية وجود هذه الكلمة الغريبة كما يلي: كان لصوب هذه القبيلة يتكلمون الأمازيغية وبدأوا بالكاد يتهجون العربية، وعندما كانوا يقطعون الطريق على العابرين، كانوا يصرخون فيهم: قاع سرس (الكل حط) أي ضع ارضك ما لديك. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 263).
- ⁵ - هذه القبيلة من أصل صنهاجي حسب مولييراس، حيث يربط الغماريون اسم أهاليها الشجعان بأدائهم الجزية لغمارة، غير أن هذه القبيلة تغيرت وضعيتها خلال القرن 19، إذ يقول مولييراس: فبني بوزرا ينتصرون دوما على جيرانهم ويرفضون التخلي عن لغتهم الأمازيغية المحلية ويفتحرون بكونهم صنهاجيين وسط الغماريين. أنظر مولييراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، ص. 266. وللإشارة فهذه القبيلة مازالت تستعمل إلى يومنا هذا اللهجة البربرية (الشلحة البوزراتية).

تكتب أيضا بالألف "بوزرا" وهي قبيلة تقع إلى الشمال من غمارة على الساحل المتوسطي الذي يحدها شمالا، وتحيط بها قبائل بني كيرير وبني زيات من الشرق والغرب، وبني سلمان وبني منصور من الجنوب. تقدر مساحتها 148 كلم مربع، ويتكلمون باللهجة المعروفة بالشلحة البوزراتية، باستثناء ساكنة فرقة بني منسلمان الذين يتكلمون باللهجة العربية الدارجة، ويوجد المركز الرئيسي للقبيلة في بوحمد. والقبيلة معروفة برباطها وجهادها وبوليها الصالح سيدي أحمد الفيلاي. وتنقسم القبيلة إلى أربع فرق وهي:

- الربع: تاندمان¹، عدد سكانه 1234 نسمة و 213 منزل.
الدواوير: افركان، بوسكن، بوحمد، تاندمان.
- الربع: بني منسلمان، عدد سكانه 932 نسمة و 245 منزل.
الدواوير: اسناتن، بوكرم، دار ميمون، انوالا، اشنديارن، الونتنا، ازغار، اكرسيف، اشراحن، توغزة.
- الربع: الوسطيين، عدد سكانه 710 نسمة و 231 منزل.
الدواوير: اناراي²، ادوز، تاغدوالا³، اعرابن⁴، اودحيث، احلاوت، جنان النيش.
- الربع: بني موسى، عدد سكانه 1296 نسمة و 378 منزل.
الدواوير: فالر، احلاوت⁵، المحمود، امطيقان⁶، عرافت، تميلات، ازوين، تزمورت، اسيقان⁷، تارعات، القلعة، تازا⁸، عرقوب، جنان النيش، اودحيث، اشوكة، اوركت.

3- القبيلة: بني سلمان (1827 منزل).

تقع قبيلة بني سلمان وسط غمارة، وتحيط بها قبائل بني بوزرة وبني زيات من الشمال وبني منصور من الشرق، وبني خالد والأخماس من الجنوب، وبني زجل من الغرب. تقدر مساحتها 208 كلم². وبالقبيلة ثلاثة

¹ - تاندمان تسمية أمازيغية تعني باللغة العربية المغفلة.

² - اناراي تعني المنتورة، وقد سميت كذلك لأنها منورة بسبب العدد الكبير من طلبتها وبسبب تواجد الولي الصالح سيدي أحمد الفيلاي بها والذي يرقد جثمانه بضريح يؤمه الزوار طوال السنة.

³ - تاغدوالا تعني جلد العجل (تسمية أمازيغية) بما 100 منزل خلال الفترة المدروسة، ويروي أهالي هذه القرية حسب مولييراس أنهم كانوا متعودين على زيارة سيدي أحمد الفيلاي قبل موته وذبح العجول على شرفه. وفي أحد الأيام أكلوا العجل كله ولم يتركوا سوى القرون والعظام، ولكي يثبت لهم الولي كرامته وقداسته، خاطب بقايا العجل قائلا " نوض " اي انحض فنهض العجل حيا وكأنه لم يذبح. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 267).

⁴ - اعرابن تعني العرب وهي تسمية عربية وأمازيغية، وحسب مولييراس هي قرية بحرية كبيرة بما 500 منزل. (أنظر مولييراس، المغرب المجهول...، ص. 266).

⁵ - حلاوت بما 500 منزل.

⁶ - امطيقان تعني الأقوياء (تسمية عربية وأمازيغية) بما 100 منزل خلال نهاية القرن 19م.

⁷ - اسيقان تعني الجدول، وهي تسمية أمازيغية بما 50 منزلا، خلال الفترة المدروسة.

⁸ - تازا تسمية أمازيغية تني الممر، بما 100 منزل خلال نهاية القرن 19م.

وخمسون مسجدا، وخمسة عشر ضريحا، وثمان وعشرون زاوية وثمانية وخمسون كتابا قرآنيا. وتنقسم القبيلة إلى خمس فرق وهي:

- الربع: اسيفان¹، عدد سكانه 842 نسمة و222 منزل.
- الدواوير: تراخت، تاريا الفوقية، تاريا السفلية، اجوريان، اسيفان، تاوارات، اونة، تازمورت.
- الربع: الواسطيين، عدد سكانه 1999 نسمة و446 منزل.
- الدواوير: اخالادن، عصفورت، الواديين، تجيالت، تالمات، ازليمة، اعييدن، متاع، درمانث، جندوزت، امدارنن، زاوية نورت.
- الربع: بني بوحلو، عدد سكانه 630 نسمة و151 منزل.
- الدواوير: بني بوحلو، تورطيوان، بني فتوح، اشوتة، امزاورو².
- الربع: بني حلو، عدد سكانه 1826 نسمة و469 منزل.
- الدواوير: الجان، تلاتيفراط، تغدوان، انرجل، تسراي، بودقيق³، اغولفاين، بني بارون، اعمرانين، اراج، امطيل⁴، زاوية عشاب.
- الربع: بني فنزر، عدد سكانه 2044 نسمة و539 منزل.
- الدواوير: اشريت، تكيت، تيوران، تزروت، زيتونة⁵، أسراس، تلاودمام، بوهدون، لبنان، اخورشاش، اسمران، امولة، تفراوت، احناشن، اسقيفن، الزاوية الفوقية، تلاعيطة، اخريفن⁶، اخريشن.

4-القبيلة: بني زجل⁷ (1849 منزل).

تقع قبيلة بني زجل في الجهة الغربية من منطقة غمارة، وتحيط بها قبائل بني زيات وبني سلمان من الشرق، والأخماس وبني حسان وبني سعيد من الجنوب والغرب، تقدر مساحتها 385 كلم مربع، ويتكلم سكانها باللهجة العربية الدارجة، وبالقبيلة 63 مسجدا، و13 ضريحا أشهرها ضريح سيدي أحمد الجلال بالقرب من قرية

¹ - اسيفان تعني زهرة الأفراح وهي تسمية أمازيغية، بما 100 منزل.

² - امزاورو تعني الأولى وهي تسمية أمازيغية، بما 100 منزل.

³ - بودقيق بما 100 منزل خلال الفترة المدرسة وتنقسم إلى بودقيق السفلى وهي على الضفة اليسرى لواد بني زيات وبودقيق الفوقي على الضفة اليمنى لواد بني زيات.

⁴ - امطيل تعني المدفون وهي تسمية أمازيغية بما 100 منزل.

⁵ - الزيتونة بما 50 منزلا، خلال الفترة المدرسة.

⁶ - اخريفن تعني التين وهي تسمية أمازيغية وعربية، بما 100 منزل.

⁷ - لا نجد لهذه القبيلة ذكرا في كتب الرحالة أو المصادر الجغرافية قبل القرن 16م، لكن وردت في مصادر أخرى وفي بعض التقايد التي اهتمت بمناقب وأنساب بعض الأشخاص بالمنطقة، نشير على سبيل المثال إلى ما ذكره الصغير المبطي في " الفوائد " أن اسم قبيلة بني زجل يعود إلى شخص قدم من المشرق إبان الفتوحات الإسلامية وهو سيدي محمد زجل (أنظرالحبوسي، شفشاون وباديتها...، مرجع سابق، ص. 47).

بومنار، وضريح سيدي احين بين قريتي منين واعقوبن، وضريح سيدي مالك بقربة تورات، وأربع زوايا، وستة وأربعون كتابا قرآنيا¹. وتعتبر قبيلة بني زجل من أوائل القبائل المغربية التي تعربت وانمحت منها الأمازيغية بالمرّة، وانتشر فيها التعليم انتشارا واسعا، لدرجة أنه كانت هناك مداشر في هذه القبيلة لا يوجد فيها أمي واحد، كما كانت بها مدارس للحساب². وتنقسم القبيلة إلى سبع فرق وهي:

- الربع: بني بوشداد³، عدد سكانه 2058 نسمة و440 منزل.
الدواوير: تلمبوط، اكومي، وسلاف، اجرمان، تاورات.
- الربع: القلعة⁴، عدد سكانه 1201 نسمة و264 منزل.
الدواوير: القلعة، ازرهان، امدنون، امنصورن، بقرار، ابدالرحمانن، اكوراج، امصماد، امخشانن، اسرفيين.
- الربع: الوسطيين، عدد سكانه 450 نسمة و95 منزلا.
الدواوير: امزار، ازيلان، تارية، ازرافن، افسكي.
- الربع: بني منصور، عدد سكانه 1328 نسمة و298 منزل.
الدواوير: تاسيفت، مختار، امغوص، اكلوان، اعيطا، امادازن، اغورالنعم.
- الربع: بني اشكورة، عدد سكانه 956 نسمة و202 منزل.
الدواوير: تاوارت، اموراسن، اكلا، ازغار، تمسنوت، اكان، بني امعلا، ابليق، تراوسعيد، الباي.
- الربع: بني سملولة، عدد سكانه 1228 نسمة و260 منزل.
الدواوير: تنييس، تيفروين، تجنيارت، تمرابط، ترينس.
- الربع: بني موسى، عدد سكانه 1299 نسمة و290 منزل.
الدواوير: ادلدال⁵، بني امحمد، بوينار، امطراس.

5- القبيلة: بني خالد⁶ (3445 منزل).

¹ - عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 67.

² - الجيدي، أضواء...، م. س، ص. 69.

³ - اشداد كلمة أمازيغية تعني العنيف.

⁴ - القلعة بما 500 منزل، وكانت تشمل خلال القرن 19 خمسة دواوير، غير أنها في النصف الثاني من القرن 20 ستصبح 10 دواوير، وغالبا ما يتبضع أهلها من سوق الشاون غير البعيد عنهم.

⁵ - ادلدال تعني المتردد وهي تسمية عربية وأمازيغية، بما 500 منزل.

⁶ - قبيلة بني خالد هي من فروع بني يال أحد بطون غمارة، وقد أكد صاحب "مرآة المحاسن" على بربرية أصل هذه القبيلة من خلال أسماء مداشرها.

تقع قبيلة بني خالد في الجنوب من غمارة، تحيط بها قبائل بني سميح وبني رزين وبني سلمان وبني منصور من قبائل غمارة، وبني أحمد والأخماس من غيرها. تقدر مساحتها 515 كلم مربع، وهي بذلك أكبر القبائل الغمارية مساحة، وسكانها يتكلمون اللهجة العربية الدارجة. ويوجد بالقبيلة سوق "اثنين باب برد" وسوق "سبت تاموروت"، وتتوفر قبيلة بني خالد على خمسة وثلاثين مسجداً، وتسعة أضرحة، وأربع زوايا، وخمسة وثمانين كتاباً قرآنياً¹. وتتميز قبيلة بني خالد بوعورة مسالكها، كما تكون شديدة البرودة في فصل الشتاء، مما جعلها حصينة بطبيعتها ومنيعاً بجبالها، ومن أشهر جبالها جبل "تيزيران" ويدعى جبل "الكواكب"، لأن قممه تناطح النجوم، ويرتفع عن سطح البحر بأكثر من 2000م، وكانت جبال هذه القبيلة ملجأً للشوار، ومأوى السباع والتمور². وتنقسم القبيلة إلى سبع فرق وهي:

- الربع: باب برد، عدد سكانه 19034 نسمة و2761 أسرة. الدواوير: مركز باب برد³.
- الربع: بني اخيار، عدد سكانه 2099 نسمة و466 منزل. الدواوير: تغونا⁴، جماعة السيد، الساحل، اوذل، امزرة، تلوتف⁵، بوخلاف، اصفارن⁶، بوصمعة
- الربع: بني انبات، عدد سكانه 2466 نسمة و581 منزل. الدواوير: تفراوت⁷، تقصبوت، ازجارن، ماحلي، اسلي، حداقة، جبل العسري، تيدة، تلهحان، ابوتان، زازو، دروتان⁸، اغران، وزين.
- الربع: بني عبد العزيز، عدد سكانه 2420 نسمة و604 منزل. الدواوير: علوي، اميادي، سيدي بوسيف، اغبالو، احسونن، تغزوت، تفروان، افرنون، اونان، املوك، املوحة، تغزاين، جرمون، بوظريف، تاسلنت⁹.
- الربع: بني عاصم، عدد سكانه 2336 نسمة و533 منزل.

¹ - معلمة المغرب، م. س، الجزء الخامس، ص. 1522.

² - الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 88.

³ - أطلق على هذا المركز اسم باب برد لشدة البرودة التي تسود هناك في فصل الشتاء، لدرجة أن الطريق الرابطة بين الحسيمة وشفشاون، كانت تظل مقطوعة جل فصل الشتاء بسبب الثلوج التي تسقط هناك، وكانت قرية باب برد من الأماكن التي لم يستطع الجيش الإسباني الاستيلاء عليها إلا بعد أن قضى على الثورة الريفية.

⁴ - تغونا تعني الغناء بما 100 منزل وتقع في أقصى جنوب شرق بني خالد.

⁵ - تيلوطاف كلمة أمازيغية تعني المثلجة، بما 500 منزل.

⁶ - اسفارن كلمة أمازيغية تعني الصفر، بما 100 منزل.

⁷ - تافراوت تعني الجناح الصغير أو الورقة الصغيرة، وهي تسمية أمازيغية، بما 100 منزل حسب مولييراس، م. س، ص. 270.

⁸ - داروتان تعني السميك، بما 100 منزل، وتوجد بما زاوية سيدي محمد حمون.

⁹ تاسلنت تعني الدرदार وهي تسمية أمازيغية، بما 100 منزل وتكثر بما أشجار الدرदार.

- الدواوير: بني شيا، تاوارارت، اصلحان، ازموور، افرطان، تاليوان، تلاموسي، تافركي، انيمطان، اجهيون، برخة، تيزلافن¹، بني بيثة، قنيدية، بروح، اكمان، مدينة، الية، بني اريان.
- الربع: بني عمران، عدد سكانه 2309 نسمة و 589 منزل.
- الدواوير: اولاسن، شداد، اشوكن، موطي، امراحل، ابوكامل، اطباش، امكان، تندر، اجمعون.
- الربع: بني ازولاو²، عدد سكانه 4068 نسمة و 672 منزل.
- الدواوير: ازلجام، تشكا، العناصر، مشت، تملزيت، بغيت، تلمولت، شاب، مزداد.

6- القبيلة: بني رزين (875 منزل).

تقع قبيلة بني رزين في الشرق من غمارة، تحيط بها قبائل متبوة وكتامة من الشمال والشرق، وبني خالد وبني سميح من الجنوب والغرب. تقدر مساحتها 153 كلم مربع، وسكانها يتكلمون باللهجة العربية الدارجة. بقبيلة بني رزين سبعة وعشرون مسجداً وعشرة أضرحة وزاوية وأربعة وعشرون كتاباً قرآنياً³، أما سوق القبيلة الأسبوعي فيوجد بأحد بني موراق. وتنقسم القبيلة إلى خمس فرق وهي:

- الربع: بني مراق، عدد سكانه 1015 نسمة و 215 منزل.
- الدواوير: ازغار⁴، عنقود، أسراس، لودا، اهروازن، اعديش⁵، امساتن، احجامن.
- الربع: اوفاس، عدد سكانه 576 نسمة و 134 منزل.
- الدواوير: اموزجن، امزاورو، تتويان، تونات.
- الربع: تمرخيت، عدد سكانه 435 نسمة و 100 منزل.
- الدواوير: تزوال، اخيج، تغيلت، اغبالو، بوينفع، ابحاتن.
- الربع: بني قاسم، عدد سكانه 923 نسمة و 215 منزل.
- الدواوير: تفركوان⁶، احمداشن، بوخالد⁷، تفركة.
- الربع: الوسطى، عدد سكانه 952 نسمة و 211 منزل.

¹ - تيزلافان تعني الأوراق المنتشرة وهي تسمية أمازيغية، بما 100 منزل، ويختص طلبة هذه القرية بقراءة الطالع. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 270)

² - زراولو تعني أبناء الحول وهي تسمية عربية أمازيغية.

³ - معلمة المغرب، الجزء الخامس، ص. 1527.

⁴ - ازغار كلمة أمازيغية تعني السهل الكبير.

⁵ - اعديش كلمة أمازيغية تعني الحاسيون، تضم 100 منزل تقع بين وادي اورنغا والحدود الريفية.

⁶ - تيفوكيوان كلمة أمازيغية تعني المفروكات وتضم 100 منزل.

⁷ - بوخالد قرية كانت تضم 50 منزل.

الدواوير: افيا¹، تالمست السفلية، تالمست الفوقية، اساكي، افركوض، تمزيان، استوق.

7- القبيلة: بني كيرير² (631 منزل)

تقع قبيلة بني كيرير في الشمال الشرقي من غمارة، وتحده شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وتحيط بها قبائل بني بوزرة وبني منصور من الغرب، وبني سميح من الشرق والجنوب. تقدر مساحتها 93 كلم مربع، ويتكلمون باللهجة العربية الدارجة. ويوجد بالقبيلة ثلاثة وعشرون مسجدا، وستة أضرحة وزاوية واحدة، وتسعة عشر كتابا قرآنيا. وتنقسم القبيلة إلى أربع فرق وهي:

- الربع: بني حمدون، عدد سكانه 615 نسمة و 139 منزل.
- الدواوير: تزلات³، امراجل، انسقول، اشراطن، انالين، اجروين.
- الربع: بني الحاج، عدد سكانه 896 نسمة و 219 منزل.
- الدواوير: تغسة⁴، خنوبة⁵، ارجيل، ازغار موسى، امذران، امزجيك، بني بحرايت، دارون.
- الربع: بني سجود، عدد سكانه 789 نسمة و 173 منزل.
- الدواوير: احناشن، توالان، ازغار، احضار، بولد، تازة، عبد الحميد، تلامحمد، خلاله⁶.
- الربع: بني كرامة، عدد سكانه 425 نسمة و 100 منزل.
- الدواوير: تيغسوان⁷، تمايلت.

8- القبيلة: بني سميح⁸ (694 منزل).

- 1 - افيا كلمة أمازيغية تعني الرفض، بها 100 منزل.
 - 2 - كيرير كلمة أمازيغية مشتقة من كيرير وتعني المنتعش او المتسلي، أغلب سكانها يتكلمون باللهجة العربية الدارجة، لكثرة المساجد والزوايا، ولهذا سنجد مولييراس يشير إلى أنه لا يوجد في قبيلة بني كيرير أي أمي، فجميع الأهالي متعلمون. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 232)
 - 3 - تازلايت كلمة أمازيغية تعني معدن الكحل أو النحر، وقبل مجيء الاستعمار كان يتم تشغيل منحج الكحل لتلبية الحاجيات التحميلية.
 - 4 - تاغسا كلمة أمازيغية تعني الهيكل العظمي، وهي ميناء بحري يضم 500 منزل بمصب نهر يحمل نفس الاسم، وعلى شاطئ البحر غربا توجد زاوية سيدي عطار.
 - 5 - حنوبة معقل الشرفاء كما قال مولييراس، ويقال أن سيدي الغماري الذي توجد عدة زوايا مخصصة له بتونس وليبيا ولد بحنوبة (أنظر مولييراس، م. س، ص. 267).
 - 6 - خلاله تعني حايك صوفي منسوج بمشط حديدي، تضم 500 منزل غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد امطير.
 - 7 - تيغسوان تعني الهياكل العظمية.
 - 8 - إذا ما صدقنا الروايات المتداولة بالمنطقة، فإن هذه القبيلة نعتت بهذا الاسم، لأنها " سمحت " في العادات الغمارية، أي تخلت عنها وتبنت عادات وتقاليد الريف، ويذكر مولييراس بعض الأمثال الساخرة عن بني سميح منها: بني سميح سمحو في قاعدة غمارة وتبعو قاعدة الريف، لأن غمارة كلها طالب وشريف، أما بني سميح غير المكحلة والريفي، يقولو الناس يا لطيف من بلاد الريف سوى المكحلة والريفي والبارود والخفيف والندق لازلينف (الرأس).
- قل الريف من سخط ربي وما سلم منهم إلا القليل. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 268).

تقع قبيلة بني سميح في الشرق من غمارة، وتحيط بها قبائل متيوة وبني رزين من الشرق، وبني خالد من الجنوب، وبني كريب وبني منصور من الشمال والغرب. تقدر مساحتها 131 كلم مربع، ويتكلم سكانها باللهجة العربية الدارجة، كما تتوفر القبيلة على اثنين وثلاثين مسجدا وثلاثة أضرحة، أشهرها ضريح سيدي أحمد البوهالي البقالي بمدشر أفعال، وزاوية وسبعة وعشرين كتابا قرآنيا¹. وتنقسم القبيلة إلى أربع فرق وهي:

- الربع: بني صدرات، عدد سكانه 484 نسمة و104 منزل.
- الدواوير: بني صدرات، تونان، اونان، اقران.
- الربع: بني يزرف، عدد سكانه 1279 نسمة و285 منزل.
- الدواوير: زدمة² الفوقية، زدمة السفلية، تزمورت³، اغيل، تلاحسن السفلية، تلاحسن الفوقية، بني يزرف، اذار، تازروث⁴، اسيفان، تلکمان.
- الربع: بني بوضكفان، عدد سكانه 662 نسمة و139 منزل.
- الدواوير: توسط، زيكران، بويحمد، افعال، اقروشن، تيفراتن، تلانطال، تلاوجهم، منعت، امكاثلو.
- الربع: بني بوزكري، عدد سكانه 675 نسمة و166 منزل.
- الدواوير: املوك، عيدون، بني أنصار، تراط، تلاورته، بمازيغ.

9- القبيلة: بني منصور⁵ (1062 منزل)

من قبائل غمارة الوسطى، تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط بنحو خمسة عشر كيلومترا، تحيط بها قبائل بني بوزرة من الشمال وقبيلتا بني كريب وبني سميح من الشرق وبني خالد من الجنوب وبني سلمان من الغرب، وأكثر أراضيها جبال صخرية تمتد على مسافة ثمانية أميال-تقريبا- كما يذكرها الوزان في وصف إفريقيا⁶. تقدر مساحة القبيلة 148 كيلومتر مربع، يتكلمون اللهجة البوزراتية الأمازيغية. وبالقبيلة خمسة وعشرون مسجدا، وثمانية عشرة ضريحا وعشرون زاوية، أشهرها الزاوية التجكانية. وتنقسم القبيلة إلى ست فرق وهي:

- الربع: انسوان، عدد سكانه 739 نسمة و172 منزل.
- الدواوير: بني بشار، المزاب، انسوان، توررات اجناتن.

¹ - الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 81.

² - زدمت كلمة أمازيغية تعني الحزمة، تقع بالقرب من واد أورنغا، بما 100 منزل.

³ - تزمورت تسمية أمازيغية تعني شجرة الزيتون، بما 50 منزلا.

⁴ - تقع تازروث بأقصى جنوب القبيلة بما 100 منزل، ويشير مولييراس إلى 30 قبيلة متفرقة هنا وهناك. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 269).

⁵ - قبيلة تقع وسط غمارة من الجهة الشرقية، حيث يمتد الركن الشرقي للقبيلة حتى الحدود الريفية، وحسبما نقله إلينا مولييراس أن الجهة الشرقية لبني منصور مازالت تتكلم اللغة الأمازيغية " الشلحة البوزراتية ".

⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الأول، م. س، ص. 257.

- الربع: بني عروس، عدد سكانه 743 نسمة و181 منزل.
- الدواوير: تجكان¹، ايث روهاش²، تنجزة، اياعدن، تورارت المرابطين اغيل عازب، بني غفارة، اسوكة، تزمورت.
- الربع: افرنعمان³، عدد سكانه 616 نسمة و160 منزل
- الدواوير: الخميس امعوشة، تافراوت، ازغار، اونانين، بوخالد، ادارن، تلامنة.
- الربع: بني بزوز، عدد سكانه 848 نسمة و205 منزل.
- الدواوير: تزي كناطت، ترست⁴، اغل تسفت، تغزوت نوار، الكروت، بني نصار.
- الربع: وتليغة، عدد سكانه 641 نسمة و165 منزل.
- الدواوير: تورات، اشريين، المدينة⁵، انيمط، ابطيون.
- الربع: بني اكنة، عدد سكانه 734 نسمة و179 منزل.
- الدواوير: تامسينت، اطالحتن، دار ماكو، بني اوكتا⁶، السعديين.

10- القبيلة: متيوة⁷ (1330 منزل).

تمتد قبيلة متيوة من البحر الأبيض المتوسط شمالا نحو الجنوب على مسافة 40 كلم متر وعلى الساحل المتوسط من الشرق إلى الغرب بحوالي 20 كلم متر⁸. وكانت قديما تمتد جنوبا جباله حدود إقليم تاونات اليوم، حيث توجد قبيلة متيوة لوطا⁹، وغربا يقوم وادي اورينكا حدا فاصلا بين قبيلة متيوة البحر وقبيلة بني سميح وبني رزين، وشرقا تحده بقبيلة بني جميل ومسطاسة الريفيتين، وجنوبا بقبيلة بني سدات وكتامة، أما شمالا فتحد بالبحر الأبيض المتوسط، وبهذه الحدود قدرت مساحة القبيلة بحوالي 309 كلم مربع¹⁰. ورغم أن قبيلة متيوة هي قبيلة

¹ - توجكان تسمية أمازيغية تعني الغابة، وتضم 500 منزل، على الضفة اليمنى لواد امطير عند حدود بني كرير، وبها غابات شاسعة تصنع من أشجارها العوارض المسماة بالأمازيغية احوكو. وتوجد بها زاوية سيدي عبد المومن التي تحظى بزيارات دائمة.

² - ايث روهاش تسمية يهودية، تضم 100 منزل. (أنظر مولييراس، م. س، ص. 266).

³ - افران اعمان تسمية أمازيغية تعني فرز اعمان، وهي التسمية الممنوحة بتامزيغت لزهرة يصنع منها الحبر.

⁴ - ترزات تسمية أمازيغية تعني الانكسار، بها 500 منزل.

⁵ - المدينة قرية بها 100 منزل، وهي قرب سوق الثلاثاء.

⁶ - بني اكنة تسمية عربية أمازيغية تعني أبناء القرد، وبها 100 منزل.

⁷ - قبيلة متيوة كبيرة وشاسعة المساحة، امتدادها يقارب 20 كلم من الشمال إلى الجنوب و40 كلم من الغرب إلى الشرق، وهي من أصل غماري تنقسم إلى ثلاث مناطق: السهل، المنطقة المتوسطة، الجبال، وتسمى تباعا مثيوا الوطا، مثيوة الوسط، ومثيوة الجبل، واسمها مشتق من اللهجة البربرية.

⁸ - عبد العزيز بن عبد الله، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية: معلمة المدن والقبائل، ملحق 2، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1977، ص. 260.

⁹ - Alfred le Chatelier, *Notes sur les Villes et Tribus du Maroc en 1890*, Impr, Burdin (Angers), 1902, p.105.

¹⁰ - بوعبيد التركي، "مادة متيوة"، معلمة المغرب، الجزء الثاني، ص. 6977.

ريفية، إلا أنها ظلت تابعة لاتحاد قبائل غمارة حتى النصف الثاني من القرن 19م¹. وحتى بعد مجيء الاستعمار الإسباني بقيت قبيلة متيوقة ضمن قبائل غمارة في إطار التقسيم الذي وضعه الاحتلال. وتنقسم قبيلة متيوقة إلى سبع فرق وهي:

- الربع: بني امكايل، عدد سكانه 522 نسمة و114 منزل.
- الدواوير: اجرمالك، حداق، ايول، اخنيخن، شينور، امنزا، اجرسييف.
- الربع: ووكدة، عدد سكانه 997 نسمة و216 منزل.
- الدواوير: البنيان، زاوية، بومدور، اخريفن، ووكدة، تمرسالت، تسودال، ترمصت، اجاوان، اكفالن، تكمة، المزعدة.
- الربع: توطال، عدد سكانه 565 نسمة و129 منزل.
- الدواوير: اعكوكن، اخشاعن، احاليتين، تملوث، اغبال، ابراقن.
- الربع: تلامزلة، عدد سكانه 591 نسمة و130 منزل.
- الدواوير: بحرمة، ايت يوبار، الساحل، ايت براهيم، ازكك، ايناتن، الكاس.
- الربع: يجون، عدد سكانه 1144 نسمة و270 منزل.
- الدواوير: طجيت، تلمقرن، تكموت، القوار، تورارن، تلاعبو، ولمسا، تلقمان، العرعارة، تلاتنزات، يجون، تنوت، تغزوت، توريرت، طسمرطست، تيرانن، العزيز، بسلام.
- الربع: بني احمايد، عدد سكانه 1507 نسمة و335 منزل.
- الدواوير: تمايلت، اجرسييف، الجان، امنكوران، ترجدالت، ارزي.
- الربع: ازمورن، عدد سكانه 571 نسمة و136 منزل.
- الدواوير: امزورو، ازموران، احدوشن، اغرام، امزوغان، القلعة، تنولة، تجليث.

ومما يلاحظ على القبائل الغمارية أنها كانت تتوفر على مجموعة من القرى، فبني خالد لوحدها بها حوالي 80 ما بين قرية ومدشر²، وهذا يفسر ذلك التكاثر السكاني في المجتمع القبلي عنه في تلك المدن الساحلية.

كما يعتبر السكن من تجليات تواجد الإنسان في المجال، وهو مرآة للتنظيم العام للمجتمع ولتاريخ تعامل الإنسان مع الطبيعة، حيث رصدنا حوالي 15258 مسكن¹، وهو ما يشكل مؤشرا استراتيجيا للدلالة على الوضعية الاجتماعية للسكان، فمقاربة السكن تسمح بمقاربة حياة الأسر المكونة للمجموعة.

¹ - تبين مجموعة من الوثائق أن قبيلة متيوقة ظلت خاضعة لقائد قبيلة غمارة طيلة الفترة المدروسة بما فيها فترة الحماية.

² - Alta Comisaria de Espana en Marruecos, Nombres de Los Musulmanes Habitantes en la Zona de Protectorado de Espana en Marruecos, Territorios, kabilas, Fracciones y Poblados de la Misma, Tetuan, 1950, pp. 85 - 86.

وعموما نلاحظ طغيان السكن الهش في مجموع قرى قبائل بلاد غمارة، خلال الفترة المدروسة، وهو ما يعكس صعوبة الظروف التي كانت تعيشها قبائل غمارة، خاصة وأن مناخ المنطقة يتميز بالقساوة (البرودة-عنف التساقطات-الرياح...). فإذا اعتبرنا السكن كمؤشر عن مدى استمرار الروابط المشتركة بين السكان، فالملاحظ ظهور تحولات في السكن، فبينما كان السكن خلال القرن 19م متجمعا ومتراصا، نجده خلال النصف الأول من القرن 20م يميل إلى التشتت والانفصال، إذ أصبح يجمع بين تجمعات متفاوتة الأهمية وبيوت منعزلة تتخلل تلك التجمعات، مع الالتفاف حول العيون والمنابع، وعلى طول السفوح الشمسية. أما الحافات التي شكلت موضعا ممتازا للسكن، بتوفيرها لإمكانات فلاحية متعددة، فقد تراجع دورها، فالنمو الديمغرافي السريع فوق مجال يتقلص باستمرار، يولد ضغطا بشريا وتفككا للقرى بتشتت السكن على مجالات زراعية أو رعوية². فالصورة إذن، تختلف بين سكن القرن 19م وسكن النصف الأول من القرن 20م، يقول موليراس: "لنتهز فرصة مرورنا بهذه القبيلة الجبيلة من أجل إعطاء فكرة عن السكن بعمارة، فعلى العموم تكون المنازل واطئة ومتينة البنيان، بطابق أرضي فقط، مع بعض الاستثناءات النادرة، ويغطي السقفان المائلان بالقرميد وأحيانا بالفلين، كما يتعين أن تكون الأعمدة التي يرتكز عليها السقف متينة، حتى تصمد أمام قوة الرياح وثقل الثلوج. وتبنى الجدران السميكة وغير المتساوية بخليط من الملاط المكون من الجير وروث البقر والطين. وبالساحل يتوفر كل منزل على سطح، أما بالجبال العالية، فإن السقف يكون منحدرًا كي ينزلق الثلج من فوقه بسهولة"³. والملاحظ أن المواد المستعملة في السكن تختلف حسب القرى، فالقرى القريبة من الغابة تستعمل الخشب بشكل مكثف، خاصة جذوع الأشجار، وفي المناطق التي يكثُر فيها شجر السنديان مثلا، يتم التخلي عن الحصائر والنوم داخل أسرة من الفلين أسطوانية الشكل⁴؛ إلا أن تقنين استغلال الغابة في النصف الثاني من القرن 20م، نتج عنه تراجع لدور الخشب في السكن، بينما تستعمل قرى أخرى "السياع"، وهو خليط من الطين والتبن (انظر الصور)، بينما قرية امنصورن لها خصوصية، تتمثل في الاستعمال المكثف للصخور في السكن، وعموما فالمواد المستعملة ترتبط بنوعية الموارد الطبيعية التي توفرها بيئة كل قرية غمارية، كما يتم تكييف السكن مع الظروف الطبيعية، فلمقاومة الحرارة تبحث المنازل عن المواضع الظليلة، ولمقاومة البرودة تكون النوافذ صغيرة، ولمواجهة الرياح والثلوج، يتخذ سقف المنازل شكلا مخروطيا، مع استعمال الصفيح (القصدير) وتثبيت السكن بواسطة أسلاك حديدية خلال النصف الثاني من القرن 20م، ويمكننا استعراض بعض الصور التي توثق

¹ - اعتمدنا في جمع عدد المنازل على الارشيف الخاص لكارلوس بيريدا (Caja 5, Gomara A/27-A/ 31).

² - Maurer (G), "Les Milieux Naturels et Leur Aménagement dans les Montagnes Humides du Domaine Rifain et Tellien d'Afrique du Nord Mediterranee", article in *Méditerranée*, Troisième Série, Tome 35, N 1-2, 1979, p. 189.

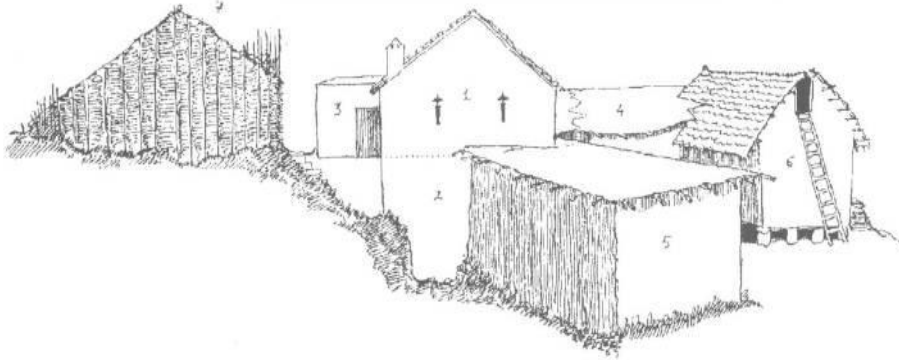
³ - موليراس، مصدر سابق، ص. 221.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، ص. 222.

لطبيعة السكن في بلاد غمارة ومقارنتها مع سكن المناطق المجاورة (جبالة والريف)، ودائما خلال الفترة المدروسة (انظر الصور).

طبيعة السكن في مزارع بلاد غمارة

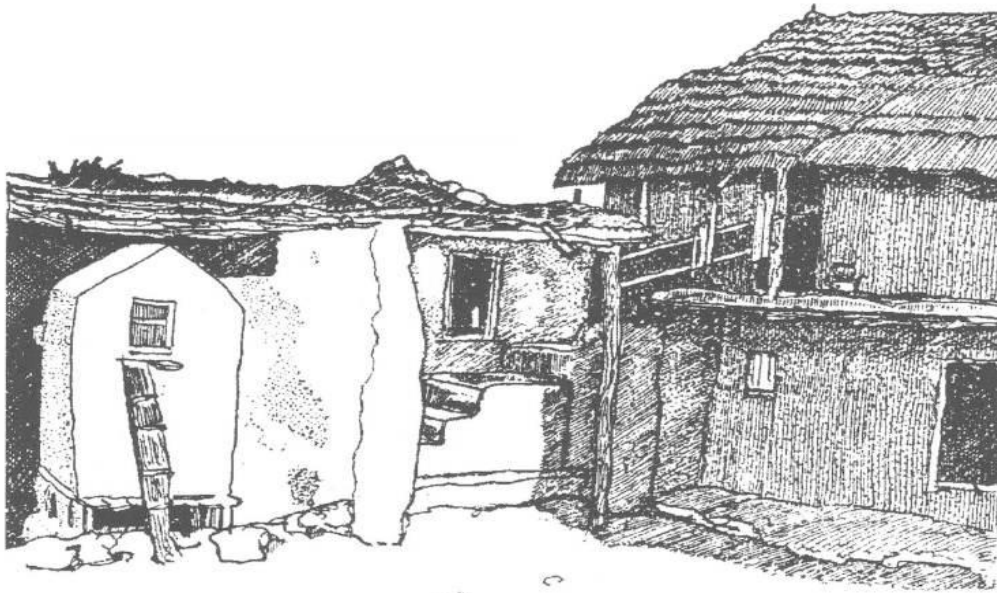
Ferme ghomâra appartenant à un cultivateur aisé.



Camps (G) et Vignet-Zunz (J), "Ghomara", *Encyclopédie Berbère*, vol, 20, 1998, p. 5

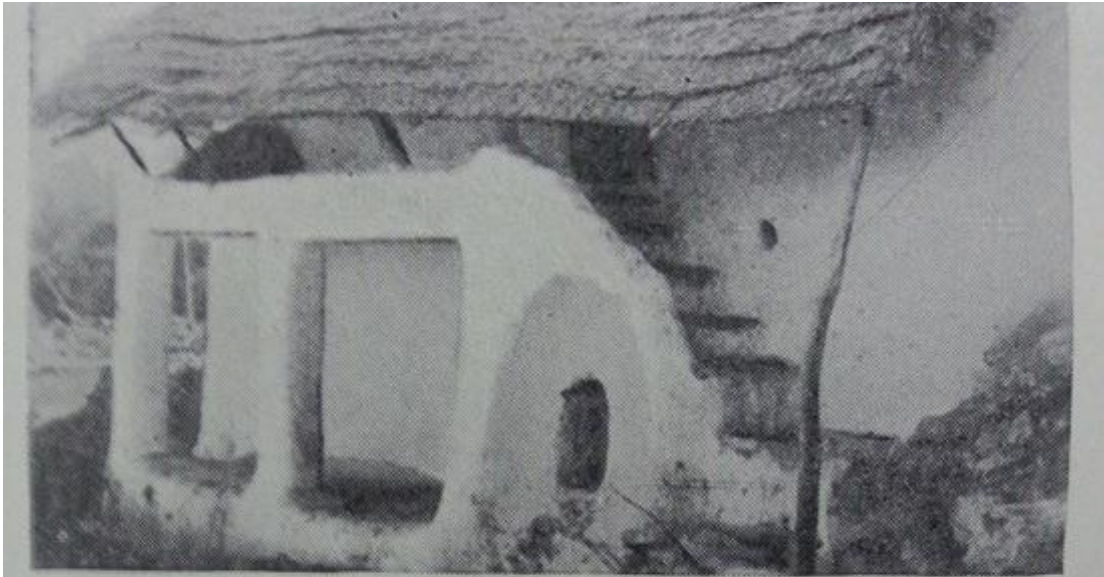
فناء سكن بلاد غمارة (ترك العلية تعتمد على ركائز متينة)

Cour de ferme ghomâra ; à gauche, le grenier sur pilotis (d'après J. Caro Baroja).



Camps (G) et Vignet-Zunz (J), "Ghomara", *Encyclopédie Berbère*, vol, 20, 1998, p. 6

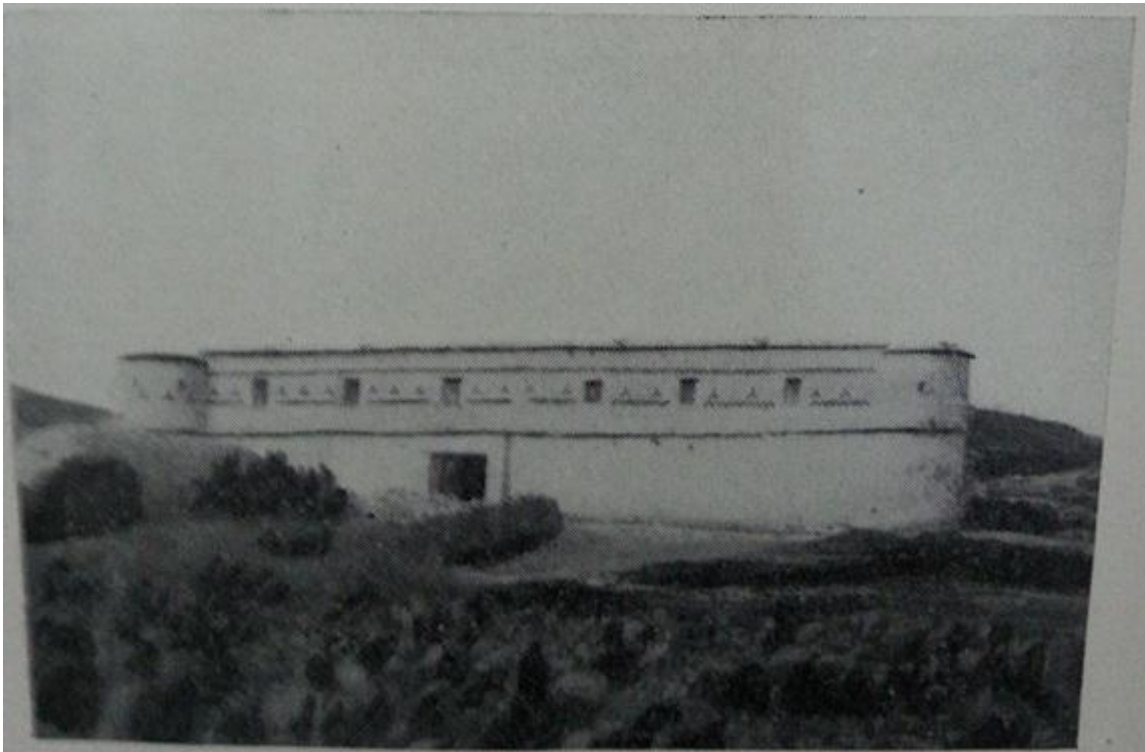
السكن بغمارة



Casa en Gomara

Valentin Beneitez Cantero, *Sociologia Marroqui*, Imprenta Olimpia Ceuta, Tetuan, 1958, p. 46.

السكن بالريف



Casa rifeña

Valentin Beneitez Cantero, *Sociologia Marroqui*, Imprenta Olimpia Ceuta, Tetuan, 1958, p. 46.

السكن في بلاد جباله

Village des Haouz. Photo J. Vignet-Zunz



VIGNET-ZUNZ (J), "Djebala", Encyclopédie Berbère, Vol, 20, 1998, p. 6

وعموما نستنتج أن السكن في قبيلة غمارة تميز عن باقي المناطق في شمال المغرب، فهو يتميز بالخصائص

التالية:

- إن معظم أسماء الدواوير والقرى الغمارية تحمل أسماء أمازيغية، مما يؤكد رسوخ الأمازيغية في طبوغرافية المنطقة، رغم تعريب ساكنة غمارة.
- إن دورا من الأحجار والطين تحتوي على بعض الغرف في طابقين (السفلي والفقوي).
- إن سقوف سكن قبائل غمارة كانت تتكون من لحا الشجر وقش والطين وبالتالي طغيان السكن الهش.
- كانت كل قبيلة غمارية تستغل خصائصها الطبيعية في بناء مساكنها (التسطيحة¹، الغيرة²، ادقة³، الطلع⁴، اللطيم⁵، الفرخة⁶).
- ارتباط السكن في بلاد غمارة بعنصر الماء، الذي يعتبر أهم عامل في اختيار موضع السكن، مما جعل هذا الأخير ينزل نحو السافلة للاقتراب أكثر من الماء.
- الميل إلى التشتت والانفصال، وبالتالي تفكك القرى. (السكن مؤشرا لاستمرار الروابط المشتركة بين الساكنة).

1 - شبكة من القصب المشدود إلى بالحبال، تمد فوق الجائزات ليوضع عليها الراب والطين المسمى محليا بالغيرة.
2 - عجين الطين المخلوطين بالطين، يوضع فوق تسطيحة القصب ليكتمل بناء سقف البيت، والواقع أن الغيرة متعددة الاستعمالات، فمنها يصنع طوب البناء، وبها تغطي الجدران بعملية تسمى محليا بالتمليسة، ويستعملها البناء عند رصده الطوب والحجارة.
3 - تراب رقيق رمادي اللون، يغريل ويخلط مع الماء ثم تطلى به الجدران.
4 - أعواد الشجر الطويلة المتوسطة الغلظ، تشبه إلى حد كبير الجائز، غير أنها ارق منه بكثير، تستعمل لكي يثبت عليها السقف الذي هو عيدان وسيقان القمح الجافة.
5 - عملية تغطية حيطان البيت بالتراب، أي بالغيرة.
6 - هو المزلاج الذي تقفل به الأبواب، حديديا كان أو خشبيا.

الفصل الثاني: بنية المجتمع الغماري وعلاقاته

في الفصل الأول من هذا الباب تناولنا مفهوم "المجتمع"، ولكن في إطار آخر وفي سياق محتوى آخر "السكان" أو "الساكنة" ونعزو تمييزنا بين هذين المصطلحين إلى ما ذهب إليه أحد الباحثين حين قال: "المجتمع ليس هو مجموعة أفراد في قبيلة، بقدر ما هو رابطة أو كتل اجتماعية ذات عناصر مجزأة تندرج تحت الكل، الذي يمثل الكيان الاجتماعي للمجتمع، ويجب أن ينظر إليه -المجتمع- من زاوية الروابط والعلاقات الاجتماعية الموجودة بين أفرادها، والتي تحدد بطبيعة الحال بنى هذا المجتمع وطبيعته والسلوك الاجتماعي لأفراده"¹.

إن المجتمع لم يحظ لدى المؤرخين بذلك الاهتمام الذي ناله الجانب السياسي، والاقتصادي الخ. وذلك لأن كتاباتهم كانت تاريخية محضة، وانحصرت الرؤية لديهم في مجرد تقصي حوادث تاريخية مسلسلة، هدفها الأول والأخير هو محاولة التعرف على أصل المجتمع البشري والأنظمة الاجتماعية السائدة آنذاك من وجهة نظر تاريخية. وحتى وإن وجدت هذه الدراسات، فغالبا ما تكون ذات خلفية استعمارية، حيث يدرس الأوروبيون تاريخ المغرب، في جوانبه المختلفة، في الفترة التي بدأ فيها التنافس الاستعماري عليه. ولأن هؤلاء الدارسين كانوا متشبعين بالإيديولوجية الاستعمارية، فإن كتاباتهم كانت موجهة لخدمة أغراض الغزو وإضفاء المشروعية عليه²، واعتبرت أن الخلافات التي كانت تحدث داخل المجتمع، وبعض النزاعات التي تظهر بين قبيلة وأخرى، هي الأساس الذي بنيت عليه الأطروحات الكولونيالية بهدف تشويه الحقائق التاريخية للمجتمع³. وكانت السببية والفوضى من أبرز مقولاتها، لإظهار خلفيات الصراع، وإعطاء تصور خاص للمجتمع المغربي⁴.

ويعد كتاب "المغرب المجهول" نموذجا معبرا عن هذه الكتابات الاستعمارية، وقد خصص فيه صاحبه حيزا مهما للقبائل الغمارية، واصفا مكوناتها خلال نهاية القرن 19م، واعتبرها بلاد الفوضى والتناحر والانقسام والتمرد على المخزن. فعند تطرقه لدراسة البنيات القبلية بالمنطقة ركز على النظرية الانقسامية، التي مفادها أن المجتمع الانقسامي يتكون من مجموعات متشابكة بعضها ببعض، وترتبط فيما بينها بحبل النسل الأبوي، حيث يدعي مجموع أجزاء القبيلة انتسابهم إلى جد مشترك⁵. وبالإضافة إلى العامل العرقي، جعل مولييراس اللغة عنصرا

¹ - قنوص محمد صبحي، علم دراسة المجتمع، دراسة تحليلية، الطبعة الأولى، بنغازي، 1989، ص 29.

² - علي بولرباح، "الدراسات الكولونيالية حول المنطقة الشمالية المغربية نموذج أوكيست مولييراس"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 6، 1993، ص 234.

³ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة: تطورات البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، منشورات المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الطبعة الأولى، الرباط، 1988، ص ص. 112-113.

⁴ - عبد العزيز خلوق التمساني، "تشخيص المجتمع الجبلي بين الوقائع والتنظير 1907-1995م"، الجزء 1، مجلة دار النيابة، فصلية وثائقية دراسية تعنى بتاريخ المغرب، السنة الرابعة، العدد 15-16، المطابع المغربية الدولية، طنجة 1987، ص. 29.

⁵ - عبد العزيز خلوق التمساني، "تشخيص المجتمع الجبلي" ...، م. س، ص. 29.

مهما من العناصر التي تقوم عليها هذه النظرية، حيث يقول: "إن أهالي متيوة هم من عرق أمازيغي، يتحدثون جميعا الأمازيغية وقليل منهم يعرف اللغة العربية ... ويعيشون في استقلال تام"¹، ويزيد قائلا في سياق حديثه عن قبيلة بني رزين: "ليس هناك اختلافات بين سكان بني رزين وجيرانهم الريفيين، حيث التشابه يبدو جليا، لدرجة أن الريفيين يعتبرون الغماريين ذوي أصول بربرية. ومن الناحية الأخلاقية لهم نفس نمط الحياة والعادات"². ويضيف أنه: "في المستقبل القريب ستصبح قبائل جباله المحاذية للريف، والتي نصفها يتحدث اللغة العربية، كلها عربية متكرة لأصولها البربرية، فالنسابون يشبتون بسهولة نسبهم إلى محارب مشهور من الحجاز أو العراق"³.

يعتبر موليراس أن الأصول تشكل عامل صراع بين مكونات المجتمع، وبالتالي صعوبة السيطرة على الانقسامات داخل القبيلة. وكما أسلفنا، فقد تعددت العناصر الوافدة على قبائل غمارة، واختلطت فيما بينها بشكل يصعب معه تمييز كل عنصر على حدة، وما يمكن الإدلاء به هو أن بعض الأسر من جد مشترك، خاصة الشرفاء، كانوا منتشرين في جل هذه القبائل. وفي رأي البعض، فإن هذا الاختلاط كان يحمل في طياته بذور الشقاق والخلاف بين الأفراد داخل القبيلة الواحدة أو بين قبيلة وأخرى، وبالرغم من ذلك، استطاعت هذه العناصر أن تحقق التضامن والوحدة، لمواجهة أي خطر خارجي يهدد البلاد⁴، وسنرى أشكالا مختلفة من هذا التضامن والتعاقد.

يعتبر موليراس أن الانقسامات امتدت إلى الأسرة الواحدة، وبرز ما يسمى "بالعزوة"، ويقصد بها "العشيرة الصغيرة المتشكلة داخل كل قرية من أسرتين أو ثلاث تتحد فيما بينها، ولكل عزوة لها مصلاتها الخاصة بها، ويحدث أحيانا أن تتنازع عزوات القرية فيما بينها"⁵. وهكذا يتضح عنصر النسب كعنصر أساسي في النظرية الانقسامية حسب موليراس، ويصاحب هذه الانقسامات مجموعة من النزاعات، حيث أورد أشكالا منها، كالفوضى والتناحر والسطو على ممتلكات الغير، في غياب إدارة القضاء⁶. ويلاحظ الكثير من الدارسين المغاربة أن هذه النظرية قد اعتمدها مجموعة من الإثنوغرافيين والسوسولوجيين الذين درسوا المجتمع المغربي، أمثال مونطاني وارنيست كلينيز ودافيد هارت وغيرهم⁷. وغياب إدارة القضاء في هذه القبائل وعدم صلاحيتها حسب

¹ - أوجيست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الأول، م. س، ص. 73.

² - أوجيست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، م. س، ص. 242-243.

³ - موليراس، م. س، ص. 242-243.

⁴ - التسماني، "تشخيص المجتمع الجبلي"...، م. س، ص. 29.

⁵ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، م. س، ص. 73.

⁶ - موليراس، مرجع سابق، الجزء الأول، ص. 79.

⁷ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س، ص. 184-185.

مولييراس¹، جعلنا نتوقف عند وثيقة عدلية، تبين طبيعة النزاعات داخل الأسرة الواحدة، وموقع القضاء منها. وجاء فيها: "الحمد لله، لدى شاهديه، وصح غفير² من بني بوزرة لدى شيخهم الفقيه سي الحسين بن السيد محمد بن يوسف، وقع الصلح³ التام القاطع جميع الدعاوي والخصام بين المرأة خدوج بنت الهاشمي الناصر، وصهرها السيد محمد الطيب بن السيد أحمد بن علي المدعو الزيات، فريق أول وبين حمان بن شدي، ادعى عليه من نهب وسرقة المعز وأنكرهما ولم تقم لهما حجة⁴، شهد عليه بذلك وعزه المعز خمسة، قال الأمر بينهم إلى الحلف ثم من حضر، نابعهم للصلح المأمورية⁵، فامثلوا وانتابوا إليه، وعلى أن تعطى المدعى عليه ضمان المذكور لهما ستة ريال، وقبضناهم منه معاينة، وأبرأهم من أمر المعز، ولم يبق لهما قبله مطلب ولا تباعة فيما ذكر، ولا عاق يمين صلحا تاما قاطعا منيرا مبتولا، تساقطوا فيه التعلقات كلها⁶، فالإسقاط التام الذي لا تعقب بعده ولاقيام، وعرفوا قدره، وشهد عليهم من أشهدوه به وهم بآتمه وعرفهم، تقدم ذلك بنحو عامين وستة أشهر، ورسوم بحجة الحرام عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف⁷."

يتبين لنا من خلال هذه الوثيقة—عكس ما ذهب إليه مولييراس—حضور إدارة القضاء بالقبيلة الغمارية وتدخلها الحازم للحسم في النزاعات بين الأسر والأفراد والسعي لتحقيق الصلح، وسيتبين لنا ذلك بشكل جلي فيما سيأتي. بالإضافة إلى ذلك فإن توثيق الملكية بأشكالها المختلفة، في إطار قوانين التعاقد الموروثة عن الشريعة الإسلامية، حسب ما يتبين من خلال مجموعة من الوثائق العدلية، كعقود البيع والكرء والتفويت وغيرها، كان يقوي الالتحام بين عناصر المجتمع الغماري، وهو أمر يدل على وجود نوع من التضامن الاجتماعي بين أفراد القبيلة. وأما النزاعات التي كانت تحدث بين أفراد الأسرة أو بين ساكنة القرية الواحدة، وحتى بين القبائل، غالبا ما تكون حول الأرض، ولا يمكن أن تكون بالضرورة لأسباب عرقية. وعلى الرغم من أن هذه القبائل كانت خاضعة للسلطة المركزية، كما سيتبين، فإنها كانت تتوفر على مؤسسات محلية (الجماعة) التي تقوم بتسيير شؤونها الداخلية⁸. وقد فسر مولييراس وجود هذه المؤسسة باستقلالية المنطقة عن المخزن، ورأى أنه ينعلم فيها تراتب الفئات، وبتساوى فيها الأفراد في اتخاذ القرارات⁹. ولذلك فإن الشخص الذي يتم تعيينه لمنصب قائد

1 - مولييراس، م. س، ص. 75.

2 - جماعة من الناس من قبيلة بني بوزرة الغمارية.

3 - أي أن الاطراف تعرف قطيعة ومشاحنة.

4 - لم تكن للمدعيين حجة على المدعى عليه.

5 - دار الأمور هي محكمة مصغرة تكون غالبا في المساحد للفصل في أمور القرية، وتكون بحضور الفقيه وبعض الأعيان والأطراف المتخاصمة.

6 - بعد دفع المستحقات لم يبق للمدعيين حجة لمتابعة المدعى عليه.

7 - وثيقة خاصة مؤرخة عام 1332هـ/1914م، زدونا بها الأستاذ محمد بن عبد المومن مشكورا.

8 - المختار المراس، القبيلة والسلطة...، م. س، ص. 98.

9 - مولييراس، م. س، الجزء الأول، ص. 77.

القبيلة يكون من أسفل المراتب الاجتماعية، ويميل إلى فرقة وعشيرته، فيكون سببا في البنية الانقسامية للقبيلة. ومن خلال رسالة من والي تطوان محمد بن عبد السلام السلوي إلى قاضي قبائل شرق غمارة، يتبين أن القائد المنتخب من طرف مجلس الجماعة، يتركز عمله على فرض الأمن بالقبيلة والحفاظ على التماسك الاجتماعي "وجهننا ... إليك ليعينوا رجلا منهم ... بجمع كلمتهم ..."¹.

ولا يتم التخلص من هذا النمط الرتيب، إلا بالأخذ بعين الاعتبار النقاط التالية:

أولا: التطورات التي مر منها المجتمع وسيمر بها، بما في ذلك الحركات السياسية الثورية التي أدت إلى إحداث عمليات تغيير اجتماعي واقتصادي، وساعدت على إعادة بناء التركيبة الاجتماعية في هذه المجتمعات.

ثانيا: الاستفادة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبالأخص الأنثروبولوجية والسوسيولوجية واللسانيات، ثم الانطلاق في النظر من داخل المجتمع، قصد استغلال كل ما يقدمه من رموز وإشارات أو حركات.

فالعلوم الإنسانية والاجتماعية لم تبق مكتوفة الأيدي، بل سعت جاهدة لإيجاد كل السبل التي تمكنها من تطبيق مناهج علمية حديثة بمفاهيم متطورة ومتعددة، قصد القيام بدراسات متنوعة، توصلها إلى استنتاجات وخلاصات، تكون أرضية متينة لدراسات مستقبلية، ومن ثم، برز اتجاه مهم يهتم بالأداءات أو الميكانيزمات بدل الاقتصار على العناصر المكونة. وليس من السهل أن نتناول المجتمع الغماري خلال القرن 19م والنصف الأول من القرن 20م، لأن الأمر يتعلق بمرحلتين بارزتين في تاريخ المغرب: فترة ما قبل الاستعمار وفترة الاستعمار، وهو ما يجعلنا نواجه إشكالية صعبة: هل يمكننا الاعتماد على دراسة بمناهجها الحديثة؟ أم نكتفي بما أمدتنا به الوثائق والمصادر؟

المبحث الأول: البنية الاجتماعية لقبيلة غمارة.

1- تصنيف فئات المجتمع الغماري:

تعدد المعايير لتصنيف فئات أي مجتمع، وذلك لاعتبارات تاريخية وسياسية ودينية وثقافية واقتصادية؛ لكن الملاحظ أنها تتداخل أحيانا، فتفرز مجتمعا يعرف نوعا من الديناميكية الناجمة عن تحول عناصر من فئة إلى أخرى، ومع ذلك يغلب طابع التراتب سواء في البادية أو المدينة². بالنسبة للمجتمع الغماري، فقد ارتبطت

¹ - رسالة من والي تطوان محمد بن عبد السلام السلوي إلى القاضي محمد الطيب بن صالح مؤرخة بيوم 11 رجب من عام 1223 هجرية.

² - إذا كان المجتمع الغماري مجتمع تكافل وتضامن، فإن ذلك لا ينفي وجود تمايز بين الفئات الاجتماعية، وتمركز السلطة والثروة في يد فئة معينة داخل المجتمع. ويرى البعض أن ذلك يقلل من حدث الانقسام كنظرية لتفسير التنظيم القبلي. أنظر الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س، ص. 189.

ديناميكية فئاته أساسا بالتطورات التاريخية التي شهدتها المنطقة، انطلاقا من القرن التاسع عشر الميلادي إلى حين خضوعها للحماية الإسبانية سنة 1912م وحصول المغرب على الاستقلال سنة 1956م.

اتفقت جل المصادر على تصنيف واحد لفئات المجتمع الغماري، حيث جعلت من رؤساء القبائل ومشايخها (المقدم أو الشيخ أو قائد أو مجرد عضو جديد من الجماعة¹) في قمة الهرم الاجتماعي البدوي، على اعتبار الامتيازات المخولة لهم، والنفوذ الذي تمنحه لهم السلطة المركزية. ويمكن الاعتماد على بعض العقود العدلية، خاصة عقود الشراء والإرث، لإبراز هذا التفاوت؛ ولذلك، فالأشياخ كانوا عموما من سادة القوم، يملكون أراضي شاسعة وماشية متنوعة، فكانت لهم إلى جانب سلطتهم المدعومة من طرف السلطة المركزية، سلطة مادية اكتسبوها من استحواذهم على وسائل الإنتاج، مما جعل مصادر ثروة تلك الفئة تختلف كما تختلف نوعيتها، وفي هذا السياق يقول العلمي في نوازله "سئل سيدي أبو قاسم بن خجو عن تكون له أشجار الزيتون أو التين، ويريد أن يعطيها بعد الطيب لمن يلقطها أو ينشرها ويحفظها بالنصف"²، "وسئل الفقيه أبو الحسن علي بلقاسم بن خجو رحمه الله عز وجل، عن رجل له أملاك وله ولد يخدم معه تلك الأملاك"³. وهناك نماذج أخرى متنوعة يمكن الاعتماد عليها كمعيار لتصنيف باقي فئات المجتمع الغماري البدوي تتعلق "بالمهور" وأنواع استغلال الأراضي والملكيات كالشركة والمناصفة والخماس الخ، حيث يقول محمد الصغير الهبطي:

فبالنساء يجلبون الخماس **** والراعي والعمال مثل التراس⁴

ونذكر من الحرف اليدوية التي كانت تزاوَل بقبائل غمارة، على سبيل المثال: الحدادة: "ومنهم الرجل الصالح الولي المتواضع في ذات الله الفقيه أبو العباس أحمد الحداد كان يحترف صناعة الحديد، وكان إماما بمسجد الشرفاء من قبيلة فلواط الغمارية"⁵. إمام ويمتهن الحدادة، هذا يوضح لنا أن مكانة هذا الأخير تصنف في المجتمع الغماري ضمن الفئة المتوسطة، لأنه كان يتقاضى أجرا مقابل إمامته بالمسجد، فضلا عن مزاولته لمهنة الحدادة، بالمقارنة مع الفئات الأخرى التي سبق ذكرها.

¹ - الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن، مقارنة سوسولوجية للمجتمع المغربي الحديث 1844-1934، مطابع إفريقيا الشرق، 2004، ص. 119.

² - علي بن عيسى العلمي، النوازل، الجزء الثاني، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1983م، ص. 173.

³ - أبو عيسى المهدي الوزاني العمراني، النوازل الصغرى "المنح السامية في النوازل الفقهية"، ج 3، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1993، ص. 301.

⁴ - رجاء الجبوسي، شفشاون وباديتها ...، م. س، ص. 136.

⁵ - محمد ابن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص. 21.

وفي أحد الخطابات المخزنية نجد ما يلي: "... سيدي الحاج أحمد بن صلح وكافة الطلبة والمجاهدين في سبيل الله، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..."¹، إذ يميز هذا الخطاب بين الحاج أحمد أحد وجهاء وأعيان قبائل غمارة، وقد كان للحاج أحمد شهرة ونفوذ واسعان شملتا قبيلة بني رزين وبني سميح وبني كريب ومتيوة وجزء من بني خالد²، وبعد الوجهاء يأتي الطلبة، أي النخبة المثقفة بالمنطقة كطلاب العلم والفقهاء، ثم "المجاهدين" أي عامة الناس. وبالإضافة إلى هذه العوامل الاقتصادية التي تفسر التمايز الاجتماعي بهذه القبائل، يمكن إضافة عنصر الشرف، باعتباره يساعد على كسب النفوذ داخل المجتمع³، لكنه عامل استثنائي، فالشرف هو القوة المعنوية النابعة من الأصل الشريف الذي تنتمي إليه الأسرة، وكانت الأسر الشريفة تحظى باحترام وتقدير داخل المجتمع الغماري، وقد تستفيد من الهبات والعطايا⁴. ولذلك نجد بعض الأسر بقبائل غمارة تنتحل النسب الشريف لتستفيد من هذه الامتيازات⁵، الأمر الذي يؤكد وجود صراع خفي بين الفئات الاجتماعية داخل القبيلة، إلا أن العمل المادي يبقى وحده القادر على تفسير التفاوتات الاجتماعية داخل المجتمع الغماري.

1.1. الأعيان:

وهم فئة الخاصة بالقبيلة، ويشكلون قمة الهرم الاجتماعي، ويتميزون عن باقي الفئات الاجتماعية بمجموعة من الخصائص كوضعيتهم الاقتصادية الجيدة، والشجاعة والقدرة على الدفاع عن القبيلة⁶، وإليهم يرجع اتخاذ القرارات الحاسمة في المجالس المنعقدة بالقبيلة، ويقومون بدور سياسي واجتماعي مهم، حيث يعتبرون رمزا للديمقراطية لدى الساكنة، ولذلك كانت قوتهم السياسية تنقوى باستطاعتهم تطبيق القوانين وأداء الحق للجماعة⁷. ومن نشاط الأعيان انتخابهم القاضي والقايد بقبيلتهم، والذي لا يكون إلا منهم⁸، وبالإضافة إلى الشروط التي تحددها العديد من الرسائل على أن يكون القائد " عاقلا، حازما، ضابطا يجمع كلمتهم وينفذ

¹ - رسالة من العباس بن المولى محمد بن عبد الرحمان بن هشام إلى الوجيه الحاج أحمد بن صالح مؤرخة يوم 3 شعبان 1276 هجرية الموافق 25 فبراير 1860م.

² - Maldonado Eduardo Vazques, "Gomara en la Guerra Del 60...", op. cit., pp. 41-42.

³ - المختار الهراس، القبيلة والسلطة...، م. س، ص. 120-122.

⁴ - التسماني، تشخيص المجتمع الجبلي...، م. س، ص. 31.

⁵ - التهامي ابن رحمون، شذور الذهب في خير نسب...، م. س، ص 103.

⁶ - الهادي الهروي، مرجع سابق، ص. 143-144.

⁷ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية، قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2008، ص. 192.

⁸ - سعيد أعراب، "ظواهر سلطانية لحراسة الشواطئ المغربية"، مجلة دعوة الحق، العدد 125، يناير وفبراير 1970، ص. 100.

أحكام الشرع المطاع"¹، يرى البعض أن القائد يكون من " أسرة غنية وذات ألقاب مشهورة أو من الأعيان المحليين، ومن أجل انتخابه لا بد من توفره على شروط منها الشجاعة والتجربة والكفاءة الدبلوماسية والنزاهة والغنى والشهرة والأمانة والإخلاص والتأهل في القدرات المعرفية والعلمية والتمكن من فهم كل الأعراف والعادات والتقاليد التي تكون الإطار الوجودي للقبيلة على كل المستويات"²، وبعد اختيار القائد يتصل بعض أفراد الجماعة أو القائد نفسه بالمخزن ليكمل هذا التعيين ويستوفي كافة شروطه الشرعية والسياسية، فيصدر السلطان أو عامله على المنطقة مباشرة ظهيرا غالبا ما يبدأ خطابه كما يلي: "فها نحن كبرنا عليكم خديمنا أحاكم ... ووليناه أمركم، وأسندنا إليه النظر في جميع مصالحكم، وسائر منافعكم وبسطنا يده عليكم، منكم إليه، ومنه إليكم فنامركم أن تكونوا عند أمره ونهيه، وتعملوا بقوله وتسمعوا لرأيه، ومن خالفه منكم، يخف على نفسه ..."³. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على الحضور القوي للسلطة المركزية إلى جانب سلطة فئة الأعيان بالقبيلة، لكن ارتقاء أحد أعيان القبيلة إلى منصب القائد في بعض الأحيان، يكون محط انتقاد شديد من طرف باقي أفراد هذه الفئة، نظرا لإحساسهم أنهم في مستوى واحد، وأن كل واحد يحق له أن يتولى القيادة بالقبيلة. ونتيجة لذلك يختل التوازن بين هذه الفئة، فيتم اختيار القائد من خارج القبيلة، وهو ما يمكن استنتاجه من رسالة السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى محمد اشعاش قائد تطوان يقول فيها: "... وإن متبوة الريف من جملتها (أي من جملة غمارة) عاملها وعاملهم واحد، وقد ولينا عليهم القائد أحمد ابن مرزوق-الزياتي-حيث أرادوه ولا يصلحون معه كما لم يصلحوا مع غيره ..."⁴، ويوصي السلطان في هذه الرسالة أيضا القائد محمد اشعاش بالوقوف إلى جانب قائد متبوة الجديد حتى يتحقق الاستقرار⁵.

وفي فترات من التاريخ المدروس، كان القائد الواحد يحكم قبيلتين أو ثلاث (مثلا بني سميح وبني كريب وبني رزين، كان لهم قائد واحد، وقبيلتا بني زجل وبني زيات لهما قائد واحد)، ففي حوالي منتصف القرن الثالث عشر الهجري كانت امرأة دخيلة⁶ على قرية بني سملولة من قبيلة بني زجل، وحدث أن حملت حملا غير شرعي، فشاع أمرها وبلغ الخبر إلى القائد أحمد بن مرزوق من قبيلة بني زيات، فأمر القائد المذكور الشيخ الفقيه اليزيد من قرية تورات فرقة بني شكورة قبيلة بني زجل أن يفصل في دعوى المرأة الحامل بأن يبيع متاعها للجماعة التي

¹ - رسالة من والي تطوان محمد بن عبد السلام السلاوي إلى القاضي محمد الطيب بن صالح مؤرخة بتاريخ 11 رجب 1223هـ/1808م

² - الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن...، مرجع سابق، ص. 120.

³ - ظهير السلطان المولى عبد الله ابن اسماعيل مؤرخ بيوم 8 شوال 1170 هجرية/1756م، سعيد اعراب، مرجع سابق، ص ص. 99-100.

⁴ - رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى قائد تطوان محمد اشعاش، في منتصف ذي الحجة الحرام 1247 هجرية/1831م، محمد داوود، تاريخ تطوان، المجلد الثامن، ص. 279.

⁵ - نفس الرسالة.

⁶ - كانت تدعى العربية، والعربية في عرف القبيلة هي التي تنتسب إلى عراوة أي المنطقة الحدودية بين الاحتلال الإسباني والفرنسي.

تسكن بها، وأن يباليغ في زجرها حتى تعترف بالفاعل ليزجره أيضا مثل ما زجرها ويتخذ معه نفس الإجراء¹. وهكذا يتضح جليا مدى قوة فئة الأعيان ونفوذهم السياسي داخل القبيلة؛ حيث إن مسألة الأمن تبقى رهينة بقراراتهم، لأنهم قادرون على خلق أي صراع داخل المجتمع.

1-2 الشرفاء:

أثناء تصفحنا للوثائق ورسوم الملكيات وكتب المناقب، لا حظنا أن الفئة الأكثر ثراء وغنى هي فئة الشرفاء، حيث تتمركز الزوايا وأضرحة الأولياء، ذلك أن موارد الولاية (الضريح) تساعد على التراكم (الأراضي والأموال)²، على شكل هبات وصدقات الخ.

لدينا مجموعة من ظواهر التوقير والاحترام لشرفاء قبائل غمارة، تؤكد على أهمية هذا العنصر في الهرم الاجتماعي للمنطقة³. وهذا الواقع الجديد أفرز فئة في قمة الهرم الاجتماعي وهي فئة "النبلاء الشرفاء"، الذين حظوا بتقدير واحترام السلطة المركزية، خصوصا بقبائل غمارة، العصية تاريخيا على الارتباط المباشر بالدولة المغربية، ونشير في هذا الصدد إلى شرفاء أولاد مصمود بقبيلة بني زجل الغمارية الذين حظوا بإعفاءات وإقطاعات خلال الدولة السعدية وحتى الدولة العلوية.

وكمثال آخر على مكانة هذه الفئة في المجتمع الغماري، نذكر ما جاء في ظهير سلطاني خص به زاوية سيدي أحمد الفيلاي: "ولقربهم من الولي الصالح سيدي أحمد الفيلاي⁴، فزاويته موقرة، محترمة، معظمة، ومن لاذ واحتمى بها، كائنا من كان⁵، كان آمنا على نفسه، ومن ... فلا يلمن إلا نفسه"⁶، وتتوفر على نماذج كثيرة من ظواهر التوقير والاحترام تغطي مجموع قبائل غمارة، ومن بينها ظهير سلطاني للشرفاء أولاد بن صالح بقبيلة متيوقة وبني رزين يعظمهم ويوقرهم: "... بحيث لا يتعرض لهم أحد من خلفائنا وأمرائنا بسوء ... وزدناهم شرفا

¹ - رسالة من القائد مؤرخة بتاريخ 1262 هجرية، ومختومة بخاتم مستدير بداخله خديم المقام العالي بالله أحمد بن مرزوق ... أخذت الوثيقة من عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 21.

² - عبد الأحد السبتي، "مصادر التاريخ الاجتماعي: تساؤلات حول مستويات النص التاريخي التقليدي"، في النهضة والتراكم: دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية. مهداة للأستاذ محمد المنوني، دار تونقال، الدار البيضاء، 1986، ص. 326.

³ - مصدر الظهائر، محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 174-186.

⁴ - زاوية سيدي أحمد الفبالاي تقع في قبيلة بني زيات على الضفة اليسرى لواد تغيزاس، شرق امراضن، وقد اقتضت عادة قديمة أن يترك كل بائع عشر بضاعته كيفما كان نوعها لحراس قبة سيدي أحمد الفيلاي، ومن جهته فإن الحارس مطالب بإيواء كل زوار الضريح وهم كثيرون.

(أنظر موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م، س، ص. 264).

⁵ - للمزيد من المعومات حول ظاهرة الاحتماء بالأضرحة والأولياء، أنظر محمد العمراني، مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب، دراسة تاريخية لمسألة الاحتماء بالمؤسسات الدينية والاجتماعية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، الطبعة الأولى، فاس، 2014.

⁶ - أنظر تنمة الظهير عند سعيد أعراب، "ظواهر سلطانية برعاية الربط وحراسة الشواطئ المغربية"، مجلة دعوة الحق، العدد 125، يناير-فبراير 1970، ص. 102.

وتعظيما وحرمة واحتراما ... وعظمتناهم تعظيم الأشراف، زادهم الله شرفا وتعظيما، لأنهم من أختيار أحببنا في الله¹. ومن تعرض لهم في قبيلتهم الغمارية بسوء، فلا يلوم إلا نفسه، وأمرنا يبقى بيدهم حجة لمن عارضهم ...² كما كانت هذه الفئة تعفى من جميع الضرائب والحركات المخزنية فمثلا: "وأخرجناهم من زمرة العوام³ كما خرج عنها أجدادهم وأسلافهم من قديم الزمان ... بحيث لا ينالهم كليف من الكلف المخزنية والوظائف السلطانية"⁴، بل نجد بعض هذه الظواهر تهدد كل من يقترب بسوء إلى هذه الفئة، إذ يقول المولى الحسن الأول في أحدها: "جددنا بحول الله وقوته، وشمال يمنه ومنته، لحملته الشرفاء أولاد سيدي عبد الواحد الجانفي، القاطنين بقبيلة غمارة وغيرها حكم ما بأيديهم من ظهير سيدنا الوالد روح الله روحه ... وحملناهم على كاهل المبرة والإكراه، ومزيد التوقير والاحترام، فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة، أو يحدث لديهم نقصا أو زيادة، ومن حام حول حماهم بسوء، فلا يلومن إلا نفسه. صدر في 7 جمادى الأولى عام 1297 هـ"⁵.

ويبدو أن تعدد الشرفاء بالمنطقة وانتشارهم الواسع بها، أفرز وضعية مضطربة داخل فئات المجتمع الغماري، نتيجة ادعاء أغلب ساكنتها الانتماء إلى النسب الشريف، من أجل إعفائها من المساهمة في أعباء الدولة، خصوصا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، هذه الفترة التي تميزت عموما باستغلال النسب الشريف لأغراض شخصية أو سياسية أو احتمائية أو حتى لصوصية⁶، مما أدى إلى تضرر فئات أخرى أجبرت على تحمل الوظائف المخزنية. لكن خلال فترة أزمة الحكم، وخصوصا بعد وفاة المولى الحسن الأول، واشتداد الضغوط الاستعمارية على المغرب، بدأت الأجهزة الدينية والإدارية تتصارع من أجل الجاه والنفوذ والثروة، حيث صار نقيب الشرفاء يجني أموالا طائلة نتيجة أعمال التزوير في رسوم الانتماء للبيت النبوي الشريف⁷.

إذا كانت ظواهر التوقير والاحترام والإقطاعات هي التي حددت وضع فئة الشرفاء في الهرم الاجتماعي، فإننا نعتقد أن هناك عاملا آخر ساهم بشكل غير مباشر، في بلورة هذا الوضع، يتجلى في لجوء فئات أخرى (العامة) إلى بيع أملاكها بثمان رمزي، وأحيانا منحها إلى فئة الشرفاء دون مقابل، وأغلب الظن أن ذلك كان

¹ - أي من آل البيت.

² - ظهير سلطاني للشرفاء أولاد بن صالح بقبيلة بني رزين ومتيوة.

³ - أي فئة العامة.

⁴ - نفس الظهير.

⁵ - وثيقة بما الطابع السلطاني لمولاي الحسن الأول، وهي محفوظة بمديرية الوثائق الملكية، مخفظة غمارة، 1789 م-1986م، رقم (cote) TH-100.

⁶ - محمد العمراني، مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب، دراسة تاريخية لمسألة الاحتماء بالمؤسسات الدينية والاجتماعية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، الطبعة الأولى، فاس، 2014، ص. 30.

⁷ - رجاء الحبوسي، شفشاون وباديتها...، مرجع سابق، ص. 140.

يحدث لتجنب تعسفات القواد، الذين كانوا غالبا ما يجمعون بين الشرف والسلطة، خصوصا في جباية الضرائب بهذه المنطقة الغمارية. فإذا ثبت الشرف، يصبح الشريف ضمن الفئة التي تتمتع بالتقدير والاحترام، فالواجب، احترامهم وتبجيلهم لوجه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم¹، إلا أن الشرفاء غير متساوين من حيث التقدير والاحترام والتفاضل، بسبب الاختلاف في التقوى والنسب داخل النسب الشريف، فالأتقى منهم أفضل من غيره، أيا كان². وداخل النسب، فذرية القطب مولاي عبد السلام، أكثر احتراما من غيرها في غمارة وجباله³.

ومن الجوانب التي تبين مكانة هذه الفئة داخل المجتمع الغماري، العقوبة التي يمكن أن يتعرض لها كل من لعن شريفا. فالعقوبة حسب المفتي يمكن أن تصل إلى قطع العنق، بمعنى الإعدام. فعن أبي القاسم الغريني، خلال سؤال عن رجلين " أحدهما شريف بعقد في يده، تشاجر مع غير شريف، فقال للشريف لعن الله الشرف الذي تنتسب إليه وشهد عليه بذلك، فأجاب " يصفد في الحديد ويضيف عليه، فإن ثبت قوله بما يجب به الشبوت، ضربت عنقه إن لم يكن فيهم مدفع، وإن لم يثبت ذلك عليه، ضرب بالسوط ضربا وجيعا على قدر ما يفهم من سفهه وقلة دينه وجرأته"⁴. أما في قبيلة بني زجل الغمارية، فقد سب رجل جماعة من آل البيت الكريم، فقال فيه أحد المفتين " الحمد لله، حيث سب السيد علي أشيخان الزجلي القلعي جماعة من الشرفاء بأن قال لهم: يا أولاد اليهود فإنه يلزمه التعزير الشديد ضربا وسجنا زجرا لأمثاله حتى يتوب إلى الله"⁵، وفي نازلة أخرى أفتى علماء المنطقة بـ " وجوب تأديب رجل على قوله لإمام أنت شفار"⁶. ويلاحظ أن السلطة العلوية الشريفة في قراراتها تجاه شرفاء منطقتنا، كانت لها أبعاد سياسية نجملها في النقاط التالية:

- احتواء تنامي الخطر المتمثل في ارتفاع نسبة الشرفاء.
- إقرار سياسة جباية صارمة.
- اختيار العناصر التي ستتولى منصب "النقابة" وانتقاؤها.

¹ - محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي 1894م-1912م...، مرجع سابق، ص. 141.

² - المرجع نفسه، ص. 142.

³ - المهدي الوزاني، المعيار الجديد عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب، الجزء الأول، 2، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية 1996/1417م، ص. 169.

⁴ - المهدي الوزاني، المعيار الجديد...، مصدر سابق، ص. 160.

⁵ - المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال...، م. س، ص. 661.

⁶ - نفس المصدر، ص 662.

1-3 العلماء:

إذا كان شرفاء المنطقة قد استطاعوا أن يحافظوا على مكانتهم الاجتماعية إلى حدود النصف الأول من القرن العشرين، سواء عن طريق الظواهر والرسوم أم عن طريق تلك الثروات التي تراكت لديهم من جراء عمليات البيع والشراء والهبات، فإن المعيارين الإيديولوجي والمادي لم يكونا كافيين لحصر ذلك الترتيب الاجتماعي الذي عرفته منطقتنا، لأنها شهدت ديناميكية وحركية ناجمتين عن تحول عناصر من فئة إلى فئة أخرى. ولعل أبرز عناصر هذه الفئة هم العلماء (الفقهاء) الذين تميزوا من بين كل الفئات بوضع خاص، لما لهم من دور خطير ونفوذ قوي لدى العامة. وقد أشار إلى ذلك الكتاني بقوله: "واعلم أن في التعريف بالعلماء والأولياء والوقوف على حقائقهم فوائد كبيرة ومهمات كثيرة، منها معرفة مناقبهم وأحوالهم، فيتأدب بأدبهم ويقتبس من محاسن آثارهم، ومنها معرفة مراتبهم وأعصارهم، فينزلون منزلتهم لا يخفض العالي عن درجته ولا يرجع غيره فوق منزلته، لأنهم مراتب بعضها فوق بعض وفوق كل ذي علم عليم، ومنها أنهم هدايتنا وأئمتنا"¹، كما تطلعنا أحد الظواهر السلطانية، توقر دارسي العلم: "... رعيا لما هم عليه من (..) والدين والمواظبة على قراءة العلم الشريف"²

لقد تكاملت سلطة الفقهاء إلى جانب الشرفاء، فالشريف يستعمل البركة الموروثة بحكم نسبه الشريف في فض النزاع وحمل الطرفين المتنازعين على التصالح³، والفقهاء يوظف قواعد الشرع في الفتوى وتقنين الصلح. ويظل السلطان في النهاية هو الحكم الأعلى، باستعمال العنف العسكري في حالة إجهاض المحاولة السلمية التي تمت على يد الشرفاء والفقهاء⁴.

وعموما، فقد كان لفئة العلماء في بلاد غمارة وزن سياسي واجتماعي كبير، ويكفي العودة إلى كتب المناقب والنوازل للوقوف على الملامح العامة لطبيعة العلاقة بين العلماء والسلطة السياسية، فعبير التاريخ لم يكن علماء غمارة (ابن ميمون، أبو عبد الله الهبطي، الشيخ الولي التليدي، الأسرة العرضونية والأغصاوية وأسرة بن صالح والنالي والعاصمي...) يخشون في الدفاع عن الحق لومة لائم، فنالوا بذلك تقدير العامة والخاصة واحترامهم.

¹ - محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقيروا من العلماء والصلحاء بفاس، الجزء الأول، طبعة حجرية، 1900/1318، ص.7

² - ظهير المولى الحسن إلى الشرفاء أولاد بن صالح بتاريخ 2 محرم 1307هـ/1891م.

³ - محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822)، ترجمة عن الإنجليزية محمد حبيدة، منشورات المركز الثقافي العربي، الطبعة 1، الدار البيضاء، 2006، ص.37.

⁴ - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية...، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص.418.

وهنا نطرح سؤالاً آخر، وهو هل تغير المسار العام أو الوزن الاجتماعي لفئة العلماء خلال الفترة المدروسة؟

لقد أجمعت المصادر أن علماء المنطقة واصلوا سيرهم المعتاد، اجتماعياً ودينياً وثقافياً وسياسياً لتأطير المجتمع، مواكبة للتطورات العامة التي شهدتها بلاد غمارة خلال الفترة المدروسة، التي تميزت بظروف أفقدت المغرب استقلاله وشهدت بداية الاستغلال الاستعماري للمنطقة.

إن المعيار الأساس لتحديد مكانة فئة علماء غمارة، كان هو موقفها من العلاقات العامة والقضايا المطروحة على الساحة السياسية، خصوصاً من الضغوط الأوربية والاحتلال الإسباني، باعتبارها القناة الأساسية في خطاب السلطة المركزية، مع العامة والخاصة، وما يؤكد على دور هذه الفئة هو إنشائها لمجلس استشاري للمقاومة بعد احتلال المنطقة سنة 1912م، وكان يتكون من علماء وفقهاء القبائل¹.

وقد استمرت هذه الفئة في فك مشاكل المنطقة المدروسة منذ بداية الدولة العلوية إلى عهد الحماية، فمثلاً خلال سنة 1894م جدد السلطان الحسن الأول فيهم الثقة والحكم: "جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه ... الطالبين الأخوين السيد محمد والسيد (القائد) ولدى السيد عبد السلام بن محمد بن الفقيه السيد الطيب بن صالح ولبني عمومتهما² السيد الطيب والسيد محمد ولدى السيد أحمد بن محمد المذكور، حكم ما بيدهم من ظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم"³.

وما يهمنا في هذا الظهير ليس الحديث عن هؤلاء الفقهاء، وإنما التأكيد على أن القضاء بالمنطقة، كان حاضراً حتى في الفترات العسيرة من تاريخ المغرب، حيث إن المغرب خلال نهاية القرن 19م عرف أزمة خطيرة مست كل الجوانب، لكن بالرغم من ذلك لم تفقد هذه القبائل كل توازنها، حيث أصبحت تعتمد على الجماعة في ضبط شؤونها، واستمر القضاء في القبائل المدروسة على يد الفقهاء والعلماء. ومن أبرزهم قاضي قبيلة متيوة الفقيه الطيب بن محمد بن صالح (1870-1961م)، الذي استقر بقرية العرعار، وظل يباشر مهمة القضاء بمتيوة ومسطاسة ونواحيها⁴ إلى حدود فترة الحماية. وقد استدعى قائد المقاومة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي

¹ - محمد ياسين الهبطي، مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإسباني "مقاومة مدينة شفشاون نموذجاً"، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، الرباط، 2012، ص. 66.

² - كانت السلطة القضائية موزعة بين فقهاء أسرة بن صالح، فكان المستقرون منهم بقبيلة بني رزين يحكمون القبائل الغمارية، بينما أبناء عمومتهم بقبيلة متيوة يسهرون على النظر في شؤون هذه القبيلة، لكن بتنسيق مع بعضهم البعض. والدليل على ذلك هو أن جميع الظهائر القضائية بتعيينهم أو تجديد الحكم لهم تذكرهم جميعاً في الظهير الواحد.

³ - ظهير السلطان المولى الحسن، إلى الشرفاء أولاد بن صالح بتاريخ 2 محرم الحرام فاتح عام 1307هـ/1891م (أنظر بوعبيد التركي، الأسرة العلمية الغمارية "أسرة بن صالح"، جريدة الشمال، عدد 333، من 22 إلى 28 غشت 2006م، ص. 5.

⁴ - زدونا بمجده المعلومات السيد محمد بن صالح ابن القاضي المذكور.

كل قضاة القبائل-في إطار تنظيم حركة المقاومة بالشمال المغربي-للبحث فيمن يستحق ممارسة القضاء في كل قبيلة، وإثر ذلك عين الفقيه محمد الطيب المذكور قاضيا على قبيلة متيوة، يوم 14 جمادى الأولى عام 1340 هـ/1922م: "فليعلم الواقف على مسطورنا هذا أننا بحول الله وقوته ولينا حامله العلامة الشريف النسب سيدي الطيب بن سيدي محمد من ذرية الولي الصالح سيدي إبراهيم بن صالح خطة القضاء على قبيلة متيوة ليحكم بينهم بأمر الشريعة..."¹.

كما كانت هذه الفئة تستهدفها الرسائل المخزنية، قصد استنهاض بعض القبائل الغمارية التي تتهاون في أداء ما بذمتها من حقوق ومظالم واجبة عليها، وهو ما في الرسالة التالية: "الحمد لله وحده ... الفقيه سيدي محمد الصنهاجي سلام عليك ورحمة الله بوجود مولانا نصره الله وبعد، فقد أدى تقعد آل قرية ترغة الزياتية الغمارية على الحقوق والمظالم التي من جملتها مال الحمية الذي أداه عنهم إخوانهم إلى تعاطي كل حيلة في التنصل من يدينا بما بأيديهم من ظهائر ساداتنا أسلاف مولانا أعزه الله ورحمهم، فكلما طالبتهم بالأداء وبحسم مادة الفساد التي اضطرت بين أظهرهم أجابوني بمقتضى تلك الظهائر الشريفة ... فقف مع كتابنا نصرا للحق ووقفه أهل الغيرة على الدين، والله يبارك فيك ويحفظك من كل جين، ويصلك 8 ريال على قدرنا لا على مقدارك، فاقبلها لله ولو استطعنا على الجبال ذهبا لكانت في جانبكم لا قيمة لها. 3 رجب عام 1315 هـ"².

وهكذا يبدو أنه عند حالة الحرب وحاجة المخزن للتعينة العسكرية، تكون هذه الفئة هي أول من تستهدفها الخطابات المخزنية، نظرا لما لها من قوة التأثير في المجتمع، وقدرتها على إقناع الناس وتحريضهم على القيام بالجهاد، وهذا الاستقطاب حاول أن يقوم به حتى الاستعمار، قصد تسهيل مأموريته في الاستغلال الاستعماري. ومن جانب آخر يمكن التأكيد على أن بعض أفراد هذه الفئة يرتقون إلى فئة الخاصة، خصوصا الطلبة والشرفاء، فيصبحون من بين أصحاب القرار في قبيلتهم.

ونضيف إلى فئة العلماء فئة "المعلمين" أو بالمعنى الحالي "هيئة التدريس"، فمكانة المعلم الاجتماعية لم تكن موازية لمداخيله، مما كان يضطره إلى التشبث بالمكافأة نقدا كانت أم عينا، خلال المواسم والأعراس والأعياد الدينية، وقد طرحت في هذا الصدد عدة قضايا على فقهاء المنطقة لكنهم أقروا بها وأجازوها³.

والراجح أن الوضع المادي المتدهور للمعلم هو الذي أخذه فقهاء المنطقة بعين الاعتبار في بناء أحكامهم من جهة، وحتم عليه التعاطي لأنشطة أخرى من جهة ثانية، حيث يشير مولييراس إلى هذه الفئة بما يلي: "ومن

¹ - ظهير قائد المقاومة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي للفقيه محمد بن صالح الغماري مؤرخ يوم 14 جمادى الأولى عام 1340 هـ/1922م.

² - وثيقة بما الطابع السلطاني لمولاي عبد العزيز، وهي محفوظة بمديرية الوثائق الملكية، محفظة غمارة، 1789 م-1986م، رقم (cote) TH-100.

³ - عمر ابن عبد الوهاب الشريف الحسني، تنبيه الغافلين في آداب المعلمين والمتعلمين، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، رقم 3456/د، ضمن مجموع، ص. 597.

جهتهم، فإن الطلبة الملتحين يمارسون مهنة مدرسين متجولين، فهم يتركون قراهم حاملين لوحة ونسخة من القرآن الكريم، ويأكلون ويبيتون في المساجد إلى أن يحصلوا في إحدى القرى على وظيفة معلم. عندئذ يتلقون 200 فرنك مقابل عملهم، إضافة إلى الملابس والمأكل والإقامة. ومن الممكن أن يتضاعف مدخولهم بفعل ممارستهم للخياطة التي يتقنها الغماريون¹. لكن ذلك كان يختلف من المدينة إلى البادية، حيث إن معلم البادية الغمارية كان يتسع له المجال لممارسة مهام كثيرة، ويعزى ذلك إلى انتشار الأمية، وإلى نظرة سكان البادية إلى المعلم، مما يخول لهذا الأخير أن يمتحن مختلف الوظائف، كالكاتب والمساعد على حل النزاعات، ناهيك عن إمكانية مزاولته للنشاط الفلاحي؛ إذ يقول موليراس كما رأينا قبل قليل " ومن جهتهم فإن الطلبة الملتحين ... ومن الممكن أن يتضاعف مدخولهم بفعل ممارستهم للخياطة التي يتقنها الغماريون"² وبالتالي فإن المعلم لا يمكن وضعه ضمن فئة الخاصة أو فئة العامة، فذلك مرتبط بالثروات والإمكانات المتوفرة محليا.

1. 4- العامة:

تشكل العامة من معظم ساكنة قبائل غمارة، وتضم مختلف العناصر الوافدة على المنطقة من جهات أخرى خلال فترات متباينة، كما هو الشأن بالنسبة للفئات السابقة³، وتتكون هذه الشريحة العريضة في المجتمع الغماري من الفلاحين البسطاء الذين لم يكونوا يتوفرون على أكثر مما يضمن لهم الكفاف، وفي بعض الأحيان يضطر البعض منهم إلى العمل في أراضي الفلاحين الميسورين "كخماسة" أو "رباعة" لتحسين وضعيتهم المعيشية⁴، ويدخل أيضا ضمن هذه الفئة الحرفيون كالحجاريين والصناع التقليديين، الذين تكون إنتاجاتهم موجهة للاستهلاك المحلي، فيعرضونها في السوق الأسبوعي للحصول على قسط من المال أو مقابل من أشياء أخرى يحتاجها.

وعموما فالفئات الاجتماعية في غمارة كانت تنتظم بشكل متفاوت، حيث لعب الشرف والسلطة والاقتصاد دورا مهما في تصنيف المجتمع الغماري وبقي هذا الوضع حتى دخول الاستعمار الإسباني الذي استطاع أن يوظف هذا التنظيم الهرمي للمجتمع الغماري لصالحه، ليشرع في استغلال خيرات المنطقة.

وقد تجلى تفاوت هذه الفئات الاجتماعية حتى في طبيعة السكن، إذ يقول موليراس بخصوص سكن غمارة: "ويشمل منزل الفقير غرفتين أو ثلاث غرف، يجتمع فيها كل أفراد الأسرة، حيث ينامون فوق الحصائر

¹ - أوجست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م. س، ص. 252.

² - أوجست موليراس، مصدر سابق، ص. 252.

³ - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س، ص. 194.

⁴ - محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار...، م. س، ص. 41.

القديمة، وأحيانا على التبن. أما بالنسبة للأسر الغنية، فإن المنزل يكون شاسعا ويشمل ما بين خمس وعشر غرف بسيطة، لكنها نظيفة ومتوفرة على ما هو ضروري، عكس غرف الفقراء"¹.

1-5- وضعية المرأة بقبائل غمارة.

إن الحديث عن التاريخ الاجتماعي لقبائل غمارة يقتضي منا إبراز مختلف العناصر الاجتماعية، ومن ثم لا يمكن بشكل من الأشكال الحديث عن هذا التاريخ بمعزل عن المرأة، فالمرأة عموما صنعت التاريخ، أنجبت وربت وعلمت ... ويبدو من خلال مجموعة من الكتابات المغربية أو حتى الاستعمارية أن المرأة كان لها دور أساسي في الحياة الاجتماعية لقبائل غمارة، بالرغم من اختلاف وضعها الاجتماعي من قبيلة إلى أخرى، فإن وجودها كان دائم الحضور بقوة إلى جانب الرجل، تسانده في كل أعماله اليومية، كالاكتغال في الحقول. ولم تكن هذه الخاصية تنقص من قدر المرأة، بل إن ذلك كان جزءا من حياتها اليومية، ودورا من أدوارها داخل المجتمع، فكانت تؤديها على أحسن وجه. فإذا عدنا إلى القرن 16م، سنلاحظ ذلك، من خلال ما كتبه مارمول عن المنطقة، فمثلا كان الرزينيون عند خروجهم من القبيلة في رحلة صيد أو الالتحاق بالمجاهدين للدفاع عن المنطقة وصد الهجمات الإسبانية، يتركون لزوجاتهم شؤون المنزل والحرق والرعي²، كما أشار إلى أن الرزنيين كانوا أشد غيرة على نساءهم³، وهو أمر يؤكد المكانة المميزة للمرأة في هذا المجتمع القبلي خلال ذلك العصر.

لقد لعبت المرأة الغمارية دورا هاما في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فعلى أكتافها يقع العبء الأكبر⁴، فهي تشارك في قطع أشجار الغابة (التعشيب) وإحراقها، وتهيئ الحقل والحرق والحصاد والتذرية، والنقل وتربية الماشية، والسقي، وجمع الحطب، بالإضافة إلى الأشغال المنزلية⁵. ومن الأمثلة المتداولة في المنطقة المدروسة للدلالة على وضعية المرأة (المرأة في الدار عمارة، وفي السوق حمارة) فالمرأة أول من يستيقظ وآخر من ينام.

قدم موليراس وصفا دقيقا للمرأة بقبائل غمارة، فعند تطرقه للكلام عن وضعية المرأة الغمارية داخل المجتمع، نجده يصف جمالها وعاداتها وطريقة لباسها ومجوهراتها النفيسة للتزين⁶، كما أكد على مكانتها داخل القبيلة، حيث إنه بالرغم من سيطرة الصراع بين فئات المجتمع خلال نهاية القرن 19م، فالمرأة كانت

¹ - موليراس، مصدر سابق، ص. 222.

² - مارمول لويس كاربخال، افريقيا، م. س، ص. 246.

³ - المصدر نفسه، ص. 248.

⁴ - Filippi (G)-Nicourt (C), "Domestique-Professionnel: La Cohérence du Travail des Femmes-des Exploitations Agricoles Familiales", *Article in Économie Rurale*, n° 178-179, Mars-Juin 1987, p. 314.

⁵ - Hajjarabi (F), "Sauver la Forêt ou Sauver Les Femmes, La Corvée de Bois Chez les Ghomara" in *Jbala-Histoire et Société*, CNRS, wallada, 1991, p. 376.

⁶ - اوجيست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، م. س، ص. 73-74.

تحتزم بشكل كبير، إذ كان بإمكانها أن تنقل داخل القرية لجلب الحطب وسقي الماء، والقيام بأعمال الحقل، دون أن تتعرض لأي أذى¹، وكانت المرأة المطلقة-بسبب عدم قدرتها على الإنجاب-تعيش في كنف أسرته، ولن يكون مصيرها شبيهاً بمصير المرأة الأوربية الكسولة²، فهذا الجرح في بلدانا المتحضرة نادر الوجود في بلاد غمارة، إذ لا يمكن للمرء أن يمزح بشرف النساء هناك³.

وكان زواج العذراوات يتم في فترة مبكرة من حياتهن، لا تتعدى عشرين سنة، وقد يصل قدر مهرهن إلى 5000 فرنك بالإضافة إلى جهاز العروس والحلي، وكان هذا الزواج مبنياً على أسس شرعية، حيث يقوم قاض القبيلة، بعد اتفاق الأطراف المعنية بهذا الأمر، بتحرير عقد الزواج، فيتوج بحفلة زفاف، بطرق تميز المجتمع الغماري عن غيره بعاداته وتقاليد الخاصة⁴، وقد رأى موليراس بقبيلة بني كير، المرأة تقوم بكل الأعمال الفلاحية، كالرعي وزرع الذرة والخضروات، واعتبرها خادمة للرجل، "الذي يظل يزاوّل مهنة (الشرط) تدريس القرآن خارج القبيلة، وبعد تحصيله على قدر مهم من المال يتخلى عن مهنته ويعود إلى قبيلته، عندئذ ستتكلف زوجته بكل شيء، ولن يكون في حاجة إلى القيام بأي عمل، بما في ذلك تعليم القرآن"⁵.

لكن من خلال عقد زواج بين عريسين بقبيلة بني كير، نلاحظ أن موليراس لم يوفق في طرحه هذا، بحيث يتبين جلياً أن الزواج كان يتم بطريقة شرعية، وبشرط قبول الزوجة ورضاها: "... وبعد فقد انعقد النكاح ... بين الفقيه أحمد (كذا) الجريوي وبين ... المصونة المباركة رحمة السعدية (كذا) ... بالغ في ... مبلغ أمثالها على صداق قدره عشرون ريالاً سكة تاريخ ... بما في ذلك عدة حوائج بذالة أزرار ومنصورتان وثلاث سبائر حرير وكذاوار من صوف وريحية وحزام، قدم الجميع لما ذكر ... تزوجها بكلمة الله العلية وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ... بإذنها ورضاها بعد أن علمت بالزوج وما بذلها من المهر، فأفصحت بالرضى والقبول ..."⁶. ومن خلال هذا العقد يتضح طبيعة لباس المرأة الغمارية، والتي تتماشى مع ما ذهب إليه ميشو بليز، والذي أكد أن المرأة العامية في منطقة جبال كانت تلبس قميصاً "تشامير" ذا فتحة إلى حد الحزام المعروف "بالكرزي" وتمشي عادة حافية القدمين داخل البيت وخارجه، وحينما تذهب إلى العمل تلبس قطعة جلد تلف على الساقين تدعى "الطابق". وسارت المرأة على عادة تغيير هندامها في المناسبات والحفلات والأعياد بارتداء قطعة قماش من

¹ - علي بولرياح، "الدراسات الكولونيالية حول المنطقة الشمالية المغربية نموذج أوجيست موليراس"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد 6، 1993، ص. 234.

² - يقصد موليراس بذلك ممارسة الدعارة.

³ - أوجيست موليراس، م. س، ص. 75.

⁴ - المصدر نفسه، ص. 73-74 (سنرى طقوس حفل الزواج في محور متعلق بالعادات والتقاليد).

⁵ - أوجيست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م. س، ص. 231-232.

⁶ - وثيقة خاصة بتاريخ 8 محرم 1347هـ/1931م.

الثوب الخفيف المزركش "ازار" تشده إلى صدرها بحزام فضة يسمى "بزيم"، وتضع فوق ذلك قطعة صوف أبيض تدعى جناح أو حايك¹.

ومن جانب آخر فإن مساهمة المرأة في الإنتاج الفلاحي بقبيلة بني جرير كما في القبائل الأخرى المدروسة، فذلك راجع إلى أن طبيعة العمل في ميدان الفلاحة بالبادية، يتطلب مشاركة كافة أفراد العائلة والتعاون للتغلب على مشقاته، فتساوى المرأة بالرجل أو تكاد في أعمال الحقل، ولدينا في هذا الصدد وثيقة مهمة تعود لسنة 1290هـ/1873م، تؤكد على ضرورة توزيع الغل والحصاد بالتساوي بين الرجال والنساء، حيث استشهد كاتب الوثيقة (القاضي) بفتاوى كل من ابن عرضون والفقير الفاسي² والشريف العلمي في نوازله (انظر الوثيقة)³، هذه الوثيقة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المرأة الغمارية حظيت بمكانة متميزة داخل المجتمع، رغم أن هؤلاء الفقهاء وضعوا دساتيرهم الفقهية خلال القرن 16م أو 17م، فقد استمر العمل بها إلى حدود بداية القرن 20م، وقد كان الفقير ابن عرضون قد أفتى بأن للمرأة الحق في أخذ النصف، فيما عملته لزوجها، وذلك في حالتين:

- إذا توفي عنها زوجها وقام ورثة الزوج يطالبون بحقهم في التركة، فهي قبل أن تأخذ حقها المفروض (الثلث مع وجود الأولاد والربع مع عدمهم) تطالب بحقها في العمل يخرج من تركة الميت، إذ أنه أصبح حقا مفروضا تعلق بعين التركة.

- إذا حدث ما يوجب الطلاق وطلقت بالفعل، يصبح للمرأة الحق في أن تطالب بحقها، ويجب على القاضي أن يحكم لها بذلك، ويسمى هذا الحق لدى أهالي الجبال "بحق الشقا" أي التعب، ومعناه أن لها الحق في جميع الأمتعة التي أنتجتها مع زوجها من غلال ومواش وغيرها، ولا يختص ذلك بعمل دون آخر⁴. هذه المكانة قلما نجد مثلها في باقي المناطق المغربية، وبالإضافة إلى ذلك كانت المرأة تحصل على ملكيات عقارية عن طريق الإرث، كما تبينه مجموعة من الوثائق العدلية، والوثيقة الآتية نموذج معبر عن مطالبة المرأة بحقها في الإرث: "الحمد لله، وكلت الحرة المصونة الدرة المكنونة صفية بنت المعلم لحسن ازعبال الزجلي ولدها السيد

¹ - حنان المدراعي، صورة جباله في الوعي الكولونيالي الفرنسي (نصوص مختارة من الوثائق المغربية ادوارد ميشو بيلير)، منشورات باب الحكمة، تطوان، 2014، ص ص. 53-59.

² - هو أبو عبد الله التاودي بن طالب بن سودة المري الفاسي، من أعظم علماء القرن 12 الهجري، خاصة على مستوى التفسير والحديث والفقهاء والكلام والمنطق والأصول. درس بالخرميين الشريفين ومصر، حاز على رياسة العلم بفاس والمغرب كله، فما بقي أحد ممن ينتمي إلى العلم بالمغرب إلا وله به صلة. وتوفي سنة 1209 هجرية (أنظر عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، الجزء الثاني، مكتبة المديرية ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الرابعة، 1981م، ص ص. 303-304).

³ - وثيقة خاصة بتاريخ 1290 هجرية/1873م، أمداها محمد بن عبد المومن التجكاني من قبيلة بني منصور بالإضافة إلى أزيد من 100 وثيقة حول قبائل غمارة.

⁴ - عمر الجيدي، ابن عرضون الكبير...، م. س، ص ص. 196-207.

محمد بن عبد الفضيل لينوب عنها ويقوم مقامها في استخراج حقوقها وسائر منافعها الواجبة لها إرثا في والدها المذكور بالمدشر المذكور، وأنظاره في واجبها أيضا من أمها...¹ وما يمكن استنتاجه أيضا من خلال هذه "الوكالة" الانسجام التام بين جميع أفراد الأسرة بمساعدة المرأة في الحصول على نصيبها من الإرث وحماية حقوقها، ولكون هذا الإجراء ليس بالأمر الهين، قيام المرأة بتوكيل ولدها أو زوجها أو أخيها لينوب عنها.

وعلى العموم، فإنه بالرغم من عدم توفر معلومات دقيقة حول وضعية المرأة بقبائل غمارة خلال الفترة المدروسة، يمكن القول إنها تركت بصماتها واضحة في مختلف الحقب التاريخية، فبالإضافة إلى موقعها في المجتمع كأم وربة بيت، فإنها كانت تشارك الرجال دائما وتساندهم في حروبهم ضد الغزاة والمستعمرين، بطرق مباشرة وغير مباشرة. ونسوق مثلا على دور المرأة خلال فترة المقاومة للاحتلال الإسباني: "فقد فر رجل من جبهة القتال، فاتجهت زوجته إلى دار القائد اليزيد بن صالح بقبيلة بني رزين²، تقول له إنها تحب زوجها حبا جما ولكنها لم تعد تطيق الحياة بالقربية، بسبب المضايقات التي أصبحت تتعرض لها من طرف نساء القرية، لكونها لم تطالب بالطلاق من زوجها الخائن لجماعة المسلمين، وطلبت المرأة من القائد اليزيد أن يحميها، فكان جواب القائد أنه إذا وافقها على ذلك، فسوف تنضم زوجته إلى باقي نساء القرية، وحينئذ ستكون حالتها أسوأ مما هي عليه"³. وعموما فقد اجمع علماء المنطقة المدروسة على منح المرأة جل حقوقها سواء من خلال "تصديق امرأة فيما ادعته على زوجها من شذوذ"⁴ أو "تصديق امرأة في نفي الزنى عنها"⁵ أو "حق امرأة في استرجاع ما افتدت به"⁶.

يمكن القول من خلال ما سبق، أن المرأة كانت تحظى بمكانة مهمة داخل المجتمع، وامتازت أدوارها باشتغالها بالبيت وخارجه، ومشاركتها للرجل في الأعمال الفلاحية، وفي حالة هجوم الأجنبي على البلاد تقوم بتشجيع الرجال على القتال ومساندتهم، ومد يد العون لهم. وخير ما نختم به هذا المحور المتعلق بأهمية المرأة

¹ - وثيقة خاصة مؤرخة بتاريخ 23 جمادى الأولى 1322هـ/1904م

² - القائد اليزيد بن صالح، من مواليد قرية ازغار بقبيلة بني رزين الغمارية، خلال العقود الأخيرة من النصف الثاني من القرن 19م، نشأ وترى وسط أسرته، لكننا لا نعرف شيئا عن حياته العلمية وتكوينه العسكري والسياسي الذي أهله فيما بعد لتولي مناصب جد مهمة في شمال المغرب، وقال عنه أحمد بوعياشي: كان ينحدر من دار علم وصلاح ورياسة في قبيلته، وكان كفؤا لتلك الرياسة. واشتهر اليزيد بن صالح، خلال فترة المقاومة المسلحة للاستعمار الإسباني بكفاحه إلى جانب قائد المقاومة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي، لطرده المستعمر من غرب الريف، وأسند له قيادة جيش بني رزين والتنسيق بين قادة جيوش القبائل الغمارية الأخرى. وبعد القضاء على المقاومة المسلحة ظل اليزيد قائدا على قبيلته إلى حدود سنة 1937م حيث تولى منصب باشا على مدينة شفشاون، ثم باشا مدينة تطوان سنة 1951م وتوفي بتطوان سنة 1959م.

³ - محمد حكيم ابن عزوز، المرأة المغربية المجاهدة ودورها في الدفاع عن حوزة الوطن (من سنة 1415م إلى 1927م)، منشورات جمعية السيدة الحرة، الطبعة الأولى، تطوان، 2007، ص. 19.

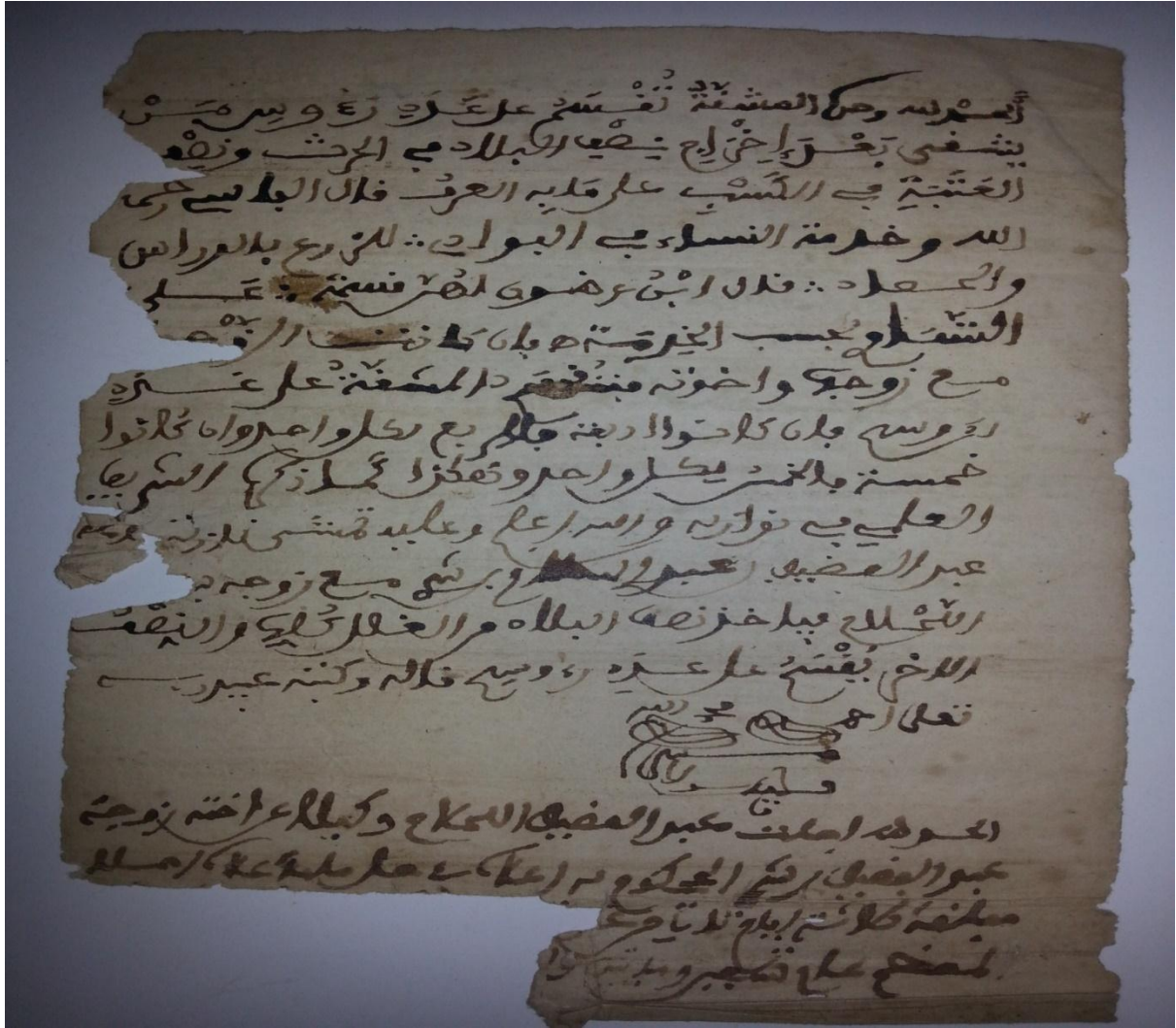
⁴ المواهي، مرجع سابق، ص. 614.

⁵ - المرجع نفسه، ص. 18.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 30.

في بلاد غمارة، ما ذكره موليراس: "لن نغادر غمارة دون الحديث عن عادة محمودة لدى بعض العائلات الغنية والمتمثلة في تعليم بناتها، صحيح أن هذا التعليم يقتصر على حفظ القرآن، لكنه يشكل بداية مهمة، أفضل بكثير من الجهل الرهيب الذي يخضع له آلاف الرجال والنساء بالإمبراطورية الشريفة"¹

وثيقة تبين أهمية المرأة داخل المجتمع الغماري من خلال توزيع الغلل والمحاصيل بالتساوي².



2- أسس التنظيم الاجتماعي بقبائل غمارة.

يختلف التنظيم الاجتماعي القبلي من قبيلة إلى أخرى باختلاف العادات والتقاليد، وبالرغم من ذلك هناك مجموعة من آليات التنظيم المشتركة بين قبائل غمارة عامة، وأهمها مؤسسة الجماعة أو "اجماعة"، وكذلك القضاء الشرعي أو العرفي، ثم الأدوار التحكيمية التي يقوم بها الصلحاء والمرابطون. ولهذا سنعمل على إبراز الأسس التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي بقبائل غمارة.

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 263.

² - وثيقة خاصة مؤرخة بعام 1290 هجرية/1873م، زودنا بها الأستاذ محمد بن عبد المومن مشكورا.

2-1- مؤسسة الجماعة

تعتبر الجماعة أعلى هيئة في القبيلة، فهي تتحمل المسؤولية في تقرير الأعمال التي يجب إنجازها داخل مجالها، من إصلاح للأراضي وحفر للآبار¹، وكافة الشؤون الداخلية كالسهر على الأمن والدفاع، والضرب على يد المجرمين². ويتم انتخاب أعضائها من بين أعيان القبيلة (رؤساء الفرق) كالشيخ أو المقدم أو عضو جديد بالجماعة³. وقد ورد "الشيخ" في مجموعة من الرسائل المخزنية، منها: "حرصنا عليهم شيخهم..."⁴ وفي رسالة أخرى: "ويرجع إلينا ومعه الشيخ الذي يعين لنعرفه"⁵. ويكون مقر الجماعة غالبا في سوق القبيلة أو بالمسجد⁶.

وقد رأى الكثير من الإثنوغرافيين في هذه المجالس المحلية تعبيرا عن استقلال المنطقة⁷، إذ يقول موليراس: "إن هذه الجمهورية الصغيرة (يقصد قبيلة متيوة) ظلت بدون قائد، فهي تدير شؤونها بنفسها، بالاعتماد على ممثلين للأهالي، منتخبين داخل كل قسم، ولا يجتمع أعضاء الجماعة الرئيسية المكونة من مختلف الأقسام إلا في اللحظات العصبية، حيث يتم الحسم في أمور السلم والحرب والذعائر والطرود، وطبعا فإن لكل قرية جماعتها الصغيرة الخاصة بها"⁸. والواقع أن المخزن بعدما تقلصت مداخله لم يكن يتوفر على الإمكانيات الكافية، ليعين في كل أطراف الدولة جاييا وحاميا وقاضيا، فوجد في هذه المؤسسات خير معين، طالما أن أهدافها تقوم على تنظيم المجتمع وصيانة حقوقه. وبذلك لم يكن يتدخل في الشؤون الداخلية للقبيلة، فاكفى بإشراكها في الحدود والمقاييس اللازمة لمجابهة المشاكل المطروحة أمام البلاد قاطبة، كالدفاع الخارجي والتكافل أمام الكوارث الطبيعية والسلم العام⁹. بمعنى منحها الحق في تسيير شؤونها بنفسها، إلا أن هذا الامتياز لا يعني عدم الخضوع للسلطة، فقبائل غمارة ظلت تابعة لسلطة عامل تطوان، الذي يعين من طرف السلطات، طيلة الفترة التي سبقت الاستعمار، كما تبين ذلك مجموعة من الظواهر السلطانية¹⁰. وكان هذا العامل يقوم

1 - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية...، م. س، ص. 196.

2 - عبد العزيز خلوق التمساني، "تشخيص المجتمع الجبلي"...، م. س، ص. 29.

3 - الهادي الهروي، القبيلة، الإقطاع والمخزن...، م. س، ص. 143.

4 - رسالة موجهة للسلطان عبد الرحمان بن هشام من طرف قائد غمارة أحمد بن مرزوق بتاريخ 6 ربيع الثاني 1263 هجرية. أنظر محمد خرشيش، "جوانب من علاقة تطوان بقبائل غمارة خلال القرن 19م انطلاقا من وثائق محلية"، ندوة تطوان قبل الحماية 186-1912، 12-13-14 نونبر 1992، مطبعة الهداية، تطوان، 1994، ص 125.

5 - الرسالة السابقة، من عامل تطوان محمد السلاوي إلى القاضي محمد الطيب بن صالح مؤرخة بيوم 11 رجب 1223 هجرية.

6 - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، م. س، ص. 73.

7 - موليراس، م. س، ص. 73-75.

8 - موليراس، م. س، ص. 79.

9 - عبد العزيز خلوق التمساني، جوانب من تاريخ جبال المعاصر: القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1996، ص. 31.

10 - عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الأول، م. س، ص. 34.

بالتنسيق مع ممثلي هذه القبائل ومع القائد العام لاتحادية قبائل غمارة، في تسيير شؤون هذه المنطقة وضبط أمورها.

وما يجب التأكيد عليه هو أن القبائل الغمارية كانت عبارة عن "كنفدرالية" -اتحادية- مكونة من مجموعة من القبائل: بني منصور وبني خالد وبني رزين وبني سميح وبني جرير وبني بوزرة وبني سلمان وبني زيات وبني زجل ومتيوة. وكانت هذه القبائل تحت حكم بعض الأسر العريقة بالمنطقة، كأسرة ابن مرزوق الزيائية التي توارثت القيادة أبا عن جد، منذ عصر مبكر¹. ومن دون شك أن القائد الغماري كان يستعين بالجماعة وبعض الموظفين لضبط شؤون هذه القبائل، فمن خلال وثيقة عدلية تخص إخبارا عن تبرئة ووقف المتابعة، يتبين لنا أن القائد كان يعين موظفا يفوض له النظر في وقف المتابعة اتجاه الأشخاص المتابعين من طرف الجماعة أو المخزن، "الحمد لله ... يعلم من يقف على كتابنا هذا أننا أبرأنا المكرم اليزيد بن المرابط لحسن بن رهون البلوزان المنصري، من التفرقة الموظفة عليه من إخوانه بحيث لا متابعة لهم عليه، ويرد زرعه الأخضر الذي أخذوه جماعة، فمن وقف على هذا يعمل به ولا يتعداه وكتبه في 30 شعبان الأبرك عام 1344"².

وفي بعض الأحيان يصعب على القائد الغماري إحكام السيطرة على كافة القبائل المذكورة، بسبب نشوب النزاعات بين القبائل، كما حدث بين قبيلة متيوة والقبائل الغمارية المجاورة، حيث قامت الجماعة بقبيلة متيوة باختيار قائدها، وهو ما تخبرنا به الرسالة السابقة الذكر من خلال اختيار القاضي الطيب بن صالح أحد أعيان قبيلة بني رزين، أو كما وقع عندما قام أعيان هذه القبيلة بالمطالبة بالقائد أحمد ابن مرزوق أن يكون قائدا عليهم، كما جاء في رسالة السلطان المولى عبد الرحمان إلى القائد محمد اشعاش: "وقد ولينا عليهم (أي على قبيلة متيوة) القائد أحمد ابن مرزوق حيث أرادوه"³. وعلى كل حال، فإذا كان حضور الجماعة غير واضح بشكل دقيق في القبائل المدروسة، بسبب شح المعلومات، فإنه من خلال بعض الوثائق يمكن إبراز بعض الجوانب من أدوارها، حيث جاء في إحدى الرسائل المخزنية إلى العلامة محمد الطيب بن صالح: "إخوانكم ... بني رزين ومن والاهما يجتمعون ويتفقون على من يتولى القضاء ويشهدون على بعضهم بالعقد ويبعثوا إلينا نكمل لهم ..."⁴. وهكذا يبدو جليا أن اختيار قاضي القبيلة كان باجتماع الأعيان واتفقهم على شخص تتوفر فيه شروط القضاء،

¹ - عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة... الجزء الثاني، م. س، ص. 78.

² - وثيقة خاصة مؤرخة بعام 1344 هجرية، أمدنا بها الأستاذ محمد بن عبد المومن.

³ - رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى قائد تطوان محمد اشعاش مؤرخة بمنتصف ذي الحجة 1247 هجرية. أنظر محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد 8، م. س، ص 279.

⁴ - رسالة مخزنية موجهة للعلامة محمد الطيب بن صالح، بتاريخ 12 ربيع الأول عام 1178 هجرية، وثيقة أوردها سمير بن صالح، قبائل شرق غمارة خلال القرن 18م، م. س، ص. 95.

وكان يحضر هذا الجمع أحد القضاة ليحرر عقد الاتفاق الذي يوقعه أعضاء الجماعة، ثم يبعث إلى السلطان ليختم هذا التعيين بظهير سلطاني.

ومن جانب آخر يبدو من خلال الكلام في نفس الرسالة "بني رزين ومن والاها يجتمعون ويتفقون". فالجماعة لم يكن دورها يقتصر على تسيير الشؤون الداخلية للقبيلة فحسب، بل التنسيق مع جماعات القبائل الغمارية المجاورة، كبني سميح وبني جرير ومتيوة وبني خالد، وخاصة إذا تعلق الأمر بالمصلحة العامة "وأمر القضاء إن كان بموافقة القبائل المذكورة نكمل له"¹، وهكذا يبدو أن مسألة تعيين قاض عام على قبائل غمارة، لا يتم إلا بموافقة كافة أعضاء جماعات هذه القبائل. ومما لا شك فيه أن هذه الموافقة لا تحصل إلا بعد عقد سلسلة من الاجتماعات داخل القبيلة الواحدة، ثم بين القبائل المذكورة.

ومن الحالات التي تتدخل فيها مؤسسة الجماعة نذكر الحالة التالية: "يعتبر جبل تازروت قاسم مشترك بين قبيلتي بني زجل وبني زيات، حيث تسرح فيه الماشية لقرى كثيرة من قبيلة بني زجل وبعض قرى بني زيات، يسرحون فيه الماعز يوميا، وخصوصا في فصل الصيف، ويطلقون فيه باقي المواشي من بقر وبغال وحمير وخيول بدون حراسة، ثلاثة أرباع السنة بدون مراقبة، وفي فصل الشتاء تتم المراقبة، خوفا من ضياعها عند تساقط الثلوج، ولطول المدة يحدث أحيانا أن يقع نزاع على فحل أو بقرة مثلا بين فردين من القبيلتين، لتشابه البقر، فيلجؤون لتحكيم الجماعة، من خلال عادة معروفة بينهم لا يتجاوزونها، وهي أن الذي يجد بقرته أو عجله من قبيلة عند فرد من القبيلة الأخرى، له الحق في أن يطالبه بأن يقدم معه بالعجل أو البقرة إلى قريته، ويطلق العجل بمسرح القرية أي خارج المنازل بحضور الجماعة من القريتين، فإذا لم يذهب العجل إلى منزل المدعي حكمت الجماعة له بعجله، دون قاض ودون محكمة، وإذا لم يذهب العجل لمنزل المدعي، حكم أهل الجماعة بمصيره"².

2-2- مؤسسة القضاء.

يقول مولييراس: "لن نندهش إذا علمنا بأن السلطة القضائية-بالقبائل المدروسة كما في الريف-نفسها مجهولة. ويعتبر الطالب الذي حظي بلقب القاضي مجرد كاتب عمومي لتسجيل بعض الأحداث العامة، كالزواج والطلاق وعمليات البيع والشراء، ولأن قمع الجنايات والمخالفات لا يوكل لأحد بعينه، فإن أقارب الضحية هم الذين يتكلفون بعملية الانتقام"³. لكننا لا نتفق مع مولييراس في أن إدارة القضاء كانت مجهولة، بدليل مجموعة من الوثائق التي تبين حضورها القوي والبارز. كما لا نتفق معه في أن زجر العقوبات والضرب على يد المجرمين،

¹ - تنمة الرسالة السابقة.

² - عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 21.

³ - مولييراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، م. س، ص. 79.

كان من اختصاص القاضي، لأن ذلك كان من مهمات القائد. لكن، إذا كان القاضي يقوم بتحرير العقود كالزواج والطلاق والملكيات العقارية وعقود البيع والشراء، فإن ذلك لم يمنعه من الخوض في حل النزاعات والمشاكل داخل القبيلة أو بين القبائل¹.

وعلى العموم، فإن القضاء بقبائل غمارة كان موجوداً، ومنذ القرن 17م أصبحت فاس المقر الرئيسي لقاضي المنطقة، حيث بعد أن يختم الطالب حفظ القرآن ويتعلم بعض مبادئ الشريعة الإسلامية ببلده، ينتقل للتعلم في العلوم بالقرويين. وحين يصبح متفهماً في الدين وضابطاً لأمر الشريعة والأحكام، يمكن أن يقوم أعيان المنطقة الغمارية باختياره قاضياً عليهم، ثم يقوم السلطان أو من ينوب عنه بإصدار أمره لقاضي الجماعة، لتعيينه. ومن المناصب التي كانت تساعد قضاة المنطقة العدول الذين كان يجب أن تتوفر فيهم مجموعة من الشروط لممارسة عملهم، صحة الشهادة والأمانة والإخلاص. وكان يتم اختيارهم من بين فقهاء القبيلة، ويعتبرون كمساعدين للقاضي الذي يوكل لهم السهر على تنظيم المجتمع داخل القبيلة، بتلقيهم الشهادات وتحريرهم العقود وباقي متطلبات المجتمع. ويتبين من خلال مجموعة من الملكيات العقارية وعقود الزواج أنها غالباً ما تكون موقعة من طرف عدلين أو ثلاثة²، ومثل هذه الحاجيات البسيطة، لا تتطلب زيارة قاضي المنطقة. وفي بعض الأحيان يتوصل العدول إلى حل بعض النزاعات المفتعلة داخل القبيلة، أما النزاعات الكبرى كالنزاعات بين القبائل وأرض الحدود، فترفع إلى القاضي أو القائد، حيث نجد رسالة من السلطان عبد الرحمان إلى القائد محمد اشعاش، يأمره أن يفاصل بني زجل، يقول فيها: "الحمد لله وحده، نأمر خديمتنا محمد بن عبد الرحمن اشعاش أن يفاصل بني زجل مع من استطاع عليهم من الأحماس وينصفهم منهم، حتى لا يبقوا لهم قبلهم حق بوجه من الوجوه ولا بد. والسلام"³. وقد كان المخزن حريصاً على أن يبقى القضاء بهذه القبائل قائماً ومبنياً على الشرع الإسلامي، نظراً لما له من أهمية ودور كبير في تنظيم الحياة الاجتماعية، وتهدة القبائل.

ويبدو أنه بالإضافة إلى العدول، كان للقاضي نواب عنه يباشرون الحكم في جهات معينة بهذه القبائل، بحيث كانت السلطة القضائية موزعة بين فقهاء أسرة بن صالح، فكان المستقرون منهم بقبيلة بني رزين يحكمون القبائل الغمارية، لكن بتنسيق مع بعضهم البعض⁴. وقد استمرت هذه الأسرة في فك دعاوي هذه المنطقة منذ بداية الدولة العلوية إلى عهد الحماية.

¹ - توضح مجموعة من الرسائل المخزنية تدخلات القاضي في حل النزاعات بين القبائل والتوسط بينها وبين المخزن.

² - تتوفر على أكثر من 200 من العقود، ما بين عقود للزواج أو بيع أو شراء، تغطي جل القبائل الغمارية.

³ - وثيقة مؤرخة في 29 ربيع الثاني عام 1249 هجرية، محفظة غمارة 1786 م-1986م، مديرية الوثائق الملكية، رقم TH100.

⁴ - والدليل على ذلك هو أن جميع الظواهر القاضية بتعيينهم أو تجديد الحكم لهم، تذكرهم جميعاً في الظهير الواحد.

وخلص القول فإن سلطة القضاء بقبائل غمارة كانت حاضرة طيلة الفترة المدروسة، وكان لها نفوذ قوي في المنطقة، وحتى في فترة الاستعمار الإسباني احتفظ بنفس المنظومة القضائية الموجودة في البادية الغمارية، ومن ثم كانت هذه السلطة تشكل عنصرا مهما في التنظيم الاجتماعي، وتساهم في تحقيق التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع، وتساعد على التلاحم في إطار أنساق متماسكة اجتماعيا.

3- النظم والأنساق الاجتماعية بالمجتمع الغماري.

إن تطور العلوم الإنسانية، وتعدد تخصصاتها ذلل العقبات التي كانت تعوق القيام في هذا المجال من جهة، وكشف النقاب عن جوانب تتعلق به من جهة ثانية.

ومن بين تلك العلوم، نجد علم الإنسان الاجتماعي، الذي صب اهتمامه على التركيز على دراسة العلاقات الاجتماعية المتسقة وكيفية تنظيمها بين أفراد المجتمع، ودراسة العادات والمعتقدات والقيم، ونحن في هذا الصدد، سنحاول من خلال تعرضنا لأدق تفاصيل تلك العلاقات الاجتماعية، تحليل وتحديد النظم والأنساق الاجتماعية الموجودة في المجتمع الغماري، آخذين بعين الاعتبار عوامل متعددة، منها البيئة والظرفية التاريخية والتطورات التي يعرفها المجتمع إلخ. وللضرورة المنهجية ارتأينا أن نتطرق في هذا المحور إلى العلاقات الاجتماعية. ونخصص المحور التالي لدراسة العادات والمعتقدات والقيم.

لم تنشأ العلاقات الاجتماعية من فراغ، بل هي إفراز لنوع التركيبة الاجتماعية والاقتصادية. ومن بين المعطيات التي اعتمدها اختصاصيو علم الإنسان الاجتماعي "مفهوم القرابة" لما له من أهمية قصوى في تحديد العلاقات والأدوار الاجتماعية بين الأفراد والجماعات. فقد لعبت "القرابة" في المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة دورا هاما في تكوين العلاقات الاجتماعية، لأن التركيبة الاجتماعية مبنية على أساس قوي متين ومتلاحم، كما أن أهدافها مشتركة واقتصادها جماعي. وداخل هذا الإطار "القرابة" يمكننا تحديد وضعية الفرد في المحيط الاجتماعي، ومعرفة التزاماته وواجباته حيال أقاربه والمجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وبقية الجماعات الأخرى التي تربطه بهم علاقات جانبية أخرى. إن الطبيعة الاجتماعية، سواء لحاضرة بلاد غمارة أو باديتها خلال الفترة المدروسة، كانت تتطلب ذلك التلاحم الاجتماعي والاقتصادي الذي فرضته أولا: طبيعة الأنشطة الزراعية والفلاحية، وثانيا: الإنتاجات التقليدية المرتبطة بذلك النوع من النشاط الاقتصادي، وثالثا: الآليات والميكانيزمات التي كانت تحرك دواليبه.

وقبل التطرق إلى تلك العلاقات الاجتماعية بمفهومها الشاسع، حري بنا أن نقوم بدراسة وتحليل الخلية الأولى التي تشعبت منها تلك العلاقات، والقناة التي مرت عبرها مختلف الأنواع التي شهدتها المجتمع الغماري، فهي الأرضية التي يقوم عليها كل أساس اجتماعي ثقافي، وسياسي، واقتصادي إلخ. إنها الأسرة الغمارية سواء في الحاضرة أم في البادية.

تنبني الأسرة المغربية على سلطة الأب، شأن كل المجتمعات الإسلامية، وهذا يجعل الأب هو المسير للأسرة، والمباشر لتوجيهها في أكثر من جيل وتحت سقف واحد. وقد قدمت لنا إحدى النوازل التي طرحت على مفتي البلاد الهبطية الشيخ أبي الحسن علي بلقاسم بن خجو صورة واضحة عن ذلك الترابط الأسري وطبيعة العلاقة الاجتماعية القائمة بين الأب والابن، والتي تختلف عن باقي العلاقات الاجتماعية الأخرى، من حيث التصرف الاجتماعي حيال بعضهما بعضا، ومن حيث الحقوق والواجبات والأدوار الاجتماعية لكل منهما¹.

فسكان المنطقة يشكلون هرما من التجمعات القبلية، فكونفدرالية غمارة تتكون من عشر قبائل، وكل قبيلة تنقسم إلى عدة فحدات، تشكل وحدات جغرافية مضبوطة²، وجماعات منظمة للتحكم في تدبير المجال، والذي يعتبر وحدة متماسكة من عناصر متنوعة، كما أن القبيلة رابطة سياسية تركز على عوامل اقتصادية وجغرافية، أي علاقة الإنسان بالتربة، فالقبائل الغمارية شكلت وحدات سوسيو جغرافية أكثر من اثنية، وتواجهها ارتبط بالتحكم في المجال وتديبره، والدفاع عنه، مما جعلها تكون تشكيلات سوسيو مجالية³، كما أن امتداد المجموعات القبلية يرتبط أساسا بطروف العيش في الجبل والحاجة إلى تأمين الموارد كالرعي والعلف والماء⁴، وبالنسبة لابن خلدون لا تتحدد القبيلة بكونها جماعة منحدر أو متفرعة من جد أول، ولا تتحدد فقط بما قد يجمع بين أعضائها من روابط الدم، فالنسب بمعناه الضيق لا يعدو أن يكون معطى وهميا لا يعتمد عليه أمام وقائع الاختلاط وعلاقة الجوار والتعايش المكاني⁵، فإذا كانت لهذه التقسيمات تنظيماتها ومهامها، فإن مجلس الجماعة يشرف على تسيير الشؤون الداخلية للمدشر، ويتكون أعضاؤه من الرجال القادرين على حمل السلاح، ومهمته النظر في شؤون الفلاحة والرعي وإصلاح الجامع وكراء أراضي الحبوس واستقبال أعوان المخزن، وله الحق في التفاوض مع جماعة أخرى لحل المشاكل التي قد تحدث بين مدشرين حول المراعي والطرق ومياه السقي⁶. كما ينتخب هذا المجلس المقدم الذي يمثله لدى السلطة المخزنية، ويعين فترة استغلال الغابة وحماية المزروعات، كما يتخذ الإجراءات الزجرية ضد القائمين بأعمال القتل والسرقة، مما يوضح أهمية التنظيم داخل المجتمع الغماري وزيف المقولات التي تروج لفكرة السبية داخل القبائل الغمارية. ويشكل شيوخ المداشر مجلسا يمثل الفرقة، ويتمثل دوره في الإشراف على الأمن والدفاع عن الفرقة ومعاينة المجرمين. وإلى جانب هذا المجلس هناك مجلس القبيلة الذي يعتبر أعلى سلطة في القبيلة، ويتكون أعضاؤه من أعضاء مجلس الفرق

¹ - الوزاني، النوازل الصغرى، ج 3، مصدر سابق، ص. 301.

² - Maurer (G) , "Les Paysans du Haut Rif Central", *Revue de Géographie du Maroc*, N 13- 14, 1968, p. 17

³ - Fay (G) , "Dégradation des Collectivités et Dégradation des Milieux (Haut Atlas)" , *Revue de L'occident Musulman et de la Méditerranée*, 41 - 42, 1986, p. 238.

⁴ - Celerier (J) , "La Montagne Marocaine", *Revue de Géographie du Maroc*, N 1-2, 1941, p. 80.

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، 1981، ص. 129.

⁶ - المريني العياشي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية...، ج 3، ص ص. 148-151.

والعلماء والقاضي وشيخ الفلاحين والكسابين والرماة، وبعض الأعيان والوجهاء، وإذا اقتضى الحال، بعض أحفاد الأولياء المعروفين باستقامتهم¹.

ويهتم هذا المجلس بالدفاع المشترك وإعلان الحرب أو الصلح مع القبائل الأخرى، وتنظيم وفود التهاني والهدايا إلى السلطان أو ممثليه في تطوان، بالإضافة إلى الإشراف على سوق القبيلة وتنظيم الزيارات للأولياء، كما يعمل على حل الخلافات القائمة بين الفرق بالطرق السلمية حفاظا على كيان القبيلة.

لقد كان أساس هذا التنظيم القبلي هو التكافل والتآزر، فالأرض تحت ملكية الجماعة يتوقف دور الفرد المنتمي إلى القبيلة على استغلالها، خاصة في الرعي، وتسند له قطعة يستغلها بكل حرية، مما يقلل من الفوارق الطبقيّة بين السكان²، وحظيت الزوايا في هذا التنظيم بأهمية خاصة، لامتلاكها أراضي شاسعة بفعل عملية وقف السكان لأراضيهم لصالحها بشكل مستمر، وتقديم خدمات لهما أثناء الحرث والحصاد، كما يتجلى التكافل بين السكان في عمليات الحرث والحصاد بالطرق الجماعية، التي تحمل اسم التويّزة أو وجود مخازن مشترك³. وتجدر الإشارة إلى أن معظم القضايا التي طرحت على شيوخ المنطقة والتي تتعلق بباديتها، هي التي تعكس أكثر من غيرها نوعية ذلك الترابط الأسري الذي يحرص على الترابط القرابي، يقول العلمي في نوازل: "إن فلانا كانت أمه فلانة خطبت له بنت عمه فلانة بنت عمه فلانة وأجاب أولياؤها"⁴.

3.1- العادات والأعراف بالمجتمع الغماري:

لن تكتمل صورة المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة، إلا إذا تعرضنا إلى المعطى الثالث من عادات وتقاليد وأعراف وقيم اجتماعية، والذي سيساعدنا على تحليل المعادلة التالية: المجتمع الغماري: فئات اجتماعية + علاقات وروابط = عادات وتقاليد وأعراف وقيم اجتماعية.

إن تلك العلاقات الجدلية بين الفئات الاجتماعية والروابط الاجتماعية أفرزت مجموعة من المعتقدات والقيم، حيث تلعب دورا فعالا وحاسما في عمليات التغيير والتحول، خصوصا على المستوى المعنوي (الذهنيات والعقليّات).

¹ - أسرة أولاد بن مرزوق الغمارية ودورها في الدفاع عن حوزة الوطن والمقاومة المسلحة ضد الغزو العسكري الإسباني، أنظر محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الثاني.

² - عبد العزيز خلوق التمسماي، "جوانب من تاريخ جباله"...، مرجع سابق، ص. 45.

³ - المريني العياشي، مرجع سابق، ج 3، ص ص. 5-15.

⁴ - العلمي، النوازل، الجزء الأول، مصدر سابق، ص. 57.

لاحظنا أثناء تصفحنا لبعض المصادر¹ والدراسات أن الخاصية العامة التي طبعت الجانب الاجتماعي بالمنطقة خلال هذه الفترة، هي الطابع السلبي للعادات والمعتقدات والقيم الاجتماعية، باعتبارها نقيضا لمبادئ الشريعة الإسلامية السنية.

ونحن في هذا المقام سنضع جانبا هذا الاستنتاج العام المرتبط بالمعيار الديني الفقهي المحض، وسنحاول إعادة قراءتها، لعلنا نصادف معطيات أخرى، أسهمت في بلورة العقليات والذهنيات العمارية؛ لكن هذه القراءة تحتم علينا التمييز بين المصطلحين التاليين وهما العادات والأعراف:

+ العادات: مفرد عادة، هي تكرر الشيء دائما أو غالبا، على نهج واحد بدون علاقة عقلية، أو هي ما استقر في النفوس من الأمور المتكررة المعقولة عند الطابع السليمة².

+ الأعراف: مفرد عُرف، ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطابع السليمة بالقبول.

لم تكن العادات والأعراف تطرح إشكاليات، وتناقش لتحديد هويتها منذ ظهور الإنسان، حيث لم يكن هناك بديل لها، لكن الذي أتاح الفرصة لإثارة الانتباه إليها بسلبياتها وإيجابياتها، ظهور الدين الإسلامي وما حمله من شرائع وتعاليم. وهي التي منحت لأصحاب الحل والعقد من علماء وفقهاء، تفسيراً وتحليلاً لتلك السلوكيات والتصرفات، التي اصطلح عليها عادات وأعراف وتقاليد، وبعبارة أخرى نظرة الإسلام إلى طبيعة النظم والأنساق الاجتماعية. وخير مثال على ذلك ما جاء في الوثيقة التالية:

"الحمد لله بمحضر شهيديه قد اجتمعوا بني خالد وبني سلمان ... والخصمان هما المكرم عبد السلام بن الحسن الخالدي والمعلم أحمد بن الحاج أخريف الحسيني السلماني، بحسب الوكالة التي بين يده لحضرة الفقيه العالم العلامة الفهامة السيد محمد بن الفقيه الصبار الزياتي على أن يحكم بينهم بالشريعة الإسلامية المطهرة والأجل للحضور عند الفقيه يوم الأحد الآتي ..."³.

من هنا يتضح أن علماء المنطقة وظفوا الشرع الإسلامي لحل جل مشاكل المنطقة، وهكذا أعاد علماء المنطقة النظر في السجلات التي دون فيها شيوخ القبائل أحكامهم وقوانينهم التي نظموا بها سلوكياتهم ومعاملاتهم، وحاولوا الموازنة بين مضمون العادات والتقاليد والأعراف ومبادئ الشريعة الإسلامية. ومن بين أوضح الصور التي يمكن أن نستشف منها تأثير الأعراف والعادات هي النوازل والقضايا المتعلقة بالزواج، ثم مسألة البيوع والعقارات.

¹ - خاصة كتابات ميشو بيلير وأوجيست موليراس وشارل دو فوكو.

² - عمر الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومها لدى علماء المغرب، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1982، ص ص. 34-35.

³ - وثيقة خاصة بدون تاريخ، أمدنا بها الأستاذ محمد بن عبد المؤمن.

3-2 تأثير الأعراف والعادات في تقنين مؤسسة الأسرة:

أ- الزواج: وضع علماء المنطقه قوانين من أجل تنظيم تلك العلاقات الاجتماعية الأسرية وتفادي النزاعات، معتمدين على العرف والشرع، حيث أوضح الوزاني في إحدى النوازل الأسلوب الذي أكد عليه العلماء في تحديد الواجبات والالتزامات، داخل الأسرة الواحدة حينما قال: "ما يعطيه الوالد أول زيارتها له مع زوجها بعد الدخول بها من المواشي هو بينهما، أعني بينها وبين الزوج، هذا إذا جرى العرف بذلك وإلا فلها خاصة"¹. مما يوضح ضرورة إلمام المقنن بتقاليد وعادات الساكنة وأوضاعها. وجرت العادة في بعض قبائل المنطقة أن يتحمل الآباء سداد مهور أبنائهم، خصوصا وأن أغلبهم يستمر في سكنه مع والده ويساهم في الأعباء الشاقة من فلاحه وزراعة الخ، لكن مفتي البلاد الهبطية ركز في حكمه على "البينة" على اعتبار أنها أول وثيقة يبنى عليها الحكم في الشرع وقبله العرف، وبما أنه لم توجد وثائق مكتوبة ولا شهود ولا دليل إقرار، قام اليمين مقام ذلك، فاتضح أن فقيها وازى بين العرف والشرع، وفي نفس الوقت راعى الشروط التي يلزمها هذا الأخير:

العرف ما يعرف بين الناس **** ومثله العادة دون الباس

ومقتضاها معا مشروع **** في غير ما خالفه المشروع²

فالزواج من داخل القبيلة يساهم في الحفاظ على ذلك الترابط بين المجموعات والعشائر القبلية، ويكسبها وحدتها وقوتها وتلاحمها الاجتماعي، وقد اعتبر مسؤولية جماعية، يساهم فيها أغلب أفرادها على أساس العلاقة الاجتماعية القائمة بينهم، والتي تحددها رابطة الدم. ولا تزال بادية غمارة إلى يومنا هذا، تحرص على استمرار هذا النوع من التلاحم والترابط بين المجموعات والعشائر القبلية. لكن نمط الزواج هذا ليس عرفا لا يمكن تجاوزه، بل هو خاضع لتغيير الظروف الجغرافية وبعض العوامل الاجتماعية، فتتم المصاهرة بين قبيلة وأخرى، نظرا لتعرض إحدى القبيلتين لظروف مناخية أو سياسية صعبة، فتضطر إلى عقد هذا النوع من الزواج لاستعمال أراضي ومصادر مياه القبيلة الأخرى، خصوصا في فترات الجفاف أو في فترات الفوضى والاضطرابات السياسية، فهي تضمن إلى جانبها حلفا قويا سياسيا واقتصاديا، إلا أن ذلك لم يكن يجنب القبيلتين المصاهرتين المشاكل والمنازعات الحادة، فقد كانت تنشب صراعات ونزاعات داخل القبيلة الواحدة.

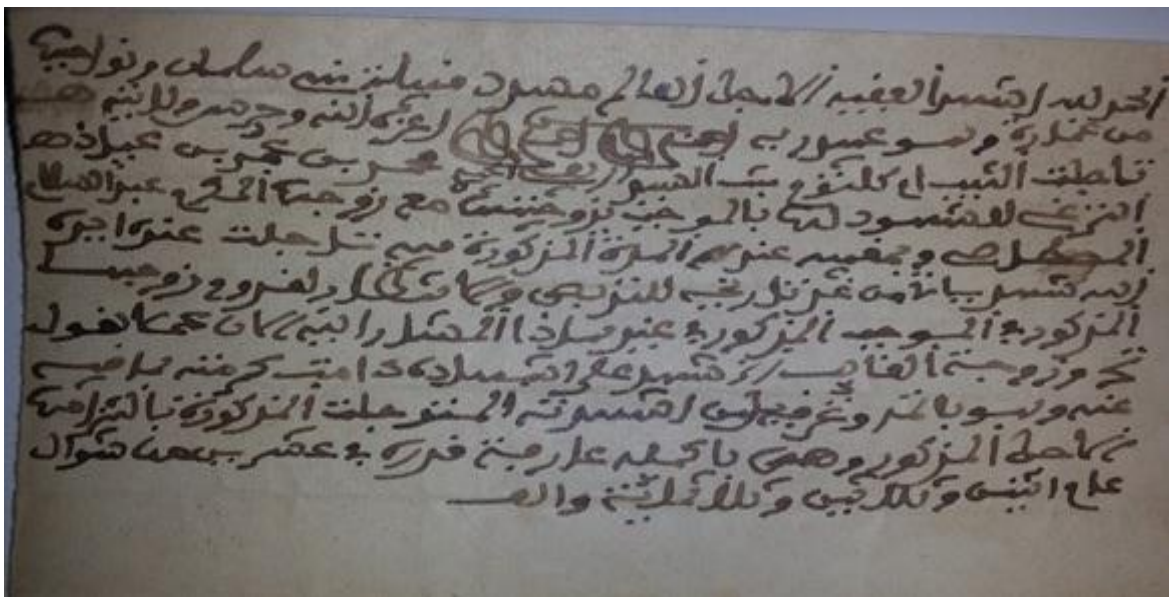
لقد اعتبر ابن عرضون منذ القرن 16م، أن الخطوة الأولى لتنظيم العلاقات الزوجية قبل عقد القران هي اختبار السلوك الديني للزوج والزوجة، وقنن واجبات الزوج من أجل صيانة كرامة الزوجة، بما في ذلك تجنب احتكاكها بالأجانب. وهذه النقطة هي التي أنكرها الفقيه أبو عبد الله الهبطي بمنظومته في الباب الحادي عشر، من انكشاف المرأة المسلمة في عصره على الأجانب كالخماس والراعي والحائك والحجام واليهودي، وأضاف

¹ - الوزاني، النوازل الصغرى، الجزء الثاني، ص. 282.

² - عمر الجيدي، العرف والعمل...، م. س، ص. 83.

الإمام العلامة قاسم بن يامون الخمسي الشروط الأساسية التي يجب على ولي الزوجة أن يلتزم بها، قبل موافقته على عقد القران، والمتمثلة في التكافؤ المادي والمعنوي¹. وإذا قمنا بتحليل البعد الاجتماعي والسياسي للشروط الذي سعى فقهاء الفترة وتلامذتهم تكريسه وتأكيدده، سنلاحظ أنهم حاولوا تجميد هذا النوع من القضايا التي طرحت عليهم، خصوصا وأن الظرفية التاريخية كانت تحتم على علماء وفقهاء المنطقة تجاوز مرحلة التبعية الدينية إلى مرحلة التبعية القومية ضد الغزو الإسباني للسواحل المغربية منذ معركة تطوان 1859م إلى حدود توقيع معاهدة الحماية 1912م. وفي نفس الوقت، جعل الفقهاء للزوج حقوقا على الزوجة للالتزام بها واحترامها، فعليها صيانة نفسها، وعرض زوجها ودينه وعدم خروجها من بيتها إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك. وفي وثيقة نادرة تعود لسنة 1332هـ/1914م، نجد أن علماء المنطقة حاولوا تحقيق التوازن الأسري، دون التحيز لطرف معين، من خلال النظر في شكوى امرأة (أم كلثوم بنت السيد محمد بن عمر بن عياد الترغي) ضد زوجها (عبد السلام المصطاصي) بقبيلة بني سلمان، فأعطى المفتي حق الزوجة المشتكية (انظر الوثيقة).

دور العلماء في تحقيق التوازن الأسري²



أما عن عادات وتقاليد الزواج " العرس"، فقد كان الرجال والنساء يتناولون وجبة خفيفة، كل على حدة، ثم تباشر المفاوضات بعد مواربة قوية، فيتولى الأب مهمة رفض أو قبول تزويج ابنته، لكنه لا يتخذ في العادة أي قرار، دون أن يكون قد استشار زوجته آنفا. ثم يقرأ الرجال الفاتحة، إن حصل توافق بينهم ورضيت الأم بتزويج

¹ - أبو عبد الله محمد التهامي بن المدني كنون الإدريسي الحسني الفاسي، قرة العيون بشرح نظم ابن يامون في آداب النكاح وما يتعلق به مما يجب أو يباح، بعناية بسام عبد الوهاب الجاي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، 2004م، ص 36-37.

² - وثيقة خاصة مؤرخة ب 20 شوال 1332 هجرية/1914 م. أمدا بنا بها الأستاذ محمد بن عبد المومن.

ابتدأ المناقشات حول تفاصيل التنفيذ من قبيل الحديث عن مكونات الهدية التي ستقدم إلى الخطيبة، والتي تتشكل من مقدار من الحبوب، زبدة، ثور، حزام من حرير.¹

وتقتضي العادة أيضا أن تقدم بعض الملابس لأقارب الخطيبة، من قبيل ما يدعى "العضمة" وهي عبارة عن ثوب يستخدم لتغطية الشعر، وبعض الأزياء التقليدية "تشميرا" أو "قندورا"، ويهدى إلى الأب والأخوال كذلك حذاء جلدي يسمى "بلغة" و"رزة" مكونة من خمسة أدرع من ثوب يدعى "حياتي"، ترسل هذه الهدايا إلى منزل الخطيبة في اليوم الأول من حفل الزفاف²، ويعتبر الصداق والهدايا من الحقوق المعقود عليها قبل الدخول في بلاد غمارة، حيث جاء في فتاوى تتحدى الإهمال: "أن رجلا عقد على امرأة من القلعة الزجلية، ولما دعاه أبوها إلى الدخول بها، وهي بالغة مهيأة لاستقبال الرجال، أخذ يتعذر بعدم قدرته على إحضار ما يلزمه، محاولا أن يأتي بها إلى داره، لتمكث معه فيها دون ممارسة الحالة الزوجية، إلى أن يتمكن من دفع الصداق وإقامة حفلة الزفاف، وفي النازلة قال الإفتاء عام 1278هـ "الحمد لله، الواجب على الزوج أن يعمل لها العرس على ماجرت به العادة، فإن ادعى الزوج أنه لم يتهيا له الصداق بعد، فإنه يؤجل فيه، وإذا طلب منه أن تأتي الزوجة إلى داره لتقيم معه فيها ريثما يهيب الصداق، فإنه لا يجب، لأن فيه تنقيصا من قدر الزوجة" والله أعلم بالصواب، قاله وكتبه عبيد ربه أحمد بن الحسن ابن سعادة تغمده الله برحمته"³. ونظرا لأهمية اليوم الأول من العرس، فإنه يدعى "نهار الهدية"، حيث يخطو الموكب الذي يحمل هذه الهدايا على أنغام الموسيقى المعهودة لـ "الطباله" و"الغياطة". ويضم زمرة من الشباب الذين يرمون بالبنادق، يلج كل هؤلاء إلى منزل الخطيبة، ثم يقيم الطباله والغياطة ضجة كبيرة، ويطلق الرماة آخر طلقة، ويتناول بعدها كل من الحمالين والموسيقيين والرماة وجبة مكونة في الغالب من الخبز والعسل. وبعد بضعة أيام يتم تحديد موعد الزفاف، وقد يؤجل العرس لأسباب مختلفة كالحداد مثلا. إن الأعراس تمتد على ثلاثة أيام، إذ يدعى اليوم الأول بـ "البدو"، يتم احتفاء عائلتي الخطيبين بهذا اليوم كل على حدة، حيث يحضر طلبة القبيلة ويطلبون من الخطيب هدية، ويهددونه بربطه غن هو رفض ويقدم لهم في العادة جدبا. يسمى اليوم الثاني "نهار الحنا" ولا يعدو أن يكون احتفالا تقليديا عند الرجل، يتم فيه وضع القليل من الحناء على راحة اليد، وعلى العكس من ذلك، يعتبر الأمر معقدا لدى المرأة؛ حيث يأخذ وقتا طويلا، يتم خلاله تضميخ يدها ورجليها بالحناء، وتظل محتفظة بها إلى غاية الحصول على لون أحمر قان. يطلق على اليوم الثالث "نهار الرواح" أو "نهار العمارية"، تعتبر عمارية جبالة عموما بدائية أكثر من مثيلاتها في المدن⁴، حيث تنقل الفتاة الشابة إلى بيت زوجها فوق بغلة محاطة بأغصان أشجار معطوفة من فوق، ومغطاة

1 - حنان المدراعي، صورة جبالة في الوعي الكولونيالي الفرنسي ... م. س، ص. 53.

2 - حنان المدراعي، صورة جبالة في الوعي الكولونيالي الفرنسي ... م. س، ص. 53.

3 - محمد المبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال ... مرجع سابق، ص. 11.

4 - حنان المدراعي، صورة جبالة في الوعي الكولونيالي الفرنسي ... م. س، ص. 56.

بحايك على شكل صندوق يشبه العماريات التي تستخدم في المدن خلال تلك الفترة، تحمل عائلة الزوج عمارية فارغة فوق بغلة في اتجاه منزل الخطيبة التي تعود صحبتهم رفقة أقاربها، وقد تتعرض العمارية للرجم بمقلاع من قبل صبيان القبيلة، إذا تعلق الأمر بفتاة لا تنتمي إلى القبيلة ذاتها¹.

ب- الطلاق: وقف فقهاء منطقتنا إلى جانب المرأة الغمارية، وحاولوا قصارى جهدهم حماية وصيانة حقوقها الشرعية وضمن احترامها كنصف المجتمع، تجلى ذلك بوضوح في النازلة التي طرحت على علماء فاس واستشكل أمرها على مفتي البلاد الهبطية سيدي أبي القاسم بن خجو، مضمونها أن رجلا غاب عن زوجته مدة خمسة أعوام وترك أملاكه، فرفعت أمرها إلى القاضي ليتمكنها من كاليء صداقها، ورغبت في تعجيل طلاقها، فأمر بما يلي: بالنفقة؛ عدم أخذ كالتها معجل؛ أن يبقى الكاليء في ذمة الزوج إلى أن يظهر أو يثبت موته.

أما في قبيلة بني زجل فقد كان رجل يستغل متاعه ومتاع زوجته، وأراد أن يستبد بالربح ويمنع زوجته منه، لكن الإفتاء جاء ليبين له أن ذلك ليس من حقه أي "وجوب شركة زوجين في ربح ناتج عن مال بينهما"²، وفي نفس القبيلة أصدر العلماء فتوى تبين أن للمرأة الحق في أن تأخذ حقها مع زوجها فيما اكتسبها³.

نستنتج أن معظم القوانين المسطرة في أجوبة العلماء، في أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ساهمت في حماية العلاقات الزوجية. واستمراريتها هي استمرارية للمجتمع الغماري، خصوصا وأن المجتمع كان في حاجة إلى التلاحم والترابط لمواجهة الأخطار المحدقة بالبلاد برمتها، ولهذا السبب أفتى أبو مهدي عيسى الشريف بالتزام الزوج بحق الزوجة في إجبارها على رحيلها عن موطنها بعد عقد القرآن وإلا جعل أمرها بيدها⁴، أو عدم لزوم رجل طلاقا أكره عليه⁵ وكذلك حق تصديق المرأة في نفي تهمة الزنا، الذي أفتى فيها الفقيه الغماري عبد المالك المرابط⁶. ومن الحالات النادرة التي رصدناها حول الطلاق في الفتاوى الغمارية خلال الفترة المدروسة، ما أفتى به الفقيه عبد السلام بن محمد أصبان الحسني حول وجوب الطلاق البائن على رجلين كل منهما حنث في يمينه⁷. ونادرا ما كانت تطرح عليهم نوازل تتعلق بالطلاق، باستثناء بعض الحالات الشاذة (حالة الرجل المجذوم وحالة الرتق)⁸. ويعزى ذلك إلى أن أغلب النزاعات العائلية، كانت تجد من يسعى إلى حلها

¹ - حنان المدراعي، مرجع سابق، م. س، ص. 56.

² - المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال، م. س، ص. 163.

³ - المرجع نفسه، ص. 162.

⁴ - العلمي، مصدر سابق، الجزء الأول، ص. 40-41.

⁵ - المواهي، م. س، ص. 37.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 18.

⁷ - المواهي، م. س، ص. 27.

⁸ - المرجع نفسه، ص. 16-17.

داخل الأسرة الكبيرة والعشيرة الأقربين، وعلى الرغم من حدوث الطلاق أحيانا، فإن الأمل في فسخه والعمل على إغائه كان يظل قائما، بل إن الزوج المطلق نفسه، بعد تلاشي حدة الغليان ودوافع الانفعال، غالبا ما كان يعود إلى طلب الصلح.

ج- الأبناء: انصب اهتمام فقهاء المنطقة على تهئ وسط نقي وبيئة ملائمة، لتنشئة أجيالهم المقبلة؛ حيث جعل للصبي واجبات وحقوقا له وعليه، مؤكداً على أن الآباء مسؤولون مسؤولية كاملة عن سلوكات وتصرفات الأبناء داخل المجتمع، وقسم مراحل تكوين الأطفال، وخصص كل مرحلة بمناهج وطرق معينة في التعامل معهم، وهي كالتالي:

- المرحلة الأولى: وهي فترة حضانة ورضاعة الطفل، وينبغي أن يراقب فيها مراقبة دقيقة، وأن يحسن الآباء اختيار من يتولى هذه المسؤولية، وقد ركز في هذه النقطة على سلوك الحاضنة وعقيدتها. وفي أغلب النوازل التي طرحت على فقهاء المنطقة المدروسة، كانت الحضانة تقتصر على الجد أو الجدة، وفي هذا الصدد يقول العلمي في نوازل: "سئل أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الوهاب الشريف عن امرأة حضنت ابنة بنتها، ثم رغبها جد المحضونة أن تأذن للمحضونة في زيارته، فأذنت لها الحاضنة"¹. أما في نوازل محمد الهبتي المواهي، فقد سئل محمد الصادق بن المختار ابن ريسون الحسني العلمي عن حضانة بنت عبد السلام ابن مرزوق الغماري فقال: "الحمد لله وحده، الصبي أو الصبية إذا مات أبوهما وتركهما بدون وصي عليهما، وخلف الأب ما يورث عنه، فإن النظر في ذلك لمتولي أمور المسلمين وهو قاضي البلد، وعلى هذا فبنت عبد السلام بن مرزوق التي في حضانة والدتها يجب على القاضي أن ينزع مال الصبية المتخلف لها عن أبيها، الكائن تحت يد جدها المعلم محمد كرواج، ويدفعه لمن يقدمه عليها، وألا يجعله تحت يد أمين، وأما إلقاء نصيب المحجورة تحت يد جدها، لا يسوغ ولا يحكم به"². ومن أبرز القضايا التي طرحت على علماء المنطقة بخصوص الحضانة قضية "استحقاق يهودية حضانة أبنائها من زوجها المسلم" فأجابوا بأن الأولاد الصغار لا ينزعون من أمهم إذا كانت غير مسلمة، ولو أسلم أبوهم، وتبقى الحضانة لها وتستمر حتى يبلغ الذكران وتنكح الأنثى ويدخل بها زوجها³.

نستنتج إذن أن الحضانة تسقط على الأموال التي يتركها الآباء، حيث يصبح أمر التصرف فيها لقضاة المحاجر، بينما لا يعتبر الإسلام شرطا أساسيا في الحضانة.

- المرحلة الثانية: وهي حينما تبدو على الصبي مؤشرات التمييز، وعلى الآباء أن تتغير نظرتهم وتعاملهم معه وكأمثلة على ذلك: مراقبة المشي والحركة من خلال منع الصبي من النوم نهارا، لكي لا يتعود الكسل والخمول،

1 - العلمي، مصدر سابق، ص. 294.

2 - المواهي، مرجع سابق، ص. 56.

3 - المواهي، مرجع سابق، ص. 61-62.

وخصوصا إذا كان الفراش ناعما، فإنه لا يحسس الطفل بصلابة جسمه وخشونته، كما يمنع البصاق والمخاط والثآؤب بمحضر أحد ووضع رجل على رجل، وكثرة الكلام¹، ثم مراقبة سلوكاته وتصرفاته داخل البيت وخارجه، فيعود الطفل على القناعة في الأكل واللباس، كأن يجب إليه الإيثار بالطعام وقلة المباهاة به والقناعة بالطعام الخشن، كما يجب التأكيد على ميزتي التواضع والإكرام حتى يعلم أن الرفعة في العطاء لا في الأخذ. كما يراعى الجانب النفسي للطفل، خصوصا فيما يتعلق بمدحه وتشجيعه أو زجره، ويتضح أن الطفل مادة خامة، قابلة للتحويل والتأثر والتأثير داخل مؤسسة الأسرة، قبل أن يواجه المجتمع بكل أنماطه وحيثياته، خصوصا خلال هذه الفترة المدروسة، التي ركز فيها علماء وفقهاء المنطقة على وضع أسس متينة من أجل تتبع مراحل تنشئة الطفل وحمايته من المؤثرات الخارجية (الضغط الاستعماري خلال النصف الثاني من القرن 19م، وعقد معاهدة الحماية خلال النصف الثاني من القرن 20م)، مبرزين دور الآباء في تحمل مسؤولية تصورات وأحكام الأبناء حول التطورات التي يعرفها محيطهم بمفهومه الضيق والواسع، وهو ما ترجمه الصورة التي نقلها لنا موليراس حيث يقول: "وما أن يبلغ الطفل سن الثامنة، حتى يتعلم استعمال الهراوة"²، كما أفتى علماء المنطقة المدروسة على وجوب كفالة اليتيم³ للحفاظ على التماسك الاجتماعي من جهة والتكوين النفسي للطفل من جهة ثانية.

وبناء على ذلك ظهرت لنا الشخصية الغمارية الراضية للتواجد الاستعماري، والواعية بخطورة تغلغله داخل التراب المغربي، ويظهر ذلك في موقف قبيلة غمارة وعلاقتها مع المخزن المغربي والاستعمار الإسباني. لقد شكلت الأسرة الغمارية إذن النواة الأولى للبناء القبلي والخلية الأساسية للإنتاج، وتعرضت لتطور لا يمكن تجاهله خلال الفترة الممتدة بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فالأسرة الكبيرة أو العائلة الممتدة تدهورت بشكل واضح، بسبب ظروف استجدت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحالت دون نمو وتجدد هذا الشكل من التنظيم العائلي، الذي تعرض إلى الانقسام، تقلصت معه مساحات الاستغلاليات الزراعية المشتركة، وتجزأت حصة المياه بين الورثة، لدرجة فقدت معها كل فعالية وانعكس الوضع على تربية الماشية بدورها، إذ في غياب "التقسيم العائلي للعمل" الذي كان جاريا زمن العائلة الكبرى، أصبح كل رب أسرة صغيرة يدبر مصير قطيعه الصغير ومحيطه الضيق، وفق توزيع وقته اليومي⁴.

3-3 تأثير الأعراف والعادات في الحياة العامة:

¹ - عبد القادر العافية، "رسالة التوادد والتحابب/أحمد ابن عرضون"، مجلة البحث العلمي، العدد 27، السنة 1976، ص. 395. أنظر كذلك أحمد ابن عرضون، رسالة التوادد والتحابب، مخطوط بالخزانة العامة بتطوان، تحت رقم 826.

² - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، ص. 251.

³ - المواهي، مرجع سابق، ص. 72.

⁴ - الطيب بياض، المخزن والضرية والاستعمار، ضريبة الترتيب...، م. س، ص. 51.

وجد علماء المنطقة صعوبة كبيرة في حماية المعاملات وتبادل المصالح والتصرفات، من بيع وشراء وعقود وطلاق من سلطة الأعراف والعادات. نذكر أولاً، النيابة العرفية التي تلزم النائب والمنوب عنه شراء شيء أو أداء خدمة، فأقر علماء المنطقة بالتزام عرف وعادة أهل المنطقة¹. وهذا يفسر أن العرف كان بمثابة الحجة والدليل القاطع الذي يرجع إليه، للفصل في مثل هذه المنازعات التي تفرض إمام المفتي بأحوال الساكنة وتقاليدها وعاداتها، حتى يتمكن من إيجاد الرأي الصائب، والحل الأمثل لهذه المشاكل التي أفرزتها التطورات العامة التي عرفتها المنطقة.

ثانياً، العقود المتعلقة بالإيجارات والشركات، حيث ركز فيها القانون العرفي على الأهمية الكبيرة للأرض، من أجل الحفاظ على وحدة الأرض التي هي وحدة الأسرة. وتجدر الإشارة إلى أن أحكام فقهاء المنطقة، لم تقتصر على الأعراف، لأن رغبتهم كانت أكيدة في التخريج والاستنباط لملاحقة التطور الزمني من جهة، وتنوع أعراف الناس وتقاليدهم من جهة ثانية، فلجأوا إلى إعطاء العمل قوة النفوذ والاعتبار والصفة القانونية. وبناء على ذلك، لم يكن للأعراف والعادات تأثير قوي، بالمقارنة مع باقي مناطق المغرب خلال هذه الفترة، خصوصاً وأن الفقهاء لم يقفوا موقفاً متشدداً تجاهها؛ بل حاولوا إيجاد حلول تزوج بين مبادئ الشريعة الإسلامية والممارسات العرفية المتناقضة مع الشريعة، فكتبوا كتباً فقهية يحاولون فيها الحفاظ على ثبات الأسس الفقهية، فأوجدوا للعرف حيزاً في الأحكام الشرعية، من أجل إقناع العقلية الغمارية بأن هذه الأخيرة، مهما تبدلت، سيكون يستبدل الوسائل والأساليب، بما أن المبدأ الأساسي هو إحقاق العدل ومراعاة المصلحة العامة².

أبعض الظواهر الغريبة في المجتمع الغماري. ساهمت هذه المواقف المرنة للفقهاء والعلماء في الكشف عن عادات وأعراف، اصطلاح عليها بدعا أي ظواهر اجتماعية غريبة أو سلوكيات وتصرفات مخالفة للواجبات الشرعية. ومما لاشك فيه أن البدع التي عرفتها المنطقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببنيتها العامة وظرفيتها التاريخية، فعلى الرغم من انتشار الإسلام بالمنطقة وتعدد المراكز الثقافية، التي تزخر بعلماء وفقهاء ذاتي الصيت، فإن ذلك لم يمنع من وجود عادات غريبة بعيدة عن التعاليم الإسلامية ومبادئ الأخلاق السامية، ناجمة عن ترسبات قديمة وإكراهات سياسية واقتصادية، ولعل أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لأخذ تصور عام حول البدع التي تفتت في بلاد غمارة، هو منظومة الشيخ الإمام أبي عبد الله الهبطي والجواهر المختارة، مما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة لأبي محمد عبد العزيز بن الحسن الزباني، بالإضافة لفتاوى تتحدى الإهمال لمحمد الهبطي المواهي، ولا ننسى طبعاً كتابات مولييراس وادوارد ميشوبيلير والأرشييف الإسباني، كلها

¹ - أنظر محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال، الجزء الأول، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998.

² - أنظر محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الجزء الأول والثاني، 1998.

تعتبر وثائق اجتماعية فريدة رصدت عادات ساكنة المنطقة وأخلاقها وتقاليدها في شتى المناسبات العامة والخاصة. والملاحظ أن ابن عرضون حينما عقب على السلوكات الفاسدة، لم يستثن عامة أو خاصة من تحمل المسؤولية في انتشار بعض الظواهر الغريبة، والتي استمر العديد منها إلى يومنا هذا كالوشم والزفن¹ والدرز (انظر الجدول) والاختلاط في الولائم وما صاحبها من المحرمات كالخمر، وإيقاد الشمع بالمنار أمام العمارية وخلفها، وكلها عادات مازالت إلى يومنا هذا.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أن عادة الوشم² بغمارة-التي هي الأجزاء الغربية من جبال الريف-كان يمتنها الوشام الذكر، في حين أن العادة المتبعة في الوشم إلى اليوم في إقليم الريف شرق غمارة وفي كثير من الأقاليم الأخرى، أن المرأة الواشمة هي التي تمارس الوشم على الفتيات والنساء وعلى الرجال أيضا³. وفي هذا السياق وقف مبعوث موليراس على عادات غريبة تميزت بها بعض قبائل غمارة، ومنها أنهم يختارون دجاجة ولكنهم يفضلون أن يكون ديكا أكثر قوة وفتوة، يربطونه في ركن ويعطونه الأكل؛ بل فقط ثمار البلايدور⁴ Belladone وحدها على مدى أسبوع، وعندما يتساقط ريش الحيوان بفعل السم، يذبح ثم يطبخ بالزبدة. فالطالب الضعيف الذاكرة يأكل من الديك مدة ثلاثة أيام، ويبقى نائما وهو مدثر بغطاء دافئ جدا لمدة ثلاثة أيام أيضا، وبعدها يستيقظ رجلا ذكيا وتعود ذاكرته قوية، وهو ما يسهل رواج هذه النبتة في كل ربوع المغرب، حيث يساوي ثمنها فرنكين للطل بطنجة وفرنكا بتطوان وثلاثة فرنكات بوجدة، ويزداد سعر النبتة كلما ابتعدنا عن غمارة⁵. كما رصد صاحب المغرب المجهول عادة قطع الطريق، حيث تعرض مخبره أكثر من مرة للسرقة وقطع طريقه، إذ يقول: "ووصل إلى قاع اسرس بدون مشاكل، علما أن بعض اللصوص كانوا قد اعترضوا طريقه، أثناء ولوجه الأراضي الغمارية، وتركوه شبه عار على شاطئ البحر"⁶. وما يؤكد هذه الظاهرة في المنطقة المدروسة صدور العديد من الفتاوى التي تحرم وتجرم ظاهرة قطع الطريق والسرقة، حيث وجدنا في نوازل محمد الهبطي المواهي النازلة التالية: "وفي قبيلة بني زجل الغمارية سئل مفت عن شخص اتهم بسرقة شيء، وهو مشهور بذلك، فأجاب عن النازلة في إطارها العام، بأنه على الغاصب أن يغرم جميع ما سرق وما غصب، عملا بثبوت

¹ - الزفان لغة: الرقاص. أو العايل (الغلمان) بلغة موليراس، وقد كانت هذه الظاهرة منتشرة في عهد الشيخ عبد الله الهبطي وغيره من فقهاء القرن العاشر، ويبدو من أوصافهم أن الزفان أو الرقاص أو العايل كان شخصا مستهترا بالغ الاستهتار، حيث كان يردد أثناء رقصه مقطوعات غنائية خلية، وهو إلى جانب ذلك يتميز بمندامه الخاص.

² - من أبرز أشكال الوشم المنتشرة في بلاد غمارة شكل يسمى "السيالة" وهو عبارة عن خط عمودي يرسم على ذقن الفتاة تمييزا لها عن الفتى، والسيالة تأخر استعمالها في جبال غمارة، وهي ما تزال تحمل هذا الاسم إلى يومنا هذا، وفي جهات من غمارة ما يزال بعض الناس يقولون "إن لم أفعل كذا فأنا صاحب (سيالة)" أي أنتي.

³ - عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها... م. س، ص. 158.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 245-246.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - موليراس، مصدر سابق، ص. 203.

سوء حاله"¹. ومن العادات الأخرى المرفوضة شرعا، تدخين الكيف والطابة بكثرة، حيث يقول موليراس: "وهم يخصصون لهاتين العشتين بقعا شاسعة في حقولهم، ويعتنون بها بشكل كبير ويبدلون كل جهدهم لحمايتها من فناطيس الخنازير ... وتصدر إلى فاس وتطوان وطنجة"².

الظواهر التي عرفتها قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة³

أنواع الظواهر	عدد تكرارها	تاريخ انتشارها بالمنطقة الغمارية	تاريخ اندثارها بالمنطقة	النسبة المئوية	المصدر
الوشام	+++ +++ ++	متأثرة بالتيارات الخارجية التي غزت	مازالت منتشرة في بعض القبائل الغمارية (نموذج بني بوزرة)	55%	المغرب المجهول، مجلة هيسبريس، الألفية، المغرب الفصيح، منظومة ابن يامون.
الزفان	+++ +++	شمال إفريقيا لكن الحديث	مازالت في معظم القبائل الغمارية.	33%	المغرب المجهول، مجلة هيسبريس الألفية، منظومة ابن يامون.
الزلامة	++	عنها كبعدة أو ظاهرة منافية للتعاليم الإسلامية	انقرضت	11%	المغرب المجهول، مجلة هيسبريس الألفية، منظومة ابن يامون.
الطيرة	+	كان مع ظهور دعاة الإصلاح بالمنطقة أواخر القرن 15م.	مازالت في بعض القبائل الغمارية.	0.5%	المغرب المجهول، مجلة هيسبريس، الألفية
الرفاد	+		انقرضت	0.5%	المغرب المجهول، مجلة هيسبريس، الألفية، منظومة ابن يامون
المجموع	18			100%	

¹ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال...، م. س، ص. 651.

² - موليراس، مصدر سابق، ص. 246.

³ - هناك مجموعة من الأبحاث عن هذه الظواهر في مجلة (هيسبريس) Hespéres الأعداد: الثلاثة أشهر الأولى من سنة 1925م، ص 129. والثلاثة أشهر الرابعة من سنة 1946 من ص. 323 الى 511، والثلاثة أشهر الرابعة من سنة 1948 من ص. 31 الى 56، والثلاثة أشهر الثالثة والرابعة من سنة 1949 من ص. 289-297 و ص. 11-46-333-346، والأشهر الأولى من سنة 1951 من ص. 299-325.

Hespéris, Archives Berbères et Bulletin de L'institut des Hautes-Études Marocaines, Tome 1, 1925, p.129.

Hespéris, op. cit., Tome 4, 1946, pp.323-511.

Hespéris, op. cit., Tome 4, 1949, pp. 11 - 46 - 289 - 333.

Hespéris, op. cit., Tome 1, 1951, pp.299-325.

وتجدر الإشارة إلى أن استهلاك الأعشاب المفسدة لم يقتصر على بلاد غمارة، بل تعداها إلى باقي مناطق المغرب، مما حتم على علماء المغرب خلال الفترة المدروسة (كجعفر بن إدريس الكتاني وعبد الهادي بن أحمد الحسني الصقلي وأحمد بن الخياط الزكاري) إصدار مجموعة من الفتاوى تحرم هذه الظاهرة¹، ثم بعدها استصدر المولى الحسن فتوى من الفقهاء بتحريم تجارة الأعشاب المخدرة بتاريخ 23 محرم (1884/1304م)². وفي نفس السياق يقول محمد حجي: "وفي يوم الاثنين 4 جمادى الثانية 1304 هـ، أمر مولانا الحسن بإحراق ما في الكندرة، بملاح مراكش، من كيف وطابة وما في الأسواق وغيرها، ونهى عن استعمال ذلك والبيع والشراء فيه أو حرث شيء من ذلك، ومن وجد تحت يده يزرع ويردع، وأصدر أمره بذلك لجميع المدن والمراسي والقبائل وغير ذلك"³. وعموما، فسواء كانت هذه العادات صحيحة وموثوق بها أم لا، فإن ذلك يوحي لنا أولا بأن المنطقة كانت غنية بتراث فكري وثقافي شعبي، مرتبط أشد الارتباط بالأعراف والتقاليد الخاصة بها—على الرغم من التطورات وما تحمله من تأثيرات سلبية أو إيجابية (ناذرا)—ويوحي ثانيا بأنها حاولت التكيف مع الواقع بالأسلوب الذي تمليه الظروف، أو الرد على التأثيرات الخارجية، التي حاولت فك عزلتها واقتحام قوتها.

ب— نماذج من العادات الحميدة في المجتمع الغماري: ومن العادات والأعراف الحميدة التي لوحظت في المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة، نذكر منها:

– العقيقة: يذبح ديك عند ازدياد مولود ذكر، ودجاجة عند ولادة أنثى، ثم يعد مرق للنفيسة التي يتعين عليها أن تلبث في غرفتها سبعة أيام، بيد أن الفقر المرتبط بمنطقة جباله عامة يجعل المرأة غير قادرة على المكوث في الغرفة طيلة هذه الأيام⁴، إذ سرعان ما تخرج منها، متفرغة لانشغالاتها المنزلية، حيث تطلق البندقية بعض الطلقات في قوار المنزل من قبل أبي الزوج، أيا كان جنس المولود. ويحتفى بالعقيقة في اليوم السابع (نهار السابع)، ولا تختلف الطقوس الاحتفالية التي يقيمها المجتمع الغماري عن مثيلاتها في القبائل العربية السهلية وفي المدن، حيث يذبح الأب كبشا أو جديا في الغالب الأعم، ويطلق اسما على ولده، ويعد طعاما يتناوله الرجال عند تسمية الطفل، وتحل بعدهم النساء، يحضره والدا الأب ووالدا الأم وجميع أفراد القبيلة. يقدم

¹ – يوجد مجموع هذه المخطوطات في بحث أنجزه عبد الرحيم الدشيري، مجموع في صاكة الأعشاب المفسدة، دراسة وتحريج، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، 2012، ص ص. 60–100، إذ يقول جعفر بن إدريس الكتاني: "بسم الله الرحمن الرحيم ... هذا جواب العلماء للسلطان مولانا الحسن أيده الله مما استشارهم من تسريح صاكة الأعشاب المرقدات المفسدات وغيره ... والذي يعلم أن يدان الحق تعالى به قطعاً ويقيناً، وهو تسريح صاكة هذه الأعشاب مع حرقها حيث ما كانت وعثر عليها من غير ارتياب، وذلك في جميع الرحاب والأمصار وسائر البلدان والأقطار، حتى لا يتوصل أحد من هؤلاء الفسقة إليها ... وأن من اطلع عليه منهم وهو يستعملها أو يزرعها أو يبيع فيها أو يشتري، فإنه تحل به العقوبة الشديدة..."

² – إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 3، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، 2002، ص. 286.

³ – محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، الجزء 8، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص. 2772.

⁴ – حنان المدراعي، مرجع سابق، ص. 60.

الضيوف في العادة لأبوي المولود الجديد هدية مكونة من بعض الخبز، كمية من الدقيق، الزيت، الدجاج والبيض. وتعتبر الهدايا بمثابة دين يتوجب أدائه في أول مناسبة، وينسحب هذا الأمر على بلاد غمارة وجباله وعلى سكان القبائل العربية وسكان المدن¹، حيث يشرع الفرد في رد مقابل ما تلقاه—في مناسباته العائلية المختلفة من عقيقة وعرس—في أول فرصة تصادفه. ويمكن القول بأن هذه الهدايا تشكل إسهاما حقيقيا من جميع أفراد الجماعة للشخص الذي تجبره الظروف على إنفاق مصاريف بالغة. يقص القليل من شعر المولود من مقدمة الرأس تحديدا، بعد أربعين يوما من مولده. ويشكل مناسبة لحفل عائلي صغير، يحضره الأقارب فقط، يتناولون رغيفا يدعى "الفطائر"².

– الختان: تستعمل في قبائل غمارة وحتى جباله كلمة "الطهارة" للدلالة على الختان، وإذا توخينا التدقيق، فإن لفظ الختان أكثر دلالة على العملية التي تجرى من كلمة الطهارة التي تشير إلى الغاية من الختان، وتستخدم قبائل غمارة الكلمة التي تشير إلى النتيجة بدل المصطلح الذي يعني السبب³. ويقام الختن عند قبائل غمارة بصفة خاصة في ذكرى ميلاد النبي (عيد المولد) يوم الثاني عشر من ربيع الأول، حيث يتم الختن عادة في إحدى المزارات الرئيسية في القبيلة (سيد)، إذ يتولى العملية "المعلم الحجام"، حيث يجتمع حول قبة السيد مجموعة من المعلمين؛ ثم يصل الطفل إلى أحدهم. تقوم قبائل غمارة بعملية ختان الأطفال في سن مبكرة جدا، يختلف من أسرة إلى أخرى، ويتراوح بين عشرة أشهر وخمس سنوات على الأكثر، ويلبس الطفل الذي سيخضع للختان زيا جديدا يمثل عادة في "الجلابة"، ويضيف الأغنياء فقط "السلهام"، على غرار ما يجري في المدن وفي القبائل العربية. تضمخ يد الطفل ورجلاه بالحناء، ويربط في عرقوبه الأيمن شريط من الحرير الأحمر، يضم عملة نقدية زهيدة، حبة مرجان، كيس صغير به قليل من الملح و"الشبة" والحرمل⁴. ويحمل الطفل وراءه قدحا يوجد به مسحوق الحناء، غرزت بوسطه بيضة نيئة، ويستخدم مسحوق الحناء لتهدئة الجرح، وتمنح البيضة للمعلم. يتكون الموكب من الطباله والغياطة، وتفرغ طلقات من البندقية في المزار الذي يشهد هذا الاحتفال⁵، يمنح مقدم السيد قدرا ماليا من صندوق المزار للمعلم الحجام لقاء عمله، ويجمع إضافة إلى ذلك البيض المقدم له من قبل أسر الطفل. ثم يعود الطفل إلى حال سبيله بنفس الطقوس الاحتفالية التي أتى بها، أي مرفقا بسيدتين أو ثلاثة من عائلته، يحملن قسبا علقت به خرق أو أحزمة، يصدرن الزغاريت، ويتكون الموكب من

¹ – المرجع نفسه، ص. 60.

² – كلمة تستعمل في منطقة جباله وغمارة، ويرادفها لدى سكان المدن وقبائل السهول لفظ الرغيف. وتستعمل في طنجة وفاس ومكناس كلمة "التريد" للدلالة على نوع شفاف من الرغيف، ويدعى في القصر الكبير والقبائل العربية "الفتات". ولا يعد جباله وبلاد غمارة هذا النوع من العجين.

³ – حنان المدراعي، صورة جباله...، م. س، ص. 62.

⁴ – نفس المرجع، ص. 62.

⁵ – سمي ميشو بيلير هذا الاحتفال بالتخلف الحضاري وهو ما يعكس الخلفية الكولونيالية لهذا الفرنسي المتبحر بتفوقه الحضاري.

الطبالة والغيطة. ويحضر الطعام ذاته إبان كل ختان، يتكون من الخبز والعسل فقط، حيث يجلب سكان القبيلة وكذا الأبوان الخبز، ويجهز أبو الطفل العسل. وتقدم من جانب آخر الهدية الاعتيادية التي سبق أن ذكرنا بأنها مجرد أداء لدين سابق، حيث تمنح النسوة كل واحدة على حدة مبلغا نقديا بسيطا للأُم، لا يتجاوز خمسين سنتيماً¹، ويحتفظ الطفل في عرقوبه الأيمن بالشريط الحريري-الذي وضعت فيه عملة نقدية وحبّة مرجان وكيس من الملح والشب والحرم-إلى أن يشفى تماما.

- المأتم: تحل جماعة القبيلة بمنزل الفقيد بمجرد وفاته لتقول لعائلته العبارة المعتادة " الله يعظم الأجر"، يلبث الرجال في باب البيت، أما النساء فيلجن إليه. يربط إبهاما الميت بخيط، يثبت فكاه بقطعة قماش وتسدل عيناه ثم يغطي، ثم يستعار بعد ذلك "المغسل" الذي يستخدم لغسل الأموات وكذا "النعش" و"المحمل" من مسجد القبيلة، حيث تعد هذه اللوازم في العادة اعتمادا على المال الذي يكون في ملك حبوس المسجد، ويمكن في أحيان كثيرة أن يعدها أحد سكان القبيلة لنفسه، ويجعلها وقفا، ويتفق في بعض الأحيان ألا تتوفر بعض المساجد الصغيرة على حبوس، آنذاك تتولى الجماعة مصارف "النعش" و"المغسل". يوضع الميت فوق المغسل بزیه، وتعين الجماعة إثر ذلك سكان القبيلة الذين يقومون بحفر القبر، حيث لا يقدم أي أجر لقاء هذا العمل، فهو صنيع مجاني مفروض على أعضاء الجماعة في كل قبيلة، وتوجد المقبرة في حاشية القبيلة، وتحيط بـ "السيد"، إن وجد، أو تقع على مقربة من المسجد. ثم يشتري ثوب قطني لإعداد الكفن من القبيلة ذاتها أو من قبيلة مجاورة، ويقتنى أيضا خيط وإبرة لخياطته، إذ يشترط ألا يكونا قد استعملتا من قبل، حيث تستعمل ستة عشر ذراعا من القطن في إعداد الكفن الذي يتكون من عدة قطع². يكتفي الفقراء الذين لا يستطيعون شراء ستة عشر ذراعا بثمانية أذرع قطنية، يعدون بها ما يشبه كيسا مربوطا من تحت القدمين ومن فوق الرأس، حيث لا يخاط الكفن في منزل الميت، بل يتولى هذا العمل صانع مختص أو فقيه المسجد في بعض الأحيان. تقتنى "الدور" أي الشموع والغسول والزعفران والورد الفيلاي والخزامى والعطر. يجتمع جميع طلبة القبيلة والقبائل المجاورة في منزل الفقيد، وتسخن جملة من القدر المملوءة بالماء، ويلج طالبان إلى غرفة الميت ويوقدان شمعة، ويغسلان جسده بعد خلع جميع ملابسه.

إذا توفيت امرأة، فإن النساء هن اللاتي يتولين الغسل، شريطة معرفتهن بكيفية تأدية الصلوات الأساس، ثم يخضع الجسد للوضوء الأصغر والأكبر، ويغسل بـ "الغاسول" والماء الدافئ، ثم يلطخ بالحناء إن وجدت في القبيلة، ويلبس الجسد الكفن الذي كتبت عليه عبارة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" بالزعفران ويضمخ بالعطر، ويوضع فيه الورد الفيلاي والخزامى، ويرش بماء الورد وماء الزهر إن وجد. ويذبح الأقارب بالموازاة مع

¹ - حنان المدراعي، صورة جباله... م. س، ص. 63.

² - المرجع نفسه، ص. 64.

ذلك بقرة أو مجموعة شياه أو جديان حسب ثروة الفقيد، ثم يفتحون المطمورات التي توجد عادة في وسط الدار ويأخذون القمح، ثم يوزعونه على سكان القرية لطحنه، حيث توجد طاحونة يدوية في كل بيت تقريبا، ويحمل القمح المطحون إلى منزل الفقيد الذي تجتمع فيه مجموعة من النسوة، فيقمن بإعداد كسكس كثير اللحم، ويأتي أقارب الميت لتوديعه قبل تغطية وجهه (الزوجة أو الزوج، الأولاد، الأصول إن وجدوا، العمات، الأعمام، الأخوال، أولاد الخالات، أولاد العمات، ولا يحضر الأطفال الصغار هذا الوداع).

يقول ميشو بيلير في هذا الصدد: "يلتزم سكان المناطق الجبلية بالمبادئ الإسلامية في مراسم التآبين، على النقيض من سكان القبائل العربية وبعض سكان المدن، حيث لا يعطي الدفن لجباله فرصة للقيام بمناظر مثيرة للاشمئزاز، نابعة من أسى همجي كما هو الأمر لدى عرب السهول"¹، طبعاً هذه الصورة التي يقدمها لنا بيلير عن مراسم التآبين صحيحة، ولا زالت هذه العادات موجودة إلى الآن في بلاد غمارة وجباله عامة، مما يؤكد لنا مدى تشبث قبائل غمارة بمبادئ الدين الإسلامي عكس ما يدعيه البعض. ويوضع جسد الميت فوق سجادة، ويغطي بـ"حايك" ويوضع في المحمل أو النعش وسط الطلبة، بعد إلقاء الأهل آخر نظرة عليه، إذ يطلق النسوة زغاريت إبان خروج موكب الجنازة من المنزل إذا تعلق الأمر بوفاة فتاة أو رجل لم يسبق لهما الزواج، ثم يقرأ الطلبة القرآن كاملاً، حيث ينصرف كل واحد منهم إلى جزء معين، إلى أن يستكملوا الستين حزياً، بعد الختم، يتناول الجميع الكسكس، ثم يدفن الجسد بعد الانتهاء من الطعام، بعد ذلك يحمل رجل سجادة وحايكا إلى منزل الميت بعد دفنه، وفي ذلك إحياء للنساء اللاتي لا يرافقن جسد الميت بانتهاء المراسيم، فيقمن آنذاك بتناول الطعام. ويذهب الأعراب إلى حال سبيلهم، بعد مغادرة المقبرة مباشرة، ويعود الأقارب وحدهم إلى البيت الذي يظلون فيه حوالي نصف ساعة، ثم يرجعون إلى حال سبيلهم، بينما يتلو الطلبة القرآن حول القبر ابتداء من اليوم الموالي للدفن ولمدة ثلاثة أيام، حيث يرسل لهم الطعام في هذه الأثناء، ويتقاضون أجراً، بينما يذهب أفراد العائلة كل يوم لزيارة القبر. ويستمر ذلك لمدة سبعة أيام، بيد أن النساء لا يذهبن إلا بعد انصراف الرجال. لا يشيد القبر عند قبائل غمارة، بل يغطي وسطه بحجر كبير، محاط بحائط قصير من الحجر الصغير، لكي يحصر الصخر الموجود في الوسط، ويحول دون تدحرجه، يقول موليراس في هذا الصدد: "وتوجد المقابر على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات من القرى، وغالبا ما تكون وسط الغابة، حيث يدفن الموتى تحت الأشجار، وتوضع حجرتان كبيرتان: واحدة جهة الراس والأخرى جهة الأرجل للإشارة إلى مكان القبر، ويتم زيارة الميت يوم الجمعة من طرف النساء والأطفال"².

¹ - حنان المدراعي، صورة جباله...، م. س، ص. 65.

² - اوجست موليراس، مصدر سابق، ص. 237.

عموما، فليس هناك أي اختلاف بين دفن المرأة ودفن الرجل، لكن إذا توفيت امرأة حامل، يضعون عرض المحمل ووسطه حزاما نسائيا، ويوضع الحزام على طول المحمل إذا كانت الفقيدة شابة، أما إذا توفي رجل وترك زوجته حاملا، فإن الحزام يكون في قاعدة المحمل، حتى يعرف الجميع ذلك، ويؤسس لشرعية الطفل الذي سيولد من جهة، وحتى يحذر من أراد الزواج منها بعد انقضاء عدتها المتمثلة في أربعة أشهر وعشرة أيام من أنها حامل. ومن الأوصاف والنعوت الحميدة المستعملة لدى ساكنة قبائل غمارة نذكر ما يلي:

النعوت	المعنى	النعوت	المعنى
امتمر	وهو الشخص الرزين والمتعقل	املح	الرجل البشوش الضاحك، صاحب النكت والطرائف
احفتير	الشديد الجريء المقدام، الصلب الذي لا تلين له قناة	اصمصم	القوي الجسم، الصلب الإرادة، المنفذ إذا عزم، الذي لا يلين ولا يضعف
الحنش	الواسع الدهاء والحيلة، الذكي الذي لا يغلب	اجلذ	الذكي المتوقد الذكاء الذي لا يستغفل بسهولة، والخبير والمجرب
الركون	تقال للرجل المسموع الكلمة، المتميز والمحترم من طرف الجميع	امطرس	الشاب على وشك الخروج من المراهقة، متوقد الذهن، مقدام، ويقال فيه أيضا: امهرز
امحرب	الشخص الفطن الذكي، الذي يخرج من المطبات والصعاب بكل سهولة ويسر، ويتقن فنون العراك والخصام		

4- المعتقدات والقيم الاجتماعية بالمنطقة:

إن الإرث الثقافي والاجتماعي (العادات والأعراف والتقاليد) الذي ترسب في الذاكرة الشعبية على مر العصور، هو إفراز لمجموعة من عوامل داخلية وأخرى خارجية، شلت الفكر والعقل بالمجتمع الغماري وحصرت في دائرة مغلقة، ترفض استيعاب الواقع وتتشبث بظواهر غريبة لتفسير سلوكياتها وتصرفاتها وتعليلها، ويمكن حصر أهم المعتقدات التي شهدتها بلاد غمارة خلال الفترة المدروسة في الجدول التالي¹:

المعتقدات السائدة بغمارة والغاية منها

أنواع المعتقدات	الغاية منها
تعليق الخيوط والخرق في العيون	من شرب منها ينجو من الآفات والجنون
ذبح الحيوان على الرجل المريض وأساس البيت	للشفاء والتبرك، ولجعل دخولهم البيت الجديد مباركا
اقتناء دم الأضحى	طلبا للشفاء من بعض الأمراض والتبرك
جعل العجين والدقيق في فم الأضحى	يحللونه (أي تكون الأضحى حلالا عليهم)
الطيرة من الكلبة والرجوع من طريق السوق	عند مصادفة الكلبة معتقدين أنه فأل سيء

¹ - رجاء الحبوسي، شفشاون وباديتها ...، مرجع سابق، ص. 165.

لتضاعف الإنتاج الحيواني وينمو بسرعة	اتخاذ أحجار واقتطاف نواوير، ليرش بها من ماء العيون على الغنم والبقر
طلباً للتداوي من بعض الأمراض	تعظيم بعض الأشجار والأحجار والدخول والخروج من عروقها
تعظيماً أو توقيراً	تعظيم رأس الكبش وترك أكله
رغبة منهم في زيادة أعداد العجول والخرفان	منع النار
لحمايتها من الحسد (العين) فيكون إنجابها متواليًا	جعل الخروق السود والقشور ونحوه في أعناق إناث الحيوان
حرصهم الشديد على جمع كل الصبية الصغار لحمايتهم من العين	إحضار الصبيان الصغار عند قطع سرّة المولود
يقي الصبي من المس بالجنون أو ما يعرف بأيام الصبيان ¹	وضع السكين الذي قطعت به سرّة المولود عند رأسه ما دامت امه إلى جواره مدة أربعين يوماً

لقد تميزت المعتقدات الاجتماعية بالمنطقة المدروسة بالاعتقاد في بركة الأولياء والتقرب إليهم، على اعتبارهم أنهم يملكون المفاتيح لحل كل المشاكل والمصاعب الناجمة عن مختلف العوامل، ويجب أن نميز هنا بين طبيعة ذلك الاعتقاد من جهة، والممارسات المصاحبة له من جهة ثانية.

ويمكن أن نتساءل: هل كان الصراع بين الأعراف والعادات والقيم الأخلاقية والتعاليم الإسلامية، هو من أفرز تلك الظواهر؟

الواقع أن ظهور فئة (الأولياء) وما صاحبه من ممارسات دينية واجتماعية، كان له تأثير على سلوك وعقليات ساكنة المنطقة، جسده الاعتقاد الراسخ لدى السكان بكل ما يرتبط بهذه الفئة السالفة الذكر، سواء كان ملموساً أم محسوساً، وفي هذا الصدد نشير على ما ذكره ابن عسكر: "وأبدي علماء غمارة ولهذه البلاد المزية التي لا تنكر على سائر بلاد المغرب بنشأة العريبتين العظيمتين المجمع شرفهما ... أبي الحسن الشاذلي وأبي محمد عبد السلام بن مشيش"². كانت البركة والكرامات هي القناة التي ربطت الأولياء بساكنة المنطقة، فالأولى هي الانتماء لآل البيت، أما الثانية فهي الخاصيات التي ميزت تلك الفئة عن باقي الفئات الاجتماعية، وما زالت الروايات الشفوية تتناقل أخبار تلك المناقب والكرامات إلى يومنا هذا، وتعتبرها من المقدسات التي لا يجب المس بها.

فلم يكن التقدير والاحترام الذي ناله مولاي عبد السلام بن مشيش وليد هذه الفترة، فقد أشار أحد مؤرخي المنطقة إلى تلك المكانة التي حظي بها أحد رجالات الفتح الإسلامي الأمير يلصو دفين خميس بني

¹ - أبو العباس أحمد بن الحسن ابن عرضون، مقنع المحتاج في آداب الزواج، تحقيق عبد السلام الزباني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، بيروت 2010م، ص. 61، ويعد هذا الكتاب من أجل كتب المالكية المؤلفة في فقه الزواج.

² - محمد ابن عسكر الحسين الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص. 2.

زرّوال، والذي أصبح قبره مزارا يتبرك به-إلى الآن-وتجتمع فيه عدة قبائل من غمارة والأخماس يوم المولد النبوي، وتأتي الذبائح من كل قبيلة وتختن فيه صبيانهم وقيمون فيه سوفا خاصا للنساء يوم الجمعة.

ليس من السهل تفسير تلك الكرامات التي خصص لأصحابها حيز كبير في كتابات معاصريهم والمتأخرين عنهم، فالنماذج متعددة ومتنوعة، انصبت على جمع كل ما يتعلق بفئة "الأولياء". وبإفراغ محتوى كلمة "ولي" وتتبع دلالتها التاريخية، اتضح أن معناها النصر والحماية والمؤازرة وما شابه ذلك، فكلمة ولي وأولياء قد وردت غير ما مرة في القرآن الكريم، حيث وصف الله تعالى نفسه ولها في كثير من الآيات ووردت كلمة أولياء في القرآن الكريم بصيغة الجمع، للدلالة على عباد الله المقربين، المجاهدين في سبيل الله. ولم تعرف هذه الكلمة التطور إلا بعد ظهور أهل السنة والشيعة والصوفية، حيث ظهرت الأضرحة والقباب وشد الرحال إليها تيمنا وتبركا بالأولياء الذين أصبحوا في اعتقاد الساكنة بمثابة الوسيط بينهم وبين الله. واشترط أن تكون دعوة الولي مجابة وأن تظهر على يده كرامات تجلب المنافع والفوائد في الشدائد والمصائب من حروب ومجاعات وأوبئة.

والملاحظ أن الاعتقاد انتقل من الماديات إلى المعنويات، هروبا من ذلك الجو المشحون بالضغوطات الداخلية والخارجية، فما هو الحافز الحقيقي الذي دفع تلك الفئات المحرومة إلى الاعتقاد في الأولياء؟ ومن ساهم في زرع تلك البذرة في عقليات وذهنيات ساكنة المنطقة؟ مع الأخذ بعين الاعتبار أن القرن 19م والنصف الأول من القرن 20م شكلا أصعب فترة عاشها المغرب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا؟

إن أهم ما يعزز ذلك الاعتقاد في الأولياء، هو تلك الممارسات المصاحبة لها¹، دينيا واجتماعيا، لكن الملاحظ أن كتب المناقب هي التي ساهمت في الحفاظ على هالة التقديس حول الشيوخ، من خلال تبرير سلوك هؤلاء ودفع الشكوك والشبهات عنهم، وأصبحت أداة إقناع لكسب الأتباع والمريدين. فهل شكل هذا العمل خطاب فئة من العلماء لإثارة الرأي العام، استغلال سذاجة العقليات والظروف التي كانت تتخبط فيها؟

لا ريب أن الصورة التي ظهر بها الأولياء، هي التي أحدثت نقلة نوعية في تفكير الساكنة تجاه كل ما يحيط بها، لأن الكرامات أخذت حيزا كبيرا في مخيلاتها واعتقاداتها، فأصبحت ترى في "الولي" رمزا من رموز الهداية وحاجزا لدرء كل الأخطار المادية والبشرية، وهذا ما يشير إليه صاحب المغرب المجهول² حيث يقول: "وكان أحد أحفاد الرسول سيدي محمد اخمريش وهو مقدم زاوية الخمارشة، يقوم بجولة ببني خالد، حيث كان يجمع الهبات ويستقبل بحفاوة في كل مكان، ويبارك المحسنين ويلعن البخلاء، وكان الأهالي يقبلون يديه ورجليه، أما هو فكان يتركهم يفعلون ذلك، لاقتناعه بأن ذلك من واجبه... وكان الرجال بمقر إقامته، يدخلون مصطحين معهم أبناءهم، للتبرك بالشريف الذي يسأل كل واحد منهم:

¹ - تقدم الذبائح والهدايا والإقطاعات للأولياء والتي ما زالت موجودة لحد الآن.

² - أوجيست مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 258.

- ماذا تتمنى؟

وعادة ما يكون الجواب واحدا بالنسبة للجميع وهو:

- أتمنى أن يحفظ كتاب الله وأن يصبح عالما.

عندها يدعو السيد الطفل للاقتراب منه، ويكون هذا الأخير على علم بما سيقع، فيفتح فمه ليتلقى بصقة الشريف، ويعلن هذا الأخير فور ذلك:

- يقرأ إن شاء الله.

وبينما يتلع الصغير المسكين بنشوة عميقة "الريق المقدس"، يضع الأب هديته بأحد الأكياس الموضوعة قرب الشريف".

يتضح من خلال هذه الحادثة التي نقلها موليراس مدى ترسخ ظاهرة الاعتقاد في الأولياء من طرف أهالي قبائل غمارة، وإن كان موليراس قد بالغ في وصفها، بحكم محاولة إظهار تخلف ساكنة المنطقة، ليعطي المبرر لفرنسا للتدخل في المنطقة وإخراجها من جهلها. ويجب التأكيد على أن الارتباطات الذهنية والاجتماعية تظل سائدة حتى بعد وفاة الأولياء، وما يؤكد ذلك أن قبور الصالحين ظلت تشكل محط اهتمام وتعظيم الساكنة الغمارية، ويتجلى ذلك بوضوح في المواسم الكثيرة والمحافل التي خصصت خلال موسم كل ولي، نذكر على سبيل المثال موسم سيدي محمد البوهالي (قبيلة بني سميح) وموسم سيدي أحمد الفياللي وموسم سيدي أحمد الغزال (قبيلة بني زيات) وموسم سيدي عبد المومن بتوجكان (قبيلة بني منصور)، ولا ننسى موسم مولاي عبد السلام بن مشيش الكبير الذي قال عنه أبو الربيع سليمان الحوات: "اشتهر فيما بين العوام لمكان القرب أنه حج المسكين، يأتونه رجالا ونساء من كل فج عميق ... منه وكل بما أمله في وجهته وزائره في حضرة السعادة"¹، كما نشير في هذا الصدد إلى قبائل غمارة التي كانت تشد رحالها (ما تزال إلى يومنا هذا) إلى هذا المقام الشريف، لتستغيث به إلى الله تعالى في المطر متوسلة إليه، وقد كانت تتفانى بنية صادقة في زيارته وفي ممارسة الطقوس الخاصة به، على أكمل وجه حتى يتحقق هدفها. ولم تكن السلطة المركزية تقف حاجزا ضد هذه الممارسات والسلوكات وضد الارتباط بين العامة والأولياء، خصوصا وأنها عاجزة عن توفير ما استطاع هؤلاء تقديمه للآخرين؛ لكن ذلك لم يكن يعني استسلاما منها لهذا الواقع، بقدر ما كان محاولة منها لاحتوائه واحتضانه.

¹ - سليمان أبو الربيع الحوات، الروضة المقصودة في مآثر بني سودة، الجزء الأول، تحقيق ودراسة عبد العزيز تيلاني، الدار البيضاء، 1994، ص. 238.

المبحث الثاني: العلاقات الاجتماعية داخل قبائل غمارة.

1-العلاقات الاجتماعية بين قبائل غمارة:

يشكل سكان المنطقة هرما من التجمعات القبلية، فكونفدرالية غمارة تتكون من عدة قبائل، وكل قبيلة تتفرع إلى عدة فخذات، تشكل وحدات جغرافية مضبوطة، وجماعات منظمة للتحكم في تدبير المجال، والذي يعتبر وحدة متماسكة من عناصر متنوعة، كما أن القبيلة ترتبط سياسيا فيما بينها، وترتكز على عوامل اقتصادية وجغرافية، بما يعزز علاقة الإنسان بالمجال. لقد شكلت قبائل غمارة وحدات سوسيوجغرافية أكثر من اثنية، وارتبطت بتواجدها بالتحكم في المجال وتدييره، والدفاع عنه، مما جعلها تكون تشكيلات سوسيوجمالية¹، كما أن امتداد المجموعات القبلية يرتبط أساسا بظروف العيش في الجبال والحاجة إلى تأمين المراعي والعلف والماء والأرض². وبالنسبة لابن خلدون، لا تتحدد القبيلة لكونها جماعة منحدرية أو متفرعة من جد أول، ولا تتحدد فقط بما قد يجمع بين أعضائها من روابط الدم، فالنسب بمعناه الضيق لا يعدو أن يكون معطى وهميا، لا يعتمد أمام وقائع الاختلاط وعلاقة الجوار والتعايش المكاني³، فالقبيلة وحدة تستند إلى التملك الجماعي لنفس الحاجيات والأهداف والوسائل⁴.

وبما أن الإطار الجغرافي المشترك هو العنصر الموحد، والحد الفاصل في آن واحد، فالمجموعات البشرية تكتسي طابعا جغرافيا بارزا⁵، فالتعارضات داخل المجتمع القبلي لا ترجع إلى الدفاع عن الشرف وطهارة النساء، بقدر ما ترجع بالدرجة الأولى إلى الدفاع عن الأرض وما يرتبط بها من منافع⁶. لقد كانت القرية الغمارية (الدرشر) تشكل وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية، حيث المحاط محدود ومحترم من طرف الآخرين، فالقرية وحدة قاعدية وجماعة بشرية، تشمل عدة أسر من أصول مختلفة، ترتبط فيما بينها بفعل التضامن، لاستغلال نفس المحاط، حيث لعب علماء المنطقة دورا مهما في الحفاظ على تماسك المجتمع الغماري، من خلال إصدار عدة فتاوى تؤكد صحة ما اتفق عليه، وهو ما نجده في نوازل المواهبي، حيث يقول: "إن نزاعا قام بين حومتين على أرض ليست مملوكة لأحد ملكية خاصة، وإنما هي مرفق القرية كلها، بما فيها ثلاث حومات أخرى،

¹ - Fay Gérard, "Dégradation des Collectivités...", op.cit, p. 238.

² - Célérier (J), "La Montagne au Maroc, Essai de Définition et de Classification", FIG, *Hespéris* 25, N 2-3, 1938, pp. 109-115.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، م. س، ص. 129.

⁴ - Jamous Raymond, *L'honneur et Baraka, les Structures Sociales Traditionnelles dans le Rif*, Cambridge University Press et Maison des Sciences de L'homme, Paris, 1981, p. 56.

⁵ - المختار الهراس، تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب، أنجرة كنموذج، نشر المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، الرباط، 1988، ص. 35.

⁶ - Waterbury John, *Le Commandeur des Croyants, La Monarchie Marocaine et son élite*, Traduit et Adapté de L'anglais par Catherine Aubin, Presses Universitaires de France, Paris, 1975, p. 87.

وبعد احتدام النزاع بينهما في الانتفاع بالأرض المتنازع فيها، تدخلت جماعة أخرى عام 1293 هـ، فأجرت بينهما صلحا، توخت فيه ألا يضر بأحدهما لصالح الآخر، ولكن حومة منهما، بعد أربعين سنة، أرادت أن تنقضه وأن يكون الحل بدله، هو قسمة الأرض قسمة باثة مستمرة، فأصدر الإفتاء بصفة صلح بين حومتين وعدم جواز نقضه"¹.

يتبين لنا أن التنظيم الاجتماعي الغماري المتواجد قبل التدخل الاستعماري، كان مهيكلا من طرف المجموعات القاعدية وهي القرى²، حيث الجماعة تحكم نفسها بنفسها، بواسطة "مجلس الجماعة" الذي يختلف أعضاؤه باختلاف حجم القرى، إذ يسهر على تدبير مصالح الجماعة (الأراضي الجماعية-تنظيم الأعمال الجماعية-ممارسة التحكيم-إقرار النظام). وقد كانت الجماعة في بلاد غمارة تتمتع بسلطة تشريعية وقضائية وتنفيذية أكثر شساعة من نظيرتها في الريف الشرقي³، بحكم أن المجتمع الغماري تشبث بشكل قوي بالعادات والأعراف أكثر من باقي مناطق الشمال، حيث كانت القرية الغمارية تتكون من مجموعة من الأسر، تشكل خلايا اجتماعية ووحدة عمل وإنتاج (قطع الحطب، الحرث، السقي، الرعي...) وتستعمل أقصى إمكانياتها.

والملاحظ أن الأسر كانت تتوزع على أحياء تنعت بـ "الحومة"، حيث العلاقات الاجتماعية تنمو بين أعضاء ينحدرون من نفس الأصل، تشكل قوة سلطوية واقتصادية، فلقد كانوا يتضامنون اقتصاديا، فالآباء يجب أن يوفرُوا حاجيات الأبناء، كما أنه يجب على الأبناء مساعدة الآباء عند شيخوختهم. فالمحتوى الاقتصادي قوي في المجتمعات التي يحكمها نظام الإرث، حيث الملكية تعود إلى مجموع العائلة⁴، وإذا كان نمو الحركات الصوفية والزوايا قد ساعد على ظهور نمط إنتاج من النوع الفيودالي⁵، فإن معايير التفاوت الاجتماعي في منطقتنا ظل غير واضح، حيث يمكن استقراء ذلك من خلال التفاوت في المسكن والمأكل والملبس.

والملاحظ أن الإسبان حافظوا في منطقة غمارة على نفس العلاقات والمعالم القبلية، ولم يعمدوا ضمن مشروع بناء الدولة الاستعمارية، إلى خلق هياكل جديدة، بقدر ما وظفوا الهياكل والعلاقات القديمة المتوارثة، لتوطيد دعائم المركز وإدماج المحيط في سياقه⁶، مما جعل القبيلة تشكل البنية الفوقية.

¹ - المواهي، مرجع سابق، ص. 222.

² - Ghailan (K), *Genèse Développement et Aménagement d'un Centre Rural dans le Rif (Brikcha)*, Thèse 3ème Cycle, INAU, Rabat, 1996, p. 138.

³ - Ahmadan (A), *L'évolution Récente d'un Espace Rural Périphérique Marocain: Le Pays Rhomara*, Thèse Doctorat Spécialité Géographie de L'université de François Rabelais-Tours, 1991, p. 385.

⁴ - Claval Paul, *Principes de Géographie Sociale*, Éditions M. Th. Guénin, Librairies Techniques, Paris, 1973, p. 203.

⁵ - Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule...* op. cit., p. 308.

⁶ - المختار المراس، تطور الهياكل القبلية...، مرجع سابق، ص. 206.

يتضح مما سبق أن مجتمع قبائل غمارة مجتمع تكافل وتضامن، وكانت الروابط القائمة بين القبائل مبنية على تبادل المصالح المشتركة، ولم يسمح لقبيلة بالهيمنة والسطو على أراضي قبيلة أخرى، ويرجع ذلك إلى التماسك الاجتماعي المترتب عن عدة عوامل، منها الاقتصادية والسياسية، حيث كانت هذه القبائل تشترك في استغلال وادي أورينكا في عدة مجالات، كسقي المزروعات ونقل الخشب إلى حوض الجبهة، خاصة بني سميح وبني رزين ومتيو¹، كما تتوافد مجموعات كبيرة من هذه القبائل على سوق "ثلاثة أورينكا" للتسوق وممارسة التجارة، وقد كان هذا السوق المحور الأساسي للقبائل الغمارية، ويشهد ازدحاما كبيرا².

بالإضافة إلى ذلك، كانت تعقد مجموعة من المواسم لإحياء ذكرى صال معين الأمر الذي يزيد من تلاحم هذه القبائل، باعتبار هذه المواسم فرصة لحل المشاكل بين القبائل ومحو ما بالصدور من ضغائن، وتجديد أواصر المحبة وإحياء روابط الأخوة بينها، ومنها موسم سيدي فتوح بالقلعة، وموسم سيدي إبراهيم بقرية الزاوية، وموسم سيدي يحيى الورداني بالجبهة، ثم موسم سيدي محمد البوهالي البقالي با فغل من قبيلة بني سميح.

وكدليل على وجود علاقات التساكن والتضامن الاجتماعي بين هذه القبائل، نجد أنه يمكن أن تتم المصاهرة بين أسرتين لا تنتميان إلى نفس القبيلة الواحدة. وتبين وثيقة عدلية³ أن رجلا من بني جرير تزوج من قبيلة بني سميح، وبإمكانه الحصول على إرث زوجته بهذه القبيلة: "أشهد على نفسه لدى شهيديه السيد الحسين (كذا) الجريري أن الإرث الذي انجرى له من زوجته فاطمة بنت محمد (كذا) السميحي ... قد خرجنا له في منزل تالاورت ..."⁴. بالإضافة إلى منع المنحرفين والغرباء من السكن بين ذوي العائلات، كما جاء في إحدى نوازل محمد الهبتي المواهي⁵. بالإضافة إلى أن هذه القبائل كانت تشملها سلطة قضائية واحدة، ثم كانت تخضع في غالب الأحيان، لسلطة قائد واحد، والتي تشمل أيضا كافة قبائل غمارة⁶، كما أن الحدود بين هذه القبائل قديمة الاستقرار، والأكثر من ذلك فإن لها حدودا طبيعية، عبارة عن أودية تفصل بينها. فمثلا وادي أورينكا يبدأ من قبيلة بني سدات جنوبا ويفصل قبيلة متيو عن قبيلة بني رزين وبني سميح⁷، ويقوم وادي تازقا

¹ - أوجيست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، م. س، ص. 241-243.

² - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière et Napoléo, Lacroix, *Documents pour Servir a L'étud de Nord Ouest Africaine...* op.cit, p. 332.

³ - وثيقة عدلية خاصة، مؤرخة يوم 14 ذي القعدة 1323 هجرية/1907.

⁴ - تالاور إحدى قرى فرقة بني بوزكري من قبيلة بني سميح.

⁵ - المواهي، فتاوى تنحدي الإهمال...، مرجع سابق، ص. 635.

⁶ - توضح مجموعة من الظواهر الموجهة لأسرة ابن مرزوق الزياتية أن كافة القبائل الغمارية كانت خاضعة لقائد واحد.

⁷ - Ricardo Donoso-Cortés, *Estudio Geografico Politito-Militar Sobr Las Zonas Espanolas..* op. cit., pp. 119-120.

حدا فاصلا بين بني سميح وبني رزين، إلى غير ذلك، كما بيناه في الباب الأول¹، حيث تعتبر هذه الأودية حدودا قارة، لا تتغير، مما ساعد على انضباط هذه القبائل وتحسن علاقة الجوار بينها، تجنبنا لكل صراع.

لكن ذلك لا ينفي وجود نزاعات بين هذه القبائل، إلا أن ما يمكن التأكيد عليه هو أن النزاعات التي كانت تحدث بينها، خاصة بين قبيلة متيوة والقبائل الغمارية المجاورة، لم تؤد إلى اشتباكات وإراقة الدماء، ولم تبرز هذه النزاعات إلا خلال القرن 19م وبداية القرن 20، بينما امتازت فترة القرن 18م نسبيًا بالأمن والاستقرار. فمن خلال إشارة وردت في إحدى الرسائل الموجهة من الباشا أحمد الريفي إلى التهامي بن صالح²، سنة 1727م، يتبين أن علاقة الجوار نعمت بالاستقرار خلال هذه الفترة، حيث جاء فيها: "لقد أعجبنا والله ما سمعنا عنكم من تسكين تلکم القبائل كلها ... العافية للمسلمين وائتلاف قلوب عباده على بعضها بعضا ..."³.

وهكذا يتبين أن المنطقة كانت خلال هذه الفترة تعرف الأمن والسكينة، وإذا ظهرت بعض الاضطرابات، فسرعان ما يتم احتواؤها نظرا لسريان سلطة القائد بالمنطقة، الهادفة إلى فرض الأمن والاستقرار، حيث نلمس من خلال العديد من الظواهر الموجهة إلى وجهاء وقادة المنطقة المدروسة⁴ الأسلوب الدبلوماسي للمخزن في إخضاع القبائل وفرض الاستقرار الاجتماعي للحد من الاضطرابات، هذه السياسة استمرت إلى حدود فرض الحماية الإسبانية على شمال المغرب، حيث استعملت سياسة الاستمالة اتجاه القواد الكبار قصد تحقيق التهدئة، خصوصا بعد نهاية الثورة الريفية .

وعلى كل حال فإن هذه السياسة ساهمت بشكل كبير في تآزر السكان والتضامن والتحالف ضد الأخطار، وما يدل على ذلك ظهير السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى القائد عبد القادر بن مرزوق الغماري في 16 ربيع الأول 1280هـ/1863م، يقول فيه: "... خديمنا الأرضي القايد عبد القادر ابن مرزوق الغمار يوفقك الله وسلام عليك ... وبعد وصلنا كتابك أخبرت فيه أن خدامنا غمارة يسر الله ألفتهم ولم يبق بينهم اضطراب ولا شطط، ومن كان منهم خارجا عنهم أدخلوه بالسياسة وحسن حالهم فقد قاموا بواجب الطاعة وسعوا فيما يوجب لهم خاطرنا ..."⁵، مما يعني أن السياسة السالفة الذكر هي التي استمر التعامل بها مع هذه القبائل، وفي ظهير آخر في عهد السلطان مولاي الحسن إلى أحد زعماء المنطقة (الشيخ بن مرزوق) يطلعنا على مظاهر التساكن

¹ - أنظر الباب الأول من هذه الأطروحة، المحور المتعلق بالإطار الجغرافي لقبائل غمارة.

² - معلمة المغرب، قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى. الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2002، وقد اعتمدنا على مجموعة من المقالات في الجزء 16 (عبد الله المرابط الترغي، مادة "ابن صالح محمد التهامي الغماري"، معلمة المغرب، ص. 5473).

³ - الرسالة السابقة، من الباشا أحمد الريفي إلى التهامي بن صالح، مؤرخة يوم 16 شعبان 1139 هجرية/8 أبريل 1727م.

⁴ - أنظر محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، الجزء الثاني...، م. س، ص. 132-195.

⁵ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، الجزء الثاني...، م. س، ص. 180.

والتعاون في بلاد غمارة، حيث يقول فيه: "خديمنا الأرضى الشيخ بن مرزوق ... فقد وصلنا كتابك طالبا الإذن لك في كيل الزرع من تطوان بقصد التقريب على مساكين تلك الناحية لجذبها وطلب أمرنا الشريف للمكلفين بذلك، وقد أذنا لك وها نحن أمرنا الأمانء هناك بأن يسرحوا لك ما تكتب لهم عليه من ذلك ..."¹، ولاشك أن هذه النازلة توضح لنا أنه رغم إكراهات الجوائح والكوارث الطبيعية خلال الفترة المدروسة، بقي المجتمع الغماري صامدا متلاحما في مواجهة الشدائد، مما استدعى تدخل السلطة المركزية لوضع حد لها.

ومن الأمثلة الحية على التعاون الذي طبع العلاقات الاجتماعية داخل قبائل غمارة، نذكر مثلا أن الموسم الفلاحي وموسم الحصاد يتأخران في بني زجل، فقد كانوا يستعينون على الفلاحة والحصاد بعمال من قبيلة بني زيات، ويذهب الجليليون من بني زجل إلى سوقهم الأساسي (أحد بني زيات) في قبيلتهم فلا يستطيع الكثير منهم العودة إلى بيوتهم من يومهم، فيبيت كل واحد منهم عند صاحب له ببني زيات، فنشأت بسبب ذلك علاقات مختلفة وصدقات حميمة. ولكثرة أشجار التين بقبيلة بني زيات، فإن الجليليين المذكورين يأخذون حاجاتهم من التين المجفف من بني زيات، ويستبدلونه بمادة أخرى كبذور الذرة الحمراء مثلا وأشياء كثيرة².

وعلى العموم فإن مجتمع قبائل غمارة تميز بالاستقرار والأمن وحسن الجوار طيلة القرن 19م وبداية القرن 20م، ومهما كانت طبيعة النزاعات التي تثار بين الفلاحين، يتم الصلح بينهم والحد من انتشار الفوضى، حفاظا على التماسك الاجتماعي، نظرا لوجود سلطة قبلية قوية تحاول دائما الحفاظ على التوازن الاجتماعي، وهذا ما لاحظناه في وثيقة نادرة تعود لسنة 1328هـ/1910م، تتحدث عن اجتماع قبيلة بني سلمان للصلح بين مدشر أولاد بن شيخ ومدشر أولاد بن حمان عبد الفاضل بن الشيخ (انظر الوثيقة رقم 25 في ملحق الوثائق). وفي وثيقة أخرى تعود لسنة 1332هـ/1914م، نجد تدخلا واضحا لقبيلة بني بوزرة بآلياتها المختلفة لإبرام الصلح بين أفرادها، وهو ما يدل على أن المجتمع الغماري كان مجتمعا متازرا ومتضامنا في حياته اليومية (انظر الوثيقة رقم 26 من الملحق).

2- العلاقات الاجتماعية بين قبائل غمارة ومحيطها.

لقد تفشت النزاعات داخل القبائل الغمارية، بين بعضها البعض، خاصة خلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، والمعروف أن مفعول اللصوصية يشتد ويقوى في ظل ظروف معينة، منها انتشار الكوارث الطبيعية من جذب ومجاعة وأوبئة، ومنها ضعف السلطة المركزية³. وخير مثال على نزاع قبيلة غمارة مع محيطها، هو

¹ - ظهور السلطان مولاي الحسن الأول إلى الشيخ بن مرزوق 26 ربيع الثاني 1294 هجرية/10 ماي 1877م (أنظر عزوز حكيم، م. س، ص. 185).

² - عبد الواحد الجيدي، أضواء على منطقة غمارة...، م. س، ص. 21.

³ - عبد العزيز التسماني خلوق، "الظروف العامة للصوصية في مغرب القرن 19م ومشكلة الأمن بطنجة"، مجلة دار النيابة، العدد الأول، السنة الأولى يناير 1984، ص. 27.

حالة الأخماس وغمارة. وتتلخص أسباب النزاع حسب مصادرنا في حيازة الأرض والنهب وسبي النساء والقتل، من ذلك النزاع المتكرر بين جماعة تسكة¹ من غمارة وجماعة امحرشن² من قبيلة الأخماس حول الانتفاع من مساحة الجبل الذي يحدهما، في الحرث والحطب والرعي خلال القرن 19م والذي استمر إلى عهد الحماية. ويعتبر تراب الجبل الفاصل بين الجماعتين حسب الفتاوى الفقهية الصادرة في هذه النازلة منفعة عامة، ولذلك ينبغي استغلاله بالتساوي بين الجماعتين في الأغراض المذكورة ولا يجوز تملكه، وبناء على هذا الحكم الفقهي، فحينما تقدم أية جماعة من الجماعتين على احتكار استغلال الجبل، كانت الجماعة الثانية تتظاهر ضدها، وتحتمي بقبيلتها التي تتعصب لها، لتتشب الحرب بين الأخماس وغمارة، مما استدعى تدخل الشرفاء والفقهاء للتحكيم في النزاع بين الطرفين حقنا للدماء³. وكان يتم الصلح على أساس إعادة صدور الفتوى المرجعية، وهي ضرورة الانتفاع من الجبل بالتساوي بين الجماعتين، وقد شهد الطرفان على احترامه، وفي حالة نقضه من طرف إحدى الجماعتين، فإن أمرها يوكل للمخزن⁴، ليتخذ في حقها الوسائل الزجرية⁵. وقد لاحظ الدكتور محمد عمراني أن التحكيم في نزاع غمارة والأخماس استوجب توظيف سلطتين، سلطة الشرفاء المشهود لهم بالتحكيم⁶، وسلطة الفقهاء الذين عملوا على إعادة صياغة الفتوى المذكورة وتحرير شهادة الصلح بين الطرفين المتنازعين. وبذلك تقاسم الشرفاء السلطة في ميدان التحكيم مع الفقهاء⁷، وهذه إحدى خصوصيات مجتمع غمارة قبل الحماية، ونقطة تقاطع مع مجتمع الريف والأطلس الكبير، ومجالا لتطبيق النظرية الانقسامية، التي ترى أن الجهل المطلق كان يخيم على القبائل، مما فسح المجال أمام سلطة الأولياء والشرفاء. لقد قدم رواية مولييراس الطالب الجزائري محمد بن الطيب شهادة حول حوادث عنف دارت بين غمارة وقبيلة الأخماس، بسبب إقدام الأخماس على قتل أشخاص من بني زجل الغمارية وسبي نسائها وأطفالها ونهب ماشيتها، فتحالفت بني زيات الغمارية مع بني زجل لأخذ ثأرها، واسترجاع ما سلبته منها الأخماس. وذلك بعد تقديم ذبيحة العار إلى بني زيات واستعمال أسلوب النياحة وممارسة مختلف الطقوس القبلية لتشكيل الحلف القبلي. ضرب موعد المعركة بين الأخماس وغمارة، ووقع قتال بينهما ولم تكتف الأخماس بالانتصار على الحلف الغماري، بل شنت

1 - أصبحت حسب التقطيع الإداري لعهد الحماية الإسبانية فرقة من قبيلة الاخماس العليا.

2 - جماعة من فرقة الهبطيين بقبيلة الاخماس العليا.

3 - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية...، م. س، ص. 414.

4 - كانت قبيلة الاخماس من ضمن القبائل المستهدفة من الحركة الحسينية في صيف 1889/1307، فبعد تطويع قبيلة بني مستارة وقضاء عيد الأضحى بها، انتقل السلطان الحسن الأول إلى الاخماس، مارا على بني احمد وغزاوة، ولما حل بها قدمت له فروض الطاعة والولاء والهدايا وأدت ما وجب عليها من وظائف وتكاليف.

5 - فتوى في صلح جماعة تسكة وامحرشن بتاريخ 13 رمضان 1876/1293، وثيقة خاصة في حوزة الباحث محمد ياسين الهبطي.

6 - محمد عمراني، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية...، م. س، ص. 415.

7 - أنظر المحور الخاص بتصنيف فئات المجتمع الغماري.

هجوماً على بني زجل ومارست في قراها النهب والسبي والفساد¹ ولإيقاف الحرب بين القبيلتين تدخل الشرفاء، غير أن هؤلاء، رغم مهاراتهم الدبلوماسية وحنكتهم، وجدوا صعوبة في إقناع الطرفين المتنازعين على قبول شروط الصلح، حيث يقول موليراس: "فهؤلاء الأشخاص المحترمون (يقصد الشرفاء) هم دبلوماسيون لبقون، وغالبا ما ينجحون في إيقاف المنتصر عند حده وفي التخفيف من آلام المنهزم ... وبرزت مشاكل كثيرة عند مناقشة شروط معاهدة الصلح"². ولما فشل الوسطاء في التحكيم هددوا الأحماس باعتبارها القبيلة الغالبة باستعمال سلطة البركة بكيفية سلبية، أي الدعاء عليها، مما أرغمها في النهاية على الرضوخ لشروط الصلح. وقد علق موليراس على هذا التحكيم بكونه غير مجد، معبرا عنه بالتحكيم الأعرج، لأن أسباب النزاع ظلت قائمة، وقابلة لتفجير العنف من حين لآخر، واعتبر أن الطرف الرايح من العملية هم الشرفاء "المبجلون" والخاسر هم القبليون³.

ومما يواجهنا في هذه اللوحة ونحن نقرأها، ما تشخصه نازلة صلح فرض عام 1351 هـ على فريقين: أحدهما من قبيلة اغزاوة والآخر من قبيلة غمارة، تم بموجبه أن عين لكل منهما جزء من الأرض، كان النزاع قائما عليها فيما بينهما، وتشير هذه النازلة إلى أن الحماية-فرنسية كانت أم إسبانية-كانت تأخذ الناس في باديتها بسياسة هادفة إلى ضمانة قلوبهم وجلب عطفهم عليها وخلق الثقة في نفوسهم بعدالتها، إذ نجدها من خلال النازلة تهوّل إلى عقد اجتماع كبير يضم الحكام الفرنسيين⁴ والإسبانيين، من أجل حل هذه النازلة، حيث نجدها تعين للنظر في القضية أشخاصا من قبيلة بني يسف⁵، تشير هذه النازلة إذن إلى أن الصراع بين القبائل، وخصوصا على الحدود، كان قائما على أشده، ولم تخمد أوزاره بسيطرة الحماية الإسبانية، وأنه كان يحتدم إلى أن يجتمع من أجله القضاة والمفتون والحكام المستعمرون، وكان الجميع يساهم بما لديه في حل القضية، وغالبا ما كان ينتهي ذلك بفشل ذريع، لتثبت كل فريق من طرفي النزاع بما كان يدعيه لنفسه⁶. ويظهر من خلال عرض الأمثلة السابقة أن منطق العصبية والقوة كان هو المتحكم في علاقة القبائل الغمارية بمحيطها (الأحماس، غزاوة، متيوّة الريف). وهذا لا يعني أن قبائل غمارة كانت في جاهلية تامة، وأن العنف المتبادل كان قدرها المحتوم. بل صادفنا أمثلة دالة على أن المجتمع القبلي الغماري أبدع أساليب متقدمة في كبح العنف، كما تدل على ذلك الفتاوى الفقهية والعقود العرفية التي استخراجناها من الميدان، فقد أنتجت القبيلة لنفسها ضوابط لكبح العنف،

¹ - أوجست موليراس، المغرب المجهول... الجزء الثاني، م. س، ص. 248.

² - موليراس، م. س، ص. 249.

³ - نفس المصدر، ص. 249.

⁴ - حضرت السلطة الفرنسية لأن الفريق الاغزاوي كان تحت سيطرتها.

⁵ - بني يسف قبيلة تقع بين شفشاون والقصر الكبير

⁶ - محمد الهبطي المواهي، "من فتاوى غمارة خلف تاريخها القريب"، مجلة الإحياء، تصدرها رابطة علماء المغرب، العدد العشرون، من السلسلة الجديدة الرقم المتسلسل 32- ربيع الثاني 1424/يونيو 2003، ص. 16.

نهلت مرجعيتها من الشرع الإسلامي والعرف القبلي. كما هو الحال في قبائل غمارة سنة 1908/1326 حينما اجتمع الشرفاء والعامّة من قبيلتي بني بوزرة وبني زيات ومن انضاف إليهما من القبائل الغمارية، واتفقوا على تقنين أعمال العنف المتمثلة في القتل العمد أو الخطأ بالسلاح الأبيض والناري، والسرقه وهتك العرض وممارسة الزنا وإحراق القرى. وتوصلت الجماعات الغمارية إلى وضع قانون يرضخ له الجميع. ونظرا لأهمية الوثيقة ننشر بنودها الرئيسية بتصرف¹:

- قاتل النفس: اهتم القانون بجريمة القتل ووضعها في صدارة الاهتمامات، محددًا الحيشات المتعلقة بملايسات صاحب الجرم. هناك حكم عام متعلق بالقاتل، ينفذ فيه القتل، ولا تقبل في هذه الحالة شفاعة الشرفاء والمرابطين. وإذا تمكن المجرم من الفرار وتجاوز حدود القبائل واضعة القانون، فإن من عشر عليه، له الحق في قتله. لقد ميز القانون بين المجرم العاقل وغير العاقل وبين الراشدين والأطفال، فإن كان مرتكب الجريمة صغيرا يؤدي أهله الدية ومائة ريال زجرا له، وبخصوص المرأة ينفذ فيها الحكم بالقتل.

- نهب الماشية: لقد تفشت في قبائل غمارة ظاهرة نهب الماشية لملاءمتها لأسلوب الغارات، فهي قابلة للحراك، حدد القانون الغماري غرامة النهب حسب نوعية الماشية، فبالنسبة للبعال مائة ريال وربع لكل بهيمة والبقر ثلاثون ريالًا لكل راس والماعز عشرة لكل رأس، فضلا عن مائة جلدة.

- هتك العرض: تفشت في قبائل غمارة ظاهرة سبي النساء وممارسة العنف الجنسي، وجاء القانون لكي يحد من استفحالها، فمن ارتقى في أعراض النساء يجلد مائة جلدة وأداء عشرة ريالات غرامة، وإذا قبض عليه الزوج متلبسا بداره يجوز له ضربه.

- إحراق المداشر: مارست القبائل أسلوب إحراق المداشر للانتقام من خصومها، وغالبا ما كان إحراق المساكن يتم أثناء غارات النهب، وقد حكم القانون بغرامة قدرها عشرون ريالًا بالنسبة لدور القش لكل بيت ويتم جلد الجاني مائة جلدة، قضاء لمن تضرر بحريق.

- الزنا: وللحد من الزنا، حكم القانون على المرأة الزانية الحامل من الغير، المتسترة عن الحمل، بتطويقها في المداشر للتشهير بها، وبمصادرة ممتلكاتها إذا كانت ثرية. أما الرجال الزناة المترامون في أعراض النساء، فتجتمع القبيلة بأسرها لتصدر فيه الحكم المناسب.

لقد استخرجنا من الميدان فتاوى عديدة حول نوازل الدماء والقصاص لفقهاء من بادية غمارة، تدل على أن المجتمع الغماري كانت تطبق فيه أحكام الشريعة الإسلامية، كما يتضح أن الفقهاء، إلى جانب الشرفاء،

¹ - عقد اتفاق على تغيير المنكر بين قبائل غمارة، وثيقة مخطوطة في ورقة من الحجم الطويل (أوردها محمد عمري في أطروحته، م. س، ص. 417).

ساهموا في تقنين العنف القبلي وعملوا على الحد منه، مما يؤكد أنهم لم يكونوا طرفا محايدا في النزاعات القبلية، وقد جرى التحكيم بتنسيق مع المخزن وتحت إشرافه، مما يدل على أن هذه الوظيفة لم تتم بصفة تلقائية. أما فيما يخص علاقة قبائل غمارة بمدينة تطوان، فقد عثرنا على رسالة يعين بمقتضاها قائد غمارة عبد القادر بن مرزوق خليفة له بتطوان في شخص ابن عمه أحمد بن عبد السلام بن مرزوق، لينوب عنه في حل مشاكل المتوافدين على المدينة من القبائل الغمارية ويقوم بالاتصالات اللازمة مع سلطات تطوان، تنفيذاً لأوامره وتعليماته¹. إن فعالية هذا التعيين على المستوى العملي تبدو واضحة من خلال وثيقة هامة تبرز إلى جانب ذلك المنعطف الذي شهدته العلاقات الشائبة (تطوان-غمارة) إذ أنه "... لما قبض رجل من بني منصور وأناس من بني جرير وبني رزين من القبائل الغمارية بإذن قائدهم السيد عبد القادر بن مرزوق وسجنوا وحيز متاعهم وزُمّم وأنزل تحت يد السيد المهدي الراعي الأمين بالقاعة وجعله يبيت هنا ... كتب قائدهم للفقير الأجل الباشا سي أحمد الحاضر السلاوي وأذنه في كتابه أن يسرح لرجل المنصوري ويرجع له بغلته وحوائجها، ويبقى من عداه في السجن ويحوز متاعهم خليفته الطالب السيد أحمد بن مرزوق. وأطلق المنصوري من السجن وحاز بغلته وحوائجها المذكورة ..."². إذن، فخلافاً للمراحل السابقة عن الفترة المدروسة، التي كان يتم إبانها سجن أشخاص من القبائل الغمارية من طرف سلطات تطوان، وكان يتطلب إطلاق سراحهم في بعض الأحيان التدخل الشخصي لسلطان³ المغرب، أصبح سجن الغماريين أو إطلاق سراحهم يتم بأمر من قائدهم. كما أخذ هذا الأخير يحرص على ضبط أسفار سكان غمارة لتطوان، بالتنسيق مع خليفته في المدينة، وهذا ما يتضح من خلال رسالة يخبره فيها بقرب وصول أشخاص من قبيلة بني جرير "... لقضاء حوائجهم ... ويوصيه بالاعتناء بهم والسهر على أحوالهم حتى "... لا يضر بهم أحد ..."⁴. كما تشير النوازل والفتاوي إلى أنه كان هناك صراع بين قبائل غمارة ومدينة شفشاون، إلا أنه لم يكن ناشئاً عن الاختلاف في حدود أرض وحب تملكها والاستبداد بها، بل كان سببه هو حب الزعامة والانفراد بالكلمة⁵، فهذه فتاوى محمد الوزماري وهو شفشاوني، وأحمد الشدادي ومفت آخر، وهما غماريان، تشير إلى نظرة شفشاون نحو البادية، ونظرة البادية إليها، فالمفتي الوزماري يرى أن شفشاون حاضرة من حواضر المغرب، وأن شهادة عدول البادية على سكان شفشاون لا تقبل⁶، أما المفتيان الغماريان

¹ - ظهر التعيين مؤرخ في صفر 1313 هجرية/1895م، أنظر عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة، م. س، ص. 193.

² - محضر حرر بتاريخ رمضان 1292 هجرية/1875م (أنظر محمد خرشيش، "جوانب من علاقة تطوان بقبائل غمارة خلال القرن التاسع عشر انطلاقاً من وثائق محلية"، أعمال ندوة تطوان قبل الحماية قبل الحماية (1860-1912) في، 12. 13. 14. نونبر 1992، نشر مطبعة الهداية، إنجاز مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ص. 122.

³ - أنظر الرسالة السلطانية المؤرخة 1247 هجرية/1831م، أوردها عزوز حكيم، م. س، ص. 163.

⁴ - رسالة موجهة من قائد غمارة عبد القادر بن مرزوق إلى خليفته بتطوان بتاريخ 12 رمضان 1291 هجرية/1874م (أنظر محمد خرشيش، م. س، ص. 122).

⁵ - محمد المبطي المواهي، من فتاوى غمارة خلف تاريخها القريب...، مرجع سابق، ص. 18.

⁶ - نفس المرجع، ص. 18.

فيريان أنها قرية من القرى، بل ربما كانت أقل من بعض القرى المجاورة لها كقرية القلعة الزجلية، لأن فيها من وسائل الاستقرار والحضارة ما ليس بشفشاون، وضرب أحدهما المثل بخزینها الذي يسمى بـ "القرار"¹ إذ فيه من وسائل العيش على الدوام والاستمرار، وهو ما تفتقر إليه شفشاون التي تعيش على فترات البادية طوال فصول السنة، ويريان أن بالبادية عدولا مبرزین في العدالة لخوفهم من الله، ولذلك فشهادتهم على أهل شفشاون صحيحة مقبولة، ويرى المفتي الغماري المشار إليه أنه كان بأيامه وقبلها في المغرب قرى لها حكم الحواضر، لاشتمالها على علماء وتعليم العلم تعلمه، كقرية تكمت المتيوية وتغصنة الجريية وقرية بني قاسم الرزينية وتجساس الزيائية وقرية ترغة البحرية، وقرية بني هليل وقرية قاع أسراس وغيرها². كل هاته المعطيات تؤكد بالملاموس أن علاقة غمارة بمحيطها عرفت تراجعاً، خاصة في غضون العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

ويمكن القول إن هذا التراجع ارتبط بالتطورات والمستجدات الخطيرة التي عرفها المغرب في النصف الثاني من هذا القرن، والمتمثلة في ازدياد الضغط الأجنبي واحتدام الصراع الاستعماري الذي كانت له انعكاسات على مختلف مكونات المجتمع وعلى جميع الأصعدة.

نستنتج مما سبق ما يلي:

- أن التوتر كان هو السائد في علاقات قبائل غمارة بمحيطها، سواء مع متيوة الريف أم الأحماس واغزاوة وبني سعيد وحتى مع تطوان وشفشاون، نظراً لخصوصية المرحلة المدروسة التي تميزت بالتراجع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والاستغلال الاستعماري.

- على امتداد القرن 19م وبداية القرن 20م تلاحقت على المنطقة، وبصفة دورية، سلسلة من الكوارث الطبيعية، كانت تستنزف في كل مرة طاقاتها البشرية والاقتصادية، بلغت أشدها في 1868 و1878 مع تفشي الكوليرا واشتداد وطأة الجفاف³. وفي مجتمع عتيق كالمجتمع الغماري، حيث لم تكن قوى الإنتاج متطورة بشكل يسمح بإيجاد فائض لمواجهة السنوات العجاف، كانت كل أزمة من هذه الأزمات تخلف مآسي اجتماعية، مما خلف لدينا علاقات متوترة بين قبائل غمارة ومحيطها.

¹ - القرار في غمارة كانت عبارة عن بيوت محصنة بجبل فوق القرية، لا يوضع فيها إلا القوت بجميع أنواعه التي تنتجها المنطقة، إذ كان الفلاح يجمع ما يحصل عليه من سنته الفلاحية ويوصله إلى بيته المخصص له هناك، ولا يترك بداره التي يسكنها إلا ما يأكله في مدة يسيرة، وكان للقرار حارس دائم، أما سبب إنشائه فربما كان هو الخوف من هجوم القبائل المجاورة على المنطقة. (أنظر الوثيقة رقم 23).

² - نص النازلة عند الهبطي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، الجزء الأول، ص. 130.

³ - عبد العزيز خلوق التسماني، جوانب من تاريخ جبال المعاصر...، م. س، ص. 17.

- إذا كانت الكوارث الطبيعية عاملا من عوامل خلق البؤس وتفجير الفتن والاضطرابات، فإن جور الإنسان على الإنسان في مغرب القرن التاسع عشر، وجور المستعمر على القبائل خلال النصف الأول من القرن العشرين، كان من العوامل الأخرى التي أسهمت بنصيب وافر في إفراز نفس الأوضاع.

3- المجتمع الغماري والسلطة المركزية المغربية.

كان المجتمع الغماري إلى حدود نهاية القرن 19م، مجتمعا تقليديا من الفلاحين والرعاة البدائيين، لم تتطور فيه قوى الإنتاج بشكل يسمح بوجود فائض يذكر، ولو أن المبادلات التجارية كانت تتم على نطاق محدود، سواء بين القبائل في المنطقة أو بينها وبين الأقاليم المجاورة، بما فيها فاس.

وكان هذا المجتمع مؤطرا داخل وحدات اجتماعية، هي القبائل، تقوم تقسيماتها على أساس التعاضد الاجتماعي وتضعف فيها الفوارق الطبقية، وكانت هذه الوحدات القبلية تتوفر على مؤسسات محلية، منها مجلس الجماعة الذي يتم انتخاب أعضائه من بين شيوخ القرية، تقوم مهمته على رعاية الشؤون الداخلية، كالسهر على الأمن والدفاع والضرب على يد المجرمين¹. ومما يدل على ذلك، ما ورد في إحدى فتاوى المفضل الخرشفي من أمره الجماعة أن تتولى الحكم عند غياب الحكام الرسميين، إذ يقول: "فعلى من أقره الله من الولاة أو الجماعة أن يأخذوا على يد الظالم، ويمكنوا المتصدق عليهم بما زال من يدهم ومن الشفعة الواجبة لهم..."²، وبالتالي فإن هذه النوازل والفتاوى يمكن أن تكون مصدرا من مصادر تاريخ الحكم بغمارة خلال الفترة المدروسة.

وقد رأى كثير من الإثنوغرافيين في وجود هذه المؤسسات المحلية تعبيرا عن استقلال المنطقة عن السلطة المركزية، والواقع أن المخزن بعدما تقلصت موارده في أعقاب انقطاع تيارات التجارة البعيدة المدى، لم يكن يتوفر على الإمكانيات الكافية لكي يعين في جميع قرى ومدائر مملكته جابيا وقاضيا ودركيا، ولكن لماذا سيكلف نفسه عناء ذلك كما يقول جرمان عياش، طالما أن القبائل كانت تتوفر على مؤسسات تمكنها من ضمان الحقوق بين أفرادها والسهر على أمنها الداخلي؟ لقد كان دوره لا يقوم على التدخل في الحياة الداخلية للقبائل، وإنما على إشراكها في الحدود والمقاييس اللازمة في مجابهة المشاكل المطروحة أمام البلاد قاطبة³ (الدفاع الخارجي، التكافل أمام الكوارث الطبيعية، السلم العام...).

¹ - عبد العزيز خلوق التسماني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر...، م. س، ص. 31.

² - الفتوى المشار إليها مسجلة عند الهبطي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص. 382.

³ - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناسرين المتحدين، الطبعة الأولى، الدار البيضاء سنة 1986، ص. 154.

لذلك منح بعض المناطق استقلالاً واسعاً في تسيير شؤونها، إلا أن هذا الامتياز لم يكن يعني عدم الخضوع للسلطة المركزية، فجميع القبائل كانت تخضع لقائد عام مخزني، يتم تعيينه من فاس، وقد دأب المخزن على إسناد هذه الوظيفة إلى قائد تطوان، كما تبين ذلك الظواهر التي تتوفر عليها والتي ترجع إلى عهد المولى يزيد، وقد استمرت إلى فترة الحماية الإسبانية وتم توظيفها لخدمة المصالح الاستعمارية. لقد كانت علاقة قبائل غمارة بالسلطة المركزية ضعيفة ومرنة، وتختلف عما عرفته باقي مناطق الشمال في القرن 19م أو حتى في الفترة الاستعمارية خلال النصف الأول من القرن 20م، إلا أنها كانت تستجيب للحاجيات المحلية، مما يدل على أن المنطقة لم تكن مستقلة، بل خاضعة للسلطة الشرعية، حيث ظلت بينهما رابطة أساسية جعلت معظم سكان المنطقة ينظرون إلى شخص السلطان نظرة إجلال وتقدير، لما كان يتمتع به من ميزة فريدة وخاصة أساسية هي ما يسمى بعنصر الشرف¹.

وبالإضافة إلى تواجد القائد العام على رأس قبائل المنطقة، كان المخزن يؤكد حضوره عن طريق الحركات التأديبية التي كان يقوم بها ضدها، عند الاقتضاء، مع أن هذه الحركات لم تكن تكتسي طابع العنف، وإنما كانت تعتمد قبل كل شيء على الوسائل الدبلوماسية لتطويع القبائل². لكن هذه العلاقة سرعان ما استبدل مع دخول الاستعمار الإسباني للمنطقة المدروسة، التي كانت من المناطق الأولى التي رفعت لواء الجهاد، وكانت آخر المناطق التي دخلها المستعمر، أضف إلى هذا أن سكان المنطقة كانوا يشعرون بانتمائهم إلى باقي أطراف البلاد، كما يدل على ذلك تسارعهم إلى الذود عن حماها كلما لاح خطر أجنبي، وهذه اللحمة الوطنية بدأت قبل القرن 19م، لكنها برزت بشكل واضح خلال الفترة المدروسة (1859م معركة تطوان، مساهمة قبائل غمارة في رباط دار بن قريش 1913م والثورة الريفية 1921م والحركة الوطنية في الشمال) وما يؤكد ذلك ما جاء في ظهير السلطان مولاي الحسن الأول إلى القائد عبد القادر بن مرزوق وجميع إيالة غمارة في فاتح جمادى الأولى 1305 هـ/01/15/1888م، إذ يقول: "خديمنا الأَرْضِي القايد عبد القادر ابن مرزوق وجميع إيالتك اغمارة ... وبعد فأنمركم أن تنهيووا للحركة مع ركبنا السعيد بجميع رماتكم وذوي الحزم من إخوانكم بزيكم المعروف من الإتيان مع الحركة ... ولا يبقى في المداشر والقرى إلا من لا فائدة له أصلاً ... لكون هذه الحركة الميمونة بالقرب من دوركم ومن خلال بيوتكم فلا تحتاجون لكثير مؤونة ولا كبير مشقة ..."³، فعلى ضوء هذه الحقائق تنهار المقولة الاستعمارية التي تدعي وجود سبية أو نزعة انفصالية في منطقة غمارة، ويقدم المخزن كأنه نظيمة للقمع وزرع الشقاق، والاشتطاط في جباية الضرائب.

¹ - أنظر أطروحة محمد عمراي، الشرف والمجتمع والسلطة السياسية...، م. س، وأطروحة سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي...، م. س، بالإضافة إلى أوجست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م.س.

² - عبد العزيز خلوق التمساني، جوانب من تاريخ جبال المعاصر...، م. س، ص. 32.

³ - محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 191.

غير أنه في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، تغيرت العلاقات بين منطقة غمارة والسلطة المركزية مع تزايد حدة التسرب الأوربي، والتناقضات التي أفرزها داخل المجتمع المغربي (هزائم عسكرية، قروض لتسديد الديون، الحماية القنصلية، إفلاس الخزينة، نهج سياسة ضريبية جائرة أدت إلى تفكير البلاد...). وهو ما نلاحظه في إحدى الرسائل السلطانية التي يأمر فيها عبد الرحمن بن هشام القائد محمد اشعاش بقتال بني زجل الغمارية حتى يوقف الفساد الذي ينشرونه، حيث جاء فيها: "الحمد لله وحده... خديمتنا الأرشد القائد محمد اشعاش أصلحك الله... وبعد: فإن فرقة من غمارة يقال لهم بني زجل كان دفع منهم شنتان مع عاملهم فقدموا لحضرتنا الشريفة وتشفعوا بكل شفيح مدعين التوبة والإنابة، فكتبنا لعاملهم بالعض عنهم وقبول توبتهم، فلما رجعوا ارتكبوا سنن الشقاق والعناد وزادوا في إيقاد نار الفتنة والفساد. وقد أمرنا عاملهم للنهوض إليهم بحركة قبائل غمارة أهل الطاعة، ووجهنا له إعانة من جيشنا الغالب بالله. وغير خاف عليك أن قبائل إيالتك دائرون بهم، وأن الفساد يعدي، فأردنا حسم مادته قبل انتشاره واجتثاث الفساد من أصله. فبوصول كتابنا هذا إليك، مُر قبائل إيالتك الموالين لهم بالنهوض بالحركة إليهم والأخذ بخنقهم بالتحريق والقتال حتى يأخذ الله بحوله وقوته ووجه خليفتك يقف على ذلك تقوية لهم وشدا لعضدهم ليقضى فيهم الغرض على وفق المراد لتطفأ نار الفتنة وتحسم مادتها. فإياك والتراخي في ذلك، فإنه لا يخفى عليك فساد أهل الجبل وفتنتهم وما قاسى عمنا مولاي الطيب رحمه الله في قتال أهل تلك النواحي وما كان بينه وبينهم من حروب. التي دوخت لك القبائل ومهدت أقطارها حتى سكنت واطمأنت ورجعت جنانا لازلمت تربون ثمرتها وتشربون صفوها وبعقوبة المفسدين يدون الصلاح وتنتشر وتخشى العامة وتعتذر"¹.

يتضح من هذه الرسالة والعديد من الرسائل السلطانية أن العلاقة التي كانت تربط قبائل غمارة بالسلطة المركزية لم تكن على صفة معينة أو ثابتة، بل كانت تعترضها نوبات مد وجزر، حسب الوضعية الاقتصادية والسياسية والطبيعية للمنطقة المدروسة من جهة والسلطة المركزية من جهة ثانية. فمرة نلاحظ أن هذه الرسائل تنعت القبائل المدروسة بقبيلة صلاح وخير قديما وحديثا وليس لكم سلف في الفساد والانحراف²، ومرة بأنهم أهل شقاق وفتنة وفساد، كما أوردته الرسالة الأخيرة.

¹ - وثيقة مؤرخة في 23 صفر عام 1250 هجرية، بما طابع سلطاني بداخله المولى عبد الرحمن بن هشام، محفظة غمارة 1786 م-1986م، مديرية الوثائق الملكية، رقم TH100.

² - وثيقة مؤرخة في 16 ذي القعدة عام 1292 هجرية، أنظر محفظة غمارة 1786 م-1986م، مديرية الوثائق الملكية، رقم TH100.

المبحث الثالث: التنظيم الاجتماعي في بلاد غمارة قبيل فترة الحماية وخلالها.

1- التنظيم الاجتماعي قبيل الحماية الإسبانية.

أ- قبائل غمارة وبلاد السبيبة قبيل الحماية.

يعتبر كثير من الباحثين أن قبائل غمارة تنتمي إلى بلاد السبيبة وهو المفهوم المضاد لبلاد المخزن. والسبيبة كلمة بربرية وتعني الانشقاق، ومفهوم بلاد السبيبة يشير إلى المناطق البربرية التي رفضت قبائلها الخضوع لسلطة السلطان المدني وامتنعوا عن دفع الضرائب له. وقد ساعد الموقع الجغرافي للمناطق الجبلية الوعرة والقاصية، التي يصعب الوصول إليها أو يسهل لقبائلها الاعتصام والدفاع ضد جنود السلطة المركزية، على الانفلات من رقابة المخزن وشق عصا الطاعة. فسلوك قبائل السبيبة يفيد بأنهم كانوا ينزعون دائما إلى الاستقلال والحرية وحكم أنفسهم بأنفسهم.

وقد تطور مفهوم السبيبة من معناه المكاني المباشر ليطلق مجازا على أي تمرد ضد السلطة المركزية حتى ولو كان في العاصمة نفسها أو في المناطق القريبة منها، أي أن اللفظ أصبح مرادفا للتمرد على السلطة. ويذكر الباحث الفرنسي روبرت مونتان أن ذلك كان يحدث في أثناء الأزمات: "فبمجرد أن يموت السلطان، وتستفحل الأزمة بين المتنافسين على الخلافة، تنزع القبائل القوية إلى قوانينها الخاصة... وتظهر في هذه اللحظات ما يمكن تسميته بالجمهوريات الأمازيغية... مثلما حدث في أعقاب موت السلطان عبد الرحمان، حيث اندلعت سبيبة دامت خمس سنوات، واجتاحت كامل السهول في المغرب الأقصى"¹.

وتنتشر بلاد السبيبة في ثلاث مناطق هي، جبال الريف (بما فيها قبائل غمارة)، وجبال الأطلس، وشرقي المغرب وجنوبه. وهي جميعا مناطق نائية وعرة كان يصعب اختراقها والسيطرة عليها، لجأت إليها القبائل البربرية عقب الغزو العربي للبلاد. وقد ساعد ذلك قبائل غمارة على الاحتفاظ بلغتهم والكثير من عناصر ثقافتهم، وتنظيمهم الاجتماعي، القبلي رغم اعتناقهم الإسلام.

وكانت توجد بين بلاد المخزن وبلاد السبيبة عادة، منطقة وسطى، شبه مخزنية، تمارس فيها السلطة المركزية معظم وظائفها بشكل غير مباشر أو بشكل جزئي، وفي هذه البلاد الوسطية كانت السلطة المركزية تعتمد على زعماء بعض القبائل وتفوضهم في جمع الضرائب والأتاوات من قبائل أخرى أو من البادية القريبة من قبائلهم، مقابل إعفائهم من بعض هذه الضرائب والأتاوات أو كلها. ولهذا سجد السلطان عبد الرحمان بن هشام يستعين بالقائد محمد اشعاش للتوسط بينه وبين قبائل غمارة، إذ يقول في المراسلة التالية: "خدامنا قبيلة غمارة كافة وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فإننا نعلم أنكم قبيلة صلاح وخير قديما وحديثا

¹ - Robert Montagne, *Les Berberes et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Essai sur la Transformation Politique des Berberes*, Paris, 1930, p. 286.

وليس لكم سلف في الفساد، ونتحقق أن هذا الانحراف الواقع منكم إنما هو بسبب الشنآن الواقع بينكم وبين غداوش وها نحن قد عزلناه عنكم وولينا عليكم خديمنا الأرضي القايد محمد اشعاش وأسندنا إليه أمركم وبسطنا له يد التصرف عليكم فاسمعوا له وأطيعوا في جميع ما يأمركم به من أمور خدمتنا الشريفة ... في 4 ذي القعدة الحرام عام 1243 هـ¹. يتضح من خلال هذه الوثيقة وضعية قبائل غمارة بالنسبة للسلطة المركزية والتي سماها بالانحراف، لكنه يجد لها تفسيراً من خلال سوء التفاهم الذي كان بين القائد والقبيلة، والذي يرجع إلى الضرائب بالخصوص، حيث نجد السلطان في رسالة أخرى يشير هذا الموضوع، إذ يقول: "خديمنا الأرضي القايد محمد اشعاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد، فقد كتبنا لغداوش أن يرفع لك زكاة قبيلة غمارة في السنة الماضية، وفي هذه السنة، فإذا دفع لك وحزته من عنده يأتينا كتابه بالرفع لك وكتابك بالحيازة، لذلك فعند ذلك نكتب لك ولاية غمارة، فقد بلغنا أنها قريبة من تطوان وأسواقهم ومرافقهم كلها منها. والعمل على ما يشافهك به خديمنا ومحبا الأمين الحاج الطالب ففيه كفاية في الخبر، والسلام ..."².

نستنتج من الوثيقتين أن قبائل غمارة لم تكن مرتبطة بشكل مباشر بالسلطة المركزية، بل كان يتم اللجوء إلى وسطاء، غالباً ما كانوا قواد مدينة تطوان، الذين بدورهم كانوا يحاولون بسط نفوذهم على المنطقة المدروسة التي كانت تتأرجح بين الانحراف (حسب السلطان عبد الرحمان بن هشام) وتأدية ما بدمتها من واجبات.

ب- أشكال ملكية وسائل الإنتاج في بلاد غمارة.

تعتمد القاعدة الاقتصادية في بلاد غمارة على الزراعة المعيشية والرعي وبعض الحرف التقليدية البسيطة. ويلاحظ أن نظام الملكية الشائع في بلاد غمارة كان نظام الملكية الجماعية الخاصة بالقبيلة، وبموجب هذا النظام كانت هذه الأخيرة تعتمد إلى توزيع الأرض الصالحة للزراعة داخل المدشر (القرية) على الأسر الأبوية الممتدة لاستغلالها واستثمارها، وهي موضوع الملكية. أما الأراضي الأخرى ذات المنفعة العامة: الغابات والمراعي والبحيرات وغيرها، فهي أراض جماعية يكون فيها لكل أسرة الحق في استعمالها واستغلالها، وتتدخل الجماعة لتنظيم هذا الاستغلال. أما الملكية الخاصة والفردية، فهي مسموح بها بالنسبة للمنقولات مثل القطيع، وأدوات العمل، والممتلكات البيئية، وللمالك حق التصرف فيها. وعندما يتعلق الأمر بالأرض، فهي لا تكون موضوعاً للملكية الفردية، وإنما هي مشتركة على مستوى الأسرة الأبوية الممتدة، إذ نجدها مقيدة بمقتضيات عرفية لا يمكن تجاوزها، تقتضي أن الأرض يجب ألا تخرج عن الأسرة وعن القبيلة بلا إذن جماعي. وتلعب الجماعة دوراً في العمل في تطبيق ذلك³، أما الأنشطة الرعوية التي كانت تمارس غالباً في كل أنحاء قبائل

¹ - وثيقة مأخوذة من مديرية الوثائق الملكية بالرباط، محفظة غمارة، 1786 م-1986 م، رقم (Cote): TH-100.

² - وثيقة مؤرخة ب 4 محرم الحرام فاتح عام 1242 هجرية، بمديرية الوثائق الملكية، مرجع سابق.

³ - Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, op.cit, CAJA N 5, A/27-A/31, Carpeta A/27.

غمارة، فكانت تستند عادة إلى الملكية الفردية لقطعان الماشية مع حق استخدام أراضي المراعي على أسس جماعية ومشاعية.

ج- التنظيم الاجتماعي في بلاد غمارة.

تشتمل بلاد غمارة على عدد كبير من القبائل، تتفاوت من حيث حجمها وقوتها ونفوذها وثروتها. وكانت العلاقات بين هذه القبائل تكون إما سلبية تتجلى في إظهار العداوة وانتهاز الفرص للغزو والعدوان وشن الحروب، أو إيجابية تنطوي على المودة والمحبة والاحترام المتبادل.

وتنقسم القبائل عادة إلى قبائل زراعية تقوم بفلاحة الأرض على أسس مشاعية ومشاركة في مجتمعات قروية قائمة على الاكتفاء الذاتي، وقبائل رعوية تقوم على رعي الغنم، وقبائل زراعية-رعوية تزوج بين العمل الزراعي والرعوي في الوقت نفسه. وتدافع القبيلة عن حقها في الحياة وفي الأراضي الصالحة للزراعة والرعي وفي الماء. ومعظم الحروب والغزوات التي كانت تقوم في بلاد غمارة بين مختلف القبائل، كان سببها النزاع حول أرض خصبة أو مرعى من المراعي أو منهل من مناهل الماء أو كان مبعثها الأخذ بالثأر، أو دفع اعتداء، أو مباشرة اعتداء.

ولم يكن المجتمع القبلي في بلاد غمارة مقسما إلى طبقات اجتماعية متميزة لأن المستويات المعيشية للسكان كانت متماثلة تماما، حيث كان الأفراد يمارسون أنشطة اقتصادية-زراعية أو رعوية، أو الاثنين معا، تمكنهم من العيش في مستوى الكفاف. كما أن النظام القبلي في حد ذاته يسعى إلى إلغاء أسباب الطبقية، والقضاء على ظاهرة الاستغلال الطبقي والصراع الاجتماعي، وذلك من أجل نشر الحرية والعدالة الاجتماعية والديموقراطية في ربوع المجتمع القبلي.

انطلاقا من هذا الواقع، يمكن التأكيد على أن الأفراد في المجتمع القبلي كانوا متساوين في الحقوق والواجبات، لا فضل لفرد على آخر إلا بتفوقه وبجهوده التي يبذلها في سبيل تحقيق المصلحة العامة، فالفروق إذن كانت فروقا فردية وليست فروقا طبقية. وكان معيار التمايز والتفاضل بين الأفراد يعتمد على صفات وخصائص ينبغي توافرها في الفرد كي يحتل منزلة اجتماعية مرموقة ومتميزة في المجتمع. وكان من بين هذه الخصائص: التدنن، والحكمة وبعد النظر والذكاء والشجاعة والإقدام والنصرة والإغاثة والسخاء والكرم والعفو والتسامح وغيرها من الصفات الحميدة.

2-التشكيلات الاجتماعية في عهد الحماية.

1.2. اجتياح المستوطنين الأوروبيين للمغرب.

وقعت معاهدة الحماية في 30 مارس 1912 بين السلطان عبد الحفيظ وفرنسا، كما وقعت في نونبر 1912 معاهدة فرنسية-إسبانية ألحقت بمقتضاها بإسبانيا مناطق نفوذها السابقة في شمالي المغرب وجنوبه تنفيذا لمعاهدة 1904 الأنغلو- فرنسية. وهكذا أصبح المغرب منذ هذا التاريخ تحت السيطرتين الفرنسية والإسبانية معا. ومعلوم أن هذا الاستعمار، وإن كان قد حدث نتيجة تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب، إلا أنه ارتبط أيضا بتسابق القوى الإمبريالية القديمة (إسبانيا، فرنسا، بريطانيا...) لاقتسام العالم وجعل المستعمرات مرتكزا لحل أزماتها الداخلية وتطوير اقتصادها الرأسمالي.

وكان الهدف من استعمار المغرب هو خلق مستعمرة استيطانية والسير قدما في توسيع الرأسماليتين الفرنسية والإسبانية. هذا الاستعمار كان يعني استبدال البنى الاجتماعية والاقتصادية الموجودة بنمط الإنتاج الرأسمالي التبعي. وهذا الاستبدال الذي أدى إلى تفتيت علاقات الإنتاج القديمة وكل ما يترتب عليه، كان الهدف منه الحصول على القوة الإنتاجية اللازمة من أجل إقامة البنى الرأسمالية¹.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر، اهتم الأوروبيون بمسألة الأرض في المغرب، وحظيت قضية امتلاكهم للأراضي فيه بالمادة 11 من معاهدة مدريد سنة 1880 وبالمادة 60 من معاهدة الجزيرة الخضراء، وذلك لاقتناعهم بأن الوجود الاستعماري مهزوز ما لم يقم على دعائم يمثلها المستوطنون الزراعيون الذين يشكلون ضمانا لرسوخ السلطة الاستعمارية العسكرية، لهذا حرص المقيمون العامون الذين تعاقبوا على حكم المنطقة الخليفية على تشجيع الهجرة الأوروبية إلى المنطقة المدروسة.

وما أن تم إنهاء حالة المقاومة والحركات التحريرية بالمنطقة بعد عام 1930، وإحكام السيطرة العسكرية على كل قبائل الشمال حتى انهال على المنطقة سيل من المهاجرين الأوروبيين، وخاصة الإسبانين، للتمتع بثمار الاحتلال، إذ نجد أن عدد الأوروبيين في الحاضرة الغمارية شفشاون انتقل من 716 نسمة سنة 1936 إلى أكثر من 2500 نسمة سنة 1950، أما على صعيد المنطقة الخليفية، فقد انتقل عدد الإسبان من 41660 نسمة سنة 1936 إلى 84716 نسمة سنة 1950².

وقد رافق قوات الغزو الاستعماري، عدد من العصابات المسلحة التي شكلت قواعد خلفية للقوات الاستعمارية، وفرق استطلاعية لها يحمون ظهرها ويحتمون بها، بغية الحصول على الأرض وإزالة كل ما من شأنه

¹ - عبد الله البارودي، المغرب: الإمبريالية والهجرة، نقله إلى العربية المركز العربي للوثائق والدراسات، بيروت، 1979، ص. 41.

² - Africa, Epoca Segunda, Ano Octavo, Outubro 1932, p. 53.

أن يشعرهم بأنهم غرباء عن مجتمعهم الجديد. وفي مقدمة ذلك الفلاح المغربي. ومنذ ذلك الحين دأب الاستعمار على إعداد جداول منهجية تضم مختلف أنواع الأنظمة العقارية التي تسهل عملية مصادرة الأراضي الزراعية من الفلاحين المغاربة لكي توزع فيما بعد على المهاجرين الأوروبيين¹.

ومن أجل تشجيع عملية الاستيطان وجذب مزيد من المستوطنين الزراعيين، فتحت إدارة الحماية مؤسسات مالية للمستوطنين الزراعيين، مع تسهيلات خيالية في الدفع.

كما تم إطلاق برامج تهدف إلى مساعدة المستوطنين الزراعيين لدعم تنمية الإنتاج الزراعي، وتسهيل تصريفه، وتسويق المنتجات الغذائية. ويرتكز البرنامج على توسيع المساحات المزروعة ومضاعفة تربية المواشي وتحسين نوعية الإنتاج وإدخال مزروعات جديدة، وإنشاء مؤسسات للقرض الزراعي². وكان من نتائج هذه السياسة الزراعية التشجيعية أن ارتفع عدد المستوطنين الزراعيين.

أما فيما يختص بالمزارع الأوروبية التي انتشرت في سائر أنحاء شمال المغرب، فكان مصدرها الاستيطان الزراعي الرسمي والاستيطان الزراعي الخاص. فقد ركزت إدارة الحماية على الأراضي الجماعية وعلى أراضي المخزن والحبوس، لجعلها الميدان الرسمي للاستيطان الزراعي الرسمي. فخلال الفترة ما بين 1918-1921م، حصل الاستيطان الزراعي الرسمي على مساحات شاسعة من الأراضي الخصبة، المتمركزة في الأودية الممتدة من واد أورينكا إلى واد لاو.

أما الاستيطان الزراعي الخاص فقد نتج عن عمليات شراء أراضي الفلاحين المغاربة قسرا، إذ كانت قوات الغزو تسهل على المستوطنين الحصول على الأرض الزراعية بإبادة سكان القرى والاستيلاء على أملاكهم بالقوة وبيعها للمستوطنين بأبخس الأسعار، مستعملة إلى جانب قواتها قوات الباشوات والقياد والإقطاعيين المتعاونين مع الاستعمار، منهم القايد محمد البحياوي ومحمد بن قاسم الخضير ومحمد بن المكي الطاغي المنصوري.

وفي ظل هذه الشراهة التي كان يتميز بها المستوطنون الأوروبيون، أصبحت جميع الأراضي الصالحة للزراعة في غمارة ملكا لهم، حيث بلغت مساحة الاستيطان الزراعي الرسمي والخاص عام 1953م بقبيلة بني زيات نحو 2380.80 هكتار بعدما كانت سنة 1945م نحو 2149.16 هكتار، وفي قبيلة بني بوزرة انتقل من 495.72 هكتار سنة 1945 إلى 548.92 هكتار سنة 1953م³.

¹ - Le Clère Commandant, "Les Terres Collectives de Tribus au Maroc, Renseignements Coloniaux", *Hespéris*, Volume 2, Février 1922, p. 40.

² - أحمد تافاسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب (1919-1939)، دار ابن خلدون، بيروت، 1980، ص ص. 18-19.

³ - Donacion Carlos Pereda Roig, Gomara, op.cit, CAJA N 10.

وتجدر الإشارة إلى أن المستوطنين الزراعيين لم يكتفوا بما حصلوا عليه من إدارة الحماية من مساحات شاسعة، بل كانوا يزحفون على أراضي جيرانهم المغاربة فيبتلعونها تدريجياً. ولم تكن حدود مزرعة الإسباني تعتبر حدوداً نهائية إلا عندما تلتقي بحدود مزرعة أوروبي آخر. وهكذا اتسعت مزارع بعضهم من بضعة هكتارات إلى عشرات الهكتارات¹. واستطاعوا خلال فترة وجيزة جني الأرباح الطائلة. ولم تكد سلطات الاحتلال تستولي على الأراضي الخصبة وطرد الفلاحين المغاربة منها، حتى أثقلت كاهل الفلاحين بالضرائب الفلاحية المسماة الترتيب. فلم تكن مصلحة الضرائب تأخذ في الاعتبار عند تحديدها لضريبة الدخل على الإنتاج الزراعي والحيواني، التغيرات السلبية في دخل الفلاحين من انخفاض الإنتاج، وهلاك الماشية والأشجار. وفي سنة 1954 بلغ دخل الترتيب في قبيلة بني زرين حوالي 193.047.62 بسيطة في الوقت الذي كان في سنة 1951 65.744.44 بسيطة. أما في قبيلتي بني سميح وبني كير. سيرتفع دخل الترتيب بشكل كبير، حيث انتقل من 38.621.09 بسيطة سنة 1945 إلى 202.198.61 بسيطة سنة 1953م². وهكذا كان الفلاح الغماري يشقى ويكدح من أجل تغذية خزينة سلطات الاحتلال، بينما كان وضعه الاقتصادي يسير من سيئ إلى أسوأ، بسبب الانخفاض المستمر في الإنتاج الزراعي، وعدم قدرته على تحمل أطماع المتربصين بدخله الزراعي الهزيل.

2-2- الانعكاسات الاقتصادية للاستيطان الأوروبي.

أ- عواقب القمع الاقتصادي على المجتمع المغربي.

أدت الهيمنة الاستعمارية في السياسة الزراعية التي اتبعتها سلطات الاحتلال إلى إحداث تحولات اقتصادية كبيرة في الوسط القروي الغماري. فمن أجل إخضاع كل تراب المنطقة، والقضاء على مقاومة السكان القرويين، للسيطرة الاستعمارية، لجأت قوات الاحتلال الإسبانية إلى وسائل عسكرية مهمة في حربها الاقتصادية ضد هؤلاء السكان، كإحراق المحاصيل وهدم مخازن الغلال الجماعية وقصف الأسواق والاستيلاء على قطعان الماشية وتخريب التجهيزات التي تستعمل في عملية الري إلخ. وقد نتج عن ذلك تدهور الأوضاع المعيشية للسكان الغماريين.

وقد أدى اغتصاب الأراضي الخصبة من قبل المستوطنين الأوروبيين إلى عواقب وخيمة ومأساوية على الكثير من المناطق القروية الغمارية، فوسائل العيش أخذت تتضاءل بالنسبة لجماهير الفلاحين تدريجياً، بسبب نقص مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، كما أخذت قطعان الماشية تنقص، في الوقت الذي كانت فيه أملاك المستوطنين تتعاظم وتكبر.

¹ - أحمد تافسكا، مرجع سبق ذكره، ص. 21.

² - *Intervencion Territorial de Gomara, Comarcal de Puerto Capaz, Sintesis de los datos mas Interesantes de las cabilas de metuua, beni erzin, beni smih y bni guerir, puerto capaz, 24 de Septiembre 1955, pp. 7-10.*

وبعد أن تمت السيطرة العسكرية على المنطقة المدروسة، أرغمت قوات الاحتلال السكان القرويين على أن يقدموا الأيدي العاملة اللازمة لإقامة الهياكل العسكرية والاقتصادية. وموازة مع أسلوب السخرة المرتكزة على العمل المجاني، تطبيقا لتوجيهات المقيمين العامين الإسبان، أرغمت الساكنة الغمارية من أجل كسب لقمة العيش على الاشتغال في مختلف أورش قوات الاحتلال بأجور زهيدة¹.

ونجم عن استعمار المغرب بشكل عام، تغيرات في أشكال الملكية العقارية، إذ عمدت قوات الاحتلال إلى الاستيلاء على أراضي المخزن والأراضي الجماعية والأحباس لجعلها الميدان الرسمي للاستيطان الزراعي. وفي هذا الإطار أصدر السلطان يوسف ظهير الفاتح من يوليوز 1914 الذي ينص على تحديد أراضي المخزن، ثم ظهير 15 يوليوز من السنة نفسها الذي ينص على منع الأملاك الجماعية ووضعها تحت وصاية الدولة، ويتولى أمرها مدير الشؤون الأهلية الذي يستعين بمجلس وصاية، يتكون من مدير الشؤون الأهلية (رئيسا)، ومستشار الحكومة وموظف إسباني ينوب عنه، وأحد القضاة الإسبان. أما الفلاحون الغماريون المهددون في أملاكهم فيمثلهم في مجلس الوصاية اثنان من الأعيان يعينهما الوزير الأكبر. وكان الظهيران بمنزلة تقنين للطرد الجماعي للفلاحين المغاربة بحجة امتلاكهم واستغلالهم لأراض بطريقة غير قانونية. وبدأت رسميا سياسة الإبعاد والحصر أي إبعاد الفلاحين المغاربة عن الأراضي الخصبة وحصرهم في المناطق القاحلة².

وكان من أبرز عواقب هذا الاستعمار الإسباني على المجتمع الغماري، دفع أمواج من المهاجرين نحو المدن، حيث يطلعوننا ألبير عياش على أن "الريفيين الذين حافظوا على أشكالهم التقليدية والتنظيم الاجتماعي، فهم كثيرون على سفوح جبالهم الوعرة وكانوا يهاجرون منذ القديم، إلا أن تطور الاستعمار الفلاحي ضاعف من هجرتهم، نظرا لانعدام الحصول على الأرض في السهول التي احتلها الإسبان كلية، فاشتغلوا عمالا زراعيين موسمين³. وهكذا يتضح أن الهجرة الداخلية بالمنطقة المدروسة ليست وليدة المرحلة الاستعمارية بل تمتد إلى ما قبل الاستعمار، غير أن هذا الأخير عمق وضاعف تأثيرها، حيث يطلعوننا ألبير عياش عن هذه الحالة بقوله: "لقد أصبح عدد متزايد من الفلاحين لا يملكون الأرض وتحولوا إلى خماسة أو مأجورين، أو على الأصح مرشحين إلى الإجارة، لأن العديد لن يحصلوا على شغل دائم، فهم مضطرون إلى هجر الأراضي..."⁴.

¹ - عبد الله البارودي، مرجع سبق ذكره، ص. 42.

² - Michaux Bellaire, "Les Terres Collectives au Maroc et Tradition , Renseignements Coloniaux", *Hespéris*, Tome IV, 2° Trimestre, Paris, Mars 1924, p. 97.

³ - ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين المسعودي، منشورات دار الخطابي، الطبعة الأولى، المغرب، أبريل 1985، ص. 258.

⁴ - ألبير عياش، مرجع سابق، ص. 255.

ب- الاستغلال الرأسمالي للضيعات الفلاحية.

عندما دخل الاستعمار بشكله السافر إلى الأراضي الغمارية وجد أمامه عددا من خدام المخزن الأوفياء، وهي الفئات الحاكمة المكونة من شيوخ القبائل والقواد وكبار رجال الدين. وقد أبقى الاستعمار على معظم هذه الفئات وامتيازاتها الأدبية والاجتماعية، ومنحهم مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية عند إدخال نظام تسجيل الأراضي، لكي تكون سندا قويا للمحتل، ولكنه جردها في المقابل من نفوذها السياسي الحقيقي، لأنه أصبح الحاكم الفعلي للبلاد. وظلت هذه الفئات رمزا بلا مضمون، يستعين بها المحتل حيثما يريد، لإضفاء الشرعية على بعض سياساته الاستيطانية والعدوانية. وهكذا ظهر نمط الملكية الفردية للأرض، وتحولت العلاقات داخل القبيلة من علاقات عشوية في مفهومها التقليدي القديم إلى علاقات اقتصادية تركز على امتلاك رؤساء القبائل والقواد ورؤساء الطرق الصوفية للأراضي الزراعية الواسعة، وتحول سائر أفراد القبيلة بالتدريج إلى فلاحين أجراء في أراضي زعمائهم.

وما لحق الزراعة من تغير في نمط ملكيتها لحق تدريجيا ملكية الماشية، فقد تحولت هذه الأخيرة من ملكية عشيرة مشاعية إلى ملكية أسرية أو فردية، ولكن النشاط الرعوي لم يتطور في وسائله بالدرجة أو السرعة نفسها اللتين تطورت بهما الزراعة في البادية الغمارية، لذلك يظل الفائض الاقتصادي المتولد من هذا النشاط، والقابل للتوزيع والاستحواذ من خلال الآخرين محدودا للغاية. وما أن استقرت الملكية الفردية للأرض الزراعية في المغرب حتى أقدم المستوطنون الأوروبيون على تطبيق أشكال الاستغلال الرأسمالي للأرض الزراعية، باعتبار الأرض رأس مال يدر دخلا أي ينتج فائض قيمة. وهكذا انقسمت الأراضي الزراعية إلى مزارع يستغلها الأشخاص، ويمارسون فيها حقوق الملكية الخاصة كافة، وإلى أراضي الدولة، وأراضي الحبوس والأراضي الجماعية وغيرها؛

لكن علاقات الإنتاج الرأسمالية لا يمكنها أن تنمو وتزدهر دون تطور الإنتاج الآلي الحديث. وهكذا أدخل المستوطنون الزراعيون الآلة إلى القطاع الزراعي بصورة تدريجية، بهدف تحسين الإنتاج الزراعي وتطويره في مزارعهم، معتمدين على المكننة، من أجل استصلاح الأراضي عبر استخدام الحفارات والمحركات لإحياء أراض جديدة وإقامة شبكة للري. وهذا من شأنه زيادة المساحات المزروعة والمروية فقط. وكذلك استعمال الأدوات الحديثة والجرارات والأسمدة المخصصة للأراضي من أجل الزيادة في الإنتاج الزراعي.

ج- نتائج الاستعمار الإسباني على العالم القروي.

إن اعتماد الآلات في المزارع الأوروبية أدى إلى توظيف رساميل باهظة، وجعل العمل الزراعي التقني مجالا جديدا للقوى البشرية التي رأت في الوسائل الجديدة أملا في تأمين احتياجاتها كافة، من غير أن تمارس أعمالا جسدية مرهقة، بل انحصرت نشاطها في توجيه الآلة التي وضعت لخدمة العاملين في الحقل الزراعي وراحتهم.

وكان من نتيجة هذه التقنيات الحديثة الأثر البالغ في التطور الذي بلغته الزراعة بعد استعمال الآلات الحديثة، خاصة وأن طبيعة الأراضي في البادية الغمارية تفرض تنوع الزراعات فيه. وكان من الطبيعي، نتيجة هذا التنوع، أن نلاحظ أشكالاً مختلفة من الأدوات، تلائم كل نوع من الزراعات ومتوفرة بأعداد كافية. فقد ساعد الاستعمار على تحول الإنتاج الفلاحي التقليدي إلى إنتاج سلعي، لأغراض التبادل وليس لأغراض الاكتفاء الذاتي وما يصحب ذلك من عمليات تحول للاقتصاد الفلاحي التقليدي من اقتصاد طبيعي معيشي إلى اقتصاد نقدي تبادلي سوقي. وأدى هذا إلى بروز ازدواجية في البنيات الفلاحية. فقد أصبح يتعايش قطاع اقتصادي زراعي عصري على درجة عالية من الحداثة يملكه المستعمرون الأوروبيون، وبجانبه قطاع اقتصادي زراعي فقير يملكه السكان المحليون، ويشار إليه غالباً بأنه تقليدي.

لقد أدى الاختراق الغربي للمنطقة المدروسة إلى تحويله إلى مجتمع كلونيالي، من حيث نمط الإنتاج، وهو نمط إنتاج يخدم الرأسمالية دون أن يحول المجتمع إلى مجتمع رأسمالي ناجز على غرار المجتمعات الأوروبية، فهي مجتمعات ظهرت في سياق ولادة الرأسمالية وعودها وتوسعها وتحولها إلى إمبريالية بوصفها محصلة للصراع بين الرأسمال الوافد من الغرب، والمقاومة التي أبدتها في تاريخ الشعوب التي شكلت ما يسمى اليوم بالعالم الثالث.

إن هذا الطابع الأخير، هو الذي يجعل المغرب اليوم بصفة عامة لا يزال أسيراً للحركة الرأسمالية العالمية، فإننتاجه قائم على أساس الاستجابة لمصالح السوق الرأسمالية العالمية. ويشتهر اقتصاده بتخصسه في إنتاج المواد الأولية، أو في زراعات معينة أو صناعات تحويلية تدخل في سياق الصناعات المتطورة الرأسمالية. وهكذا، فإن هذه السيطرة الاستعمارية تنظم النهب، وتعاوي التقدم الاقتصادي والاجتماعي للبلاد المستعمرة. فقد أدى الاستعمار الإسباني للمنطقة المدروسة إلى دمجه تدريجياً في النظام الرأسمالي العالمي. وكان أحد تداعيات ذلك بالطبع هو تغلغل العلاقات الرأسمالية في الأنشطة الاقتصادية بالقدر الذي يجعله مصدراً للمواد الخام من زراعية ومعدينية، وسوقاً لتصريف سلعه ولاستثمار رأسماله. وقد أدى غياب أي اهتمام بمصالح الفلاحين الغماريين ومصيرهم في السياسة الزراعية الإسبانية بالمنطقة، القائمة على خدمة المصالح الزراعية للمستوطن الأوروبي وحده، إلى إفقار الفلاحين الغماريين.

3- الانعكاسات الاجتماعية للاستيطان الإسباني.

3.1- التشكيلات الاجتماعية في ظل الاستيطان الإسباني.

لقد نجم عن إقامة النظام الاستعماري في المغرب آثار اجتماعية وخيمة، فقد أدت أساليب القمع العسكري والسياسي، وتجنيد الفلاحين بالقوة، وتخريب ممتلكاتهم الخ، إلى زعزعة كيان المجتمع المغربي

عامة¹، وإلى تصدع البنى القبلية والعلاقات القبلية، لتحل محلها علاقات الإنتاج القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويبيع قوة العمل من جانب الفلاحين المعدمين للحصول على أجر نقدي. وبعد أن تم الغزو العسكري وتدمير القاعدة الاقتصادية للمكونات الفلاحية الغمارية، تحول الوسط الريفي إلى مصدر واسع النطاق للمهاجرين، سواء أكان ذلك إلى داخل منطقة غمارة أم إلى خارجها، وقد شكلوا جمهور الكادحين الذين كانوا يتقاضون أجورا زهيدة في المزارع الأوروبية وفي المناجم والمصانع. وكانت الغاية من تهجير اليد العاملة الغمارية إلى إسبانيا تحقيق هدف سياسي وآخر اقتصادي إثر التعبئة العامة إبان الحرب الأهلية الإسبانية²، فقد كان الغرض توفير اليد العاملة الرخيصة لمصانع الأسلحة والقطاع الزراعي المفتقر لها، حيث كان دافع البؤس والفقر المدقع والحرمان الكبير، وغيرها من المظاهر السلبية التي ميزت حياتهم خلال تلك الفترة هي سبب التحاقهم بإسبانيا³، كما كان الغرض أيضا الاستفادة من تيار الهجرة لخلق ظروف إضافية تؤدي إلى تفكيك القبائل المناوئة للوجود الاستعماري، وهذا الأمر كان له أثره المباشر في المقاومة المسلحة لتلك القبائل⁴.

2.3- مظاهر التطور الحاصل في العلاقات الاجتماعية.

مع تطور نظام ملكية الأرض، وظهور تقسيم العمل ونمو المبادلات التجارية، بدأت تتبلور عملية التمايز الاجتماعي والطبقي. وقد أصبحت هذه العلاقات تحل تدريجيا محل التمايزات القبلية التقليدية القائمة على أساس علاقات القرابة وروابط الدم وأواصر التضامن القبلي. وقد ساهم تدخل الدولة المركزية والتغلغل التدريجي لعلاقات الإنتاج الرأسمالية في هذا التحول، من غير أن تختفي تماما البنيات التقليدية؛ بل حدثت عملية مزاجية وتهجين بين الهياكل والتمايزات القبلية التقليدية والعلاقات والتمايزات الرأسمالية الحديثة.

¹ - Robert Montagne, *Naissance du Proletariat Marocain, Cahier de L'Afrique et de L'Asie*, Enquête Collective 1948-1950, Paris, 1951, pp. 11-12.

² - أكد الكاتب والرحالة اللبناني أمين الريحاني الذي زار المنطقة خلال الحرب الأهلية بإيعاز من السلطات الفرنسية التي وفرت له كل الظروف والتسهيلات خلال إقامته بها، واستقبل من طرف الجنرال فرانكو، ورأى بعينه كيف كانت السلطات تجند مغاربة الشمال وتنقلهم بأعداد كبيرة إلى جبهات القتال، أكد في كتابه الذي يحكي فيه أطوار تلك الرحلة، ان عدد الذين تم تجنيدهم وصل إلى 180 ألف رجل. أنظر أمين الريحاني، المغرب الأقصى، رحلة في منطقة الحماية الإسبانية، دار المعارف، مصر، 1952، ص. 430.

بينما ذكر ميكيل مارتين في كتابه حول الاستعمار الإسباني في المغرب ان 14 في المائة من سكان منطقة الحماية شاركوا في الحرب، وهو ما يعادل 120 ألف مجند من مختلف قبائل الشمال. أنظر ميكيل مارتين، الاستعمار الإسباني في المغرب، ترجمة عبد العزيز لودي، منشورات التل، الطبعة الأولى، الرباط، 1988، ص. 149.

اما الباحث بوبكر بوهادي فقد قدر عدد المجندين من قبائل غمارة في الجيش الإسباني إلى حدود سنة 1936 في 939 مجندا؛ غير أن التجنيد والمساهمة في الحرب الأهلية الإسبانية تصدى لها العديد من علماء غمارة أشهرهم محمد بن عبد الصمد التحكاني الذي أصدر فتوى تؤكد على تجريم تجنيد المغاربة في الحرب الأهلية الإسبانية. أنظر محمد الحبيب التحكاني، الفقيه التحكاني السيد محمد بن عبد الصمد: حياته، اتجاهه الفكري والسياسي، نماذج من فتاويه، نشر مكتبة سلمى، تطوان، 2012، ص. 79-138.

³ - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، 2003، ص. 251.

⁴ - عبد الله البارودي، مرجع سبق ذكره، ص. 1.

وهكذا أخذت عمليات التمايز الاجتماعي والطبقي تسير في اتجاهات متعددة، فال تغيير الذي أجراه الإسبانيون في شكل الملكية، لم يؤد إلى خراب الفئات الإقطاعية، بل أسهم في تبلورها وصياغة معالمها ورسم حدودها لكي تكون سندا قويا للمستعمرين الأجانب، كما ظهرت فئة من المغاربة المكونين من كبار ملاكي الأرض، الذين لا يقومون بزراعة أراضيهم بأنفسهم، وغالبا ما كانوا يقومون بتأجير أراضيهم للفلاحين أو يستأجرون عمالا زراعيين لفلاحتها، وأغلب هؤلاء الملاك كانوا يقطنون شفشاون أو تطوان أو طنجة. وبهذا لم يكن بينهم وبين قراهم وفلاحها أية روابط وثيقة أو علاقات شخصية.

لقد أدت التغييرات الاستعمارية الكبيرة إلى تحول أعداد كبيرة من الفلاحين إلى عمال يتقاضون أجرا، فقد وجدت هذه الفئة من الفلاحين نفسها محرومة من الملكية وعاجزة عن تطوير مقدراتها لامتلاك إنتاجها، إذ كان عليها من جهة، أن تجد عمالا مأجورا يضمن لها حياتها، وكان عليها من جهة ثانية، ألا تفقد كل شيء، وأن تحافظ على تضامن تقليدي معين ورثته من ماضيها. وكان العمل المأجور يحصل بعقد فردي شفهي بين العامل وصاحب المزرعة، مما أدى إلى نشوء شكل جديد من تبعية العامل، الذي كان قد تحرر من التبعية السابقة للإقطاعيين.

إن هذه الفئة من الأجراء التي نمت ونشأت في ظل السيطرة الاستعمارية، قد تضخم حجمها بسرعة كبيرة، وقد حصل هذا التوسع في حجمها بشكل رئيسي على حساب الفئات الاجتماعية الأخرى، والتي اضطرها الإفطار المتزايد إلى الالتحاق بسوق العمل، بسبب سياسة الدمج الاقتصادي/الاستعماري للسلطات الاستعمارية.

ونشير إلى أن المعطيات الإحصائية الدقيقة المتعلقة بعدد اليد العاملة الزراعية وتوزيعها خلال فترة الهيمنة الاستعمارية مفقودة، ذلك أن الزراعة الأوروبية كانت تعتمد على اليد العاملة الغمارية اعتمادا كليا، وأن الكثرة الساحقة من هذه اليد العاملة موسمية، تأتي من المناطق القريبة من مزارع الأوروبيين. أما العمال الدائمون في مزرعة أوروبية (مساحتها 250 هكتار) فيختلف عددهم باختلاف المناطق والظروف، ويتراوح بين أربعة واثني عشر عاملا في أحسن الأحوال، منهم عامل أو عاملان أوروبيان متخصصان في تغيير آلات المزرعة والإشراف على عمل العمال المغاربة¹.

وعلى عكس العامل المغربي، كان العامل الأوروبي يتمتع بكثير من الامتيازات منها: عقود عمل مضبوطة وأجرة مرتفعة وسكنى ومكافآت مرتفعة، بالإضافة إلى امتيازات أخرى منها الاستفادة من خدمات المستوصفات والمدارس لأبنائهم².

¹ - أحمد تفاسكا، مرجع سبق ذكره، ص. 89.

² - تفاسكا، مرجع سبق ذكره، ص. 90.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التنظيم النقابي في البادية المغربية عموماً قد واجه عقبات كثيرة، لعدم استقرار العمال، نتيجة للسياسة الاستيطانية والتقاليد الفلاحية، وعدم وجود الوعي السياسي والنقابي، وانتشار الأمية، ومحاربة سلطات الاحتلال لأي نوع من النشاط النقابي. أما النضال الطبقي في البادية فقد كان معدوماً أيام الاستعمار الإسباني لأن التناقض الرئيسي بين الاستعمار والحركة الوطنية قد غطي كل صراع.

كما تحولت أعداد كبيرة من الفلاحين إلى مزارعين بالمحاصة، حيث يحصل المزارع على حصة عينية من المحصول بعمله هو وأفراد أسرته في أرض المالك. وتراوح نظام اقتسام المحصول بين المربعة أي برع المحصول والمخامسة أي بخمس المحصول حسب الترتيبات والأعراف السائدة في الوسط القروي، بينما فقد عدد كبير من البؤساء كل شيء، فصارت طواير العاطلين والمحرومين تزداد يوماً بعد يوم، وهو ما أدى إلى انتشار الاضطرابات داخل قبائل غمارة أوفي بعض المدن، من خلال انتشار أعمال النهب والسرقة فيها. وفي هذا الصدد تسجل لنا أحد التقارير "أن مئات من سكان قبائل بني خالد وبني رزين ومتيو، توجهوا إلى مدينة تطوان بحثاً عن العمل، فلم يجدوه، وقد دفعهم غضبهم إلى تنظيم مظاهرة بالمدينة، قاموا خلالها بنهب بعض الدكاكين..."¹.

تلك كانت أهم التغيرات التي طرأت على البناء الطبقي في البادية الغمارية، وقد تمثلت في النشوء التدريجي لفئة عمالية تمارس العمل الزراعي المأجور، وفي ظهور فئة من كبار الملاكين الذين كانوا يتحكمون بشكل رئيسي في الحياة السياسية والاقتصادية على حجمها المحدود. وقد عمل الاستعمار على احتضانها ودعمها وطور أساليب استغلالها لتكون عوناً له. أما الحياة الاجتماعية للغماريين فقد أصبحت تحت رحمة المراقبين العسكريين الذين كان لا يتم أي تحرك كيفما كان نوعه دون ترخيص منهم، وقد أصدرت إليهم نيابة الأمور الأهلية تعليمات سرية يوم 20 يوليوز 1936 أهم ما جاء فيها:

- العمل على أن تستمر حالة الطوارئ المعلن عنها في جميع المنطقة المدروسة، وذلك حتى يشعر الغماريون بأن المنطقة توجد تحت الاحتلال العسكري.
- القيام بمراقبة شديدة للقبائل الغمارية
- العمل على إبقاء ناحية الريف وغمارة معزولة على باقي المنطقة.
- عزل القبائل عن بعضها البعض، بحيث تنقطع الصلات بين سكانها وسكان المدن.
- حصر المشاركة في الأسواق الأسبوعية في سكان القبيلة التي يوجد بها السوق.
- تعزيز حاميات ومراكز المراقبة بالمخازنية.

¹ - يورد هذا التقرير الباحث بوكري بوهادي في أطروحته المغرب والحرب الأهلية الإسبانية... م. س. ص. 261.

- الامتناع عن منح بطاقات السفر إلا في الحالات الخاصة، وللأشخاص غير المشبوه فيهم، وإلقاء القبض على كل من يحاول السفر دون حصوله على البطاقة الضرورية لذلك¹.

ومن مظاهر التطور الحاصل في المجتمع الغماري، التفكك الأسري، إذ كانت الآلية المتحكمة فيه من فوق، في شكل إكراهات خارجية أملت عواقب مستجدات الأزمة المتفاقمة التي حلت بالمنطقة المدروسة، ولم تكن نتيجة تطور داخلي طبيعي، إثر تحقيق تراكمات مادية تستدعي إنتاج بنى اجتماعية مساندة لها. وذلك ما جعل هذا التطور يأخذ منحاه السلبي كتعبير عن مجتمع زراعي يفقد وسائل التجاوز إلى مرحلة أخرى من التطور في أنماط الإنتاج. هذا التغيير الذي طرأ على المورفولوجية الاجتماعية للبادية الغمارية، هو الذي يفسر في مقام آخر تراجع قدرات القبائل الغمارية على الاستجابة لمتطلبات الاستعمار الإسباني، سواء تعلق الأمر بضروريات الحركات العسكرية ولوازمها، أم بالجباية بمختلف أصنافها، بسبب تقلص أفراد الأسر وتراجع قدراتهم الإنتاجية، وغياب المتخصصين في الاستجابة لحاجيات المخزن الشريف التي كانت توفرها الأسر الكبيرة، المتعددة الأفراد². وقد أدى هذا الوضع إلى فرار الأفراد والأسر من القبيلة الأم على شكل هجرات، بسبب الخوف على الأنفس والأموال من ضغط التحركات العسكرية للجيش الإسباني، وخير مثال على ذلك، ما وقع لترغة، عندما هجر كل سكانها إلى مرتيل أثناء حرب التحرير الريفية عام 1923م³. وهذه الظاهرة خلقت تأثيرات على مورفولوجية الشبكة القبلية، وما رافق ذلك من خلخلة لكثير من الثوابت والأعراف، وامتزاج وتداخل وتعايش اضطراري. فقد شهدت الفترة الممتدة ما بين 1912 و1930م حركة غير عادية من التحركات البشرية، إن في شكل هروب أو في شكل ترحيل، كان يقدم عليها الاستعمار الإسباني في اتجاه قبائل غمارية استجابة لمصالحه الخاصة.

❖ استنتاجات عامة للباب الثاني:

- لقد كانت الحياة الاجتماعية في بلاد غمارية يطبعها الشكل التعاوني الذي فرضته المعطيات الطبيعية كقلة الأرض وأزمة المياه الناتجة عن الجفاف، فضلا عن السياسة الجبائية التي ساهمت في إفقار ساكنة المنطقة المدروسة، وبالتالي فإن خاصية تعاضد هذا المجتمع فرضتها عوامل متداخلة اقتصادية وطبيعية.

- إن هذا التعاضد كان لأسباب دينية وسياسية، فعندما كنا نتحدث عن المقاومة الشعبية ضد التدخل الإسباني، تطرقنا إلى ما قامت به نخبة من فقهاء المنطقة المدروسة من دور طلائعي، بخصوص تعبئة السكان للجهاد،

¹ - مجلة الوثائق الوطنية، العدد 5-6، مارس-يونيو 1990، ص ص. 26-27.

² - أحمد التوفيق، مرجع سابق، ص ص. 118-119.

³ - عبد الله المرابط الترغي، من أعلام شمال المغرب، الجزء الأول، منشورات المجلس العلمي المحلي لعمالة طنجة أصيلة، 2014، ص. 123.

مستعملة في ذلك مختلف الوسائل المعنوية والمادية، مما كان له كبير الأثر على تضامن الأسر، وذلك لوحدة الهدف المذكور.

- تميز هذا المجتمع بسمات التفاوت بين مختلف فئاته الاجتماعية، مما يدفعنا إلى نعته بمجتمع تعارض. إن الاختلاف في البنية السكانية سيظهر أيضا حتى في الممارسات الاقتصادية والسياسة الجبائية التي كان معنيا منها العديد من فئات هذا المجتمع، مما أفرز لنا مجتمع تعارض.

- الاستناد إلى العرف باعتباره مصدرا ووسيلة من الوسائل، يتم الرجوع إليها في المنطقة لمعالجة المشاكل الاجتماعية المطروحة، وقد رأينا كيف أصبح إعطاء نصف حصيلة الإنتاج للمرأة عرفا في المنطقة المدروسة، مما يؤكد المساهمة القانونية العرفية التي قدمها رجال العلماء والفقهاء والقضاة، بهدف الحفاظ على كيان هذا المجتمع وتطبيع علاقاته الاقتصادية والدينية والسياسية.

- دور النوازل والفتاوى في السهر على معالجة الإشكالات الطارئة على المجتمع الغماري حتى في غياب السلطة المركزية أو الحكام الرسميين، مما يجعلنا نؤكد على أنها كانت مصدرا أساسيا من مصادر الحكم في بلاد غمارة خلال الفترة المدروسة.

- بالنظر إلى صعوبة تلك الطبيعة الجبلية، وما كانت تتعرض له المنطقة المدروسة من كوارث طبيعية كالجفاف، الذي كان يؤدي إلى هلاك العديد من السكان وإفقارهم، وما كانت تساهم به سياسة السلطة المركزية لإفقار العامة، نتيجة تلك الضرائب المجحفة، فإن كل تلك المعطيات السلبية أسهمت في تدهور مستوى عيش الفئة المذكورة وجعلته ضعيفا، وسيزداد ضعفا خلال فترة الحماية الإسبانية.

- مساهمة التدخل الإسباني في تفكيك الروابط الاجتماعية للقبائل الغمارية بغية تشتيت لحمتهم وتعاونهم، ما جعل معظم الغماريين يعملون عند المستوطنين الأوربيين، والبعض الآخر فضل الهجرة. كما أن الإنسان في البادية الغمارية سيتأثر أكثر من غيره بالعنف الاستعماري، الذي سيعمل على انتزاع أملاكه بشتى الوسائل والطرق، القانونية أو الزجرية.

- اتسام المجتمع المغربي عامة والمجتمع الغماري بغلبة المكون القبلي، وتأثيره البالغ في الحياة الاقتصادية والسياسية، حيث شكلت القبيلة بمكوناتها المرجع والهوية والموجه في أسلوب الحياة عبر التاريخ المغربي.

- كان للعامل الاقتصادي والسلالي دوره في تحديد التركيبة الاجتماعية للمجتمع الغماري، التي تكونت من الأعيان والشرفاء والعلماء والعامة.

- لم يكن المجتمع القبلي في بلاد غمارة مقسما إلى طبقات اجتماعية متميزة لأن مستويات معيشة السكان كانت متماثلة ومتطابقة تماما، وكان الأفراد يمارسون أنشطة اقتصادية وزراعية أو رعوية، أو الاثنين معا، ليتمكنوا من العيش في مستوى الكفاف. فالنظام القبلي كان يسعى إلى إلغاء أسباب الطبقة، والقضاء على ظاهرة الاستغلال الطبقي والصراع الاجتماعي، وذلك من أجل نشر الحرية والعدالة الاجتماعية والديمقراطية في ربوع المجتمع القبلي.

الباب الثالث:

الحياة الاقتصادية في بلاد عمارة

توطئة:

ظل التاريخ الاقتصادي للمغرب المعاصر والراهن غير مفكر فيه بما يكفي من لدن المؤرخين المغاربة، في وقت جرى فيه التركيز بشكل كبير على التاريخ السياسي والعسكري، لدرجة أن تاريخ مغرب القرن العشرين جرى اختزاله، إما في تاريخ الحركة الوطنية المغربية وامتداداتها أو في تاريخ الأحزاب السياسية أو المقاومة المسلحة المرتبطة بالتصدي لزحف القوات الاستعمارية الساعية لاحتلال المغرب أو في الأحداث المرتبطة بتدبير الحكم في المغرب المستقل والصراع حوله. وهكذا تناسى معظم المؤرخين المغاربة الواقع الاقتصادي للبلاد إبان الفترة الاستعمارية وبعدها، مع أن الاقتصاد تحكم بشكل كبير فيما عرفته البلاد من أحداث وتحولات. وهكذا، ترك مجال تناول هذا الواقع لباحثين أجانب ولباحثين مغاربة من خارج حقل التاريخ، فكانت الحصيلة حرمان التاريخ الاقتصادي لمغرب القرن العشرين من المعالجة النظرية والتطبيقية، الكفيلة بتسليط الضوء على أماكن العتمة من تاريخنا المعاصر والراهن، وتفسير تطور البلاد، بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية والإسبانية.

غالبا ما يرتبط التاريخ الاقتصادي بالاجتماعي، ويكفي القيام بفهرسة لمواضيع البحوث التي أنجزت حول تاريخ المغرب المعاصر للوقوف على الإنتاجات الغزيرة التي اختارت الاشتغال على مواضيع ذات طابع سوسيواقتصادي، ورغم ذلك فإن مكانة التاريخ الاقتصادي الحقيقية ضمن هذه الأبحاث كانت تراوح مكانها، حيث يتم المرور بشكل عابر على المعطيات الاقتصادية والانصراف بشكل مسهب في تحليل أثرها وتداعياتها على المجتمع. لذلك، كان من الأفيد إنجاز أعمال تهتم بالتاريخ الاقتصادي، وتعنى بتشريح الواقع الاقتصادي، وتقديم معطيات يمكن استثمارها لتحليل تطور البلاد في مختلف الأصعدة.

وبناء عليه، خصصنا هذا الباب للتطرق إلى بعض الركائز الكبرى في الاقتصاد الغماري المغلق: الفلاحة والرعي ثم بعض الصناعات والتجارة... ومحاولة الإلمام بمؤهلات كل نشاط على حدة، مثل المناخ والتربة والماء بالنسبة للفلاحة، في أفق التعرف على إمكانيات الإنتاج الفلاحي وتنوعه. كما خصصنا هذا الباب لاستعراض أثر السياسة المالية والضريبية على الاقتصاد الغماري، فضلا عن التغيرات الكبرى التي أحدثتها الاستعمار الإسباني في الاقتصاد الغماري.

الفصل الأول: الاقتصاد الغماري ومميزاته

شكل النظام الاقتصادي جزءاً من النسق الاجتماعي، فالمجتمع منذ القدم كان يعيش الظواهر الاقتصادية، من خلال ذلك التداخل بين الإطار الجغرافي والنشاط البشري، فالإنسان مضطر بالطبع إلى توفير معاشه، والمعاش يعني ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله¹.

إن المعاش في نظر ابن خلدون إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة، ويرتكز هذا التصنيف على مقياس الصفة الطبيعية أو اللاتبيعية، كل وجه على حدة، فالتجارة والصناعة والفلاحة كلها وجوه طبيعية (بمعنى طرق) للمعاش، فمنها ماهي نظرية ومتقدمة على بعضها، لا تحتاج إلى "نظم ولا علم" كالفلاحة، ومنها ماهي متأخرة عنها (جاءت متأخرة)، وهي مركبة وعلمية، تصرف فيها الأفكار والأنظار كالصنائع التي ظهرت في فترة لاحقة من التطور الإنساني. أما الإمارة، والتي تعني كسب المغرم والجبابة السلطانية والخدمة أو العمل المأجور، فليست بمذهب طبيعي للمعاش، لأنها تعتمد على وجود السلطة والجاه².

إن الإحاطة بأهم مظاهر الحياة الاقتصادية، تعترضها صعوبات، تفرض ضرورة الاعتماد على ما ورد في النوازل وسجلات الحوالات الحسبية والأرشيف الإسباني، بالإضافة إلى كتب الرحالة وغيرها، فهذه المعلومات المتفرقة، وإن كانت تفتقر إلى الدقة، خصوصاً خلال النصف الثاني من القرن 19م، إلا أنها تبقى وسيلتنا الوحيدة لرسم صورة للوضع الاقتصادي بقبيلة غمارة، كما أننا سنستعين بالدراسات الحالية التي توضح لنا تجليات التطور أو عدمه. فالجانب الاقتصادي هو الآخر له آلياته ودينامياته، التي تجعل منه جزءاً لا يتجزأ من الحياة العامة، يتفاعل مع عناصرها، يؤثر ويتأثر، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار المؤثرات الطارئة، سواء كانت طبيعية أم بشرية أم تاريخية الخ.

ونحصر العناصر التي سنطلق منها لدراسة الوضع بمنطقتنا، فيما يلي:

علاقات الإنتاج: أي القوة المنتجة للمجتمع وعلاقات الناس الإنتاجية. وبما أن الإنتاج هو علاقة الناس بالطبيعة، فهو من هذا المنطلق يصبح وفي كل الظروف إنتاجاً اجتماعياً، ويتألف الإنتاج الاجتماعي من جانبين أساسيين: الأول إنتاج وسائل الإنتاج، والثاني إنتاج حاجات الناس الاستهلاكية³. فهذه العلاقات تنشأ بين الناس في عملية إنتاج وتبادل وتوزيع واستهلاك الخيرات المادية، وتركز في علاقات الإنتاج على نقاط هامة وهي:

¹ - ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص. 303.

² - محمد المرغدي وسهل المعطي، مقدمات علم الاقتصاد، الكتاب الأول، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 1992، ص. 86.

³ - طلال البابا، قضايا التخلف والتنمية في العالم الثالث، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1981، ص. 13.

العلاقات الإنتاجية: وهي علاقات امتلاك وسائل الإنتاج ومنتجات العمل، يعني ملكية هذه الوسائل وملكية منتجات العمل، ويتم الامتلاك بواسطة عملية الإنتاج والتبادل والتوزيع والاستهلاك، أما أشكال هذا الامتلاك فهي مميزة في مختلف درجات تطور المجتمع¹.

- القوى المنتجة: من خلال العلاقة الموجودة بين الإنسان والطبيعة يحصل التفاعل المتبادل للقوة العاملة مع وسائل الإنتاج.

- نمط الإنتاج: هو وحدة القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج التي تربطها علاقة داخلية عميقة وجدلية، وتجسد القوى المنتجة محتوى نمط الإنتاج، أما علاقات الإنتاج فتجسد شكله الاجتماعي، ولا يعقل أن يحدث تطور القوى المنتجة خارج الشكل الاجتماعي أي خارج علاقات الإنتاج².

- وسائل الإنتاج: وهي كل الوسائل والمواد المستعملة في عملية الإنتاج، وفي هذا المجال سنحاول التركيز على الأرض كشكل من أشكال وسائل الإنتاج المهمة خلال هذه الفترة، وإبراز دور رأس المال في الحياة الاقتصادية، على أن تطور وسائل الإنتاج رهين بتطور المجتمع ونمو خبرته ومعارفه.

تلك هي العناصر والخطوط العريضة التي ستيسر لنا دراسة الواقع الاقتصادي بالمنطقة موضوع الدراسة. ومعلوم أنه لا يمكن لأي دراسة تتعرض للجانب الاقتصادي، أن تتغاضى عن المعطيات الطبيعية، لأنها عنصر أساسي فاعل في البناء الاقتصادي.

إن الطبيعة المورفولوجية والجيولوجية لمنطقتنا، لعبت دورا أساسيا في تحديد النسق الاقتصادي لها، إضافة إلى التغيرات المناخية التي شهدتها خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، فهذه الظروف حتمت على ساكنتها التكيف مع بيئتها.

اعتبرت البادية منذ القدم هي "كل شيء" وفي كل أنحاء مملكة فاس³. وبناء عليه كان التجمع السكاني في بلاد غمارة خلال الفترة المدروسة، يختلف باختلاف ما توفره لهم البادية باعتبارها مكانا للاستقرار، من إمكانيات، فالمحافظة على الأرض الفلاحية شيء مهم بالنسبة للقبائل، والجبل كمرعى وكحصن، مهم أيضا بالنسبة لها، فإذا كان للجبل دور اقتصادي في الحفاظ على التكافؤ بين النشاط الفلاحي والنشاط الرعوي، فله

¹ - المرجع نفسه، ص. 15.

² - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

³ - محمد مزين، فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549-1637)، الجزء الثاني سلسلة رسائل وأطروحات رقم 12، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986، ص. 382.

أيضا دور سياسي جعل منه حصنا يحول دون المجابهة التي تحدث بين القبائل والمخزن¹، وكذا التهديدات الإسبانية.

فالتحركات الأفقية والعمودية لسكان غمارة يصعب ضبطها، حيث إنها كانت اضطرارية وأحيانا اختيارية، فإذا كانت قبائل بني منصور وبني خالد وبني سلمان تنزل في فصل الشتاء إلى بعض الأودية من أجل المراعي، فبعضها يتحرك للحماد وبعضها للصيد والتجارة²، وبعضها للمساهمة في الحركات السلطانية (حركة السلطان المولى الحسن الأول نحو الشمال)، والبعض الآخر ينضم إلى الحركات المقاومة المسلحة (حصار دار بن قريش سنة 1913م ومقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1921م).

لقد فرضت الظروف الطبيعية والسياسية والتاريخية، وكذا الموقع الاستراتيجي لمنطقتنا، خلق نمط اقتصادي وجودي، بمعنى أن المجتمع الغماري كان يبحث عما يؤمن له البقاء والاستمرار، ولم يكن يأخذ بعين الاعتبار ميكانيزمات الاقتصاد وآلياته، وحتى بعد دخول الاستعمار، لم يحاول أن يؤسس لاقتصاد متين؛ بل وظف خيرات المنطقة لخدمة مصالحه الخاصة. ولا شك أن الظرفية السياسية الحرجة التي كان يعيشها المغرب خلال الفترة المدروسة، كانت لها انعكاسات سلبية وأخرى إيجابية، ساهمت في تطور طبيعة استغلال الأراضي وطرق الإنتاج وأنواعه، وتنظيم المزارع بالبوادي.

المبحث الأول: طبيعة الملكية الزراعية

تمتاز أراضي قبائل غمارة بطابعها الجبلي الوعر، باستثناء بعض التلال بشمال قبيلة متيوة وبأعالي جبل بني رزين والأودية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، حيث إن أغلب الأراضي عبارة عن منحدرات، تتعرض تربتها للانجراف بشكل كبير جراء الأمطار³، لكن بالرغم من الظروف الطبيعية القاسية، فإن ساكنة المنطقة ارتبطت بالأرض منذ قرون، وسعت لاستغلال الأراضي بأبسط المعدات الفلاحية التقليدية، كالمحراث الخشبي والفؤوس الموروثة عن الأجداد، لضمان عيشهم⁴. ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الأراضي بهذه القبائل: الأراضي السقوية بالساحل وعلى ضفاف الأنهار كوادي أمثار وتاغسة وتريغة حيث كانت الأراضي الخصبة⁵، والجهة وسيدي فتوح وتاكموت التي تشكل مساحات مهمة من الأراضي الخصبة⁶، والأراضي البورية وتشمل الجزء

¹ - رحمة بوقرية، "العرف والعلماء والسلطة في القرن التاسع عشر قراءة في بعض نصوص النوازل"، المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، العدد 7، السنة 1984، ص. 159.

² - أوجست موليبيراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 252.

³ - بوشتي الفلاح، "مادة الجبهة"، معلمة المغرب، م س، ج 9، ص. 2920.

⁴ - أوجست موليبيراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 245.

⁵ - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière, et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir a L'étude de Nord Ouest Africaine...* op.cit,p.321.

⁶ - Ricardo Donoso-Cortés, *Estudio Geografico Politico-Militar Sobre las Zonas Espanolas...*, op.cit, p. 119.

الأكبر من هذه الأراضي، ثم الأراضي الغابوية التي تستغل في الرعي والصيد¹، والتي غالبا ما تشترك فيها جميع ساكنة القرية.

ويبدو أن الأراضي الزراعية كانت مجزأة إلى ملكيات صغيرة، يحصل عليها الفلاح باقتلاع الغابة وإصلاح الأرض²، أو عن طريق الإرث، أو بالشراء، كما تبين لنا مجموعة من الوثائق، من بينها عقد شراء مؤرخ بيوم 16 ذي القعدة 1265 هـ، جاء فيه: "الحمد لله اشترى الشاب المكرم عبد السلام بن محمد (كذا) البحريني الحاجي³ في صفقة واحدة وعقد واحد من البائع له المكرم محمد بن علي الزرهوني (السطي) المستوطن الآن بقبيلة بني جرير جميع ما يذكر فيه ويفسر إن شاء الله، من كل ما تملكه بالشراء الصحيح ... أول ذلك قطعة من الأرض البيضاء والشعرا الكائنة بين المحجتين⁴ بالموضع بني بحرايث، يحدها من القبلة شرقا ... ملك أحلال ومن الشرق كذلك مع شركائه أولاد الغلايش ومن الغرب الطريق الممور عليها لضريح الولي الصالح سيدي بحرايثي⁵، ومن الجرف ملك أورياغل⁶ ... وقطعتين من الأرض البيضاء أيضا بالموقع عنده أسفله يحدها ملك أحلال من الجوانب الأربعة، وقطعة أخرى بأسفل الطريق بالموضع المسمى عندهم أسول يحدها قبلة شرقها كذا ملك أورياغل ... ومن الغرب والجنوب كذلك ومن الشرق أمنصور⁷، والربع في الفدان⁸ الكائن بأسول أيضا وفي القديم للمعلم قاسم أرواح، وقطعة أخرى بازار الخروب يحدها قبلة شرقها الجرف وملك أحلال ..."⁹.

وهكذا يبدو أن الأراضي الزراعية كانت مجزأة إلى ملكيات صغيرة بين الأسر، تحد بعضها بعضا، أو تحدها الأودية الصغيرة أو الطرق، مما يفسر ضعف ومحدودية المردود الفلاحي وقلة الإنتاج، بسبب ضيق المساحات المخصصة للزراعة، كما أن هذه الملكيات، بعد وفاة المالك تقسم على الورثة طبقا لنظم الشرع الإسلامي مما يزيد من تقليصها، كما يتبين من هذه الوثيقة أن الملكية الجماعية كانت سائدة: شرقها ... ملك

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص 219.

² - Rodriguez Comez, Maria Dolores, *La Influencia de Leon el Africano...*, op.cit, p. 363.

³ - نسبة إلى فرقة بني الحاج بقبيلة بني جرير.

⁴ - المحاج أو "لحاج" أي الطريق الرئيسية داخل القرية، وغالبا ما يكون استعمالها والانتفاع بها مشترك بين أهل القرية، فهي تؤدي إلى السوق أو مسجد أو زاوية مشهورة، أو لتسريح الماشية.

⁵ - سيدي البحريني لا نعلم شيئا عن تفاصيل حياته، وضريحه بنفس القرية، لكنه خراب اليوم.

⁶ - أورياغل أسرة أمازيغية من الريف، لا نعلم شيئا عن استقرارها بهذه القبيلة، كما نعلم وجودها بكثرة في قرية بوحنين بقبيلة متبوة، ربما قد تكون هاجرت من الريف إلى المنطقة المدروسة خلال حقبة معينة، أو أنها من السكان الأصليين، وعلى كل حال فإنها انسجمت تماما مع المجتمع الغماري، ولها أملاكها الخاصة كما هو مبين في الوثيقة.

⁷ - لم تتوفر على معلومات حول أسرة أمنصور، ونعلم أنها أيضا مستقرة بقبيلة متبوة، وكان منهم الشيخ امنصور خلال عهد الحماية.

⁸ - الفدان كلمة تطلق على قطعة أرضية صالحة للزراعة.

⁹ - وثيقة عائلية خاصة آمدنا بها السيد عبد الحميد الروخ الساكن بمدشر بني بوحريث من قبيلة بني كزير.

أحلال ومن الشرق كذلك مع شركائه أولاد الغلايش"¹ حيث كانت تقوم جماعة تنتمي إلى نفس الأسرة أو القرية باستغلال هذه الأرض جماعة.

يبدو مما سبق أن تكافؤ الفرص بين الأسر لم يكن موجوداً، إلا أنه بالرغم من تفاوت حجم الملكيات، فإنها لم تؤد إلى إفراز طبقة الملاك الكبار، وأدت إلى وجود فلاحين ميسورين بالمنطقة، وكانت تخضع هذه الملكيات الصغيرة للبيع أو التفويت، ومن الصعب تبين ثمن بيعها لأن طبيعة جل عقود البيع التي بين أيدينا لم تحدد مساحة الأرض، في حين تكفي بإبراز حدودها الأربعة وموقعها بالقرية ونوعها ومائها والأشجار الموجودة بها، فمثلاً ورد في أحد العقود: "... بجميع ما لذلك من المنافع والمرافق وكافة الحقوق الداخلة في ذلك والخارجة عنه، شراء صحيحاً جائزاً ناجزاً ثابتاً لا شرط فيه ولا خيار بثمن قدره أربعة ريال فضة وبسيطة سكة تاريخه قبضها البائع المذكور من يد المشتري..."². ومن جهة أخرى كانت هناك أراضي الملكية الجماعية التي كانت في حوزة قرية أو مدشر ما، تستغل بشكل جماعي، وهي مشابهة للأراضي الحبسية، وقد وردت إشارات متعددة بنوازل العلمي والهبطي عن هذا النوع من الأراضي التي كانت ساكنة المنطقة تستفتي فيها فقهاء حول إمكانية استغلالها من طرف مختلف فئاتها الاجتماعية، كما ساهمت عملية إحياء الأرض الموات، في تكوين هذا النوع من الملكيات، وقد شجعها الفقهاء والسلطة المركزية "فما عمر من الأرض وجلا عنها أهلها وبادوا وجهلوا وجهلت ورثتهم فلا يكون حر الموات"³. وفي اعتقادنا أن الأحكام الصادرة عن فقهاء المنطقة حول هذا النوع من القضايا التي طرحت عليهم، تؤكد الدور الفعال لهذه الفئة الاجتماعية في الحفاظ على الاستقرار والتعمير والتلاحم بين مختلف الفئات الاجتماعية وتكريس الارتباط الوثيق بين الساكنة والأرض داخل القبيلة الواحدة.

بالإضافة إلى الملكيات الخاصة والجماعية، هناك نوع آخر من الأراضي وهو أراضي الأحباس، يقدمها أرباب الأرض على شكل هبات للمساجد والأضرحة⁴، وتنتشر في جهات عديدة بالقبائل المدروسة، فمثلاً نجد ضريح سيدي السباعي بالجبهة له أرض حبوس يستغل جزء منها كمقبرة، والبعض الآخر كانت تستغله بعض الأسر بشكل جماعي⁵، وقد أشارت إلى ذلك أيضاً إحدى الوثائق التي حبست فيها امرأة أشجار الباكور والغدان على ليلة القدر بمسجد الواقع في مدشر تجيوط، وتم ذلك في رمضان عام 1272 هـ⁶، كما كانت بعض المساجد ببني سميح تتوفر على دواجن محبسة، وكذلك بالنسبة لزواية سيدي أحمد البوهالي البقالي كان لها

¹ - نفس الوثيقة.

² - وثيقة خاصة عبارة عن عقد شراء مؤرخ بيوم فاتح ذي الحجة الحرام عام 1317 هجرية.

³ - العلمي، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 183.

⁴ - سعيد بوركبة، "الوقف الإسلامي وأثره في الحياة الاجتماعية"، دعوة الحق، العدد 230، السنة 1983، ص. 115.

⁵ - رواية شفوية أفادنا بها بعض سكان بلدة الجبهة، ومنهم أحد مستغلي هذه الأرض، وينسب لأسرة أحناش الجبرية، لكن هذه الأرض وقعت بشأنها خصومات كثيرة، مما أدى إلى عدم استغلالها.

⁶ وثيقة خاصة عبارة عن تحبيس ملك مؤرخ في رمضان عام 1272 هجرية.

أملكها¹. وكان بعض فلاحي القرية يقومون باستغلالها مقابل نصف الغلة²، وكان القاضي هو المكلف بالنظر في أحباس المساجد، كما جاء في ظهير سلطاني لتعيين أحد أعيان قبيلة بني رزين قاضيا على قبائل غمارة: "... ولينظر في أحباس المساجد، ولايته ولاية تامة"³. وأيضا كانت أبراج المراسي الملفة بالعسة وحراسة الشاطئ، تتوفر على أحباس، كما جاء في العديد من الظواهر السلطانية، خصوصا في مرسى قاع اسرس، مرسى ترغة، مرسى تيجساس، مرسى تاركا، مرسى امثار مرسى تغسة، مرسى الجبهة والتي كان عندها الكثير من الأحباس⁴، لكن يبدو أن هذه الأحباس كانت أملاكاً مخزنية يقوم بعض السكان باستغلالها مقابل مقدار مالي، غير أنه مع دخول الاستعمار الإسباني سيتم الاستيلاء على هذه الأراضي في إطار الاستيطان الرسمي والخاص.

ويمكن الإشارة إلى أن هذه الأراضي الساحلية، التي كانت مصدر رزق للسكان، ظلت لفترات طويلة لا تستغل بشكل مستمر نظرا للخطر الإسباني الذي كان يهدد المنطقة، حيث كان السكان ينزحون إليها بشكل مؤقت، وكانت لهم بها عزائب⁵. وعموما يمكن توزيع النظام العقاري في منطقة غمارة على الشكل التالي:

الأنظمة العقارية بشفشاون وغمارة خلال فترة الحماية⁶

نوعية النظام	شفشاون	غمارة
الملك الخصوصي	86 %	43%
الدولة (مخزنية)	4 %	25%
الجماعية	5%	27%
الأحباس	5%	5%

نلاحظ أولوية الملك الخصوصي خلال النصف الأول من القرن 20م في كل من شفشاون وغمارة، مع تشابه نسبة الأحباس، فهذه البنية المعقدة تزداد تعقيدا مع مرور الزمن، مما لا يساعد على خلق دينامية اقتصادية محلية، كما أن طغيان الملكية الفردية يدل على أن الأرض أهم عامل إنتاجي في قبائل غمارة، مما يجعل ملكية الأرض معطى أساسيا في تصنيف الفلاحين⁷، وباعتبار تعقد النظام العقاري وقلة المعطيات جعل دراسته جد صعبة، وتتميز البنيات العقارية في بلاد غمارة بطغيان الملكيات الصغرى، فمعدل حجم الاستغلالية بغمارة تراجع

¹ - مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 235.

² - أمدنا بمذه المعلومة أحد الفلاحين من قرية لقوار بقبيلة متيوقة.

³ - ظهير السلطان المولى محمد بن عبد الله للعلامة محمد الطيب بن صالح، مؤرخ ب 11 صفر 1180 هجرية/1764م.

⁴ - سعيد أعراب، ظواهر سلطانية لحراسة الشواطئ المغربية...، مرجع سابق، ص 101-100.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - Figueras (G), *Économía Social de Marruecos*, T 3, C.S.I.C, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1955, p. 170.

⁷ - Pascon (P), ENNAJI (M), *les Paysans sans Terre au Maroc*, Éditions Dar Tobkal, Casablanca, 1986, p. 11.

من حوالي 2 هكتار للأسرة خلال النصف الأول من القرن 19م إلى حوالي 0,40 هكتار للأسرة خلال فترة الحماية الإسبانية، أما متوسط المساحة بالنسبة للأسرة فهو 1,50 هكتار¹. ومما يؤكد على صغر حجم الاستغلاليات في عمارة الجدول التالي:

طبيعة الملكية العقارية في عمارة سنة 1950²

المساحة	عدد المشاركات بعمارة	%
4-1 هكتار	19716	90,1
9-5 هكتار	1738	7,9
24-10 هكتار	396	1,8
أكثر من 25 هكتار	23	0,1
المجموع	21873	100

يتبين من خلال الجدول طغيان الملكيات الصغرى (أقل من 5 هكتار) والتي تهتم 90% من الاستغلاليات، و8% تتراوح ما بين 5 و10 هكتار، بينما أكثر من 10 هكتار لا تتجاوز 2%، فإذا كانت الملكية العقارية تتخذ قيمة المتغير الاستراتيجي³، فمن أهم المشاكل التي تعاني منها المنطقة تعقد النظام العقاري، حيث ساهم الاحتلال الإسباني في تعقد هذا النظام، بتسهيل عملية تملك الأراضي الجماعية⁴، إلا أن التحول من الملكية الجماعية إلى الملكية الخاصة ارتبط بالتحولات السوسيواقتصادية التي عرفها الريف في بداية القرن، من ضمنها الضغط السكاني والهجرة ثم بيع حق استغلال المناجم للأوروبيين⁵، غير أن سيادة الملكيات المجهرية وتجزئة الأرض يرتبط بعوامل سوسيو تاريخية أكثر من العوامل الاقتصادية خاصة عامل الإرث، وكمحاوله لتحسين الوضع العقاري والمادي كانت الساكنة الغمارية تقوم بتوسيع استغلالياتها على حساب المجال الغابوي، فضيق المجال الزراعي وأزمة الأرض هي التي تفسر الأخذ بالثأر لدى قبائل عمارة⁶، وعلى الرغم من وجود عوامل تسهل تجميع الثروات وتركز العقار بفعل الزواج والبيع والشراء، خاصة أثناء دورات الجفاف والمجاعات، فإن الفلاحين الميسورين سرعان ما تدور عليهم الدائرة ومن هنا نفهم غياب أرضية اقتصادية صلبة لدى الأعيان⁷.

¹ - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة عمارة الغربية...، مرجع سابق، ص. 190.

² - Figueras (G), *Économia Social de Marruecos ...* op.cit,p. 171

³ - Pascon (P), *Etudes Rurales, Idées et Enquêtes sur la Campagne Marocaine*, SMER, Rabat, 1980, p. 118.

⁴ - CHaara (A), *L'Agriculture et la Pêche dans le Littorral du Rif*, Editeur, Association Tetouan Asmir, Tetouan, 1996, p. 30.

⁵ - Mimoun (A), *Le Rif 1912-1956, Marginalisation et Changements Sociaux sous le Protectorat Espagnol*, Thèse Doct, Paris 8, 1994, p. 96.

⁶ - Hart (D), "Notes on the Rifian Community of Tanger", *Middle East Journal*, Vol 11, Spring 1957, p. 25.

⁷ - محمد أونبا، "مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لريف ما قبل الاستقلال"، جريدة أنوال، عدد 1709 بتاريخ 1995/05/18.

نستنتج مما سبق أن البنية العقارية بالمنطقة المدروسة تتميز بالتعقيد، وازدادت تعقيدا مع دخول الاستعمار الإسباني، مما عرقل عملية إعداد موارد المنطقة وخلق دينامية اقتصادية محلية، بالإضافة إلى أن الملك الخصوصي يتميز بشدة التجزئة وطغيان الملكيات المجهرية وتشتتها وتباعدها، وكان للطرفية السياسية الحرجة التي كان يعيشها المغرب خلال الفترة المدروسة، انعكاسات سلبية وأخرى إيجابية ساهمت في تعقد أو تشتت الملكية العقارية في منطقة غمارة. فكيف كانت الساكنة الغمارية تستغل الأراضي الفلاحية؟

1- طبيعة استغلال الأراضي بالمنطقة

إن الخاصية التي اتسمت بها تضاريس المنطقة، هي التي وضعت تصميميا لاستغلال الأراضي، فقلة السهول وندرتها، حتمت على ساكنتها البحث عن السبل الكفيلة لاستغلال مجالها. فغالبا ما كان النشاط الزراعي متمركزا في سفوح الجبال وقريبا من الأودية.

وتجدر الإشارة إلى أن الظروف المناخية المتقلبة، كانت لها تأثيرات سلبية على النشاط الزراعي، سواء خلال الفترات الجافة أو المطيرة، لذلك عرفت المنطقة بآراض سقوية وأخرى بورية، حتى قبل دخول المستعمر الإسباني، وقد أمدتنا نوازل صاحب فتاوى تتحدى الإهمال، إضافة إلى صاحب الجواهر المختارة، بنماذج من تلك النزاعات التي تحدث بين القبائل؛ بل ودخل القبيلة الواحدة حول استغلال المياه، خصوصا وأن أساليب الري كانت تقليدية. فإذا كانت درجة استخدام اليد العاملة، يعتبر مؤشرا أساسيا لإبراز نوعية الاستغلال السائد والكشف عن مدى تطور القطاع الفلاحي¹، ومع ذلك كان الاستغلال مكثفا، كما توضحه لنا بعض كتب النوازل وسجلات الحوالات الحبسية، ورسوم الملكية فيما يتعلق بالبيع أو الشراء. وما يؤكد ذلك وثيقة تعود إلى سنة 1323 هـ/1905م توثق استغلال الأرض في بلاد غمارة لمدة تفوق 8 أعوام (انظر الوثيقة رقم 27 من الملحق)

وعموما، ينهج الفلاحون في ممارسة نشاطهم الفلاحي نهجا تقليديا صرفا، فجميع المراحل والعمليات الفلاحية تتم بواسطة أدوات بدائية عتيقة كالمحراث الخشبي، الذي يصنع عادة من الخشب وغالبا ما يكون ثقيلًا، فإذا أضيف وزنه و ثقله إلى الأدوات الأخرى كالحبائل والسكة والبردي وخشبة القفا، ازداد حجمه و ثقله، وبالتالي أصبح ثلثا قوة "الزوجة" تصرف في تحمل عبئ هذه الوسائل بدل صرفها في تعمق السكة في الأرض واستخراج تربة جديدة، إضافة إلى استعمال الفأس والعتلة والشاقور والحديدة والمدراة والمنجل والسكة. وأما

1- Abdellatif Benchrifa, "Transfert Culturel Urbain, Comportement Individuel des Agriculteurs et Problèmes de Développement Agricole: Éléments d'une Problématique": L'évolution des Rapports Villes-Campagnes au Maghreb, Publication de la Fac. des Lettres et Sciences Humaines, Rabat, Série: Colloques et Séminaires, n° 10,1988, p. 96.

الطاقة المسخرة فيها، فهي الطاقة البشرية والحيوانية التي يعتمدون عليها في حمل الحطب وجر المحراث ونقل الحبوب ودرسها وتسويقها، والوسائل كهذه لا تضمن تحسنا في الإنتاج¹.

أما بالنسبة للطاقة الحيوانية، فقد كانت "الزوجة" التي هي عبارة عن ثورين أو حمارين أو بغلين أو فرسين مقرونين، يذللان ويمرنان على الفلاحة والحمل والدراس (انظر الوثيقة رقم 28 من الملحق)، وقد اختلف أسلوب الحراثة بـ "الزوجة" حسب نوعية الأراضي المستغلة:

– الزوجة المقرونة من رأسها، وتسمى "الحراثة بالرواسي" تباشر في الأراضي المنحدرة أو المحجرة، وهي تساعد "الزوجة" على تخطي الحجارة والخنادق وجر المحراث في الأماكن المعلقة.

– الزوجة المقرونة من كتفها وتسمى "الحراثة بالبطني" تباشر في الأراضي المنبسطة.

– الزوجة المقرونة من عنقها وتسمى "الحراثة بالركابي" فتزاول في بعض الجهات الوعرة².

كما أنه لم تكن هناك تقنيات لانتقاء البذور والأسمدة، بل يعتمدون فقط على السماد الطبيعي المكون من روث الدواب وفضلات الماعز والغنم، شمل نطاقا ضيقا عرف باسم الدمانى وأحواز الدار، لأن ذلك يسهل عملية الاستغلال بشكل متوال، إذ كانت العمليات الفلاحية في غمارة تتوزع تبعا لبرنامج فلاحية، حيث ينطلق الموسم الفلاحي في أكتوبر وينتهي عند حلول فصل الصيف، ونستطيع أن نحدد أهم الأعمال الفلاحية في المنطقة انطلاقا من صاحب المغرب المجهول والأرشييف الإسباني، حيث اتخذ الشكل التالي:

الأعمال الفلاحية في غمارة حسب الفصول³

الأعمال الفلاحية	الفصول
حرث البكري (شعير-قمح-عدس-فول-كرسنة)	الخريف
ربط الماشية-الرعي-الحطب-قطف الزيتون	الشتاء
تكسير الأرض-حرث المازوزي (ذرة-لوبية-كيف)	الربيع
الحصاد-السقي-قطف التين والبرقوق-جمع الحطب	الصيف

إن النزول إلى الحرث يتم في كل قرية غمارة بشكل جماعي وفق العرف، وذلك لتجنب مرور الدواب وسط مشارب الغير، كما يفتح العملية أكبر وأقدم فلاح في كل قرية غمارية، ثم تأتي عملية البذر وهي عملية

¹ - العياشي المريني، النضال الجبلي، الأنظمة الاجتماعية، النظام الاقتصادي، ج 3، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة، 1988، ص. 37.

² - نفس المرجع، ص. 42.

³ - أهم مصادر هذا الجدول أوجست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، ص 203-250. بالإضافة إلى أرشييف كارلوس بيريدا، مصدر سابق، صندوق رقم 2-3.

تعتمد على حمل البذور في الكيس والقيام بإلقائها فوق الخطوط التي خلفها المحراث، ثم القيام بتغطيتها بالتربة حتى لا تتعرض للضياع والتلف كالجراد والطيور والأرانب¹، وتختلف كمية البذور حسب نوعية المزروع، بينما ينطلق موسم الحصاد في بداية فصل الصيف، إلا أن العملية تختلف حسب موضع القرى، فالتى تقع في السافلة تكون تربتها دافئة (أرض سخونة) حيث الحصاد يتم مبكرا، على العكس من القرى في العالية (أرض باردة) حيث الحصاد يكون متأخرا.

أما "الدراس" فيعتبر من أصعب العمليات الفلاحية، لأنه يتم في فصل الصيف، إذ تنطلق بوضع "التمليسة" أو "البياطة" أو "الحريرة"، أي وضع روث الأبقار على سطح "الناذر" لتسهيل عملية "الدراس" وترطيب الأرض، وتختلف مدة العملية حسب الطقس (الرطوبة . الجفاف) ونوعية الرياح، كما يعتبر "الدراس" أصعب عملية بالنسبة للدواب، تبعا للمثل الغماري المشهور "اعطيها لعدوك يحرت بها ولا تعطيها لحبيبك يدرس بها"²، وبما أن العملية تتطلب جهدا خاصا والسرعة في الإنجاز، فإن الفلاحين يلتجئون إلى عملية الربط (انظر الوثيقة رقم 29 من الملحق) حيث يصل عدد الدواب إلى ست، حسب حجم "الناذر"، إذ توضع البغال القوية عند الجوانب لتتحكم في دوران باقي الدواب.

أما المجال السقوي فيعتبر من المجالات الرئيسية في العملية الفلاحية بغمارة، حيث تتم خلالها عملية التواصل الاجتماعي بين الأفراد والمجال المائي، فضاء يتردد عليه الجميع يوميا، فهو بهذا مجال اللقاء والحديث وتبادل الأخبار، كما يشكل مجالا خصبا للصراع والنزاعات، مما يجعل من الماء مؤسسة³، وما يؤكد ذلك بعض الوثائق التاريخية التي استطعنا الحصول على نسخة منها، وهي تعود إلى سنة 1331 هـ الموافق لسنة 1913م، إذ جاء فيها: "الحمد لله وقع السيد عبد السلام بن سي عبد الفاضل الخمسي الهليلي والكرم العياشي الشريف الريفى التندماني في جميع القسمة السقوية في وطاء تجساس⁴ في موضع يسمى الزيتون وشهرته كامية عن تحديده على أن يستعمل فيه الغبار من عنده والزريعة على السيد عبد السلام المذكور وما يلقي الله من غلال يكون بينهما أنصافا سويا لا فضل لأحد على الآخر..."⁵. نستنتج من هذه الوثيقة أن الموارد المائية في غمارة

¹ - أشار صاحب المغرب المجهول إلى دور كل من الخنازير والأرانب والحجول والجراد في إتلاف العديد من المحاصيل الغمارية، إذ نجد مثلا " وأحيانا ما كان الدرويش يسمع شكاوى النساء وهن يصرخن: يا إلهي من سيخلصنا من هذه الحجول والأرانب، فالיום وحده التهمت جزءا كبيرا من خضرواتنا" (أنظر مولييراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، ص 250).

² - لقد استقينا معظم العمليات الفلاحية من شيوخ المنطقة المدروسة بالاعتماد على الرواية الشفوية، حيث غطت كل من الجبهة وأمتار واسطحية وتارغة وقاع أسراس وباب برد وبني رزين، نذكر منهم: فريد بن صالح من قبيلة بني رزين مدشر عنقود وعبد الغفور النالي الساكن بمركز أحد بني رزين، بالإضافة إلى عبد الحميد الربوخ الساكن بمدشر بني بوحرث من قبيلة بني جرير والحاج أحمد بوتغراضا القاطن بمركز باب برد.

³ - ادمون عمران المليلح، "مفهوم الدولة في المغرب"، مجلة بيت الحكمة " ملف بول باسكون وعلم الاجتماع" العدد 3 السنة 1 أكتوبر 1986، ص. 116.

⁴ - وطاء تجساس نسبة إلى واد تجساس الذي ينبع من جبل الأشهب وجبل الأقرع ويصب في البحر الأبيض المتوسط، وعند وصوله إلى البحر يتشكل سهل خصب يقع ضمن سيادة قبيلة بني بوزرا الغمارية، ويسمى أيضا ب وطا تجساس.

⁵ - وثيقة خاصة مؤرخة ب ذي الحجة عام 1331 هجرية/1913م، أمدا بها الدكتور عبد الله المرابط الترغي قبل وفاته، وهو غماري الأصل.

كانت لها أنظمة سقوية متحكم فيها، انطلاقاً من إشراف أهل الحل والعقد على كيفية تسييرها، وما يؤكد ذلك لجوؤهم (دائماً انطلاقاً من الوثيقة) إلى توثيق عملية الاستغلال.

وفي وثيقة أخرى تعود إلى 27 جمادى الثاني 1331 هـ/1913م "الحمد لله وقع عبد الفضل بن أحمد بن علي وولده عبد القادر وأبناء أخيه السيد عبد الفضيل والحسن ومحمد والسيد أحمد بن السيد المذكور في القسمة السقوية بوطاء تجساس بحومة أوزار حدها الشريف ... وشرقاً السويقية وغرباً كذلك ... عن حدها المكرم العياشي بن محمد بن محمد الربيعي الساكن بمدشر تندمان وما أجل الله من غللها يرفعها للموقعين المذكورين توقيعا تاما ..."¹.

والملاحظ من هذه الوثائق والعديد من النوازل أن الساكنة الغمارية حافظت على الأساليب التقليدية لاستغلال المياه، إذ تقسم دورة الماء إلى وحدة أساسية تنعت بالنوبة، إضافة إلى وحدات ثانوية (النصف-الربع-الثلث) ويمتد السقي من الشروق إلى الغروب، وخصص الماء تقسم بالوقت وليس بالحجم، كما أن توزيع الماء يتم بشكل متباين، إذ يرتبط بحجم الأرض، فملكية الماء ملتصقة بالأرض، على العكس من الأطلس الصغير، حيث الملكية مفصولة عن الأرض.²

وعموماً يتم السقي من العالية إلى السافلة مع اعتماد تقنية توجيه المياه بواسطة خطوط تنعت بـ "الحمال أو احمالن" يتمثل دورها في نقل المياه إلى الأراضي الزراعية.³

إن وسائل الإنتاج والتقنيات تعتبر إحدى الوسائل الأساسية التي يتدخل الإنسان بواسطتها في إعداد المجال، وبها يكيف وسطه الإيكولوجي مع استغلاله للحصول على حاجياته، كما أنها تعكس المستوى الحضاري والاقتصادي للساكنة، كما تشكل رأسمالات تقنياً⁴، وإذا كانت المجتمعات التقليدية قد وصلت إلى خلق بعض التوازن بين السكان والموارد، فإن بنية هذا التوازن رهينة بالتقنيات المستعملة، باعتبار أن الحتمية ليست سوى مظهر وليس نتيجة للعناصر الطبيعية، بل هي حصيلة للفعل البشري.⁵

وإذا كانت درجة مكننة الفلاحة تعتبر مؤشراً للدلالة على خاصية العصرية والتحديث، فإن منطقتنا بقيت تقليدية تعاني من جمود التقنيات⁶، فوسائل الإنتاج بسيطة وقليلة الفعالية (انظر الوثيقة رقم 30)، ولا يسمح

¹ - وثيقة خاصة أمدنا بها الدكتور عبد الله المرابط الترغي قبل وفاته، وقد أفادنا كثيراً في هذا العمل رحمه الله.

² - Zaim (F), *Le Maroc et Son Domaine Méditerranéen...*, op.cit, p. 92.

³ - اعتمادنا في وصف الأنظمة السقوية في منطقة غمارة على الرواية الشفوية، خصوصاً في بني زجل وبني زيات وبني بوزرا، نذكر الشخصيات التالية: محمد أكديو، وعبد السلام البخاري، والفاضل أجعون.

⁴ - Gutelman (M), *Structures et Réformes Agraires: Instruments pour L'analyse*, Maspero, Paris, 1979, p. 18.

⁵ - Gharbaoui (A), *La terre et L'homme dans la Péninsule Tangitaine...* op. cit., p. 27.

⁶ - Fay (G), *Les Migrations Chance pour les Jbala*, in Jbala, Histoire et Société, Etudes sur le Maroc du Nord, CNRS, Paris, Casablanca-wallada, 1991, p. 232.

إنجاز الأعمال الفلاحية بسرعة، مما ينتج عنه خسائر هامة، كما ينهج الفلاحون في ممارستهم للنشاط الفلاحي نهجا تقليديا، فجميع المراحل والعمليات الفلاحية تتم بواسطة أدوات بدائية وعتيقة، مما يعرقل عملية التطور الاقتصادي¹.

نستنتج مما سبق أن ضعف وسائل الإنتاج وفقر التربة وتعرضها للتعرية وانعدام الوعي الاقتصادي جعل المردود هزيلا وضعيفا، وهذه الظروف مجتمعة فرضت على فلاح منطقتنا ضرورة اللجوء إلى نهج أسلوب يخفف عنه الأعباء الثقيلة وهو "نظام الشركة" على اختلاف أنواعه، حيث يتم عقد طريقة الاستغلال بالشركة بين مالك الأرض والفلاح المستخدم بطريقة شفوية كما هو حال "الخماس" إذ كانت مدة الاستغلال لا تتعدى سنة أو سنتين، وبمقتضى عقد مكتوب إذا كانت مدة الاستغلال تتجاوز عشر سنوات أو أكثر².

يمكن وضع تصنيف لنظام "الشركة" خلال هذه الفترة بالاعتماد على عدد من النوازل والأرشيف الإسباني المتعلقة خاصة بالشركة في المجال الفلاحي.

الشركة بالخمس: تعتبر الشركة بالخمس من القضايا التي جرى العمل بها مع مخالفتها للأصول³، إذ تساهل الفقهاء للضرورة الداعية إلى ارتكابها، مع أنها مشكلة لم يتضح وجه الجواز فيها⁴، وصورتها أن يخرج أحد المتشاركين في الحرث جميع ما يحتاج إليه من أرض وبذر وآلة والآخر عمل يده فقط، على أن يكون للعامل جزء من المنتوج، تحدد في الخمس، وللآخر الذي يمتلك البذر والأرض والآلة ما تبقى من محصول ما تجمع من الغلة، وتفيدنا كتب النوازل الفقهية أن طريقة استغلال الأرض بواسطة الخماس كانت مثار نقاش بين الفقهاء، وطرحت حولها جملة من الأسئلة: فهل تدرج ضمن العمل بالإجارة؟ أم يمكن إدراجها في إطار العمل بالشركة؟ وقد تصدى للإجابة على مثل هذه الأسئلة وغيرها الفقيه أبو علي الحسن بن رحال المعداني⁵، وذلك في كتيبه الموسوم بـ "رفع الالتباس عن شركة الخماس"⁶ ويستفاد من النصوص والآراء التي ساقها المعداني، أن الفقهاء لم ينتهوا إلى رأي قاطع في الموضوع، فهناك من يرى بأن الخماس إجارة فاسدة وليست شركة، وهناك من يرى

¹ - Fay (G), op. cit., p. 233.

² - أكدت لنا العديد من الروايات الشفوية في قبائل غمارة على توثيق العقود التي تتجاوز السنتين، بينما التي لا تتجاوزها تبقى شفوية، وهو ما يؤكد على تشابه نظام الشركة في غمارة مع باقي جهات المغرب. أنظر أحمد البوزيدي، "البنيات العقارية وتأثيرها السلبي على النشاط الزراعي بدرعه"، مجلة أمل، العدد 9، السنة 3، الدار البيضاء، 1997، ص. 37.

³ - عبد اللطيف حباشي، "حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية، أدب النوازل نموذجاً"، مجلة أمل، العدد التاسع، السنة الثالثة، الدار البيضاء، 1997، ص. 72.

⁴ - عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، الرباط، 1993م، ص. 208.

⁵ - أنظر ترجمة الفقيه أبو علي المعداني عند محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، دار الرشد الحديثة، البيضاء، 1977، ص. 205.

⁶ - أحمد البوزيدي، البنيات العقارية...، م. س، ص. 44.

أن المسألة في منطوقها ومضمونها تخضع لما تم عليه الاتفاق بين المتعاقدين، إذ يقول المهدي الوزاني في هذا الصدد:

وأجرة الخماس أمر مشكل**** وللضرورة بها تساهل¹

أما فيما يخص تربية الماشية نجد الشركة بالخمسة حاضرة أيضا، فمثلا إذا بيعت البقرة بأقل من سعرها، فالخماس يدفع الباقي أما إذا بيعت بالزيادة فتقسم مناصفة، أما الحليب فمن نصيب الخماس مقابل توفير العلف². وتجدر الإشارة إلى أن الخماس يخدم الماشية التي تكون في عهدة المالك وفي بيته.

فالخماسة شكلت دوما قضية عويصة بالنسبة للفقهاء، مما جعل "بيرك" يذهب إلى أن الخماسة لم تتغير منذ قرنين بالمغرب³، غير أن جل علماء غمارة أجازوا هذا النوع من التعاقد انطلاقا من القاعدة المالكية التي تعتبر أعراف المناطق المختلفة مقبولة، ما لم تخالف ما هو معروف شرعا.

– الشركة بالربع أو الثلث: هي الأخرى كانت من القضايا التي طرحت باعتبار أن مؤاجرة الخماس تقوم على أساس حرث الأرض وسقيها وعلاجها وحفظها إلى أن يكمل الزرع بجزء منه من خمس وهو الغالب، أو سدس أو ربع أو ثلث مثلا هي أمر مشكل أي مخالف لقواعد الشريعة، للجهل بقدر الأجر إن تم الزرع، لكن أجيبت ورخص فيها للضرورة أي احتياج الناس غلى من يعاونهم على معاشهم⁴.

يتضح أن هذا النوع من الشركة ناتج عن افتقار صاحب الأرض إلى وسائل الإنتاج (اليد العاملة وأدوات الإنتاج) وتسلب بعض المضاربين على الملاك الصغار الذين لا يملكون الزرع اللازم لأرضهم، فيعطون لذلك حقهم في الأرض مقابل أخذهم في نهاية المطاف نصيبا قليلا من إنتاج أرضهم⁵. أما الرباع فيعمل عادة كأجير مقابل ربع الغلة في الأشجار المثمرة مقابل العناية بها وسقيها وجني المحصول، وعادة ما كان يشغل معه زوجته وأبناءه وبعض أقربائه، أو يستعين بغيرهم إذا كانت الغلة وفيرة، مقابل أجرة عينية من نصيبهم في المحصول.

كما نستفيد من الرواية الشفوية ومن الواقع المعاش بقبائل غمارة، أن الاتفاق على الربع أو الثلث يتم بطريقة شفوية بين مالك الأرض والفلاح، ومن الشروط الملزمة لمالك الأرض أنه يقدم البذور والأسمدة وكل الأدوات الضرورية لإنجاز العمل، وليس على المستخدم إلا زرع الأرض والعناية بالمنتوج إلى أوان نضجه مقابل جزء من الإنتاج يحدد عمليا في الربع أو الثلث، ويتم التعاقد عادة في شهر أكتوبر الفلاحي من كل سنة، أي مع

¹ – المهدي الوزاني العمراني، تحفة أكياس الناس بشرح عمليات فاس، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط، رقم 2476 د، ص. 141.

² – عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة...، مرجع سابق، ص. 137.

³ – عبد اللطيف حباشي، "حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية أدب النوازل نموذجاً"، مرجع سابق، ص. 77.

⁴ – المهدي الوزاني، تحفة أكياس الناس...، م. س، ص. 141.

⁵ – محمد مزين، فاس وباديتها...، مرجع سابق، ص. 389.

بداية الموسم الفلاحي، ويتعاطى لهذه الحرفة الفلاحون المستقرون الذين لا يملكون أراضي زراعية بالمرّة أو يملكون أراضي لا يفي مردودها بحاجاتهم الغذائية.

- الشركة بالنصف: جرت العادة أن صاحب الأرض يعفى من العديد من مصاريف الزراعة، فهو يكفي بتسليم الأرض ونصف الزريعة، بينما يجب على الشريك أن يدفع النصف الآخر من البذور ويقوم بتغطية كل الأعمال الزراعية من الحرث والزرع حتى جني المحصول¹. فالشريك إذن، يدفع نصف البذور وتبقى الأرض في مقابل كل العمل الزراعي². ويختلف نظام التعاقد هذا باختلاف حاجة أصحاب الأراضي إلى اليد العاملة أو المواد الأولية، وقد تحكمت في هذه الصيغ الاستغلالية قيمة الأرض من جهة، وقيمة العمل وامتلاك وسائل الإنتاج من جهة أخرى، هي التي أفرزت هذا النوع من التعاقد، فالفلاح الذي يتوفر على أراضٍ صالحة للغرس ولا يتوفر على يد عاملة أو قدرة اقتصادية تمكنه من تعميم أرضه واستصلاحها³، يبحث عن شريك يتوفر على كل المؤهلات ليقوم بغرسها وتشجيرها، وفعلاً يحصل الاتفاق بين الجانيين وتغرس الأرض وتستصلح، وعندما تكتمل الأشجار نموها تقسم مناصفة بينهما، نفس الشيء نجده في مجال الرعي، حيث يتقدم رب القطيع بقطيعه ويتفق مع الكساب على تحديد الثمن الإجمالي للقطيع، وبعد مرور سنة أو سنتين يباع جزء من القطيع ويؤخذ رأس المال؛ ثم يقسم الباقي مناصفة⁴، كما شمل هذا النوع من المعاملة ما سمي بـ "المغارسة"، حيث نجد في النازلة التالية: "ومن القلعة الزجلية رجل أعطى آخر قطعة أرضية ليغرس بها أشجار العنب والتين على أن يكون لكل منهما نصف الغرس بعد إطعامه، مع شرط أن يستمر العامل في خدمة جميع الغرس إلى أن يريد رب الأرض أخذ نصفه..."⁵

يتضح عموماً أن عقد الشركة بمختلف أنواعها، يعتبر ضرورياً لجزء كبير من الفلاحين بمنطقة غمارة، خاصة الذين لا يملكون أرضاً أو ماشية أو أشجاراً مثمرة، كما تجاوز عقد الشركة في قبائل غمارة العلاقة بين الأفراد، ليؤكد وجوب شركة زوجين في ربح ناتج عن مال بينهما، وهو ما جاءت به النازلة التالية: "ومن القلعة الزجلية أن رجلاً كان يستغل متاعه ومتاع زوجته، وأراد أن يستبد بالربح ويمنع زوجته منه، ولكن الإفتاء جاء ليبين له أن ذلك ليس من حقه"⁶.

فكيف كانت وضعية إجارة الأرض في منطقتنا؟

¹ - المريني العياشي، النضال الجبلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية...، م. س، ص. 52-55

² - نفس المرجع، ص. 52.

³ - Ahmadan (A), *L'évolution Récente d'un Espace Rural Périphérique, Le Pays Rhomara...*, op. cit., p. 330.

⁴ - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة...، مرجع سابق، ص. 133.

⁵ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال...، مرجع سابق، ص. 145.

⁶ - الهبطي المواهي، مرجع سابق، ص. 163.

- إجارة الأرض في بلاد غمارة: هذا النوع من الاستغلال أو الاستثمار غير المباشر ظهر خاصة لحاجة أصحاب الأراضي إلى اليد العاملة، تأخذ أجرها من المدخول، وبذلك يتمكن أصحاب هذه الأراضي من ادخار راس مال معين واستغلاله لشراء أرض أو كرائها، أو تنظيم شركة في أرض أخرى. ونورد هنا كمثال وثيقة تعود لسنة 1233 هـ توثق عقد كراء جاء فيها: "الحمد لله ... اكترى المعلم عبد السلام بن عمر للسيد محمد بن علي بن شيخ الفدان الذي في الموضع المسمى اسمار بما فيه من الأشجار والنيش وغير المحدد قبلة عبد الرحمان بن شيخ وشرقاً محمد بن شيخ وورثة علي بن شيخ والغرب كذلك وفي الفدان أيضا الكائن له في ابصرين بما في من الشجرة المعروفة بشجرة الأحجار المحدد قبلة الطريق النافذة لمسجد ابصريين ... ليحراثها له ويتصرف فيها لأجله وينسبهما لنفسه خاصة دون غيره وعند إتيان ما ينتج منهما يرفع له غلته بما فيها. وقع ما ذكر كما ذكر لأجل حيازتهما لنفسه ونسبتهما له من غير منازع عليه ولا معارض يعارضه من أجلهما نحو ثلاثة أعوام وبه قبل شهادته على ما ذكر ..."¹.

إن الحاجة إلى اليد العاملة خلال تلك الفترات العصبية من حروب ومجاعات وأوبئة، كانت تفرض على صاحب الأرض البحث عن السبيل التي تمكنه من جلبها، بشكل يسمح له بتحقيق الأرباح واستغلال مكثف للأرض، باحثاً عن سند الفقهاء والعلماء الذي هو بمثابة "الوثيقة القانونية"² التي تضمن حق الطرفين، وتنظم نمط الإنتاج كما وضحته لنا الوثيقة السابقة، حيث وقع اختلاف بين الفقهاء والعلماء سواء بمنطقتنا أو خارجها، حول أسلوب الإجارة والذي طال الوسائل المستعملة في الحرث، وفي هذا السياق جاء في نوازل العلمي: "وسئل عمن يعطي ثوره لمن يحرث به على وجه الكراء بالخمسة أو السدس هل يحل ذلك أو يحرم أو الفرق بين الكراء والشركة كمسألة الخماس؟ فأجاب: مسألة الثور بالكراء بالجزء من الحرث، ذلك حرام ربي لرب الثور والذي حرث به فيجب عليهما الأدب الوجيع وعلى كل من تعاطى عقود الربا ويحدث في الدين ما ليس عنه والزرع كله لمن حرث وعليه لرب الثور كراء مثل ثوره درايم هذا إن عقدا صفقتها على وجه الكراء وبلغ الكراء وإن عقدت صفقتها بلفظ الشركة كأن يقول رب الثور ومن أراد مشاركته في الحرث يقال نشترك في الحرث، فيقول له الآخر نعم فيجعلان تقويم ما تدور عليه شركتهما وحرثهما ينتهي إلى خمسة مثلاً الخمس الواحد يقابل الثور والخمس الآخر يقابل الآخر والخمس الثالث يقابل العمل والخمس الرابع يقابل البذر والأرض والخمس الخامس يقابل الآلة، كما إذا اشترك خمسة رجال للواحد منهم الثور والآخر الثور الآخر وللثالث البذر والأرض وللرابع آلة

¹ - وثيقة عدلية خاصة مؤرخة ب أوائل شهر شوال عام 1233 هجرية، أمدنا بها الأستاذ محمد عبد المومن النجكاني الغماري.

² - كركوري لازارف، "مظاهر الرأسمالية الزراعية في مغرب ما قبل الحماية"، تعريب أبي بكر العشاب، مجلة دار النيابة، السنة السادسة، العدد 21، شتاء 1989، ص. 52.

الحرث وللخامس العمل، فلا حرج في ذلك فاحذر من الجهل في الكراء ومن كراء الأرض بالطعام في الشركة"¹.

لقد ظلت هذه المسألة معلقة ولم يحسم فيها، ويبدو أن علماء المنطقة على الرغم من الظرفية التاريخية والاقتصادية الصعبة التي كانت تعيشها البلاد بصفة عامة، إلا أنهم لم يجيزوا بعض المعاملات الاقتصادية واعتبروها ربوية، لكن ربما كانوا يحاولون تكريس عقد الشركة للحفاظ على مبدأ التعاون والتكافل بالعالم القروي، ومساهمة كل الأفراد في الدفع بوتيرة الإنتاج، تحت غطاء ومراقبة العلماء والفقهاء، حيث جاء في نوازل محمد الهبطي المواهبي: "الحمد لله، حيث اشترك رجلان على المناصفة ولهما فدان مشترك مع الغير فأزالا الغابة منه بقصد الحرث، ثم إن أحدهما خرمته المنية قبل الحرث، وأراد الباقي أن يأخذ نصف الفدان ومنعه الأشارك مدعين أنهم مكنوا نصيبهم من الميت لا منه. فهل له النصف في الفدان كمسألة القليب² أم ليس له ذلك؟

الجواب، الذي يظهر أن له نصف الفدان كمسألة القليب التي نقلها ابن سلمون، لأنهم لما مكنوا الميت من حظهم بالعطية، مكن الآخر بالشركة"³

كما شمل مجال الرعي هذا النوع من التعاقد، ويبدو أن الإقبال على مثل هذه المعاملات "الاقتصادية" قد تعدد وتنوع حسب الاتفاق بين صاحب الماشية والراعي، وفي الحقيقة أن البحث عن اليد العاملة خلال الفترة المدروسة كان يطرح جملة من المشاكل والصعوبات، وهو ما نجده في النازلة التالية: "ومن الجهة الغمارية أن شخصا أعطى بقرة ومعزا لشخص آخر على وجه الشركة، وقد قام بينهما خصام أدى إلى حل تلك الشركة، وذلك بأن أخذ العامل العز، وسلم البقرة لصاحب رأس المال مع سبعة ريال افتداء ليمين وجبت على إخوته وأمه، والتزم بأنه هو المسؤول عن إخوته إذا قاموا مطالبين بنقض ما فعله عنهم، وكتب ذلك وشهد عليه سنة 1341 هـ/1923م، وفيه قال الإفتاء بطلان رسم مفاصلة لما فيه من آفات"⁴، مما يؤكد أن نمط الإنتاج كان يسير بخطوات متعثرة نحو التطور لأن العقلية الغمارية كانت عاجزة عن استيعاب مقومات التوازن الاقتصادي⁵.

¹ - علي بن عيسى العلمي، النوازل، الجزء الثاني، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1983، ص. 48.

² - مسألة القليب التي نقلها ابن سلمون هي: " وسئل بعض الفقهاء المتأخرين عن شريكين في الحرث قلبا في جملة ما قلبا من الأرض فدانانا كان لأحدهما وزرعاه بينهما كرسنة وفولا، وقسما الفول والكرسنة، فلما وقعت القسمة قال صاحب الفدان لشريكه ايس لك في الفدان شيء قد أخذت نصيبك مما نبت فيه، أترى أن يكون الفدان من جملة ما بينهما من القليب يزرعانه جميعا فقال نعم، فدان الكرسنة والفول بينهما من جملة القليب الذي بينهما على حسب اشتراكهما يزرعانه بينهما أو يقتسمانه" (أنظر الهبطي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، ص. 288)

³ - محمد الهبطي المواهبي، مرجع سابق، ص. 288.

⁴ - محمد الهبطي المواهبي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، ص. 576.

⁵ - Mimoun (A), *Le Rif 1912-1956 Marginalisation...*, op. cit., pp. 30-35.

إن مسألة الإيجارات والأكرية، كانت في حد ذاتها وثائق تنظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بشكل يوازي ما تفرضه المعطيات الطبيعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية¹، وبالتالي فإن التعاقد بين صاحب رأس المال (أرض-ماشية) والمستأجر (من سيحرق الأرض أو الراعي)، قد خلق نوعا من التراتب الاجتماعي في بلاد غمارة، في ظل هذا الاستثمار غير المباشر في نطاقه الضيق، ودون وعي من الملاكين. ولو أن العلاقات الإنتاجية كانت غير واضحة ويشوبها الغموض، إلا أن فقهاء المنطقة لعبوا دورا أساسيا وفعالا في محاربة الفساد والغش²، وأمنوا هذه العملية حتى بالنسبة للعاجز، كما جاء في النازلة التالية "ومن بلاد غمارة أن رجلا تقدمت به السن إلى حالة العجز عن القيام بشؤون نفسه، فأجر على القيام بذلك ابنتي أخيه بمبلغ محدود معلوم لكل يوم إلى أن يموت، على أن يكون لهما الخيار في أخذ المتفق عليه كل مساء، أو تركه إلى ما بعد وفاته، فتأخذان كل ما حصل لهما، وقد وقع الإشهاد بذلك من الطرفين معا أوائل محرم عام 1253 هـ، وحيث وقع النزاع والخصام في ذلك بين الأخيرتين والورثة، وتدخل الإفتاء ليؤكد أن الإجارة صحيحة، وإخراج الأجرة المتفق عليها من تركة الهالك وإعطائها لابنتي أخيه أمر واجب لا يقف في طريقه إلا ظالم"³.

نستنتج إذن أن مسألة الأكرية والإيجارات كانت مضبوطة بالشرع والعرف الذي كان يشرف عليه الفقهاء والعلماء في قبائل غمارة، كما يتضح أيضا أن الحراث بالمنطقة الغمارية قد يصبح ملاكا أيضا، عكس بعض المناطق بالمغرب، حيث غالبا ما يصبح المستأجر شريكا في الزراعة، وذلك بعدما يقضي سنتين أو أربع ويجمع المحصول، وفي نفس الوقت تكون زوجته وأولاده قد حصلوا على مدخول إضافي من جراء الأعمال التي أنجزوها في نطاق الفلاحة المستقلة عن الملاك⁴. فهذه المداخيل تضاف إلى حصيلة الزيت والزيتون والتين والسمن وأجرة الرعي إن كان، ويشترى بها عجلا أو عجلين، وبعد ثلاث أو أربع سنوات يستغني عن الملاك ويصبح يملك "الزوجة" ويبدأ يبحث عن شريك بالنصف أو يكتري الأرض أو يستغلها بالخبرة، وحينئذ يجد الملاك نفسه مضطرا إلى رفع الأجرة أو القيام بعمليات الحرق بنفسه، وهذا النوع لا نجده في الغرب وزعير والخلط⁵. كما نجد نفس الارتقاء في تربية الماشية حيث يصبح الراعي كسابا، حيث تكون أجرته في البداية عبارة عن جدي صغير يختاره من بين الجديان التي ازدادت في نفس السنة، فهو يأخذ عن كل زريبة جديا وهو غير مؤاخذ على ضياع أحدها خلال عملية الرعي وهو ما تؤكد النازلة التالية: "ومن مدشر القلعة الزجاجية أن راعيا أضاع بهيمة من الماشية التي كانت فيه نوبة رعيها، فأراد صاحبها أن يغرمه قيمتها، وفي ذلك قال الإفتاء عدم

¹ - كركوري لازارف، "مظاهر الرأسمالية الزراعية في مغرب ما قبل الحماية"، -القسم الثالث -تعريب أبي بكر العشاب، مجلة دار النيابة، السنة السابعة، العدد 25، شتاء 1990، ص 27.

² - عبد اللطيف حباشي، "حول صورة الفلاح في الثقافة العربية الإسلامية..."، م. س، ص. 72.

³ - محمد الهبطي المواهي، مرجع سابق، ص. 143.

⁴ - EL Dahan (M), *Chaouen et sa Région*, Thèse Doctorat, Tours, Université Francois Rabelais, UFR de Droit D'économie des Sciences Sociales, 1996, pp. 60-80

⁵ - المريني العياشي، النضال الجبلي " الأنظمة الاجتماعية الجبلية-النظام الاقتصادي-الجزء الثالث...، مرجع سابق، ص. 135.

تضمين راع بهيمة ضيعها...¹، وبعد مرور ثلاث أو أربع سنوات يصبح كسابا يملك عددا كبيرا من الرؤوس، وبالتالي يستغني عن الكساب الذي كان يؤجره ويصير منافسا له في ميدان الكسب².

وبناء على هذا فإن نظام المنطقة في ميدان الفلاحة والكسب يساعد الفقير ويرفع من مستواه المعاشي، وفي نفس الوقت لا يفقر الغني، ثم إن هذا النظام لا يساعد على خلق إقطاعية رأسمالية في القبيلة، فعلى الرغم من المستوى المعيشي الضعيف، تبقى محافظة على هذا التوازن بين أفرادها. فكيف كانت القبائل الغمارية تنظم أراضيها الزراعية؟

2- توزيع وتنظيم الأراضي الزراعية:

لم تكن الوسائل التقليدية المستعملة في المجال الزراعي تشجع على تطوير أسلوب استغلال الأراضي، ونظرا لصعوبة التضاريس فإن ذلك يعرقل خط سير الإنتاج بالمنطقة. كما أن قوة أي مجتمع تتحدد بمدى قدرته على تنظيم المجال الذي يحيط به، ويبرز من خلال المجهود الذي يبذله الإنسان الغماري في مساهمة حركية الطبيعة وتكييفها، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال الجوانب التالية:

- إعداد السكن: تظهر كفاءة الإنسان وقدرته على إعداد السكن في الاستعمال المكثف للمواد المحلية، فالقرى الغمارية القريبة من الغابة تستغل جذوع الأشجار والخشب في بناء السكن (نموذج تازا وسعيد في قبيلة بني زجل) على العكس من القرى البعيدة من الغابة والتي تعتمد على الطين والتبن (نموذج قرية ترنس)، وعندما تتوفر الصخور، يتم استغلالها بشكل مكثف (نموذج قرية أمنصورن).

- مواضع البيدر (النادر): لوحظ أن اختيار البيدر في قبائل غمارية لا يتم بشكل عفوي وإنما يخضع لتدبير معقلن تتحكم فيه مجموعة من العوامل، منها التموضع فوق أرض غير صالحة للزراعة أو القرب من السكن، والابتعاد عن الماشية، إلا أن أهم عامل هو التموضع في منطقة عالية تستقطب رياح خفيفة لتساعد على التذرية.

- إعداد السفوح: استطاع الفلاح الغماري أن يظهر عبقريته في إعداد السفوح، نظرا لطغيان الطابع الجبلي وتقطع التضاريس وشدة الانحدارات، فرغم بساطة الوسائل توصل إلى تقنية المدرجات أو الشرفات.

- تنظيم عملية الحرث: يتم التناوب في بعض الحالات بين الأبقار والبغال لإراحة الأولى، ولمراعاة طبيعة الأرض، فالأبقار تخصص للأراضي الوعرة والبغال للأراضي المنبسطة السهلة، ولزراعة الحبوب أو القطن يتم حرث خط واحد، أما الذرة والبطاطس فيتم إعادة الخط في الاتجاه المعاكس، أي بشكل متقاطع.

¹ - محمد المهبطي المواهي، مرجع سابق، ص. 160.

² - المرجع نفسه، ص. 136.

- التعاون في تنظيم الأراضي الزراعية: إن روح التضامن تظهر من خلال التنظيم الجماعي لبعض الأشغال الفلاحية، والاستعمال المشترك لوسائل الإنتاج، والتآزر عند الحاجة¹، فالعديد من القرى الغمارية لازالت تحافظ على الإرث الثقافي والذي يساهم بدور أساسي في العمليات الاقتصادية، خاصة وأن القرية كانت وما تزال عبارة عن تجمع لعدد من الأسر، تعيش في إطار التكافل والتضامن، حيث القرابة توفر تعويضا عن انعدام الاستقلال الذاتي، ومن مظاهر التضامن:

* اتفاق الجماعة على ترك الأرض البورية لتتحول إلى مرعى.

* إعداد الموارد المائية وذلك بإصلاح السواقي وبناء الصهاريج واتباع النوبة.

* التناوب في الحرث والدراس والرعي أي ما يسمى بـ "المقارنة".

* خزن الحبوب والتبن في مخزن جماعي.

* إحداث نوادر جماعية بالزوايا نظرا لقلّة الأرض.

ويظهر العمل التضامني بشكل واضح في توازة، وهي عمل جماعي تعاوني ليس له وقت معين ولا مكان محدد، إذ يتخذ عدة أشكال منها توازة الحرث والحصاد ونقل التبن والتعشيب وتسقيف السكن ... وتوازة سلوك منتشر في معظم مناطق المغرب وإن كان بمسميات مختلفة، إذ الهدف منها تقديم العون إلى السيد ولو عن طريق القوة والإذلال²، فتوازة شكل من أشكال التعاضد والتكافل بين أعضاء الجماعة³. إن توازة عبارة عن نظام اجتماعي يشمل كل الأنشطة⁴، ونميز بين عدة أشكال:

- التعاون عند الوفاة: يتم الأذان في الصباح لإخبار السكان، فتتوقف كل الأعمال بالقرية، ويتم التوجه لتجهيز الميت، من غسل وكفن وحمل وإطعام أسرة الهالك.

- التعاون أيام الأفراح: يظهر التعاون في الهدايا التي تعتبر بمثابة قروض تعاونية.

- التعاون الاقتصادي: يتمثل في كل الأعمال الفلاحية الجماعية الهادفة إلى المحافظة على الترابط الاجتماعي.

وعموما فإن نطاق الاستغلال خلال الفترة قيد الدراسة ظل ضيقا ومحصورا في ثلاثة عناصر:

¹ - عبد العزيز خلوق التسماني، جوانب من تاريخ جبال المعاصر...، مرجع سابق، ص. 45.

² - المريني العياشي، النضال الجلي، الأنظمة الاجتماعية الجبلية " النظام الاقتصادي " ج 3...، مرجع سابق، ص 127.

³ - الهراس المختار، تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب...، مرجع سابق، ص. 256.

⁴ - Hajjarabi (F), *Sauver la Forêt ou Sauver les Femmes la Corvée du Bois Chez les Ghomara...*, op.cit, p. 219.

القطعة الأولى: تستعمل للحبوب، وقد لاحظنا ذلك من خلال النوازل التي طرحت على فقهاء المنطقة والمتعلقة بعملية المناصفة، جاء في بعضها: "ببذر أحدهما صنفا والآخر صنفا متساويا في عدد الكيل، والصنفان هما الفول والجلبان"¹، ويضيف موليراس في هذا الصدد "أن هذه القبيلة (قاع أسراس) تبدو مثلثة الشكل وهي مليئة بالمنازل وبحقول الشعير والفول"²

القطعة الثانية: للخضر اليومية وتكون غالبا إما قرب المنزل أو قرب النهر إن كان هناك نهر، وقد ذكر موليراس أن العيون كثيرة، شكلت سواقي صغيرة للماء الصافي تزود الحقول الصغيرة القريبة من المنازل بحصتها من المياه لزراعة اللفت والجزر والعدس والفلفل الحلو والتموم³.

القطعة الثالثة: وتكون مشتركة بين أفراد القرية، حيث تكون هي أساس المجتمع وتستعمل هذه القطعة للرعي، وغالبا ما كانت تلك القطعة الأخيرة غير صالحة للزراعة، كما أشار إلى ذلك موليراس بقوله: "وهم مجبرون على تقليب أرض بالمعول ما دامت المنحدرات صعبة وجافة"⁴، وهذا لا يعني قطعا أنها خاصة قبائل غمارة، ولكن هذه التنظيمات اختلفت من قبيلة إلى أخرى، بل وداخل القبيلة الواحدة حسب الأولويات التي يعطيها الفلاح لاحتياجاته. ونظرا لقلّة الأراضي الصالحة للزراعة بالمنطقة غالبا ما كانت تقوم نزاعات وخصومات حول ملكية الأراضي الخصبة النادرة، خصوصا في الفترات المناخية العصبية، من بينها تلك التي كانت تنشأ عن استغلال المياه بين القبيلة وأخرى، وأحيانا داخل القبيلة الواحدة، وهذا ما جعلنا نقف على أهم ما كان يعرقل النشاط الفلاحي بالمنطقة:

* الإمكانات المادية لسكان المنطقة محدودة جدا.

* الافتقار إلى اليد العاملة بسبب الحروب والهجرة والتدخل الأجنبي.

* الوسائل التقليدية المستعملة في عمليتي الحرث والحصاد رغم دخول المستعمر الإسباني.

* التقلبات والتغيرات المناخية المضطربة.

* سيطرة الاحتلال الإسباني على أجود الأراضي في النصف الأول من القرن 20م.

* تعقد النظام العقاري في منطقة غمارة، وهو ما تؤكد النازلة التالية: "ومن الجهة الغمارية جماعة أراد بعض أفرادها أن يحيي أرضا، فمنعه منها الباقي من الجماعة بدعوى أن ما أراد أن يحييه هو مرفق من مرافقها،

¹ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تنحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال...، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص.451.

² - أوجست موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص.209.

³ - المصدر نفسه، ص.233.

⁴ - المصدر نفسه، ص.245.

وأنه كالمحبس عليها لا يجوز لأحد أن يتصرف فيه وحده لا بالاستغلال ولا بغيره من أوجه التمليك أو التفويت، وفي النازلة وردت فتوى تبين عدم جواز إحياء البور الذي يشبه الحبس"¹. وهناك عنصر آخر يستوجب منا التوقف عنده ويتعلق الأمر بتأثير الجانب الطبيعي والسياسي على الإنتاج الفلاحي في بلاد غمارة. فإلى أي حد يمكن تفسير ضعف الإنتاج بالتقلبات المناخية والأزمات السياسية التي شهدتها قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة؟

3- الخصائص الطبيعية والأزمات السياسية وانعكاساتها على الإنتاج.

عانت قبائل غمارة كما سبق القول من التقلبات المناخية الباردة منها، وفي هذا الصدد أكد صاحب "المغرب المجهول" خلال حديثه عن زيارة قبائل غمارة على الصعوبات التي واجهته نتيجة البرد القارس وارتفاع نسبة الثلج. لقد كانت لهذه الظروف الطبيعية المضطربة انعكاسات على الإنتاج بالمنطقة، خصوصا وأنها ذات خاصية جبلية، فعدم انتظام التساقطات زاد من تفاقم وضعيتها التي خلقت جملة من الصراعات والنزاعات، عكست عدم التوازن بين أفراد وفئات المجتمع، في غياب سلطة مركزية قادرة على فرض الأمن وإيجاد الحلول لمثل هذه الأوضاع. وتقدم لنا كل من نوازل الزياتي ومحمد الهبتي المواهي صورا واضحة عنها، نذكر على سبيل المثال النزاع الذي شب بين قبيلتين حول تقسيم منفعة المياه، وطلب من أحد قضاة الفترة الفصل فيه، وهاتان القبيلتان هما فرقة بني شداد وفرقة من بني حسان، حيث قامت الأولى بقطع الماء عن الثانية بسبب قلة المياه (فترة الجفاف) بحجة أن الساقية لها منذ سنين، توارثتها القبيلة، علما أنهما كانتا تستفيدان منها بطريقة متتالية². وفي نازلة أخرى تعود لسنة 1372هـ/1953م أي في فترة الحماية الإسبانية موضوعها شهادة ليفية تقضي بملكية ماء لجماعة من الناس ينتفعون في سقي حقولهم، وأراد أحدهم أن ينتفع به زيادة على ذلك في تشغيل رحاه أيام الشتاء والربيع، وقال الإفتاء: "الحمد لله، وحده، وبعد، فإن الفرع حوله لا يستحق به المدعى فيه، وذلك لعدم ثبوت استمرار ملك المدعين للمدعى فيه إلى تاريخ المقال، وعليه فالملك والتصرف وعدم النزاع وعدم التفويت المشهود بها في الفرع إنما هي لماء الصيف والخريف فقط، لا لماء الشتاء والربيع، إذ هذا لا يتصرف فيه بالسقي حتى يشهد به"³.

والواقع أن هذا النزاع حول الماء، خاصة السقي، يوضح أن انتشار الجفاف قد دفع بأصحاب هذه الأراضي والمواشي إلى البحث عن حقهم في الماء. وبالتالي فكلا الطرفين المتنازعين ادعى الأسبقية في الحيازة، لكن الملاحظ هو أن القاضي أخذ بعين الاعتبار المصلحة العامة بالتخفيف من حدة التوتر بين القبائل، الذي

¹ - محمد الهبتي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، ص. 374.

² - محمد الهبتي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال...، مرجع سابق، ص. 264.

³ - المرجع نفسه، ص. 570-571.

سيضاف إلى مشكل الجفاف. وهو ما يفسر وجود مجلس للجماعة في كل مدشر، يتكون أعضاؤه من جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، يتولى النظر في المصالح المشتركة، فينتخب المقدم الذي كان يمثل المدشر لدى السلطة المحلية، ويسهر على إدارة المخازن الجماعية، وحماية المزروعات، ويعين فترة استغلال الغابة ومباشرة عمليات الحرث والحصاد، ويتدخل في توزيع مياه السقي. وعلى الرغم من أن الشؤون الأمنية لم تكن من اختصاصه، حيث إنها كانت بيد العمال والقضاة، فإن مجلس الجماعة كان يتجاوز هذه السلطات ويباشر العنف المشروع بإصدار العقوبات ضد أعمال السرقة والقتل¹. ساهمت هذه الظروف بشكل غير مباشر في تراجع الملكية الجماعية، سواء تعلق الأمر بالأراضي أو وسائل الإنتاج وخصوصا استغلال "السواقي"، بينما يحاول الفقهاء والقضاة الحفاظ على استمرارية تلك العلاقات الاجتماعية التي بدورها ستنظم الإنتاجية، وكمثال على ذلك النزاع الذي نشب بين مدشرين في قبيلة بني زجل الغمارية²، وذلك بسبب محاولة أحد المدشرين إحداث سواقي فرعية للساقية الأصلية، مما أدى إلى عدم استفادة المدشر الثاني والذي يوجد في الأعلى، وهو ما أوجع الصراع بين الأعالي والأسافل حول هذه الساقية.

والملاحظ أن كلا الطرفين المتنازعين قدما الرسوم التي تثبت أحقيتهما في هذه الساقية، لكن قاضي شفشاون أصر على أن تغلق المنافذ التي أحدثت من أجل رفع الضرر عن المدشر المتضرر، وأن يلتزم الطرفان بما جرت به العادة وهو التناوب في استعمال هذه الساقية.

ففي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كانت سنوات المجاعة وسنوات الرخاء تتكرر، وتغلب في بعض الفترات سنوات المجاعة سنوات الرخاء، مما يجعل الفلاح الغماري يحتاط من تقلب الأزمنة، وإن كان بشكل بسيط، إما لقلّة مساحة أرض هاو لقلّة الحيوانات التي تساعد أو لصغر عائلته ولقلّة أفرادها، أو لعدم تمكنه من الاعتماد على تقنيات تسمح له بإنتاج ما يزيد عن استهلاكه، وإذا وقع أن أنتج في سنة ما يتعدى استهلاكه، فبدل أن يوفره، فهو يبيعه في الأسواق لتغطية متطلباته الأخرى والتي لا ينتجها. وهذا ما لمسناه في عام الجوع 1868م، إذ نجد عبد الكريم الرزيني أحد قواد غمارة يرسل عامل السلطان محمد بركاش يطلب منه تسريح المساحلة بالمراسي واستيراد أهل الريف للشعير من وهران نظرا لشدة الجوع بالمنطقة³. وفي رسالة ثانية نجد الخضر بن محمد السلاوي يرسل السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن يخبره بحالة الغلاء والجوع في تطوان وناحية غمارة، مؤرخة بـ 5 شوال 1284 هـ/30 يناير 1868م، إذ يقول: "الحمد لله وحده وصلى على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه، العبد المملوك يقبل الأرض أمام سيده ومولاه ويشي عليه ما هو أهله، أما بعد

¹ - عبد العزيز خلوق التسماني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر...، مرجع سابق، ص.45.

² - المرجع نفسه، ص. 308.

³ - الرسالة بتاريخ 5 شوال 1284 هجرية/30 يناير 1868 م. أنظر محمد الأمين البزاز، تاريخ المجاعات والأوبئة بالمغرب (ق 19/18) منشورات كلية الآداب بالرباط، رقم 18، 1992، ص. 207.

فينهي لشريف مكناس أنه بعد أن اشتد إهمال تطوان وناحتها من كثرة الغلاء ووقع الهيف في الناس وملت عدد كبير من أثره ... خصوصا من أهل الريف الذين فروا من كل وهج من غلاء الأسعار وعدم نزول الأمطار، وشاهد ذلك أجناس النصارى، جاء إلينا في يوم ... قنصول الإنجليز وقنصول الصبليون وطلبوا مني إحضار أمناء سوانا بالمراسي، وبعد حضورهم طلبا منهم أن يدفعوا من مال سوانا بدار الأعشار عشرة ريال في كل يوم لمن يشتري خبزا، وتفرق على الضعفاء الجائعين في البلد، حتى يرحم الله العباد بالفرج لكونهم خافوا ربما يشتد الأمر أكثر من هذا ويترامى عليهم وعلى إخوانهم النصارى الجياع وينهبون القوت وغيره منهم، وينشأ من ذلك بلاء عظيم ...¹ ويمكن تلخيص أهم الجوائح التي ضربت منطقتنا خلال الفترة المدروسة في الجدول التالي².

الأوبئة والمجاعات بغمارة

السنوات	الأوبئة والمجاعات
1868 م	الجدري، التيفوئيد، الكوليرا، الجوع، الغلاء، وقوع الهيف
1878م-1884م	أزمة اقتصادية عارمة، مجاعة، بؤس، هجوم أسراب الجراد، تفشي الأوبئة
1890م-1891م	مجاعات، غزو مخيف للجراد، داء الجدري
1917 م	الإسبان يمنعون أعمال الحرث في الريف وغمارة فأصبحت الوضعية الاقتصادية كارثية + شح الإنتاج + غلاء المعيشة + اضطراب السكان لأكل الأعشاب
1944م-1945 م	خلفت الحرب العالمية الثانية نتائج اقتصادية كارثية-شح الإنتاج (عام البون/عام بونتاف/عام الجوع)

من جانب آخر، ساهمت الثورات والأزمات السياسية والهزائم العسكرية بنصيب وافر في تفاقم المشاكل الناجمة عن الظروف الطبيعية القاسية، خصوصا تلك الحملات العسكرية التي قادتها إسبانيا ضد الساحل الغماري منذ هزيمة المغرب في معركة تطوان 1859م/1860م، بالإضافة إلى أن المنطقة كانت مسرحا للمقاومة الجبلية والريفية، حيث كانت آخر القلاع التي استسلمت للإسبان نتيجة استخدام هذه الأخيرة لمختلف أنواع الأسلحة في المنطقة، وهو ما جعل قبائل غمارة تتكبد خسائر بشرية هامة وخسائر مادية تمثلت في إحراق المحاصيل الزراعية وإتلاف أخرى.

المبحث الثاني: الإنتاج الفلاحي

كان للظروف المناخية وطبيعة تضاريس المنطقة دور أساسي في تحديد نوعية الإنتاج، فلا يمكننا الحديث عن نسبة شاسعة للمساحات الأرضية المستعملة للزراعة، وذلك راجع إلى وجود ملكيات صغرى متناثرة هنا

¹ - الرسالة الأصلية موجودة لدى محمد الأمين البزاز، تاريخ المجاعات والأوبئة بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 27.

² - محمد الأمين البزاز، أوبئة ومجاعات المغرب في القرنين 18م و19م، مرجع سابق، ص. 205-206-207. مجلة زمان، "أوبئة أهلكت المغاربة"، العدد 12، أكتوبر 2014م، ص. 42-45.

وهناك، كما أن القياس يختلف من قبيلة إلى أخرى (الدرع، الأنملة، الشبر، الفدان ...). ويتشكل الإنتاج الفلاحي بقبائل غمارة من المواشي والمنتوجات الزراعية من حبوب وخضر وفواكه. وهذه التشكيلة الزراعية لم تعرف تغييرا كبيرا مقارنة مع ما كان سائدا من مزروعات خلال القرن 16م، إذ كانت المنطقة تعتمد على الكروم والأشجار المثمرة وزراعة الشعير وقليل من القمح، خاصة بقبيلة بني رزين¹، والخضروات مع بعض البقول في البساتين الواقعة على ضفة نهر تاغسة والجهة²، لوجود المياه المتدفقة من الغابات المجاورة، والجزء الباقي من البلاد لا ينتج سوى شيء قليل من الحبوب³. وخلال الفترة المدروسة نجد نفس المنتوجات الفلاحية، وقد يرجع ذلك ربما إلى طبيعة التربة ومناخ المنطقة اللذين لا يسمحان بمنتوجات أخرى⁴، وعلى كل حال ففي القرن 19م نفتقد المعلومات التي تبين لنا كمية الإنتاج وأنواعه، فهناك معلومات عامة، نجد مثلا أن سهل " امثار منبسط يشقه واد على جانبيه مزارع وأغراس وجنات"⁵، كما أن وادي تيشولا ووادي تاكموت أيضا شكلت ضفافهما أراضي خصبة⁶، وكانت تقدم مردودية مهمة من الخضروات والحبوب والفواكه⁷، في حين لا نعرف أنواع هذه المنتوجات بالتفصيل. بينما يحفل النصف الأول من القرن 20م بالعديد من الأرقام والإحصائيات التي تفيد الإنتاج الفلاحي بقبائل غمارة وشمال المغرب عامة.

1- إنتاج الحبوب بقبائل غمارة

يتبين من خلال الوثائق العدلية والأرشيف الإسباني أن الحبوب كانت تحتل نسبة مهمة من الإنتاج، وتعتبر استمرارا للاقتصاد التقليدي القديم، الموجه للاستهلاك الذاتي، بحيث اعتمد الغماريون منذ استقرارهم بالمنطقة على الثلاثية المتوسطة (حبوب-مغروسات-ماشية) وتفسر أهمية الحبوب بدورها النظام الغذائي والحيواني، وعلى رأسها الفول والشعير الذي كان يزرع غالبا في جل الأراضي البورية⁸، نظرا لتكيفه مع التربة المستنزفة بفعل الانجراف، عكس القمح الذي يتطلب أراضي جيدة وربما حتى الأسمدة، الشيء الذي يفسر عدم وجوده بكثرة بهذه القبائل⁹، وفي المنطقة السهلية لبني رزين المحاذية لواد اورينكا توجد حقول لزراعة الشعير والفول والذرة

¹ - مارمول كاربخال لويس، إفريقيا، مصدر سابق، ص. 248.

² - المصدر نفسه، ص. 244.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - Rodriguez Gomez, Maria Dolores, *La Influencia de Leon el Africano ...*, op. cit., pp. 361-362

⁵ - سعيد أعراب، ظهائر سلطانية...، مرجع سابق، ص. 100.

⁶ - Ricardo Donoso-Cortés, *Estudio Geografico Politico-Militar Sobr Las Zonas Espanolas del Nort ya sur de Marruecos...* op.cit, p. 193.

⁷ - Ibid., p. 119.

⁸ - أوجيست موليبيراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 252.

⁹ - أوجيست موليبيراس، المغرب المجهول، اكتشاف الريف، الجزء الأول، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تفران، طبعة 2007، ص 71.

التي احتلت مساحات مهمة¹. كما تعتبر قرية تزقا غنية بالثروة المائية، حيث كان يتميز واد تازقا بصيب عال ويصب في واد اورينكا، وأنشئ قربه حوض كبير يستغله فلاحو هذه المنطقة في سقي الأراضي²، وعلى حدود بني سميح بجنوب القبيلة تتعدد المنابع، مما سمح للفلاح بإدخال بعض الزراعات والخضروات مثل العدس والذرة والبصل والثوم وغيرها من المزروعات التي تحتاج للسقي³، ونفس الشيء بالنسبة لمنطقة بني جرير التي كانت غنية بالعيون والجداول الصغيرة وتحيط بمنزلها بساتين تزرع بها خضروات والذرة، والتي تقوم النساء بالاهتمام بها⁴، ويمكن الإشارة إلى أن هذه المياه كانت تجمع في حوض كبير كما سبق، ويسمى في المنطقة "بالصاريح"، فيشارك في استغلاله مجموعة من الفلاحين المالكين للاستغليات القريبة منه بالتناوب، كما أشارت العديد من النوازل التي ذكرناها سابقا. وعموما يمكن تناول بنية إنتاج الحبوب على الشكل التالي:

- زراعة القمح (Trigo): كانت هذه الزراعة تباشر في الأراضي الطينية والصلصالية والأرض البيضاء، ففي جبل بني رزين يقول مارمول كاربخال: "لأن جبلهم حصين وخصيب ... يستخرجون كمية من القمح"⁵، حيث وصلت المساحة المزروعة لهذا المنتج إلى 9.7 الف هكتار في فترة الحماية الإسبانية، مشكلا نسبة 22.15% من المحاصيل الزراعية⁶، وعموما فالقمح يعتبر مؤشرا للدلالة على تبعية القرى وعدم تحقيقها للاكتفاء الذاتي في الحبوب، كما أن نقص الحبوب سيؤدي إلى نقص العلف، وإذا كان الشعير يتلاءم نسبيا مع الظروف الطبيعية لبلاد غمارة، خاصة مع نقص المياه، فإن القمح يتميز بالضعف في المناطق العالية والبعيدة عن السكن لعامل البرودة والخنازير⁷. ومن أبرز القبائل المنتجة للقمح خلال الفترة المدروسة قبيلة بني زجل بإنتاج بلغ 5120 قنطار على مساحة 512 هكتار، وقبيلة متيوقة بإنتاج وصل إلى 5805 قنطار على مساحة تصل إلى 527.75 هكتار، أما قبيلة غزاوة فكانت تنتج حوالي 6112 قنطار على مساحة 764 هكتار، بينما كانت قبيلة بني زيات تنتج حوالي 1487.88 قنطار على مساحة تقدر بـ 158 هكتار، في حين احتلت قبيلة الأحماس العليا المرتبة الأولى في إنتاج القمح بـ 32340 قنطار على مساحة 3234 هكتار⁸ (انظر الخريطة).

¹ - نفس المصدر، الجزء الثاني، ص. 242.

² - نفس المصدر، ص. 243.

³ - نفسه، ص. 243.

⁴ - نفسه، ص. 233.

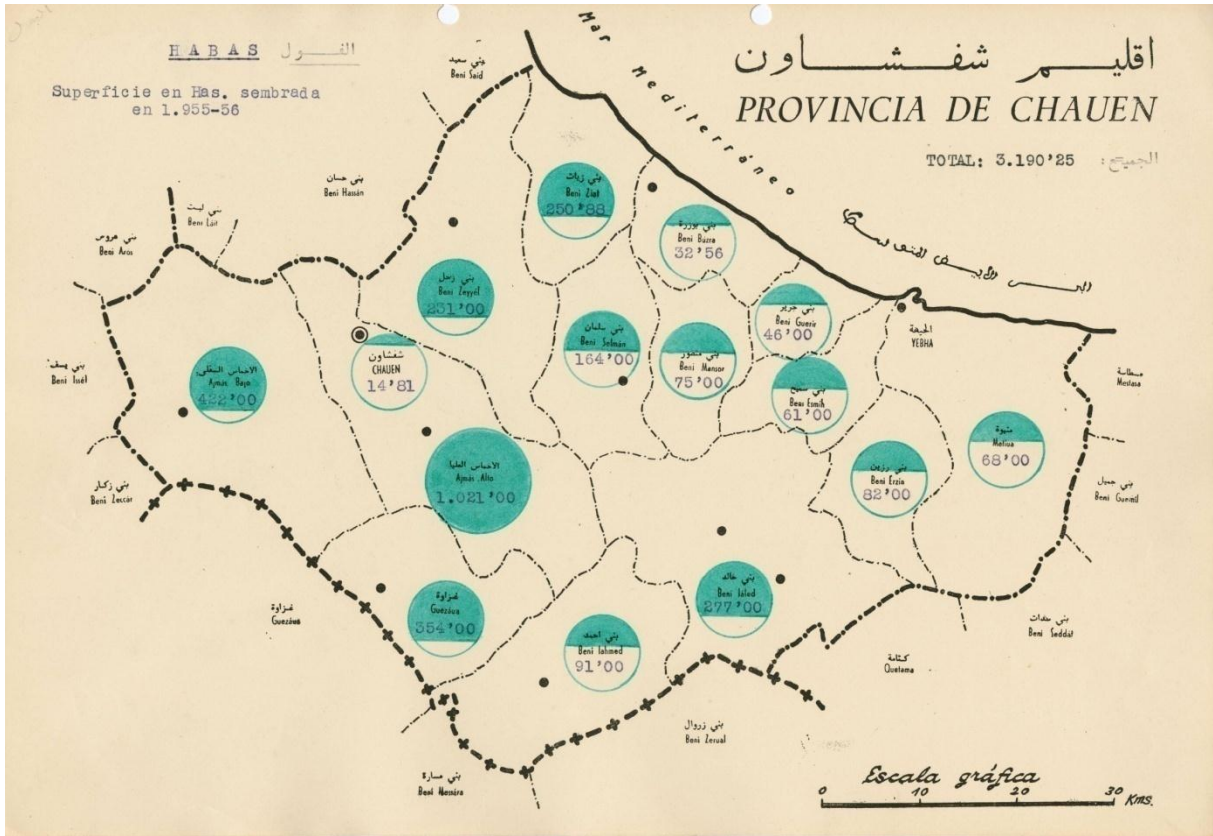
⁵ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص. 249.

⁶ - *Alta Comisaria de Espana en Marruecos, Accion de Espana en Marruecos, la Obra Material, Tetuan, 1948, p. 159.*

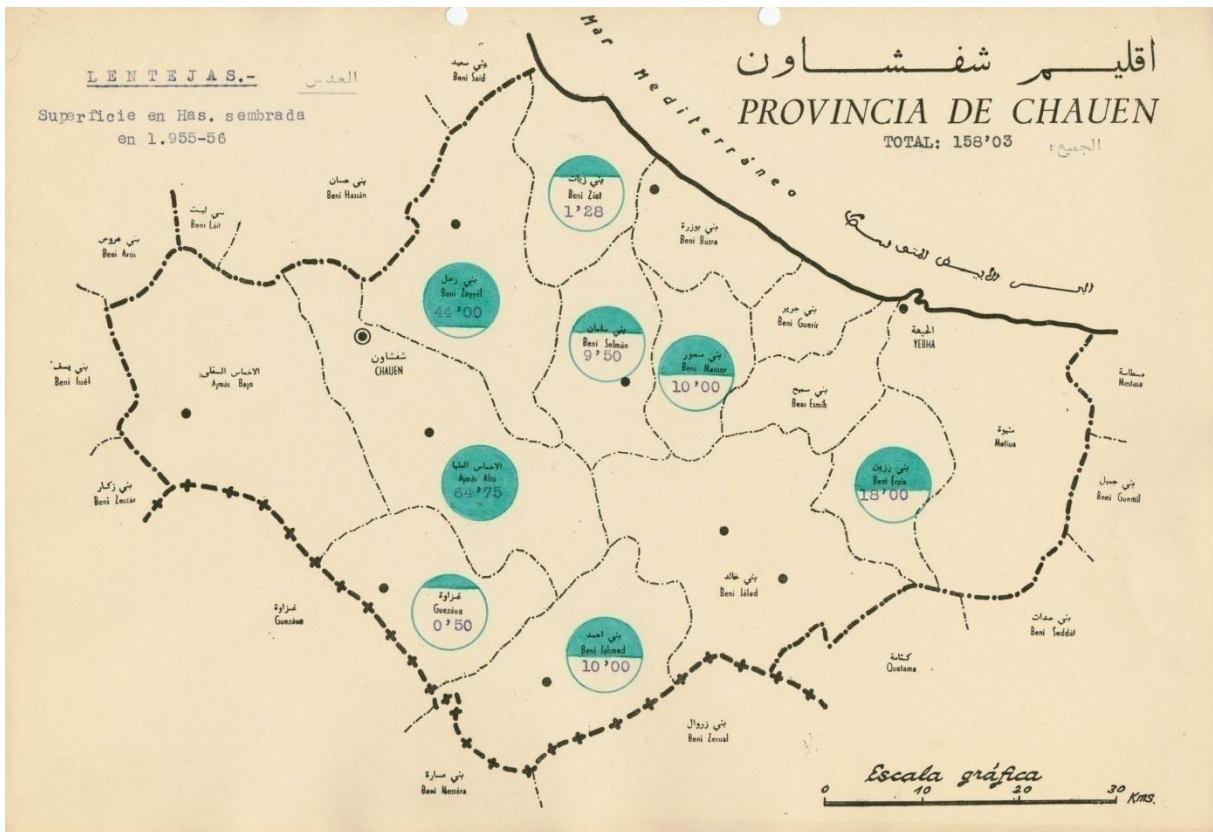
⁷ - عبد السلام الميموني، إعداد الموارد الجبلية بمنطقة غمارة...، مرجع سابق، ص. 144.

⁸ - *Alta Comisaria de Espana en Marruecos, op. cit., p. 159*

إنتاج الفول بغمارة



إنتاج العدس بغمارة



أما القطني المازوزية فنذكر منها ما يلي:

الحمص (Garbanzos): لا يزرع إلا في الأرض البيضاء ولا يعطى شيئاً في الأراضي الرملية أو الباردة، والأنواع المزروعة منه كالأسود الرقيق والأحمر الرقيق، ثم الحمص الغليظ، ورغم انتشار زراعته فقل ما ينجو من "ضباب ماي" الذي يقضي عليه نهائياً، ومن مزاياه أنه يعطي الخصوبة للمزروع الذي يأتي بعده، فهو مهم بالنسبة للدورة الزراعية الثنائية. ومن أبرز القبائل الغمارية إنتاجاً للحمص نجد قبيلة بني زجل بـ 197.50 قنطار وقبيلة متيوة بـ 11.60 قنطار وبني زيات بـ 0.16 قنطار، بينما وصل الإنتاج بقبيلة الأخماس العليا بـ 1104 قنطار¹.

اللوبياء (Alubias): وهي من الزراعة المسقية المازوزية، وزراعتها تباشر في الأراضي السقوية المجاورة للأودية الممتدة من وادي أورينكا إلى وادي لاو، كما تزرع في الأراضي المنخفضة الرطبة، تتطلب سقياً منتظماً والنوع المزروع هي اللوبيا الحمراء والبيضاء وتعطي إنتاجاً لا بأس به، ولاسيما إذا توفر الغبار والماء، وأغلبية المنتج يصدر إلى المدن القريبة². ومن أبرز القبائل الغمارية إنتاجاً لهذا المنتج نجد قبيلة بني زجل بـ 240 قنطار وقبيلة بني زيات بـ 164.32 قنطار، ثم قبيلة الأخماس العليا بـ 2044 قنطار³.

الذرة (Sorgo) والتركية (Maiz): اهتمت ساكنة المنطقة المدروسة بزراعة الذرة، إلا أن الظروف المناخية كانت أحياناً تعرقل عملية الحرث، ذلك أن هذا النوع من المزروعات يعتمد على السقي والأجواء الصافية، وقد أشار الزباني إلى أنه "... تجب زكاة العشر على الذرة المزروعة في الجبل على السواقي"⁴، ومن أبرز القبائل الغمارية إنتاجاً لهذين المنتجين نجد: الذرة: قبيلة بين زجل بـ 6950 قنطار وقبيلة بني زيات بـ 1351.24 قنطار وقبيلة متيوة بـ 687.50 قنطار، ثم قبيلة الأخماس العليا بـ 5630 قنطار. التركية: قبيلة بني زجل بـ 5203 قنطار وقبيلة بني زيات بـ 2990.54 قنطار وقبيلة متيوة بـ 2732 قنطار⁵.

يتضح أن إنتاج القطني المازوزية يختلف من قبيلة لأخرى وذلك راجع لاختلاف المساحات المزروعة (انظر الخرائط):

¹ - A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

² - العلمي، المصدر السابق، ص. 44.

A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/8.

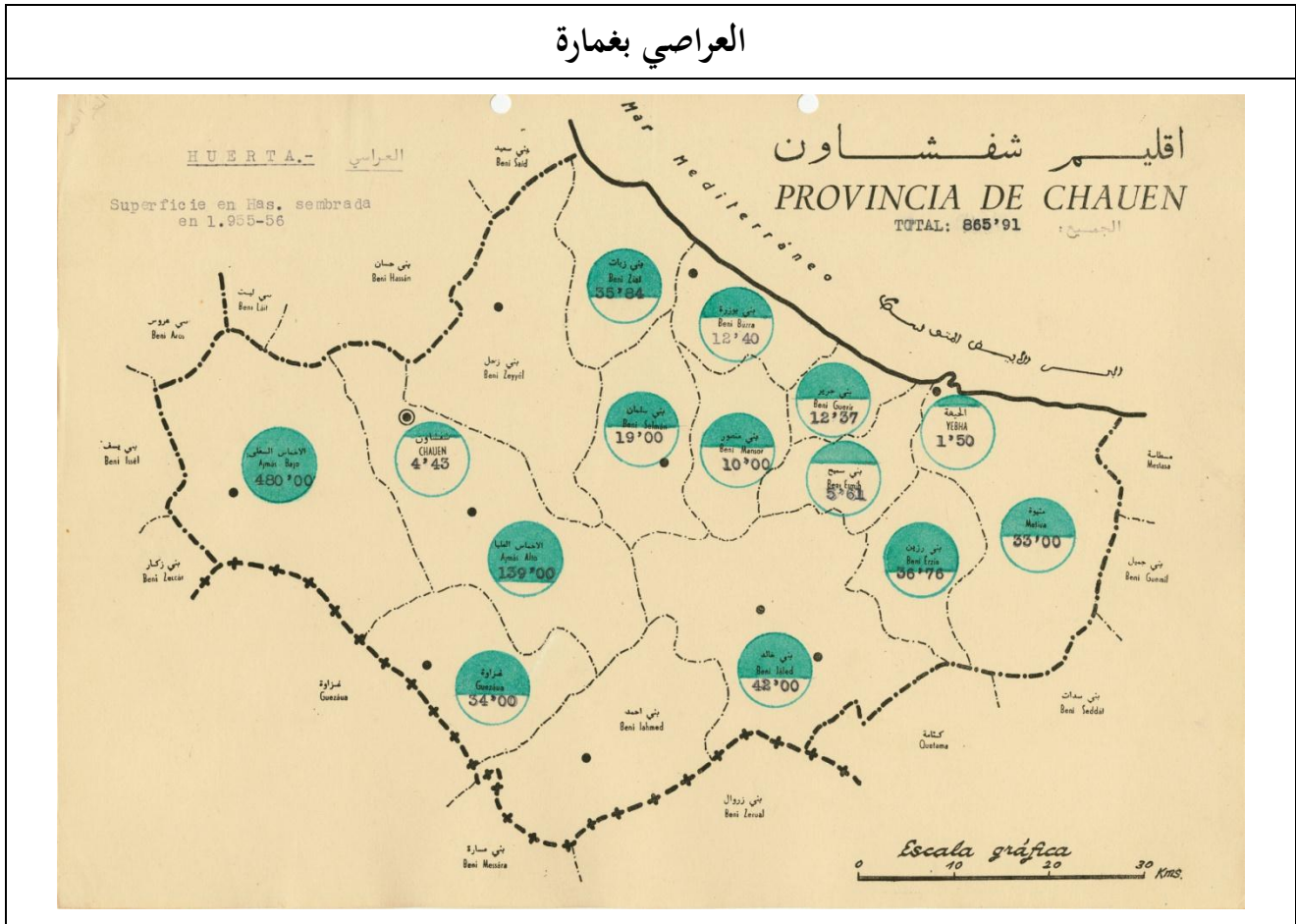
³ - A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

⁴ - الزباني، المصدر السابق، ص. 57.

⁵ - A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

2-المنتوجات الشجرية بقبائل غمارة.

أما الجنات والبساتين فهي كثيرة ومتعددة، وقد أشارت مصادر عديدة إلى ذلك، منها العرصات الواقعة داخل مدينة شفشاون، ومنها الواقعة قرب الأسوار ثم منها الواقعة بمختلف قبائل غمارة، التي يلاحظ أنها اتسمت بخاصية التقارب والتعدد، حيث إنك داخل الأسرة الواحدة، تكاد تجد لكل رب أسرة متفرعة من الأسرة الأم عرصة خاصة به، حيث وصلت المساحة العامة للغراسي الموجودة في قبائل غمارة حوالي 865.91 هكتار خلال فترة الحماية الإسبانية، حيث وصلت 42 هكتار في قبيلة بني خالد و35.84 هكتار في بني زيات و36.76 في قبيلة بني رزين وأقلها سجلت في بني سميح ب 5.61 هكتار¹ (انظر الخريطة):



بالإضافة إلى تلك المنتوجات التي كانت تتوفر عليها المنطقة، هناك منتوجات أخرى احتلت الصدارة مقارنة مع الأولى، وهو الكروم الذي يعود أصله إلى ما قبل التواجد الفينيقي، وقد عرفت تراجعاً في القرن 17م بسبب تحريم الخمر، وتوسعت زراعته بعد 1920 عند إحداث مصانع للخمر بتازة وفاس ومكناس²، ويعزى هذا الانتشار إلى نوعية تضاريس المنطقة بما فيها تربتها ووجود السواقي. فنسبة مردود الكروم أكثر ارتفاعاً من نسبة

¹ - A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

² - Gharbaoui (A), *La Terre et L'homme dans la Péninsule Tangitane ...*, op. cit., p. 46.

الحبوب، خصوصا وأن تكاليف الإنتاج قليلة، زيادة على أنها لا تحتاج إلى نفس الكمية من الأمطار وتقع بتربة رملية. وفي هذا السياق يصف صاحب "الاستبصار" تضاريس هذه المنطقة فيقول: "في هذا الجبل (غمارة) بسائط كثيرة لا تحصى للحرث ... وهو الآن كثير العمارة تشقه الأنهار والمياه السائحة، ففيه غياض وأودية ومنتزهات لا توجد في غيره من الأماكن وهو كثير الأعناب والفواكه ..."¹. وقد أكدت جل المصادر التي أتت على ذكر قبائل غمارة، أن هذه الأخيرة وإن افتقرت إلى المنتوجات الأساسية والأولية، فقد بحثت باستمرار عن وسائل أخرى لاستغلال منجمها من الكروم في الأسواق المجاورة، وتعكس البادية الغمارية صورة واضحة لانتشار منتج الكروم:

- قبيلة بني زيات: "إن أهم موارد بني زيات تتمثل في أشرطة مملوءة بأشجار العنب والتين"².

- قبيلة بني رزين: "... فالكروم البرية تنمو بقوة فثمر بإعطائها بذور العنب اللذيذ، حيث يتميز عنبها بجودة عالية، شبيهة بكروم القبائل الكبرى"³. فهذا المنتج كانت له أسواق واسعة النطاق، ليس محليا فحسب، ولكن أسواقا خارجية، ويتضح ذلك من خلال هذه النازلة التي تشير إلى اتساع نطاق المبادلات التجارية بين ساكنة المنطقة وباقي التجار، وخصوصا العنصرين اليهودي والمسيحي، جاء فيها: "سئل أبو القاسم بن خجو ألا يجوز بيع العنب لمن يعصره خمرا كاليهودي والنصراني وغيرهما من الناس دأبه بيعه من اليهود حتى إنه يعطيهم وعاءه الذي يعصره فيه أعني المردود ويأتون إليها ويغسلونها من أثره وحينئذ يعصرون فيها ويأخذون بأيديهم في جمع العنب ورفع ... ما يحتاجون إلى ذلك ويعصرونه ويحملونه لكي يصنعوا خمرا"⁴.

لقد وصل عدد أشجار العنب (الدالية) خلال فترة الحماية الإسبانية إلى حوالي 3055056 دالية، حيث تمثل 19% من حجم المنتوجات الشجرية في بلاد غمارة و40% من حجم إنتاج هذه المادة في منطقة الحماية الإسبانية⁵، حيث توزعت على القبائل الغمارية التالية: قبيلة بني خالد 773487 دالية وبني رزين 132065 دالية وبني زجل 128916 دالية وبني سلمان 156424 دالية⁶ (انظر الخريطة). لقد حظي إنتاج الكروم باهتمام خاص من لدن سلطات الحماية الإسبانية، ولا أدل على ذلك التطور الذي شهده هذا المنتج كما يبينه المبيان التالي:

¹ - مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص ص. 190-191.

² - مولييراس، م. س، الجزء الثاني، ص. 214.

³ - مولييراس، م. س، الجزء الثاني، ص. 241.

⁴ - العلمي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص. 81.

⁵ - Alta Comisaria de Espana en Marruecos..., op. cit., p. 161.

⁶ - A.D.C.P, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

من الأمور التي أثارت انتباهنا أنه طرحت العديد من التساؤلات والاستفسارات حول الضريبة التي فرضت على أصحاب هذا المنتج، نذكر من بينها هذه النازلة " سئل عن هذه المسألة الشيخ الفقيه ابن عبد الكريم الأغصاوي رحمه الله، كما أشار إليه في الجواب، قيل: ونص السؤال الموجه إليه: أهل بلد لهم عنب لا يتزرب وإنما يعصرونه ويصيرونه (ربا) فطلبوا الزكاة على الوجه الشرعي، غير أن الإمام أيده الله حملهم في صفة خرص على قول ابن عبد الحكم وهو أن يعتبر فيه النصاب عنباً على حاله، كما في علمكم حفظكم الله فإذا صح الخرص فيه على هذا القول فما الواجب المخرج منه؟ هل العشر من عينه عنباً أو قسمة العشر على ما يسوى في كل موضع من البلد المذكور، فإن قلت إن الواجب فيه قيمة العشر فإن قيمة العنب لا تعرف بهذا البلد لكونه لا يباع فيه، وإنما تصرف قيمة ما يخرج منه عصيراً أو بعد طبخه ربا إذ العصير والرب هو الذي يباع عندهم. فهل يجوز إخراج قيمة العصير الخارج من العشر أو قيمة العشر عنباً على سوي في أقرب المواضع إلى البلد المذكور؟ بين لنا بيانا تاماً. فأجاب: إن كان الأمر كما وصفتم أن تخرج زكاة العنب ربا إذ هو أحظى للمساكين. وهذا مقتضى ما قاله الشيخ أبو الوليد ابن رشد رحمه الله"¹.

ونتيجة لذلك، وقع الخلاف بين الزكاة والخرص² لكون هذا المنتج هو المصدر الأساسي الذي كانت تتوخى منه ساكنة المنطقة تحقيق أرباح تعويضها ما تفتقر إليه أسواقها، وخصوصاً الحبوب نظراً لتنوع تضاريس المنطقة وقساوة الظروف الطبيعية. ومراعاة للظروف التاريخية والاقتصادية فقد ارتأى نظر الفقهاء إخراج الزكاة بدلا من الخرص لسد حاجات الفئات المحرومة والمعوزة. وقد اهتم الفلاح الغماري بغراسة الأشجار المثمرة خاصة بالمناطق التي تعرف وجود الماء، حيث تنمو الكروم البرية بشكل وفير منتجة أنواعاً من العنب³.

كما كانت تنتشر بهذه الأراضي المسقية أيضاً أشجار التين، وأشجار الزيتون والتوت واللوز والجوز⁴، بالإضافة إلى ذلك كانت تغرس الأراضي القاحلة بالتين البري أو الصبار، الذي كان يطلق عليه ساكنة المنطقة "كرموص النصارى"، ونظراً لكثرتهم كان يغطي مساحات بكتلته الداكنة⁵. ومن أبرز المنتوجات الشجرية في بلاد غمارة خلال الفترة المدروسة نستعرضها في الجدول التالي:

¹ - رجاء الجبوسي، شفشاون وباديتها...، م. س، ص. 260.

² - الخرص لغة، الحزر وهو تقدير بظن (لسان العرب لابن منظور مادة: خرص). أما اصطلاحاً فهو حزر ما على النخل من الرطب تمراً، فيقدر ما عليه رطباً ويقدر ما ينقص لو صار تمراً، ثم يعتد بما بقي بعد النقص وكذلك في العنب (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 105/7). والحكمة من خرص الثمار:

- احتياطا للفقراء بضبط حقهم على المالك وأمن الخيانة من رب المال.

- رفقا بأرباب الثمار بتعجيل الانتفاع بثمرتها قبل الجفاف للحاجة إلى أكلها والتصرف فيها رطبة.

- لتيسر حزرها لشدة ظهورها (شرح السنة للبغوي 6/38 وشرح مختصر خليل للخرشي 2/174).

³ - مولييراس، م. س، الجزء الثاني، ص. 241.

⁴ - Rodriguez Gomez, Maria Dolores, *La Influencia de Leon el Africano...*, op. cit., p. 361-362.

⁵ - أوجست مولييراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، م. س، ص 72.

أهم المنتوجات الشجرية في بلاد غمارة خلال فترة الحماية¹

المنتوجات الشجرية	عدد الأشجار	توزيعها الجغرافي
الزيتون	171883	بني خالد (13380) بني رزين (1480) بني سلمان (1471) بني زجل (1319) متبوة (740) بني منصور (589) بني احمد (59491)
التين	409153	بني خالد (50941) بني زيات (45233) بني سلمان (31253) بني بوزرة (29117) بني زجل (18221) بني منصور (18171) بني حرير (10387)
اللوز	29114	بني رزين (8507) متبوة (14784) بني سميح (4613) بني خالد (723) بني بوزرة (126) بني سلمان (161)
اللثيين والمنضلين	5657	بني خالد (782) بني زيات (314) بني بوزرة (956) بني سلمان (254) بني زجل (149) متبوة (89) بني رزين (72) الأخماس العليا (1208)
البرقوق	5381	بني خالد (358) بني سلمان (444) بني رزين (143) بني منصور (125) بني حرير (88) بني سميح (49) بني زجل (43) الأخماس العليا (3471)
حب الملوك	3526	بني خالد (468) بني سلمان (268) بني رزين (109) بني زجل (149)
الرمان	3049	بني خالد (409) بني سلمان (315) بني بوزرة (87) بني زجل (79) بني حرير (20) بني منصور (22) الأخماس العليا (1356)
الكرز	2119	بني خالد (379) بني زجل (536) بني سلمان (157) متبوة (109) بني منصور (79) بني سميح (41) بني بوزرة (24)
المشماش	1801	بني خالد (329) بني سلمان (412) بني زجل (117) بني منصور (69) بني رزين (63) متبوة (84) بني سميح (133)
الإحاص	1694	بني سلمان (163) بني زيات (72) بني زجل (49) بني خالد (84) الأخماس العليا (1024)
اسفرجال	1204	بني خالد (132) بني سلمان (68) بني زجل (37) بني زيات (31) الأخماس العليا (562)
التفاح	761	بني سلمان (99) بني خالد (105) الأخماس العليا (351) بني زجل (28) بني بوزرة (27)
ليمون	573	بني خالد (61) بني بوزرة (19) بني حرير (4) بني احمد (71) الأخماس العليا (221)
الخروب	478	بني زجل (119) بني سميح (103) بني زيات (10) الأخماس العليا (100)
الخوخ	477	بني خالد (97) بني سميح (74) متبوة (39) بني زجل (28) بني سلمان (22) الأخماس العليا (125)
المزاح	35	بني زجل (6) شفشاون (25) الأخماس السفلى (4)

¹ - ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11 Carpeta A/10-Alta Comisaria de Espana en Marruecos...op.cit, p.158- Intervencion Territorial de Gomara...op.cit., pp. 8/19 /20/30.

نستنتج أن أهم المنتوجات الشجرية انتشارا في بلاد غمارة التين بـ 409153 شجرة، حيث تمثل 55% من حجم المنتوجات الشجرية في بلاد غمارة و20% من حجم إنتاج هذه المادة في منطقة الحماية الإسبانية، ثم الزيتون بـ 171883 شجرة، حيث تمثل 22% من حجم المنتوجات الشجرية في بلاد غمارة و37% في منطقة الحماية الإسبانية، وأخيرا اللوز بـ 29114 شجرة، الذي كان يمثل 2% في منطقة غمارة و 15% في منطقة الحماية الإسبانية¹، كما أثار انتباهنا إلى أن قبيلة بني خالد الغمارية استأثرت بالحصة الكبرى لهذه المنتوجات الشجرية، وذلك راجع إلى المساحة الكبيرة لهذه القبيلة من جهة وبعدها عن البحر وطبيعة تضاريسها ومناخها من جهة ثانية.

وعموما، إذا كانت الزراعات الشجرية من خصوصيات الفلاحة المتوسطة والريفية (جبال الريف) بحكم أنها شكلت منذ القدم عاملا لضمان توازن الموارد الفلاحية، فإن ما يميز المنطقة هو الضعف والتراجع في المغروسات. كما توفرت المنطقة على ثروة غابوية هامة، شكلت غطاء غابويا متنوعا ساهم في الحفاظ على التوازن البيئي، وتلبية حاجات ساكنة المنطقة، فقريبا من مدينة شفشاون توجد أشجار الفلين التي توفر كميات كبيرة من الخشب الجيد الذي يصدر منه أحيانا القشرة الداخلية التي تشكل مادة دابغة أساسية للغزل². ويجب التمييز بين القبائل القريبة من السواحل والبعيدة عنها، حيث إن الأولى كانت تبحث عن أسواق خارجية بهذه الموارد الهامة خصوصا خلال هذه الفترة، فمثلا ببني رزين ذكر مولييراس أنه كان في خليج (ميناء) الجبهة الصغير، تشحن القطع الخشبية الكبيرة والصغيرة الحجم من أشجار الأرز والصنوبر والصفصاف، في اتجاه تطوان، مضيفا أنه في الجبال الجنوبية لقبيلة بني جريبر المغطاة بأشجار ضخمة تقطع وتستغل عشوائيا بطريقة سيئة، فقط لإشباع الرغبة الوحيدة وهي الحصول على الربح³، حيث تبعث إلى ميناء تاغيسته وتحمل الروافد الضخمة بعد ذلك على متن قوارب شراعية في اتجاه تطوان. ويقول مولييراس في هذا الصدد: "إن الغابات المغربية هي ملك عمومي ولا تخضع لأي تشريع خاص ولا لأي تدبير إداري. ويمكن لكل واحد أن يقطع أو يحرق أو يقتلع الأشجار دون أن يتابع من أي جهة، فما نسميه عندنا بالجرائم الغابوية لا وجود لها هناك، لأن الجميع يتمتع بحرية مطلقة بهذا الخصوص"⁴.

هذه الصورة توضح بجلاء النهب الذي تعرض له المجال الغابوي الغماري خلال الفترة المدروسة والذي سيزداد مع فترة الحماية الإسبانية. أما بالنسبة للثانية، فإنها اكتفت باعتبار الغطاء الغابوي كمصدر من مصادر العيش، كما هو الشأن مثلا في بني زجل، حيث شكلت أشجار البلوط والأرز والجوز تغذية هامة للسكان، إذ

¹ - Alta Comisaria de España en Marruecos..., op. cit., p. 161.

² - XAUEN, *Hispano Africano*, Num 2022, ANO 5, Agosto, Octubre 1926, p. 38.

³ - مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 233.

⁴ - مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 222.

يقول صاحب المغرب المجهول: "لكن ازفون بني سلمان ليست مركزا ثقافيا مهما، فهي قرية منعزلة وسط الجبال، يتسم أهلها بالفظاظة والقسوة ويقتاتون مما يجدونه بالغابات المجاورة. وعندما حل الجوال بالمسجد، قدم له البلوط والتوت الوحشي والجوز واللوز. وفي الغد كان حظه من نفس الأطعمة، فقرر مغادرة القرية إلى مكان آخر..."¹.

3-المنتوجات المخدرة بقبائل غمارة.

ومن المنتوجات التي كانت المنطقة تختص بها ما ذكره صاحب "المغرب المجهول" حين قال: "وفضلا عن تسممهم بالبلايدور²، فإن أهالي بني زجل يدخنون الكيف و"طابة" بكثرة، وهم يخصصون لهاتين العشبتيين بقعا شاسعة في حقولهم، إلى جانب البصل والفلفل والحمص، ويعتنون بها بشكل كبير ويبدلون كل جهدهم لحمايتها من الخنازير"³. ويضيف موليراس عن قبيلة بني خالد: "وتختفي القرى داخل الخضرة وتحت ظلال الأشجار الضخمة، وعلى جنباتها تمتد حقول الكيف و"طابة"⁴.

يعود الكيف إلى 2000 ق.م، إذ استعمله الصينيون في التخدير، ثم انتقل إلى الهند فسوريا والعراق ومصر وشمال إفريقيا، ودخل المغرب في عهد المرينيين (القرن 7 م) وفي 1890م وافق السلطان الحسن الأول على السماح بزراعته بكتامة وبني خالد⁵، وفي 1932م تم منع زراعته بجنوب الريف بمقتضى ظهير سلطاني، ليبقى منتشرا في شمال المغرب بما فيه منطقتنا المدروسة إلى ما بعد الاستقلال⁶، حيث وجد في منطقتنا البيئة الملائمة، لأنه لا يتطلب مياهها وفيرة، وتربة خصبة، إذ يتلاءم مع المناخ الجبلي من حيث التساقطات والجفاف، ويزرع في فبراير أو مارس، ويتم الحصاد في يوليو أو غشت، إلا أن عملية البذر والزرع تتأخر في المناطق العالية بفعل البرودة.

لجأت الساكنة الغمارية إلى التعاطي لزراعة الكيف وتهريبه نحو المنطقة الفرنسية لتغطية العجز والخصاص المستمر الذي ميز نمط عيشهم، ومواجهة الظروف الصعبة، وهو نشاط تم أحيانا بتشجيع من السلطات الاستعمارية الإسبانية بعد عجزها عن مواجهة تفاقم أوضاع الأزمة والجفاف داخل القبائل الغمارية، ذلك أن تلك الزراعة كان مرخصا لممارستها في بعض قبائل غمارة والريف فقط، في حدود 1% من المساحة المزروعة، على

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 219.

² - البلايدور: (Atrope Belladone) نبتة سامة لا تثبت في أي منطقة أخرى من مناطق المغرب، كانت تستعمل لتقوية الذاكرة والعقل من خلال إطعامها للدجاج أو قد يصل الأمر ببعض الطلبة إلى التهام ثلاث أو أربع حبات من نبتة البلايدور مع الشاي الساخن، وقد كانت هذه النبتة تصل إلى وهران الجزائرية حسب موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، ص. 246.

³ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 246.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 250.

⁵ - EL Dahan (M), *Chaouen et sa Région*..., op. cit., p. 258.

⁶ - EL Dahan (M), *Chaouen et sa Région*..., op. cit., p. 259.

أساس تسليم منتوجهم من الكيف والطابة لشركة Monopolio de Tabacos de Marruecos التي كانت تحتكر وحدها ذلك الإنتاج وتحدد ثمنه وكمياته.

إلا أن الإنتاج الحقيقي كان يتجاوز ما كان مسموحا به¹، فيقوم السكان بتهرب الفائض نحو المنطقة الفرنسية لأن ثمن الكيلو الواحد من الكيف كان يساوي هناك ما بين 200 و250 فرنك، وهو ثمن اعلى بكثير من الثمن الذي كانت تدفعه لهم شركة التبغ بالمنطقة والذي كان لا يتجاوز 3 بسيطات في أحسن الأحوال². وحسب التقارير الإسبانية فإن ذلك النشاط سمح بسد الحاجيات من المواد الغذائية الأساسية، ليس فقط للقبائل الغمارية التي كانت تتعاطى لتلك الزراعة، بل وحتى بالنسبة للعديد من القبائل الغمارية الأخرى التي استفادت مما كانت توفره عمليات تهريب الكيف من رواج، لأن كمية ألف كلغ من الكيف المهربة نحو المنطقة الفرنسية كانت تضمن استيراد ما يقابل 20.000 فرنك من السلع التي كانت تلك القبائل في حاجة ماسة إليها، كالحبوب والسكر والشمع³.

ويتبين من خلال تلك التقارير كذلك، أن ذلك النشاط كان يزيد اتساعا خلال فترات الأزمات التي عرفتھا المنطقة المدروسة، مما شجع على انتشار تلك الزراعة وتعاطي تهريب منتجاتها، كما أن السلطات كانت تتعامل بحذر كبير مع هذه الظاهرة، وكانت تعتبر أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للقبائل الغمارية، والتي تحول دون تمكنهم من ضمان قوتهم اليومي، وانعدام الإمكانيات والموارد، وفقر المنطقة، كل ذلك يحتم عليها غض الطرف عن تلك الزراعة وعن التهريب المرتبط بها ضمانا للاستقرار والهدوء في منطقة جد صعبة. وتعتبر قبيلة بني خالد الغمارية من أبرز المنتجين للكيف والطابة في المنطقة المدروسة، حيث وصلت المساحة المزروعة للكيف حوالي 31 هكتارا والطابة 22 هكتارا (انظر الخريطةين):

¹ - خلال سنة 1935 وصل إنتاج تلك القبائل إلى 100 ألف كلغ و35 ألف كلغ من التبغ. وما كانت تدفع تلك القبائل للشركة لم يكن يتجاوز 20 ألف كلغ من كل صنف، حيث يتم تهريب كل ذلك الفائض نحو المنطقة الفرنسية. أنظر:

Archivo General del Protectorado de España en Marruecos Biblioteca General de Tetuan, Memoria Sobre el kif y Tabaco en Hoja, Delegación de Asuntos Indígenas Tetuan, Noviembre 1941, exp, n 14, Carpeta 1803.

² - Ibid.

³ - Ibid.

لقد طرحت هذه الزراعة والمتاجرة فيها العديد من التساؤلات والاستفسارات، وهكذا نجد السلطان المولى الحسن الأول يستصدر فتوى من الفقهاء بتحريم الأعشاب المخدرة والمتاجرة فيها بتاريخ 23 محرم 1304هـ/1884م¹. فقد أكد مجموعة من العلماء (جعفر ابن إدريس الكتاني²، وعبد الهادي بن أحمد الصقلي³، وأبي العباس أحمد بن محمد الخياط الزكاري⁴) في رسائل أجوبتهم على حرمة كل هذه الأعشاب بمختلف أنواعها وهي "الأفيون" والتي يسمونها بـ "لبن الخشخاش"، و"الحشيشة" والتي يسمونها كذلك بـ "الغنب الهندي" و"الحيدرية" و"القلندية"، إضافة إلى عشبة الدخان والتي تسمى بـ "التبغ" و"اسكروا"⁵، وكذلك عشبة "طابة" والتي وردت بأسماء وكتابات مختلفة، وقد استدلوها على تحريمها بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وبمجموعة من الأبيات الشعرية وأقوال كثير من علماء المشرق (علي الأجهوري، سالم الشنهوري، إبراهيم اللقاني) إضافة إلى عدد لا يحصى من علماء المغرب وفاس على الخصوص (ابن النعيم الغساني، أبي عبد الله محمد بن سودة، أبي عبد الله الشريف البوعناني)⁶، وكل هذه الاستشهادات لكي يوضحوا أضرار هذه الأعشاب دينيا ودينيويا أي بدنيا، أما الأولى فيبطلها للصلاة والصيام وأنها تنسي عند الموت النطق بالشهادتين...، أما الثانية وهي التي لا تعد ولا تحصى من قبيل التفتير والتخدير للجسم والعقل، وتفتيت الأسنان وتسويدها، وتضييق النفس، وتنتين رائحة الفم...، وأنها تجعل الذكي أبله والأسد حملا، وكل هذا فيما يتعلق باستعمالها، كما حرم هؤلاء العلماء التجارة بها لأن فيها إغارة على الإثم والعدوان⁷. إذ يقول جعفر بن إدريس الكتاني في مقدمة رده على السلطان: "بسم الله الرحمن الرحيم... هذا جواب العلماء للسلطان مولانا

¹ - نص الرسالة السلطانية بعد الافتتاح "أحبنا فقهاء فاس الأجلة المرضيين، وعلماءها المرشدين، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فطلما قدمنا رجلا وأخرنا أخرى في تسريح الصاكة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها، وكان تسريحها من أهم الأمور لدينا وأكد من تسريح غيرها كالأبواب، لما نجد في نفسنا من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح..." (أنظر الناصري، الاستقصا، ج9، م. س، ص. 193).

² - هو أبو الفضل جعفر بن إدريس الحسيني الإدريسي الكتاني الفاسي الكتاني المالكي ولد سنة 1250 هجرية/1834م وهو العلامة القدوة الفهامة، العمدة المحدث النظار الذي لا يجاري بعلمه وفهمه في كل مضمار، بيته بفاس معروف بالصلاح والعلم والعدالة والسؤدد، توفي جعفر بن إدريس الكتاني، عشية يوم الجمعة شعبان من 1323 هجرية/1905م ودفن من الغد داخل قبة الشيخ أبي ميمونة دارس بن إسماعيل، خارج باب الفتوح من مدينة فاس (محمد بن محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الجزء الأول، المطبعة السلفية ومكنتها، القاهرة، 1349 هجرية، ص. 433).

³ - عبد الهادي بن أحمد الصقلي الحسيني، قاضي الجماعة بفاس، كان فقيها علامة محدثا مطلعاً عارفا بالحديث والسير، وكانت له وجهة عظيمة عند الناس قبل ولايته القضاء وبعدها، وكان هو القائم بزواوية أسلافه يجمع عليه الفقهاء وحصلت له حظوة تامة عند توليته عند السلطان الحسن الأول، بحيث يجاب لكل ما طلب (محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج8، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص. 2795).

⁴ - أبو العباس أحمد بن عمر بن عبد الهادي العربي بن محمد المعروف بابن الخياط الفاسي، ولد في 12 شعبان 1252 هجرية/1836م وهو من الشرفاء الذين تواتر شرفهم عند أهل فاس، ينظرون إليه نظرة التعظيم والإجلال، أستاذ الفقهاء والمحدثين وحامل لواء المفسرين والخفقيين والصوفية، إمام في الأصولين والفقهاء والفرائض، متبحرا في النوازل الفقهية، وقد قال في وصفه بعض علماء شنتيظ أيام السلطان عبد الحفيظ حين سئل عن صاحب الترجمة: "رجل خدم القواعد فأقننها" (محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، ج8، م. س، ص. 2941).

⁵ - عبد الرحيم الدشيري، مجموع صاكة الأعشاب المفسدة...، م. س، ص. 61.

⁶ - عبد الرحيم الدشيري، مجموع صاكة الأعشاب المفسدة...، م. س، ص. 68.

⁷ - أنظر جواب جعفر بن إدريس الكتاني في الدشيري، مجموع صاكة الأعشاب المفسدة...، م. س، ص. 61.

الحسن الأول أيده الله مما استشارهم من تسريح صاكة الأعشاب المرقدات المفسدات وغيره ... والملخص هذا كله، وهو تسريح صاكة هذه الأعشاب، مع حرقها حيث كانت وعثر عليها من غير ارتياب، وذلك في جميع الرحاب والأمصار وسائر البلدان والأقطار، حتى لا يتوصل أحد من هؤلاء الفسقة إليها ... وأن من اطلع عليه منهم وهو يستعملها أو يزرعها أو يبيع فيها أو يشتري فإنه تحل به العقوبة الشديدة والنكال، ثم من عثر عليه بعد ذلك وهي في يده، عزز بحسب الاجتهاد وبما يليق من حال أمثاله من أهل محلته وبلده، وبهذا تنفك مواد الفساد، ويعود صلاح الدين والعباد"¹.

وعموما ارتبطت كمية الإنتاج الزراعي بطبيعة التساقطات التي تتحكم في صبيب الأنهار، وفي الزراعة البورية. "فإذا جادت السماء تمكن الناس من زراعة الأرض في اطمئنان وجاءت الصابة طيبة في مقدارها وأثمانها، أما إذا حدث الجفاف فمعنى هذا ضعف المحصول أو بطلانه، وارتفاع أسعار الغلال"². وظاهرة الجفاف شهدتها منطقة غمارة أكثر من سبع مرات في الفترة التي يتناولها البحث، وبل يتوالى الجفاف والجراد في سنوات 1896-1897-1898 وبلغ الجوع بالناس مبلغه³، ولذلك فإن كمية الإنتاج في المنطقة لم تكن تحقق الفائض الممكن تصديره، بل من الصعب أن تضمن الأمن الغذائي لسكانها، فكانت غمارة بالخصوص إلى جانب جباله والريف والمغرب الشرقي من أشد بؤر الجوع في المغرب⁴، الشيء الذي يتنافى مع معطيات مولييراس وبعض الأرشيفات الإسبانية التي تتجلى المبالغة فيها لأهداف استعمارية. يتبين أن الإنتاج الزراعي في بلاد غمارة يتميز بعدة خصائص تشكل مؤشرا للدلالة على مدى تخلف البنيات الفلاحية وتدهور الحالة المعيشية للسكان، مع تدني الإنتاج والمردودية وسيادة الأنماط التقليدية في الاستغلال، كما أن الزراعة تندرج في حلقة مفرغة يصعب الخروج منها، ذلك أن رفع الإنتاج يتطلب تطوير الأساليب والتقنيات التي رغم دخولها في عهد الاحتلال الإسباني، بقيت بلاد غمارة متأخرة في الإنتاج الزراعي مقارنة مع لكوس أو الكرت (انظر الخريطة):

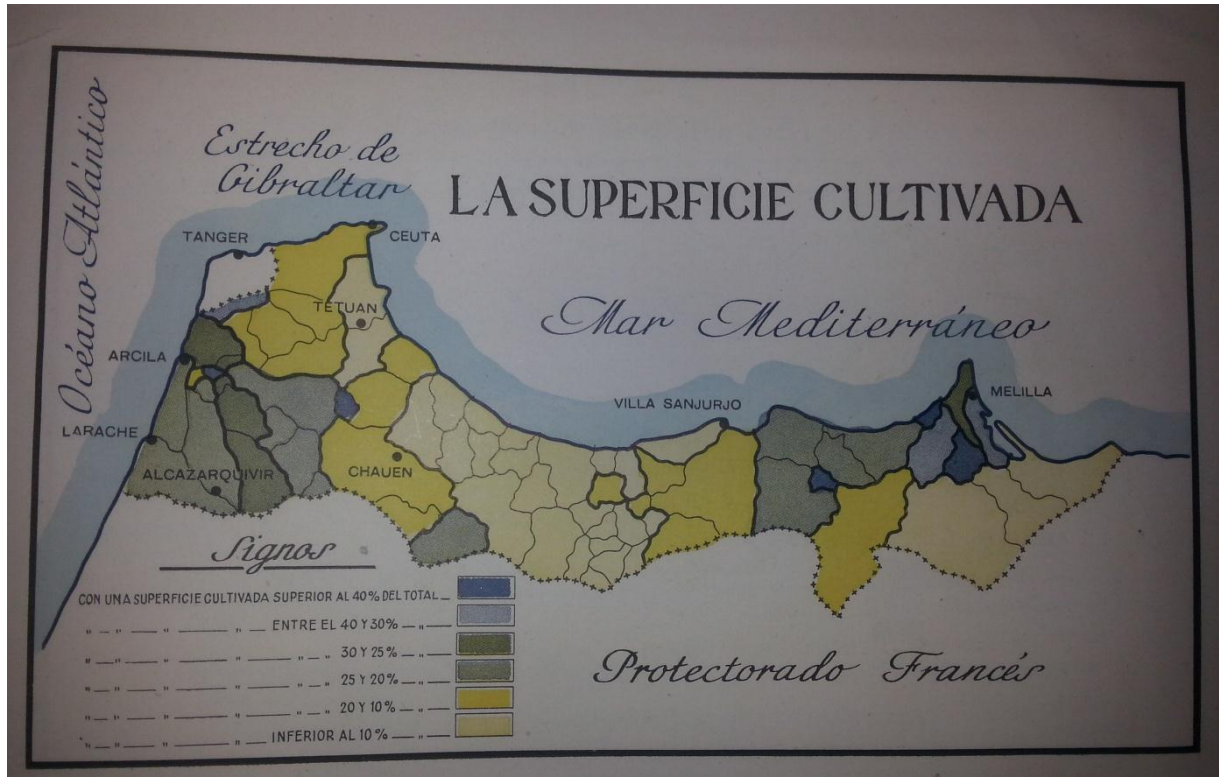
¹ - الدشيري، مجموع صاكة الأعشاب المفسدة...، م. س، 61 - 68.

² - محمد الأمين البزاز، مرجع سابق، ص. 340.

³ - البزاز، مرجع سابق، ص. 342.

⁴ - البزاز، مرجع سابق، ص. 343.

المساحة المزروعة بمناطق الشمال



.Alta Comisaria de Espana en Marrurcos... , op. cit , p.165

4- الإنتاج الحيواني بقبائل غمارة:

أما بالنسبة للثروة الحيوانية فقد شكلت إلى جانب الزراعة أهم مورد اعتمد عليه الفلاح الغماري خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، ولا أظن أن أحدا يشك في قيمتهما المادية والمعنوية بالنسبة للفلاح الغماري باعتبارهما عاملين متكاملين، فقد كان الإنسان الغماري لكي يضمن قوته وقوت عياله، لا بد عليه أن يجمع بين الزراعة وتربية الماشية، بالإضافة إلى تربية الدواجن كالدجاج وغيرها، لذلك فتربية الماشية ارتبطت بالإنسان الغماري منذ القديم، ولا يزال، وهذا يعود بالأساس إلى طبيعة المنطقة، حيث اعتنى الفلاح الغماري بتربية الماشية مستفيدا من المجال الغابوي ووفرة الأعشاب بالمنطقة، إذ أحصت بعثة علمية إسبانية في منطقة غمارة وضواحي تطوان حوالي 400 عشبة¹، حيث لم يتطلب منه الأمر القيام بالترحال بحثا عن الكأ لماشيته، حيث كانت قبائل غمارة تتوفر على أراضي "المشاع" المخصصة للرعي، وعموما كان الغطاء النباتي يغطي نسبة مهمة من المجال الجغرافي لبلاد غمارة، فبشهادة السكان والدراسات المتخصصة كانت الغابة في غمارة تغطي أكثر من 50% من الأراضي حتى حدود منتصف القرن العشرين².

¹ - المريني العياشي، مرجع سابق، ص 13، نقلا عن مجلة الاتحاد العدد 16 بتاريخ 1928.

² - بوشتي الفلاح، "جباله جغرافيا"، معلمة المغرب، ج 9، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا، ص. 2906.

يطغى الماعز على الثروة الحيوانية، إذ كان يربي على نطاق واسع، مما يجعله قادرا على ضمان مداخيل هامة وتشكيل نشاط اقتصادي صلب، حيث كان يشكل خزينة للفلاح لمواجهة الأزمات والكوارث، إلا أن النوع الموجود بالمنطقة ينتمي إلى الفصيلة ذات الجسم النحيل والوزن الخفيف. وتشكل الماعز حوالي 70% من مجموع الماشية بالمنطقة بعدد يقدر بـ 214754 رأس وهو ما يجعله يساهم بـ 22.6% من مجموع الماعز في منطقة الحماية الإسبانية¹. وما يمكن استنتاجه هو العلاقة بين الارتفاع وحجم الماعز؛ إذ كلما ارتفعنا، ازداد حجم الماعز نظرا لتوفر الكلاً الطبيعي (الغابة) والتكيف مع المناطق الجبلية، كما تعددت أشكال الملكية وطرق الاستثمار، على شكل الملك الخصوصي: يهم 70%² من الماعز، إلا أن النسب تتفاوت من قبيلة لأخرى.

ويترتب عن انعدام أشكال أخرى للملك سيادة الشركة كطريقة للاستثمار، ونميز بين نوعين: الشركة بالرأسمال: تهم فقط 7% ويمكن أن تصل إلى 26%. والشركة بالنصف: تهم 3% من الماعز.

ومن الأنواع الأخرى للماشية: البغال التي تعد أساسية للعمل في الحقول وحمل الأثقال، حيث وصل عددها في المنطقة المدروسة سنة 1940م 4071 رأس، غير أن هذا الرقم سينخفض إلى 2856 رأس سنة 1955م، ونفس الانخفاض سنسجله عند الخيول الذي انتقل من 1134 رأس إلى 701 رأس³، ويعزى هذا التراجع أساسا إلى فترة الحرب العالمية الثانية 1939-1945م، وتشكل البغال الغمارية حوالي 18.4% من حجم البغال في منطقة الحماية الإسبانية، بينما الخيول لا تتجاوز 4%⁴، أما الحمير فكانت تشكل حوالي 7.9% من مجموع الحمير في منطقة الحماية الإسبانية، حيث تطور عددها من 3669 رأس 1940م إلى 4620 رأس سنة 1955م⁵؛ ثم نجد الأبقار التي تختلف وظائفها كحيوانات للجر والبعض الآخر كمصدر للحليب ووسيلة للادخار، إلا أنها تعاني من قلة المراعي وتقطع التضاريس، حيث كانت الأبقار تشكل خلال الفترة المدروسة حوالي 20.5% من مجموع الأبقار في منطقة الحماية الإسبانية، بعدد يصل إلى 62404 رأس⁶، بينما كانت الأغنام قليلة بالمنطقة حسب "مولييراس"، ولا نجد أثرا للخراف، لكن هناك بالمقابل أعداد كبيرة من الماعز والعجول⁷. كانت كل أسرة تخصص فردا منها للقيام برعيها، وغالبا ما كانت النساء تشارك في هذه المهمة⁸، إذ كان يتم تسمين الأبقار والجديان في البراري حيث الأعشاب الطويلة، وفي المناطق المشجرة والباردة من القبيلة

¹ - Alta Comisaria de Espana en Marrurcos ..., op. cit., p. 169.

² - البحث الميداني من خلال الرواية الشفوية في القرى الغمارية التالية: وسلاف، ترنس، امغوص، تازا وسعيد، اكلوان، امنصور.

³ - Alta Comisaria de Espana en Marrurcos ..., op. cit., p. 160.
ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

⁴ - Alta Comisaria de Espana en Marrurcos ..., op. cit., pp.160-159.

⁵ - Alta Comisaria de Espana en Marrurcos ..., op. cit., p. 160.
ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

⁶ - ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

⁷ - اوجست مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص.241.

⁸ - المصدر نفسه، ص. 241.

كانت تنتج هذه الأبقار جرات من الحليب، وتعمل ربات البيوت على استخدامها لإنتاج اللبن وكميات كبيرة من الزبدة¹. وكان الفلاح الغماري يستفيد من قطعان الماعز والأبقار ببيعها في الأسواق أو ذبحها لتوفير اللحم. أما الأغنام فقد تميزت بالقلّة حتى في فترة الحماية الإسبانية، لعدم تكيفها مع البيئة الجبلية، خاصة التضاريس المرتفعة، إذ نلاحظ علاقة عكسية مع الطبوغرافية، إذ كلما ازداد التضرس والوعورة إلا وقل حجم الأغنام حيث كانت بلاد غمارة تساهم بحوالي 8.5% من مجموع الأغنام في منطقة الحماية الإسبانية، بعدد يصل إلى 50128 رأس².

وتنعت الماشية في غمارة بأسماء محلية منها: الجذي (اطراد)-الثور (الفحل)-البقرة التي لم تلد (الضروبة)-الماعز الذي لم يلد (الميانة)-البقرة أو العجل (العرض)-البقرة التي لا تلد (خطايا)-الماعز ذو اللون الأبيض والأسود (البرقوعي).

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأسر الغمارية التي تملك قطيعا كبيرا من الماشية تستعين بفلاح أقل مكانة في تربيتها ورعيها، وفق عقد يحدد استفادته من عمله، بالإضافة إلى ذلك كانت تعقد شراكة بين بعض الأطراف للمتاجرة في الماشية، وفي حالة وقوع خصام بينها كانت ترفع القضية إلى قائد المنطقة، وفي بعض الأحيان نجد السلطان يتدخل في القضية، كما هو مبين في الرسالة التالية: "خديمنا القايد العباس بن مرزوق سلام عليك ... وبعد فافصل عبد الرحمان المتيوي مع صاحب دعواه أولاد طنان فيما يدعي به عليهم من البقر والتليد والمعز ولا تبق له حقا عليهم والله يعينك ..."³، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الأهمية التي تكتسيها الماشية، باعتبارها عنصرا مهما في اقتصاد المنطقة المدروسة، ومع ذلك وجدت فئات أخرى افتقرت إلى هذه الموارد، وبحثت عنها عن طريق نظام الشركة. وإلى جانب الأبقار والماعز كان الفلاح يقوم بتربية أنواع من الدواجن، كالحمام والحجل والدجاج، حيث تربي داخل سياج متين لحمايتها من الثعالب، وتدر على صاحبها كمية مهمة من البيض للاستهلاك اليومي، وربما يبيعها في سوق القرية، بينما يقدم الدجاج بطرق مختلفة كوجبة في المناسبات، أو عند حلول ضيف عند الأسرة⁴، حيث وصل عدد الدجاج خلال فترة الحماية الإسبانية حوالي 108422 دجاجة⁵. وتجدر الإشارة إلى أن ساكنة المنطقة اهتمت أيضا بتربية النحل، وهي قديمة جدا تعود إلى العهد الروماني⁶ وكانت تربية النحل تحظى باهتمام فلاح المنطقة، وكان منتوج العسل يوفر للاستهلاك في

¹ - المصدر نفسه، ص. 237.

² - Alta Comisaria de Espana en Marruecos ..., op. cit, pp. 160-159

³ - رسالة من الأمير مولاي علي ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى قائد المنطقة العباس بن مرزوق، أنظر ابن عزوز محمد حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 139-140.

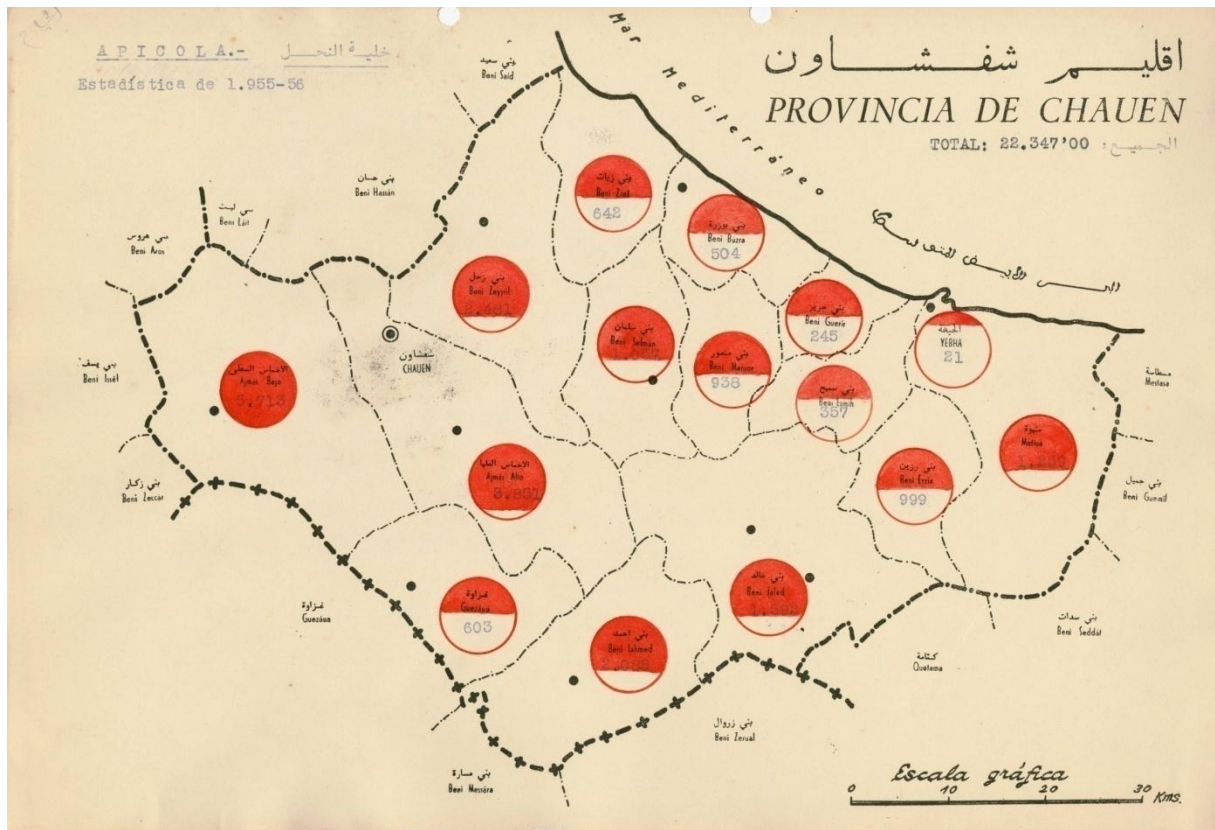
⁴ - اوجست مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 237.

⁵ - ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10

⁶ - Michaux Bellaires, *Quelques Tribus de Montagne de la Region du Habt*, Archives Marocain, Vol 17, Paris, 1911, p. 227.

الحفلات المميزة في القبيلة كالأعياد والأعراس، حيث وجدت الخليات إما تحت الخشب أو ملقاة على الأرض، وأحيانا عالقة في الأشجار¹، بينما وصل عدد خلايا النحل خلال فترة الحماية الإسبانية حوالي 22347 خلية². وعموما فالماشية شهدت تطورا بين النصف الثاني من القرن 19م والنصف الأول من القرن 20م، ولو بشكل بطيء، وذلك راجع إلى الاستعمار الإسباني الذي أراد تكثيف الإنتاج لصالحه ولو على حساب الساكنة المحلية، كما أن توزيع المواشي يختلف داخل بلاد غمارة، من قبيلة إلى أخرى، والخرائط التالية³ ستقربنا من الصورة:

خلايا النحل بغمارة



¹ - أوجست موليراس، مصدر سابق، ص. 237.

² -ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10

³ - ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10

كانت السنة الفلاحية ممطرة والغلة جيدة، حيث يحقق بعض الفلاحين الفائض في بعض المزروعات التي توجه إلى الأسواق. ومن البديهي أن يكون للاستيطان الرسمي نتائج سلبية على أوضاع الفلاحة الغمارية، خاصة إذا عرفنا أن بلاد غمارة كانت في طور الاقتصاد المعاشي، وكان نمط حياة السكان مرتبطا ارتباطا وثيقا بظروف البيئة الطبيعية، فزراعة الأرض وتربية الماشية هي الأنشطة التي كانت سائدة بين معظم ساكنة بلاد غمارة، ولذلك فاغتصاب أجود الأراضي (القليلة أصلا) لفائدة المستوطنين الإسبان على حساب الفلاح الغماري أحدث اضطرابا اجتماعيا خطيرا برزت آثاره بعد الاستقلال.

المبحث الثالث: الصيد البحري والبري.

1-الصيد البري:

يعد الصيد البري من أقدم النشاطات في قبائل غمارة، وقد بدأ اهتمام الناس يتزايد بممارسة الصيد خلال الفترة المدروسة، خصوصا مع مجيء الاستعمار الإسباني الذي شق الطرقات إلى كافة المناطق الغمارية، وخاصة المناطق البرية والأحراش النائية وانتشار أسلحة الصيد التي كانت توفرها السلطات الإسبانية للمعمرين، وقد كان الصيد البري سائدا داخل جل قبائل غمارة، نظرا لوجود غابات كثيفة تزخر بأنواع مختلفة من الحيوانات¹. وكان هذا النشاط مكملا للأنشطة الفلاحية السابقة، فمن خلالها يمكن تعويض النقص في اللحوم. وكانت لكل فرقة من القبيلة منطقة محددة للصيد، ويخرج الرجال القادرون على الصيد في رحلة جماعية²، لأنه كلما كثر العدد، كلما كانت فرصة الصيد أكبر. وأهم الحيوانات التي يصطادونها الأرانب والحجل، ويقتلون أحيانا الثعالب والخنازير وابن آوى المتواجدين بقوة في هذه المنطقة³، بينما كانت آليات الصيد تقليدية، تتشكل من الفخاخ "الخشبية" المصنوعة من الحديد، والهراوات والبندقية ثم الكلاب المدربة على تعقب آثار الفريسة ومطاردتها، وكان يصاحب هذه العملية صفير الصيادين وصياحهم، مرددين بأصوات عالية أقوالا وأهازيج مرتبطة بهذا المجال، ويمكن الاستعانة حتى بحيوان ابن مقرض (النمس) حسب صاحب المغرب المجهول⁴.

2-الصيد البحري:

أما في مجال الصيد البحري، فقد كانت ساكنة القرى الساحلية خاصة القلعة وتاكموت والجهة وتاغسة وترغة وقاع أسراس تتوفر على مجال لممارسة هذا النشاط، نظرا لوجود المراسي الطبيعية، وبالرغم من صغر هذه المراسي فقد كانت تفي بحاجيات السكان، إذ يذكر مولييراس أن مرسى سيدي فتوح وتاغيسة وتريغة، كان يمكن

¹ - مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 242.

² - مولييراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 245.

³ - مولييراس، مصدر سابق، ص. 241.

⁴ - مولييراس، نفس المصدر، ص. 245.

للسفن الكبيرة الرسو فيها، حيث يقول: "إن ساكنة تريغة تمارس الصيد بسكينة في مياه الخليج الصغير المليء بالأسماك، ويعتقد الأهالي بأن بركة التسعة وتسعين وليا تجعل الأسماك متوفرة على مدار السنة"¹. وقد كان بعض السكان الملازمين لهذا النشاط يملكون بعض القوارب التي تمكنهم من اصطياد كمية مهمة من الأسماك، خاصة السردين الذي وصلت الكمية المصطادة منه سنة 1946م بميناء الجبهة 1600 kg². لكننا لا نعرف كيف كان نظام الصيد البحري بالمنطقة والتقنيات التي كان يستعملها الصيادون. ويروي بعض الساكنة عن أجدادهم أنه إلى جانب القوارب كانت تستعمل الشباك التي تلقى في البحر ويشترك مجموعة من الرجال في جرها من الشاطئ³. وقد اشتهرت بعض الأسر بارتباطها الوثيق بالبحر كأ أسرة أعراب بقرية تاغسة، التي يذكر ابن عزوز حكيم مجموعة من أفرادها الذين كانوا يشتغلون كبحارة طوال فترة القرن 19م⁴.

أما في فترة الحماية الإسبانية فقد بلغ عدد "الحوارة" (Pescaderos) 293 حوات⁵ (بني بوزرة 96 حواتا، بني زيات 93 حواتا، بني جريبر 23 حواتا، متيوه 14 حواتا ...). وعلى كل حال فإن المنطقة عرفت النشاط البحري منذ قرون، حيث ذكر الوزان أن سكان تاغسة كلهم صيادون يحملون الميرة إلى المدينة⁶. كما أكد ذلك مارمول بقوله: "غنهم يكتسبون بصيد السمك وبعض الكروم الصغيرة والبساتين الواقعة على ضفة النهر، وأن غذاءهم العادي خبز الشعير والسردين مع بعض البقول"⁷. لكن الصورة ستتغير مع النصف الثاني من القرن العشرين بدخول الاحتلال الإسباني، الذي ساهم في استنزاف الثروات البحرية للساحل الغماري باستعمال كل الوسائل المتاحة، الشيء الذي ساهم في ارتفاع حجم الكمية المصطادة بالأطنان والأرياح المجنية من القطاع بالملايين من البسيطات (انظر الجدول):

تطور الصيد البحري في قبيلة غمارة (متيوه نموذجاً) خلال فترة الحماية الإسبانية⁸

السنوات	الوزن بالكيلو	القيمة بالبسيطة
1951	16270	pts37907
1952	56960	pts104520
1953	34916	pts65440
1954	47773	pts63882

¹ - موليراس، نفس المصدر، ص ص. 206-231.

² _ Alta Comisaria de Espana en Marrucos ..., op. cit., p. 384.

³ - حوار مع مجموعة من البحارة بمرسى الجبهة.

⁴ - ابن عزوز حكيم، "مادة أعراب"، معلمة المغرب، الجزء الثاني، ص 513. وأنظر كذلك محمد داود، تاريخ تطوان، ج 8، ص 211.

⁵ - ADCP, Gomara, Caja 1, A/1-A/6, Carpeta A/2

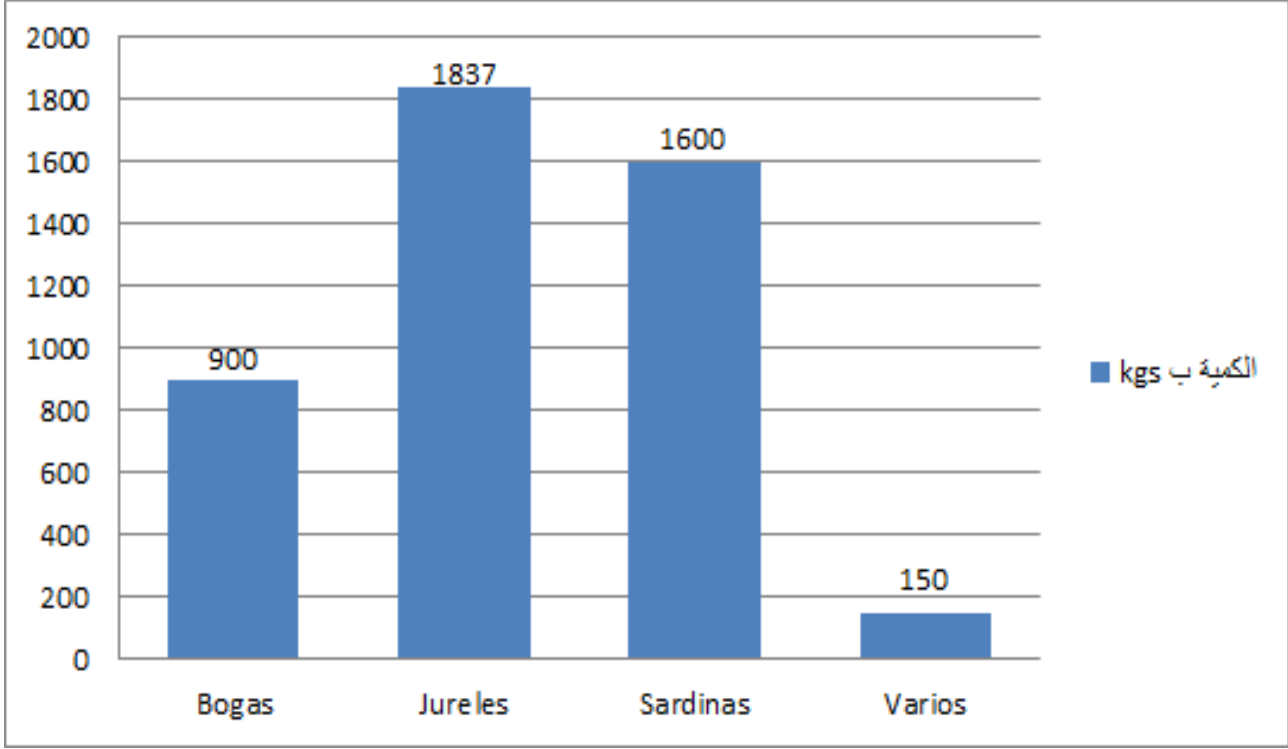
⁶ - الوزان، وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص. 327.

⁷ - مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص. 244.

⁸ - Intervencion Territorial de Gomara, Comarcal de Puerto Capaz ..., op.cit, p. 10.

بينما توزعت الأنواع المصطادة في Bogas ; Jureles ; Sardinias ; Varios التي كانت تجمع في ميناء الجبهة (Puerto Capaz) وهو الميناء الرئيسي لقبائل غمارة، حيث يمكن التعرف على الكمية المصطادة لسنة 1946م من خلال المبيان التالي:

أنواع الأسماك المصطادة بميناء الجبهة سنة 1946¹



وتأتي في المرتبة الثانية قبيلة بني بوزرة التي كانت تؤمن الأسماك لمعظم قبائل غمارة خصوصا البعيدة عن البحر منها، كبني منصور وبني سلمان وبني خالد، إلى درجة أن أسماك هذه القبيلة كانت تصل إلى قبيلة بني أحمد وغزاوة البعديتين عن البحر (انظر الوثيقة رقم 32 من الملحق)، وشهد صيد الأسماك في هذه القبيلة ارتفاعا مهما، يعكس تطور الإسبان في استغلال الثروات السمكية للمنطقة، والدليل على ذلك تطور أرباح الإسبان في هذه القبيلة من 30000 بسطة سنة 1942م إلى 70000 بسطة سنة 1946م².

يتضح مما سبق أن الساحل الغماري غني بالموارد السمكية، حيث استطاع الاحتلال الإسباني أن يراكم إنتاجا مهما من الثروات السمكية، مما يجعله يجني أرباحا مهمة في هذا القطاع. كما كان الأخير يشغل عددا مهما من الرجال ذوي الحرف المختلفة كالبحارة والباعة وملاكي السفن والنجارين وقادة البحارة، وهم يتوزعون

1 - اعتمدنا في رسم هذا المبيان على:

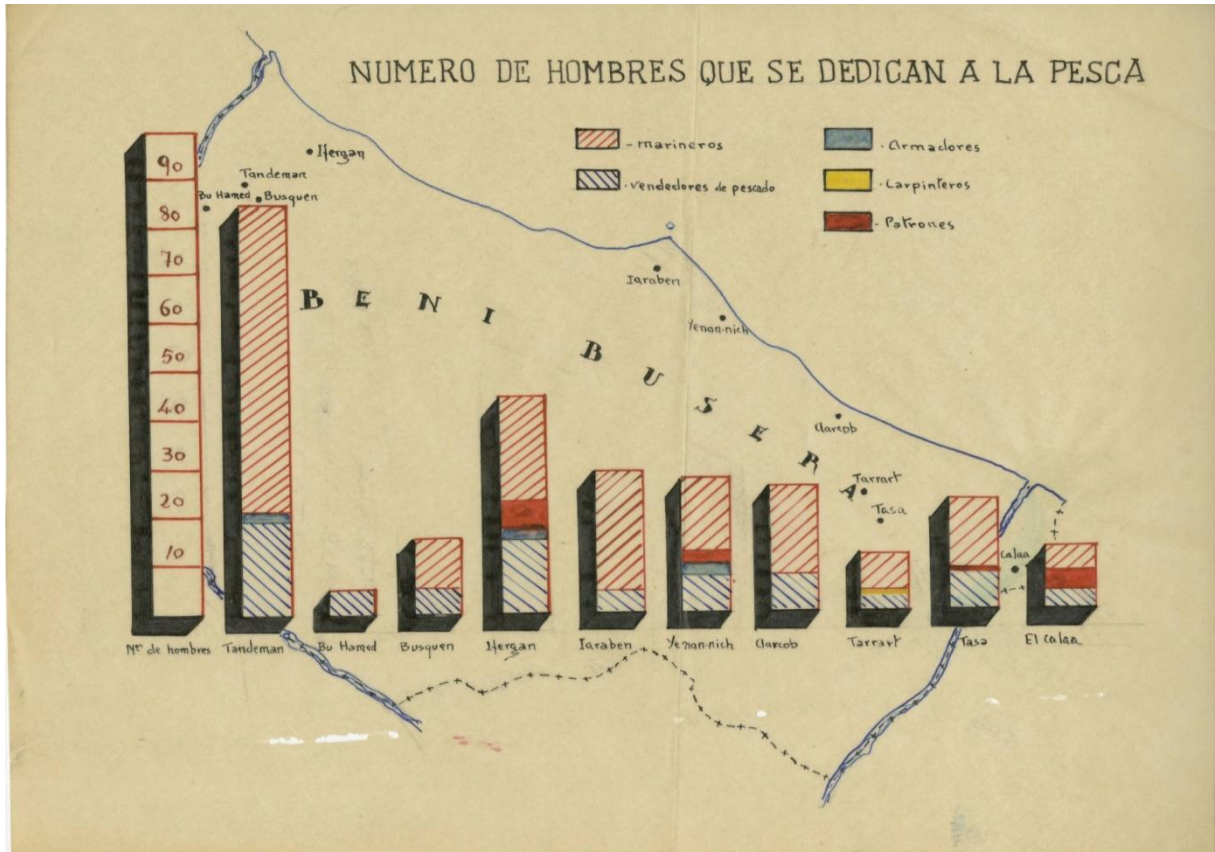
Alta Comisaria de Espana en Marrurcos ..., op. cit, p. 385.

²- ADCP, Gomara, Caja 1, A/1-A/6, Carpeta A/2.

على المداشر الغمارية وليس بالضرورة المطلة على الساحل المتوسطي، ومن أبرز المداشر المشاركة في هذا القطاع نذكر:

- تندمان: كان هذا المدشر يشارك بحوالي 65 بحارا و10 من الباعة و2 من ملاك السفن.
- بوحمد: كان هذا المدشر يشارك في قطاع الصيد البحري بحوالي 5 من الباعة فقط.
- بوسكن: يشارك بحوالي 5 من الباعة وحوالي 12 رجلا من البحارة.
- افركان: يشارك هذا المدشر بحوالي 20 بحارا و15 من الباعة وشخصين من ملاك السفن وشخصين من الملاك وحوالي 7 من قادة البحر.
- اعرابن: يشارك بحوالي 25 بحارا و5 رجال من الباعة.
- جنان النيش: يشارك هذا المدشر بحوالي 17 بحارا و10 من الباعة و3 من ملاك السفن و3 من قادة البحر.
- عرقوب: يشارك هذا المدشر بحوالي 20 من البحارة وحوالي 10 من الباعة.
- تررت: يشارك هذا المدشر 2 من نجاري السفن و3 من الباعة و10 من البحارة.
- تازة: يشارك هذا المدشر بحوالي 15 بحارا و10 من الباعة و2 من ملاك السفن.
- القلعة: يشارك بحوالي 5 من البحارة و5 من ملاك السفن و3 من الباعة.

عدد الرجال الذين يعملون في صيد الأسماك بمداشر قبيلة بني بوزرة الغمارية¹



والملاحظ أن هذه الفئة الاجتماعية المكونة من الفلاح والصيد الغماري، كانت تسعى دوماً إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي، في ظل هيمنة الإسبان على الإنتاج ووسائل الإنتاج، وبما أنه مجتمع تكافل وتعاون، لم تتطور فيه قوى الإنتاج بشكل يسمح بوجود فائض يذكر، ولو أن المبادلات التجارية كانت تتم على نطاق محدود بين القبائل في المنطقة أو بينها وبين الأقاليم المجاورة بما فيها فاس وتطوان²، فهذا يفسر عدم وجود علاقات اقتصادية محضة، بقدر ماهي علاقات اجتماعية تحددها الأعراف وتتوافق والظروف البيئية والسياسية.

وما يمكن أن نستخلصه من هذه المنتوجات التي كانت تتوفر عليها المنطقة خلال هذه الفترة، هو طابع النوع، مع خاصية الارتفاع والتطور من فترة النصف الثاني من القرن 19م إلى فترة الحماية، ومن خلال بعض النوازل، لاحظنا كيف استطاع مفتو المنطقة الحفاظ على البنية التحتية اللازمة التي تضمن الالتحام القبلي، وعلى أهم أشكاله المنظمة، مثل الشركة الخ.

فهذا الواقع يجعلنا نستنتج المعطيات التالية:

¹ - ADCP, Gomara, Caja 1, A/1-A/6, Carpeta A/2.

² - عبد العزيز خلوخ التسماني، "تشخيص المجتمع الجبلي بين الوقائع والتنظير (189-1907)", مجلة دار النيابة، العدد 16/15، السنة 4، 1987، ص. 33.

- دور الخصائص الطبيعية المهم في عرقلة تطور الإنتاج بالمنطقة.
- دور السلطة المركزية في التخفيف من تبعات الأزمات الاقتصادية والمناخية والسياسية.
- انعكاسات الواقع الاجتماعي على الإنتاج بالمنطقة.

المبحث الرابع: الحرف التقليدية بقبائل غمارة.

1- الاستغلال المعدني بقبائل غمارة

من المعلوم أن أي نواة للحرف التقليدية تحتاج إلى مواد أولية، ولن تستطيع توفير ذلك إلا من خلال الوسيط التجاري في إطار المعاملات التجارية المقننة، ويمكن تصنيف المواد التي تتوفر عليها المنطقة إلى نوعين:

- المواد الفلاحية: الزيتون-الكتان-الجلد-الكروم-الصوف.
- المواد الأولية (المعادن): النحاس-الفضة-الفحم-الطين-الحديد.

بالنسبة للنوع الأول، ساعد توفر المنطقة على نسبة هامة من أشجار الزيتون (بما فيها أيضا العرصات والجنانات سواء التي في ملكية الخواص أو المحبسة) على خلق نواة صناعية محلية تتمثل في استخراج الزيوت والصابون.

(استخراج) الزيوت: يتضح من خلال الوصف الذي قدمه موليراس وأرشيف كارلوس بيريدا أن معظم البوادي الغمارية كانت تستخرج كميات من الزيوت، كما وردت إشارات في كتب الحوالات الحبسية عن وجود دور خاصة لمثل هذه الصناعة في بني خالد وبني رزين.

الصابون: ذكر موليراس عن القبائل الجنوبية لبلاد غمارة أنهم يشتغلون بهذه الحرفة، بحكم قربهم لحاضرة قبائل غمارة "شفشاون"¹. لكن يبدو أن هذا النوع من الصناعات طرح تساؤلات في الأوساط الدينية والفقهية، خصوصا المتعلقة بالممارسات غير المشروعة كالغش والتدليس، وقد كانت العناصر اليهودية والمسيحية هي التي تتعاطى لهذا النوع من الحرف.

الكتان: كانت منتشرة خاصة بمرتفعات غمارة (بني سلمان، بني منصور، بني خالد) وتزاول بشكل مكثف داخل بعض الأسر واعتبرت موردا رئيسيا لمتطلباتها².

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 242.

² - Intervencion Territorial de Gomara ..., op. cit., pp. 8-19 -20-30.

الصوف: ارتبطت بنسبة قطع الغنم، ويرجع ذلك إلى الظروف الطبيعية التي تتسم بها المنطقة، وقد لوحظ أن هذا النوع من الحرف كان أكثر التصاقا بالحياة اليومية من أي حرفة أخرى، فيما عدا المواد الغذائية وما ارتبط بها، وهي تتنوع إلى حرف يزاولها حرفيون في الأسواق، وأخرى عائلية تراول في المنازل.

ونركز هنا على مساهمة المرأة الغمارية بشكل كبير في رفع نسبة إنتاج هذه الصناعات، لأنها كانت تهتم بتربية دودة القز لاستخراج الحرير، إضافة إلى مشاركتها الفعالة في عمليات الزرع والدرس والحصاد، وقد وجدت المرأة الغمارية أسواقا واسعة لبيع منتجاتها وتحقيق أرباح هامة.

الجلود أو ما يعرف بالدباغة: وهي عملية تنظيف الجلود وتليينها بآلة أو مادة، وينقع الجلد في الماء مدة معلومة تتزايد بقدوم عهد الجلد والنقع إما في حوض أو في نهر، ويتكرر النقع والتنظيف عدة مرات. ومعروف أن المدابغ الغمارية عادة ما تكون بجوار الأودية.

وقد ذكر لنا موليراس أنه وجد بأحد مداشر قبيلة بني خالد "مدشر الدباغين" مئات من الأسر، غير بعيد عن منبع واد امطير عند الحدود الجنوبية لغمارة، كانوا يدبغون قديما جلد الخنازير، الذي يصنعون منه وزرة كبيرة من الجلد، تغطي الصدر والبطن إلى غاية الركبتين، وكانوا يقطعون الأدغال والغابات بهذه المآزر التي تحمي جلابيهم من العليق والأغصان والأشواك¹.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الجلود، وفرت مادة أولية هامة لصانعي الأحذية (البلغة) و"البرادع" و"البرادع" وسلع أخرى، فوجدت أسواقا متعددة، سواء لجلود البقر أو الماعز، وخلقت منافسات عديدة بين التجار لكونها كانت تحقق أرباحا.

زيت الطرو: يتم تحويل حب نبات الطرو إلى زيت، فعندما ينضج الحب في يناير ويتحول لونه إلى الأحمر ثم إلى الأسود يتم تجميعه، فيوضع فوق بعضه ليرقد لمدة عشرة أيام، ثم يصفى من الأوراق بواسطة الغربال، ويتم الاحتفاظ بالحبات السوداء فتسحق في حفر يصل عمقها إلى 50 سنتمترا بواسطة قضيب (الدقاق)، ويسخن الماء ليتم تبخير المسحوق كالطعام، وبعد غربلته يوضع في سلة من العزف (تاشميت) موضوعة فوق حجارة، وتوضع فوق "تاشميت" حجارة أخرى، وفي الأسفل توضع آنية لصب الزيت، وبعد الحصول على الزيت، يسخن لإبعاد الرائحة، ولزيت الطرو عدة استعمالات كعلاج الماشية وترطيب السوط.

"الخمور" أو "الصامت" (باستغلال الكروم): كانت منتشرة في غمارة بشكل مكثف، ويعزى ذلك إلى المساحات الشاسعة التي خصصت لهذه الأنواع من المزروعات التي لا تتطلب -كما سبق الذكر- تكاليف أو ظروفًا طبيعية

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 270.

ملائمة. ويقول موليراس في هذا الصدد: "أما داخل الأسر الغمارية، فيصنع هلام العنب (الصامت)¹ والخمر والخل، ولا تتطلب الكروم أية عناية خاصة..."². وقد رأينا كيف طرحت على الفقهاء المنطقة تساؤلات عديدة حول طبيعة استغلال الكروم.

أما بالنسبة للعنصر الثاني، فإن الخصائص الجيولوجية للمنطقة لعبت دورا مهما في تحديد نوعية المعادن التي يمكن أن تتوفر عليها لخلق "صناعة تحويلية".

– الحديد: إن أهمية هذا المعدن فرضته الظروف السياسية والتاريخية حيث إنه يستعمل لصناعة الأسلحة والعدة الحربية، إضافة إلى الأدوات الفلاحية كالفؤوس والمناجل الخ، والأدوات التي يحتاجها الصناع والحرفيون، وفي هذا الصدد أشار موليراس إلى وجود معدني الحديد والرصاص بقبيلة بني رزين.

– الفضة والنحاس: مادتان أساسيتان بالنسبة لاقتصاد المغرب بصفة عامة، والمنطقة بصفة خاصة، خصوصا لصناعة الحلبي والعملة، إضافة إلى مصنوعات أخرى، ومن الأدوات المنزلية (الأواني). وقد أقبل التجار الأجانب عبر الساحل الغماري على هاتين المادتين بشكل كبير، نظرا لأهميتهما في الدورة الاقتصادية³، فمعظم المعاملات كانت تتم بواسطة النقود المصنوعة من الفضة والنحاس خصوصا خلال القرن 19م.

لكننا في الحقيقة لسنا واثقين من هذه المعطيات كل الوثوق لسبب بسيط، وهو أن ضرب السكة كان من اختصاص المخزن، لكن هناك دلائل تؤكد أن تاغسة كانت بها دار للسكة خلال العصر الوسيط (العهد المريني)⁴. ويذكر أحد سكان تاغسة اليوم بأنه يتوفر على بعض القطع منها⁵.

وعلى العموم فإننا نستبعد هذه الدار خلال الفترة المدروسة، وأما استغلال هذه المعادن من طرف السكان، ربما كان يتم بطرق عشوائية لبيعها عن طريق التهريب، وخاصة وأن الطلب على هذه المواد كان متزايدا خلال النصف الثاني من القرن 19م، أو كانت تقوم بسبكها وإرسالها إلى فاس حيث توجد دور الصناعة⁶.

¹ – الصامت هو هلام العنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف هذه الفاكهة، ونظرا لقساوة الطقس، فإن العملية تتسم بالصعوبة. ونرى في كل القرى قدورا موضوعة خارج المساكن، يتم تحضير الهلام فيها، أما طريقة إعدادها فتتم من خلال عصر العنب الناضج ويطبخ العصير الموضوع في القدر ثلاث مرات، وبعد الطبخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد ذلك، وينجز الهلام حينما يصبح الذي خفض بفعل التبخر إلى الثلثين، مخثرا وحلوا كالعسل. آنذاك يسكب في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى الايام الباردة. أما الصامت المسكر Enivrant وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. وقد انتشر بشكل كبير عند غمارة وجباله.

² – موليراس: مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 221.

³ – بنعبد الله عبد العزيز، "كيف بدأ التصنيع في المغرب"، مجلة دعوة الحق، العدد 267، شتنبر-أكتوبر 1987، ص. 93.

⁴ – يقول البعض إن المؤرخ عزوز حكيم يتوفر على وثائق بخصوص ضرب العملة بتاغسة، وأتم اطعوا عليها في بيته عند زيارتهم له.

⁵ – التهامي عبد الإله الوزاني، "حضارات سادت، غمارة الكبرى معقل العلم والجهاد والتصوف"، جريدة تمودة، العدد 210، من 4 إلى 11 يناير 2009، ص. 7.

⁶ – بنعبد الله عبد العزيز، "كيف بدأ التصنيع في المغرب"، مجلة دعوة الحق، م. س، ص. 93.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد حارب الفقهاء عمليات الغش التي كانت تحدث في هاتين المادتين (الفضة والنحاس) خلال المعاملات التجارية والاجتماعية، حيث كان الصناع يقومون بخلط مادتي الفضة والذهب بالنحاس.

وعموماً، تكفي نظرة سريعة على الخريطة الجيولوجية لغمارة لإدراك غنى المنطقة بمناجم الرصاص والحديد والنحاس، وقد اشتهر الأهالي باستغلالهم لهذه المناجم، غير أن تنقيهم لم يتجاوز الطبقات السطحية للأرض، ويتوقفون عند اصطدامهم بالصخور. ويفاجأ المرء بوجود آثار عميقة أغلقت مع مرور الزمن¹، بينما يذهب موليراس إلى وجود الذهب بكثرة، حيث يقول: "إن الطبقة الجيولوجية لغمارة الشاسعة، هذا المعبر الجبلي المستقبلي لإفريقيا الشمالية، تحتاج إلى دراسة دقيقة، فمناجم الذهب التي مستها معاول الأهالي بالكاد تحتفظ بثرواتها لكل من سيحتل هذا البلد الغني"²، غير أن هذا الوصف كان دعائياً فقط يضحّم الثروات النفيسة لتشجيع الفرنسيين من أجل احتلال المغرب، غير أنه استطاع أن يرصد لنا بعض التجارب الكيميائية في قلب غمارة (قبيلة بني بوزرة) حيث يقول: "وكانت أول زيارة قام بها محمد بن الطيب لبني بوزرع بمثابة حدث، إذ كان عبد الفضيل منهمكا في تجاربه الكيميائية، معتقداً أنه سيبتكر شيئاً جديداً... وهو اليوم مقتنع بأن المغاربة لن يصلوا إلى نتائج مرضية اعتماداً على أدواتهم الغريبة، والتي تثير سخرية أهالي الأوطان المتنورة..."³، يتضح من خلال هذا الوصف، النظرة المتعالية والتبرير للإمبريالية اتجاه المغرب خلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. وإلى جانب ذلك كان سكان المنطقة يستعملون الملح الصخري، حيث يقومون باستخراجه وتحويله إلى مادة صالحة للاستهلاك، ويجمعون "الحلقة"، ويغزلونها منها مجموعة من متطلبات الحياة في البادية الغمارية، كالحبل والطبق والقفة، وكذلك الأحذية التي كانت تسمى بـ "اركاسن". وفي قبيلة بني سميح توصل السكان إلى معالجة داء السعار حيث إنه في الحالة التي يعرض فيها كلب مسعور أحد الأشخاص يتم علاجه بالطريقة التالية: "يقرع الحيوان ويأخذ حفنة من شعره وحرقتها ويوضع رمادها ساخناً على جرح الشخص المصاب، ثم في نفس اليوم، يكتفي بأكل الثوم لمدة عشرة أيام دون تناول أي غذاء آخر، إذا سلمنا بتصريحات وتأكيدات أهل المنطقة، فإن العلاج الوقائي غير المعروف لدى باستور كلل دائماً بنجاح"⁴.

والخلاصة أن هذه الأنواع من الحرف، سواء كانت تحويلية بمفهومها الضيق أو التقليدية، فإنها لم تكن بحاجة إلى رؤوس أموال كبيرة، ويعزى ذلك إلى بساطة الإنتاج والتقنيات المستعملة، حيث بحث تجار غمارة دوماً عن أسواق لتصريفها عبر محاور تجارية مختلفة.

1 - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 220.

2 - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 229.

3 - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 230.

4 - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 237.

2- الحرف التقليدية بقبائل غمارة.

تتميز الحرف التقليدية بالمنطقة ببساطتها، نظرا لارتباطها الوثيق بالطبيعة، إلا أنها تلبى متطلبات الساكنة. فبني رزين استثمروا الغابة التي كانت ومنذ القديم تشكل مصدر رزقهم الذي لا ينفد¹، وقد اشتهروا بممارسة حرفة النجارة التي يبدو أنها أصبحت حرفة متوارثة، إذ أشار لويس مارمول إلى أن النجارة بهذه القبيلة خلال القرن 16م كانت تعرف ازدهارا ورواجا². وقد حافظت هذه الحرفة على مكانتها طيلة القرون اللاحقة، فخلال الفترة المدروسة كان السكان يشتغلون كحطابين يقطعون العود الجيد ويصنعون منه الألواح والأبواب والكراسي وبعض الأواني الأخرى التي تستعمل في حياتهم اليومية³، ويقول موليراس في هذا الصدد: "... فإنهم يمارسون النجارة، حيث يصنعون الألواح والأبواب والصناديق والمغازل (Fuseaux) ويستخدم واد أورينغا الذي يمكن عبوره بالمراكب من أعلى تازروت إلى مصبه وذلك لنقل الخشب المصنوع"⁴، وقد تفننوا في صناعة هذه الأشياء بإدخالهم عليها تحسينات كنعشها وزخرفتها بألوان مختلفة. كما أنهم عرفوا بتخصصهم في استعمال مادة صباغية يستخرجونها من جذور الصنوبر، تعطي لونا برتقاليا جميلا ومن جذور نوع الدالية، صباغة بلون أحمر فاقع، فهم متحضرون لتمكنهم من استخلاص ستة ألوان صباغية من النباتات⁵. وهذه الحرفة المرتبطة بالنجارة من دون شك كانت تضيفي جمالا ورونقا على الأواني الخشبية، مما يجعل تسويقها أمرا مربحا. ومما يؤكد حنكة العماريين في هذا المجال هو توصلهم إلى اختصار هذه الألوان الستة في كلمة "كصح" و"زخم"، التي يشير كل حرف منها إلى لون معين: الكاف يعني (كحل) أي أسود، والصاد أصفر، والحاء أحمر، والزين أزرق، والحاء أخضر، والميم ألوان أخرى⁶. وإلى جانب النجارة عرفت هذه القبائل حرفة الحدادة، لصناعة بعض الأواني الفلاحية، كما ارتبطت أيضا هذه الحرفة في قبيلة بني سميح بصناعة أجزاء من البنادق وبارودها⁷. كما ظهرت في منطقتنا العديد من المهن المرتبطة بالأعشاب الطبية، حيث وقفنا على وثيقة تعود لسنة 1270 هـ/1854م، تبرز لنا العديد من الوصفات الطبية المكونة من الأعشاب السائدة في قبائل غمارة (كيفية تبيض الوجه + كيفية استخدام أوراق الدفلة لأغراض طبية)⁸.

وعموما يمكن حصر أبرز المهن والحرف الموجودة في قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة في الجداول التالية:

¹ - مارمول، إفريقيا، مصدر سابق، ص. 71.

² - مارمول، نفس المصدر، ص. 71.

³ - موليراس، المغرب المجهول، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 241.

⁴ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 241.

⁵ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 243.

⁶ - موليراس، م. س، ص. 243.

⁷ - موليراس، مصدر سابق، ص. 234.

⁸ - وثيقة تتوفر على نسخة منها أمدنا بها الأستاذ محمد عبد المومن (أحد أفراد أسرة عبد المومن الغمارية).

الجدول رقم: 1

المكان	Abaceros البقالة	Aceiteros الزياتة	Albañilas البنياة	Albarderos البرادعية	Alfareras فشاشات	Alfareros القشاشة	Alfondigueros الفناديقية	Almonderos الدلالة	Armadores de jabegas صنعة الشباك	Atabaleros الطبالة	Babucheros الخرازة	Barberos الحجامة	Bañoleros الصفاية	Cafeteros القهواية	Camalos الحمالة	Caldereros التحاسية	Caleros الشواشة
الشاون	97	4	60	4			5	3		4	43	17	9	23	32	2	15
الجهة																	
بني زجل		3	3		3					10		1		10			12
بني زيات	13	7	10		13	1			4	9	8	4	14	17		3	1
بني بوزرة			8	3		4			2	2	3	5	1	4			1
بني حبرير			20	3								2					
بني سميح																	
بني رزين			5			3											
متيوة			9	3		8	2		1			5		5	12		
بني خالد											8	2		7			
بني منصور		5	6	1		8				6		3	7	1			3
بني سلمان		15	8	1		12				5		9	11	2			4
بني احمد			38							14	8	1		8			
غزاوة		5	30	1						12		2		2			
الاخماس العليا		1	6		14	17					30	2	3	16	10		5
الاخماس السفلى		98	15	8	7	5				11	12	6		7			4
المجموع	110	138	218	24	37	58	7	3	7	73	112	60	45	101	54	5	45

المصدر: Archivo Donación Carlos Pereda Roig , Gomara Caja 1 ,A/1-A/6 , Carpeta A/2

الجدول رقم: 2

المكان	Carboneros الفحامة	Carniceros الخزارة	Carpinteras التجارة	Castradores العدالة	Cerealistas الخبطة	Colchoneras المطارية	Comerciantes الشرايا	Confiteros الحوية	Cordeleros الشراطة	Cosecheras de frutas الغلايات	Curtidoras الدباغة	Enjalbegadores البياطة	Enterradores الحفارين	Especieros الخطارة	Estereros الحصارة	Folleros الروابزية	Gaiteros الغبطة
الشاون		13	25		4	2		6			19	4		12			4
الجبهة																	
بني زجل	65		15	4		1	14	2							17		11
بني زيات	15	5	6		1		20				5	1		7			2
بني بوزرة	15	2			4		7	1			4						2
بني جرير	10		2				7							2			7
بني سميح							3										
بني رزين			13				1	1						1			10
متيوة	5		5				16	3	2			5	4	3	4		9
بني خالد	16	7	22	1			25	3			2			4			6
بني منصور	2	2	3			1	4		7					5	6		4
بني سلمان	3	3	8				11							3	6		7
بني احمد	18	18	16				243	9			9			23		1	3
غزاوة	4	10	1				37	1	45		6			10			10
الاخماس العليا	89	21	11				52	3			1			10			8
الاخماس السفلى	12	7	2				23	6	3		5			4	8		7
المجموع	254	88	129	5	9	4	463	35	57		41	10	4	84	41	1	90

المصدر: ADCP ,Gomara , Caja 1 ,A/1-A/6 , Carpeta A/2

الجدول رقم: 3

المكان	Guarnicioneros البزازطمية	Herradores السمارة	Herreros الحدادة	Hilanderas الغزالية	Hojalateros القدرارة	Horneros الفرارنية	Jaboneros الصوابنية	Ladrilleros التواجرية	Medidores العبارة	Molineros عمال المطاحن	Musicos الموسيقين	Panaderos الخبازة	Pastores الرعاة	Pedrerros عمال المقالع	Pescaderos باعة السمك	Pintores الطلاية	Plateros الصياغين
الشاون		2	7	90	3	17	2	9	1	17	10	7			23		1
الجبهة																	
بني زجل		4	14					2		31			43	4			
بني زيات			13		2		2			10	6	21	3		93		
بني بوزرة		3	6					2	1	2	7		30		96		
بني جرير			5			2		1		4					23		
بني سميح			5				59										
بني رزين			7						1								
متبوة		1	6		3			3	2	1		4			14		
بني خالد		2	4		2		5										
بني منصور					1			1	1	7	3		20		9		
بني سلمان					1		7	3	1	10		1	24	2	7		
بني احمد	3	2	2	6	2	5	3		16	93	9	8	757		12		
غزاوة	1	5	6	300	2				4	51	3		300	1			
الاخماس العليا		20	6		1		9	6		211		4	521	2	16		
الاخماس السفلى		11	20		1		4		8	103			210	6			
المجموع	4	50	87	396	18	24	91	27	35	540	37	45	1908	15	293		1

المصدر: A/2/ Carpeta A/1-A/6 , Caja 1 , ADCP, Gomara

الجدول رقم: 4

المكان	عمال المناجم pOCEROS	البراحة pregoneros	الشبابة Rederos	Recovers	المواكبية Relojeros	الخياطة Sastres	الدراسة Tejedores	الصباغة Tintoreros	تجار الماشية Tratantes de ganado	الخراطة Torneros	الفضارة Verduleros	الطرافة Zapateros
الشاون		1		3	3	19	320	1	6	1	30	15
الجهة												
بني زجل		2		5		13						2
بني زيات		1	11	19		4	30					4
بني بوزرة			6	5		7						
بني جرير				3		10	2					
بني سميح				1								3
بني رزين				2		5						
متبوة		1				4					4	2
بني خالد		1		6		1	5					2
بني منصور		1		2		10	3		7	4		
بني سلمان		1		6		12	18		2			1
بني احمد		3		11		13	14					3
غزاوة		1		10		30	20					2
الاحماس العليا		2		4		12	26		4		6	13
الاحماس السفلى		4		9		1	4		2			4
المجموع		18	17	86	3	141	442	1	21	5	40	51

المصدر: A/2: Carpeta A/1-A/2 , Caja 1 ,ADCP, Gomara

يتضح من خلال هذه الجداول ما يلي:

- أن المنطقة المدروسة كانت غنية بالحرف والمهن التقليدية، حيث ناهزت 63 حرفة وهو ما يؤكد على تمسك الغماريين بتراثهم وإرثهم الاقتصادي، رغم التغلغل الاستعماري وتأثيراته المختلفة.

- هيمنة الحرف والمهن المرتبطة بخصوصية المنطقة الطبيعية (الحواتة 293) والغزالة (396) والخرازة (112) والنجارة (129).

- غياب عمال المناجم في قبائل غمارة، ما يعني أن الإمكانيات المعدنية في منطقتنا كانت متواضعة، حيث ظل استخراج المعادن عندما تكتشف، عملية سطحية في الغالب، نظرا لعدم التوصل إلى أساليب لبناء المناجم، الأمر الذي أدى إلى عدم نمو صناعة التعدين المحلية.

- لم تخرج الحرف التقليدية في المجتمع الغماري عن إطار الموروث والمألوف في هذا المجال، فكانت منتوجات القبائل الغمارية لا تتجاوز ما تحتاج إليه القبيلة في حياتها اليومية، ويرجع ذلك إلى انعدام الحس الفني وغياب القدرة على تمثيل أشياء فنية أو جمالية، لأن ذلك يعتبر بلا قيمة بالإضافة إلى أشياء ذات قيمة نفعية متميزة بالصلافة والجودة.

- إن الحرف التقليدية القبلية في جميع ربوع المجتمع الغماري، كانت بدائية وثانوية بالمقارنة مع النشاط الزراعي، فكانت تقتصر في أغلب الأحيان على فئة من الناس، لا يملكون أرضا أو يعتبرون دخلاء على القبيلة أو لاجئين أو غرباء، ويكونون في الغالب "امزاوكين" بل لا تسترعي اهتمام سوى فئة قليلة من الناس، حيث كان الفخار يقاسم الحداد احتقار العامة، فكان يعيش في شبه عزلة اجتماعية دون أن يحصل من عمله على شيء يغنيه. ولا تعني هذه الاعتبارات أن الصناع لم يكونوا مندمجين اقتصاديا في وسط المجتمع القروي، بل كانوا مكفولين من طرف هذا المجتمع؛ حيث كان نوع من التعاقد الضمني قائما على تبادل الأدوات بجزء من الزرع، وكان هذا التعاقد يسود بقدر ما كانت تسود الأعراف الجماعية في تقرير شؤون القرية.

- لم تكن المواد الأولية دائما في ملكية الصناع، بل كانوا يضطرون إلى كراء استغلال حفر الخزف أو شراء الأخشاب أو التعويض عن محاجر الجبس أو الجير. وحتى عندما تكون بعض المعادن أو الأخشاب متوفرة في الغابات أو في المناطق المشاعة، فقد كان باستطاعة شيخ أو أبناء أسرة كبيرة أن يشعروا الصانع بما يجعله يسترضيهم ولو بتوفير حاجتهم من إنتاجه.

- ازدياد أزمة هذا النوع من الصناع بسبب ندرة المواد الأولية أو فقدها، عندما تتعرض للمضاربة من أجل التصدير في النصف الثاني من القرن 19م فلم يعد الفلاحون والرعاة الغماريون يأتون بالصوف والجلد للصانع المحليين الذين كانوا يعالجونها لإنتاج حاجات محلية، يأخذ مقابلها جزءا من المال وقسطا من مواد الفلاحة، بل

أصبح ينافس الصانع رأسمالي أجنبي أو وكيله، ولم يكونوا ينتظرون أن تأتي الجلود أو الأصواف والأخشاب إلى أسواق غمارة، بل كانوا يجرون معاملات تضمن لهم تلك المواد بتسبيقات مالية لفلاحين مفلسين. وقد كانت بوادر رأسمال محلي تقوم باستعمال بعض الممولين المحليين خصوصا مع بداية التغلغل الاستعماري في شمال المغرب.

- إن هذه الحرف والأنشطة كانت محلية لأن القبيلة كانت تكتفي بصنع حاجياتها الضرورية والمستعجلة، دون التفكير في تعميم الصناعة من أجل التبادل المستمر، والذي يمكن أن يكون قاعدة أساسية لاقتصاد القبيلة لأن الحرف كانت تحتل مكانة ثانوية من انشغالات الفلاحين الذين يخصصون أغلب أوقاتهم للنشاط الفلاحي والرعي وتربية الماشية.

المبحث الخامس: التجارة (الأسواق الأسبوعية + العلاقات التجارية)

سبق أن رأينا بأن قبائل غمارة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت تمارس أنواعا مختلفة من الأنشطة الصناعية والتجارية والزراعية، بالاعتماد على وسائل إنتاج تقليدية تتميز بالبساطة، وكل ذلك من أجل الاكتفاء الذاتي بالدرجة الأولى، غير أن ضرورة الجوار والصراعات والتحالفات كانت تفرض عليها تفاعلات اقتصادية، وقد ساعدت هذه التفاعلات الاقتصادية على توسيع رقعة المبادلات التجارية الداخلية، الشيء الذي أدى إلى تنظيم أسواق محلية وإقليمية أسبوعية، تتجاوز في أغلب الأحيان إطارها الاقتصادي، لتقوم بوظيفة ثقافية وسياسية واجتماعية، وكانت تقام هذه الأسواق بأمكنة خاصة، يتكشف فيها التواصل بين الأشخاص والجماعات وتنتشر الأخبار والأحداث والدعايات. وقد كانت المبادلات تعتمد في معظمها على التداول النقدي الذي يسري على العديد من المنتجات الزراعية كالخضر والفواكه والحبوب والبقوليات والأعشاب، ومنتجات من أصل حيواني، كالصوف والجلد واللحوم والبيض والبهائم، كما نجد أدوات فلاحية وأوان حديدية وفخارية. فالسوق يعكس بتنظيمه المحكم، البنية التحتية للمجتمع القبلي وأسس اقتصاده.

تدل الطرق وممرات العبور على أهمية المبادلات التجارية التي كانت تجري بين القبائل وبين القبائل والمدن، وكانت " الجماعة " أو زاوية القبيلة هي التي تسهر على تلك الطرق وتقوم بحماية القوافل بها، وخاصة في المناطق البعيدة والنائية من قبائل غمارة، التي لم يتمكن المخزن من إدماجها ضمن مجال نفوذه. إضافة إلى هذه الأنشطة الاقتصادية، كانت القبائل الغمارية تنظم أشكالاً أخرى تنشط فيها حركة التجارة والمبادلات، أهمها المواسم السنوية أو الفصلية أو التي كانت تقام بالقرب من أضرحة الصلحاء، تبركا بهم وعربونا على جنوح القبائل إلى السلم، وحسن نيتها على الصلح والتسامح. ومما شك فيه أن قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة كان مجتمعها قبليا تقليديا، يتكون من فلاحين بسطاء لم تتطور فيه قوى الإنتاج، بشكل يسمح بوجود فائض كبير؛ حيث ظلت المبادلات التجارية تتم على نطاق محدود، سواء داخل أسواق القبيلة الواحدة التي كانت تكتسي

أهمية بالغة في عرض المنتوجات، أو بين هذه القبائل وجيرانها من القبائل الريفية ومدن الشاون وتطوان¹. وقد كانت بعض المنتوجات الفلاحية، إلى جانب المنتوجات الحرفية المحلية والخشب تشكل أهم المبادلات التجارية.

1- الأسواق والمواسم:

يلعب السوق دورا اقتصاديا واجتماعيا هاما بالنسبة للجماعات البدوية، فهو ليس فقط مكان للتبادل التجاري ولكن كذلك للاتصال وتبادل الآراء، كما أن التجارة عنصر مكمل للفلاحة، وهي نشاط يمارس قصد الحصول على الحاجيات، بحكم أن السوق فضاء لتبادل الخيرات والمنتوجات المادية والرمزية²، وكانت حياة الساكنة الغمارية تتمفصل حول السوق على المستوى الاقتصادي والاجتماعي والفكري، فكان السوق يظهر كمؤسسة (Institution) متعددة الوظائف³، حيث إن الوظائف الاجتماعية تكتسي نفس أهمية الوظائف الاقتصادية، فهو فضاء لحل النزاعات واتخاذ القرارات (الزواج) وتداول المعارف والأخبار (دور البراح في نشر الأخبار الرسمية)، ويورد لنا موليراس أهمية دور السوق في حياة الغماريين من خلال المثال التالي: "وسوق الأحد (يقصد سوق بني زيات) عاين الرحالة مشهدا مؤثرا، فقد أقدم حوالي عشرة أشخاص على ذبح ثور أسود ضخم، واتجهوا وسط السوق معلنين عن ذبيحتهم⁴. وتحلق الجميع حول الأشخاص العشرة، وهم من قبيلة بني زجل الذين أخبروا الحاضرين بأن قبيلتهم تعرضت لهجوم غادر من طرف قبيلة الاخماس فصاحت الحشود: سننتقم لكم، ومباشرة بعد ذلك صرخ المنادي بأعلى صوته قائلا: اسمعوا يا أهل بني زيات، موعدنا بالسوق المقبل وستتحرك جميعا لمواجهة الاخماس..."⁵. يتضح من هذا المثال أن السوق كان مجالا اجتماعيا بامتياز، حيث لعب دورا هاما في تشكيل الرأي العام الذي يوجه الجهود المشتركة ويدمج القوى المتناقضة (Disparates)⁶. وهذا ما سنراه في فترة الحماية الإسبانية عندما استغلّت المقاومة الغمارية الأسواق لتحرير خطاباتها والتخلي عن نعراتها القبلية، لتوحيد الجهود ضد الاستعمار الإسباني. فالمجتمع الغماري لم يجعل من السوق مجرد مجال للتجارة وتبادل السلع بقدر ما تضمنه من أبعاد اجتماعية وسياسية وقانونية تجاوزت بكثير

¹ - عبد العزيز السعود، تطوان في القرن الثامن عشر (السلطة-المجتمع-الدين)، منشورات جمعية تطاون اسمير، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى، تطوان، 2007م، ص. 196.

² - Hajjarabi (F), *Les Souks Feminins du Rif Central*, Thèse de Doctorat, Université Paris VII, 1988, p. 23.

³ - عبد الرحيم عدناوي، "الأسواق الأسبوعية في المغرب"، مجلة أبحاث، العدد 22-23، السنة 1989، ص. 41-55.

⁴ - عملية كانت تستخدم من طرف غمارة وحتى جبالا ليطلبوا مساعدة أهالي قبيلتهم وأيضا القبائل الصديقة، عندما يريدون الانتقام لأنفسهم أو دفع عدو غاز خارج أراضيهم. ففي كل سوق تذبح أضحية حسب إمكانية الطالبين للمساعدة، فقد يكون عجلا أو عنزة أو معزة أو خروفا. وتسمى الأضحية بـ "العار" ويستخدم لحمها لإشباع بطون أهالي القبيلة التي تم التوسل إليها. وعادة ما تترك الأضحية في المكان الذي ذبحت فيه.

⁵ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 247.

⁶ - Ben Ali (D), *Essai sur la Formation économique et Social Marocaine Pré-capitaliste*, Thèse Doctorat Sciences économiques a L'université de Grenoble 2, 1977, p. 221.

وظيفته المعلنة¹. فعلى مستوى منطقتنا نلاحظ أن حجم الأسواق يعكس ضعف المبادلات وشبه انغلاق للمنطقة، إذ نميز بين نوعين من الأسواق: الأسواق المحلية حيث الإشعاع البشري والاقتصادي جد ضيق، ثم الأسواق القبلية حيث كانت كل قبيلة غمارية تتوفر على سوق أو سوقين كبني خالد ومنيوة، مع العلم أن غمارة كانت تتوفر على 15 سوقا، تتمركز أساسا في الظهر الكلسي. وتتوفر على العديد من الوثائق التي توثق لنا عمليات البيع والشراء بالأسواق الغمارية² والتي استطعنا أن نصنفها على الشكل التالي:

توزيع الأسواق بمنطقة غمارة حسب أيام الانعقاد³

اليوم	عدد الأسواق	المكان
الاثنين	2	باب برد-وزكان.
الثلاثاء	8	الجبهة، بني نبات، زيتونة تاوارات، عين احجار، بني بورزة، بني منصور، بني احمد
الأربعاء	4	خزانة، بوكورة، تنقوب، بني حسان.
الخميس	7	فيفي، المضيق، الوطى، ونان، شفشاون، بني سلمان، بني خالد
السبت	4	تاموروت، بني سميح، الملح، العنقود
الأحد	4	بني رزين، بني دركول، أحد خضيركروش، بني زيات.

إذا تأملنا هذا الجدول، يمكن الخروج بملاحظتين اثنتين:

1. إن غمارة الغربية تتوفر فقط على سوق واحد (تاوارات) إضافة إلى مدينة شفشاون.

2. أن معظم الأسواق تنعقد يوم الثلاثاء.

لقد كانت المبادلات في الأسواق الغمارية تتميز بالتقطع وعدم الانتظام، والهدف منها ليس الحصول على النقد، وإنما الحاجيات. ويصعب الحصول على فكرة دقيقة حول الترددات على الأسواق الغمارية، غير أنه يلاحظ أن أهم سوق لقبائل غمارة خارج كونفدراليتها هو سوق السبت بواد لاو وسوق الأحد ببني دركول وثلاثاء بني احمد⁴، نظرا لبعدها عن الأسواق وصعوبة الوصول إليها، مما كان يضطر معه سكان اغمارة إلى التردد على أسواق

¹ - الهراس المختار، تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب...، مرجع سابق، ص. 109.

² - تتوفر على 98 وثيقة عدلية تغطي كل قبائل غمارة تقريبا، حيث يدور موضوعها على توثيق عمليات البيع والشراء بالمنطقة المدروسة.

³ - Joan Nogué-José Luis villanova, *España en Marruecos (1912-1956) Discursos Geográficos e Intervención Territorial*, Editorial Milenio, Primera Edición, Noviembre de 1999, p. 138.

- Archivo General de la Administracion, Servicio de Reproduccion de Documentos, Peticion n 574, Sección Africa, Caja/Legajo 81/2390.

⁴ - Ibid., p. 138.

خارج القبيلة، حيث كان أكثر من 80% من مجتمع السوق إناثاً¹، وكان يمكن التمييز بين مجموعتين من النساء:

. المجموعة الأولى تبيع الأواني الفخارية، والمجموعة الثانية تبيع المناديل والأغطية المصنوعة من النسيج بخطوط حمراء وبيضاء، وتنحدر من قرية تارغا (عمارة الساحلية)². ورغم تردد الساكنة الغمارية على الأسواق المجاورة (سوق واد لاو مثلاً) فإنهم يحسون بعدم الأمان، إذ صرح أحد الفلاحين بالعبارة التالية "إننا لا نتواجد بقبيلتنا"³.

وعموماً، فأسواق المنطقة الغمارية كانت لها وظيفة التموين، حيث تقوم بتنشيط العلاقات بين الفلاحين والتجار، وتسمح للوحدات المنتجة بحمل بضائعها إلى السوق واستبدالها بأخرى⁴، أو من أجل الحصول على المال. وكانت العملة السائدة بالمنطقة طيلة القرن 19م وبداية القرن 20م هي العملة المغربية (دراهم سكة وأوقية) كما تبين بعض الوثائق⁵، غير أنه خلال العقود الأخيرة من القرن 19م أصبحت العملة الأجنبية رائجة، خاصة الإسبانية، نتيجة تدفق السلع الأوربية على المغرب⁶.

يتضح مما سبق أن الأسواق الأسبوعية والمواسم في قبائل غمارة تجاوزت الوظيفة الاقتصادية والدينية لتلعب أدوراً سياسية، فنظراً لتوافد أعيان وشيوخ المنطقة عليها، تكون الفرصة مواتية لمناقشة وضعية القرية، ومعرفة المستجدات. فمثلاً عند إصدار ظهير سلطاني لتعيين قائد جديد بالقبيلة أو عزله، أو ظهير لدعوة رجال القبيلة للمشاركة في حملة عسكرية، يتم الإعلان عنه في السوق ليصل الخبر بشكل أسرع إلى جميع فئات القبيلة، كما كان السوق مقراً ثانوياً لمؤسسة الجماعة المكلفة بتسيير شؤون القبيلة⁷، بما في ذلك الفصل في النزاعات، كما تبينه وثيقة تعود إلى سنة 1341 هـ/1923م، حيث ورد فيها ضرورة الاجتماع في سوق الاثنين بترغة الواقعة فوق تراب قبيلة بني زيات، أما موضوع الاجتماع فهو الاعتداء على رجل بالضرب (انظر الوثيقة العدلية). ويظهر أن السوق كان مؤسسة متعددة الوظائف، إلا أن حجم الأسواق بالمنطقة يعكس ضعف

¹ - Mujeres Moras, "España y Marruecos", *Revista Mensual de Estudios Hispano-Marroquíes*, Núm. 6, Madrid, Octubre de 1935, p. 9.

- Troin (F), *Les Souks Marocains, Marchés Ruraux et Organisation de L'espace dans la Moitié Nord du Maroc*, Thèse Doct, Aix-en- Provence, edi –sud-CNRS- Ministère de L'Éducation Nationale, 1975, p. 316.

² - Mujeres Moras, "España y Marruecos ...", op. cit., p. 10.

³ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 203.

⁴ - Maximilien Antoine Cyprien Henri Poisson de la Martinière, et Napoléon Lacroix, *Documents pour Servir à L'étude de Nord Ouest Africaine...*, op.cit, p. 350.

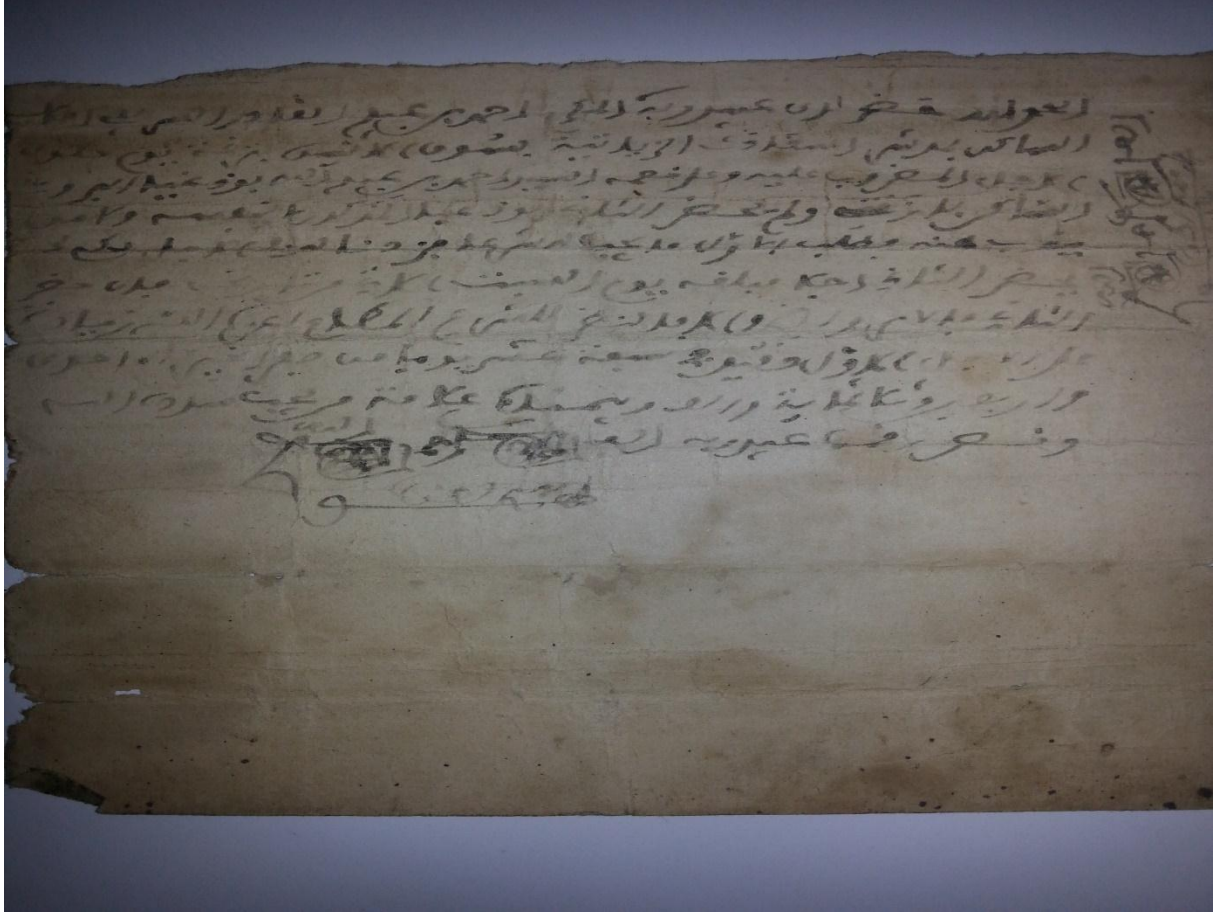
⁵ - مجموعة من عقود البيع والشراء التي تتوفر على نسخ منها والتي تم الفترة المدروسة ورد في جملها أن الأداء كان بالدرهم نقداً وأوقية.

⁶ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. 73.

⁷ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الأول، ص. 75.

المبادلات، وفي السنوات العجاف التي كانت تصيب المنطقة المدروسة بشكل دوري، كان يفرض على قبائل غمارة الخروج من عزلتها وانغلاقها والبحث عن مجالات أوسع للمبادلات التجارية.

وثيقة تبين دور الأسواق في الفصل بين النزاعات¹



2-العلاقات التجارية لقبائل غمارة:

بالرغم من ضعف المردودية الفلاحية وقلة الإنتاج لقبائل غمارة، فإنها سعت إلى ربط علاقات تجارية مع محيطها، وكان الوسطاء يلعبون دورا أساسيا في هذه العملية²، كجلب البضائع من جهات أخرى وترويج المنتوجات المحلية. ومن بين أنشطة تجار المنطقة متاجرتهم مع القبائل المجاورة ككتامة و بني احمد، حيث نجد الرزنيين يحملون بعض البضائع لبيعها في أسواق هذه القبائل، ومنها الأواني والمعدات الخشبية والجوز واللوز والبنادق³.

¹ - وثيقة خاصة أمدنا بها مشكورا الأستاذ محمد عبد المومن الغماري.

² - عبد الرحمان الطيبي، الريف قبل الحماية، قبائل ساحل الريف الأوسط 1860-1912، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2008م، ص. 161.

³ - مولييراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 242.

وكانت تقوم المبادلات التجارية على ملاحاة السواحل، وكان لمرسى سيدي فتوح ومرسى تاغسة ومرسى الجبهة وترغة دورا رياديا في هذه المبادلات، حيث انفتحت على البحر الأبيض المتوسط لتمارس التجارة وتراقب مجالا بحريا، ظل لقرون عديدة، مصدر تهديد للقراصنة الأجانب، ففتوقت في ذلك مرات وفشلت مرات أخرى¹. وبالرغم من هذا التهديد الأجنبي فقد كان البحارة ينقلون البضائع والمسافرين على طول الشريط الساحلي الممتد من الريف إلى تطوان، وتستعمل قوارب كانت تدعى "غرابو" وزوارق صغيرة "الفلوكات"، التي تمتاز بسهولة رسوها عند الخلجان والمرافئ الطبيعية². ويذكر موليراس أن مرسى تاغسة كان يتوفر على قوارب شراعية، وبواسطتها يقوم الغماريون بنقل بعض المواد الفلاحية كالقنول إلى قبيلة قلعية ويتزودون منها بمواد أخرى خاصة الملح³، ويضيف موليراس "أما المعاملات التجارية مع تطوان فهي مختلفة، فالمدينة المغربية القديمة، ترسل إلى غمارة كل أنواع الملابس والأثواب، مقابل خشب النجارة والألواح والجوز واللوز والصامت، حيث تقطع الغابات الكثيفة وترسل الروافد الضخمة إلى مدينة تطوان بواسطة مراكب ... وكانت مدينة تطوان هي التي تحتكر تجارة المنطقة ولا تترك إلا القليل لباقي الأسواق"⁴.

يتضح أن الخشب شكل أهم صادرات المنطقة، حيث إن جل الجبال الغمارية كانت غنية بالشروات الخشبية، خاصة أشجار الأرز والصنوبر، وكانت تمول به بعض المدن كتطوان والتي تصنع السفن الحربية كسلا وغيرها⁵. وكانت هذه المادة تحظى باهتمام المخزن وتصديرها يتم بأمره، كما يبين ذلك ظهير سلطاني إلى قائد المنطقة الشيخ علي بن مرزوق، ومما جاء فيها: "وبعد ... ابقيناكم قبالة العسة-أي حراسة الشاطئ الممتد من واد لا إلى الجبهة-وقطع العود لمراكبنا الجهادية، فالزموا ذلك، وقفوا عنده ..."⁶، وهكذا ارتبطت تجارة الخشب بالجهاد البحري، حيث ازدادت في فترة السلاطين عبد الرحمان بن هشام ومحمد الرابع والحسن الأول، أطماع الأوربيون للاستيلاء على السواحل المغربية، خصوصا بعد هزيمة تطوان 1860م، مما استدعى بناء أسطول مغربي قوي لمواجهة هذه الأطماع، ولذلك كان الطلب على الخشب الغماري في تزايد، سواء في النصف الثاني من القرن 19م أو في فترة الحماية الإسبانية خلال النصف الأول من القرن 20م، الذي سيصل إلى حد الاستنزاف.

¹ - بوشتي الفلاح، "مادة الجبهة"، معلمة المغرب، الجزء 9، سلا 2002، ص. 2920.

² - عبد العزيز السعود، تطوان خلال القرن 19م، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي، منشورات جمعية تطوان اسمير، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان 1996م، ص. 41.

³ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 232.

⁴ - موليراس، المغرب المجهول...، مصدر سابق، ص. 232.

⁵ - المصدر السابق، ص. 232.

⁶ - رسالة من السلطان المولى محمد بن عبد الله بتاريخ 25 جمادى الأولى 1172 هجرية-1758م (سعيد أعراب، ظهائر سلطانية ...، مرجع سابق، ص. 100).

وقد ساعد وادي أورينكا على نقل الأخشاب من أعالي جبال بني رزين وبني سميح ومتيوة إلى الجبهة، حيث كانت تلتقي هذه الأخشاب في مياه الوادي فيجرها، وفي حالة ما إذا علقت بالصخور يقوم صاحبها بفكها، لتتم مسيرتها، وعند وصولها إلى حوض الجبهة تنقل عبر البحر في اتجاه تطوان وقلعية¹.

وإلى جانب الخشب، عرفت قبائل غمارة بعض المبادلات التجارية مع تطوان طيلة القرن 19م، وإلى حدود فترة الحماية الإسبانية، حيث كان يصل إلى تطوان عبر مرسى "مرتين" عدد من المراكب الصغيرة ذات حمولة تتراوح ما بين 8 إلى 18 طناً، تأتيه من المراسي الصغرى الموزعة على الساحل الريفي، التي كانت تستعمل لإفراغ الحمولة وشحنها، مثل غصاصة والجبهة وترغة²، وأما البضائع المتبادلة فقد كانت تطوان تزود من هذه المناطق بالفواكه الجافة، خاصة اللوز والجوز والعنب المجفف، وبالمواد الأولية كخام الحرير والخشب وجلد الماعز، وتصدر لها منتجاتها الصناعية مثل النسيج الصوفي والبلاغي والقطني وبعض الملابس الأخرى، بالإضافة إلى البضائع المستوردة من أوروبا³. وكان المخزن يحرص على أن تتم هذه المبادلات بشكل منتظم، كما تؤكد ذلك رسالة من السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام إلى قائد تطوان محمد اشعاش مؤرخة سنة 1831م، جاء فيها "... وغمارة تتسوق من تطوان في أمن وأمان واطمئنان، واستلمهم بالإحسان، ولا تدع أحدا يرومهم بظلم أو عدوان. والسلام"⁴. ويبدو من هذه الرسالة أن المبادلات التجارية بين تطوان وبادية غمارة، وربما كانت تفرض عليها بعض الضرائب، وربما يتعرض التجار للمضايقة والتعسف من طرف المكلفين باستخلاصها، ولذلك يوصي السلطان قائد تطوان بالعناية بهم وحمايتهم. وقد جرت العادة بتطوان أداء ضريبة المكس على البضاعة الوافدة على المدينة، كما أن إفراغ الحمولة بمرسى مارتيل كان يخضع لقوانين صارمة، يشرف على تطبيقها "قبطان" المرسى، بهدف تأمين هذه المبادلات⁵، وعليه كان قائد القبائل الغمارية حريصاً على ضبط رحلات وأسفار السكان المتجهين إلى مدينة تطوان، ويتضح ذلك من خلال رسالة أخرى من قائد قبائل غمارة عبد القادر ابن مرزوق، إلى خليفته بتطوان سنة 1874م، يخبره فيها بقرب وصول أشخاص من قبيلة بني جرير لقضاء حاجاتهم من المدينة ويوصيه بالاعتناء بهم والسهر على أحوالهم حتى لا يضر بهم أحد⁶.

¹ - مولييرس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 232-242.

² - عبد العزيز السعود، تطوان خلال القرن 19م...، مرجع سابق، ص. 30.

³ - مولييرس، مصدر سابق، ص. 242.

⁴ - محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الثامن، مصدر سابق، ص. 279.

⁵ - عند وصول المركب إلى مرسى مارتيل يصعد إلى ظهره قبطان المرسى، فيزيل منه الشراع والمخطف والمقبض، ويضعهم في المخزن بالديوانة بعد ذلك ينزل رايس المركب إلى البر ليمارس تجارته، وبعدما يقضي أوطاره تسلم له شهادة بعدم تركه بالبلد أي دين في ذمته، وبناء على هذه الوثيقة ترد إليه المعدات التي كانت محجوزة. أنظر عبد العزيز السعود، تطوان خلال القرن 19م...، مرجع سابق، ص. 40.

⁶ - محمد خرشيش، "جوانب من علاقة تطوان بقبائل غمارة خلال القرن التاسع عشر انطلاقاً من وثائق محلية"، ضمن ندوة: تطوان قبل الحماية 1860-1912، يوم 12-13-14 نونبر 1992، مطبعة الهداية، تطوان 1994، ص. 122.

صحيح أن مدينة تطوان هيمنت على العلاقات التجارية مع قبائل غمارة، لكن هذا لم يمنع من توسع شبكة العلاقات نحو مدينة فاس وطنجة أو حتى مع بلاد الريف، حيث يقول صاحب المغرب المجهول: "وتتم العلاقات التجارية بين قبيلة بني خالد وباقي الأجانب من خلال ترويج الكيف والطابة والزبيب وخصوصا الجوز ... بينما التاجر الغماري يقضي أوقاته مسافرا في أغلب الأوقات كبائع متجول، حيث يشاهد في بادية فاس وطنجة والبرابر متنقلا بين دواويرهم"¹. يتضح من هذا الوصف أن العلاقات التجارية الغمارية لم تقتصر على المناطق المغربية المجاورة، بل تعدتها إلى المتاجرة مع الأجانب، وهنا لابد من استحضار خصوصيات الفترة المدروسة التي تميزت بحرب تطوان 1859م ومخلفاتها بعد توقيع اتفاقية نونبر 1861م التجارية، التي تشمل على 64 فصلا، صرحت بامتيازات هائلة اقتصادية وملاحية وسياسية ودينية، ومن أبرز فصول هذه الاتفاقية المرتبطة بالوضعية التجارية للمنطقة المدروسة²:

- الفصل 15: ضمان الحرية التجارية للرعايا الإسبان داخل الأسواق المغربية.
 - الفصل 7: حرية المخالطة والتجارة.
 - الفصل 35/23: تنظيم الملاحة البحرية بين الجانبين والتعهد بتقديم العون لمراكبهما.
 - الفصل 26/25: تقييد نشاط بحرية الريف ومحاربة القرصنة.
 - الفصل 45: السماح بالتجارة بين الحصون المحتلة والأهالي المجاورين.
 - الفصل 47: السماح بالمخالطة والاستعانة بالسماصرة والوكلاء.
 - الفصل 48: التعهد بعدم منع المتاجرة في الحبوب ساعة المنع.
 - الفصل 50: وضع جدول الضرائب المقررة لمواد الحبوب، التوابل، الفواكه، الصوف، الجلد، الشحمة، المواشي، الدجاج، البيض، الغسول، الشعير، القنب، والتعهد بعدم الزيادة فيها.
 - الفصل 51: السماح بتصدير الخشب.
 - الفصل 58/57: السماح بالصيد في السواحل المغربية.
- وهكذا حصلت إسبانيا على كل الامتيازات البحرية والبرية من خلال السيطرة على المقدرات الموجودة شمال المغرب بأقل الأثمان، ولتعزيز ذلك، ستضع إسبانيا آليات جديدة لتنظيم هذه التجارة، منها مرسوم 18

¹ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 252.

² - عبد الرحمان بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء 3، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2008، ص ص. 481 - 517.

ماي 1863م¹، والهادف لجلب التجارة المغربية والشمالية منها على وجه الخصوص إلى الموانئ والتغور المتوسطية².

يتضح مما سبق أن العلاقات التجارية في المنطقة المدروسة طغى عليها الحضور الإسباني خلال النصف الثاني من القرن 19م سواء من خلال القنوات الرسمية والدبلوماسية أو من خلال التهريب أيضا³. وهو ما أكده صاحب المغرب المجهول عندما قال: "لكنهم أصبحوا في السنين الأخيرة، يتجهون إلى بادس القديمة Penon de Velez حيث يشتررون بنادق ذات طلقات متكررة. ولن يمر قرن من الزمان حتى يتمكن رعايا صاحب الجلالة الشريف من التسلح كلية تقريبا من أوربا، بفضل عمليات التهريب والبيع السري للأسلحة"⁴. ولا ننسى أن هذه العلاقات التجارية كانت خلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م هدفا للصوصية الاجتماعية، فقطع الطرق والسطو على متاع الغير كان يشكل عادة من الحياة اليومية⁵، حيث ساهمت طبيعة غمارة في تزايد حدة هذه الظاهرة؛ إذ كانت تخلق ظروفًا مناسبة لها، باعتبارها مناطق محصنة طبيعيا، يصعب على الجند المخزني اقتحامها، فتتحول بذلك إلى أوكار يعيش فيها اللصوص الذين يوجهون غاراتهم على الممرات التجارية انطلاقا منها، وقد يعلو شأن اللصوص في هذه الأماكن فيتحولون من مجرد رؤساء للعصابات إلى شخصيات يحسب لها حسابها⁶، فمثلا الطريق من تطوان إلى فاس عبر بلاد غمارة كان معروفا بالصوصية⁷.

وإذا كان هذا الوضع قد أثر بشكل سلبي على النشاط التجاري بمنطقة غمارة بالاضطرابات، فإنه ساعد على ازدهاره في مناطق أخرى، لأن القبائل الغمارية عموما كانت تحاول الحفاظ على الحد الأدنى من المعاملات التجارية، باللجوء إلى التقاليد المألوفة في هذا الميدان، حيث كانت كل قبيلة تحمي القافلة إلى أن تغادر

¹ - Rezete Robert, *Les Encalaves Espagnoles au Maroc*, Nouvelles Editions Latines, Paris, 1976, p. 43

² - إدريس الشلوشي، *الجزر المغربية المتوسطية (بادس، النكور، جزر ملوية، الرهان، تاورة) 1799-1912م الغزو والمقاومة*، الطبعة الأولى، الرباط، 2012، ص. 85.

³ - على سبيل المثال: أولى المكتب التجاري بقتضية إسبانيا بطنجة عناية خاصة بالمشاريع التجارية، وكان يرسل تقارير وافية عن المواد المتوفرة بأسواق شمال المغرب وأسعارها (Archivo del Ministerio de Asuntos Exteriores, Plaza de la Provincia 1, Puerta del Sol)

وثيقة بتاريخ 3 غشت 1871م موضوعها التشاور بين قنصل إسبانيا والبرتغال حول سعر الصوف في السوق المغربية:

(A.M.A.E. H 2076-1860-1930 TANGER)

وثيقة بتاريخ 12 غشت 1898م من قنصل إسبانيا بالمغرب إلى كاتب الدولة بمدريد موضوعها تجارة الصوف، السكر، الخشب، بالأسواق المحلية المغربية:

(A.M.A.E. H 1643-1890-1907 TETUAN)

⁴ - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 242.

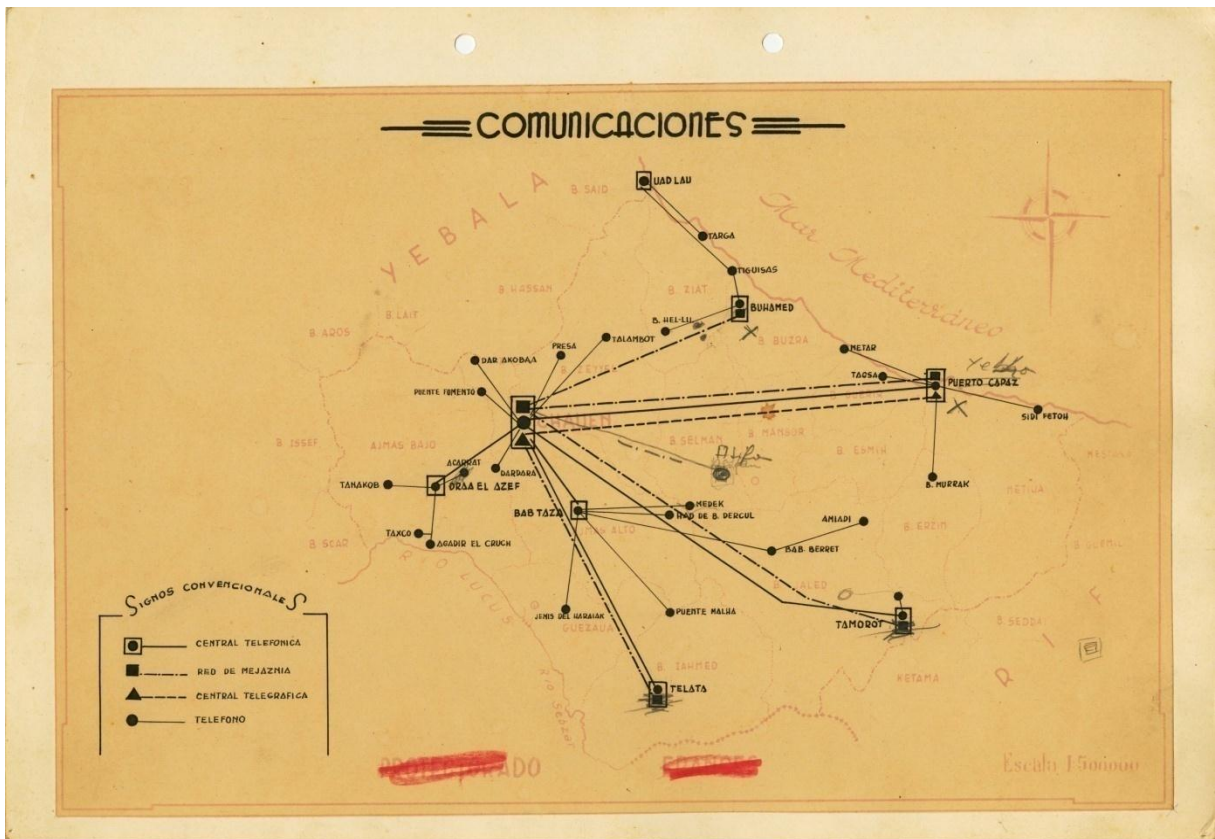
⁵ - عبد العزيز خلوق التسماني، *جوانب من تاريخ جباله المعاصر...*، مرجع سابق، ص. 4.

⁶ - عبد العزيز خلوق التسماني، *جوانب من تاريخ جباله المعاصر...*، م. س، ص. 6.

⁷ - سيدي محمد الكتاني، *المقدس في المجتمع الجبلي 1894م-1912م...*، م. س، ص. 104.

حدودها، وقد تتعرض القافلة للنهب أو الغصب أو السرقة، وهنا يجتمع وجهاء القبيلة ويلزمون المعتدي برد ما اختلس أو يحملونه غرامة فادحة تثقل كاهله، وإن اقتضى الحال، تفرض على العائلة والعشيرة. وقد يتفاقم الأمر، فيفرض القصاص على أفراد القبيلة، لأن مثل هذا القصاص يضمن حرية التجارة وحسن الجوار والمحافظة على المعاملات الودية بين القبائل المجاورة¹. ومثل هذه الإجراءات هي التي ساهمت في تنشيط حركة التجارة بغمارة بالرغم من الاضطرابات خلال فترة ما قبل الحماية الإسبانية؛ غير أن العلاقات التجارية لقبائل غمارة ستتغير مع حلول الاستعمار، إذ سنجد في وثيقة موقعة في 4 نونبر سنة 1927م (تتوفر على نسخة منها) اتفاقية بين القيادة السياسية لمنطقة الزومي التابعة للحماية الفرنسية والقيادة السياسية لمنطقة غمارة، تلزم التجار الغماريين وتتحكم في نوعية البضائع التي سيدخلونها أو التي سيخرجونها من أسواق منطقة الزومي (مثلا عدم تجاوز 20 كيلو من القمح أو الشعير للعائلة في الأسبوع)²، ولهذا سنجد الاستعمار الإسباني لجأ إلى إنشاء شبكة من الطرق البرية لتسهيل العمليات التجارية من جهة، وتشجيع المعمرين الإسبان على الاستيطان ببلاد غمارة من جهة ثانية (انظر الخريطة).

الاتصالات بقبائل غمارة³



¹ - المريني العياشي، صور من التاريخ البطولي لمنطقة جبال "النضال الجبلي الأنظمة الاجتماعية الجبلية" ... م. س، ص. 109.

² - Archivo General de la Administración, Servicio de Reproducción de Documentos, Petición n 564, Sección Africa, Caja/Legajo 81/1735.

³ - ADCP, Gomara, Caja 1, A/1-A/6, Carpeta A/2.

يتضح من هذه الخريطة أن الاستعمار الإسباني اقتصر على ربط منطقة غمارة بمنطقتي الريف واجباله عبر الطريق الرابط بين كتامة بباب برد وباب تازة والشاون، بينما بقيت القبائل الغمارية الوسطى (بني منصور وبني سميح) والقبائل الساحلية (بني جرير وبني بوزرة وبني زيات) بعيدة عن الربط بالطرق التجارية الرئيسية، وهو ما يؤكد أن الاستعمار الإسباني كرس العزلة التي كانت تعاني منها المنطقة أصلا قبل الحماية الإسبانية.

استنتاجات:

تؤشر الدلائل السابقة عن تطور تجارة بلاد غمارة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن 20م، ولئن كانت هذه السوق نائية في جبال الريف، فالظاهر أن ذبذبات نشاطها التجاري كانت حساسة للظرفية المغربية العامة، وكانت متأثرة بالظروف المحلية، وبما أن قسطا من الرواج كان يتناول الإنتاج الزراعي والرعي الموجه للتصدير، فإن الظرفية الأوربية كانت مؤثرة بصفة غير مباشرة. وتمثل هذه الظرفية الأخيرة في تغير أسعار البضائع التي كان يصدرها المغرب، بينما كانت الظرفية المغربية تتمثل في عوامل أخرى تتعلق بتوفر المحاصيل الزراعية أو نقصانها، وبالأزمات التي أحدثتها الصدام العسكري المغربي الأوربي، وتدهور تجارة شمال المغرب وبالأزمة النقدية.

ومعلوم أن انفتاح المغرب على البضائع الأوربية، بصفة متزايدة، طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتسريعه لتصدير بضائعه إلى أوروبا، كلها أمور ربطت السوق المغربية بالطلب الأوربي ربطا وثيقا، استمرت إلى حدود فترة الحماية الإسبانية، وبينما كانت فترة 1851-1873 بصفة عامة، فترة توسع الأسعار وتقدمها وارتفاعها في أوروبا، كان المغرب يستفيد من ذلك، أما الهبوط الاقتصادي الكبير في أوروبا والذي دام من 1873 إلى 1895، فقد كانت فيه فترة 1880-1885 شديدة على المغرب، حيث ضايقته مواده وخاصة بعد افتتاح قناة السويس، أصواف استراليا وجلود الهند، وهي مواد كانت قبائل غمارة تنتجها بكثرة.

أما عناصر الأزمة المغربية فكانت تتمثل في سنوات الجفاف حيث كانت المحاصيل هزيلة وضعيفة، كما أن انهزام المغرب في حرب تطوان وما تلا ذلك من معاهدات وتعويضات أثر على تجارة المنطقة المدروسة، ويبقى توقيع معاهدة الحماية 1912م الضربة القاضية التي تلقتها تجارة المنطقة، حيث ستتجه لخدمة المعمر والمستعمر، وهو ما سيجعل الميزان التجاري يشهد عجزا مزمنا للمنطقة.

الفصل الثاني: السياسة الجبائية وتأثيرها على الاقتصاد الغماري.

المبحث الأول: نظرة عن سياسة الجبايات في مغرب القرن 19م وبداية القرن 20م

اكتسبت الضرائب أهمية كبيرة بالنسبة للدول والكيانات السياسية التي حكمت المغرب خلال القرن 19م وفي فترة الحماية الإسبانية والفرنسية، ذلك لأن تحصيلها لهذه الضرائب يعني في جملة ما يعنيه إقرارا من المناطق التي تدفعها بنفوذ وسيادة هذه الدول¹ وتأكيد شرعية حكمها، كما أن مداخيل الضرائب تساهم في تدعيم موارد هذه الدول، وتمكنها من مواجهة الأعباء العسكرية والمصاريف المخزنية المختلفة²

والإسلام حين فرض الضرائب، كان يهدف منها خلق توازن اقتصادي واجتماعي، لذلك فرض قدرا معلوما سنويا أو موسميا على إنتاج الأراضي الزراعية والثروة الحيوانية أو المعدنية والعقارات التجارية أو السكنية ذات الدخل³، وقد شملت هذه الضرائب الشرعية، أولا: الفياء بما فيه الخراج والجزية والضريبة التي تفرض على كل التجار المشركين وتجار أهل الذمة، وثانيا: الخمس بما فيه الركاز⁴ والغنائم. ثالثا: الزكاة بما فيها تلك التي تؤخذ عن المواشي وعن الزرع والثمار وعن المعادن بما فيها الذهب والفضة.

وإذا كانت التعاليم الإسلامية نظمت وسطرت بنود النظام الضريبي، فإن السلطة المركزية فرضت ضرائب غير شرعية، ففي فترة ما قبل الحماية، كان تأسيس النظام الجبائي نتيجة لضغط الميزانية، الناتج عن الوضعية المالية العامة التي تدهورت لأسباب عدة، مرتبطة بزيادة النفقات وبتقلص الإيرادات معا. فالنفقات الناتجة عن المواجهات العسكرية والمترافقة مع ضرورة الحصول على أسلحة حديثة بأسعار متزايدة، أثقلت بشكل متدرج التكاليف العمومية، وفضلا عن ذلك فإن تطور العلاقات التجارية بين المغرب وأروبا دفعته إلى إبرام العديد من المعاهدات، كان من نتيجتها تقليص الأرباح التي كان يمكن جنيها من عمليات التجارة الدولية. وهكذا وأمام دين خارجي متزايد، بقي الملاذ الوحيد هو اللجوء إلى الضريبة.

وكان النظام الجبائي المعمول به، قبل الحماية، يتكون من الاقتطاعات التالية:

¹ - عبد الغني خالد، تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب (القرن 19)، مطبعة دار النشر المغربية، 2002، ص. 12.

² - عثمان المنصوري، "تأثير الضرائب على النشاط التجاري بمغرب القرن السادس عشر"، مجلة أمل، العدد 6، السنة 2، 1995، ص. 35.

³ - علال الهاشمي الحياي، "الضرائب المالية المفروضة على وسائل الإنتاج لصالح الطبقة المحتاجة"، دعوة الحق، العدد 233، السنة 1983، ص. 70-71.

⁴ - تعريف الركاز عند جمهور العلماء: هو كل مال علم أنه من دفين أهل الجاهلية، ففي الموسوعة الفقهية: وفي الاصطلاح: ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية والحنابلة) إلى أن الركاز هو ما دفته أهل الجاهلية، ويطلق على كل ما كان مالا على اختلاف أنواعه، إلا أن الشافعية خصوا إطلاقه على الذهب والفضة دون غيرها من الأموال. أما الركاز عند الحنفية فيطلق على أعم من كون ركزه الخالق أو المخلوق فيشمل على هذه المعادن والكنوز.

1- العشر والهدية والمكس.

- العشر: كانت الأراضي الفلاحية المنتجة التابعة لسلطة الدولة تخضع لاقتطاع يعادل 10 % من غلتها وثمارها، وكان هذا الاقتطاع المنفذ تحت اسم العشر نوعا من الزكاة على الدخل الفردي¹.
- الهدية: وهي هبة تهدي للسلطين بمناسبة الاحتفالات الدينية، وكانت الهدية في بدايتها تقدم طواعية من قبل القبائل إلى السلطان، لكنها أضحت بعد ذلك إلزامية، في شكل إتاوة سيادية. وكان مبلغ الضريبة محددًا سلفًا، ويتوجب على القبائل تسديده حالما يعطى الإذن للأمناء باستيفائها².
- المكس: فقد أصدر سيدي محمد بن عبد الله، منذ بداية حكمه، مرسوما بجباية "المكس" أو الضريبة المتنوعة على عمليات التجارة الداخلية. وكان قد استصدر قبل ذلك "فتوى" أو استشارة مؤيدة من العلماء³. وكانت هذه الضريبة حجر عثرة دائما بين السلطة والمدن الكبرى. والمعنى الأول للفعل "مكس" هو في الواقع خدع شخصا في السوق⁴.

2- الجزية والخراج والزكاة.

- الجزية أو "ضريبة الرؤوس": ضريبة يدفعها غير المسلمين للاستفادة من حماية السلطان المسلم، وهي أيضا ضريبة مفروضة على المواطنين لتمويل الدفاع عن الوطن وحمايته، فخلافا لاعتبار الجزية رمزا للخضوع للنظام الإسلامي، فإنها في الواقع بديل مالي عن الخدمة العسكرية الإلزامية على المسلمين⁵، وكانت ضريبة الرؤوس هذه قد أدخلت إلى المغرب من قبل إدريس بن إدريس الذي اجتباها من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وفي بداية تطبيقها، كان المبلغ المحدد من قبل الخليفة مفروضا على كل شخص قادر على حمل السلاح، باستثناء النساء والأطفال والمسنيين الذين كانوا معفيين منها⁶.
- الخراج: وهو بالمعنى الحرفي، محصول الأرض. وهي ضريبة عقارية على الأراضي التي يستمر غير المسلم في استغلالها ولو أنها أملاك إسلامية، غير أن ورثة هؤلاء المالكين غالبا ما يعتنقون الإسلام فيما بعد، وبما كان ذلك يفسل الخزينة لو أفلتهم من هذا الخراج، فقد انتهى الأمر إلى عدم تغيير وضعية الأرض بتغيير

¹ - المجلس الاقتصادي والاجتماعي، "النظام الضريبي المغربي: التنمية الاقتصادية والتماusk الاجتماعي"، إحالة ذاتية شتنبر/2012، تم إعداد التقرير من طرف اللجنة الدائمة المكلفة بالشؤون الاقتصادية والمشاريع الإستراتيجية، ص. 54.

² - المجلس الاقتصادي والاجتماعي، "النظام الضريبي المغربي: التنمية الاقتصادية والتماusk الاجتماعي"، مرجع سابق، ص. 55.

³ - Laarbi Essakali, Henri Maurin, *Le Mémorial du Maroc*, Editions Nord Organisations, Tome 4, Rabat, 1985, p. 119.

⁴ - المجلس الاقتصادي والاجتماعي، "النظام الضريبي المغربي: التنمية الاقتصادية والتماusk الاجتماعي"، م. س، ص. 55.

⁵ - سعيد جفري، تدبير المالية العمومية بالمغرب، مطبعة امكارف، الدار البيضاء، 2009، ص. 76.

⁶ - السيد عبد المولى، التشريع الضريبي المغربي، مطبعة الساحل، الرباط، 1978، ص. 6.

مالكها¹. يجري تقدير قيمة الخراج عموماً، من قبل السلطان الذي كان يحدد حصة المحاصيل التي يختار اقتسامها معهم، كما يمكن تسديد الخراج كذلك بالنقود المتداولة. وكان السلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي قد قرر إجراء مسح "تكسير" لكامل شمال إفريقيا واقتطاع ثلث على حساب الجبال والأراضي غير المنتجة². ولدى وقوع الخراج في الإهمال، بسبب صعوبات وضعه موضع التطبيق، تم استبداله في العهد السعدي بضريبة عقارية أخرى، ذات أصل مماثل تقريباً، وهي النائية، ضريبة البدل. كانت النائية مستحقة على القبائل التي لم تكن تؤدي الخدمة العسكرية على مجموع الأراضي المنتجة التي تستغلها³. ومن ثمة فإن التمييز الذي جرى به العمل بين قبائل الكيش (قبائل عسكرية معفاة من النائية) وقبائل النائية (الخاضعة لها) يعود إلى تلك الفترة⁴.

- الزكاة: وهي بالمعنى الحرفي التزكية أو الصدقة الشرعية، وكانت وظيفة الزكاة أولاً تطهير دخل المسلمين وأموالهم، وهي مبلغ يجب على كل مسلم منتج أن يدفعه، معرباً بذلك عن تضامنه مع الجماعة. وهي الركن الثالث للإسلام بعد الشهادة والصلاة⁵. وهناك العديد من الرسائل السلطانية التي كانت تنص على ضرورة جمع الزكاة من القبائل الغمارية، ونذكر في هذا الصدد رسالة عبد الرحمان بن هشام إلى قائده على قبائل غمارة عندما يقول: "خديمنا الأنصح القايد محمد اشعاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، وصلنا كتابك وعرفنا ما تضمنه خطابك ... وعلمنا ما حزت من زكاة غمارة ... فاجتهد في إطاحة القبيلة وحسم مادة الفساد منها ... فستستقيم أحوالهم وتتحسن خدمتهم على يدك إن شاء الله ... والقبائل جادون في أداء الواجب عليهم وفقك الله والسلام"⁶. وفي رسالة ثانية عن أهمية الزكاة لدى السلطة المغربية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، التي تؤكد أنها كانت تدفع من طرف القبائل الغمارية كل سنة، كما توضح أنها كانت سبباً في إعفاء قواد القبائل، حيث جاء فيها: "خديمنا القائد محمد اشعاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد فقد كتبنا لعداوش أن يرفع لك زكاة قبيلة غمارة في السنة الماضية وفي هذه السنة، فإذا دفع لك وحزته من عنده يأتينا كتابه بالدفع لك وكتابك بالحيازة لذلك فعند ذلك نكتب لك ولاية غمارة، فقد بلغنا أنها قريبة من تطوان وأسواقهم ومرافقهم كلها منها ..."⁷.

¹ - السيد عبد المولى، م. س، ص. 7.

² - Laroui Abdellah, *L'Histoire du Maghreb*, t 1, Petite Collection Maspero, Paris, 1976, p. 168.

³ - سعيد جفري، مرجع سابق، ص. 79.

⁴ - Les Finances des Collectivités Locales au Maroc, Essai d'une Approche Global des Finances Locales.

⁵ - عبد الغني خالد، تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 15.

⁶ - رسالة مؤرخة بتاريخ 1241 هجرية من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد اشعاش. مديرية الوثائق الملكية بالرباط، محفظة غمارة 1786 م-1986 م، تحت رقم TH-100.

⁷ - رسالة مؤرخة بتاريخ 1244 هجرية من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد اشعاش. مديرية الوثائق الملكية بالرباط، محفظة غمارة 1786 م-1986 م، تحت رقم TH-100.

وفي المغرب وبالرغم من أن أصل الزكاة موجود في النص القرآني، لم تكن للزكاة آليات التحصيل القسري المقام من قبل السلطات الإدارية¹. وهكذا أدى التخلي عن تحصيلها إلى جعل الزكاة تصرفا طوعيا محضا يأتيه المؤمنون لتمكين الأشخاص المستحقين² لهذه الصدقة من تأمين احتياجاتهم الحيوية.

3- الحركة، المونة، السخرة، الغرامة والتوزيع.

الحركة: هي التجريدة المسلحة التي تطلب من القبيلة من قبل السلطان، عندما كان يريد القيام بحملة عسكرية، وكان وجهاء القبائل هم الذين يشاركون في هذه الضريبة. وكانوا يجهزون أنفسهم بأنفسهم، ويعبئون خدمهم ويتلقون كمكافأة جزءا من الغنيمة³.

المونة: تحيلنا على التجهيزات والمؤن التي كانت القبائل تخصصها لجيوش ومساعدتي المخزن أثناء جولاتهم.

وتمثل السخرة العمولات التي تدفعها القبيلة للموظفين الذين يقيمون على أراضيها لأي سبب كان⁴.

والغرامة أو "شمارة" هي التعويض المالي عن ضرر ألحقه أحد أفراد قبيلة ما (كحالة التمرد والسلب أو الجريمة المرتكبة على أرضها) وتنحدر من مبدأ المسؤولية الجماعية.

وأخيرا التوزيع وهي ضريبة خدمية كانت تمكن من إنجاز تجهيزات ذات نفع مشترك أو القيام بأعمال السخرة.

وعموما فالمناطق التي لا يستطيع فيها المخزن تأمين جبايته بصورة عادية، فإنه يتدخل عسكريا لتأمين تلك الجباية، فينظم بهذه المناسبة "حركة" مجهزة من العسكر الخاص ومن القبائل التي لا تؤدي النايبة (قبائل الجيش) وكذلك من القواد وأعيان المناطق، ويبعث إلى هؤلاء برسائل تحث على تنظيم الحركة⁵.

4- آثار الترتيب العزيمي على المنطقة

يندرج الترتيب في إطار الإصلاح الجبائي الحديث. وكان هذا الإصلاح الذي قرره مولاي عبد العزيز يهدف إلى إقامة ضريبة جديدة على الأموال، تحل محل النظام القديم القائم على الزكاة والعشر والرسوم الأخرى السيادية⁶. ولما كان مولاي عبد العزيز خليفة مولاي الحسن الأول الذي شرع هو نفسه في العديد من محاولات

¹ - السيد عبد المولى، التشريع الضريبي المغربي...، م. س، ص. 6.

² - "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل" الآية 60 من "سورة التوبة" القرآن الكريم.

³ - Noureddine Bensouda, *Analyse de la Décision au Maroc*, Éditions la Croisée de Chemins, Casablanca, 2009, p.119.

⁴ - المجلس الاقتصادي والاجتماعي...، مرجع سابق، ص. 55.

⁵ - عبد الغني خالد، تاريخ السياسة الجبائية...، مرجع سابق، ص. 80.

⁶ - السيد عبد المولى، مرجع سابق، ص. 12-13.

الإصلاح الجبائي (تعميم الضريبة)، تحديد مبلغ الضريبة الفلاحية الواجب دفعه على كل قبيلة، للحد من حق التقييم الممنوح للعمال، مع محاولة إدخال نوع من التدرجية في الضريبة، وإصلاح إدارة "الأمانة".

كان هذا الإصلاح الجديد المعروف باسم "الترتيب" يتمثل في اتباع سياسة جبائية تقوم على العدل والمساواة، ولا تحابي أي شخص بامتياز ولا حصانة من الضرائب المحلية، التي كان يتمتع بها من قبل العديد من الأشخاص¹.

كما استهدف الترتيب تطهير المجتمع والاقتصاد المغربيين اللذين كانا يعيشان أزمة مالية مردها على وجه الخصوص، عدم اهتمام الناس بدفع ضرائبهم. ومع ذلك فقد تم إقرار الترتيب في ظرفية داخلية خاصة، وفي فترة كانت تتزايد فيها الضغوط الفرنسية على الحدود الشرقية والإسبانية ومن جهة الشمال. وهكذا، إذا كان مشروع الإصلاح الجبائي قد نشأ من ضرورة محلية تخص المغاربة، فإنه لم يسلم من التأثيرات الأجنبية، ولا سيما الفرنسية والإنجليزية.

لقد كان للتوقيع على معاهدة الجزيرة الخضراء سنة 1906 أثر مزدوج على اقتصاد المغرب، من خلال تقليص المداخل المتعلقة برسوم الجمارك، نتيجة لإقامة نظام "الباب المفتوح" وتحديد نطاق الضرائب المقطعة داخليا تبعا لما تم تحديده من ضرائب في المعاهدة المذكورة.

كما نستطيع أن نخلص إلى أن جل الانتفاضات التي قامت خلال فترة ما قبل الحماية كانت ذات طابع جبائي²، وهو ما تؤكد مجموعة من الأحداث بدءا من انتفاضة فاس³ سنة 1873م وانتهاء بالحملة التي قام بها مولاي الحسن الأول إلى الشمال سنة 1889م، وقد تميزت هذه الفترة، لا سيما في الربع الأخير من القرن 19م بالفوضى الضريبية، حيث واجه المغرب مواقف صعبة بسبب الحمایات والامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوربية بمقتضى المعاهدات التي أبرمتها مع المغرب في فترات متباعدة. وبمقتضى هذه المعاهدات أعفي الأجانب من الضرائب والرسوم التي يتحملها المغاربة، باستثناء الضرائب الجمركية⁴ مما سيؤدي إلى استنزاف خزينة الدولة، وبالتالي البحث عن موارد جديدة إما بالاقتراض أو فرض ضرائب جديدة على المواطنين المغاربة⁵. وهو ما أثر على القدرات الشرائية للسكان المغربية عامة والغمارية خاصة، وما يترجم لنا هذا التأثير المثل العامي الذي كان منتشرا في قبائل غمارة حول ضريبة الترتيب إذ يقول: "رود بالك يا الحراث في هاذ الزمان الصعيب

¹ - Roland Lebel, *L'impôt Agricole au Maroc "Le Tertib"*, Emile Larose, Paris, 1925, p. 58.

² - عبد الغني خالد، تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 104.

³ - هذه الانتفاضة التي عبر فيها الممول المغربي عن سخطه من السياسة الجبائية للمخزن، حيث بايع أهل فاس السلطان مولاي الحسن واشترط الدباغون في بيعتهم أن يزال عنهم المكوس، غير أن إعادة أمين مستفاد فاس (محمد ابن المدني بنيس) لهذه الضريبة عجلت باندلاع الفتنة يوم 15 أكتوبر 1873 م.

⁴ - السيد عبد المولى، التشريع الضريبي المغربي...، مرجع سابق، ص. 8.

⁵ - عبد الغني خالد، تاريخ السياسة الجبائية بالمغرب...، مرجع سابق، ص. 97.

راني بعث الحايك والتليس باش خلصت الترتيب "وبالتالي يمكننا القول إن تجربة إصلاح النظام الجبائي في المغرب قد فشل للعوامل التالية:

أولاً: عجز المخزن عن التطبيق الفعلي للترتيب، إذ كان غير قادر على تنزيله عملياً، حتى وإن لم يقاومه ذوو الامتيازات والمصالح؛ فالجهاز الإداري استشرى في تلايبيه الفساد.

ثانياً: الأوضاع البئيسة للبوادي في القرن التاسع عشر، إذ استطاع تبيان مظاهر أزمة وعتاقة القطاع الفلاحي، الذي شكل المهنة الرئيسية لغالبية الساكنة.

ثالثاً: الدور السلبي للقوى الأجنبية التي حملتها الأبحاث جزءاً كبيراً من المسؤولية في وأد التجربة، إذ سعت إلى إفشال الترتيب تحقيقاً لأهدافها الاستعمارية.

المبحث الثاني: السياسة الجبائية المخزنية بغمارة وعلاقتها بباقي المناطق.

1- مميزات النظام الضريبي في قبائل غمارة قبل الحماية.

حسب مجموعة من الرسائل المخزنية التي تتعلق بالمنطقة، فإن كافة قبائل غمارة كان المخزن يعفيها في غالب الأحيان من الواجبات الضريبية، ولا تقدم إلا الهدايا في الأعياد، خاصة عيد المولد النبوي الشريف، أو عند بيعة سلطان جديد، إعراباً عن خضوعهم وإقرارهم لبيعته. بالإضافة إلى ذلك كانوا يقدمون حصة من مال أحباس بعض أملاك المخزن بهذه القبائل. وفي مقابل هذا الامتياز تقوم هذه القبائل بالعسة وحراسة شواطئ المنطقة والمشاركة في الخدمة العسكرية عند الضرورة، ثم تقوم بتزويد المخزن بالخشب الجيد لصناعة السفن. وقد صدرت مجموعة من الظواهر السلطانية لتحرير كافة قبائل غمارة من الواجبات المخزنية¹. وكانت الأعشار والزكاة تجمع لتصرف على الفقراء وفي الجهاد، كما هناك فتوى للشريف العلمي تقول بعدم جواز فرض الضرائب على الصيادين².

وقد تمتعت قبائل غمارة بهذه الامتيازات دون غيرها من القبائل إلى حدود النصف الأول من القرن 19م، حيث بدأ فرض الضرائب عليها، لكن استخلاصها كان يتم بطرق غير مباشرة، أو أنها من إحداث عامل السلطان على المنطقة، ولذلك نجد ساكنة المنطقة لم ترضخ لسلطة محمد اشعاش، عندما أراد فرض الضرائب عليهم، فساءت الأوضاع بهذه القبائل، خاصة وأنها كانت تمر بسنوات عسيرة، فتدخل السلطان المولى عبد الرحمان لحل هذه المشكلة، إذ يقول في رسالة وجهها إلى محمد اشعاش: "فاعلم أن قبيلة غمارة قليلة الجدوى ولا في جبايتها كبير الفائدة، وبغفائك عنهم وعضك الطرف عن مسيئهم، آل أمرهم إلى ما ترى من الغوغاء والتولية

¹ - سعيد أعراب، ظواهر سلطانية برعاية الربط وحراسة الشواطئ المغربية...، مرجع سابق، ص. 122.

² - سعيد أعراب، مرجع سابق، ص. 122.

والعزل والغالب أن أمرهم في ذلك في ازدياد ... فساعدناهم في غرضهم القائل لأمر لا تخفى عليك، منها ضعف بلادهم وصعوباتها ولا طائل تحت ذلك ..."¹.

وهكذا نلاحظ أن السلطان كان يتدخل للحد من تعسفات القواد في جمع الضرائب، ويعفي القبائل الفقيرة. ونجده يؤكد (المولى عبد الرحمان) في رسالة أخرى موجهة إلى نفس العامل على ضرورة إعفاء القبائل الغمارية من الضرائب لفقرها: "... فغير خاف عليك أن غمارة قبيلة قليلة الجباية، كثيرة الشكاية، لا يحصل على طائل منها لولاية وأن متيوة من جملتها ..."²، وكما سبق فإن أهالي غمارة كانوا -من دون شك- يتعرضون لمضايقات من طرف هذا القائد وأعوانه، وربما يبتزون في أداء الضرائب عندما يتوجهون لقضاء أغراضهم من مدينة تطوان وممارسة التجارة، بحيث يزيد السلطان مؤكدا لقائده على أن تتم رحلات الغماريين إلى هذه المدينة في أمان ويوصيه بالاعتناء بهم: "... وغمارة تتسوق تطوان في أمن وأمان واطمئنان. واستملهم بالإحسان، ولا تدع أحدا يرومهم بظلم أو عدوان ..."³. وفي ظهير آخر للسلطان مولاي الحسن الأول إلى الشيخ بن مرزوق سنة 1877م يقول فيها: "خدمنا الأرضى الشيخ بن مرزوق أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فقد وصلنا كتابك طالبا الإذن لك في كيل الزرع من تطوان بقصد التقريب على مساكين تلك الناحية لجذبها وطلب أمرنا الشريف للمكلفين بذلك وقد أذنا لك وها نحن أمرنا الأمناء هناك بأن يسرحوا لك ما تكتب لهم عليه من ذلك ..."⁴.

وقد كانت هذه القبائل تقدم الهدايا للسلطين عند البيعة، كما تخبرنا به رسالة من القائد أحمد بن مرزوق إلى الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان بتاريخ 14 مارس 1847م، أن قبائل غمارة كانت أيضا تقدم بمناسبة عيد المولد النبوي هدية للسلطان كل سنة، جاء فيها: "النصر والتمكين والفتح لمولانا أمير المؤمنين، ونجله الشريف سيدي محمد ... وبعد أداء ما يستحقه سيدنا من التعظيم والتبجيل والتشريف أننا وجهنا لحضرتك السعيدة بالله أربعة رجال من أعيان إخواني غمارة بهدية عيد النبوي، رزقنا الله وإياهم رضاك وامتنال أمركم والأدب في جنابكم العالي بالله. فالملتمس من مولانا القبول والرضى باليسر من خدامكم غمارة والدعاء لهم بالبركة والهداية ..."⁵. وتزيد الرسالة موضحة الأوضاع الاقتصادية بالمنطقة والتي كانت متردية بسبب قلة الأمطار ووعورة التضاريس، بالإضافة إلى غلاء الأسعار: "فإنهم سيدنا في غاية ما يكون السنة وعدم معيشة البلاد فان

¹ - رسالة من المولى عبد الرحمان إلى القائد محمد اشعاش سنة 1831م، محمد داوود، تاريخ تطوان، ج 8، ص. 244.

² - محمد داوود، تاريخ تطوان، ج 8، مصدر سابق، ص. 279.

³ - رسالة سابقة الذكر، من المولى عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد اشعاش 1831، محمد داوود، مصدر سابق، ص. 279.

⁴ - رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى الشيخ بن مرزوق 26 ربيع الثاني 1294 هجرية/10 ماي 1877م، محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، مرجع سابق، ص. 183.

⁵ - رسالة من القائد أحمد بن مرزوق إلى الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمان، سنة 1847م، محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، مرجع سابق، ص. 171.

الزرع بها لا يوجد والأسعار لا تنحصر تغمدنا الله وإياهم برحمته...¹، ولذلك كان المخزن يأخذ بعين الاعتبار هذه الظروف للتخفيف أو إعفاء هذه القبائل من أداء الضريبة.

لكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الإعفاء الضريبي لم يكن دائما، خصوصا الضرائب الشرعية، حيث يتم استخلاص قدر معين من المال في الحالة التي تكون خزينة الدول تعرف نقصا في المداخيل، أو من أجل ملء الثغور ودعم الجهاد، وهذا ما نلمسه في ظهير السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد عبد الرحمان بن أحمد بن مرزوق، إذ يقول فيها: "كتابنا هذا أسماه الله وأعز أمره وجعل في الصالحات طيه ونشره بيد ماسكه الفقيه سيدي عبد الرحمان بن أحمد بن مرزوق، يعترف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنتته، أننا أقررنا الناس الأربعة على خدمة زاوية الولي الصالح سيدي محمد بن علي بن مرزوق، نفع الله به وزكاتهم وأعشارهم يدفعونها لمتوليها المقدم عليها المذكور صدره، وهما الطالب الأستاذ السيد الطاهر العمري والعربي ابن عبد الرحمان العواري الغربي والطالب السيد محمد بن قدور ... ومحمد الغزواني إقرارا تاما..."².

يتضح مما سبق أن سكان غمارة كانوا يدفعون الجبايات للسلطة المركزية التي جمعت في أساليب استخلاصها بين اللين والشدة، فحصلت على جبايات كانت تتكون من بهائم كالأبقار والبغال، ومقادير مالية، وجبايات عينية بالإضافة إلى عدد من العساكر³.

وكانت تتم عملية استخلاص الجباية بالنسبة لقبائل غمارة، ببعث مختصين يعرفون بالخراسة⁴ على غرار باقي القبائل المغربية، مع العدول لتقرير الجباية قبل نضج الغلة⁵. ولم تكن عملية الاستخلاص في مختلف قبائل غمارة تمر في ظروف عادية، حيث كانت بعض القبائل تتماطل في الدفع، فهناك العديد من الرسائل المخزنية التي وجهها السلاطين المغاربة، خلال الفترة المدروسة التي تتضمن إشارات إلى ما كانت عليه بعض القبائل الغمارية من التقاعس على الحقوق المترتبة عليها للمخزن⁶.

ومن بين الإجراءات التي كانت تتخذها السلطة المركزية ضد مثل هذه القبائل، الاستعانة بالقبائل الأخرى، خاصة المجاورة للقبيلة المماثلة، ومثل هذا الإجراء نجده في ظهير السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى

¹ - محمد ابن عزوز حكيم، مرجع سابق، ص. 171.

² - رسالة أوردها محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، الجزء الثاني، ص. 167.

³ - سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي...، مرجع سابق، ص. 109.

⁴ - الخراصة: خبراء يقدرون مقدار الزكاة التي تحدد قبل جني الثمار بالنسبة لأشجار الزيتون والتين والكروم وحصاد الحبوب وتسمى العملية بالتحريص.

⁵ - رسالة مولاي عبد الحفيظ إلى أحمد الريسوني بتاريخ 23 جمادى الأولى 1327 هجرية، مديرية الوثائق الملكية بالرباط، محفظة جمادى الأولى 1327 هجرية.

⁶ - ظهير سلطاني من المولى الحسن الأول إلى القائد عبد القادر بن مرزوق وجميع إيالة غمارة، في 1 جمادى الأولى 1305 هجرية (محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، مرجع سابق، ص. 190).

كافة قبيلة متيوة الريف بتاريخ 15 ذي الحجة 1247 هـ، حيث جاء فيه ما يلي: "كافة خدامنا متيوة الريف وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد ولينا عليكم خديمتنا القايد أحمد بن مرزوق الغماري وبسطنا له يد التصرف عليكم فاسمعوا وأطيعوا فيما يأمركم به من أمور خدمتنا الشريفة أسعدكم الله به وأسعده بكم بمنه..."¹. أما الحالة التي لم تكن فيها القبيلة قادرة على دفع الجباية الموظفة عليها، فإن السلطة المركزية كانت تقدم لها تسهيلات، كتخفيض مقدارها، وتنويع أشكال دفعها، ويتضح مثل هذا الإجراء في رسالة مولاي عبد الحفيظ إلى القائد أحمد الريسوني بتاريخ 12 رمضان 1327 هـ/27 شتنبر 1909م إذ يقول فيها: "خديمتنا الأَرْضِي القائد أحمد الريسوني... وصل كتابك بما كان صدر أمرنا الشريف في شأن الموظف السعيد علي إيالتك بأنك قرأت عليهم كتابنا الشريف المتضمن لذلك حتى قيد العناد بسياسة عدا بعض القبائل التي سميت، استكثرت ذلك لما شرحته من ضعفها وعدم يسرها طالبا حط البعض عنهم من ذلك تخفيفا، ليقوموا بأداء الواجب من غير تراخ ولا إهمال وصال بالبال. فقد ساعدناهم على ذلك وفق ما طلبت وأسقطنا عنهم الأربعة وعشرين ألف الزائدة على المائة الألف كما أسقطنا عنهم مية وخمسين بغلة الزائدة على الخمسمائة، مراعاة لما شرحته من شأنهم، وما ذكرته من الإذن له في دفع الموظف السعيد عروضاً ونقدا ليقع الإسراع بالأداء، كما أنك لا تحوز منهم إلا البغال القوية وما بقي مدركا يؤدون ثمنه بخمسين ريالاً للبقلة لما راعيت فيه من السياسة فلا بأس به، ولتقف في تنفيذ ذلك بحسن سياسة كما هو المعهود منك"². وبواسطة هذه الطرق المختلفة، تمكن قواد المحلات من استخلاص الجبايات المفروضة على قبائل غمارة، فزودوا المخزن بأموال وبهائم وجنود كان في أمس الحاجة إليها. ومن بين الرسائل المخزنية التي توضح ذلك، الرسالة المؤرخة بتاريخ 13 شعبان 1305 هـ، وتتعلق بالضغط على أهل تارغة ومما جاء فيها: "خديمتنا الأَرْضِي القايد عبد القادر بن مرزوق الغماري وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد، فبعد ما كنا كتبنا لك بإجراء الأحكام على أهل تارغة حتى يرجعوا عن غيهم استظهروا بظهيرنا الشريف المتضمن لمحاشاتهم عن التكليف وعليه، فنأمرك أن تجريهم على مقتضاه بحيث لا تصرف عليهم عادة في ذلك ما داموا على ما عهد منهم من المسكنة والجلوس عند الحد"³.

واضطر المخزن إلى توظيف نسبة مهمة من هذه الموارد في تسديد التعويضات التي كانت تطالب بها الدول الأوربية لأسباب افتعلتها أساسا، مما ساهم في إفلاس الخزينة المالية المغربية، وتفجير سكان البلاد من

¹ - ظهير السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى كافة قبيلة متيوة الريف بتعيين قائد غماري عليهم بتاريخ 15 ذي الحجة 1247 هجرية، (محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، م. س، ص. 165).

² - رسالة مولاي عبد الحفيظ إلى أحمد الريسوني بتاريخ 12 رمضان 1327 هجرية، مديرية الوثائق الملكية بالرباط، محفظة رمضان 1327 هجرية.

³ - ظهير السلطان مولاي الحسن الأول إلى القائد بن مرزوق الغماري بتاريخ 13 شعبان 1305 هجرية/25 أبريل 1888م، (محمد ابن عزوز حكيم، أطلس قبائل غمارة...، م. س، ص. 192).

جهة ومن جهة أخرى إحداث اضطرابات في العلاقة بين القبائل والسلطة المركزية¹. فبعد أن كان المخزن يراعي خصوصيات كل قبيلة، بحيث كان يعفي القبائل من أداء الواجبات الجبائية عند تعرضها للمجاعة أو معاناتها من الأوبئة أو يعتمد إلى أسلوب الاعتدال كإمهال القبائل العاجزة عن استخلاص ما عليها من واجبات لبيت المال فيؤجل الدفع بالتقسيط² وكانت القبائل تؤدي الضرائب الشرعية، وتحمل كافة الأعباء المالية الأخرى بشكل عادي مثل الهدية والمونة والذعيرة والغرامة والسخرة. وتغيرت هذه العلاقة بفعل التدخل الأوربي الذي حرم المخزن من نصف مداخيله الجمركية طيلة عشرين سنة، لتسديد غرامة حرب تطوان وأقساط القرض الإنجليزي، وفي العام 1893م فرضت إسبانيا عليه غرامة 20 مليون فرنك، كانت تعادل نفقات الدولة خلال سنتين أو ثلاث سنوات³. وارتفعت التعويضات التي كانت تقدم للدول الأوربية بدعوى ذعيرة الدم، ففي العام 1895م حصلت ألمانيا على 100 ألف فرنك، وتزامن ذلك مع حاجة المخزن إلى موارد مالية إضافية لإنجاز الإصلاحات، فلم يجد بدا من سياسة جبائية أثقلت كاهل السكان الذين ألفوا المرونة، وقد قدر جرمان عياش نسبة ارتفاع قيمة الضرائب فيما بين 20% و50% كما أصبحت تدفع نقدا بما فيها الشرعية⁴.

2- مميزات النظام الضريبي في قبائل غمارة خلال عهد الحماية وانعكاساتها.

بالرغم من كون الادعاءات التاريخية التي كان يرددها أصحاب الكتابات التبريرية الاستعمارية بكون المخزن المغربي كان على علاقة تنافر دائم بينه وبين سكان قبائله، بسبب السياسة الضريبية التي كان ينفجها، مما نتج عنه ظهور نزعات استقلالية لهذه القبائل، حتى تتخلص من هذا النظام الضريبي الذي كان يثقل كاهلها. ولهذا نجد النظام الجبائي أثناء الحماية، قد اتصف بمحاولات إصلاحه نتيجة للتدهور التدريجي لمالية المغرب وتفاقم مديونيته، وهكذا ستجعل الحماية من الضريبة الأداة الرئيسية للتدخل الاقتصادي الذي وجد ترجمته في إقامة نظام جبائي مستوحى من النظام الأوربي.

قام هذا النظام بتكريس مقتضيات معاهدة الجزيرة الخضراء، ومقتضيات معاهدة الحماية وتجربة الممارسات السابقة⁵. تضمن نظام الضرائب المباشرة بالأساس الترتيب الذي كان قد تم تعديله سنة 1915 بظهير ينظم هذه الضريبة، وسوف تجري في سنة 1918 مراجعة الضريبة الحضرية القائمة على القيمة الكرائية للأماكن المبنية، الواقعة في المدار الحضري، كما أقرتها معاهدة الجزيرة الخضراء. كما تم تأسيس ضريبة تسمى

¹ - عبد العزيز خلوق التسماني، بحوث ونصوص حول تاريخ المغرب المعاصر، منشورات سليكي إخوان 1996، ص. 52.

² - محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة...، مرجع سابق، ص. 379.

³ - عبد العزيز خلوق التسماني، "مساهمة في دراسة المجتمع الجبلي في بداية القرن العشرين"، العلم الثقافي 27 ابريل 1984.

⁴ - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدنين، المغرب، الطبعة الأولى 1986، ص. 92-101.

⁵ - المجلس الاقتصادي والاجتماعي، "النظام الضريبي المغربي: التنمية الاقتصادية والتماسك الاجتماعي"...، مرجع سابق، ص. 56.

ضريبة البتانتا¹، على الأنشطة ذات الهدف الربحي. هذا وقد أدخلت الحماية رسم المسكن، الذي تم فرضه على كل شخص يمتلك مسكنا في المدن والمراكز الحضرية. بينما رأى الاقتطاع من الأجور والرواتب النور ابتداء من سنة 1939م. وقد استلهمت هذه الضريبة من الضريبة الفرنسية على الرواتب مع جدولة تصاعدية وخصم من الأساس، مرفوقا عند الاقتضاء بخصوم تهم الأطفال المعالين.

كما تم فرض الضريبة على أرباح الأنشطة الخاضعة "للبتانتا" دون أن يجري إلغاء البتانتا مع ذلك². إلى جانب هذه الضرائب هناك الرسوم الجمركية والضرائب الداخلية على أمتعة الاستهلاك والضريبة على المعاملات مع إعفاء تجارة التقسيط. أما رسوم التسجيل و"التمبر" فقد تم إنشاؤها بظهير 15 يوليوز 1914³. وتضمنت الجباية غير المباشرة كذلك ضرائب أخرى منها رسوم الأسواق القروية، ورسوم الوكالات المالية ورسوم الفقراء، وفحص الأوزان والقياسات⁴.

لقد كان الهدف الأساسي من كثرة الضرائب غير المباشرة (4/5 من الإيرادات كانت تأتي من هذه الضرائب غير المباشرة⁵) تزويد الخزينة العامة وإنعاش تنمية البنيات التحتية الأساسية. فالغاية من الضريبة خلال هذه الفترة، فيما عدا تعبئة الموارد المالية الضرورية لسير الدولة، كانت تهدف إلى تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وبناء الموانئ والربط الجوي والكهربية، التي كانت تخدم تنمية المقاولات الأجنبية، لا سيما الإسبانية والفرنسية منها. فبمجرد دخول الاستعمار الإسباني وإحكام قبضته على شؤون البلاد. ستقوم إدارة الحماية بإعادة النظر في دور النظام الضريبي الذي كان يتبعه المخزن المغربي فيما قبل. فخلصت إدارة الاستعمار إلى الاستنتاج التالي: "إذا كانت ضريبة الترتيب قد شكلت دائما نقطة الصراع الدائم بين المخزن وقبائله لتحقيق السلم بينهما، فمرد ذلك إلى ما تجنيه مالية المخزن من أرباح تعود عليها بالفائدة، ولهذا السبب المنطقي فالواجب علينا اليوم الاهتمام من جديد بهذا النوع الضريبي وإعطاؤه الأهمية التي يستحقها"⁶. فقد بادرت إدارة الحماية إلى تقوية النظام الضريبي الذي فرضته على قبائل غمارة، لا لشيء إلا من أجل تقوية ماليتها على حساب تفكير الأهالي الجبليين. ولهذا تنوعت الضرائب على قبائل غمارة، حيث اتخذت العديد من الأشكال، أبرزها: الترتيب، ضريبة الأسواق، ضريبة بطاقات الهوية، ضريبة "البتانتا" وضرائب أخرى، ويمكن أن نستعرض أهم التطورات التي شهدتها الضرائب بقبائل غمارة من خلال الجداول التالية:

¹ - تجد البتانتا أصلها في الكلمة اللاتينية التي تعني إجازة أو رخصة الممارسة.

² - التي كانت أول ضريبة على الأرباح في المغرب التي ستصبح الضريبة على الأرباح المهنية ثم بعد ذلك الضريبة الحالية على الشركات.

³ - سعيد جفري، مرجع سابق، ص. 90.

⁴ - *L'évolution de la Fiscalité Marocaine Depuis L'instauration du Protectorat*, Livre 4, Le sort de la Fiscalité dans L'évolution du Maroc Moderne, Jacques Jouannet, Librairie Générale de Droit et Jurisprudence, 1953.

⁵ - المجلس الاقتصادي والاجتماعي، "النظام الضريبي المغربي: التنمية الاقتصادية والتماسك الاجتماعي"، ...، مرجع سابق، ص. 57.

⁶ - Francisco Franco, "La paz y el Tertib", *Revista de Tropas Coloniales*, Febrero 1928.

تطور الضرائب في قبيلة متيوه خلال فترة الحماية الإسبانية¹

Anos	MULTAS	Pasaportes	Patentes	Tarjetas	Tertib	Zocos
1951	3125	255	4068.80	9554	123567.52	6716
1952	875	240	4103	10440	196286.00	7250
1953	700	170	4301.28	9333	267296.36	7512.42
1954	3900	95	7564	10706	311146.26	7800.00

تطور الضرائب في قبيلة بني رزين²

Anos	MULTAS	Pasaportes	Patentes	Tarjetas	Tertib	Zocos
1951	650	235	2224.50	6153	65744.44	3677
1952	1250	135	2616	2076	93525	3880
1953	650	100	2027.04	5531	160097.82	3724.96
1954	550	160	5332.00	6549	193047.62	4000.00

تطور الضرائب في قبيلتي بني سميح وبني كيرير³

Tipos d'impuestos	1945	1950	1951	1952	1953
Tertib	38621.09	60453.00	83349.77	130740.00	202196.61
patentes	6321.00	4528.00	4466.48	4918.00	4918.48
Tarjetas	7775.00	10146.00	8673.50	7920.00	8259.00
Multas	1458.00	2300.00	625.00	900.00	550.00
pasaportes	-	210.00	380.00	525.00	402.50
Totales	54155.09	77637.00	97494.75	145003.00	216326.56

يتضح من خلال هذه الجداول أن جميع أنواع الجبايات بقبيلة غمارة شهدت تطورا ملحوظا خلال فترة الحماية الإسبانية، مما يعكس الطابع الاستغلالي للتواجد الاستعماري بالمنطقة المدروسة. ولقد كانت مداخيل الأسواق هي الأهم في المنطقة بالنسبة لسلطات الاحتلال الإسباني، حيث وصل المجموع السنوي للضرائب المحصلة على الأسواق الغمارية سنة 1945م حوالي 242.246,05 بسيطة موزعة على الجماعات القروية التالية: - ثلاثاء بني بوزرة (2.004,10 بسيطة) - أحد بني رزين (3.399,96 بسيطة) - اثنين يوجكان (11.528,89 بسيطة) - خميس بني سلمان (5.967,09 بسيطة) - ثلاثاء بني منصور (6.542,70 بسيطة) - سبت العنقود (999,96 بسيطة) - سبت تامروت واثنين باب برد وخميس بني خالد (25.284,96 بسيطة) - خميس الحرايق

¹ - Intervencion Territorial de Gomara ..., op.cit, p. 10.

² - Intervencion Territorial de Gomara ..., op.cit, p. 7.

³ - Intervencion Territorial de Gomara ..., op.cit, p. 9.

(12.228,74 بسيطة) - ثلاثاء بني يحمدا (75.000,00 بسيطة) - أأأ بني دركول (45.498,30 بسيطة) - أربعا خزانا (9.103,35 بسيطة) - خضير الكروش (787,50 بسيطة) - زاوية سيدي يسف (4.800,00 بسيطة) - أربعا تانقوب (15.050,34 بسيطة) - أربعا بني حسان (24.050,16 بسيطة)¹.

أما في المرتبة الثانية، فنجد ضرائب على بطاقات الهوية التي وصل مجموعها السنوي سنة 1945م حوالي 51.705,95 بسيطة، والتي شهدت ارتفاعا ملحوظا مقارنة مع سنة 1944 التي كان مجموع هذه الضريبة على قبائل غمارة حوالي 41.789,69 بسيطة، ثم هناك ضريبة Patentes التي وصل مجموعها بقبائل غمارة حوالي 22.164,56 بسيطة، وهي الأخرى شهدت ارتفاعا ملموسا، حيث كان مجموع هذه الضريبة سنة 1943 حوالي 21.290,72 بسيطة، ثم ارتفع هذا الرقم إلى 22.020,96 بسيطة، ومن الضرائب المعتمدة في المنطقة المدروسة نجد ضريبة الاستغلال الغابوي التي وصل مجموعها حوالي 2.378,00 بسيطة وهي الأرخص ضمن الضرائب المحصلة، مما يعني تسهيل المعمرين على استغلالهم لغابات قبائل غمارة التي كانت الأكثر كثافة ضمن غابات شمال المغرب. كما كانت سلطات الحماية الإسبانية تفرض ضرائب على الإيجارات التي وصل مجموعها السنوي سنة 1945م حوالي 8.725,00 بسيطة، وأخيرا ضرائب متنوعة وصل مجموعها حوالي 86.666,23 بسيطة. هذه الضرائب المتنوعة جعلت الإسبان يحصلون على ما مجموعه السنوي سنة 1945م حوالي 413.885,79 بسيطة، محتلة المرتبة الرابعة بعد منطقة الكرت (1.499.333,26 بسيطة) ومنطقة الريف (743.644,99 بسيطة) ومنطقة اللكوس (624.807,32 بسيطة)².

ولا شك أن هذه الأعباء الضريبية قد أثرت على الأنشطة الاقتصادية، حيث أن ارتفاع سعر المواد الفلاحية ينعكس على المجال الصناعي، مما يؤدي إلى اختلال الميزان التجاري بتقلص الأرباح، ولم تكن البوادي الغمارية وحدها تتحمل ذلك، فالمخزن بحث عن مضاعفة ضرائب المدن، خصوصا بالنسبة لفئة التجار، وإن كانت هذه الوثيرة ستتضاعف خلال فترة الحماية الإسبانية.

وعموما، فقد ساهم النظام الضريبي المجحف -الترتيب بالخصوص- المفروض على الملكية العائلية، والذي أقرته السلطات الاستعمارية، بمجرد الحصول على التهدئة النهائية، في تفكير نسبة كبيرة من سكان المنطقة³ الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن تأديته⁴، إذ لم يستطيعوا زيادة الإنتاج، بسبب السيطرة الاستعمارية على الموارد الإضافية، فلجأوا إلى بيع بعض ممتلكاتهم أو بيع قوة عملهم في سوق الشغل، في المستوطنات

¹ - Archivo General de la Administracion, Alcalá de Hinares, Servicio de Reproduccion de Documentos, Peticion n 574, Seccion Africa, Caja/Legajo 81/2390.

² - Archivo General de la Administracion...op.cit, Caja/Legajo 81/2390.

³ - Lezcano. V.M., *España y el Norte de Africa-el Protectorado en Marruecos (1912-1956)* U.N.E.D, Madrid, 1986, p. 196.

⁴ - مارتين ميكل، الاستعمار الإسباني في المغرب 1860-1956، ترجمة عبد العزيز الوديعي منشورات التل، الطبعة الأولى، الرباط، 1988، ص. 41.

الزراعية والأشغال العامة، وهو ما ساهم في تعميق الجروح الاقتصادية والاجتماعية لفئة كبيرة من سكان المنطقة الغمارية.

وقد لاحظنا من خلال الفترات التي حاولنا أخذها كخطوط عريضة وأساسية (ما قبل وخلال الحماية) لفهم الواقع الضريبي بالمنطقة المدروسة، انفراد كل فترة بخاصية معينة في هذا المجال، آخذين بعين الاعتبار الظرفية التاريخية، بما في ذلك السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية من جهة، وكذا تأثيرات التحولات التي عرفها العالم بصفة عامة، خلال هاتين الفترتين من جهة ثانية. ويجب ألا ننسى أن السياسة الضريبية، أثرت بشكل سلبي على اقتصاد المنطقة، خصوصا وأن هذه الأخيرة تفتقر إلى المؤهلات الطبيعية التي كان بإمكانها أن توفر لها مردودية تساعد على تحمل تكاليف الإنتاج، فضلا عن التكلفة المخزنية.

3 محمد بن عبد الكريم وجباية قبائل غمارة.

كانت الحرب التحريرية التي قادها محمد بن عبد الكريم الخطابي منظمة وذات أبعاد إيديولوجية استراتيجية، واضحة المعالم والأهداف، وفي مقدمتها استقلال بلاد الريف عن الاستعمار الإسباني والعمل على طرد الفرنسيين من المغرب. وبعد انتصار الريفيين في معركة أنوال (21-26 يوليوز 1921) وما لقي هذا الانتصار من صدى داخل البلاد وخارجها، عمد قائدهم إلى استثمار هذه المعركة وسط القبائل التي دعاها للدخول في المشروع التحرري الذي خطه، عبر سلسلة من الترتيبات السياسية والعسكرية والاقتصادية، فكانت البداية بالإعلان عن تأسيس "حكومة" ريفية في شهر غشت 1921 جعل أجدير مقرا لها¹، كما نصب أعضاءها، وأغلبهم من بني ورياغل قبيلته الأصلية²، وعين بن عبد الكريم إضافة إلى وزراء وباقي المسؤولين الآخرين باشاوات على رأس المدن الرئيسية بالريف، وأسس "مجلسا للنواب" أو الجمعية الوطنية، من جماعات القبائل، تعقد اجتماعاتها بأمر من مجلس الوزراء، كما نصب على رأس كل قبيلة قائدا مطلق السلطة من الناحية الإدارية والعسكرية³. بما فيها جباية الضرائب وقمع التمردات، إذ كان اليزيد بن صالح أول قائد لقبائل غمارة خلال فترة الجمهورية الريفية. وقد وضعت الجمعية الوطنية دستورا خاصا بجمهورية الريف، نص على تنظيم أسس الحكم في الريف عبارة عن ميثاق وطني أصبح المثل الأعلى للشعب الريفي⁴.

¹ - محمد العلمي، زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، الناشر الأطلسي، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، د.ت، ص. 25.

² - بوشق بوعسرية، "علاقة محمد بن عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف، قائد بني رزين نموذجا 1922-1925"، مجلة أمل، السنة 1999، ص. 31.

³ - محمد العلمي، زعيم الريف...، م. س، ص 25.

⁴ - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية تطوان، نشر وتوزيع عبد السلام جسوس، طنجة، د.ت، ص. 122-123.

وتميزت الترتيبات التي أحدثها محمد بن عبد الكريم في الريف عما كان سائدا وسط حركات المقاومة التي سبقته أو جاءت بعده، بضبطها وإحكام تسييرها وبعد نظر واضعيتها والانتباه، كما قال الأستاذ إبراهيم بوطالب، إلى "أن طبيعة الاستعمار الإمبريالي لا تكفي للتضحية بالدماء للتفوق عليه، ولكن يجب استخدام العقل وتجنيد المنطق واستجماع الأنفاس لكفاح لن يتم النصر فيه في معركة واحدة"¹.

أما اقتصاد جمهورية الريف فكانت أهم موارده تتشكل من: الضرائب المفروضة على تصدير البضائع واستيرادها، وقد كانت قيمتها تصل إلى 5 آلاف بسيطة في اليوم- مداخيل الأحباس، وقد ألحقها بن عبد الكريم بالمالية العامة، بمرر استعمالها في محاربة الكفار، وقد بلغت قيمة مداخيل الأحباس 75 ألف بسيطة في السنة - ضريبة الترتيب، وهي الضريبة المفروضة على الأملاك العقارية، والمحاصيل، ورؤوس الماشية... وكانت تقدر بـ 300 ألف بسيطة سنويا - الغرامات التي فرضت على القبائل التي منعت الالتحاق بالجمهورية، مثل قبيلة بني زروال التي فرضت عليها غرامة قدرها نصف مليون بسيطة. وقبيلة الأحماس التي غرمها عبد الكريم 20 ألف بسيطة إسبانية - وأخيرا مالية افتداء الأسرى الإسبان.

وكلف القائد أيضا بجمع الضرائب، وهذه الضرائب نوعان: (الضريبة) ويدفعها للحكومة الريفية جميع القبائل الخاضعة لها باستثناء الفقراء والمحتاجين وجرحى الحرب، والثانية ضريبة (التيجان) وهي ضريبة مفروضة على الثروات. وكان القائد لا يستطيع أن يأخذ من الناس قدرا أكثر من الذي فرضته الحكومة، وكلف المفتشين الذين يعينهم رئيس الحكومة والنواب في أجدير بمراقبة القواد.

ولقد تمكن بن عبد الكريم من ترتيب شؤون مخزنه ترتيبا خاضعا للطبيعة البشرية والجغرافية للمنطقة ومؤهلات السكان الذاتية، فربط علاقات محكمة مع قواد القبائل التي أقنعها بالدخول إلى حرب التحرير². ولم تكن مهمة المجاهدين سهلة بالقدر الذي يتصوره البعض، سواء على مستوى التأطير أو التدريب أو على مستوى الحصول على العتاد والأسلحة والمال اللازم لتغطية نفقات العمليات الحربية من مؤونة وأداء رواتب العسكر، ولهذا نجد القائد اليزيد بن صالح يكتب إلى امحمد بن عبد الكريم الخطابي يستشيريه في هذه الوضعية فكان رده: "... وصلنا كتابك وفهمنا المضمن وعليه فيصلك ألفان من القرطوس، أما المؤونة فقد كلفنا جماعة إغرمنا وجماعة بوسلاف الغماريتين بأداء خمسمائة من الخبز في كل يوم، ومن تأخر اعلمونا به، وأما بنو حسان فانظر القايد الرتوبف-كذا- والقائد السيد المفضل يضبطون مؤونة بني حسان من كان قريبا من القائد أحمد اخيرو يدفعها إليه ومن كان قريبا منكم يدفعها إليكم، ومن عجز عن دفعها فالزموه الحبس أو الذعيرة على حسب ما جناه وكيف بكم هناك في الخط وطموبيلات العدو يطلعون ويهبطون من غير قتال ولا ضرب... وإياكم والفرع،

¹ - إبراهيم بوطالب، "المقاومة ووحدة الصف"، نشر بمجلة المقاومة وجيش التحرير، العدد 7، فبراير 1984، ص. 67.

² - بوشتي بوعسرية، "علاقة محمد بن عبد الكريم الخطابي مع قواد قبائل الريف"...، م. س، ص. 32.

فإن العدو مقصوده إظهار القوة للهروب فقط، وقد هرب من وادي لو وترك الخزائين واقفين بأماكنهم خوفا من المجاهدين ... والسلام"¹.

نستخلص من هذا الجواب معطيات تاريخية خاصة بقضايا متعددة، سواء ما تعلق منها بالتنظيمات الداخلية وطريقة جباية القبائل التي لم تقتصر على النقدي بل تجاوزه إلى العيني، كما توضحه هذه الوثيقة (مدشران فقط كانا مجبرين على أداء 500 من الخبز)، إذ كانت جل القبائل الغمارية مجبرة على أداء الضرائب، وإن لم تفعل يكون أفرادها تحت طائلة الحبس أو أداء الذعيرة، أو النهب، كما وقع للزاوية التجكانية في تيجكان ببني منصور الغمارية²، فهنا نرى كذلك إلى أي حد وصلت إليه خزينة الحكومة الريفية من النقص والعجز الذي أصابها، فحال ذلك دون الالتزام بتقديم مساعداتها للمقاومين، وإن كانت بعض الشهادات الشفوية تؤكد عملية النهب التي تعرضت لها العديد من القرى الغمارية خلال الحرب التحريرية، إذ يؤكد محمد الحبيب التجكاني أنه كان جناح ناهب في جيش محمد بن عبد الكريم الخطابي ينهب ويحرق الدور والغلات، ومخازن الحبوب³.

ومهما يكن الخلاف الذي وقع بين محمد بن عبد الكريم وبعض القبائل الغمارية في بداية حربه التحريرية ضد الإسبان، فإن الأمر سيتطور إلى مصالحة وتدخل مباشر من الغالي ومحمد بن عبد الصمد التجكاني والشيخ محمد بن الصديق، وهو ما سيجعل القبائل الغمارية تتحالف مع المجاهدين الريفيين، وهو ما ترجم العديد من الانتصارات الميدانية، وجوبا على السؤال الذي طرحناه في البداية، فقد قام محمد بن عبد الكريم الخطابي بجباية كل القبائل التي كانت تابعة للمخزن الريفي أو حكومة جمهورية الريف؛ إذ استطاع الأمير ابن عبد الكريم أن يجبر القبائل الريفية الغمارية على أداء الضرائب بشكل رسمي ومنتظم لأول مرة في تاريخ المنطقة، والتي تتنوع بين الضرائب على الأنشطة الزراعية والتجارية وبين المخالفات والعقوبات، إضافة إلى الزكاة والمبالغ المالية التي يتم افتكاك الأسرى الإسبان بها والتي كانت من أهم المصادر المالية للجمهورية.

¹ - وثيقة مؤرخة تاريخ 4 ربيع الأول 1343 هجرية أوردها بوشتي بوعسرية، "علاقة محمد بن عبد الكريم مع قواد قبائل الريف" ...، م. س، ص. 39.

² - محمد الحبيب التجكاني، الفقيه التجكاني السيد محمد بن عبد الصمد: حياته، اتجاهه الفكري والسياسي، نماذج من فتاويه، نشر مكتبة سلمى، تطوان، 2012، ص. 48.

³ - محمد الحبيب التجكاني، الفقيه التجكاني السيد محمد بن عبد الصمد ...، م. س، ص. 49-50.

الفصل الثالث: الوضع النقدي للمنطقة وانعكاسات التدخل الاستعماري

المبحث الأول: الوضعية المالية للمنطقة والعملات المتداولة.

1- جذور الأزمة المالية وتجلياتها:

إن الباحث في مسألة النقود بعمارة، خلال الفترة المدروسة، من حيث أنواعها وأسمائها ومعادنها، ليجد اختلافات كبيرة في ذلك، وإن كان لا يستفيد شيئا من قيمتها وأسعارها، ومما يطرق أذنه من الأسماء ما يلي: الريال، الدرهم، الربع، القرش، المثقال، الفلس ... وكان من هذه العملة الفضي والنحاسي والبرونزي. ومعلوم أن قبائل غمارة ونواحيها، كانت تسير في فلك باقي مناطق شمال المغرب، فيما يتعلق بالأسلوب المتداول في المعاملات والمبادلات، حيث اعتبرت النقود وسيلة قياس القيم، وواسطة تبادل واحتياطي قوة شرائية. ومن ممارسة هذه الوظائف الثلاثة، يتحصل مفهوم القيمة الذاتية للعملة.

حلت النقود محل المقايضة وفسحت المجال أمام ظهور أنواع متعددة من المعاملات والمبادلات، تحت الرقابة المستمرة للسلطة المركزية، لتفادي أساليب الغش والتزوير.

وحرص المخزن المغربي على تطبيق النظام النقدي بحذافره، مع الأخذ بعين الاعتبار الأهداف الأساسية، ومن بينها تسهيل النظام الجبائي. ومع ذلك، لم يكن باستطاعته ضبط نوع العملة المتداولة في كل أنحاء البلاد، وخصوصا في المنطقة المدروسة التي كانت تتميز بحساسية القرب الجغرافي من أوروبا، ونعزو ذلك إلى الظروف الطبيعية المتقلبة والظروف الاقتصادية والسياسة المضطربة، زيادة على الضغوط الأوربية خلال الفترة المدروسة، التي كانت تقحم نقودها في المعاملات التجارية، فيما بينها وبين تجار قبائل غمارة.

وتتفق معظم الدراسات المغربية أو حتى الأجنبية على ضعف القوة الشرائية للعملة، فخلال القرن 19م ظل الاحتياج إلى النقود محدودا، خاصة في العالم القروي، وذلك لبساطة الإنتاج، وعدم وجوده بكمية فائضة تقتضي قيام اقتصاد المبادلة¹، وكذلك لوجود تقاليد اجتماعية تجعل كثيرا من السلع تؤدي قيمتها بالمنتجات الفلاحية بدون داع إلى وسيط نقدي. وأمام هذه الوضعية النقدية، نشطت عملية تهريب العملة المغربية إلى الخارج، ولما كانت هذه العملة تتكون بالخصوص من القطع الفضية، وقطع الفلوس النحاسية، فإن الأوربيين دأبوا على تهريب النقود الفضية، والتي كان لها الأثر الكبير على الاقتصاد المغربي، وقد خلفت عجزا تجاريا ملحوظا. وهناك ممارسة أخرى عرفها القرن 19م وبداية القرن 20م وهي عملية تزوير العملة التي ستستفحل خلال

¹ - عمر آفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر سوس 1822-1906، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سنة 1988، ص. 182.

الفترة المدروسة، إذ يقول موليراس في هذا الصدد: "وأهم صناعة اشتهر بها الأهالي، هي صناعة النقود الذهبية والفضية، بواسطة قوالب مخصوصة لهذا الغرض. فالمادة الأولية توجد بالقبيلة، والقوالب المعدنية تصنع من طرف عمال مهرة، لذلك فإن النقود تكون شبيهة بالنقود السلطانية، ويجب أن يكون المرء خبيراً للتمييز بين هاتين وتلك"¹. وما يؤكد على جودة إتقانها وهو تداولها بقبيلة غمارة إلى جانب نقود السلطان. وهناك من يقر بأفضليتها، لتضمنها مقداراً أكبر من الذهب والفضة. وفي جميع الأحوال، لا يمكن اعتبارها نقوداً رديئة، ما دامت تنافس النقود الشريفة². لكن تبقى مخلفات حرب تطوان 1859-1860 بين المغرب وإسبانيا، من أبرز العوامل التي ساهمت في تراجع العملة المغربية، نتيجة الغرامة المالية الباهظة التي أفرغت الخزانة المغربية.

كل هذا أدى إلى انهيار كبير وتراجع في قيمة العملة المغربية؛ إذ فقدت تسعة أعشار من قيمتها بين سنتي 1844 و1873م، وأثرت الأزمة بشكل مباشر على السكان الذين انخفضت قدرتهم الشرائية بشكل كبير أمام الارتفاع الموهول للأسعار وتدني الأجور. يحكي الناصري صاحب "الاستقصا" أن موظفاً أيام الأزمة النقدية، كان يتقاضى 30 ألف أوقية وكان يصرفها بعشر بسيطات، لما كانت البسيطة تساوي ثلاث أوراق، ثم ظل سعرها ينخفض تدريجياً إلى أن صار يقبض فيها بسيطة واحدة وشيئاً من "الفلوس"³.

لقد كانت العملة المغربية "الحسني"، هي العملة الوطنية بالبلاد، وقد سكتها السلطان مولاي الحسن سنة 1881م، إلا أن هذه النقود ستشهد انهياراً كبيراً سنة 1902م، بسبب الاضطرابات، جراء التدخل الأوربي، وانتشار العملات الأجنبية بكميات كبيرة، فقد عهد للبنك المخزني الذي أنشئ في 27 فبراير 1907 بمهمة إصلاح الوضع النقدي بالمغرب. وبعد قيام الحماية وتدفق الإسبانيين على المغرب، وازدياد حجم التبادل التجاري مع إسبانيا، اختفت العملة الفرنسية من منطقة الحماية الإسبانية ولم يعد فيها سوى العملتين المغربية والإسبانية.

وخلال الحرب الأهلية الإسبانية، فلم تتردد السلطات العسكرية في إجبار فروع البنك المخزني ليس فقط في المنطقة المدروسة؛ بل تجاوزتها نحو منطقة اللكوس وجباله والريف والكرت على تسليمها عملة الفرنك الفرنسي بضمانة الحساب الذي كان للمفوضية السامية بتلك الفروع، وذلك على أساس تسعيرة صرف حددتها تلك السلطات والتي لا تتناسب مع قيمة البسيطة التي تدهورت بشكل كبير نتيجة ظروف الحرب. وقد أثار هذا الإجراء احتجاجاً قوياً من طرف الإقامة العامة الفرنسية التي اعتبرت تلك العملية نهبا واستحواداً بالقوة على مدخرات البنك المخزني، الذي لم يستطع المسؤولون على فروعه بالمنطقة رفض طلب العسكريين⁴، خوفاً على

¹ - موليراس، المغرب المجهول...، الجزء الثاني، م. س، ص. 229.

² - موليراس، م. س، ص. 229.

³ - إسماعيل التزاني، "القرن التاسع عشر أول أزمة مالية عرفها المغرب"، جريدة هسبريس الإلكترونية، 09 مارس 2014.

⁴ - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، م. س، ص. 620.

أرواحهم، لا سيما وأنهم كانوا يحملون الجنسية الإسبانية. وكان هذا الإجراء من الأسباب التي أدت إلى تدهور العلاقات بين المنطقة الخليفة والسلطانية، وانتهت بقطع المعاملات بين المنطقتين.

ورغبة في الاستحواذ على العملات والحيلولة دون خروجها من المنطقة، فإن العسكريين قاموا بعرقلة العمليات المالية والبنكية للأجانب بالمنطقة، واستهدفت بالخصوص الفرنسيين أو الذين يحملون الجنسية الفرنسية، إذ كان لا يسمح لهم إلا بصرف جزء قليل من شيكاتهم وذلك بالبيسة فقط، وتتسعيرة صرف تحددها السلطات مسبقاً¹. وجمدت كذلك حسابات وقروض الأشخاص والشركات والمؤسسات التي كانت لها معاملات مالية وتجارية مع المنطقة، وصادرت كل المدخرات التي كانت في حسابات الإدارات العمومية والعسكرية.

إضافة إلى هذه الإجراءات، كان لزاماً على كل الأشخاص الذين يتوفرون على العملات الفضية الحسنة والإسبانية تسليمها لبنك إسبانيا أو لإحدى فروعها، بمختلف مناطق الحماية الإسبانية، حيث صدر مرسوم يمنع خزنها، ويعرض كل من أقدم على ذلك لأقصى العقوبات بتهمة التحريض على التمرد². فكان على التجار أن يخبروا يومياً بمعاملاتهم المالية، ولا يسمح لهم بالاحتفاظ بأكثر من 50 بيسة فضية. وهذه الحملة التي قامت بها السلطات لم تستهدف الحصول على العملات فقط، بل استهدفت كذلك المعادن النفيسة التي كانت في ملك الخواص والتجار. ومن أجل دعم هذا الرصيد الذي تكون لديها، وحمايته من تدهور البيسة الكبير في الأسواق المالية نتيجة لظروف الحرب، فقامت السلطات العسكرية بإحداث قطيعة نهائية على مستوى العملة، وبالتالي على المستوى المالي والاقتصادي مع منطقة الجمهورية، وتكسير وحدة البيسة بين المنطقتين. وإذا كانت هذه الإجراءات تهدف إلى تقوية البيسة في المنطقة الخليفة، فإنها تركت آثاراً سلبية، ليس فقط على الساكنة الغمارية، بل تجاوزتها لتشمل كل مناطق الاحتلال الإسباني.

2- النقود المغربية في بلاد غمارة:

منذ النصف الثاني من القرن 19، عرف النظام النقدي المغربي عدة اختلالات أدت إلى اضطراب داخلي كبير، رغم بعض المحاولات الإصلاحية، إلا أن أهم محاولة إصلاحية كانت سنة 1881م، وهي العملية التي أنهت النظام النقدي القديم الذي كان مبنياً حتى ذلك الحين على المقاييس والأوزان الشرعية. أما الإصلاح الجديد فقد تم على النمط الإسباني الذي ينتمي للاتحاد اللاتيني، ذلك أن السلطان مولاي الحسن أخذ في الحسبان عملة "البيسة"، ومن هنا جاء اسم العملة الجديدة، حيث أطلق عليها اسم "الحسني" أو "البيسة الحسنية" نسبة إلى السلطان مولاي الحسن، وهي عملة فضية ضربت على أساس "الدورو" الإسباني، وتزن

¹ - بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، م. س، ص. 620.

² - بوهادي، مرجع سابق، م. س، ص. 621.

116.29 غرام، بخلاف "الدورو" أو الريال الذي يزن 25 غراما، والريال الحسني¹ يتكون من 5 بساسيط، كالدورو الإسباني، غير أن البسيطة الحسنية لم تكن موجودة، فقد كانت عملة حسابية فقط².

هذه المحاولة الإصلاحية فشلت تماما، إذ أصبحت البسيطة الحسنية مماثلة للإسبانية، أي تعطى لها نفس القيمة، رغم أن وزنها كان أعلى من الإسبانية. أما محاولة الإصلاح العزيزية التي نقصت من وزن الحسني الذي أصبح مساويا للريال الإسباني، أي 25 غراما، عوض 29، فبدورها انخفضت على غرار سابقتها. وقد قدر انهيار العملة المغربية سنة 1902م بـ 37%³.

أما النقود النحاسية فقد استمرت، ولم تعرف أي تغيير إلى غاية 1903م، ففي هذه السنة سك مولاي عبد العزيز بأروبا نقودا نحاسية جديدة، كمحاولة للحد من خطر انخفاض العملة، وهذه القطع كانت من النوع العشري، حددت في: 1، 2، 5، 10 موزونات. وفي سنة 1911م ضرب مولاي عبد الحفيظ سنة جديدة، ولكن بقي الدورو بـ: 25 غراما، كما سكه من قبل مولاي عبد العزيز، ونفس الشيء بالنسبة لعملة مولاي يوسف، إذ بقي الحسني على ما كان عليه⁴.

لقد بدا واضحا لأوساط الأعمال الأجنبية المستقرة في المغرب مع بداية القرن، التي كانت تتأثر بتفاعلات هذا الانهيار والتقلبات التي عرفتها العملة المغربية، أن إصلاحا نقديا داخليا لن يكون هو الحل الناجع للحفاظ على مصالحهم، وبعبارة أخرى، فإن السيادة النقدية للمغرب كانت تعارض من الخارج⁵. لم تزد أوضاع المغرب المالية وقبائله إلا انهيارا مع نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، إذ تشير العديد من الرسائل الحسنية في نهاية عهده إلى الصعوبات المالية التي كانت تسببها العملة الإسبانية التي كانت تدخل من مراسي الشمال، حيث أصدر أوامره بمنعها من التداول، ومما نقرأ في إحدى هذه الرسائل سنة 1893م: "خديمتنا الأَرْضِي الحاج محمد العربي الطريس وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك بأن نائب الفرنسيس كتب لك بما في كتابه الذي وجهته من أن سكة فضية اصنيولية لا تروج ببلاد إسبانيا كثيرا ما ترد لهذه الإيالة السعيدة وتروج بها ويتصارف بها التجار لعدم معرفتهم لها، وأن رواجها يحصل منه ضرر للتجار وصار بالبال فقد بلغ لشريف علمنا

¹ - الحسني: استعمل سكان قبائل غمارة هذه الكلمة للدلالة على الريال الحسني، أي قطعة عشرة دراهم وعلى مطلق السكة التي ضربها مولاي الحسن، ورغم إطلاق اسم العزيزي أو الحفيظي أو اليوسفي على سكة مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف، فقد ظل الحسني يطلق على جميع تلك السكة إلى العقد الثاني من القرن 20 م.

² - محمد الناصري، "الرواج النقدي وإشكاليته في عهد السلطان مولاي يوسف"، نشرت هذه الدراسة ضمن أشغال الدورة الرابعة عشرة لجامعة مولاي علي الشريف يومي 10 و11 نونبر 2006 بمركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني حول موضوع: التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عهد السلطان مولاي يوسف، ص. 199.

³ - محمد الناصري، الرواج النقدي وإشكاليته في عهد مولاي يوسف...، م. س، ص. 200.

⁴ - محمد الناصري، مرجع سابق، ص. 201.

⁵ - الحسن شوقي، قبيلة زمران خلال القرن التاسع عشر (1822-1912)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، نسخة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سنة 2001، ص. 606.

ذلك قبل ورود كتابك وأصدرنا أمرنا الشريف لأمناء المراسي بأن لا يقبضوا في الأعشار هذه السكة ... كما أصدرنا لقضاة المراسي والمدن بأن يأمرؤا العدول بعدم الشهادة بها في البيوعات والشراءات والمعاملات، وأن لا يشهدوا في ذلك إلا بالسكة التي تروج في البلاد...¹

رغم محاولات السلاطين تثبيت العملة المغربية، فقد استمر سعرها في الارتفاع، مما أدى إلى غلاء المعيشة وعرقلة المشاريع الاقتصادية والإصلاحية للمخزن، وبقيت الحالة كذلك رغم بعض فترات التحسن الناتجة عن نهاية الدين الإسباني والإنجليزي، وإلى العهد العزيمي، حيث وجدنا أنه رغم أن المخزن حافظ للريال على سعر 32 أوقية ونصف عند الجباية، فإنه استمر في الانهيار، الأمر الذي جعله يضرب نقودا برونزية في عام 1303 هـ في إنجلترا وألمانيا وفرنسا²، إلا أنها هي كذلك استمرت في الانزلاق، وكذا انهارت بعدها المسكوكات الحفيفية³، الأمر الذي جعل البلاد تستقبل القرن العشرين ليس بخزينة فارغة فقط ولكن مدانة من الأجانب، مما أسقط منطقتنا المدروسة بعد التنافس الإمبريالي في الاحتلال الإسباني، وهذا بعد سنوات من القحوط والمجاعات⁴، التي كانت دورية وجنت القبائل الغمارية نتائجها الوخيمة، فأنهكت قواها المادية والمعنوية ومهدت لدخول الإسبان للمنطقة.

3- النقود الأجنبية في بلاد غمارة:

أصبحت النقود الإسبانية متداولة في شمال المغرب عامة وقبائل غمارة خاصة، بشكل كبير منذ القرن التاسع عشر، وقد استمر رواجها رغم إنشاء بنك الدولة، فالعملة الإسبانية كانت تسمى بـ "البيسطة" (PESETA) التي تكون خمس "الريال" (REAL) أو "الدورو" (DURO) وكانت هذه العملة تروج بشمال المغرب قبل القرن التاسع عشر، حيث وقع القبول الرسمي لهذه العملة في المعاهدة التي عقدها السلطان مولاي سليمان مع إسبانيا سنة 1799م، واستمرت متداولة إلى حدود القرن 19م، حينما سيعتمد مولاي الحسن على العملة الإسبانية لإنجاز إصلاحه النقدي. فظلت العملتان (المغربية والإسبانية) أساسا للصرف في قبائل غمارة وشمال المغرب عامة، خاصة بعد المعاهدة الفرنسية-الإسبانية في 27 نونبر 1912م. ذلك أنه ابتداء من 1914م سيضعف تداول النقود الفرنسية بالمنطقة الإسبانية.

¹ - الخزنة العامة والمحفوظات بتطوان، القسم العربي، ظهائر حسنية سنة 1311 هجرية، محفظة رقم 12، وثيقة 32، تحت رقم 1693. كما تتوفر على مجموعة من الوثائق في نفس المحفظة تتمحور حول منع تداول العملة الإسبانية في الأيالة المغربية (الوثيقة رقم 15 و20).

² - أحمد التوفيق، انولتان...، مرجع سابق، ص. 267.

³ - من خلال البحث الميداني في المنطقة المدروسة تمكننا من الحصول على نماذج من النقود المغربية من القرن 19م وبداية القرن 20م، أغلبها فضية ومنها النحاسية.

⁴ - محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 و19م...، م. س، ص. 339.

وقد أجرت المركزية العامة للمالية الفرنسية بحثا في الموضوع، يوم 25 يوليوز 1914م، فأعطت النتائج الآتية للتوزيع النقدي بالمغرب¹:

التوزيع النقدي بالمغرب خلال فترة الحماية

المنطقة	العملة الفرنسية	العملة الحسنية	العملة الإسبانية
المنطقة الإسبانية	35.913	771.305	228.507
منطقة طنجة	2.038.381	4.311.919	580.277
المنطقة الفرنسية	39.627.841	24.731.438	76.687
المجموع	41.702.185	29.804.762	885.391

يتضح من خلال هذا الجدول أن العملة الحسنية استطاعت أن تحافظ على مكانتها في المنطقة الشمالية وبالخصوص في قبائل غمارة، حيث كانت معظم المعاملات التجارية تتم بالعملة المغربية رغم توقيع معاهدة الحماية مع الإسبان، وربما يعزى ذلك إلى صعوبة المنطقة المدروسة بالنسبة للمستعمر الإسباني، وهو ما تؤكدته ردود فعل (المقاومة) قبائل غمارة اتجاه الاحتلال الإسباني، حيث كانت المنطقة المدروسة آخر القلاع التي دخل إليها الاحتلال. كما يؤكد هذا الطرح أزيد من 90 وثيقة عدلية² وفتاوى محمد الهبطي المواهبي، تبين استعمال قبائل غمارة العملة المغربية (الريال الحسني) في كل معاملاتهم التجارية، حتى في فترة الاستعمار الإسباني، حيث جاء في أحدها: "اشترى المعلم المفضل بن أحمد أسلمان من محمد بن محمد المرابط ثورا بثمان 36 ريالاً عام 1342 هـ/1924م"³.

هذه التقلبات التي عرفت السيولة النقدية خلال الفترة المدروسة، الناجمة عن التطورات السياسية والاقتصادية، أفرزت وضعية مضطربة انعكست على العلاقات والمعاملات التجارية، فكيف تعاملت قبائل غمارة معها؟

المبحث الثاني: صور من المعاملات التجارية بالمنطقة وخصائصها.

1- ملامح من المعاملات التجارية في قبائل غمارة:

لعل أبرز صورة عن هذه الملامح، هي تلك التي قدمها لنا محمد الهبطي المواهبي في مؤلفه فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال، الذي عبر بالفعل عن واقع المنطقة بكل جوانبه، وأوضح لنا

¹ - André. J. Marty, *Le Franc Marocain Monnaie Satellite*, Institut des Hautes-Etudes Marocaines, Paris, 1951, p. 88.

² - تتوفر على نسخة منها وتتم قبائل غمارة خلال النصف الثاني من القرن 19م والنصف الأول من القرن 20 م.

³ - وثيقة خاصة أمدنا بها مشكوراً الأستاذ محمد بن عبد المومن التحكاني الغماري (قبيلة بني منصور).

جليا أن المجتمع كان يعمه الفساد بما في ذلك المعاملات والمبادلات التجارية، في غياب الوازع الديني والفراغ السياسي نتيجة ضعف السلطة المركزية التي كانت عاجزة عن ضبط أمور الرعية، بجهاز إداري متعسف، همه الوحيد هو مضاعفة الضرائب غير الشرعية والاستحواذ على الأملاك العقارية.

وقد أتاحت هذه الوضعية المزرية الفرصة للتجار للتعامل بمختلف الأساليب الملتوية، بما في ذلك الربا والاحتكار والتلاعب بالأسعار، وقد أمدتنا كل من نوازل العلمي والزياتي ومنظومة الشيخ الإمام الهبطي بأهم الإشكاليات التي طرحها المعاملات التجارية في فترة سابقة، والتي استمرت إلى الفترة المعاصرة، كما يوضحه مؤلف فتاوى تتحدى الإهمال.

فمن المعلوم أن طبيعة المجتمع الديني هو التكافل والتآزر في مختلف جوانب الحياة العامة، هذا المذهب كرسه ودعمته آليات النظام الديني، ومن خلال ذلك العمل المتسلسل (المنتج-الموزع-المستهلك) كان الهدف الأساسي هو تحقيق الاكتفاء الذاتي، دونما التفكير في الاحتكار والربح المشوب بالخطيئة. وقد بحث الفقهاء أمر الربح بسلبياته وإيجابياته، مراعين في ذلك تقلبات الأسعار المرتبطة بالعرض والطلب من جهة، وبالظروف الطبيعية المضطربة (جفاف، فيضانات، أوبئة) من جهة ثانية، كما حرصوا أيضا على أن يتمكن المزارع من بيع محصوله بشكل يضمن له تغطية التكاليف وتحقيق ربح يخول له الحصول على ما يلزم نفقات أسرته، وبالتالي يكون قد أسهم في إنتاج ما تحتاج إليه باقي الفئات الاجتماعية.

وما يمكن قوله عن التاجر، لا يختلف عن سابقه، فقد سعى هو الآخر إلى تحقيق الربح من جهة، ولكونه مرتبطا بما ينتجه المزارع، من جهة ثانية. لكنه كان مراقبا من طرف الفقهاء والعلماء أيضا، خوفا من اختلال التوازن الاقتصادي، خاصة بين التاجر والمستهلك؛ لكن يجب أن نشير هنا أيضا إلى أن تحديد الأسعار بالنسبة للتجار من طرف الجهاز القائم بذلك، لم يكن بالأمر الهين، نظرا لما أسلفنا ذكره، من تغيرات مناخية واضطرابات سياسية، كانت تؤثر سلبا على طبيعة المعاملات التجارية، ويتجلى ذلك بوضوح في قبائل غمارة، حيث كان أشياخ القبائل يفرضون غرامات مالية ثقيلة على الباعة في الأسواق.

أما فيما يخص أسعار المواد المصنعة، فكانت تحدد على أساس السعر العادل، الذي يعطي ثمن المواد الأولية وأجورا عادلة للصناع، لكن الأسعار كانت تتضمن زيادة أخرى نظير استغلال رأس المال والأخطار التي يحسب لها المنتج ألف حساب. كما لوحظ انه على الرغم من نهى الفقهاء والعلماء عن المعاملات الربوية، فإنها كانت متفشية في المنطقة، لعدم التزام المتعاملين بالشروط المشروعة في البيع والشراء، وأغلب الظن أن العناصر الدخيلة على المنطقة (التجار الأجانب) هي التي كانت تشجع الساكنة على هذا النمط من المعاملات، خصوصا في فترة الحماية الإسبانية. كما ساهمت السياسة الخارجية للسلطين في تعاملهم مع القوى الأجنبية، على تشجيع كل من المزارع والتاجر والصانع المغربي بصفة عامة، والمجتمع الغماري بصفة خاصة، على البحث

الدائم عن الربح السريع مهما اختلفت السبل، فقد كان بعض المحتكرين يحتفظون بالمحاصيل سنين عديدة؛ ثم يتربحون الوقت المناسب لإغراق السوق، آخذين بعين الاعتبار أن الأجانب سيأتون لشرائها عاجلا أم آجلا من طنجة أو فاس.

وخلاصة القول أن هناك عوامل داخلية وأخرى خارجية، تضافرت وأفرزت لنا هذا الوضع المزري، علما أن فقهاء ومفتي المنطقة بذلوا قصارى الجهود للتخفيف من حدته، من خلال التزامهم بالقوانين الدينية والأعراف المحلية في معالجة العديد من النوازل، ونقرأ فيما جاء في إحداها: "وفي بني سلمان الغمارية رجل باع شيئا عن نفسه وعن ابن أخيه صفقة وهو غائب والمشتري ولاه غيره، ولما حضر امتنع من إمضاء البيع وطالب بفسخه وفي ذلك ورد: الحمد لله حيث باع الشريف السيد علي لمن اشترى منه كما الجميع مذكور بالملتصق أعلاه، وكان ولد أخينا شريكا في المبيع المذكور، وغائبا أيضا وقت البيع المشار إليه، وحضر الآن، وأثبت ما هو الواجب شرعا في ذلك كما بيده، فالبيع المشار إليه فاسد شرعا، لأنه من بيع الصفقة على الغائب، وهو متوقف على إمضاء القاضي كما في نوازل شيخنا الوزاني، ونصه " وعلى أنه من بيع الصفقة فلا بد من الإمضاء على الغياب والذي يمضيه في حقهم إنما هو القاضي لا الأب" إذ معنى بيع الصفقة هو بيع الجميع، فإن كان المشتري شريكا فهو التبضيع، وإن كان أجنيا كما في نازلتنا فهو بيع الصفقة... وفيما ذكرناه كفاية، والله أعلم، وكتبه عبيد ربه خليل بن أحمد مسرة وفقه الله بمنه"¹.

وفي نازلة أخرى يتدخل الإفتاء لتصحيح المعاملات التجارية، حيث جاء في أحدها " من القلعة الزجلية² رجل اشترى زيتونة، وشهد على شرائها عدلان، وخاطب عليه القاضي الخيري، ولكي يختبر المشتري مكانة رسمه، عرضه على الخيري نفسه فقال فيه: الحمد لله، التلقيمة من الزيتون المشتراة فوقه تبقى بيد مشتريها المذكور ولا تنزع منه إلا بموجب شرعي، والله أعلم، قاله وكتبه عبد الكريم بن عبد الملك الخيري لطف الله به"³، حيث كانت معظم المعاملات التجارية في قبائل غمارية يتم توثيقها برسم عدلي، إذ نجد في أحدها: "الحمد لله دفع السيد محمد بن عبد الفضيل بن شيخ لقبه ابن يعيش ومحمد بن محمد بن شيخ لقبه المرابط للطالب سي عبد العزيز ابن سيدي محمد بن مهدي الزباني الجلالي عشرين ريبالا فضة سكة تاريخه قبضها منهما

¹ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال...، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 124-125.

² - القلعة قرية كبيرة بجانب شفشاون من جهة الشمال تشكل وحدها فرقة من فرق قبيلة بني زجل الغمارية، ولها خزين بجبل فوقها تضع فيه كل غلله ومدخراتها، وكان عليه حراس بالليل والنهار، والداعي إلى إنشائه والعدول إلى الخزن فيه عن الدور أو المحلات القريبة هو على ما يظهر أنها تقع مجاورة لبني حسان والاحماس وشفشاون وسكان هذه الجهات كانوا يهجمون عليها من مرة لأخرى وينهبون أرزاقها، فاضطرت إلى أن تبعد ما يعز عليها من محل الخطر، ثم أصبح بعد ذلك عادة لها سلطاتها في نفوس السكان (أنظر الهبطي، فتاوى تتحدى الإهمال...، الجزء الأول، ص 131).

³ - محمد الهبطي المواهي، فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من جبال...، مرجع سابق، ص 89.

بالمعاينة بخطه وتوصل بها توصلا كاملا من قبل ثمن حقه في بيعهم في اعميرة وتخربت واسعادت¹ دفعا تاما وتوصلا عاما وأبراهما من ذلك كله براءة تامة ... في أول ربيع الأول عام خامس وعشرين وثلاثمائة وألف².

2- الخصوصية الغمارية في المعاملات الاقتصادية:

كان على الإنسان الغماري ليؤدي نقودا في بضاعة ما، أن يزنها أو يضبطها على قياس معين (وزن، مسافة كمية، جودة ...) وهكذا بالنسبة للماشية، كانت تباع عن طريق ضبط مدى سمنها أو هزالها، ويحتسب فيها النوع والقامة والاستواء والصفاء، ثم الحالة من حيث الحمل والميلاد، ويدخل في ذلك عامل الظرفية والعرض والطلب، على أن الصفقات كانت تتم بعد المساومة والنقاش وحتى المزايدة، وتبنى المعاملة المادية أيضا على المعرفة والمحاسنة والمكارمة كذلك، وكان السماسرة يقومون في ذلك بدور التحكيم والتوفيق بين المتبايعين، وكانت جل البضائع الأخرى تتم بنفس الطريقة كالذواجن والحجوب وكذلك المواد المعدنية والخشبية، حيث يمكن لأي واقف أن يلعب دور الموفق الملمن للمواقف والموفق بين الناس، وكانت الخضر في حالة القرع والبطيخ تباع للواحدة أو حتى بالمجموعة، أما التبن واللحم فبالأجزاء، بعد الفحص والتقليب ومعرفة النوع، وكانت أعمال إصلاح الأواني والجلود تتم بالنقاش إلى الملاقاة والتراضي، ومع تحكيم اليد والعين والذهن في معرفة جودة الأشياء، فقد كانت تستعمل بأسواق غمارة وسائل قياس ولهجات مشتركة، تهتم كل الحياة الاقتصادية ونجملها فيما يلي:

1- تقويم الإنتاج: "إذا تحسب الزيتون فالصمايم ما يحمل به العود" إذا قمت بعد الزيتون في يوليو، فإن الموسم الفلاحي سيكون جيدا.

- "ملي كيخرج مارس، كيخلي كل عشبة براس" بعد مارس يظهر الموسم الفلاحي بنضج المحاصيل.
- "ملي كتضج الكرموس، كيهزو العيال الموس" أي عند نضج الصبار يسمح للأطفال بحمل السكين.
- "إذا خدم مارس كيغيبوا الشهور كاملين" الإشارة إلى أهمية التساقطات في شهر مارس بالنسبة للإنتاج الفلاحي.
- "إذا كان مارس شاتي وأبريل نادي، فرحو ياعبادي" إذا تساقطت الأمطار في مارس وكان أبريل جافا، فالإنتاج سيكون جيدا.

¹ - اسعادت وتخربت واعميرة مداشر تابعة لقاع أسراس إحدى فروع قبيلة بني زيات الغمارية.

² - وثيقة خاصة أمدنا بها مشكورا الأستاذ محمد بن عبد المومن التجكاني الغماري (قبيلة بني منصور).

- "إذا كان مارس يسهل وأبريل ضليل ومايو صافي صقيلا، ثلث فالصبا يحيل عند الخماس الدليل" إذا كان مارس ممطرا وأبريل جافا وظليلا وماي مشرقا، فإن ثلث المحصول يكفي حولا كاملا للخماس (أقل الفلاحين إنتاجا).
- هذه التقويمات التي كانت سائدة في قبائل غمارة كانت تفرض عليهم اقتناء معظم وسائل الإنتاج في كل معاملاتهم التجارية.

2- استعمال وحدات للقياس:

يتم قياس الحبوب باستعمال وحدة "المد"، إذ نميز بين نوعين:

- المد الشاوني: نسبة إلى الشاون ويعادل 40 كلغ.
 - المد السبتي: نسبة إلى سوق سبت واد لاو ويعادل 20 كلغ.
- إلا أننا نلاحظ اختلافا حسب القرى، وحسب نوعية المزروعات فباكلوان¹ مد من الشعير يعادل 14 كلغا، بينما مد من القمح يعادل 20 كلغا، ويتازا وسعيد²، مد من الشعير يعادل 16 كلغا.

ويقسم المد إلى عدة وحدات كالثمن (5 كلغ بالنسبة للمد الشاوني) والسني (نصف الثمن) أي ما يعادل 2.5 كلغ، أما الحمل فيعادل 50 كلغا من الحبوب (قمح أو شعير). أما وحدات توزيع الماء، فتستعمل عدة وحدات، كالربع ويعادل 4 ساعات من السقي، والثلث ساعتان والمكسر نصف ساعة، أما الصهريج فيختلف حسب الحمولة (مدشر امغوص³ يعادل ربع ساعة من السقي).

تعكس طبيعة المعاملات التجارية في قبائل غمارة واللهجات المستعملة بشكل حصري على المنطقة ثقافة المنطقة المدروسة في التعامل مع محيطها، حيث لا يرتبط فقط بالموارد الطبيعية المتواجدة، بل هو حصيلة رصيد ثقافي معقد تراكم وتطور عبر الزمان⁴.

المبحث الثالث: التحولات الاقتصادية بالمنطقة الغمارية.

1 مساهمة الاستثمار الاستعماري الإسباني في إبراز بعض التحولات بالمنطقة:

شكلت محاولات الاستثمار والتجارة الإسبانية في المنطقة جزءا من المخطط الاستعماري الشامل لتطويق المغرب، ومن الخطة الإمبريالية التي نهجتها الدول الاستعمارية من أجل استعمار الدول، وقد حاولت إسبانيا

¹ - إحدى قرى قبيلة بني زجل الغمارية.

² - إحدى قرى قبيلة بني زجل الغمارية.

³ - إحدى قرى قبيلة بني زجل الغمارية.

⁴ - Barcelles (E), "La Mont a Como Reserva", *Estudios Geográficos*, N 153, Madrid, 1978, p 446.

تكثيف عمليات الاستيطان المباشر وخلق الفرص للرأسمال الوطني (العام والخاص) لتحقيق الأرباح عن طريق الاستثمار في القطاعات المربحة، بعد فرض الحماية على المنطقة المدروسة.

إن فقدان إسبانيا للكثير من مستعمراتها في أمريكا الجنوبية، وجه ضربة قاضية للمراكز والقطاعات الاقتصادية الوطنية التي كانت تنشط اقتصاديا معها، وقد حاولت الرساميل العائدة إلى المتروبول تحقيق نوع من التراكم والاستثمار في القطاع الصناعي بالذات، لكن المنافسة القوية للرساميل الفرنسية والإنجليزية والألمانية حدت من توسع الرأسمال الوطني الذي عجز عن المنافسة بسبب سيطرة الرأسمال الأجنبي على القطاعات الحيوية والديناميكية في البلاد، وعلى رأسها الأبنك، فقد تميزت فترة (1850-1914) بغرس مجموعة كبيرة من شركات التمويل والأبنك الأجنبية التي تحكمت في كثير من القطاعات الاقتصادية وتوجيهها حسب مصالحها. وفي الوقت نفسه ظهرت مجموعة كبيرة من المؤسسات المالية الوطنية وعلى رأسها البنك المركزي الذي خرج للوجود في يناير سنة 1856م¹، وقد استفادت من التشريعات الليبرالية في مجال الاقتصاد. وظهرت مجموعة من الأبنك² خلال فترة (1856-1864م) تحت إشراف البنك المركزي، وكانت بدورها تشرف وتمول العمليات الشرائية في شمال المغرب بما فيها منطقة غمارة، حيث كانت البرجوازية الإسبانية تفضل التدخل السلمي في شمال المغرب عموما³. لكن التحولات الخطيرة التي عرفتها القضية المغربية والتطور الذي عرفته المقاومة المغربية في بلاد غمارة، فرض إعطاء الأولوية للعمل العسكري، فتراجع دور الطبقة البرجوازية لصالح الدور الذي بدأت تلعبه المؤسسة الملكية والعسكرية⁴، اللذين حاولوا وضع حد لعملية التسرب السلمي للمنطقة المدروسة التي عمرت طويلا⁵، والتي في نظره لم تستطع أن تحقق النتائج المرجوة.

ولم تعرف تلك الوضعية تغييرات جذرية إلا بعد إعلان التهدئة النهائية، باعتبار بلاد غمارة كانت محطة أساسية للمقاومة المغربية في الشمال، إذ ستعطي للرأسمال الإسباني فرصة الاستثمار الكثيف في المنطقة، لكن بإشراف وتوجيه من الدولة المستعمرة. وفي الوقت نفسه، قامت السلطات الاستعمارية باستثمار مواز في البنيات التحتية بصفة خاصة، من أجل خلق الشروط المناسبة للاستثمار الخاص، خارج المناطق المجاورة للثغور المحتلة التي كان يتم التركيز عليها فيما قبل، بسبب الظروف الأمنية والسياسية. وقامت إسبانيا بنهج سياسة استيطانية

¹ - بلغ مجموع رأسماله عند التأسيس 400 مليون ريال، وقد تأسس بعد عملية اندماج البنك الإسباني لسان فرناندو الذي أسس سنة 1829م بينك إيزابيلا الثانية الذي كان قد أسس سنة 1844.

² - منها 18 بنكا جهويا مثل بنك سانطاندير وبنك بلباو.

³ - عبد الرحيم يرادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956، الجزء الثاني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007، ص. 180.

⁴ - لعب الجنرال (Oswaldo Capaz) دورا مهما في تهدئة منطقة غمارة بعد الثورة الريفية والمساهمة في استغلال خيرات المنطقة، حيث أسس ميناء كباص (Puerto Capaz) الذي حمل اسمه وعندما حقق المغرب استقلاله ستنحول اسم البلدة إلى الجبهة الذي عرفت به في فترات سابقة.

⁵ - لم تستطع عملية التسرب السلمي (1880-1909) أن تحقق النتائج المرجوة في نظر الجيش، كما أن تدويل القضية المغربية جعل موقف الجيش أكثر راديكالية.

جديدة في المنطقة، تشجع الاستثمار الخاص الوطني الذي كان يهدف إلى إعادة بنائها الاقتصادي حسب تطور البنية الإنتاجية وتنوعها والحاجيات المحلية والتصديرية¹، وقد قدمت للاستثمار المذكور كل المساعدات المالية والتنظيمية والتقنية وغيرها، لذلك فضل الاستثمار في القطاعات التي يمكن أن تكسبه بعض الأرباح، وبالشكل الذي كان يسمح به التطور الرسالي الوطني²، وإن ركز على بعض القطاعات في منطقتنا المدروسة مثل الفلاحة والصيد والاستغلال الغابوي. وكانت السلطات الاستعمارية تعتبر الاستيطان الفلاحي من أبرز الوسائل التي تحافظ على النهضة وعلى اندماج الاقتصاد والمجتمع المحلي في البنية الاستعمارية، وكانت تعتبر المستوطن، تبعا لبعض توجيهات منظري العملية الاستعمارية الإسبانية، هو "جندي الحضارة"³، لهذه الأسباب شجع كل المندوبين الساميين عملية الاستيطان الفلاحي والاستثمار الخاص فيها، كما اجتهدت إدارة الاستيطان التي استحدثت في سنة 1927م في إيداع ترسانة من الإجراءات المالية والقانونية والإدارية التي تعطي امتيازات كثيرة للمستثمرين في القطاع الفلاحي، وحاولت تنشيط الشركات الفلاحية التي كانت تستثمر أموالها في القطاع منذ القرن التاسع، حيث هيأت الأرضية للاستثمار المذكور، من خلال إنجاز مشاريع الري الكبرى والمتوسطة في المنطقة وإدخال التقنيات الحديثة، بعد وضع المخططات التقييمية ابتداء من سنة 1941م، كما تم التفكير في وضع خطة تمويلية جديدة يشرف عليها الصندوق العام للقرض الذي أسس في 8 غشت 1942م، والذي منح قروضا متوسطة وصغرى تشجع على الاستثمار الخاص في القطاع الفلاحي. وأصبحت هذه القروض تمنح دون احتساب الفوائد ابتداء من سنة 1951. وقد تكلفت مصلحة الفلاحة ابتداء من السنة المذكورة بكل ما يتعلق بعملية الاستثمار في القطاع الفلاحي، كتجارب فلاحية ومكافحة الأمراض وتحسين نسل الماشية. وقامت سلطات الحماية في 13 ماي 1953 بتأسيس إدارة جديدة "مصلحة التنمية الفلاحية والإنتاج الزراعي والرعي" بهدف تشجيع الاستثمار في القطاع العام والخاص. كل ذلك دخل في إطار التوجهات الاستعمارية التي كانت تهدف إلى حل جميع مشاكل الاستثمار، خاصة في القطاع الفلاحي، ومن بينها الإعفاءات الجمركية على الآلات الفلاحية المستوردة وتخفيض الضرائب على مقتنيها من الإسبان والمغاربة. أما الأهداف، فقد كانت واضحة حسب ادعاء السلطات الاستعمارية، إذ كانت تلخص في تحديث ومكننة القطاع الفلاحي بالمنطقة وتصدير بعض المحاصيل إلى الخارج.

كما ساهمت التجارة في استقطاب الرأسمال الإسباني، بسبب الأرباح التي كانت تحققها، وبصفة خاصة في المرحلة الفرانكوية⁴ التي شهدت ارتفاعا كبيرا في عدد الشركات التي كانت لها سجلات تجارية خاصة بها أو

¹ - عبد الرحيم برادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956...، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 180.

² - عبد الرحيم برادة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص. 181.

³ - Enrique Arques, *EL momento de España en Marruecos*, Ediciones de la Vicesecretaria de Educación Popular, Madrid, 1943, pp. 150- 151.

⁴ - عرفت المرحلة الجمهورية ظهور مجموعة من الشركات التي تشغل بالتجارة أبرزها (Cia Canariense Marroqui de Tabacos S.A) التي كان مقرها بمدريد والتي كان لها تواجد في بلاد غمارة بحكم إنتاج هذه الأخيرة للكيف والطابا.

تلك التي رفعت من رأسمالها، فبعدها كان عددها لا يتجاوز ست شركات سنة 1913م، ارتفع العدد ليصل إلى 162 شركة سنة 1940، منها حوالي 78 شركة مجهولة الاسم، و76 شركة جماعية، بالإضافة إلى 8 شركات تضامنية. وبصفة عامة، فإن العمليات التجارية للمنطقة المدروسة عرفت سيطرة الرأسمال الإسباني، وكانت العمليات التجارية التي تتم مع المتروبول، تكاد تسيطر على النسيج التجاري للمنطقة الشمالية عامة.

وعموما، فقد بلغت القيمة الإجمالية للاستثمار الإسباني الخاص بشمال المغرب طيلة عهد الحماية ما مجموعه 2300 مليون بسيطة¹، وهو رقم ضئيل جدا بالمقارنة مع الاستثمارات الخاصة في المنطقة السلطانية²، لكن، وعلى الرغم من ذلك، فإن الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية التي تحملتها قبائل غمارة كانت كبيرة جدا، ثم إن التمويل الذاتي للحماية لم يتحقق قط³. بينما أعطى الاستثمار العام للقطاع الغابوي في المنطقة المدروسة، اهتماما خاصا منذ سنة 1937، إذ تم اعتبارها الثروة الأولى في منطقة غمارة. لقد عرقلت حروب التهدة استغلال الغابة وإن كانت قد أضرت بها المعارك التي دارت بين المقاومين المغاربة وجيش الاحتلال⁴. وبعد التهدة كانت شروط الاستغلال مثل النقل الطرقي ومعامل التجارة، إلى غير ذلك، غير متوفرة، لكن الإدارة الاستعمارية شرعت في عملية إحصاء وتحديد المناطق الغابوية وحصر أهم أنواع الأشجار، وقد وضعت السلطات الاستعمارية مخططا ممنهجا واستغلاليا للثروة الغابوية، على الرغم من ادعائها بأنها تحافظ عليها من الانقراض. كما قامت بتنظيم مزايدات بين الشركات الراغبة في استغلال الثروة الغابوية⁵.

وتحولت منطقة غمارة بشكل سريع، إلى أبرز المناطق المصدرة للأخشاب، حيث ظهرت بالمنطقة العديد من الورشات لنشر الأخشاب وعدد مهم من معامل التجارة وصناعة الأثاث⁶، ولم تعمل سلطات الحماية على تعويض الأشجار المقطوعة، على الرغم من أن العملية كانت تتم تحت إشراف إدارة المياه والغابات⁷. لقد كان

Lezcano V.M, *España y el Norte de Africa-el Protectorado en Marruecos (1912-1956)* U.N.E.D-Madrid, 1986, pp. 213-214.

كما أعطى فرانكو على سبيل المثال، حق احتكار تجارة التبغ في منطقة غمارة والريف لخوان مارتش، أنظر:

Lezcano. V.M, op.cit, p. 186.

¹ - Bouayad Settati, *La Pénétration et le Développement du Capitalisme dans le Nord du Maroc, L'impact de L'expansion Coloniale Espagnole (1859-1956)*, D.E.S. Faculté de Droit Casa, 1987, p. 72.

² - بلغت تلك الاستثمارات حسب عبد عزيز بلال بين 750 و800 مليار فرنك فرنسي أي حوالي 48 % من الاستثمارات العامة التي عرفتها المنطقة المذكورة. أنظر:

Abdel Aziz Belal, *L'investissement au Maroc (1912 -1964)*, Éditions Maghrebines, Casa, 1982, p. 36

³ - Lezcano. V.M, *España y el Norte de Africa ...*, op.cit, p. 183.

⁴ - استخدم المحتل في حرب الريف أكثر من 20 طن من المواد الكيماوية لتدمير الغابة حتى يتمكن من السيطرة على جبال الريف. عبد الرحيم برادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية... الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 191.

⁵ - Lezcano. V.M, *España y el Norte de Africa ...*, op.cit, p. 124.

⁶ - Settati (B), op.cit, p. 90.

⁷ - Fouad Zaim, *Le Maroc et son Espace Méditerranéen, Aux Origines de la Marginalité du Maroc Méditerranéen*, Thèse d'état en Sciences Économique, Faculté de Droit, Casa, Neveuembre. 1991, p. 296.

ذلك الاجتثاث والاستنزاف الاستعماري للغابة الغمارية يتم بتزكية من السلطات وإشرافها، وكان وراء الفقر النباتي والطبيعي الذي عاشته المنطقة بعد الاستقلال¹. لقد أولت السلطات الاستعمارية أهمية كبرى لتوفير شروط الاستثمار، العام والخاص، وقد سبق ذلك إعادة تنظيم الجهاز الإداري الاقتصادي ابتداء من يوليو سنة 1937. وكان المخطط الأول (1946-1951) يهدف إلى تزويد المنطقة ببنيات اقتصادية تسهل عمليات الاستثمار، خاصة في القطاع الفلاحي والغابوي والصيد البحري، فنالت حصة البنية التحتية والتجهيزية نسبة مهمة من التكلفة الإجمالية المخصصة للمخطط الخماسي الثاني (1952-1957)، وحاولت تحقيق استثمار مواز في القطاعات الاجتماعية (تعليم وصحة وسكن وغيره)، للرفع من المستوى التعليمي والثقافي والاجتماعي للسكان، وتدعيم العملية الاستثمارية بأكملها، بالحصول على مزيد من الأرباح الاستعمارية عبر العملية المزدوجة: تحسين الاستهلاك وتحسين شروط الإنتاج، لكن الضعف النسبي لإمكانات منطقة غمارة وساكنتها، وتردد البرجوازية الإسبانية في القيام بالاستثمار الواسع في المنطقة والمنافسة الأجنبية، علاوة على نشاط التهريب، كانت كلها عوامل حدت من شروط توسيع النظام الاستثماري في المنطقة.

وعموما يمكن أن نقدم صورة عن هذا الاستثمار في المنطقة الغمارية، من خلال إحصائيات 31 دجنبر 1944م، والتي وصلت حوالي 486.879,54 بسيطة²، موزعة على القطاعات التالية³:

الاستثمار في المنطقة الغمارية

قطاع الاستثمار	الكلفة ب (البسيطة)
المواصلات	13.923,00
الأعمال	21.258,21
الصحة	51.816,18
التعليم	15.053,14
الموارد المائية	98.636,63
الأسواق	10.201,90
العتاد	94.131,20
الصحة الحيوانية	181.858,27

¹ - Zaim (F), op.cit, p. 300.

² - Archivo General de la Administracion, Alcalá de Hinares, Servicio de Reproduccion de Documentos, Peticion n 574, Sección Africa, Caja/Legajo 81/2390.

³ - Archivo General de la Administracion... op. cit., Caja/Legajo 81/2390.

يتضح من خلال هذه الأرقام التي خصصتها السلطات الإسبانية لكل من الاستثمار في استغلال الثروة الحيوانية، التي تتوفر بكثرة في قبائل غمارة، إذ خصصت لها أعلى الاستثمارات في المنطقة، بالإضافة إلى الثروة المائية التي تميز المنطقة الغمارية التي احتلت المرتبة الثانية في استثمارات السلطات الإسبانية. بينما نلاحظ الاستثمار الإسباني الضعيف اتجاه التعليم والمواصلات، وهو ما يعني الخلفية الاستعمارية الاستغلالية للإسبان الذين لم تكن لهم الرغبة في الاستثمار الجيد للعنصر البشري، بقدر ما كان يهيمه استغلال الثروات التي تزخر بها المنطقة الغمارية، وهي نفس الملاحظة التي نسجلها على قطاع المواصلات حيث سجل بدوره استثمارا إسبانيا ضعيفا، وهو ما جعل المنطقة الغمارية تبقى معزولة عن باقي مناطق الشمال، باستثناء بعض الطرق القليلة.

2. التحولات الهيكلية التي مست الاقتصاد الغماري.

لم يكن الغرض من الحديث السابق عن الاستثمار الإسباني في بلاد غمارة، تضخيم تأثير الواقع الاقتصادي الاستعماري على المجتمع في المنطقة، فالاستثمار المذكور كان له طابع وشروط خاصة، تميز بها عن غيره، كما أن الحركة الاجتماعية وانفتاح بعض مراكز المنطقة الغمارية وساكنها—بواسطة الجبهة وترغة والهجرة إلى الجزائر—على مختلف التأثيرات، حتى قبل الحماية، كان لهما دور في طبيعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة فيما بعد، مع الأخذ بعين الاعتبار ما أدخله الاستعمار من تغييرات وإصلاحات على كثير من البنيات الاقتصادية والاجتماعية، ساهمت في القطع النسبي مع الماضي البعيد والقريب للمنطقة. فالبنيات المذكورة تعرضت لاختلال هيكلي غير من طبيعتها ووظائفها، بشكل يستجيب لمتطلبات الارتباط بالنظام الرأسمالي، ويتلاءم مع المخططات الاستعمارية الهادفة إلى تحويل المنطقة إلى مصدر للمواد الخام والمنتجات الفلاحية، وإلى تحويل الساكنة الغمارية إلى قوة للإنتاج رخيصة التكلفة.

وبالعودة إلى الفلسفة التي حكمت الاستثمار الإسباني في المنطقة وحددت المستفيدين منها، نجد أنه لم تحدث تراكمات تسمح ببناء اقتصاديات متوازنة ومستقلة، بل رسخت طابعها الذي يستجيب أساسا لمتطلبات المنظومة الرأسمالية العالمية التي حاولت الأنظمة الإسبانية الاندماج فيها. وما يؤكد صحة هذا الحكم ومفعوله في التحولات الاقتصادية التي شهدتها المنطقة هو أن القطاعات التي حظيت بامتيازات واستوعبت أعلى نسب الاستثمار، هي التي خدمت توسع الاقتصاد الاستعماري وزيادة عائداته وضمان استقراره، مثل تجهيزات البنية التحتية والأنشطة الموجهة للتصدير وخدمات القطاعات غير المنتجة مثل ترويج البضائع الاستهلاكية والبناء والتأمين وغيرها. وقد همش الاستثمار الإسباني الاهتمام ببعض القطاعات التي تعد روافد ضرورية لكل تنمية اقتصادية واجتماعية. فقد أهمل الاقتصاد التقليدي وفكك نسيجه الاجتماعي¹ وأهمل عملية تكوين وتأهيل

¹ - كانت الأسرة خلية إنتاجية واجتماعية، وكان اقتصاد المنطقة زراعيا بالدرجة الأولى، وكان الإنتاج لا يسد الحاجيات في قبائل غمارة، كما كان هناك اعتماد على بعض الأنشطة الأخرى مثل الصناعة التقليدية والصيد.

عنصر الإنسان الغماري، أساس كل مشروع يروم نماء المنطقة الحقيقي، كما كانت تدعي السلطات الاستعمارية في الكثير من المناسبات.

إن التشديد على الطابع الاستغلالي لحركة الاستثمار بالمنطقة، يجد تفسيره المنطقي في السيطرة الإسبانية على مجمل المشاريع، إن لم نقل احتكار أهم القطاعات المربحة، بنسب درجات متفاوتة، وتوضيح التجارة الخارجية للمنطقة مجمل خصائص الاقتصاد الاستعماري والارتباط الكبير بالمتروبول¹.

2-1- التحولات الاقتصادية في منطقة غمارة خلال فترة الحماية الإسبانية.

لقد شجعت الطبقة الرأسمالية الاستعمارية الإسبانية، رجال السياسة والعسكر، بالتدخل في شؤون المغرب، وذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر، لأنها كانت تريد أن تعوض خسارتها المالية والاقتصادية مع فقدان آخر مستعمراتها بأمريكا اللاتينية والفلبين، لقد تدخلت بشكل مباشر في شؤون المنطقة واستغلت الظروف السياسية للمغرب، حيث قامت منذ 1907م، قبل عقد الحماية، بإنجاز العديد من المشاريع الاستثمارية الهادفة إلى استغلال ثروات المنطقة، إذ استفادت الرأسمالية الإسبانية من الوضع الاقتصادي للمنطقة، حيث تمكنت من استغلال الخيرات العديدة التي تزخر بها، خصوصا على مستوى استغلال المناجم. وفي نفس الوقت نهجت السلطات الإسبانية سياسة استيطانية شجعت عبره الاستيطان الفلاحي، وظهرت شركات فلاحية استغلت الظروف الطبيعية المحلية لتطوير فلاحية تسويقية، حيث تمكنت من إحداث شركات فلاحية كبرى مثلته النموذج التي حاولت تطبيقه بالمنطقة، مثل "الشركة الفلاحية للاستيطان" التي أنشئت سنة 1916م التي استغلت كل الإمكانيات الفلاحية التي توفرها قبائل غمارة².

اجتهدت السلطات الاستعمارية الإسبانية لتجعل من مشروع الاستيطان الفلاحي عناصر أساسية للاندماج بين الإسبان المستوطنين والسكان الغمارية، وكذلك من عوامل الاندماج في البنية الاقتصادية الاجتماعية. لقد كانت هذه بعض الأفكار التي روجتها إسبانيا وبشكل متصاعد، حيث كانت السياسة التي اعتمدها وأكدت على تشجيع الرأسمال الإسباني للاستثمار في القطاع الفلاحي وبشكل متفاوت³، لتحقيق هذا الهدف أصدرت السلطات الإسبانية مجموعة من القرارات المشجعة، مثل ظهير 25 نونبر 1926م، الذي أقر إحداث "صندوق القرض الفلاحي" والذي شجع الاستثمار في القطاع الفلاحي بالنسبة للمعمرين الإسبان، حيث شكل توسيع الملكية الإنتاجية هاجسا كبيرا لدى السلطات الاستعمارية، ذلك أنها كانت دائما تقدم على نزع ملكية الأراضي

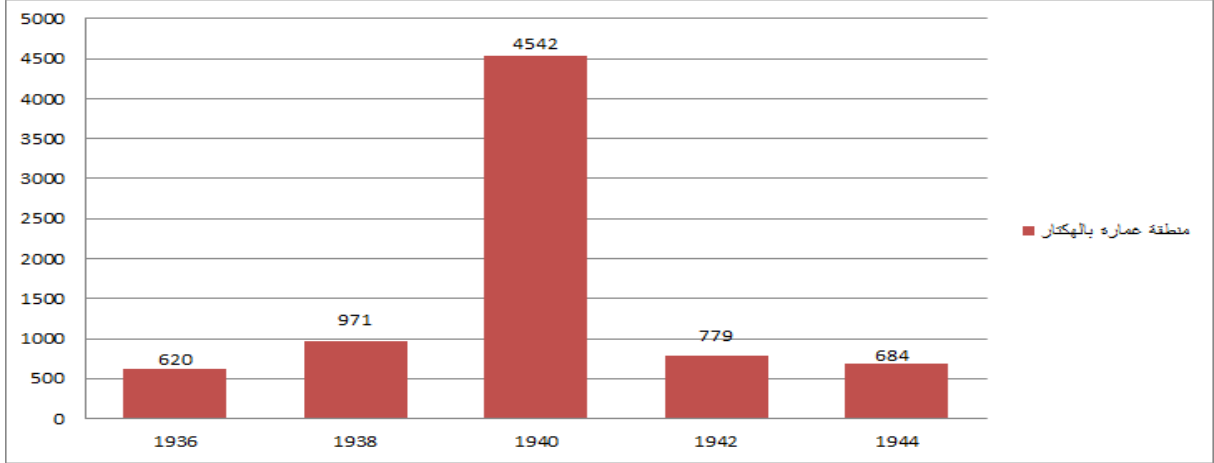
¹ - عبد الرحيم برادة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية... الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 196.

² - Lezcano V.M, *España y el Norte de Africa* ..., op. cit, p. 124.

³ - تبين كثير من الدراسات أن إسبانيا كانت تبحث منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن مناطق جغرافية جديدة لتطبيق مجموعة من الأفكار الميدانية التي كانت تنادي عبرها السلطات الإسبانية للاستثمار في قطاعات منتجة، مثل القطاع الفلاحي، حيث رأت في سياسة الاستيطان نموذجا واضحا لهذه الاستراتيجية.

وتفويتها إلى الملاكين الإسبان، وهذا ما يتضح من خلال ظهور 2 يوليوز من سنة 1935م الذي جاء ليحدد الأهالي من أراضيهم تحت غطاء توسيع دائرة أملاك المخزن.

توسع الأراضي الفلاحية في منطقة غمارة¹ بعد ظهور 1935م



يتضح من خلال هذا المبيان أن وتيرة ما أطلق عليه إدارة الحماية استصلاح الأراضي الفلاحية، ما هو في الحقيقة إلا نتيجة لتجريد الأهالي من أراضيهم، حيث إن ظهور 1935 الذي حدد بصفة نهائية انتزاع الملكية من أصحابها، بعد أن أصدرت الإدارة الاستعمارية قوانين تعجيزية حول ثبوت ملكية الأراضي لأصحابها. وكانت الإجراءات التي اتخذتها إدارة الحماية الإسبانية حسب زعمها، لاستغلال مقنع للأراضي الفلاحية، وهي إجراءات كان الهدف منها دائما هو استخلاص الأراضي من ملاكها الأصليين وتفويتها لرؤوس الأموال الإسبان لا غير، فبادرت الحماية الإسبانية² إلى:

- إعادة تنظيم أراضي المخزن وإحصاؤها من جديد.
- منح أراضي فلاحية لرجال الدولة الإسبان.
- إقامة بنك فلاحي يقوم بتمويل القطاعات المرتبطة بالفلاحة.
- اقتطاع مزارع تخصص للتجارب الفلاحية.

وقد كانت كل هذه الإجراءات ترمي بالأساس، إلى تقوية الرأسمال الإسباني، خصوصا وأن جل الفلاحين الغماريين كانوا بعيدين عن هذه الأشكال في استغلال أراضيهم الفلاحية³، هذا بالإضافة إلى سيادة الزراعات

1 - اعتمدنا في رسم هذا المبيان على:

La Accion Espanola en Marruecos, Madrid, 1948..., op. cit, p.147.

² - Alta Comissaria de España Marruecos, Accion de Espana en Marruecos, la Obra Materiel, Tetuan, 1948, p. 191.

³ - في عرضه: " أهمية الأرشيف الإسباني خلال فترة الحماية في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية الحالية" ضمن أعمال ندوة: -تطوان في الوثائق الإسبانية على عهد الحماية- تطوان، 1998. يشير الأستاذ أحمد الشعرة: " إن أهم سمة تتميز بها الغرسة بمنطقة النفوذ الإسباني من

المعيشية التقليدية، المتمثلة في هيمنة زراعة الحبوب، مما ينتج عن ذلك ضعف الإنتاج والمردودية بهذه القبائل، وقد كان كل إجراء قانوني تقوم به إسبانيا، يهدف إلى الزيادة في استغلال المعمرين الإسبان للأراضي الفلاحية، وذلك إما عن طريق التفويت المباشر من طرف سلطات الحماية، أو عن طريق كراء الأراضي المخزنية.

كما عمدت سلطات الحماية الإسبانية إلى الاستغلال البشع للثروة الغابوية بقبائل غمارة، فقد كانت تقوم بقطع أشجار الغابات المنتشرة بهذه المنطقة وخاصة قبيلة بني خالد المعروفة بجودة أشجارها وكثافتها، فكانت تصدر من هذه القبائل أرقام كبيرة، تدل على مدى الاستهتار بالموارد الأساسية ولا تنظر إلا لمصالح رؤوس أموالها، كما أن السلطات الاستعمارية قامت بتفويت استغلال بعض الغابات لفائدة بعض القواد المحليين الموالين لها¹.

أما في مجال الصيد البحري، فقد استطاعت المؤسسة الاستعمارية الإسبانية أن تنهج سياسة استغلال أنشطة الصيد البحري لفائدة المستعمر، وقد اجتهدت لتجعل من موانئ الصيد الساحلي الغماري ذات أهمية استراتيجية، ولكن لم تتمكن من إنشاء مؤسسات صناعية تندمج مع أنشطة الصيد البحري، ما عدا مؤسسة CAL التي كانت تستفيد من اصطياد سمك التون من طرف المزارب الأطلسية²، وكانت تصدرها إلى الخارج بعد تحويلها إلى مواد استهلاكية³.

أما البنية الصناعية فقد كانت ضعيفة، إذ استطاعت الرأسمالية الصناعية الإسبانية أن تقيم مؤسسات صناعية، ارتبطت بالمجالات الحضرية أو شبه الحضرية، حيث استثمرت في إقامة مجموعة من المؤسسات الصناعية بحاضرة قبائل غمارة شفشاون أو حتى بميناء الجبهة، وما يؤكد ضعف الإنتاج الصناعي في غمارة المثال التالي:

- جهة جباله تنتج % 53 من الإنتاج الصناعي.

- جهة لوكس تنتج % 23 من الإنتاج الصناعي.

خلال إحصائيات الأرشيف الإسباني هي عدم احترام البنية الزراعية السائدة بمجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط والتي تعتمد أساسا على ثلاثة أصناف رئيسية هي: القمح والزيتون والكرام، فإن كان القمح والكرام حاضرين في البنية الزراعية بالمناطق الشمالية خلال فترة الحماية فإن شجرة الزيتون كانت شبه غائبة خلال هذه الفترة، والاستثناء الوحيد هو سهل نكور الذي أحصيت به 3032، ص. 63.

¹ - يشير تقرير عسكري بقيادة باب تازة بأن سلطات الحماية كانت قد اقتطعت لفائدة قائد قبيلة بني يحمود وغزاوة حق استغلال غابات تيسوكة وغابات قبيلة بني خالد. رسالة بتاريخ 1930/09/27.

Archivo General de la Administracion, Alcalá de Hinares, Sección Africa, Legajo 9310, Exp. 46.

² - الاصطياد بالمزارب وهي تقنية جديدة استحدثت مع الإسبان وتأسست لهذا الغرض شركات إسبانية نشطت في اصطياد سمك التون بالمناطق الأطلسية كمؤسسة CAL.

³ - أكد الباحث المغربي عبد الرحيم برادة في كتابه إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية، الجزء الثاني، " لقد كان بإمكان سلطات الحماية استغلال الساحل المتوسطي والأطلسي الذي تشرف عليه المنطقة في تحديث أساليب الصيد الذي كانت تمارسه كثير من قبائل المنطقة، خاصة على الساحل المتوسطي، وخلق صناعات مرتبطة بالصيد البحري، يستفيد منها المغاربة بالخصوص " برادة، الجزء الثاني، ص 113.

- جهة الريف تنتج % 12.4 من الإنتاج الصناعي.
- جهة الكرت تنتج % 11 من الإنتاج الصناعي.
- جهة غمارة تنتج % 0.6 من الإنتاج الصناعي¹.

بينت مجموعة من الدراسات الأهمية الاقتصادية للمنطقة المدروسة بالنسبة للمستعمر الإسباني، على مستوى الاستغلال الفلاحي أو الغابوي، ولهذا ركزت إسبانيا جهودها العسكرية ليعم الأمن والتهدة في أقرب وقت ممكن، حتى تتمكن من استغلال البنية الاقتصادية المحلية ابتداء من سنة 1927م "سنة التهدة" إلى سنة 1931م، حيث ركزت السلطات الاستعمارية على الاستيطان والحفاظ على الأمن، وهما في نظرها وجهان متكاملان لسياسة الاحتواء الثقافي والفكري والاندماج التي شرعت في تطبيقها في المنطقة²، لتباشر بعد ذلك سياسة الاستغلال الاقتصادي المعدني والاستيطان الفلاحي والاستغلال الغابوي.

مع صعود القائد العسكري فرانسيسكو فرانكو إلى الحكم سنة 1939م، شرع في تطبيق إيديولوجيا استعمارية جديدة، حيث روجت للأفكار الفرانكووية ذات البعد الدعائي الفاشستي³. لقد كان انتصار فرانكو في الحرب الأهلية 1936-1939 هو بشكل عام انتصار للتيار الأفريكاني الذي كان يهدف إلى جعل المغرب بلد الاستيطان الإسباني والتوسع الاستعماري⁴، حيث حاول فرانكو أن يجعل من مشروعه بشمال المغرب، يعتمد على نظريات التدخل المباشر من خلال إنجاز دراسات ميدانية ستساعده في السيطرة المباشرة على جغرافية المنطقة والإنسان⁵، وفي نفس الوقت تساعده على إحداث ما يسمى "بالمخططات الترابية للمنطقة الشمالية" تهم قطاعات عديدة، وكان للقواد وللمراقبين دور أساسي في اقتراح مشاريع اقتصادية بالمنطقة المدروسة، والتي كانت تتوزع بين الأنشطة الفلاحية واستغلال المعادن إلى أنشطة الصيد البحري التقليدي التي ازدهرت بالساحل الغماري⁶.

¹ - Miége (J.L), "Le Maroc Espagnol", *Revue L'information Géographique*, 19 Année, N 5, 1955, p. 188.

² - عبد الرحيم بريدة، إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956م...، م. س، ص. 212.

³ - علي بولريح، السياسة الترابية للسلطات الاستعمارية الإسبانية بشمال المغرب 1912-1956، مطبعة الهداية بتطوان، 2015م، ص. 72.

⁴ - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، م. س، ص. 133.

⁵ - نموذج في ذلك الدراسة التالية: " Accion De España en Marruecos " والتي تعتبر مخططا استراتيجيا لتنمية المنطقة الشمالية في نظر الإسبان.

⁶ - أكدت السلطات الاستعمارية الإسبانية في البداية أن استغلال خيرات باطن الأرض من طرف الرأسمال الإسباني مسألة رئيسية للاستفادة من مرحلة استعمار شمال المغرب عامة، خصوصا بعد فقدان مستعمرات أمريكا اللاتينية. كتب أندري مكيل الفكرة التالية: " من البعد والحدة والامتداد ما جعل كونت رومانونيس هو أحد الذين استثمروا كثيرا من المال في مناجم المغرب والذي ينفي بإصرار أن تكون الأعمال العسكرية تتم لحماية مصالحه الشخصية، كما يعترف بأنه وقع تصديق هذه الإشاعة إلى حد أن فلاحا مزارعه الضخمة في كوادا لخرا يعتقدون أن الجنود يموتون من أجل حماية أملاك الكونت".

أما فيما يخص التحول الذي شمل شبكة المواصلات، فقد اعتمدت السياسة الاستعمارية على شبكة الطرق البرية، وذلك بعد سنة 1927م، حيث تم إنجازها وفق رؤية إيدولوجية استعمارية كلاسيكية، والتي ارتبطت بالعمل العسكري التي كانت تقوم به المؤسسة العسكرية الإسبانية، وبشكل كبير بمناطق الصراع (كمناطقنا المدروسة) وبالمناطق الجغرافية التي كانت تسيطر عليها المؤسسة العسكرية الإسبانية، بل جعلت منها وسيلة أساسية للتحكم في المجال الجغرافي وعلى ساكنة القبائل الغمارية، وقد تأثر إنجاز مشروع طرق المواصلات والمسالك العسكرية PISTAS بالوضع العام، وبالتغيرات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية التي كانت عليها إسبانيا ومنطقتنا المدروسة التي كانت آخر قلاع المقاومة المسلحة في الشمال. ابتداء مشروع بناء الطرق سنة 1928م مع المخطط العام للأشغال العمومية OBRAS PUBLICAS، والذي أكد على أهمية الربط الأفقي للمنطقة، وذلك ما بين الجهة الغربية والشرقية مروراً بالقبائل الغمارية¹. وإن كانت النفقات العمومية (56.935,50 بسيطة سنة 1944 م) بالمنطقة المدروسة أقل من الأعمال غير المنجزة (486.879,53 بسيطة سنة 1944م²) كنموذج على سوء تسيير الميزانية العمومية لقبائل غمارة، التي كانت غالباً ما تخدم مصالح المعمرين.

عموماً فقد تجلّى أبرز تحول اقتصادي في منطقتنا، من خلال اهتمام السلطات الإسبانية باستغلال الموارد الاقتصادية المحلية بشكل فطيع؛ حيث كان الاستغلال الفلاحي ينبثق من إيدولوجية ارتبطت كثيراً بالاستيطان الفلاحي بالمناطق السهلية، التي تمتاز بتربة سوداء وخصبة، حيث جهزتها بمشاريع السقي الفلاحي بكل من سهول الجبهة وسطيحة وقاع أسراس. وستؤثر هذه الوضعية على الفلاح الغماري البسيط وعلى الوضع الاجتماعي بالمنطقة، حيث ستضطر عائلات كثيرة من قبائل غمارة التي فقدت أراضيها أو لظروف طبيعية (الجفاف) من الهجرة نحو مدن تطوان وطنجة أو شفشاون. أما النشاط المعدني فكان موجهاً وبشكل كبير نحو الخارج، حيث ركزت الاستراتيجية الإسبانية على استنزاف الخيرات الطبيعية للمنطقة وتصديرها للأسواق الخارجية كمادة خام.

لم يكن النسيج الاقتصادي هو المتضرر الوحيد من التغلغل الاستعماري في المنطقة، بل عرفت البنية المجتمعية بدورها تغيرات عميقة في توازناتها ومكوناتها. فقد أفرز مسلسل إدماج اقتصاد المنطقة بالمنظومة الرأسمالية مظاهر اجتماعية عميقة، تراوحت بين التفجير المتزايد لقطاعات عريضة من ساكنة غمارة، وتحويل جزء مهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى إلى يد عاملة مسخرة لخدمة المصالح الاستعمارية. ويمكن أن نستدل على هذا التأثير بالدخل الفردي للقبائل الغمارية الذي شهد تراجعاً ملحوظاً في سنوات الحماية الإسبانية على المنطقة المدروسة، إذ وصل متوسط الدخل الفردي لمدة أربع سنوات 3,34 بسيطة للفرد، وهو رقم ضعيف يعكس

¹ - نفهم من خلال هذا العنصر أن السلطات الاستعمارية كانت تركز اهتمامها منذ بداية عقد الحماية إلى سنوات التهدة سنة 1928م على النقل البحري، حيث كانت تقوم الثغور المستعمرة دوراً حاسماً في تنمية المنافذ البحرية بمنطقة النفوذ.

² - Archivo General de la Administracion, Alcalá de Hinares, Servicio de Reproduccion de Documentos, Petición n 574, Sección Africa, Caja/Legajo 81/2390.

الضرر الذي لحق بالبنية الاقتصادية والاجتماعية لقبائل غمارة، التي كانت الأضعف ضمن مناطق الشمال كما يوضح الجدول التالي:

تطور نصيب الدخل الفردي في مختلف مناطق الشمال¹

مناطق الشمال	عدد السكان بالنسمة	سنة 1942 بالبسيطة	سنة 1943 بالبسيطة	سنة 1944 بالبسيطة	سنة 1945 بالبسيطة	المتوسط لمدة أربع سنوات
غمارة	112.454	1,73	4,61	3,38	3,67	3,34
جباله	133.172	2,62	3,03	3,20	2,97	2,95
الريف	142.744	4,30	3,65	6,58	5,20	4,92
الكرت	309.857	3,93	3,03	4,35	4,83	4,03
اللکوس	128.209	2,50	2,41	4,43	4,43	3,55

من جهة أخرى، أثرت المجاعات التي شهدتها المنطقة خلال الحرب الأهلية والحرب العالمية الثانية على البنية الديمغرافية وعلى حركة الهجرة داخل المنطقة وخارجها، كما تكاثرت بسبب الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية، أحداث السرقة والقتل وتضاعفت الأثمان وباع الفقراء أراضيهم وممتلكاتهم من أجل العيش أو الهجرة، مما ساهم في إغناء بعض الفئات المحظوظة التي تركزت الثروات في أيديها على الرغم من إصدار السلطات قرارا بعدم بيع الأراضي².

لقد كان الصراع من أجل النفوذ والسلطة في قبائل غمارة نتيجة منطقية للتطورات التاريخية وللمحاولات الاستعمارية، للتسرب إلى المنطقة التي حاولت، حتى قبل الحماية، اصطناع بعض العملاء من مختلف الفئات الاجتماعية³ بواسطة الامتيازات والرشاوى وغيرها⁴. كما أن الثنائية الإدارية، المغربية والإسبانية، أعطت فرصة للسيطرة على كثير من الموارد الاقتصادية، وبصفة خاصة الأراضي الزراعية. ورغم أن المنطقة الغمارية تشكل،

¹ - Archivo General de la Administracion, Alcalá de Hinares, Servicio de Reproduccion de Documentos, Peticion n 574, Sección Africa, Caja/Legajo 81/2390.

² - منع ظهير 19 صفر 1365/23 يناير 1946 بيع الأراضي في قبائل غمارة بسبب القحط في المغرب، وأجر ظهير 11 فبراير 1946 الشركات المهولة الاسم في المنطقة على تشغيل ربع الشغيلة من المغاربة.

Ramon Salas Larrazabal, *EL Protectorado de España en Marruecos 1912 - 1956*, Editorial Mapfresa, Madrid, 1992, p. 263.

³ - وصفها جرمان عياش بالأوليغارشية الصغيرة. أنظر جرمان عياش، "المجتمع الريفي والسلطة المركزية 1850-1920"، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمساني خلوق، ضمن كتاب دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للناشرين المتحدنين، الطبعة الأولى، 1986، ص. 218.

⁴ - كانت حروب المقاومة المغربية 1909-1927 سببا في تنقل بعض أفراد قبائل غمارة واضطراب بنيتها التقليدية.

بنسبة كبيرة من الأراضي الجبلية، إلا أن وضع السلطات الاستعمارية يدها على الأراضي السهلية والغابات المحيطة أو المجاورة منع غالبية السكان الجبلين عامة من موارد إضافية¹.

لهذا السبب، كانت المناطق الغمارية الجبلية والقليلة الموارد قد تأثرت بشكل أكثر بعمليات الاستيطان الفلاحي، وعرفت تحولات اقتصادية خطيرة أضرت بالنسيج القبلي ونسفت الروابط التي كانت بين الفرد والجماعة، واضطرت نسب كبيرة من السكان إلى الهجرة الدائمة والنزوح إلى المراكز الاستيطانية وإلى المدن وكذا الهجرة الموسمية نحو وهران²، وبالتالي يمكننا القول أن إمكانية بروز الرأسمال المحلي لم يكن وارداً، نظراً لطبيعة المجتمع الغماري الذي كان مجتمعاً فلاحياً أكثر منه تجارياً، وهو ما حال دون تكون هذه الفئة في المنطقة المدروسة.

2-2 آليات تموين القبائل الغمارية في فترة الحماية الإسبانية.

إن عمليات تموين المنطقة وجلب حاجاتها من المواد والسلع، كانت مصحوبة بإجراءات أخرى اتخذتها سلطات الحماية، لتنظيم عملية توزيع تلك المواد عبر مختلف قبائل غمارية والمحافظة على استقرار أسعارها، ومحاربة احتكارها أو التلاعب بالمتاجرة فيها، وذلك حتى تصبح في متناول السكان دون أن يشعروا بظروف الاحتلال وتأثيرها على تموينهم، وتجنب المشاكل التي اعترضتهم في بداية الحرب الأهلية الإسبانية التي حالت دون حصولهم عليها، لندرتها وانعدامها في الأسواق، كما هو الشأن بالنسبة لمادتي الدقيق والسكر³.

وأول تلك الإجراءات وأهمها، إحداث المكتب المركزي للمواد الأساسية (*la Oficina Central de Subsistencias*) في نهاية شهر يوليوز 1936م⁴، إلى جانب مكاتب جهوية تابعة له، وكان دورها خلال الظروف الصعبة التي أعقبت الحرب الأهلية⁵ هو التحكم في المواد القليلة وضبطها من خلال إحصاء السلع والمواد المتوفرة، وضمان توزيعها في مختلف جهات المنطقة، ومراقبة كل العمليات التجارية التي يقوم بها التجار الذين أجبروا على تسليمها كل يوم لائحة بالمواد الأساسية المتوفرة لديهم، وكمياتها، ومختلف العمليات التجارية التي أنجزوها⁶. وكانت تقوم كذلك بحملات تفتيش للتأكد من تلك المعطيات، وتخبر إدارة الشؤون الأهلية

¹ - Aziza (M), "L'histoire d'une Migration, Les Rifains en Algérie 1856-1956", *Revue D'histoire Maghrébine*, N 91-92. Mai 1998.

² - حسب الباحث ميمون ازيزا، فإن هذه الهجرة ساهمت بدورها في التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة، خاصة وأنها انطلقت مع سنة 1852.

Aziza (M), op. cit., pp. 277-278.

³ - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، م. س، ص. 626.

⁴ - Archivo General del Protectorado de España en Marruecos Bibliotrca Gegeral de Tetuan, Oficina Central de Subsistencias, A.C.E.M. EXP, 467, Carpeta 1/1830.

⁵ - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، مرجع سابق، ص. 627.

⁶ - ADCP, Gomara, Caja 2, A/7-A/11, Carpeta A/10.

بوضعية المناطق، حسب درجة خصائصها أو كفايتها من المواد الأساسية، حتى يتسنى لها التدخل لمعالجة مشاكل تمويلها.

وكانت هذه المكاتب مكلفة بتحديد أسعار السلع الأساسية، حيث تعلن عنها في الصحف، وتجبر التجار وأصحاب الدكاكين على وضع لائحة أثمانها على مرأى من الزبناء، كما تخبر بأي تغيير يطرأ عليها. وكل من خالف تعليماتها والإجراءات التي كانت تتخذها، يعاقب بمصادرة سلعه، ويعرض نفسه للمثول أمام المحكمة العسكرية بتهمة التحريض على التمرد¹. وقد أحدث داخل المكتب المركزي للمواد الأساسية لجنة منظمة لعمليات التصدير والاستيراد (Junta Reguladora de Exportacion y Importacion) بهدف التنسيق معها لضبط حاجات المنطقة من المواد الأساسية التي يجب استيرادها².

ونظرا لاستمرار ظروف الحرب، وتزايد وتعقد المشاكل والقضايا الاقتصادية والتجارية والمالية للمنطقة، وعجز تلك الأجهزة على مواجهتها بالكفاءة والفعالية المطلوبتين، قررت سلطات الحماية إحداث مؤسسة اقتصادية مكتبها من صلاحيات كبيرة، لتغلب على تلك المشاكل، ومراقبة وضبط السياسة الاقتصادية بالمنطقة وتوجيهها. هكذا أُلغي المكتب المركزي للمواد الأساسية، وأحدثت اللجنة الاقتصادية المركزية (Comisión Económica Central) تحت رئاسة الكاتب العام للمفوضية الكولونيل يوستي (Antonio yuste) وعضوية نائب الأمور الوطنية، وباشا مدينة تطوان نائبا عن الصدر الأعظم، والمراقبين الجهويين الخمسة (بما فيه مراقب منطقة غمارة) وممثل عن مصلحة التموين بالجيش، بالإضافة إلى ممثلين عن جميع المصالح الاقتصادية بالإدارة الاستعمارية، خصوصا المالية والجمارك والصحة³. وقد بدأت عملها رسميا يوم 1 يوليوز 1937م، وحدد مهامها في الإشراف على الميادين التالية:

نظام المقايضة بالسلع؛ التموين؛ الضرائب؛ الأسعار؛ منع العملات الأجنبية؛ الصناعة.

ولمساعدها على أداء هذه المهام، ومراقبة الحياة الاقتصادية بالمنطقة، أحدثت لجان جهوية ومحلية تابعة لها، تتمتع بأغلب اختصاصاتها ومسؤولياتها، وتقدم تقارير منتظمة حول الأنشطة الاقتصادية والاقتراحات، لمواجهة المشاكل والصعوبات التي تواجهها.

هكذا صارت هذه اللجنة المركزية هي المسؤولة عن تموين قبائل غمارة بالمواد الضرورية، ومراقبة وتحديد أسعارها، والإشراف على كل العمليات التجارية المرتبطة بالاستيراد والتصدير، حيث كانت تمنح الرخص للتجار والمؤسسات والشركات، للقيام بتلك العمليات، والحصول على العملات الأجنبية الضرورية لإنجازها، كما كانت تمنح رخص إقامة المشاريع الفلاحية بالمنطقة واستغلال مواردها الطبيعية وفق شروط محددة. على أن الدور

¹ - *Heraldo de Marruecos*, 27 Julio 1936.

² - *Gaceta de Africa*, 2 Abril 1937.

³ - *Gaceta de Africa*, 1 Julio 1937.

الأساس الذي كان لهذه اللجنة خلال فترة الحماية بالمنطقة هو تنظيمها لعملية التموين، وضبط الأسعار، والحرص على ضمان حركة الأسواق والمعاملات التجارية، وتوفير أهم المواد والسلع التي كانت الساكنة الغمارية في أمس الحاجة إليها. واعتمدت لذلك آليات دقيقة للتدخل والتوجيه، أهمها إحداث مراكز منظمة (Puestos Reguladores) بالأسواق، للتحكم في حركة الأسعار والحيلولة دون غلاء المواد الأساسية¹.

وتقوم هذه الآلية على السماح لبعض التجار الذين يحضون بثقة اللجان الاقتصادية الجهوية أو المحلية، بفتح بعض المراكز بالأسواق واحتكار شراء بعض السلع المعنية بها، ويقومون بعد ذلك، بالتحكم في تدفق تلك السلع حسب الحركة التجارية للأسواق الغمارية، حتى لا تقل ويرتفع ثمنها. وهذه العملية همت بالخصوص مواد الشاي، والفحم الخشبي، والبيض، وبعض أنواع الحبوب.

وبالرغم من بعض المشاكل التي اعترضت عملية التموين، خصوصا صعوبة تزويد بعض المداشر الغمارية النائية، وعدم توفر بعض المواد أحيانا بالكميات المطلوبة، كالسكر والطحين، نظرا لقلّة وسائل الشحن والنقل بالمنطقة المدروسة. وأصبحت المواد الأساسية لعيش السكان متوفرة، يسهل الحصول عليها أكثر مما كان عليه الحال في إسبانيا، حيث فرض فيها فرانكو على الإسبان التموين بواسطة البطائق منذ بداية 1938.² وهذا ما جعل الصدر الأعظم أحمد الغنيمة يجيب أمين الريحاني الذي استغرب ذلك قائلا: "... إن الفضل في ذلك ... للحكومة الإسبانية الوطنية ولجنودنا الذين حاربوا مع الجنرال فرانكو ... فكل حاجتنا الأولية الدقيق والسكر والأرز والبن هي أوفر عندنا وأبخس ثمننا مما هي في إسبانيا ... كان الجنرال فرانكو يعطينا هذه الأرزاق بأسعارها الأصلية، دون أن يضيف إليها شيئا من نفقات الشحن والنقل أو الرسوم الجمركية"³. وعقب الريحاني على هذا الكلام قائلا: "... وقد حقق خبري ما قاله عن وفرة الأرزاق وجودتها، فالخبز في نزل الجزيرة (الخضراء) أسمر وخشن، وفي شمال المغرب أبيض نقي..."⁴

¹ - Archivo General del Protectorado de España en Marruecos Bibliotca General de tetuan, Normas Relativas a la Instalación de Puestos Reguladores para la Venta de Artículos, Comité Económico Central, Secreteria General de a.c. 1938, Exp. 466, Carpeta 5/1830.

² - بوبكر بوهادي، المغرب والحرب الأهلية الإسبانية...، مرجع سابق، ص. 629.

³ - أمين الريحاني، المغرب الأقصى، رحلة في منطقة الحماية الإسبانية، دار المعارف، مصر 1952، ص. 257.

⁴ - أمين الريحاني، مصدر سابق، ص. 257.

❖ استنتاجات عامة للباب الثالث:

- إن تخلف وبدائية وسائل الإنتاج، وانعدام الأمن، وبدائية الطرق، وانعدام المؤسسات المالية والمصرفية في غمارة خلال فترة الدراسة، ساهم مع عوامل أخرى في تكريس حالة التخلف والجمود الاقتصادي والاجتماعي التي شهدتها المنطقة، كما وقفت عائقا أمام نمو واتساع الحركة التجارية، حيث حالت دون نشوء فئة تجارية مؤثرة، عدا الذين ارتبطوا بالسلطة السياسية، وعملوا على احتكار التجارة الداخلية والخارجية، كما انعكس هذا التخلف على صادرات المنطقة التي اتسمت بالضعف، وكانت عبارة عن صادرات زراعية وحيوانية. وهذا كله أدى إلى بقاء غمارة متخلفة عن استثمار إمكانياتها الاقتصادية الغنية.

- إن الملكية في غمارة بكافة أشكالها، ساهمت في تحديد مكانة الأفراد في المجتمع، مما ساهم في بروز الترتيب الفئوي بين المجتمع، ذلك أن مكانة الفرد في المجتمع كانت تتحدد بما يملكه من أراضي زراعية.

- بقيت منطقة غمارة منعزلة عن باقي مناطق الشمال، رغم التدخل الإسباني خلال النصف الأول من القرن 20م، بحكم تأخر المقاومة المسلحة فيها، وهو ما جعل الاستثمارات الإسبانية تتجه نحو استنزاف خيرات المنطقة، دون التفكير في تأسيس قاعدة اقتصادية تستفيد منها المنطقة على المدى البعيد.

- من خلال المقارنة بين النصف الثاني من القرن 19م والنصف الأول من القرن 19م نستنتج أن المنطقة المدروسة شهدت تحولات اقتصادية مهمة، سواء من حيث الشكل أو من حيث البنية، هاته التحولات مست في الصميم البنيات التقليدية المادية والفكرية للمجتمع وغيرت الكثير من ملامحه.

- إن النمط التجاري بالمنطقة كانت له خاصية توفير متطلبات السوق (الاكتفاء الذاتي) حيث يمكن اعتبار المجتمع الغماري مجتمعا وجوديا وليس مهنيا، بمعنى أن الناس كانوا يعيشون الأنشطة الاقتصادية ولا يقومون بها.

- كانت الضرائب سواء الزراعية أو الحيوانية، أو ضرائب السلع التجارية، المصدر الرئيس الذي يرفد خزينة الدولة بالأموال النقدية والعينية، ولذا شددت السلطة في تحصيلها من الفلاحين، مستخدمة في ذلك طرقا عدة لتقديرها وجبايتها، مما ألحق أضرارا قاسية بالفلاحين في غمارة، أجبر بعضهم نتيجة هذه السياسة الضريبية، على الهجرة.

- انتشار الصناعات التقليدية (الحرفية) في غمارة، القائمة على تلبية الحاجات المحلية، والمعتمدة على الموارد المحلية أيضا، وتمثلت في صناعة المنسوجات، والصناعات الفخارية، والصناعات الجلدية، أما الصناعات الحديثة فكانت نادرة.

- محاولة المجتمع الغماري توفير المنتوجات الضرورية التي تخول له البقاء والاستمرار، خصوصا وأن التحولات العامة أرغمته على الخروج من عزلته والاحتكاك بباقي المناطق المغربية، فساهمت كل فئاته في الدفع بوتيرة مختلف الأنشطة الاقتصادية.

- استغلال الأسرة الجبلية في غمارة، لكي تضمن قوتها، بقعا أرضية صغيرة ومشتتة، فكانت تحصل منها على نصف ما تحتاج إليه من الحبوب أو أقل من ذلك، وكانت كثيرا ما تجمع بين الاستغلال المباشر للأرض وبين المزارعة إشراكا أو مشاركة، وكانت تملك بعض الأشجار المختلطة، ولم تكن تستهلك كل إنتاجها، بالرغم من حاجتها إليه، بل كانت تسوق جزءا منه. وكان استكمال حاجة الغذاء يتم بتربية الدجاج والأرانب، وبالصيد وكذا بامتلاك خلايا النحل والتقاط ثمار أشجار الغابات.

- خلال النصف الثاني من القرن 19م لم يقع أي تطور في التقنيات الزراعية، في حين كان المتحكم في الاقتصاد الزراعي هو العامل البشري وكيفية تنظيمه، بينما شهد النصف الأول من القرن 20م تطورا في التقنيات وفي المردود، نظرا للطابع الاستغلالي الذي ميز فترة وجود الحماية الإسبانية.

- بعد دخول الاستعمار الإسباني للمنطقة المدروسة، ستوجه معظم إمكاناتها الاقتصادية نحو المراسي، قصد تصديره إلى الخارج، الأمر الذي أدى إلى ندرة الحبوب في أسواق غمارة من جهة، وإلى غلاء أثمانها من جهة أخرى، في وقت انخفضت فيه قيمة المواد الجبلية وهي الصوف والجلد والزيت بدل أن تزيد، لتعوض الزيادة في أثمان الحبوب.

- إن نزوح الغماريين لم يكن اتجاه القبائل المجاورة بحكم العداء التاريخي (الاحماس/غمارة)، بل غالبا ما كان باتجاه الحواضر كالشاون وتطوان وطنجة وفاس.

- إن تخلف وبدائية وسائل الاتصال، وانعدام الأمن، وبدائية الطرق، وانعدام الإرادة الإسبانية في الاستثمار الحقيقي في غمارة خلال فترة الدراسة، ساهم إلى جانب عوامل أخرى، في تكريس حالة التخلف والجمود الاقتصادي والاجتماعي التي شهدتها المنطقة، كما وقف عائقا أمام نمو واتساع الحركة التجارية، حيث حال دون نشوء فئة تجارية مؤثرة، عدا الذين ارتبطوا بالسلطة السياسية، وعملوا على احتكار التجارة داخل وخارج غمارة. وقد انعكس هذا التخلف على صادرات المنطقة التي تميزت بالضعف، وكانت عبارة عن صادرات زراعية وحيوانية. وهذا كله، جعل منطقة غمارة متخلفة عن استثمار إمكاناتها الاقتصادية الغنية.